د. عبد الرحمن بدوي

سيرة حياتي

1

سيرة حياتي

1

سيرة حياتي [١] / سيرة ذاتيّة
د. عبد الرحمن بدوي / مؤلّف من مصر
الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٠
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
الصفّ الضوئي :
حكمت مشرفي / المؤسّسة العربيّة - بيروت
التنفيذ الطباعيّ :
مطبعة سيكو، بيروت - لبنان

All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

د. عبد الرحمن بدوي

سيرة حياتي

1

- ١ -

كل شيء بالصدفة

بالصدفة أتيتُ إلى هذا العالم، وبالصدفة سأُغادر هذا العالم!

وآية ذلك انه لو لم تتطاير ورقة وتتساقط على الأرض فينحني والدي لالتقاطها، لكان قد ودّع الحياة في ذلك اليوم من شهر اكتوبر سنة ١٩١٣. فقد استأجر أحد خصومه قاتلاً، جاء إلى حيث يجلس في بيت العمدية في مساء ذلك اليوم، ثم أطلق عدة رصاصات في اتجاهه، وفي هذه اللحظة عينها تطايرت هذه الورقة الرسمية التي كان يراجعها (وهي من أوراق المحكمة الشرعية) فانحنى لالتقاطها، فلم يصب الرصاص إلاّ الطرف الأعلى من العمامة واستقر في بابٍ كان خلفه. وصاح: الله حي؟ وصمت صمتاً تاماً جعل القاتل يظن أنّه أصاب من والدي مقتلاً. وأخذ يعدو إلى منزل مَن استأجره. لكن والدي نهض فوراً وعدا في إثره، مدركاً بحدسه المرهف أنّه لا بدّ في طريقه إلى بيت ذلك الخصم الشرير الذي كان يدعى جادو زرد. ونادى والدي على المارة ان يهبُّوا معه إلى منزل ذلك الرجل، حتى حاصروه. وفي أقل من نصف ساعة كانت القرية كلها قد تجمعت واقتحمت ذلك المنزل. ولما لم تجد الجاني لأنّه هرب إلى منزل مجاور مكشوف انقض عليه أحد الرجال وهو مختبىء في أحد اركانه وتمَّ تكبيله بالحبال، والقبض على مَن استأجره. وقام والدي بتبليغ الحادث بنفسه الى مركز الشرطة، فجاء رجال الشرطة من فارسكور ـ على مسافة ثمانية كيلومترات من شرباص، وقام هؤلاء بالقبض على الجاني ومَن استأجره، وسيقوا إلى مركز الشرطة في فارسكور.

وكان ميلادي بعد ذلك بأربعين شهراً، في الرابع من فبراير سنة ١٩١٧.

ولو فتشت تاريخ حياة أي انسان، لوجدت ان نوعاً من الصدفة هو الذي تسبَّب في ميلاده: صدفة في الزواج، صدفة في الالتقاء بين الحيوان المنوي في الرجل والبويضة في الأنثى، الخ الخ. وواهمٌ إذن مَن يظن أنَّ ثَمّ ترتيباً، أو عناية او غاية. إنَّما هي أسباب عارضة يدفع بعضها بعضاً فتؤدِّي إلى ايجاد مَن يوجد، وإعدام مَن يُعدم.

ـ ٢ ـ
الصراع في القرية

وامَّا ذلك الحادث فهو ناتج حتمي للصراع في القرية المصرية. فهي تتألف في غالبيتها من عدد قليل من الأسَر، التي يقطن كل منها في حي بعينه، تلتزم به ولا تكاد تخرج عنه. وعلى الرغم مما يقوم بينها وبين بعض من روابط المصاهرة فالتنافس، والعداوة تستمر دون انقطاع، وينجم عن ذلك أحداث عنيفة، وأحياناً دامية، على الرغم من ان اقليمنا (من المنصورة إلى دمياط في الشمال الشرقي من دلتا النيل) يتسم بسماحة الطبع ودماثة الأخلاق والميل إلى السلام والحرص على اتّباع القانون، وهو في هذا يختلف اختلافاً تاماً عن سائر أقاليم مصر. ومن هنا فإنَّ القَتَلة بأجر يُستأجرون دائماً من أقاليم أخرى. ففي الحالة التي نحن بصددها كان المستأجر للقتل من قرية تدعى بيت عسّاس، على الطريق ما بين المنصورة وسمنود. ولصوص الماشية في اقليمنا يأتون دائماً من مناطق أخرى وبخاصة من مركز أجا أو مركز درب نجم وقرى محافظة الشرقية بعامة. وحوادث القتل أو السطو المسلح نادرة الوقوع جداً في اقليمنا هذا (مركز فارسكور) بحيث لم يقع غير ثلاثة أو أربعة حوادث قتل في الفترة منذ سنة ١٩٢٠ حتى يوم الناس هذا.
لهذا يتخذ الصراع بين الأسَر أو الأفراد شكلاً قانونياً: شكاوى كيدية إلى السلطات، قضايا أمام المحاكم، مشاجرات بالعصيّ أو الأيدي، لا يلجأ فيها إلى الرصاص، والبارود والسلاح الأقوى هو النفوذ عند السلطات الرسمية. وما دامت هذه تتوقف على الأحزاب السياسية فقد كان على المتنافسين ـ كل بقدر طاقته ـ أن ينتموا إلى حزب سياسي. لهذا كانوا متوزعين بين الانتماء إلى الحزبين الرئيسيين في مصر منذ سنة ١٩٢٠: وهما الوفد، والأحرار الدستوريون. وكانت الغالبية العظمى من العُمَد من أنصار الأحرار الدستوريين خصوم الوفد بعامة، ربما لأنَّ الحكم كان في أيدي هؤلاء زماناً أطول جداً مما كان في أيدي الوفديين. حتى إنَّ تاريخ العمديات في بعض القرى إنَّما هو تاريخ لتولي الوزارات المختلفة الحزبية

في مصر. وأبرز شاهد على ذلك القرية التي كانت تابعة لقريتنا شرباص، ثمَّ فصلت عنها بعد صراع طويل، وتولَّى أول عمدية لها أخي الأكبر في سنة ١٩٢٨ في عهد وزارة محمد باشا محمود زعيم الأحرار الدستوريين، وكلما جاءت وزارة وفدية (في سنة ١٩٣٠، وسنة ١٩٣٦، وسنة ١٩٤٢) كان يُخلع من منصبه هذا ويظل المنصب شاغراً او يشغله شاغل؛ وكلما عادت وزارة غير وفدية أُعيد إلى منصبه، وهكذا دواليك!

وكما ان في الدولة صراعاً على السلطة بين الأحزاب، فإنَّ في القرية صراعاً على السلطة بين الأُسَر. السلطة الممثلة في منصب العمدية، بما تمثله من وجاهة اجتماعية وما تعنيه من نفوذ سياسي وغير سياسي. وقد تولَّى والدي منصب العمدية في اكتوبر سنة ١٩٠٥ خلفاً لأبيه الذي شغل هذا المنصب عشرات من السنين حتى وفاته سنة ١٩٠٥.

وقريتنا، شرباص مركز فارسكور، مديرية الدقهلية (ثم محافظة دمياط ابتداء من سنة ١٩٥٧) كانت تتألف من قرية شرباص الأصلية، وتقع على النيل عند الكيلو ١٩٦، ومن عِزَب ملحقة بها تمتد شرقاً حتى تصل آنذاك الى حدود بحيرة المنزلة. والقرية الأصلية قديمة جداً وربما توغل في العصر الفرعوني، وإن لم يبقَ فيها أي أثر قديم. شأنها شأن سائر قرى الإقليم، بسبب رطوبة الجوّ. ولكن أقدم وثيقة رأيتها ورد فيها ذكرها فهي روله السلطان شعبان الذي نشره سلفستر دي ساسي[1] في مقدمته لنشرته وترجمته لكتاب موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي:

ومنه يتبين أنَّ زمامها كان واسعاً...

أمَّا الآن فزمامها حوالى ٨٥٠ فداناً محصورة بين شاطىء النيل وبين ترعة الشرقاوية. وتربتها قديمة خصبة. ومن الأحداث الطوبوغرافية المهمة في القرن الأخير انه حدث أثناء الفيضان العالي الذي حدث للنيل أن انهار شاطىء النيل، واندفع ماؤه فأغرق اراضي البلدة والبلدة نفسها، ولما انحسر الفيضان انحسر الماء، لكنَّه خلَّف وراءه بركة مربعة مساحتها حوالى عشرين ألف متر مربع،

---

(١) Silvestre de Saey: Relation de l'Egypte... Paris, 1810 على القارىء ألاَّ يثق بما ورد في الفقرة الخاصة بشرباص في كتاب «الخطط التوفيقية» تصنيف علي باشا مبارك، فكلها خطأ حتى في اسم البلدة إذ يزعم ان اسمها: شراباص! وهو جهل تام، بدليل ما ورد في روك السلطان شعباك وفي رحلة أدليا شلبي وفي غيرهما من المصادر.

وماؤها ملح أجاج، ولا ندري سبباً لهذه الملوحة لأنَّ مياه النيل عذبة، إلاَّ ان يكون ثَمَّ تسرب لمياه البحر الأبيض المتوسط الذي يبعد حوالى ٣٥ كم. والمياه الجوفية في منطقتنا كلها مياه مالحة. وفي هذه البركة توجد أسماك من نوع خاص، لا تشابه أسماك الترع او أسماك النيل. وكنا ونحن صغار نذهب إليها لاصطيادها. على ان سعة هذه البركة في انحسار مستمر.

ـ ٣ ـ
«شركة النيل الزراعية»

وإلى جانب قرية شرباص الأصلية هذه توجد سلسلة من العِزَب (أي المجتمعات الصغيرة) تمتد على طول عشرة كيلومترات شرقاً، وأوَّلها عزبة نوبار (نيبر ـ في نطق العامة) لأنَّ باغوص باشا نوبار، ابن نوبار باشا الذي تولَّى رئاسة الوزارة سنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٨٤ وسنة ١٨٨٨ وسنة ١٨٩٤ كان يملك ألفين من الأفدنة تمتد من شرباص الأصلية شرقاً حتى بحيرة المنزلة، وفيها كانت تتسلسل سائر عِزَب شرباص. وهذه الضيعة الواسعة لا نعرف متى اشتراها (أو نهبها، شأن معظم الأجانب في مصر في القرن التاسع عشر)؛ لكنه باعها في سنة ١٩٠٨ إلى «شركة النيل الزراعية» لصاحبيها جاكوبس وعيد، والأول بلجيكي والثاني لبناني حاصل على الجنسية البلجيكية». واستمرت الشركة الى منتصف الثلاثينات، حين انقسمت إلى قسمين: البنك العقاري الشرقي، وصندوق الرهونات، ومركزهما في شارع قصر النيل أمام جروبي ولكنهما زالا في أواخر الخمسينات. وكان للشركة أراض أخرى في مديرية البحيرة. وكانت طريقتها في الاستثمار هي بيع الأرض بالتقسيط للأهالي، وقد استطاع والدي ان يشتري من اراضي الشركة حوالى خمسمائة فدان، واشترى سائر الأرض أهالي شرباص. وهكذا انتقلت ملكية هذه الألفي فدان الى مصريين بطريقة شرعية قانونية سلمية لم يظلم فيها أحدٌ أحداً. وهذا شاهد عظيم على ما ينبغي ان تجري عليه الأمور. وما أبعد هذا عن تصرفات «ثورة يوليو» التي نهبت واغتصبت الأراضي بالمصادرة والحراسة والظلم الفادح الذي ليس بعده ظلم! ـ ولا بدَّ أن نذكر ها هنا ما كان لـ «شركة النيل الزراعية» تلك من فضل كبير في شق الترع الداخلية ووضع الآلات البخارية لأخذ مياه النيل، وتحسين البذور، وترتيب الطرق وزراعة الأشجار العالية (الأثل والكافور والنخيل) مما جعل من هذه الضيعة ضيعة زاهرة. ولا أزال أذكر كيف كان شيوخ الفلاحين يمتدحون الترتيبات والتنظيمات في الزراعة والري في عهد باغوص نوبار

وعهد «شركة النيل الزراعية»! وأين هذا مما ستفعله «هيئة «الاصلاح» الزراعي» بما ستستولي عليه من ضياع!!

ولا يزال البيت الريفي الذي أقامه باغوص باشا نوبار قائماً مأهولاً حتى اليوم، تحيط به أشجار مطاط عملاقة، وعن شرقيه بستان كان وافر الأشجار المثمرة الفريدة والعديدة الأنواع.

ومن مآثر هذه الشركة ايضاً أنّها أقامت وابوراً كبيراً للريّ على النيل وماكينتين صغيرتين للريّ في الطرف الأقصى من هذه الضيعة تأخذان من ترعة تدعى «البطرسية» (نسبة إلى بطرس غالي باشا، رئيس الوزراء ـ فيما أظن). ولما كانت منطقتنا هذه تشتهر أساساً بزراعة الأرز، والأرز يحتاج إلى ري دائم، فقد كان لهذه الآلات الثلاث فائدة عظمى في الزراعة، فازدادت غلة الأرض عدة أضعاف.

وقد أفضت في هذه النقطة اقراراً بالفضل وعرفاناً للجميل، بعد ان حاولت أجهزة الدجل والتهريج والاتجار بالشعارات الجوفاء ـ ان تطمس هذه الحقائق. إنَّ المهم دائماً هو ان تفيد الآخرين بقدر ما تستفيد انت ـ وهذا كان حال هذه الشركة: استفادت اموالاً كثيرة، وأفادت الأهالي للتيسير عليهم في امتلاك الأرض ومعرفة أساليب استغلالها على خير وجه، وتوفير الوسائل المؤدِّية إلى تحقيق ذلك.

وما كانت «شركة النيل الزراعية» بدعاً في هذا الباب، بل أحسب ان هذه كانت حال سائر الشركات الزراعية الأجنبية في مصر.

تلك كلمة انصاف يجب ان تُقال عرفاناً للجميل، بعد الهجوم الكاذب الذي كانت هذه الشركات هدفاً له على لسان مَن لم يفعلوا شيئاً، بل خرّبوا ما كان قائماً من قبل؛ ولم يستغلوا أرضاً جديدة إلاَّ في الأكاذيب والوعود الزائفة.

وقد أشاعت هذه الشركة في القرية وما حولها جوّاً متحضراً شبه أوروبي: إذ كانت تدير هذه الضيعة كما تدار الضياع في فرنسا وبلجيكا. وكان موظفوها إمّا فرنسيين ـ وأخص منهم بالذكر العاطر: مسيو رومبو ـ وإمّا من اللبنانيين من مختلف الطوائف المسيحية: موارنة، وروم كاثوليك، وروم أرثوذكس، وقد كان هذا هو عصر اللبنانيين المسيحيين الزاهر في مصر: لقد هجروا لبنان إلى مصر، وساعدتهم معرفتهم باللغة الفرنسية على ان يكونوا وسطاء بين الشركات الأجنبية الفرنسية والبلجيكية وبين الأهالي في مصر. وقد اقتصر عملهم على تحصيل الديون التي

على مالكي أو مستأجري أراضي الشركة ـ هذا فيما يتعلّق بالذين يرسلون إلى القرية. أمّا في مركز الشركة الرئيسي بالقاهرة فكانت أعمال هؤلاء اللبنانيين تدور بين التحصيل، ورفع القضايا في المحاكم المختلطة، والمساعدة في ايجاد سبل الاستثمار في الأراضي الزراعية او العقارات المبنية. وكانت قضايا هذه الشركة ترفع في المحكمة المختلطة بالمنصورة، ويتولّى المرافعة فيها محامون لبنانيو الأصل اختصوا بالمرافعة أمام المحكمة المختلطة دون سواها من المحاكم وأحياناً ينتسبون إلى فروع لمكاتب محاماة مراكزها الرئيسة في القاهرة أو الاسكندرية. وكان للمحكمة المختلطة في المنصورة هيئة أكبر بكثير من المحاكم الأهلية، نظراً لأهمية المنازعات المدنية التي كانت تعرض على الأولى، وارتفاع المستوى الاجتماعي والثقافي للمتعاملين فيها.

كان موظفو الشركة هؤلاء من الحاصلين على شهادة البريڤيه Brevet، ومن النادر ان تجد فيهم مَن حصل على البكالوريا، وكلهم تعلموا في مدارس فرنسية في مصر او من قبل في لبنان: مدارس رهبانية أو مدارس علمانية. لكن ذلك كان يعطيهم معرفة أوسع بالعالم. ولهذا كان الأهالي في الريف ينظرون إليهم بشيء من التقدير، ويلقبونهم بلقب «الخواجه»: الخواجه عراجة، الخواجة كرمي، الخواجه بازيل، الخ. وكان بعضهم في «حماية» دولة أجنبية: فرنسا، أو بلجيكا، أو النمسا. ومن هنا كان شعورهم بـ «التعالي» على الأهالي. وعلى الرغم من ان معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ قد خيّرتهم بين الجنسية المصرية وبين الجنسية اللبنانية او غيرها باعتبارهم كانوا من رعايا الدولة العثمانية، فقد تمهّل بعضهم في الحصول على الجنسية المصرية حتى لا يفقد تلك «الحماية». إلى ان صدر قانون الجنسية المصري في سنة ١٩٣٧، وبعد الغاء الامتيازات الأجنبية في مصر بمقتضى معاهدة مونتريه سنة ١٩٣٨، فهرعوا إلى طلب الجنسية المصرية، لكن الحصول عليها صار أشقّ كثيراً.

وكانت الديون التي للشركة على الأهالي تحسب مع فائدة قدرها ٧٪ إنْ تمَّ الوفاء بها في ميعادها، أو ٩٪ إن تأخّر الدفع. وكانت الفائدة مركّبة، أي تضاف إلى أصل الدين. ولما كانت أثمان المحاصيل الزراعية حسنة بوجه عام حتى سنة ١٩٢٩ فقد كان المعسرون قليلين. لكن ابتداء من سنة ١٩٣٠ تناقصت الأسعار، خصوصاً بسبب الأزمة العالمية التي تلت عام ١٩٢٩، مما جعل المدينين يزدادون عسراً فكانت الشركة ترفع القضايا لبيع الأراضي بالمزاد امام المحكمة المختلطة،

فكان يشتريها آخرون من الأهالي. بيد ان هذه الأزمة لم تستمر اكثر من خمسة عشر عاماً، فعادت أسعار المحصولات الزراعية الى الارتفاع ابتداء من سنة ١٩٤٥ غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولم يمضِ إلاّ ثلاثة أعوام أو أربعة حتى كانت الشركة قد حصّلت جميع ديونها؛ فصفّت وجودها نهائياً حوالى سنة ١٩٥٠.

ـ ٤ ـ
المنظر الطبيعي

والمنظر الطبيعي في شرباص رائع الجمال: في الصيف أو في الشتاء.

فما أجمل حقول الأرز إبان الصيف طوال النهار، وما أبدع نقيق الضفادع فيها إبّان الليل كأنّها تسابيح كورس مصحوب بنغمات الأرغن. وعجبي منها كيف لا تمل هذا التسبيح الرتيب، وماذا يحملها عليه، خصوصاً حين يسطع القمر! لهذا لا يشعر المرء بالوحشة آناء الليل، كذلك يؤنسك في الليل صوت النواعير بنغماته الحادّة، وكأنّه لحن الانشلّو في أوپرات فجنر.

وفي الصيف ايضاً يرف نوار القطن بألوانه الزاهية: الأحمر والأصفر والبنفسجي، بينما صفوف الثيل المحيطة بكل قطعة من أرض القطن تزدهي بأزهارها السمنية اللون في كبرياء وشموخ. فإن جنحت الشمس للمغيب أخذ النوار في الانطواء على نفسه احتماء من ظلام الليل. فترى في ساعة الأصيل ما لا تراه في ساعة الصباح الباكر او في رائعة النهار: ألوان تتجدّد، وأشكال تتغير آناء الليل وأطراف النهار.

ونبات الأذرة، وما أدراك ما نبات الأذرة! أوراق عريضة طويلة خضراء تتفرع على طول ساقي القصبة. حتى إذا أثمر برزت الكيزان عليه وتدلّت منها خصل من الشعر البنيّ. وما أروح عيدان الأذرة حين يستظل المرء بها في الهاجرة!

أمّا في الشتاء فحقول البرسيم الأخضر الغامق، وحقول القمح الخضراء في الشتاء، المُصفارّة في أوائل الربيع، الذهبية في أيار. فلها سحرها هي الأخرى وإن يكن أقل فتنة من سحر مزروعات الصيف.

ذلك هو النجم لـ ـ النبات بغير سيقان ـ أمّا الأشجار فتتناثر في كل موضع: أشجار التوت في الأجران وحول السواقي، أشجار النخيل في صفوف طويلة تخترق الحقول او تدور حول بعض القطع المزروعة. وهي تتخذ أبهى حلة في سبتمبر واكتوبر حين تنضج ثمارها فترف باللون الأحمر او الأصفر. وتتجمع عليها الغربان، خصوصاً في المساء.

وأنواع الطير لا حصر لها: من العصافير والزرازير والحمائم حتى الهداهد والحدأة والصقور. وكلها بأصواتها المتباينة تملأ الجو بالعديد من الألحان: المطرب منها والناشز.

والوفرة الهائلة من الحشرات الطائرة والزاحفة والماشية تجعل المرء يعجب من خصوبة البيئة في انتاج الاحياء وتفنّنها في الخلق. ومنها المؤذي للإنسان كالزنابير، والمؤذي للنبات كالنطاط ودود القطن والحفار؛ ومنها الجميل المنظر البريء السلوك مثل الفراشات بأنواعها غير المتناهية.

ناهيك بالنيل وانحناءاته الرشيقة عند شرباص، وما يتفرع عنه من ترع وقنوات؛ وما تنتهي اليه مياه الري من مصارف كبيرة وصغيرة يعلو مياهها الساكنة النيلوفر بأوراقه المستديرة المنبسطة وجذوره المتشعبة على سطح الماء.

❀ ❀ ❀

في هذه البيئة الغنية بنباتها وحيوانها، الغضة بمياهها وسواقيها، الخلاّبة بألوانها المتغيرة آناء الليل وأطراف النهار ـ ولدت ونشأت وترعرعت حتى سن العشرين لأنّي كنت مولعاً بالزراعة منذ نعومة أظفاري، كلفاً بمناظر الحقل ولما أتجاوز الثالثة من عمري، حريصاً على مشاركة الفلاحين في تنقية اشجار القطن من الدودة، وسوق البقر والجاموس في الساقية، وحلب الجواميس والبقر. وبفضل مناظر حقول القطن والأرز والأذرة عرفت جمال الطبيعة وصرت أتذوق الألوان وأطرب إلى الألحان. وبفضل اتساع الفضاء في الريف أصبحت أميل إلى الوحدة وأنشد العزلة وأتشرّب وحدة الوجود وأتنفس أنسام المروج الكلية السارية في الطبيعة.

وكانت أجمل الساعات عندي هي ساعة الأصيل: فكنت أطوف في الحقول متأملاً أشعة الشمس وهي تلقى بومضاتها الأخيرة على نوّار القطن والتيل، وينساب ضوؤها المتوهج على أزهار عباد الشمس المتراصة صفوفاً حول كل فدّان، والزنابير تطن طنينها الرتيب المتناغم.

ـ ٥ ـ
اللهجة

ولشرباص ـ كما لسائر القرى ـ لهجة متميزة: في النبرة والألفاظ. فالنبرة توضع على المقطع الأول من اللفظ. ومعجم الألفاظ فيه الكثير من الألفاظ

الأجنبية، خصوصاً الايطالية. لماذا الايطالية بالذات؟ لأنّي أظن ان بحيرة المنزلة كان فيها كثير من الصيادين الايطاليين. وأسوق هنا أشهر الألفاظ الايطالية وروداً على ألسنة الناس في شرباص، وبعضها منتشر أيضاً على ألسنة الناس في دمياط ونواحيها وسائر مصر.

١ ـ ملتم = mal tempo : الطقس رديء لا يصلح لصيد السمك. فيقال: اليوم ملتم، أي رديء الطقس.

٢ ـ بنيّة = pugno : أي لكمة باليد.

٣ ـ استابين = sta bene : اتفقنا، وتقال عند عقد أي صفقة واتفاق على الثمن.

٤ ـ مسكلنس mescolanza : خليط، مزيج، أنواع مختلفة.

٥ ـ اليط = eletto : أي نبيل، رفيع المستوى. وربما كانت من الفرنسية elite. ويطلقها عامة الناس على: مَن يترفع عن الناس، وعلى المتكبر، ومَن يزهو بنفسه وبملبسه وبتصرفاته. ومنها اشتق اسم الصفة: ألاطه، والفعل: يتألّط.

٦ ـ الأعداد الترتيبية: بريمو، سكندو، ترسو primo, secondo, terzo وتطلق على مراتب عربات القطار، كما تطلق أوصافاً لمراتب الجودة في البضائع.

٧ ـ سبرتو spirito : السائل المستخرج من الكحول.

٨ ـ وابور vapore : آلة تسير بالبخار، وخصوصاً: قاطرة السكة الحديدية؛ السفينة التي تسير بالبخار؛ وابور الجاز.

٩ ـ أسماء بعض أنواع السمك:

لوت = lota.

جمبري = gamberi.

١٠ ـ فلصو = falso : زائف، مزيّف، باطل، تافه.

١١ ـ صولدي = soldu : قطعة نقود قليلة القيمة؛ ليس معي ولا صولدي.

١٢ ـ بَلّو = ballo : رقص.

١٣ ـ بسطونيه = bastene : عصا طويلة غليظة.

١٤ ـ كبوت = capote : غطاء للرأس؛ غطاء للسيارة، الخ.

١٥ ـ (عربة) كرّو = carro: وهي عربة النقل التي يجرّها حصان.

١٦ ـ كتينة = catena: سلسلة من الذهب أو الفضة تربط بها الساعات خصوصاً.

١٧ ـ باكو = pacco: حزمة، طرد.

١٨ ـ بليانشو = pagliaccio: أي مهرج.

ترى ما الذي جعل اقليم دمياط وشمالي المنصورة يحتوى على قدر من اللغة الايطالية؟ لهذه الظاهرة في نظري أسباب ثلاثة:

١ ـ التجارة بين ميناء دمياط ـ على صغره ـ وميناء البندقية منذ القرن العاشر الميلادي.

٢ ـ صيادو الأسماك الايطاليون في بحيرة المنزلة وفي المنطقة من بور سعيد حتى دمياط.

٣ ـ وجود جالية ايطالية كبيرة في بور سعيد.

والعلاقات بين بور سعيد وشرباص قويَّة ومتّصلة، حتى ان مَن يضيق به الرزق في شرباص من أصحاب الحرف (نجارين، حدّادين، حلاّقين، خياطين الخ) كانوا يهاجرون إلى بور سعيد، أو «البلط» كما يسمّيها عامة الناس في شرباص. وكثير من الأُسَر فيها لهم أقرباء في «البلط».

أمّا اللغة اليونانية فليس لها أي أثر في اللغة العامية في هذا الاقليم، على الرغم من وجود بعض اليونانيين المشتغلين بالبقالة او أصحاب المقاهي ومحال الخمور. والكلمة اليونانية الوحيدة التي كنت أسمعها في طفولتي هي: «البورصة» ومعناها: المقهى الذي يتناول فيه الخمور ايضاً. وكان في شرباص «بورصة» أُغلقت أبوابها حوالى سنة ١٩٢٥. فالأمر في هذا الاقليم بخلاف ما عليه الحال في الاسكندرية ونواحيها حيث تكثر الكلمات اليونانية في لهجة، عامة الناس، خصوصاً في مجال صيد السمك وأسمائه (استكوزا، سبيا، كبوريا، جنروفلي، بوربوني، الخ).

وكان حرياً باللغة الفرنسية ان تكون ذات نصيب في الألفاظ الأجنبية في اللهجة العامية في هذا الاقليم، أولاً لأنَّ الفرنسيين غزوه مرتين: الأولى في الحملة الصليبية على عهد الملك الكامل في سنة ١٢١٨ م، والثانية في الحملة الصليبية السادسة التي قادها لويس التاسع وانتهت بأسره في سنة ١٢٤٩. ثم ان نابليون، إبّان حملته على مصر في سنة ١٧٩٨ قد بعث بفرقة من جيشه الى دمياط

واستقرت في عِزْبة البرج (على شاطىء البحر الأبيض وعلى مسافة ١٦ كم شمالي دمياط)، وقد لقيت مقاومة عنيفة تولَّى كِبْرها حسن طوبار (من المنزلة). ثم إنَّ موظفي شركة سكة حديد الدلتا ـ وهي بلجيكية ـ كان منهم البلجيك والفرنسيون، وكذلك كان موظفو «شركة النيل الزراعية» في شرباص، حتى كانت العقود مع الأهالي مكتوبة باللغة الفرنسية وحدها في غالب الأمر. ولا أزال أذكر كم كنت أُعاني في ترجمة هذه العقود وأنا في مطلع شبابي لم أُحكِم اللغة الفرنسية بعد حين كان والدي يطلب منِّي ترجمتها، خصوصاً ولغتها لغة قانونية جافة حافلة بالمصطلحات المادية البعيدة كل البعد عن اللغة الفرنسية الأدبية التي كنت أعرفها.

ـ ٦ ـ

مولدي ووالدي

وكان مولدي في حوالى الساعة الثانية من صباح الرابع من فبراير سنة ١٩١٧ (ألف وتسعمائة وسبع عشرة). وكنت الثامن من إخوتي وأخواتي لأُمِّي، والخامس عشر بين أبناء والدي؛ وسيصبح المجموع واحداً وعشرين ولداً. أحد عشر من البنين وعشراً من البنات. وكان ذلك تعويضاً هائلاً عمَّا جرى لجدِّي، فإنَّه لم ينجب غير ولد واحد هو والدي. على ان العبرة ـ حتى في الريف ـ ليست بكثرة الأولاد، بل بقوة شخصية الوالد.

وكان والدي قويّ الشخصية إلى أقصى حد، مرهف الذكاء، ذا حافظة جبّارة، مستقيم السلوك والرأي، لا يتنقل من رأي إلى رأي حسب الظروف، ولا يناور ولا يداور، ولا يقبل الضيم من أحد مهما كان مركزه: في السياسة كان من حزب الأمَّة ثم حزب الأحرار الدستوريين الذي خلف حزب الأمَّة، واستمر على هذا الموقف حتى انهيار حزب الأحرار الدستوريين سنة ١٩٥٠. وفي تعامله مع الفلاحين كان كأنَّه واحد منهم: يأكل من طعامهم إذا لم يوافه الطعام من المنزل، ويجالسهم أو يحادثهم حين يكون في الحقل، ويشاركهم في العمل عندما تقتضي الحاجة. أمَّا التعليم الذي تلقاه فهو التعليم المتوافر في القرية: حفظ القرآن، والإلمام بالحساب، والقراءة والكتابة. لكنه كان يديم الاطلاع على بعض الكتب الدينية، وعلى بعض الصحف اليومية. وبحكم اتصاله بموظفي شركة النيل الزراعية ـ وكان «وكيلاً» لها في شرباص ـ كان على اطلاع غير قليل على ما يجري في العالم، والسياسة الدولية بعامة.

لكنه لم يشأ احتراف السياسة، ولا الانخراط الملتزم بها، لأنّه كان يفضّل الانجاز العملي، على الكلام الأجوف. فحرص على تنمية ثروته، لا على تنمية شهرته في الاقليم. لهذا كان اكثر ثراءً من محترفي السياسة في الاقليم. ولم يشأ أن يبدّد أمواله في الانفاق على الانتخابات والاحتفالات السياسية والتبرعات الحزبية. لقد كان يعرف حدوده في السياسة، فالتزم بأقل مشاركة فيها وبالقدر الذي يلزمه لحماية نفسه من بطش الحكّام. وكم كان لمحترفي السياسة من صرعى في ذلك الوقت! لهذا لم يرشح نفسه في أية انتخابات لمجلس النواب أو مجلس الشيوخ؛ بل كان يكتفي بتأييد مرشح حزب الأحرار الدستوريين: بالدعوة له وترغيب الناخبين من أجل انتخابه، والانفاق على بعض اجتماعاته الانتخابية. والانتخابات الوحيدة التي كان يخوضها هي لعضوية مجلس الشياخات في المديرية، وكان مجلساً يختص بتعيين العُمَد، ومحاكمتهم ادارياً، ومقرّه في المنصورة.

وفي القرن الممتد من سنة ١٨٥٠ إلى ١٩٥٠ كان في كل اقليم من أقاليم مصر عدد من أعيان الريف كانوا دعائم المجتمع الريفي: إليهم يهرع الناس في الملمات، ومنهم يشيّع الاحسان، وبهم يقتدي أولو الفضل؛ وعلى أيديهم يتم التقدّم الزراعي والعمراني. وكانت علاقاتهم مع الفلاحين علاقة عضوية أُسَرِيّة تسودها المحبة وتبادل المنفعة والتآخي والتكافل الاجتماعي.

لكن المستأصلين والطفيليين والحاقدين ومن لفّ لفهم من المنافقين والدجّالين جاءوا في سنة ١٩٥٢ وما تلاها فصبُّوا سخائمهم المملوءة بالجحود والعقوق والتي ولّدها الدخل الكظيم على هذه الصفوة من أعيان الريف، وحرّروهم من ممتلكاتهم وحرموا البلاد من الانتفاع بتجاربهم. فماذا كانت النتيجة؟ انهار الانتاج الزراعي، وتألّب الناس بعضهم على بعض، وصارت للوشاية والوقيعة اليد العليا. وتحوّل الكل إلى فقراء معوزين، وكان ما أطلق عليه آنذاك: «تأميم (= تعميم) الفقر.

لكن لنمسك الآن عن الافاضة في هذا الموضوع، لأنّنا سنتناوله تفصيلاً في حينه.

- ٧ -
أنماط من الناس في القرية

وكان والدي قوي الإيمان شديد الحرص على أداء الصلاة في مواعيدها، والزكاة في مواسمها؛ وحجَّ إلى بيت الله الحرام في مكة في شتاء سنة ١٩٣٧. لكنه في الوقت نفسه كان واسع التسامح الديني: فكان طبيبه المعتاد في المنصورة قبطياً، وكان في الأمور الاقتصادية كثيراً ما يتعامل مع نصارى من كل المذاهب. وربما كان لاختلاطه المستمر بمستخدمي شركة النيل الزراعية ـ وكلهم كانوا من النصارى ـ اثر في هذا التسامح. يُضاف إلى ذلك ان الاقليم ـ من المنصورة إلى دمياط ـ يمتاز أهله بالتسامح الكبير مع النصارى، والسبب في ذلك هو قلة عدد النصارى في هذا الاقليم؛ وهذا العدد القليل جداً كانت غالبيتهم من الطارئين على الاقليم: من موظفين حكوميين او في شركات أجنبية. لهذا خلا من التعصّب الموجود في المناطق الأخرى من مصر التي يوجد فيها نصارى يسكنونها من زمن بعيد، ولهم جذور راسخة فيها، مثلما هي الحال في مصر العليا. أمّا المنصورة نفسها فقد كانت فيها جماعات مسيحية عديدة: قبطية مصرية، ولبنانية، ويونانية.

أمّا قريتنا ـ شرباص ـ فلم يكن فيها من أهلها إلاّ المسلمون. ولم ينتشر فيها من الطرق الصوفية إلاّ الشاذلية، لكن لم تكن لهم زاوية خاصة بهم، بل كانوا يتخذون من إحدى الزوايا ـ وهي المساجد الصغيرة ـ ملتقى لهم في ليلة الجمعة (مساء الخميس). وهناك يقومون بالذكر وتلاوة بعض الأوراد. وكل ذلك في هدوء وسكينة. انما كانت الهزة الدينية تعرو الناس حين يفد على القرية احد مشايخ الصوفية الوافدين من أماكن نائية. وكان قدوم هؤلاء خصوصاً حين يُقام «مولد» وليّ القرية، وهو الشيخ الشرباصي، وذلك في اليومين التاليين ليوم عيد الأضحى. وكان الشيخ الوافد على القرية في ذلك المولد عادة ما يلجأ الى أعمال الشعبذة، وأبرزها عملان: التشنج، والربط. أمّا التشنّج فهو إحداث نوع من الشلل الوهمي في جسم شخص؛ أمّا الربط فهو إحداث «العِنّة» عند مَن يسخط عليه هذا الشيخ. وكلا الأمرين يحدثهما الشيخ بإيحاء. ويتم الايحاء بالتهديد والوعيد بالألفاظ الضخمة يصرخ بها الشيخ بصوت مروع يثير الرعب في نفس الشخص المطلوب إحداث ذلك التأثير فيه. ولا أزال أذكر من بين هؤلاء الشيوخ الوافدين في المولد شيخاً يدعى الشيخ «أبو حلاوة»، وما كان لحضوره آنذاك من تأثير وهيجان في القرية. وكان الاحتفال بالمولد يتخذ مكانه في ميدان فسيح في وسط القرية، وفي

وسط الميدان ترتفع «صار» (سارية) من الخشب يبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثين متراً. وفي يومي الاحتفال يوضع بيرق (عَلَم) خاص بولي القرية. وهذا العلم محفوظ في ضريحه.

ونظراً لما كان يحدث مراراً في هذا الاحتفال بالمولد من شغب وأعمال عنف، خصوصاً بين فتيان القرية وبين بعض القادمين من القرى المجاورة، فقد كان والدي يمنع أحياناً من اقامة هذا المولد.

وللشيخ الشرباصي هذا أسطورة: ذلك ان في دمياط حيًّا يدعى حيّ الشرباصي. وأهل قريتنا يزعمون ان الضريح الموجود في ذلك الحيّ من دمياط إنَّما هو لوليّ مجاهد من أهل شرباص، استشهد في الحملة الصليبية السابعة التي قام بها لويس التاسع في سنة ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م. فدُفن ذراعه في دمياط، ودُفن باقي جسمه في شرباص!! وأهل دمياط لا يقرُّون بهذه الأسطورة. وقد تبيَّن لنا بالبحث ان ما يُعرف بـ «ضريح الشرباصي» الذي لا يزال قائماً في قرية شرباص إنَّما يضم رفات رجل صالح يدعى ابرهيم ابو خليل، الذي كان يعيش في القرن الماضي؛ ولا شأن له إذن بالحروب الصليبية التي جرت في القرن الثالث عشر الميلادي. ولا بدَّ من تحقيق تاريخي لمعرفة مَن هو ذلك «الشرباصي» المدفون في ضريح بحيّ الشرباصي في دمياط.

وفي «ضريح الشرباصي» هذا في شرباص كان يُقام ذكرٌ في ليالي الجمعة طوال العام. وقد يفد بعض الصوفية من بلاد أخرى لإحياء هذا الذكر مستعملين الناي لإهاجة مشاعر الذاكرين. لكن ذلك كان نادراً ما يحدث.

وكان يحدث أحياناً لبعض أفراد القرية أحوال من الزهد هي نوع من اللَّمم الخفيف. فيقيم الواحد منهم خلوة عند شاطىء النيل، هي عبارة عن كوخ صغير من البوص أو الغاب، يفرشه بالقش، ويلبس «بشتا» من الصوف الخشن المصنوع في القرية، ويلبس في عنقه سلسلة من الحديد، او سُبْحة طويلة. ويقتات من الخبز الذي يبعث به إليه أهله أو ممَّا يحسن به عليه الناس، ومن أنواع البقل الموجود في الأراضي المجاورة لكوخه. وإذا مات، حمله الناس على نعش، حتى إذا كانوا على بُعد مائة متر تقريباً من المقبرة هرولوا بالنعش، فيقول عامة الناس إن النعش «طار» به وكان هذا دليلاً على صدق ولايته!

وإلى جانب هؤلاء «الخلويين» إنْ صحَّ هذا الوصف لهم ـ كان هناك أفراد يستمرون في أعمالهم المعتادة ولا يختلون في خلوة؛ وإنَّما كانوا يأخذون «عهداً» على واحدٍ من المشايخ المشهورين بالتقوى وسلوك طريق الصوفية، ممَّن كانوا

يقيمون في قرى تقع على الضفة الأخرى من النيل في مركز شربين.

وهؤلاء المشايخ الذين تُؤخذ عليهم العهود لا تعرف لهم طريقة من الطرق الصوفية المشهورة ولا يتبعون أحداً من أعلام الصوفية ـ كالشاذلي، أو الرفاعي، او أحمد البدوي، أو الدسوقي ـ لأنَّهم جهلة أجلاف، وفي الغالب أُمّيون. ولهذا فإنَّ «مريديهم» لا يستفيدون علماً من علوم أهل الطريق، بل يقتصر الأمر عندهم على لبس البشت ووضع سلسلة حديدية او سبحة في الرقبة، واحياء الذكر في أوقات معلومة. ومن النادر جداً ان تتهذب نفوسهم او ان تتحسن أخلاقهم. وليس بين مختلف هؤلاء المشايخ تنظيم أو تضامن، وليس لهم هيئة تجمعهم، ولا مرجع يرجعون إليه بل كل واحد منهم له شأنه الخاص به، وأتباعه المتعلقون به وحده.

ولهذا ليس لأحد ان ينتظر من هؤلاء «المشايخ» المنتشرين في الريف المصري ـ بل وفي المدن المصرية ـ أيّ إسهام في التصوف الإسلامي، النظري والعملي منه على السواء.

أمَّا تأثيرهم السياسي ـ وهو لا يتجاوز نطاق الانتخابات ـ فيكاد يكون معدوماً، على أنَّهم من حيث العدد في تناقص شديد متواصل. وما أكبر الفارق بين عددهم اليوم، وعددهم منذ ستين عاماً!

لقد كان التدين آنذاك لوجه الله وللوجاهة في الآخرة، أمَّا اليوم فهو لوجه السلطان والنفوذ في الدنيا!

وما اكبر الفارق بين مشايخ الاقليم الذين ذكرهم الشعراني في «طبقاته» وكانوا معاصريه (في القرن العاشر الهجري = السادس عشر الميلادي): سيدي علي الحريري وسيدي وهيب (فارسكور) وسيدي...... (السرو) وسيدي المنزلاوي (.......) الخ ـ وبين مشايخ الاقليم في القرن العشرين! إنَّهم جميعاً من «صوفية الأرزاق» على حد تعبير ابن تيمية.

وكان يطوف بالقرى في هذا الاقليم، بعض المشايخ المنتسبين إلى الطريقة الرفاعية، ويتميزون بالاتيان ببعض خوارق العادات مثل استخراج الثعابين من سقوف البيوت ومن مخابئها في الجدران، وغرز المِسَلات (وهي إبر طويلة ضخمة تستعمل في خياطة الأكياس والزكائب) في الأصداغ دون ان ينجم عن ذلك سيلان دماء، وغرز سِنّ السيف في الرقبة وركوب الشيخ على كتفي صاحب هذه الرقبة، دون ان ينفذ السيف فيها!! وكلها شعوذات مفضوحة كنا ونحن صغار نبهر لها انبهاراً ونستمر في الحديث عنها طوال أسابيع عديدة بعد رحيل الشيخ الجوّال.

أمّا الممرورون وذوو اللوثات وأصحاب العقول الخفيفة فقد كانوا كثيرين يعطف عليهم الناس بالاحسان، خصوصاً في المواسم الدينية والزراعية، ولا يلقى الناس منهم أذى، بل يتبرك البعض بهم.

ويبرز من بينهم نفر كانت تأتيهم النوبات في يوم معلوم من أيام الأسبوع، وخصوصاً ليلة الجمعة (أي التي يكون صباحها الجمعة). ونذكر منهم رجلاً كان يشتغل «مُذَرِّياً» أي يقوم بتذرية القمح وهو مختلط بالتبن ليخلص منه. وكان يؤدّي هذا العمل بانتظام واجتهاد طوال أيام الأسبوع دون ان يظهر عليه أي أثر من اضطراب نفسي. لكنه في مساء الخميس ابتداء من مغيب الشمس كانت تنتابه حالة نفسية غريبة: يجلس على سرير في بيته، ويأخذ في الهذيان بكلمات غير مألوفة، ويلقي بعبارات عربية فصيحة حين يسأل البعض الأسئلة وكان هذا هو ما أدهشني فيه: من أين له النطق بهذه الجمل العربية الفصيحة وهو فلاح بسيط لا تزيد ثقافته عن حفظه لمعنى القرآن في طفولته وإلمامه بالقراءة اليسيرة. وكان الناس يعتقدون ان «العفريت» الذي ركبه هو الذي ينطق بهذه الجُمَل خصوصاً وانه كان ينطقها بصوت رقيق مختلف تماماً عن صوته المعتاد. وفيما عدا الفترة التي تحدث فيها هذه النوبة النفسية لم يكن يلاحظ عليه أي شيء غير عادي طوال الأسبوع. وكان عمله مذرّياً يكفل له معاشاً لا بأس به، لهذا لا مَظَنّةَ لأي استغلال لهذه الحالة للحصول على أيّ كسب مادي.

إذن لم يكن الدافع الى هذه الحالة كسباً مادياً، كما كانت الحال بالنسبة إلى بعض الممرورين الماكرين الذين كانوا يتخذون من اللوثة او ادعاء الجنون وسيلة للتكسب والتسول؛ وهؤلاء كانوا في الغالب من الجوالين الطارئين في بعض المواسم على القرية.

وهذا يقودنا إلى ذكر طائفتين من الجوّالين للتكسب، وهما: طائفة المدّاحين، وطائفة المواوية. أمّا الطائفة الأولى فكانت تتكسب بالقاء المدائح النبوية، وكانت مدائح نثرية معظمها مناجيات للنبي (ﷺ)، مثل: يا مُظَلّل بالغمام... الخ. والطائفة الثانية كانت تتكسب بمديح الأعيان والأغنياء والعُمد في الريف: فيمتدحون بكرمهم ورفيع مكانتهم وعطفهم على الفقراء واحسانهم إلى المساكين ويخترعون لتأييد كلامهم أقوالاً لأعيان في قرى أخرى في الإقليم أشادوا فيها وشهدوا بمناقب مَن يمدحونه في تلك اللحظة، وكلها شهادات ملفّقة من عندهم، لكن كانت تطرب لها آذان بعض هؤلاء الأعيان، وإنْ لم يصدّقوا ما فيها ولا كونها صادرة عمَّن تُنسب إليهم. والمواسم التي يأتي فيها رجال هاتين

الطائفتين واحدة: موسم حصاد القمح (يونيه ـ يوليو) وموسم حصاد الأرز (اكتوبر ـ نوفمبر). وقد بدأت كلتا الطائفتين في الزوال منذ سنة ١٩٤٠، واختفتا نهائياً ـ فيما أعلم ـ منذ سنة ١٩٥٢ وهو امر ضروري، لزوال أولئك الأعيان ابتداء من هذا التاريخ الأخير. أجل، لقد حلَّ محلّ مديح النبي والأعيان مديح «الطاغوت وزبانيته الأشرار»!

❀ ❀ ❀

ومن الجوّالين ايضاً كان «الشاعر» ذو الربابة. وكان في الغالب مصحوباً «بأوركسترا» لا يتجاوز شخصين: أحدهما عازف على الكمان، والثاني عازف على الناي («السُّلَّمية»). وكان هذا «الشاعر» ينشد ملاحم شعبية، أشهرها ملحمة «أبي زيد الهلالي»، إنشاداً حرًّا لا يتقيد فيه بنص مكتوب او محفوظ، بل كان يتصرّف فيما تعلّمه من هذه الملحمة بحسب الساعة وجمهور المستمعين. وينشد ما ينشد من الشعر المنظوم الوارد في خلال القِصّة مع عزف على الكمان. وكنت في صباي مولعاً بسماع هؤلاء «الشعراء»، لا لأنّي كنت أحب مغامرات الهلالية، بل بسبب الآلات الموسيقية التي يعزفون عليها؛ وكان يستهويني منها بخاصة الناي (السُّلَّمية) وهو قصبة من الغاب طولها حوالى ٣٠ سم وقُطرها يتراوح بين ٣ إلى ٥ سم. وتحتاج إلى نَفَس قوي متواصل. وكان بعض رعاة الغنم في القرية يستعينون بها في قضاء أوقات الرعي الرتيبة المملّة. ولعزفها في أعماق الليل في الليالي القمرية وقع رائع. ولولعي بهذه السّلمية اقتنيت واحدة، وكنت أُحاول النفخ فيها، لكن ضعف تنفّسي حال بيني وبين اتقان العزف عليها.

وإلى جانب الناي (السُّلمية) والعود والكمان كنا نعرف في القرية آلة موسيقية أخرى هي «الأرغول» وأحسبها أنَّها كلمة «أرغنون» اليونانية، بدليل انها في الألمانية orgel وتساوي تماماً الكلمة العربية ـ وهي مؤلفة من عدد من «البواليص» (مفردها: بلوص) أي القصبات الصغيرة (طول الواحدة حوالى ١٠ سم) المرتبطة مع قصبة كبيرة بخيوط، وتدخل وتخرج من فتحات في القصبة الكبيرة. وكانت الأصوات الصادرة عن «الأرغول» متعددة. ولا بدَّ انها قديمة جداً، وربما كانت الصورة أو النموذج الأوّلي للأرغن المصري. ومن المعروف تاريخياً ان الذي اخترع الأرغن المائي هو كتيسبيوس Ctesibius الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد. وكان العازفون بها ـ وهي آلة نفخ مثل الناي ـ يتجولون بين القرى، فيتصدّق عليهم

الناس بالطعام او بالقطع الصغيرة من النقود. وهم يذكّرونني بالشباب السائح العازفين على بعض الآلات الموسيقية أمام مقاهي الشانزليزيه وسان جرمان دي پريه في باريس وغيرها من كبار المدن في أوروبا في هذه الأيام! بل عازفو الأرغول في القرى المصرية كانوا أرفع في الفن شأناً من هؤلاء الشباب الأغرار الذين لا يحسنون العزف، وإنما هم متسوّلون في حقيقة أمرهم.

❀ ❀ ❀

لقد انقرضت كل هذه الأنماط او كادت، من القرى المصرية، ولم يعد لها وجود إلاَّ في متاحف الفولكلور أو في بعض الأفلام السينمائية او التمثيليات الشعبية. بيد أنَّها كانت تبعث البهجة في رتوب الريف، وتضفي ألواناً زاهية على الأرضية الكابية للقرية، وتبث انفعالات وأحاسيس مرتعشة في أفئدة الصبيان.

وارحمتاه على ذلك العهد النابض بالبراءة، المفعم بالبساطة الساذجة، الناضر بالأحاسيس الأولية! أين منه الآن هذه الأيام: أيام الراديو والتلفزيون والڤديو ـ هذه الآلات التي أبدلت سجوّ الريف ضجيجاً وصخباً، وسحر البراءة الأولية صنعة وتكلّفاً، ونضارة المشاعر جساوةً وتعقيداً.

ـ ٨ ـ
طفولتي

في هذا المحيط المتسم بالبراءة والنضارة أمضيت السنوات السبع الأولى من عمري.

كنت أمضي سحابة النهار في أحد حقولنا العديدة، ونسمِّيها الغيطان (جمع: غيط): غيط أبو محمود، والغيط الكبير، وغيط العلايلي في نطاق زمام شرباص، وغيط البعول، وغيط الحانة (رقم ١، ورقم ٢، ورقم ٤، ورقم ٥)، وغيط نجاتي في نطاق عزب شرباص. وكنت أُكلَّف ببعض الأعمال البسيطة: مثل حراسة بعض المحاصيل، أو جمع الألبان، أو ملاحظة العاملين في جني القطن أو تنقيته من الدودة. وفي أوقات الفراغ من هذه الأعمال كنت أقوم بصيد السمك بالصنارة من التُّرَع أو المصارف، او من نهر النيل.

وإمضاء هذا الوقت الطويل في الحقول وممارسة بعض شئون الزراعة قد ولَّدا في نفسي حُبّ الأرض الزراعية. وسيكون لهذا أثره في توجيه تصرّفاتي الحالية في

مستقبل عمري حين توفّر لي من المال ما أستطيع ان أملك به أراضي زراعية. لقد صرت مرتبطاً كل الارتباط بالأرض الزراعية، أكاد أمتدّ بجذوري فيها، وأحمل لها في نفسي قداسة وعبادة. وهو شعور لا يعرفه مَن نشأوا في المدن. وهذا هو مصدر البلاء فيما سُمّي بـ «الاصلاح الزراعي» ابتداء من سنة ١٩٥٢ حتى اليوم: لقد أمر به وخطط له ونفّذه مَن لا تربطهم بالأرض الزراعية أية رابطة، فكان ما كان من عواقب وخيمة حلّت بالأرض الزراعية ومحصولاتها وانتاجها في مصر في الثلاثين عاماً الأخيرة. وهو عينه ما جرى في روسيا وغيرها من الدول الدائرة في فلكها منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. وأنّى لمن لا يعرف غير الأسفلت والأبخرة الفاسدة ان يدرك نبالة الأرض الزراعية وقداسة هواء الحقول! إنّه كجزار المواشي الذي يتولّى علاج جسم انساني.

إنَّ الأرض الزراعية هي بالنسبة إلى أصحابها الحقيقيين روح وحياة، وليست مجرد سلعة للاتجار، او رأس مال للاستغلال.

ومن هنا ارتبطت النبالة بالأرض الزراعية في كل تاريخ بني الانسان، ولم ترتبط ابداً بالمتاجر ولا بالمصانع. ولا نقصد بـ «النبالة» هنا نظاماً اجتماعياً وسياسياً معيّناً، بل نقصد نبالة الانسان بما هو إنسان.

❀ ❀ ❀

وحتى بعد دخولي المدرسة الابتدائية فالثانوية فالجامعة بقيت قويّ الصلة بالأرض والزراعة أزاول أعمالها أثناء عطلة الصيف، إلى ان بلغت سنّ الحادية والعشرين وعُيّنت معيداً في كلية الآداب، فاضطررت إلى الانصراف عن شئون الزراعة كيما أتفرّغ للتحضير للماجستير فالدكتوراه فالأبحاث العلمية.

وكان التعامل مع الفلاحين مزيجاً من الأُلفة بحكم المعاشرة، ومن الاحتياط والريبة بسبب مكرهم ودهائهم. إنَّ الفلاح المصري ـ وربما كل فلاح في العالم ـ مزاج من طيب النفس والخبث، من الشهامة والخبث، من البساطة والتواء الحيلة. ولا بدَّ لمالك الأرض من ان يحسب حساباً لهذا الازدواج في طبيعة الفلاح، وإلاّ التاث عليه الأمر وضاع مالُهُ وساءت علاقاته بهم.

فالفلاح اذا كان يعمل في الأرض بطريقة المزارعة ـ أي اقتسام المحصولات بينه وبين المالك على ان يتولّى هو اعمال الزرع ويتولّى المالك الإنفاق على مطالب الزراعة ـ فإنّه يصطنع كل ألوان الحيل لاقتناص جزء من المحصول، خصوصاًأنَّ من الصعب جداً حراسته. وان كان يعمل بطريقة الايجار، فإنّه بطبعه

يماطل في دفع الايجار: كله او بعضه، ويحاول دائماً نقصه بشتى الذرائع. ولتهدئة غضب المالك يرسل إليه بين الحين والحين بعض المسكنات: بعض الجُبن البدائي الصنعة، وعاء من القشدة المخيضة، بعض ثمار التوت او الجميز، بعض الخضروات، الخ ـ وهي أشياء ضئيلة القيمة لكنه يظن انه يستطيع بها ان يخدع غضب المالك فيرخي له حبل اداء الايجار! وحين تتفق معه على تربية ماشية (غنم او بقر او جاموس) تشتريها له من مالك ويتولّى هو تربيتها مقابل النصف حين التخالص او حين بيعها ـ يحتال عليك كيلا تنال منها شيئاً، أو على الأقل من أولادها؛ وحين تطالبه يروي لك قصصاً طويلة لا أول لها ولا آخر عن مصير هذا الحيوان، وكلها تنتهي قبل آخر مرحلة حتى تضلَّ ولا تهتدي إلى مصيره! وكم عانيت انا ـ في صباي ـ من خبث مَنْ تعاقدت معهم على تربية ماشية!

إنَّ الفلاح المصري أمكر من أي مالك. وانا أتحدَّى أي انسان ان يدلّني على مالك لم يغلبه الفلاح الذي يعمل في أرضه. والفارق بينهما هو في ان للمالك عادة اراضي عديدة، بينما يعمل الفلاح في ارض صغيرة محدودة. أمَّا المالك لقطعة أرض واحدة يعمل فيها فلاح واحد هو وأسرته، فهو قطعاً يتقاضى من هذه القطعة أقل كثيراً مما يتقاضاه هذا الفلاح الواحد.

فما أكذَبَ اذن أولئك الكتّاب والسياسيين المتاجرين بقضية الفلاح! إنهم يخلطون الأمور خلطاً خبيثاً ابتغاء تبرير دعواهم الموغلة في التضليل والايهام. ان تقدير العلاقة بين المالك والفلاح يجب ان يتم وفقاً لكل حالة على حدة ليرى هل هناك غبن على أحد الطرفين في هذه الحالة بالذات، لا ان تخلط حالة الفلاح الواحدة بعشرات من أحوال اخرى لنفس المالك لا شأن لهذا الفلاح الواحد بها.

وكفى دجلاً وتضليلاً وكذباً أيُّها المتجرون بقضية الفلاح طوال هذا القرن!

ـ ٩ ـ
بداية تعليمي: المرحلة الابتدائية

ولم يكن في القرية مدرسة ابتدائية. وأقرب مدرسة ابتدائية كانت في عاصمة المركز: فارسكور. وكانت تتبع مجلس مديرية الدقهلية، لا وزارة المعارف. ولدخولها كان على التلميذ ان يجتاز امتحاناً في القراءة والكتابة والحساب واللغة الانكليزية.

وإعداداً لهذا الامتحان دخلت مدرسة صغيرة في قريتنا أنشأها معلّم قَدِمَ إلينا

من بني مزار، يدعى «سيد أفندي». فكانت من نوع مدرسة الفصل الواحد ذات المعلم الواحد. وكان يعلّم أخلاطاً من المواد: اللغة الانكليزية، والحساب، ومبادىء اللغة العربية. وأثناء عطلة الصيف ينضاف إليه صديق له كان يدرّس في مدرسة ابتدائية تابعة للجمعية الخيرية الاسلامية وكان أوفر حظاً من العلم، ولا أدري ماذا كانت مؤهلاته، لكن ربما كان من خريجي مدرسة المعلمين الأولية. فكان لحضوره اثر في رفع مستوى التدريس. وعلى كل حالٍ، فقد كان لمدرسة «سيد أفندي» هذه فضل كبير على المتعلمين في هذه القرية، سواء منهم مَن سيكتفون بالشهادة الابتدائية التي سيحصلون عليها في مدرسة فارسكور، ومَن سيواصلون الدراسة حتى الليسانس والماجستير والدكتوراه.

وقد أمضيت في هذه المدرسة عامين، ثم دخلت مدرسة فارسكور الابتدائية في سنة ١٩٢٤. وعلى الرغم من انها تابعة لمجلس المديرية، فقد كان فيها مدرسون شديدو الاخلاص لعملهم وإنْ لم يكونوا من ذوي المؤهلات العالية. كان مدرسو اللغة العربية في الغالب من خريجي دار العلوم، أمّا سائر المدرّسين فكانوا يحملون الكفاءة (وهي تناظر الآن: الشهادة الاعدادية). بيد انهم لتفانيهم في اداء مهمتهم كانوا أفضل من حملة الليسانس و البكالوريوس اليوم بمراحل عدة. كانوا قساة يتفنّنون في ألوان العقاب: الضرب بالمؤشر أو بالخيزرانة، الصفع بالكف على الخدود، الركل بالقدم، الضرب بالخيزرانة أو المؤشر على الأرداف، الركوع على الأرض والضرب على الرأس، الخ. لهذا كان خوف التلاميذ منهم شديداً. غير ان هذه الشدّة نفسها هي التي أفادت في تقويم التلاميذ، وحملتهم على الجد والاجتهاد في المذاكرة. ولا أحسب ان قسوة هؤلاء المدرّسين كانت بدافع «السادية» (حُبّ القسوة) او الاستعلاء، بل كانت في الأغلب الأعم للإفراط في الحرص على التحصيل.

وشتان بين طريقتهم تلك، وبين طريقة المدرّسين في المدارس الابتدائية اليوم! لكن الأمور يجب ان تقاس بنتائجها. ولا شك في ان نتيجة الطريقة القديمة أفضل بألف مرة من نتيجة الطريقة الحالية: لقد كان التلميذ الحاصل على الشهادة الابتدائية يحصّل من العلم ويبلغ من الفهم وحسن التقدير أكثر مما عليه نظيره اليوم بمائة مرة أو يزيد: كان يتقن الكتابة بالعربية، وكان يتقن الحساب، وكان على حظ غير قليل من العلم باللغة الانجليزية.

لقد كنا نحسن النحو والصرف، ونقرأ النصوص الأدبية ـ من شعر ونثر ـ في كتاب عنوانه: «مجموعة من النظم والنثر للحفظ والتسميع» في السنتين الثانية

والثالثة، ونقرأ ونحفظ نصوصاً من كتاب: «ادبيات اللغة العربية» لحفني ناصف وآخرين؛ وبذلك استطعنا حفظ وفهم روائع من القصائد والخطب والرسائل التي تعد من غرر الأدب العربي. لقد استظهرنا قصائد للمتنبي وصفي الدين الحليّ وأبي العتاهية وصالح بن عبد القدوس وغيرهم، كما استظهرنا خطباً رفيعة المستوى لعلي بن ابي طالب وزياد ابن ابيه والحجاج وواصل بن عطاء، فضلاً عن رسائل لعبد الحميد الكاتب، والجاحظ. وإن أنسَ لا أنسى مجيء مدرّس جديد في منتصف العام حديث التخرّج من دار العلوم، إنَّ أول نص شرحه لنا وألزمنا بحفظه هو وصف ابن المقفع لمن سماه «أخاً» وبدأه بقوله: «كان لي أخ».

وهو وصف للانسان الكامل المروءة الذي هو المثل الأعلى في الأخلاق. وقد تأثرت به كل التأثُر، وحاولت ـ ولكن هيهات أن أتأسى به. بيد اني لا أزال أحفظ هذا الوصف منذ ذلك التاريخ (سنة ١٩٢٩) حتى اليوم.

فأين هذه النصوص الرائعة الجزلة من النصوص الغثة التافهة التي يقرأها تلاميذ المدارس اليوم في مصر، ليس فقط في المدارس الابتدائية، بل في الاعدادية، بل في الثانوية، بل في الجامعية.

والمسئولية عن هذا الانحطاط المدمّر الذي أودى بالتعليم في مصر تقع كلها على «فرسان التربية» (البيداجوجيا) الذين خرّبوا ـ بمناهجهم التربوية «العلمية» المزعومة ـ التكوين اللغوي والفكري للتلميذ المصري. إنَّ الكارثة التي جلبها هؤلاء «البيداجوجيون» على التعليم في مصر أفظع من كل كارثة أخرى أصابت البلاد، لأنّها دمّرت خير ما فيها، أعني عقول أبنائها.

وإلى جانب تدميرهم لتعليم اللغة العربية، قضوا قضاءً تاماً على تعلّم اللغات الأجنبية. إنَّ اللغة مفتاح لعالم بأسره. ومَن لا يعرف لغة أجنبية حديثة ذائعة الانتشار حافلة بالمؤلفات العلمية الجيدة لا يعرف شيئاً، وليس جديراً بأن يعيش. لقد تفتق ذهن هؤلاء البيداجوجيين الضيق الفاسد عن دعوى كاذبة كل الكذب وهي انه مما يضرّ باللغة القومية أن يتعلم التلميذ لغة أجنبية في المرحلة الابتدائية! ويحكم أيها الضالُون المضلّلون! إنَّ العبرة كما قلنا من قبل. هي بالنتائج. فهل تلميذ اليوم ـ وهو لم يبدأ بتعلم لغة أجنبية إلاّ في المرحلة الوسطى (الاعدادية) أعرف بلغته العربية من تلميذ الأمس الذي تعلّم لغة أجنبية إلى جانب العربية في المدرسة الابتدائية؟! هذا أمر لا يستطيع ان يدّعيه أحد، مهما كان مكابراً بيداجوجياً!

الأمر إذن على عكس ما زعموا. بل دلّت التجربة على ان تعلّم لغة أجنبية حديثة إلى جانب اللغة العربية في المرحلة الابتدائية وما يتلوها هو مما يقوّي ويسند تعلّم اللغة القومية. ان اللغات كالبنيان يشد بعضها بعضاً. لأنَّ الأنماط اللغوية والنحوية متناظرة بين اللغات المختلفة.

وماذا كانت نتيجة عدم تعليم لغة أجنبية في المرحلة الابتدائية؟ كانت النتيجة ضياع اللغة القومية، وإغلاق الباب أمام التعلّم الجيد للغة أجنبية. وها نحن أولاءِ، نرى الطلاب في الجامعات اليوم لا يستطيعون الرجوع الى مصادر مكتوبة بلغة أجنبية، مما أفقر التعليم الجامعي كل الإفقار.

ولهذا صارت الخطوة الأولى الضرورية لإصلاح التعليم في مصر - والعالم العربي - هي العودة إلى تعليم لغة أجنبية حديثة - واسعة الانتشار غنية في المؤلفات - في المرحلة الابتدائية وتخصيص قدر وافٍ من الساعات لهذا التعليم. على ان يتم وفقاً للطريقة القديمة: أي استظهار القواعد النحوية والتدريب على تطبيقها، وحفظ بعض النصوص الشعرية والنثرية السهلة، وحفظ اكبر قدر من مفردات اللغة. إنَّ الطريقة يجب ان تكون تحليلية: الحروف، فالألفاظ، فالجمل. أمَّا ما يُدعى اليوم بالطريقة «الكلية»، أعني البدء بالجملة قبل الحروف والألفاظ - فهو عبث لا يؤدي إلى أي تحصيل. ونفس الحكم ينسحب على تعليم اللغة فيما يسمَّى «معمل اللغة» وما شابهه من ألاعيب ليس من ورائها غير صرف انتباه التلميذ عما ينبغي ان يحصله. وها هي ذي النتائج نشهدها اليوم لاستخدام هذه الوسائل السمعية والبصرية: جهل تام باللغات الأجنبية لدى التلاميذ والطلاب الذين يتعلمون بهذه الأساليب.

وهذا الاخفاق الشنيع يعرف به أولئك الذين يستخدمون هذه الوسائل. ولكنهم يخافون من الاتهام بـ «التخلف» و«الرجعية» و«اتباع الطرق القديمة»، وما الى ذلك من أوصاف كاذبة.

❀ ❀ ❀

وإبّان السنة الثانية في مدرسة فارسكور الابتدائية انبعثت في نفسي نزعة حادة إلى الأدب بل وإلى التأليف! فأرسلت إلى شقيقي الأكبر الذي كان طالباً في السنة النهائية بالمدرسة الشعبية الثانوية في القاهرة (الجيزة) كي يوافيني بكتاب «ماجدولين» للمنفلوطي؛ لأنّي كنت معجباً بأسلوبه. فوافاني به ورحت ألتهمه التهاماً، وأستظهر الكثير من صفحاته ذات النفحة الشعرية، واستعدت قراءته عدة

مرات خلال ذلك العام (سنة ١٩٢٧) وأنا في سنّ العاشرة. وكان له تأثير بالغ في أسلوبي وفي مشاعري. وظلّ هذا التأثير مدى طويلاً، حتى بعد ان عرفت أساليب أخرى واطلعت على روائع الأدب العالمي. ولا أزال أحنّ، حتى اليوم، إلى معاودة قراءة هذا الكتاب. ولم تنقص قراءتي لأصله الفرنسي من اعجابي بتلخيص المنفلوطي هذا لرواية «تحت الزيزفون» (سنة ١٨٣٢) تأليف ألفونس كار (١٨٠٨ ـ ١٨٩٠). صحيح ان الفارق كبير بين الأصل والتلخيص، وان العديد من الصفحات الموجودة في تلخيص المنفلوطي لا مناظر لها في الأصل الفرنسي، والعكس بالعكس. ولكن المنفلوطي بنزعته الرومنتكية المثالية لم يشأ ان يبقي على ما في الأصل الفرنسي من أعمال شائنة منسوبة إلى بطل الرواية: استيفن حتى تظل صورته مثالية رفيعة، زاهية الألوان جامعة لأجمل الشمائل. إنّ المنفلوطي لم يكن يترجم ـ وما كان له ان يفعل ذلك، لأنّه لم يكن يعرف أية لغة أجنبية ـ وإنّما كان يشارك المؤلف الأجنبي ـ الذي يُلخّص له كتابه، في التأليف والصياغة.

ومن خلال «ماجدولين» عرفت اسم جيته ـ الذي سيصبح بعد ذلك أعظم الشعراء عندي، كما عرفت بيتهوفن وأحواله البائسة وعظمة موسيقاه، وان لم يتيسر لي آنذاك ان أسمع هذه الموسيقى التي سأُولع بها كل الولع في عنفوان شبابي وسائر عمري.

إنّ لأُسلوب المنفلوطي سحراً لا يعرفه إلاّ الشباب المرهف الحساسة.

وبعد هذا الأدب الناعم المتمثل في «ماجدولين» أخذت في السنة التالية (سنة ١٩٢٨) في قراءة المجلات الأدبية. وكان شقيقي الأكبر ـ وهبه ـ يأتي بكل ما اشتراه من أعدادها طوال العام الدراسي في الجامعة (كلية الحقوق) لتكون قوتاً للقراءة إبان عطلة الصيف. وهذه المجلات هي: السياسة الاسبوعية، والبلاغ الاسبوعي، ومجلة «الجديد» وصاحبها هو المرصفي. فكنت أقرأ مقالات لمحمد حسين هيكل (باشا) وطه حسين، وعباس العقاد، وعبد القادر المازني. لكن ومنذ اللحظة الأولى انصب معظم اعجابي على طه حسين، ثم محمد حسين هيكل. أمّا العقاد فلم يثر في نفسي أي إعجاب، وقد لازمني هذا الشعور نحوه طوال حياتي. لقد كنت بعد قراءة فصل او كتاب لطه حسين أشعر بحرارة تسري في مشاعري، وحماسة للخلق الفنّي المبكر تزداد كل يوم أواراً، وتعاطف وجداني وفكري يخيّل إليّ ان طريقه هو طريقي المقبل. اما العقاد فلم أكن أشعر بعد قراءته إلاّ بالبرود والسأم. ومهما غالبت نفسي على قراءة مقالاته، فإنّ شعوري بالنفور كان يزداد تمكُّناً من نفسي. كان اسلوب طه حسين كالنهر المنساب في ايقاع عذب رقيق؛

بينما كان اسلوب العقاد كالسيل المتشنج في انحداره من جبل أجرد.

وحسبي الآن هذا القدر من التقويم، فستتاح لي فرص عديدة لتناول هذا الموضوع.

❁ ❁ ❁

ولا بدَّ من كلمة عن مدينة فارسكور التي فيها كانت المدرسة الابتدائية التي تعلمت فيها. إنها مدينة سمجة، لم تترِحْ نفس ابداً إلى المقام فيها، ولهذا كنت أهتبل كل عطلة وعطلة نهاية الاسبوع كي أعود الى قريتي شرباص. وفي شهر رمضان حيث كانت الدراسة تنتهي في الساعة الواحدة، كنت أذهب كل يوم الى قريتي ممتطياً حماراً مخصصاً لذلك. وسماجة فارسكور ترجع إلى عدة أسباب: منها ان اهلها تجار، وفيهم إذن كل ما في التجار من صفات: استغلال، وكزازة، وعدم وفاء، وغش. ومنها انها كانت طوال أشهر الشتاء (ديسمبر ـ يناير ـ فبراير) تغرق في الوحل القذر النتن: الوحل بسبب الأمطار الغزيرة التي لا تتوقف إلاَّ في أوقات قليلة، وليس في المدينة شارع واحد مسقوف، بل كلها تراب في تراب. والنتن لأنَّ في المدينة عدداً كبيراً من معامل السيرج، وهو زيت يُستخرج من السمسم. وكانت هذه المعامل تلقي بفضلاتها البنيَّة اللون في الشوارع مباشرة، فتتكون روائح كريهة قابضة. وكان على الناس ان يخوضوا هذه الأوحال الكئيبة الكريهة كيما ينتقلوا من مكان إلى مكان. وهكذا ايضاً كان شأن التلاميذ في غدوهم ورواحهم إلى المدرسة. وكان ميسورو الحال من التلاميذ الذين هم من أهل البلدة يركبون الحمير في هذا الانتقال، اما أنا، وأنا غريب عن البلدة، فكان عليّ كسائر التلاميذ ان أخوض في الوحل إلى ركبتي فينال الحذاء من ذلك ما ينال وكذلك ساقي، ولولا ان بنطلوني قصير لكان هو الآخر مغمساً للطين. وكنت أشاهد في الصباح الباكر وأنا ذاهب إلى المدرسة أكواماً من قشر الجمبري أمام كل منزل؛ لأنَّ الجمبري كان طعام الفقراء والأغنياء على السواء. لقد كانت الأقة (= ١٢٥٠ جرام تقريباً) تساوي قرشاً واحداً، وفي بعض الأحيان تُباع الأقتان (= ٢٥٠٠ جرام تقريباً) بقرش ونصف! فواعجباً من رخص الجمبري في تلك الأيام؛ لقد صار سعر الكيلو منه اليوم بين ألفين وألفين وخمسائة قرش! فماذا جرى للعالم حتى تبلغ فيه أسعار بعض السلع ألفي ضعف أو يزيد؟! لقد كان الجمبري آنذاك في متناول أفقر الناس، أمَّا اليوم فيعز شراؤه حتى على أغنى الأغنياء. وهكذا الأمر في معظم السلع. فهل هذا هو ثمرة ما يسمَّى بالتقدم التكنولوجي و«ارتفاع مستوى

المعيشة»؟! ولا يقولَنّ «فرسان الاقتصاد» ان السبب يرجع الى تزايد عدد المستهلكين للسلع، فقد كان الجمبري - وغيره كثير جداً من السلع - غذاءً ميسوراً لكل الناس؛ وكان استهلاكه هو وغيره موفوراً عند مئات أضعاف عدد مَن يستهلكونه اليوم. أما دعوى زيادة عدد السكان فهي دعوى داحضة تماماً، لأنّ سكان اليوم هم فقط ثلاثة أضعاف ذلك الزمان.

أمّا الأراضي الزراعية في زمام فارسكور فكان يستغرقها تفتيش (= ضيعة كبيرة) يمتلكه بعض آل حليم، وهم فرع من الأسرة المالكة يقطن بعضهم في استانبول. ويمتد هذا التفتيش من ترعة الشرقاوية حتى بحيرة المنزلة، وقد آل في سنة ١٩٥٢ الى هيئة الاصلاح الزراعي؛ ووزعت اراضيه على صغار الفلاحين. وكان التفتيش يدار ادارة زراعية جيدة، ولهذا كان ينتج من المحصولات ما لم يتحقق مثلها فيما بعد سنة ١٩٥٢.

على ان لفارسكور ذكرى في التاريخ كان يعتز بها أهلها وهو ان توران شاه، ابن السلطان الصالح أيوب (بن الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب)، قد أقام معسكره في فارسكور بعد وفاة والده أيوب في سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٩ م)، تلك الوفاة التي أخفتها شجرة الدر زوجته وأم توران شاه الى ان يصل ابنها الذي كان حاكماً على العراق. وفي معسكره في فارسكور عقد توران شاه المعاهدة مع لويس التاسع الذي قاد الحملة الصليبية السابعة التي انتهت بهزيمته المنكرة في فبراير سنة ١٢٥٠ في المنصورة بفضل بطولة الظاهر بيبرس البغدادي، وانتهى الأمر بأسر لويس التاسع وسجنه في سجن بالمنصورة كان حارسه الطواش صبيح. وبعد عقد هذه المعاهدة التي بموجبها أخلى الفرنسيون دمياط ودفعوا جزية مقدارها ٨٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية. ثار المماليك في جيش تورانشاه على هذا الأخير وقتلوه لأنّه كان يمالىء الجنود الذين أتى بهم من العراق ويفضّلهم على المماليك البحرية الذين كانوا القوة الرئيسية في جيش أبيه الصالح أيوب وإليهم يرجع الفضل في الانتصار على الصليبيين. وبعد قتلهم لتوران شاه في سنة ٦٤٧ هـ (١٢٥٠ م) ولّوا أحد المماليك وهو عز الدين بن أيبك التركماني أتابكاً ثم سلطاناً، وصار بذلك أول سلاطين دولة المماليك التي خلفت دولة الأيوبيين.

ويزعم أهل فارسكور ان لتوران شاه قبراً بين المقابر القديمة في فارسكور القريبة من شاطىء النيل، بل كانوا يشيرون إلى مقبرة مهجورة من بين هذه المقابر على انها قبر توران شاه. وهي اسطورة لا تستند إلى رواية تاريخية صحيحة.

ومن الخطأ التاريخي ايضاً ادعاء وقوع معركة مع صليبيي حملة لويس التاسع تُسمَّى «موقعة فارسكور». إنّما الثابت تاريخياً هو ان جيش الأيوبيين بقيادة الظاهر بيبرس قد انتصر إنتصاراً حاسماً على جيش لويس التاسع في المنصورة في فبراير سنة ١٢٥٠، بدأه بالقضاء على طلائع جيش لويس بقيادة روبير، كونت دارتوا Robert d'Artois: فقتل روبير و٣٠٠ فرنسي و٨٠ من فرسان المعبد وكل الانجليز المشتركين في الحملة. وفي الوقت نفسه قام الاسطول الايوبي في النيل وفي البحر الصغير فدمّر تدميراً تاماً أسطول لويس التاسع. اما بقية جيش لويس التاسع الموجودة على الجانب الآخر من البحر الصغير فقد تقهقرت الى معسكر لويس في الجانب الآخر من البحر الصغير؛ ولم يستطع جيش لويس الصمود في هذا الجانب، إذ طاردهم المماليك وذبحوا معظمهم وأسروا الباقين. ومَنْ أسروا اقتيدوا مقيدين بالأغلال الى المنصورة، وهناك ذبحوا ما عدا الأغنياء منهم ابتغاء أخذ الفدية منهم. وكان ذلك في ابريل سنة ١٢٥٠ م. ومَنْ بقي مع لويس أسروا وأُسر هو معهم وهم في طريق تقهقرهم الى دمياط، وكان أسرهم في قرية منية الخولي عبدالله (= ميتة الخولي عبدالله) التي تبعد حوالى ١٥ كم جنوبي فارسكور. وهكذا قضي على جيش لويس التاسع، وأُسِرَ هو، قبل فارسكور بخمسة عشر كيلومتراً أو يزيد. ولم يكن ثم مجال إذن لوقوع أية معركة بين جيش لويس التاسع وجيش توران شاه الذي عسكر في فارسكور. ان المعركة الوحيدة في هذه الحملة الصليبية السابعة هي معركة المنصورة فقط. وانا لم أجد في أي مصدر تاريخي ذكراً لما يُزعم أنّه «موقعة فارسكور!».

❀ ❀ ❀

وحصلت في مايو سنة ١٩٢٩ على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية من مدرسة فارسكور الابتدائية، وكان ترتيبي هو الرابع والخمسون بعد الثلثمائة (٣٥٤) من مجموع الحاصلين على الشهادة الابتدائية في القطر المصري، وكان عددهم حوالى المائة ألف.

- ١٠ -
المرحلة الثانوية

واثر حصولي على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية التحقت - في سبتمبر سنة ١٩٢٩ - بالمدرسة السعيدية الثانوية في الجيزة على الشاطىء الأيسر من النيل أمام القاهرة. وكان قد سبقني إلى الدراسة الثانوية فيها اخوان. ومن ثم صارت هي المدرسة الثانوية التي يمضي فيها كل أبناء الأسرة المرحلة الثانوية من دراستهم. وهكذا تواصلت الدراسة الثانوية لي ولإخوتي جميعاً من سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٤٧ دون أي انقطاع: أحياناً بفرد واحد، وأحياناً ثانية بفردين، وأحياناً ثالثة بثلاثة أفراد.

وقد أُنشئت المدرسة السعيدية (نسبة إلى سعيد باشا والي مصر) في سنة ١٩٠٨، وكان نُظّارها الأوائل من الانجليز. لهذا كان بيت الناظر منزلاً جميلاً من طابقين، تحيط به حديقة وافرة الأشجار والأزهار. والمدرسة نفسها تقوم في بقعة حافلة بالأشجار والأزهار والنباتات الفريدة. فمن ناحية الغرب كانت تحيط بها بساتين وزارة الزراعة ومن الشرق تحيط بها حديقتان عظيمتان هما: حديقة الحيوان، وحديقة الأدرمان. وكلتاهما غنية جداً بالأشجار النادرة العديدة الأنواع، وبروضات الزهر المفوّف الفريد الألوان والأجناس، فضلاً عن البرك الصناعية والشلالات الصغيرة، والطرق المعبّدة بالحجارة البديعة الألوان في تنظيم هندسيّ متقن. وكان الشارع الفاصل بين المدرسة السعيدية وبين حديقتي الحيوان والأدرمان تصطف على جانبيه صفوف سامقة من أشجار الجكرندة، وفي الربيع والصيف وشطر من اوائل الخريف تحمل أشجار الجكرندة والغلاميوايان أزهاراً بنفسجية وحمراء وصفراء تبث في الشارع جواً ساحراً محموماً. وكانت الطيور الضخمة: من الغربان والكروان والصقور والرخم تجثم على هذه الأشجار إبان الليل، ثم تطير في الصباح الباكر وهي تصدح بمختلف الأصوات: منها العذب الرخيم، ومنها الناشز المزعج. وكان لصوت الكروان منها أثر بديع مطرب في الأسماع، خصوصاً في الليالي القمرية.

وكانت المدرسة السعيدية تعد في ذلك الوقت أرقى المدارس الثانوية في القاهرة، ولذلك كان يؤمُّها أبناء الطبقة الراقية والطبقة الحاكمة، وقلّما تخلو من ابن رئيس للوزراء او واحد من الوزراء الحاليين او السابقين، فضلاً عن أبناء كبار الأثرياء والأعيان من كلا الوجهين: البحري والقبلي. وإلى جانب هؤلاء كان

يدخلها بعض أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة، خصوصاً من أبناء مديريتي قنا وأسوان، لأنَّهم كانوا يقبلون فيها مجاناً لميزة أعطيت لهاتين المديريتين بسبب ما يسودهما من فقر مدقع. ولهذا كنت ترى في هذه المدرسة طبقتين متناقضتين تماماً أبناء ذوي النقود والأثرياء من ناحية، وأبناء الفقراء والطبقة الوسطى من ناحية أخرى. لكن لم يكن هناك صراع بين الطائفتين بل انحصر النزاع والتنافس بين أبناء الطبقة الواحدة.

لكن كان هناك نزاع فريد في نوعه بين طائفتين من نوع آخر، نقيم كلتاهما في داخل المدرسة تبعاً لما يعرف بالنظام الداخلي: أي المسكن والمأكل في المدرسة. وكان السكن في عنابر واسعة تشمل ما بين عشرين وثلاثين سريراً وإلى جانب كل سرير دولاب للملابس. أمّا هاتان الطائفتان المتحزبتان فهما: أبناء وجه بحري، وأبناء الصعيد. ويتزعم الطائفة الأولى أبناء بور سعيد، بينما يتزعم الثانية أبناء قنا واسوان. وتحرص كل واحدة منهما على اتخاذ عنابر خاصة: فهذا عنبر أهل بور سعيد، وهذا عنبر أعالي الصعيد. وإلى هذين الطرفين المتقابلين ينحاز أبناء سائر بلاد الوجهين. كذلك اذا قامت معركة بين الطرفين المتقابلين، انحاز أبناء الوجه البحري الى أبناء بور سعيد؛ وانحاز ابناء الوجه القبلي الى أهل الصعيد الأعلى. وكانت هذه المعارك تنشب خصوصاً في شهر رمضان، حيث السهر حتى السحور يدعو الى ازجاء الوقت في المنافسات والمنازعات وألوان الألاعيب والمشاكسات. وكان أبناء الصعيد الأعلى هم البادئين دائماً بالنزاع، وهم المنتهين دائماً بالهزيمة! ورغم ما كانت تتخذه هذه المشاغبات احياناً من عنف، فقد تولّدت بين الجميع صلات وثيقة بقيت حميمة بعد ذلك حتى بعد ان تتفرّق بهم السبل وهم يسعون في الحياة.

وكنت أنا طالباً على النظام الداخلي. وكنت بقلبي مع أهل بور سعيد لأنَّنا جيران لا تفصل بيننا وبينهم غير بحيرة المنزلة، لكنِّي كنت بمعزل عن تلك المشاغبات. وزادني بعداً عنها أنَّه أقام في الداخلية مدرّس جغرافيا كان قادماً لتوه من بعثة بانجلترة، واسمه حسن جوهر (وقد صار فيما بعد وكيلاً مساعداً لوزارة التربية والتعليم). كان مدرساً جادًا، واسع الاطلاع، قد صقلت ذهنه إقامته في انجلترة؛ وكان يؤثر العلم والتحصيل، ولهذا كان يؤثر الطلاب المجتهدين ويرعاهم رعاية خاصة. ولإيثاره للعلم والتحصيل أنشأ في قاعة صغيرة بالطابق الثاني من البلوك الذي يسكن فيه الطلاب الداخليون مكتبة صغيرة، ولكنها ثمينة لأنها كانت تحتوي على عدد من أمهات كتب الأدب العربي، وأخص بالذكر منها: كتاب «نفح

الطيب» للمقرّي، و«شرح سقط الزند» لأبي العلاء المعرّي، و«الحماسة» لأبي تمام، والمنتخبات الشعرية التي اختارها سامر البارودي. وقد أقبلت على قراءة هذه الكتب ـ رغم صعوبة ألفاظها وعباراتها بالنسبة إليّ في تلك السن المبكرة وأنا في الثالثة عشرة من عمري ـ بحماسة شديدة، خصوصاً في شهر رمضان حيث كنت أكبّ على القراءة في هذه المكتبة الصغيرة بعد الافطار مباشرة واستمر حتى ساعة السحور. وكان الأستاذ حسن جوهر يجلس معنا في المكتبة أحياناً، ويسأل عمّا نقرأ بلطف وتقدير. وليس من شك عندي في انه كان لهذه المكتبة الصغيرة تأثير عميق في تكويني الأدبي. وبفضلها تدفّق العَزْفُ الشعري عندي في نهاية سن الثالثة عشرة. فرحت أختشب الشعر، مستعيناً بكتاب صغير في العروض والقوافي يدعى «ميزان الذهب في وزن أشعار العرب» للهاشمي. وابتداء من سن الرابعة عشرة، خصوصاً وبعد ان استظهرت الكثير من القصائد الجاهلية والأموية والعباسية والحديثة، صرت أنظم قصائد طويلة في موضوعات شتى: منها السياسية، والوجدانية وفي وصف الطبيعة.

وفي الوقت نفسه ـ وانا في سن الرابعة عشرة ـ بدأت أقرأ الشعر الانجليزي في نصه الانجليزي. وتصادف ان اشتريت من مكتبة عتيقة صغيرة في شارع محمد علي ـ وكنت قد بدأت في التردُّد على دار الكتب المصرية ـ ثلاثة كتب انجليزية: احدهما ـ ولا أذكر الآن عنوانه ـ في تراجم بعض الشعراء الانجليز، وبه صور ملوّنة جميلة لهؤلاء الشعراء ـ والثاني ديوان جون ملتون الشاعر الانجليزي العظيم في القرن السابع عشر، والثالث كتاب بعنوان Maxims and Reflections تأليف خدابخش العالِم الهندي الكبير. واهتممت بديوان ملتون خاصة، استظهرت منه قصيدتين هما: قصيدة في يوم عيد ميلاد المسيح، ورثاء لوسيداس؛ كما أخذت في حفظ النشيد الأول من «الفردوس المفقود». وصرت منذ ذلك التاريخ حتى اليوم، أعود لقراءة القصيدة الأولى عدة مرات في يوم الكرستمس (عيد الميلاد) في كل عام!!.

ومن ملتون Milton انتقلت إلى الرومنتيك الإنجليز: فبدأت بشلي Shelley واستظهرت قصيدة: «الريح الغربية»، وأقتنيت مجموع مؤلفاته في طبعة Chaudes Classics وأدمت الاطلاع عليها، ومنه انتقلت الى كيتس وأخيراً إلى بايرن Byron الذي استولى على كل نفسي، خصوصاً لنزعته الثورية ولتمرده على كل المعتقدات، ولولوعه بالرحلات. ولهذا جاهدت نفسي على ترجمة خير مؤلفاته وهو «أسفار اناشيد هارولد» وقد ظهرت هذه الترجمة في سنة

١٩٤٥. وصاحب ذلك إعجابي بجبران خليل جبران الذي قرأت له اول ما قرأت مجموعة تدعى «البدائع والطرائف» ومن ثم التمست سائر كتبه العربية: «الأجنحة المتكسرة» و«رمل وزبد» و«المواكب» الخ.

أمَّا الرومنتيك الفرنسيون: لامارتين، وموسيه، وهيجو، وألفرد دي ڤني ـ فإنِّي لم أتمكن من قراءتهم آنذاك، أي وأنا في سن الرابعة عشرة، لأنَّ معرفتي باللغة الفرنسية كانت قليلة جداً، لأنَّ تدريسها كان يبدأ بالمدرسة الثانوية. صحيح ان بعض المجلات الأدبية كانت تنشر ترجمات عربية لقصائد لهؤلاء، لكني لا أذكر انني قرأت لهم فيها شيئاً. وأذكر ان أول ترجمة عربية لشعر فرنسي كانت ترجمة الدكتور طه حسين لقصيدة بودلير: كن عاقلاً أيُّها الألم...، وقصيدته: «النافورة»؛ وبعض قصائد لسولي پرودوم منها القصيدة التي مطلعها: «زرق أو سود كلهن محبوبات وكلهن جميلات، عيون لا تحصى رأين الفجر». وكان ذلك في مجلة «الجديد»، وقد قصد الدكتور طه من ترجمتها مقارنة جمال الشعر الفرنسي بـ «رداءة» شعر شوقي في قصيدته التي مطلعها:

الله أكبر! كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك جدّد خالد العرب

وكان طه حسين آنذاك شديد الوطأة على شوقي.

لكن ليس معنى هذا أنَّني لم أطّلع آنذاك على الأدب الفرنسي، بل بالعكس كنت قد قرأت كتاب محمد حسين هيكل: «جان جاك روسو: حياته من كتبه»، كما قرأت ما ترجمه حافظ ابراهيم من قصة «البؤساء» لفكتور هوجو (وهو لم يترجم منها إلاَّ خمسها تقريباً، ولا أدري لماذا لم يتمها)، وكانت ترجمته هي نفسها قطعة من النثر الفنِّي العربي الرائع الأسلوب.

لماذا لم أقرأ إلاَّ هذا القدر؟ لسبب بسيط واضح، هو أنَّه لم يكن ثَمَّ ترجمات لأمهات الأدب الفرنسي، ولا أي أدب كان. ولماذا كانت الحال كذلك، رغم وجود عدد كبير ممن يحسنون اللغتين الانجليزية والفرنسية، ويتعاطون حرفة الأدب؟ لسببين: الأول أنَّهم كانون يظنون ان قدر المترجم أقل كثيراً من قدر الكاتب المنشىء، فربأوا بأنفسهم عن ان يترجموا. وهذا خطأ فاحش، فكم من مترجمين كانوا أعظم قدراً وأخطر أثراً وأعم فضلاً من «مؤلفين» لا حظ لهم من «التأليف» إلاَّ التبسيط والجمع والاقتطاف من هنا وهناك. ـ والسبب الثاني ـ وهو الصحيح في نظري ـ ان الترجمة الدقيقة أصعب من ذلك «التأليف» بكثير وأشدّ كشفاً للغلط والجهل، لأنَّ المترجم مرغم على فهم معنى ما يترجمه، ويحتاج الى

اتقان تام للغة التي ينقل عنها وتلك التي يُنقل اليها. أمَّا «المؤلف» فلا يعبر إلاَّ عمَّا يفهم، ولا عليه إن أغفل كل الصعوبات، فلن يحاسبه على ذلك أحد. إنَّ ثمَّ وسيلة لمراقبة المترجم، أمَّا «المؤلف» فلا رقابة عليه.

وإنَّه لوضع مؤلم بل مأساوي حقاً ان يجد القارىء الفرنسي او الانجليزي أو الألماني أو الايطالي أو الأسباني أمهات آداب اللغات الأخرى مترجمة الى لغة ميسّرة للإطلاع عليها بهذه اللغة، بينما لا يجد القارىء العربي إلاَّ النادر جداً من هذه الأمهات مترجمة الى لغته العربية. واذا كانت هذه هي الحال في الأدب، فما بالك بسائر فروع العلم والثقافة!!

إنَّ بعض الذين أتقنوا العربية ولغة أجنبية عزَّ عليهم ان يُعدوا مترجمين، فلم يترجموا؛ وحاولوا ان يكونوا «مؤلفين» فأخفقوا. وهكذا مضوا عن هذا العالم دون ان يتركوا شيئاً ينفع الناس ويحقق لهم المجد. لكن لنكُنْ وجوديين ولنقل: لو كانوا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً لفعلوه؛ وإلاَّ فماذا منعهم من ان يفعلوه؟!

وعلى الرغم من الجهود التي بذلت في هذا المضمار في السنوات الخمسين الأخيرة، فإنَّ ما تحقّق لا يساوي واحداً على الألف مما ينبغي ان يكون قد تحقق.

ولا علاج لهذه الحال إلاَّ بضرورة اتقان لبعض اللغات الأجنبية ذات الانتاج الرفيع ـ فهذا أمر لا مفرّ منه لكل عربي يريد ان يكون ذا شأن في هذا العالم.

❀ ❀ ❀

أمَّا الأدب الالماني فكان أول اتصال عميق به في السنة التالية، سنة ١٩٣٢، وأنا في الخامسة عشرة من عمري.

كان العام عام الذكرى المئوية الأولى للشاعر الألماني الأكبر يوهان تلفجانج جيته Goethe. وكانت الصحف الأدبية والصفحات الأدبية في صحف العالم تفيض بالمقالات عنه. وشارك بعض الكتّاب المصريين في هذه الحركة: فكتب محمد حسين هيكل مقالاً عاماً سطحياً عن معرفته لأول مرة بجيته عن طريق حضوره لأوبرا فاوست وموسيقى جونو. وكتب عباس محمود العقاد كتيباً صغيراً تافهاً عن جيته بعنوان: «تذكار جيتي(!)». وقرأت المقال والكتيّب فلم يفيدا إلاَّ في عزمي على المزيد من الاطلاع على كتب عن جيته وعلى بعض مؤلفاته ولم أجد مترجماً له إلى العربية غير كتابين هما: «آلام فْرتر»، بترجمة أحمد حسن الزيات، و«فاوست» القسم الأول بترجمة د. محمد عوض محمد. وترجمة الزيات لـ «آلام فْرتر» كانت عن الفرنسية،

وبأسلوب الزيات الحافل بالصنعة والمحسنات البديعية؛ لكن كان بهذا القدر أيضاً بعيداً عن الأصل كثيراً: فالجملة المؤلفة من خمس كلمات مثلاً في الأصل، كانت تترجم بعشر كلمات أو يزيد وفيها المحسّنات اللفظية والمترادفات والألفاظ ذات الجرس الطنان. فضلاً عن ان الترجمة (أو الترجمات ـ فيما يزعم) الفرنسية التي نقل عنها لم تكن هي الأخرى دقيقة. فزاد هذا من البعد عن الأصل بعداً آخر. أمّا ترجمة محمد عوض محمد للقسم الأول من «فاوست» فكانت فيما يقول عن الألمانية؛ وهو امر أشك فيه كثيراً، لما هنالك من بُعد واضح بين الأصل الألماني (وليقارنها القارىء بترجمتي أنا لهذا القسم من فاوست) وبين ترجمته العربية، فضلاً عن ان د. عوض قد ألمَّ باللغة الألمانية إلمامة يسيرة عامة أثناء أسره في مالطا مع أسرى المان إبّان الحرب العالمية الأولى هو ونفر من الوطنيين المصريين المناوئين للانجليز، أذكر منهم محمود الدسوقي (الذي صار سكرتيراً شرقياً للسفارة الألمانية في القاهرة في العشرينات والثلاثينات) وحامد العلايلي. الذي كان سكرتيراً خاصاً للخديوي عباس حلمي الثاني، وكان من أعيان دمياط ونائباً عنها في المجلس النيابي عدة مرات بعد وفاة أخيه عبد الحليم العلايلي في سنة ١٩٢٧. ولم ينمِّ د. عوض هذه الإلمامة اليسيرة باللغة الالمانية فيما بعد بحيث يقتدر على ترجمة نص صعب مثل «فاوست» عن الأصل الألماني.

فلم تسعفني إذن هاتان الترجمتان، بل حملتاني على أمرين: الأول البدء في تعلُّم اللغة الألمانية، وهو ما فعلته ابتداء من اكتوبر سنة ١٩٣٢ في مدرسة راهبات القديس شارل بوروميه في باب اللوقه والراهبات المانيات ويدرّسن لطالباتهن الصغيرات اللغة الألمانية وكثيراً من العلوم بهذه اللغة. وقد التحقت أنا بدروس ليلية كانت تلقى مرتين في الاسبوع (الثلاثاء والخميس) لمدة ساعتين في كل مرة، ويتولى القاءها مدرّس للغة الالمانية في كلية العلوم بجامعة القاهرة هو: هر فرنك Franck. وكان الأستاذ فرنك شديد الاخلاص لعمله هذا، متحمساً لآرائه، محباً للغته، فأفادني كثيراً طوال العامين (١٩٣٢ ـ ١٩٣٣، ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤) اللذين التحقت بهذه المدرسة فيهما. وفي العام الأول منهما كنت لا أزال طالباً داخلياً في السعيدية. وكان ممنوعاً علينا الخروج من المدرسة بعد المغرب. لهذا كنت أضطر إلى القفز من فوق سور المدرسة ـ وهو سور حديدي تنتهي أعمدته بأسنان مدببة كثيراً ما خرقت نعل حذائي!! ونظراً لما

كان لهذا الاستاذ ـ فرنك ـ من فضل عظيم عليّ في تعلم اللغة الالمانية، فإنّي حزنت عليه حزناً شديداً لما ان علمت بمقتله وهو يحارب في جبهة الأردنّ في بلجيكا في الفترة ما بين ١٠ الى ٢٨ مايو سنة ١٩٤٠، إبان الغزو الألماني لبلجيكا وهولندة.

والأمر الثاني هو ان أستعين باللغة الانجليزية في الاطلاع على الأدب الألماني بعامة وعلى مؤلفات جيته بخاصة. ووجدت في مجموعات Everyman's Library بغيتي: وبدأت بترجمة مفصلة لجيته كتبها G. Lewis سنة ١٨٥٥. وقرأت ترجمة «فاوست» بقسميه في ترجمة منظومة قام بها A.G. Latham (سنة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٦)؛ كما قرأت ترجمة لـ «ڤلهلم مايستر» قام بها توماس كارليل سنة ١٨٢٤، وهو خير من أدخل جيته إلى الإنجليز. ولم أكتف بهذا، بل اطلعت على أربعة عشر مجلداً أصدرتها مكتبة بون Bohn's Standard Library في الفترة ما بين ١٨٤٦ الى ١٨٩٠ واشتريتها من مكتبة ألمانية في القاهرة هي مكتبة فنك Finck التي كانت تزخر بأثمن الكتب الألمانية والانجليزية، وكان مقرها عند تقاطع شارع عماد الدين شارع فؤاد ـ فيما أصبح غداة اعلان الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩ وطرد الألمان من مصر ـ فرعاً من فروع جروبي يدعى «الأمريكيين»!!

ويا حسرة على ذلك العهد الزاهر للمكتبات الألمانية في القاهرة في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن! كنت أعرف منها ثلاثاً هي: مكتبة فنك هذه، ومكتبة اوفرهم Overhamm (التي حلّت محلها مكتبة النهضة المصرية، ٩ شارع عدلي)، ومكتبة لينهرت ولاندروك (التي لا تزال قائمة ـ في نطاق ضيق جداً مع ذلك، حتى اليوم). واقدمها مكتبة فنك لأنها كانت موجودة قبل الحرب العالمية الأولى، أي قبل سنة ١٩١٤، وإن كنت لا أعلم متى أُنشئت. وكانت المكتبة الأولى منها حافلة بالكتب باللغتين الألمانية والانجليزية، بينما كانت الثانية متخصصة في الكتب الألمانية، وكانت الثالثة تهتم بالكتب العلمية بالألمانية والانجليزية وعلى كل حالٍ كان من السهل جداً طلب الكتب الألمانية من ألمانيا عن طريق هذه المكتبات الثلاث؛ بحيث تصل إليك في خلال اسبوعين اثنين.

أمّا في الوقت الحاضر، فما أتعس ما صارت إليه حال كل المكتبات ذات الكتب الأجنبية في مصر! لقد صارت في حكم المعدومة أو تكاد. وهو مقياس دقيق ايضاً لما صارت إليه حال الثقافة بعامة في مصر الآن. ولا يقولن أحد إنّ

السبب في ذلك هو زوال الجاليات الأجنبية من مصر، فهذا فقط واحد من عدة أسباب، لأنَّ المصريين الذين كانوا يتردّدون على هذه المكتبات الأجنبية لا يقل كثيراً عن عدد الأجانب. كان هذا وعدد المتعلمين في مصر لا يزيد عن ٢٠٪ وعدد السكان ١٤ مليوناً، بينما المتعلمون «الآن ٦٠٪ وعدد السكان ٤٨ مليوناً! وهذه كلها وقائع مادية وأرقام تدمغ كل مكابر، وتفضح أمام الملأ أولئك المسئولين عن هذه المحنة الكبرى التي نعانيها منذ ثلاثين عاماً ونيفاً.

❀ ❀ ❀

وأعود إلى المدرسة السعيدية فأقول إنَّ هيئة التدريس فيها كانت جيدة بوجه عام: كان يقوم بتدريس اللغة الانجليزية مدرّسون انجليز غالباً؛ وأذكر منهم اثنين ممتازين حريصين على التعليم، هما ماك ناني Mac Nany وهنتر Hunter. كان أوّلهما جاداً كل الجد، لا أذكر انه ابتسم ولو مرة واحدة، ناهيك ان يضحك. وكان حريصاً على تصحيح الأخطاء النحوية واللغوية في الحال عندما ينطق طالب بأي خطأ، ولو كان الخطأ شائعاً. اذكر مثلاً أنّني كنت أقول، حين ينتهي الدرس ويستمر هو في التدريس time is over فيصحح عبارتي في الحال قائلاً time is up ـ وهكذا باستمرار. وكان يتقن نحو اللغة الانجليزية اتقاناً تاماً ويحرص على شرح قواعد هذا النحو وتحليلها. ولما كنت أنا أيضاً مولعاً بالنحو ـ في أية لغة كان ـ فقد كنت أستعين بكتاب جيد في نحو اللغة الانجليزية من تأليف Brackenbury وكان يصرف في سنوات سابقة، وصرف لأخي الأكبر فأخذته منه. أمّا ما كان يصرف لنا فكان كتاباً أشد تبسيطاً، إذ بدأت عند بداية الثلاثينات هذه الحركة الآثمة لتبسيط النحو المقرر على طلاب المدارس الثانوية، هذه الحركة التي انتهت فيما بعد بالمهزلة الكبرى في تعليم اللغة الانجليزية وهي ما عرف بطريقة West والتي بها سينهار تدريس اللغة الانجليزية انهياراً تاماً في المدارس الثانوية في مصر. وواكب هذه الحركة ـ بالنسبة إلى اللغة العربية ـ استعمال كتب «النحو الواضح» تصنيف علي الجارم ومصطفى أمين، مما سينجم عنه انهيار في تدريس النحو واللغة العربية هي الأخرى.

أمّا هنتر Hunter فدرّس لي في السنة الخامسة. ولما رأى تفوّقي في اللغة الانجليزية وقراءاتي العديدة في آدابها، توثّقت العلاقة بينه وبيني، فكان يمدّني بالملحق الأدبي لجريدة «التايمز» في كل اسبوع، وأحياناً بالأعداد

التي يفرغ من قراءتها من صحيفة «التايمز» اليومية؛ كما كان يعيرني بعض الكتب الأدبية والتاريخية مثل «مقالات» ماكولي Macauly و«الثورة الفرنسية» لكارليل، ومجموع من مقالات مجلة The Spectator، «وحياة دكتور جونسون» لبوزول Bosoell و«رحلة حاج» بنين Bunyan.

ولا بدَّ لي ان أذكر مع هذين الأستاذين المجتهدين الحريصين على العلم مدرساً انجليزياً آخر سيكون له دور في المخابرات البريطانية في مصر فيما بعد، وفي المحاكمات التي عقدت بعد قيام الثورة. كان يدعى اسونبرن Suinburne، وكان حين أتى للتدريس في السعيدية شاباً لا يتجاوز الثلاثين. وقام بتدريس اللغة الانجليزية لي وأنا في السنة الثالثة. وكان جيداً في علمه وفي تدريسه، ولكنه كان يحب النقاش في الأمور السياسية معنا نحن الطلاب. فلما رأيت منه ذلك، فاجأته ذات يوم بكتاب ولفرد اسكاون بلنت Blunt وعنوانه: «فظائع انجليزية اثناء الحكم البريطاني في مصر» وقلت له: إنَّ هذا كتاب ممتاز وفيه خير رد على دعاواك. فاشتد احمرار وجهه وانتابه غضب كظيم شديد وقال مشيراً إلى مكان طبع الكتاب على الغلاف: إنَّه طُبع ونشر في انجلترا ـ ليدلل بذلك على حرية الفكر والنشر هناك. فقلت له: هذا أدعى إلى تصديق كل ما جاء فيه.

وتركت انا السعيدية لالتحق بكلية الآداب، وتركها هو بعد ذلك بعامين ليعين مدرساً في كلية التجارة. ولم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك طوال عشرين عاماً. ثمَّ أُفاجأ بأنَّه تقدم إلى «محكمة الثورة» في سنة ١٩٥٣ بتهمة تأليفه جماعة لتأييد الانجليز في مصر والتخابر. وقد حكم عليه بالسجن، ثم أُطلق سراحه بعد عامين.

❀ ❀ ❀

أمَّا مدرّسو اللغة الفرنسية فقد برز منهم اثنان: احدهما يدعى جوييو Juyau، والآخر لوكوانت Lecointe، لم يدرّس لي منهما إلاَّ الأول. ذلك في السنة الخامسة. كما في سائر السنوات فقد درّس لي اثنان آخران كانا ضعيفي المستوى. لكن كان في السعيدية مدرّس سينال بعض الذكر، ويدعى ماير Meyer، وكان يهودياً، وتزوّج من أسرة سيكورلي صاحب المحلات الكبرى في القاهرة. وكان ماير مراسلاً لصحيفة Le Temps، كبرى الصحف الفرنسية قبل الحرب العالمية الثانية، وهي التي ستخلفها جريدة Le Monde ابتداءً من سنة ١٩٤٥. وقد ترك ماير المدرسة السعيدية في سنة ١٩٣١ ليفرغ لمراسلة

جريدة «الطان» Le Temps، ولا أدري ماذا كان مصيره بعد ذلك.

❀ ❀ ❀

وهنا نصل الى اللغة العربية وتدريسها ومدرّسيها. ومعها ننتقل من الجد إلى الابتسام بل والسخرية والضحك، لأنَّ القائمين بتدريسها لا يثيرون إلاَّ الابتسام، أو السخرية أو الضحك، باستثناء شخص واحد لم يبق في السعيدية غير عام واحد او عامين، وهو الشيخ عثمان أبو النصر، الذي نقل من دار العلوم إلى التعليم الثانوي لأسباب سياسية، إذ كان وفدياً ـ وقد صار فيما بعد نائباً وفدياً ـ وكانت الوزارة هي وزارة اسماعيل صدقي. لقد كان الشيخ عثمان ابو النصر مدرساً مهيب الطلعة بجبته وقفطانه وعمامته، وكان جاداً حريصاً على كرامته، لا يتبذل ولا يترخص مع التلاميذ. وكان في العلم حسناً، وإنْ لم نفهم شيئا. وقد تتلمذت عليه في السنة الثانية، ولاجتهادي وتفوقي في اللغة العربية وآدابها كان يؤثرني بتقديره. ولم أره بعد ذلك إلاَّ في الامتحان الشفوي للغة العربية في البكالوريا، فعرفني على الفور وطلب منِّي أن أنشد قصيدة من شعري أنا، بدلاً من شعر غيري الذي كان مطلوباً من سائر الطلاب. وأعتقد أنَّه أعطاني الدرجة النهائية في شفوي اللغة العربية ـ وأقول: أعتقد؛ لأنَّ الشفوي كان يضم إلى التحريري، فلا أعلم على وجه الدقة ماذا كان نصيب كل واحد منهما في الدرجة التي ظفرت بها، وهي على كل حال ٣٩ من ٤٠.

وعلى النقيض تماماً كان استاذ آخر هو الشيخ عبد الرحيم محمود؛ ولم أتتلمذ عليه، لكنه كان هدف السخرية والتشغيب من الطلاب بحيث كان معروفاً لكل الطلبة. وكان حين يمشي في الطرقات بين الفصول ينبذ بأحط العبارات، وكان هو يرد عليها بأقبح منها دون أدنى تحرّج. كان يرى في نفسه انه من أعلم ـ إن لم يكن هو أعلم ـ الناس باللغة العربية. ولهذا كان حريصاً على تصيّد الأخطاء اللغوية والنحوية الشائعة بين الشعراء والكتّاب، ويزعم انه وجه النقد لأصحابها مباشرة. فكان يقول مثلاً: «بائس: تجمع على بائسين، ومن الخطأ جمعها على «بؤساء» وقد نبهت حافظ ابراهيم: (الشاعر) على هذا الخطأ وطالبته بضرورة تصحيحه في الطبعة القادمة». وكنا لا ندري مدى صحة هذا الخبر، لكننا كنا نصدّق كلامه حين نذهب إليه وهو واقف في الطرقة بين المدرسين، اغراء بمشاغبته. وكان يحفظ الكثير من الشعر العربي، قديمه ومتوسطه، ولا يحفل أبداً بحديثه. ويحب من الأدب العربي الملح والنوادر المضحكة. وأذكر له محاضرة

عامة في المدرسة حضرها الكثير من مدرّسي العربية والطلاب، المحبين للتفكه والسخرية منه، وكانت عن «حذاء أبي القاسم»، وهي حكاية مشهورة (تجدها بسهولة في «مجاني الأدب») يستخدم مجملها فنضحك طوال الوقت، خصوصاً وهو يتشدد في فصاحة النطق بحكاية شبه شعبية، ويكثر من التعليقات النحوية واللغوية التي لا شأن لها بسياق الحكاية. لكنه كان كذلك حتى في دروسه: يستطرد، ويتشعب به الكلام دون ارتباط. فيبدأ الدرس مثلاً بالكلام عن «كان واخواتها» وبعد دقائق يتنقل بين الملح الأدبية والأشعار الهزلية وحداة العيس في البادية وهم ينشدون «الأرجاز» او يتحدث عن علاقاته ومقابساته مع بعض اهل اللغة والأدب المعاصرين. والطالب المصري ـ وربما سائر الطلاب في العالم ـ اذا كان بليداً فإنَّه شرير مشاغب منحط السلوك مع هذا النوع من المدرسين. لا يتورع عن شتم معلمه الطيب الساذج وايقاع مختلف صنوف الأذى به: مثل رشقه بقطرات الحبر في ظهره، ووضع الدبابيس على مقعده، والنداء عليه من بعيد بأفحش العبارات ـ فضلاً عن احداث الضجيج والصفير في الفصل ابان الدرس.

ومن سوء حظ الشيخ عبد الرحيم هذا أنْ شاهده أحد الطلاب في إحدى المدارس وهو يحمل «فراخاً» قد اشتراها من السوق ومضى بها إلى أهله. وإذا بهذا الطالب يخبر سائر التلاميذ في فصله في اليوم التالي، فيطلقون عليه اسم: «الشيخ فراخ!» وظلَّ تلاميذ تلك المدرسة ينبذونه من بعيد بهذا اللقب حين يمرّ في الطرقات وهو ذاهب إلى الفصل. ثم نقل الشيخ عبد الرحيم من تلك المدرسة إلى مدرسة ثانوية أخرى فأبلغ تلاميذ المدرسة الأولى تلاميذ المدرسة الأخرى بهذا اللقب، فانتقل اللقب معه! وهكذا ظلَّ هذا اللقب ينتقل مع الشيخ عبد الرحيم أينما انتقل، وصار لقمة ملازمة له لم يخلص منها طوال عمله في التدريس، وربما إلى آخر عمره ايضاً!

وثمَّ شيخ ثالث اسمه منصور بشر. وكان يجمع بين الطيش والنزق وبين الفتوة والجهل. كان ضخم الصوت والبدن، يشرح الدرس وكأنَّه ينادي على بضاعة في السوق. تولّى التدريس لي وأنا في السنة الرابعة. وكانت شهرتي بقرض الشعر والاطلاع على علوم العربيّة وآدابها شائعة بين الطلاب والمدرسين. لهذا كان يهابني ويحسب لرأيي حساباً فيما يثيره الطلاب من أمثلة في النحو وتاريخ الأدب العربي.

وفي ذلك العام ـ عام ١٩٣٢ ـ كانت الضجة قد ثارت حول الدكتور طه حسين وهاجمه عبد الحميد سعيد ـ أحد نواب الحزب الوطني ـ في مجلس النواب

هجوماً شديداً وضمن هذا الهجوم قرأ ما سمّاه مذكرات لأحد الطلاب في قسم اللغة العربية كلية الآداب تسجل محاضرات لطه حسين ألقاها على هؤلاء الطلاب، وكانت تشتمل على نقد فنّي لأساليب بعض الآيات في القرآن، بوصف القرآن نصاً أدبياً يجوز ان يتناوله النقد الفنّي كما يتناول سائر النصوص الأدبية. فجاء الشيخ منصور بشر بالصحيفة التي نشرت هجوم عبد الحميد سعيد، وراح يتلو بعضه علينا ثم علّق عليه قائلاً: «لو رأيت هذا الرجل (أي طه حسين) وهو يقول هذا الكلام، لقتلته على الفور». فما كان منّي ـ وأنا الشديد الحماسة آنذاك لطه حسين ـ إلاّ أن اندفعت قائلاً: «وأنا كنت سأقتلك في الحال!» فثارت ثائرة الرجل، وكان سائر طلاب الفصل في جانبي لأنّهم ساءهم تطاول هذا الشيخ على طه حسين بهذا القول الأحمق، وخرج من الفصل وذهب إلى ناظر المدرسة مطالباً بفصلي من المدرسة!

واستدعاني الناظر ـ الأستاذ عبد اللطيف محمود ـ وكان استاذاً فاضلاً عاقلاً ذا رويّة ونزاهة، يؤثر المجتهدين ويحرص على العلم ـ بعكس سلفيه: محمد رفعت (الذي صار وزيراً في وزارة الهلالي الأولى بعد حريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢) ومحمد فهيم (الذي صار وكيلاً مساعداً بوزارة المعارف) اللذين لم يكن لهما من همّ واهتمام غير الألعاب الرياضية والفوز في مباريات كرة القدم! ولما ذهبت إلى الناظر عبد اللطيف محمود سألني عمّا جرى، فبدأ بإخباره بأنّني أول الفصل وأحد أوائل السعيدية في شهادة الكفاءة. قال: «أنا أعرف انك شاعر وانك متضلّع في الأدب العربي. لكن هل انت مثل أولئك الأزهريين الذين يظلّون شهراً في اعراب بسم الله الرحمن الرحيم!» ويبدو انه استاء جداً من قولة الشيخ منصور التي أوردتها. لهذا راح يداعبني في أمور الأدب ويعاتبني عتاباً خفيفاً، ويطلب منّي الاعتذار للشيخ بطريقة ما، قائلاً في ختام الحديث: «ولو أنَّ هذا الشيخ بمقولته تلك كان يستحق الزجر العنيف، لكن ليس بمثل ما فعلت أنت!» وخرجت من عنده على تفاهم ومودة.

وما أعظم الفارق بين هذا الناظر العالم العاقل، عبد اللطيف محمود، وبين تصرّف الناظر الآخر، محمد رفعت الذي جعلوه بعد ذلك وزيراً للتربية والتعليم، ويا للعار للتربية وللتعليم. فحينما كنت في السنة الأولى، وكنا نحن طلاب الداخلية نذاكر دروسنا في قاعتين كبيرتين تقعان أسفل المبنى الذي كنا نسكن فيه، جاء محمد رفعت ومرَّ بالمكان وسمع ضجيجاً في قاعة المذاكرة، فأتى إليها وطلب من الطالب الذي يشرف على النظام فيها ـ وكان أغبى طالب، لكنه كان يمارس الملاكمة! ـ أن يوافيه بأسماء الطلبة الذين يحدثون الضجيج في القاعة. فاستضعف

أهدأ طالبين وأحرصهم على المذاكرة ـ وأبلغ الناظر الجاهل التافه محمد رفعت اسميهما، وكنت أنا أحدهما! ولما طلبني هذا الناظر في مكتبه في اليوم التالي قلت له إنَّ هذا غير معقول، فإنّي أول طلاب فصلي، وترتيبي في الابتدائية ـ وكنت آنذاك في السنة الأولى ـ من بين الثلاثة الأوَل الذين دخلوا السعيدية ـ فكيف يعقل بعد هذا أنْ أكون أنا الذي أحدثت الشغب في غرفة المذاكرة؟! ولكن هذا الرجل ـ محمد رفعت ـ لحماقته وجهله وطيشه صرخ فيَّ قائلاً: «اخرس! أنت كذاب!» وعاقبني.

وكان لهذا الحادث اثر عميق في نفسي. وصرت أتذكّره بعد ذلك كلما حلَّ بي ظلم دون أي ذنب ارتكبته. وأقنعني بسفالة الانسان، وحماقة تصرفاته، وولعه الشديد بالقسوة على الأبرياء، والخوف من الأقوياء. وأيدت الأحداث بعد ذلك فيما سيحدث لي طوال حياتي صدق هذا التصور للطبيعة الانسانية، وان اللؤم والخسّة والنذالة والولوع بالأذى ـ هي الصفات المميّزة للإنسان. وسيرى القارىء في هذا الكتاب الشواهد العديدة على هذا التقويم.

ـ ١١ ـ
بداية دراستي للفلسفة

ولقد قصرت حديثي حتى الآن على دراسة اللغات وآدابها. فمتى بدأ إذن اطلاعي على العلم الذي سيكون اختصاصي الرئيس ـ أعني الفلسفة؟

كنت وأنا في السنة الأخيرة من المرحلة الابتدائية قد قرأت مقالات عن نيتشه وشوپنهور في مجلتي «السياسة الاسبوعية» و«البلاغ الاسبوعي»، وبعضها للعقاد. لكنها لم تثر في نفسي أية حماسة لطلب المزيد. ثم قرأت وأنا في السنة الأولى من المرحلة الثانوية (سنة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠) كتاب «قادة الفكر» لطه حسين، وكان قد صُرِف لطلاب السنة الرابعة أو الخامسة الثانوية. لكنه هو الآخر لم يزدني حرصاً على خوض هذا العلم، خصوصاً وانه يتألف من مقالات خفيفة كان طه حسين قد نشرها في مجلة «الهلال».

وفي ربيع سنة ١٩٣٢ اشتريت من احدى مكاتب شارع محمد علي مجموعة من المحاضرات المتفاوتة الحجم كان قد ألقاها في الجامعة المصرية القديمة الكونت دي جالارثا باللغة العربية. ومن بينها كتاب كبير الحجم (يقع في حوالى ٤٠٠ صفحة) يحتوي على مختارات مترجمة لپسكال وكنت وليبنتس ومعها

شروحات. أمَّا المحاضرات فلم تعجبني، لأنَّها كانت تُدار بين دي جالارثا وبين طلابه على طريقة المحاورات الأفلاطونية فيما زعم. فكانت تافهة سخيفة. أمَّا الكتاب فقد جذبني خصوصاً النصوص المترجمة عن «الأفكار» لپسكال. ومن هنا صمَّمت على التوسّع في قراءة كتب الفلسفة.

فبدأت بكتاب «مبادىء الفلسفة» تأليف راپوپورت وترجمة أحمد أمين. وأعدت قراءته مرتين لاستيعاب ما فيه. وفي نفس الوقت، إبّان صيف سنة ١٩٣٢، أخذت في قراءة كتاب «علم المنطق» تأليف عبده خير الدين، وكان يدرّس هذا العلم في كلية الحقوق، فكان عند شقيقي نسخة منه، فأنشأت أقرأ فيها، وأُعيد قراءة كل فصل فصل، وكنت أجد في هذه القراءة عسراً غير قليل، لأنَّه كتاب جيد واسع المادة، يفوق طاقة المبتدىء. ولم أستطع استيعاب ما فيه إلاَّ حين درست المنطق في قسم الفلسفة بكلية الآداب.

أمَّا من فروع الفلسفة الأخرى فلم ندرس في المرحلة الثانوية غير علم النفس، وكان درساً واحداً في الأسبوع يلقيه أستاذ فاضل في السنتين الرابعة والخامسة من القسم الأدبي ـ ولهذا كان يتنقل بين خمس مدارس ثانوية ليتم نصابه في التدريس. وهذا الأستاذ هو الدكتور شفيق العاصي الذي دَرَس في النمسا وحصل على الدكتوراه الأولى في الفلسفة من جامعة ڤينا حوالى سنة ١٩٣٠. وكان يقتني مكتبة غنية بأمهات المؤلفات في الفلسفة، وخصوصاً مؤلفات الفلاسفة الألمان، وهو كان يتقن اللغة الألمانية بحكم دراسته في ڤينا. وسيكون له عليَّ فضل عظيم في تزويدي بالمراجع الألمانية لما أن نشبت الحرب العالمية الثانية وانقطع السبيل بيننا وبين ألمانيا.

وعلاجاً للفقر المدقع في كتب الفلسفة باللغة العربية، لجأت إلى اللغة الانجليزية؛ وكان أوّل كتاب في الفلسفة قرأته بالانجليزية هو مجموع مؤلفات فرانسيس بيكون Bacon في طبعة مكتبة Eusrynicaالتي أشرنا اليها من قبل؛ وأعجبني منها خصوصاً الـ Essays ثم تلوته بكتاب «لوياثان» Leviathan تأليف توماس هوبز Hobbes، ثم مختارات من مؤلفات لوك Locke، وهي ايضاً عند نفس الناشر.

ومن ناحية أخرى اقتنيت «مقاصد الفلاسفة» للغزالي، و«النجاة» لابن سينا، وأخذت في قراءتهما فعسر عليّ فهم الثاني، وسهل عليّ تحصيل ما في الأول، لهذا تلمست مؤلفات الغزالي وحدها آنذاك، وكان قد نشر طائفة كبيرة منها محيي الدين صبري الكردي. ولكن هذه النصوص العربية لم تثر في نفسي حماسة للفلسفة

الاسلامية. لهذا مضيت في قراءة ما تيسّر لي من الكتب الانجليزية في الفلسفة. وجذبت اهتمامي مجموعة خاصة كانت تصدرها «مكتبة المفكر» Thicker's Library وكانت تحتوي خصوصاً على كتب ذات نزعة عقلية حرة متحرّرة من العقائد. وكان أول كتاب قرأته منها هو «استشهاد الانسان» The Martyrdom of Man، فقادني الى سائر كتب هذه المجموعة: «لغز العالم» لارنست هكسل، و«الصراع بين العلم والدين» و«مدينة الليل الرهيب»، وهي قصيدة فلسفية طويلة ذات نزعة متحررة من كل عقيدة.

ويبدو أنَّ هذه المجموعة كانت رائجة في مصر، بدليل انك كنت تجدها في معظم المكتبات التي تبيع الكتب الإنجليزية في القاهرة. وهذا شاهد على وجود نزعة عقلية متحررة عند طائفة من المصريين المثقفين. لقد كانت فترة ما بين الحربين والفترة السابقة عليها مباشرة تمثلان أوج النزعة اللبرالية في السياسة والدين والفكر بوجه عام.

وبهذه القراءات ذات الروافد المتعددة استطعت ان أهتدي إلى طريقي الحقيقي في الحياة العلمية وهو: الفلسفة. فاستقر عزمي، إبّان عطلة صيف سنة ١٩٣٣ على التخصص في الفلسفة.

لقد هان شأن الأدب في نظري، ورأيت أنَّه لا يستحق أن يكرّس له المرء حياته: إنَّما هو مرحلة أوليَّة تزود الانسان بأداة للكتابة هي اللغة والأسلوب الجيد، وبحساسة مرهفة لتذوق ما هو جميل. فحسبي إذن ما حصّلته منه كيما أملك هذه الحساسة وتلك الأداة.

ـ ١٢ ـ
بداية اهتمامي بالسياسة

أمَّا السياسة فلم أبدأ الاهتمام الجدّي بها إلاَّ وأنا في سن الخامسة عشرة، أي في سنة ١٩٣٢. أجل، لقد كنت قبل ذلك متأثراً في الأمور السياسية بالاتجاه العام لوالدي وهو الانتماء إلى حزب الأحرار الدستوريين ضد الوفد، وإلى عدلي ومحمد محمود ضد سعد والنحاس، خصوصاً ومصلحة الأُسرة تقتضي ان أشارك في هذا الاتجاه وبحماسة شديدة، لأنَّنا كنا نعاني الكثير حين تكون في الحكم وزارة وفدية، وننعم بالاً وننال حقوقنا إذا كانت في الحكم وزارة يؤلفها عدلي او الأحرار الدستوريون. وكان يغذي هذا الاتجاه عندي ما كنا نقرأه من خطب لعبد

العزيز فهمي، ومقالات لمحمد حسين هيكل او لطفي السيد.

وبغض النظر عن هذا الميل الذاتي، فإنّني لو كنت موضوعياً قد خيّرت بين الوفد وبين الأحرار الدستوريين لما اخترت إلاّ نفس الموقف: أعني الانضمام إلى الأحرار الدستوريين ومخاصمة الوفد ـ وذلك لعدة أسباب، منها:

أ ـ ان الحكومات الوفدية لم تقم بأية أعمال إنشائية مفيدة، بل اقتصر عملها على التهريج السياسي واغداق المناصب والمكاسب على الأنصار والأصهار والمحاسيب، بينما قامت الحكومات غير الوفدية بأعمال انشائية عظيمة، مثل: إنشاء الجامعة المصرية الرسمية في سنة ١٩٢٥، انشاء بنك التسليف الزراعي سنة ١٩٣١ إبّان الأزمة العالمية الطاحنة التي كادت تودي بأطيان معظم المصريين، إذ كانت جلها مرهونة لبنوك أجنبية مثل البنك العقاري (الفرنسي)، وشركة الأراضي (انجليزية)، وبنك الرهونات (مورتجيج Mortgage ـ وهو انجليزي) الخ الخ؛ انشاء محطة السرد للصرف، وقد تمَّ بواسطتها تجفيف مقدار كبير من أراضي الدقهلية، وتحسين صرفها؛ ـ إنشاء اتحاد الصناعات بفضل اسماعيل صدقي؛ ضم مدارس عليا إلى الجامعة سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ بحيث صارت الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) جامعة بالمعنى الصحيح بعد ان كانت لا تضم إلاّ كليات: الآداب، والعلوم، والطب، والحقوق؛ ـ انشاء كورنيش الاسكندرية بعد ان كانت هذه المدينة تدير ظهرها للبحر المتوسط الرائع المنظر؛ الاكثار من محطات الري ومحطات مياه الشرب ـ إلى غير ذلك من عشرات المشروعات الضخمة ذات النفع العام.

ب ـ ان كبار أهل الفكر والعلم كانوا من الأحرار الدستوريين، مثل: أحمد لطفي السيد، عبد العزيز فهمي، محمد حسين هيكل، طه حسين (حتى سنة ١٩٣٢)، مصطفى وعلي عبد الرازق، عبد العزيز اسماعيل (الطبيب)، سليمان عزمي (الطبيب) محمد علي علويه (المحامي)، الخ ـ فضلاً عن ان زعماء الأحرار كانوا على مستوى رفيع من الثقافة: عبد الخالق ثروت، اسماعيل صدقي، علي ماهر، الخ. أمَّا الوفد فلم يضم واحداً من كل أهل الفكر والعلم، وزعماؤه وكبار رجاله يتسمون بالجهل وقلة البضاعة من العلم والثقافة، باستثناء عثمان محرم ومكرم عبيد. ويكفي ان أذكر لك بعض «كبار» رجاله لترى كيف كانت الأُمِّية والجهل والخلو من أية ثقافة هي السمات الغالبة عليهم: المغازي، بهنس، فتح الله بركات، محمود الأتربي، طاهر اللوزي، الشناوي الطوبجي، الخ الخ، بل كان بعضهم لا يعرف (القراءة والكتابة)! وإنَّما كانت مؤهلاتهم هي الثروات الطائلة:

الزراعية والعقارية، وبعضهم (مثل آل ويصا، وخياطه وبطرس في أسيوط والبهنسا) قد حصل عليها بالغدر والخيانة أثناء بداية الاحتلال الانجليزي في العشرين سنة الأخيرة من القرن الماضي، لما احتل الانجليز مصر وصادروا ثروة اسماعيل باشا الخديوي، وخصوصاً اراضي الدائرة البنيّة: لقد حصل أبناء هذه الأسر على أراضٍ واسعة من هذه الدائرة بسعر بضع جنيهات فقط للفدان!! وكان هؤلاء هم عماد الوفد والسبب في تفوقه في الانتخابات النيابية في كثير من الدوائر الانتخابية. ومن المضحك المؤلم معاً أن يدَّعي الدجّالون والجهال في السنوات الأخيرة ان حزب الوفد كان حزب «الطبقة الفقيرة» او «الكادحين» أو «المدافعين عن حقوق الشعب»، الخ. هذه الكلمات الكاذبة الجوفاء، التي لم تنطبق على الوفد في يوم من الأيام منذ انشائه في سنة ١٩١٩، حتى إلغائه ـ وباقي الأحزاب بعد ـ في أواخر سنة ١٩٥٢.

جـ ـ ان تاريخ مؤسِّس الوفد ـ سعد زغلول ـ كان (قبل سنة ١٩١٩ على الأقل) تاريخاً شائناً ينضح بالخيانة والوصولية وممالأة الانجليز المحتلين:

١ ـ ألم يكن وزيراً في وزارة مصطفى فهمي، عميل الانجليز الموغل في الخيانة؟

٢ ـ ألم يتزوج بنت مصطفى فهمي هذا في الوقت الذي كانت فيه مصر كلها تلعن هذا الرجل؟

٣ ـ ألم يكن واحداً من المصريين الستة الوحيدين الذين أقاموا حفلة توديع للورد كرومر حينما اضطرت انجلترة ـ تحت تأثير حملة مصطفى كامل عقب مأساة دنشواي ـ إلى نقله من مصر مشيعاً بكل اللعنات من جانب كل مصريّ وطني مخلص؟

وحسبي هذا القدر، فليس المقام هنا مقام محاسبة هذا الرجل، الذي أضاع السودان في سنة ١٩٢٤.

وخلفه ـ مصطفى النحاس ـ سار على نفس النهج:

١ ـ أليس هو الذي قال بعد مفاوضاته مع الانجليز في سنة ١٩٣٠: خسرنا المعاهدة، وكسبنا صداقة الانجليز؟

٢ ـ أليس هو الذي تولَّى الحكم في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، بأمر من الانجليز الذين هدّدوا بخلع الملك فاروق إن لم يستجب لهذا الطلب، وعززوا التهديد

بالدبابات تقتحم قصر عابدين بقيادة الجنرال ستون Stone وتوعّد مايلز لامبسون بخلع فاروق عن العرش؟

٣ ـ أليس هو الذي ارتكب عشرات الآلاف من المحسوبيات الصارخة والمظالم البشعة التي سجّلها مكرم عبيد في «الكتاب الأسود في النهر الأسود» في سنة ١٩٤٤؟

٤ ـ أليس هو الذي كان يتباهى بصداقته الحميمة لأخسّ معتمد بريطاني عرفته مصر بعد لورد كرومر، وهو مايلز لامبسون (لورد كليرن أوف كليرن) ويحلو له ان تؤخذ له الصور معه ومع زوجته زينب الوكيل؟

إن صفحة اتهام هذا الرجل وسلفه سعد تحتاج الى مئات الصفحات، وقد تولّى تحريرها على مدى خمسين عاماً كتّاب آخرون في سائر الصحف غير الوفدية، فليراجعها مَن يطلب المزيد.

تلك أسباب موضوعية لتفضيل الأحرار الدستوريين على الوفد، إنْ كان لا بدَّ من التفضيل. لكن ما شأني أنا الشاب، في الخامسة عشرة من عمري، وهذا التفضيل؟

لقد كنت مشبوب الحماسة، متوقد الوطنية، لا أحب «السياسة» بالتواءاتها ومنحنياتها ودروبها المظلمة غير المباشرة. ولهذا فإنَّه حينما استيقظ الوعي السياسي عندي وأنا في الخامسة عشرة، لم أرَ في الأحزاب القائمة ما يحقق بغيتي ويتجاوب مع مطامحي.

وبينما كنت أُفتّش في مكتبة تبيع كتباً افرنجية وعربية في شارع محمد علي، عثرت بكتاب بعنوان: «رسائل مصطفى كامل إلى مدام جولييت آدم» ـ فاشتريته لا بسبب مصطفى كامل ولا لمضمونه، بل لأنَّه يحتوي على رسائل مصطفى كامل ـ مؤسّس الحزب الوطني ـ إلى مدام جولييت آدم بالفرنسية مع ترجمة مواجهة لها بالعربية قام بها أخوه علي كامل، بل لأنّي سأستفيد منه في تقوية لغتي الفرنسية. لكنّني لم أشرع في قراءته بالفرنسية حتى جذبني موضوعه فقصرت قراءتي على الترجمة العربية حتى استوعبت ما فيه من حماسة ووطنية وإخلاص في السعي لتخليص مصر من نير الاستعمار البريطاني. وأعجبني خصوصاً قوله: «إنّي أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة». وطمعت في قراءة المزيد عن جهاد مصطفى كامل، فأخذت في قراءة بعض أجزاء من كتاب أخيه علي كامل: «مصطفى كامل

في ٣٤ ربيعاً». ولفت نظري خصوصاً استغلال مصطفى كامل لحادثة دنشواي (وهي قرية صغيرة في المنوفية، كان بعض الجنود البريطانيين قد جاءوا إليها لصيد الحمام في ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦، فانطلق من رصاصهم نارٌ أصابت جرن قمح، فاحترق القمح، فطاردهم بعض الفلاحين، فأُصيب أحد الجنود بضربة شمس توفي على إثرها. وجرت محاكمة هؤلاء الفلاحين، وحكم على بعضهم بالموت شنقاً. وأُقيمت المشانق في القرية) وكانت المحاكمة ظالمة ـ وكان أحد القضاة هو فتحي زغلول، شقيق سعد زغلول مؤسِّس الوفد! ـ فأثار مصطفى كامل هذه المسألة عالمياً ومحلياً. ووجه الاتهام إلى لورد كرومر المعتمد البريطاني ـ كان الحاكم الفعلي غير المتوج ـ في مصر. وأدّت الحملة إلى اثارة الرأي العام العالمي ضد بريطانيا وفظائعها في مصر، تلك الفظائع التي كان كرومر هو المسئول الأول عنها فاضطرت الحكومة البريطانية، وكانت برئاسة Henry Campbell - Bannerman إلى سحب كرومر من مصر، فاستقال في سنة ١٩٠٧، وغادر مصر ملعوناً من جميع أبنائها ما عدا المنتفعين به من أمثال مصطفى فهمي (والد صفية زغلول) وسعد زغلول وبطرس غالي وأمثالهم من عملاء الانجليز؛ وعاد إلى انجلترة متقاعداً لا يشغل أي منصب حتى وفاته في سنة ١٩١٧.

لقد كان لورد كرومر Cromer هو الحاكم الفعلي على مصر طوال أربعة وعشرين عاماً (١٨٨٣ ـ ١٩٠٧) كما لم تتورع عن النص على ذلك «دائرة المعارف البريطانية». فقالت Where 24 - Year Rule in Egypt (جـ ٦ من ٧٩٣ عمود ١ س٤١، سنة ١٩٦٤) رغم ان لقبه الرسمي كان: «قنصل عام»! وقالت أيضاً إنَّه «في علاقاته مع الوزراء المصريين لم يكن للتشاور إلاَّ شأن قليل: لقد كانت لإيحاءاته قوة الأوامر» (الموضع نفسه عمود ٢). وبعد استعادة حكام السودان، والاتفاق الظالم الذي أبرمه كرومر مع رئيس الوزراء في مصر آنذاك، بطرس غالي باشا في سنة ١٨٩٩، وبمقتضاه يكون الحكم في السودان ثنائياً بين مصر وانجلترة، أنكر على مصر كل حق في أية مشاركة حقيقية في هذا الحكم المشترك» (الموضع نفسه). وهو الذي كانت له اليد العليا في المفاوضات بين انجلترة وفرنسا التي أدّت في سنة ١٩٠٤ إلى الاتفاق الدولي بين كلتيهما الذي بموجبه أطلقت فرنسا لانجلترة حرية العمل المطلق في مصر! وهو الذي أساء إلى الحاكم الشرعي للبلاد، عباس حلمي الثاني، في كل مناسبة وأذلّه وأهانه كلما تهيأت له الفرصة التي أحياناً ما تكون من صنعه هو.

فهل يجوز بعد هذا لأي مصري ـ مهما كان حظه من الوطنية ضئيلاً ـ ان يصادق مثل هذا الرجل؟

لكن هذا هو ما فعله الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية، و«المصلح الديني» المزعوم! فقد انعقدت بينه وبين لورد كرومر علاقة حميمة ـ إنْ صحَّ أن توصف بالحميمة علاقة التابع بالمتبوع، والذليل بالجبار، والمطيع الخاضع بالآمر المستكبر. بل كان محمد عبده هو نفسه يتفاخر ويتباهى بهذه العلاقة الوثيقة بينهما، وبينه وبين سلطة الاحتلال، كما ورد في رسالة منه إلى رشيد رضا لما أن خاف هذا الأخير من أن يعتقله الانجليز (راجع رسائل محمد عبده إلى رشيد رضا في «تاريخ الامام محمد عبده» للشيخ رشيد رضا). وقد استغلَّ كرومر علاقته هذه بمحمد عبده فجعله يكتب مقالات ضد محمد علي، رأس الأُسرة العلوية، بمناسبة مرور مائة عام على تولّيه حكم مصر، وذلك في سنة ١٩٠٥، وكان ذلك قبيل وفاة محمد عبده بقليل (راجعها في الكتاب المذكور).

ومع ذلك كان ـ وظل حتى اليوم ـ لمحمد عبده أنصار ومعجبون وممجّدون مغالون!! وإذا سألتهم: ماذا يعجبكم فيه: أهذا التواطؤ على طاغية الاستعمار البريطاني في مصر؟ لم يجدوا جواباً لأنَّ الوقائع تدفعهم، بل لاذوا بدعوى «الاصلاح الديني» وزعموا انه كان «مصلحاً دينياً». فنسألهم: أي إصلاح ديني قام به؟ لم يستطيعوا ان يذكروا إلاَّ تفاهات شكلية، مثل تحليل لبس القبعة ـ وكأن هذا أمرٌ خطير جداً به يكون المرء «مصلحاً دينياً» كبيراً!

وهكذا الأمر في كثير من أمر الشهرة في مصر والبلاد العربية والاسلامية! لقب يطلقه مخدوع أو خادع، فيتردّد بين الناس في عصره، وينتقل من جيل إلى جيل، ولا أحد يتحقّق من صواب اطلاق هذا اللقب وخلع هذه الشهرة!!

ولو كان لمحمد عبده من الانتاج الفكري ما يشفع له في نيل هذا اللقب، لاتسع وجه العُذر. ولكنه كان ضئيل الانتاج جداً، إذ ليس له إلاَّ كتاب صغير هو «رسالة التوحيد» ـ وهي دروس ألقاها في بيروت بعد خروجه من مصر، وهي متن في علم التوحيد واضح العبارة، حسن الأسلوب، لكنه من حيث المادة خجل بسيط لا يفيد إلاَّ المبتدئين في هذا العلم. وما عدا هذه «الرسالة»، ليس له إلاَّ تعليقات لغوية بسيطة على «مقامات» البديع الهمذاني و«البصائر النصيرية للساوي» و«نهج البلاغة» المنسوب إلى الامام علي بن أبي طالب.

قلت إنّني بدأت أُعجب بمصطفى كامل وأقرأ أخباره وآثاره. لكن الحال التي

وصل إليها الحزب الوطني الذي كان هو مؤسّسه في سنة ١٩٠٧ ـ كانت لا تحمل أبداً على الانضمام إلى هذا الحزب في تلك الأيام (سنة ١٩٣٢ وما تلاها): فقد كان رجال الحزب في تلك السنوات: إمّا شخصيات لامعة جيدة الثقافة مثل حافظ رمضان وعبد الرحمن الرافعي وفكري أباظة، ولكن لا طاقة لهم بالعمل السياسي والاتصال الحيّ بالجماهير وتنظيم مؤسسة الحزب في مستوى القاعدة، وإمّا ثرثارين مهيّجين متّجرين بالدين مثل عبد الحميد سعيد؛ وإمّا أعياناً لهم نفوذ في مناطقهم دون أن يصحب ذلك ثقافة وفهم سياسي مثل عبد اللطيف واكد وعبد العزيز الصوفاني.

لهذا لم أجد في أي واحد من هؤلاء مَن يُصلح ان يمثل دعوة مصطفى كامل ومحمد فريد ـ ولهذا اقتصر اعجابي على هذين القطبين العظيمين، وعددت الفترة التي مضت من وفاة محمد فريد في سنة ١٩١٩ إلى ذلك التاريخ ـ أي الثلاثينات من هذا القرن ـ فترة فراغ في تاريخ الحزب الوطني. لقد كانوا يردّدون عبارات تقليدية صارت ترن رنين العملة الزائفة مثل: المطالبة بمصوع وزيلع وهرر ـ في الوقت الذي كان السودان نفسه قد ضاع على مصر؛ ومثل المبدأ الذي صار أضحوكة وهو: «لا مفاوضة (مع الانجليز) إلاّ بعد الجلاء» ـ إذا كان الأمر كذلك، ففيم سيكون التفاوض وما الداعي اليه؟! نعم! لقد تحجّر الفكر السياسي عند رجال الحزب الوطني، ولم يعودوا يتابعون التطورات السياسية والاجتماعية في العالم، ولا في مصر نفسها.

❀ ❀ ❀

ثم كان أن تولى هتلر الحكم في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣، فأثار هذا الحدث دويًا هائلاً في أنحاء العالم وأخذت الصحف تكتب عن مبادىء «الحزب الوطني الاشتراكي الألماني» NSDP المعروف اختصاراً بالحروف الأربعة الأولى من الكلمة الأولى منه Nazi (النازي)، وعن حياة زعيمه أدولف هتلر، وتلخص فصولاً من كتابه: «كفاحي» Mein Kampf؛ فرحت أنا أقرأ ما تنشره الصحف والمجلات العربية، ثمّ تطلعت إلى المزيد فوجدته في الصحف الانجليزية وكنت قد بدأت في قراءتها.

وكان أبرز ما لفت انتباهي في النازية:

أ ـ انها تدعو إلى تحرير المانيا من قيود معاهدة ڤرساي (سنة ١٩١٩) التي فُرِضت على ألمانيا بمقتضى قاعدة: «ويلٌ للمغلوب» veh victi: فقد مزّقت

أوصال المانيا، وضم منها جزء إلى بولندة، وجزء إلى فرنسا، وجزء لتكوين تشيكوسلوڤاكيا؛ وجرّدت أهم مناطقها الصناعية من مصانعها واحتلتها فرنسا، وهي منطقة الرور Ruhr؛ وجرّدت من السلاح منطقة الراين. هذا إلى جانب تجريدها من مستعمراتها في افريقية.

وأنا قد نشأت في وسط شديد الاعجاب بألمانيا، وكان يتمنى لها الانتصار في الحرب العالمية الأولى، ويتغنى بانتصاراتها في السنوات الثلاث الأولى من هذه الحرب. وكان في قريتنا كتّاب صاحبه يدعى الشيخ سيد رزق، كان يقرض الشعر، وقد نظم قصيدة في تمجيد بطولات الألمان في الحرب العالمية الأولى - أذكر الآن مطلعها وهو يوجهها إلى الامبراطور غليوم الثاني.

إليك «غليوم» ألمانيا وبهجتها   منِّي ثناءً بختم المسك أهديه

ويحرّضه على تدمير فرنسا فيقول:

ومدّ شعب فرنسا بالدمار فهم   مُحَلِّلو الفسقِ جهراً في نواديه
بالهاون الضخم والبالون يتبعه   ....الخ

وكان لي أخ يكبرني بستة عشر عاماً يحفظ هذه القصيدة كلها - ولا تقلّ عن ثلاثين بيتاً - ويرددها على مسامعنا بحماسة في الإلقاء مشبوبة، ونحن صغار في الخامسة وما بعدها.

وهذه الحماسة لألمانيا وترجي انتصارها في الحرب العالمية الأولى ترجع إلى عدة عوامل: منها أنَّها كانت حليفة لتركيا، ونحن كنا في مصر لا نزال متعلقين بتركيا بوصفها مقر الخلافة الاسلامية، تماماً كما حدث عند المسلمين في الهند في نفس الوقت؛ ومنها أنَّ عدونا الحقيقي هو انجلترة، لهذا كنا نتمنى لها الهزيمة؛ ومَن الذي كان عليه أن يهزمها آنذاك إلاَّ المانيا؟ - وهو نفس السبب الذي جعل المصريين بعامة أثناء الحرب العالمية الثانية يبتهجون لانتصارات المانيا ويتمنّون لها النصر الأخير.

ب - انها تقوم على أساس التربية العسكرية للشباب وتأهيله لخوض غمار الحرب التي سترد إلى المانيا مكانتها.

وكنت أنا أرى في ذلك الحين ان هذه هي السبيل الوحيدة لطرد المستعمر البريطاني من مصر، ولتكوين دولة قوية ذات مستوى حضاري رفيع يعيد إلى مصر مكانتها الأولى في عهد الفراعنة.. ولم تكن الأحزاب القائمة آنذاك قادرة على تولِّي المهمة، بل كانت غايتها الوحيدة تولِّي الحكم لتحقيق مآربها الشخصية.

وكان الجيش المصري آنذاك غير مؤهل للقتال بل اقتصرت مهمته على الاحتفالات الاستعراضية وقمع الشعب حين تعجز الشرطة.

ومن الخيانة ان يدعو المرء إلى السلم ووطنه يحتله غاصب يسومه أشد أنواع الذلّ والهوان.

جـ ـ أنها باستعادتها لقوة ألمانيا ستجعل من هذه خصماً قوياً لانجلترة، وإذا انتصرت ألمانيا على انجلترة وحلفائها فستكون الفرصة مواتية لتخلّص مصر من براثن الاحتلال البريطاني؛ خصوصاً وانه لم يكن هناك أيّ أمل في ان نتخلص من هذا الاحتلال بقوتنا وحدنا مهما تقوّينا.

لهذه الأسباب الثلاثة سرى الاعجاب في نفسي لتولّي هتلر الحكم في المانيا، خصوصاً وان الأحزاب السياسية التي توالت على الحكم في ألمانيا سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٣ كانت أحزاباً ضعيفة يسيطر عليها الشيوخ واليهود ودعاة الانحلال والفوضى والاستسلام.

❀ ❀ ❀

أمّا الفاشية ومؤسّسها موسوليني Mossolini فلم يثيرا في نفسي أي اعجاب، لأنّه لم يكن وراء الفاشية مبادىء سامية تصلح ان تكون نماذج إنسانية تحتذى. بيد أنّي كنت شديد الاعجاب بحركة البعث والوحدة في ايطاليا وببطليها العظيمين: متسيني Mazzini وجاريبالدي Garibaldi وخصوصاً بأولهما لأنّه كان انساني النزعة، مثالي المبادىء، مفكراً له انتاج فكري يُقْرأ ويُلْهِم، بينما كان جاريبالدي مجرد وطني ثائر وقائد حربي، ناضل في سبيل حرية بلده ايطاليا، كما أسهم في سبيل حريات بلاد أخرى. وكان في مجموعات مكتبة Everyman كتاب من تأليف متسيني بعنوان: «واجبات الانسان» Duties of man يشمل عدة أبحاث ومقالات فكرية وسياسية مترجمة إلى اللغة الانجليزية. فأقبلت على قراءة هذا الكتاب بشغف شديد حتى أعدت قراءته مرتين في عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤.

❀ ❀ ❀

في هذا الوقت، أعني في النصف الثاني من سنة ١٩٣٣ ترامى إلى مسامعي نبأ قيام أحمد حسين وفتحي رضوان ومحمد صبيح وبعض زملائهم بتأسيس حركة وطنية وإصدار جريدة اسبوعية تعبّر عن هذه الحركة؛ أمّا الحركة السياسية فاسمها:

«مصر الفتاة»؛ أمَّا الجريدة الأسبوعية فعنوانها: «الصرخة». فذكّرني اسم الحركة باسم الحركة التي أسَّسها متسيني: «ايطاليا الفتاة» La giovane Italia، كما ذكّرني بعبارة مصطفى كامل التي أشرت إليها من قبل: «إنّي أريد أن أبعث في مصر الهرمة مصر الفتاة».

ولما كنت معجباً بحركة «ايطاليا الفتاة» ومنفعلاً بعبارة مصطفى كامل ـ فقد استهواني أن أتعرّف هذه الحركة، حركة «مصر الفتاة». فأخذت في متابعة ما يصدر من أعداد جريدة «الصرخة». وأعجبت بما فيها من مقالات تفيض بالوطنية والحماسة السياسية، وتحفل بالدعوة إلى العمل الوطني الخالص، ويتردّد فيها نبرات حارّة لإعادة «مجد مصر»، خصوصاً وقد جعلت الحركة شعارها وهتافها هو: «المجد لمصر!».

ومن ناحية أخرى وجدت ان هذه الحركة تقوم من حيث التنظيم العملي على التشكيل العسكري أي على تكوين مجاهدين هم بمثابة جيش للحركة، على غرار «القمصان السمراء» في النازية، و«القمصان السوداء» في الفاشية. والمبادىء التي لا تسندها قوة منظمة تظل مجرد أحلام وردية ومثل عليا عاجزة. فزادني اعجاباً بهذه الحركة انها تنظيم نضالي ايضاً يتخذ اسم «القمصان الخضراء».

فكان بيني وبين هذه الحركة، حركة مصر الفتاة، تعاطف من خارج، إذ لم أنضمّ إليها عملياً، ولم أتصل بأحد من القائمين بها. لكني كنت أدافع عنها ضد خصومها إذا هوجمت، وأواصل قراءة جريدتها دون انقطاع. واستمر هذا الوضع من يناير سنة ١٩٣٤ حتى يناير سنة ١٩٣٨.

وما دمنا لا نزال في بداية سنة ١٩٣٤ ها هنا، فليقف الحديث عند هذا الحد، ولنا عودة أوسع فيما بعد.

ـ ١٣ ـ
كلية الآداب

وأتممت دراستي الثانوية في المدرسة السعيدية وحصلت على البكالوريا (شهادة الثانوية العامة الآن) قسم أدبي في يونيو سنة ١٩٣٤، وكان ترتيبي الثاني على جميع طلاب القسم الأدبي في القطر المصري.

وكان والدي يريد لي ان أدخل كلية الحقوق، لأنّها الكلية التي تخرَّج فيها الوزراء، وهو كان يأمل لي أن أصبح وزيراً ذات يوم، أو في القليل رئيساً لمحكمة

النقض خلفاً لعبد العزيز فهمي الذي كان والدي شديد الاعجاب به.

وكان الاعتقاد في ان كلية الحقوق هي التي تخرّج الوزراء شائعاً بين الطلاب وبين الغلبة من الناس كافة، لأنّهم كانوا يرون ان معظم الوزراء كانوا من رجال القانون وقد بلغت سيطرة رجال القانون على الوزارات إلى حد انه لم يتولَّ وزير من غيرهم وزارة العدل (الحقانية آنذاك)؛ بينما تولُّوا هم أبعد الوزارات عن القانون: فكان منهم وزير صحة (ابرهيم عبد الهادي) وزير مواصلات (محمود شكري وغيره)، ووزير حربية (صليب سامي وغيره) ووزير معارف (كثيرون منهم علي ماهر والعرابي ونجيب الهلالي وحسين هيكل الخ) ووزير زراعة ووزير أشغال!!

ويحثّني والدي على دخول كلية «تخريج الوزراء» هذه قائلاً: ألا تريد أن تكون وزيراً، وأنا زعيم لك بذلك لأنّك الثاني في البكالوريا، أي أكثر تفوقاً من هؤلاء الذين صاروا وزراء؟!

لكن عزمي كان قد استقر منذ السنة الثالثة الثانوية على دخول كلية الآداب، لدراسة الفلسفة بالذات. وفي السنتين الرابعة والخامسة ازداد عزمي هذا رسوخاً، وازداد إيماني وثقتي باختياري هذا، بحيث لن يستطيع أحد زعزعة رأيي هذا.

ودخلت كلية الآداب في الجامعة المصرية على غير رغبة والدي، بل وعلى مغاضبة منه لي ومقاطعة استمرت طوال العام الدراسي الأول في كلية الآداب. فسلّم بالأمر حينئذ لأنّه رأى ألاّ وسيلة تثنيني عن عزمي هذا. وقد بلغ من مغاضبته لي في هذا الشأن ان رفض دفع المصروفات المدرسية، فلم أجد بداً من الالتجاء إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذي في المنطق في تلك السنة الأولى، لتزكية طلبي للمجانية بدعوى تفوّقي - فيما كان يسمَّى آنذاك: «مجانية التفوّق»، بعد ان رفض العميد آنذاك - منصور فهمي هذا الطلب بحجة ان والدي من الأثرياء. وفعلاً استطاع الشيخ مصطفى عبد الرازق ان يجعل العميد يوقّع بالموافقة على منحي مجانية التفوق.

❀ ❀ ❀

وكانت الدراسة في السنة الأولى بكلية الآداب عامة مشتركة بين جميع الأقسام، وإنّما يبدأ التخصّص من السنة الثانية. وكانت المواد في السنة الأولى خمساً: أربع لغات وفلسفة. واللغات الأربع هي: العربية، والانجليزية، والفرنسية، واللاتينية ولما كان ما حصلته في العربية والانجليزية قبل دخولي كلية

الآداب يفوق بكثير ما يتعلمه الطلاب في هذه السنة الأولى - بل وما بعدها ايضاً! - فقد قرّرت ألاّ أحضر من محاضرات هاتين المادتين إلاّ ما لا يتعارض مع المحاضرات الأخرى التي طاب لي حضورها لمزيد من العلم ومن المعرفة بالأسماء اللامعة من الأساتذة في الأقسام الأخرى غير قسم الفلسفة: فكنت أحضر كل ما يتيسّر لي حضوره من محاضرات الدكتور طه حسين في قسم اللغة العربية؛ وحضرت محاضرة واحدة لكل من أحمد أمين، وعبد الوهاب عزام، وأمين الخولي، وابرهيم مصطفى، فتبرمت منها ولم أحضر غيرها. وإذا كنت قد حضرت كل ما تيسّر لي حضوره من محاضرات الدكتور طه حسين، فإنّما كان ذلك لإعجابي المفرط به وبصوته وهو يحاضر. وكنت قد سمعته يحاضر محاضرة عامة لأوّل مرة في حياتي في شتاء ١٩٣٣ - ١٩٣٤، لما ألقى محاضرة عامة في «جمعية الشبان المسيحيين» (شارع ابرهيم) عن الشاعر الفرنسي العظيم: «پول فاليري» Paul Valery. فأخذ بلبي وسحرني بجمال صوته وعذوبة نبراته وروعة أدائه اللفظي. صحيح ان ثم فارقاً كبيراً بين طه حسين وهو يلقي محاضرة عامة على جمهور كبير من السامعين، وبين طه حسين وهو يلقي درسه المعتاد على طلاب قسم اللغة العربية، حتى انني أصبت بخيبة أمل كبيرة لما سمعته يلقي دروسه هذه، وكان صوته في محاضرته العامة عن «پول ڤاليري» لا يزال يرنّ في سمعي بقوة وحرارة وإعجاب. لكن هذا الاعجاب حملني على تقدير الفارق بين المحاضرة العامة للجمهور وبين الدرس يلقي على عدد قليل من الطلاب بشكل منتظم.

ثم إنّ طه حسين في سنوات ١٩٣٥ وما تلاها ليس هو طه حسين عامي ١٩٢٥ - ١٩٢٦، و١٩٢٦ - ١٩٢٧ لما كان يلقي على الطلاب في الجامعة المصرية الجديدة محاضراته «في الشعر الجاهلي» و«الأدب الجاهلي» والتي تمخّض عنها هذان الكتابان. ذلك ان دروسه في عام ١٩٣٥ وما تلاه كانت على نوعين: شرح نصوص شعرية، وتاريخ أدب أموي وعباسي. وفي النوع الأول كان يدع أحد الطلاب يقرأ - وهذا أمر لم يكن منه مفرّ بالنسبة إلى حالته الخاصة، إذ لم يكن من الممكن ان يستظهر كل الشعر الذي يشرحه، فهذا مستحيل - ثم يعلق الدكتور طه تعليقات مقتضبة. وفي النوع الثاني، وهو تاريخ الأدب، لم يلقِ دروساً منظمة متسلسلة الحلقات، محكمة الترتيب، لأنّه لم يؤلّف في هذا الباب شيئاً، وما كتبه وجمع في كتابه «حديث الأربعاء» وما أشبهه، لا يؤلف وحدة متصلة، بل هو في الغالب انطباعات متناثرة، ولمحات قصيرة.

وكان أهم حدث جامعي في هذا العام الأول من دراستي في كلية الآداب هو عودة الدكتور طه حسين إلى هذه الكلية في شهر نوفمبر او ديسمبر سنة ١٩٣٤ بعد ان فصل منها في مارس سنة ١٩٣٢. فاستقبلناه محمولاً على الأعناق من باب الجامعة حتى المدرج رقم ٧٤ في كلية الآداب وتوالى الخطباء والشعراء في إلقاء ما كتبوه احتفالاً بهذا المقدم السعيد. وبعد عودته بحوالى شهر قدّمني إليه استاذنا في اللغة العربية طه ابرهيم مثنياً عليّ بما شاء له خلقه الفاضل. ومن يومها، أي في يناير سنة ١٩٣٥ انعقدت بين الدكتور طه حسين وبيني أواصر علاقة متينة زادت مع السنوات وثوقاً وعمقاً حتى وفاته في ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٧٣، وسيكون لهذه العلاقة تأثير عميق في مجرى حياتي، على النحو الذي سأُفصّله في حينه.

ويوازي هذه العلاقة وربما يزيد عنها عمقاً، علاقتي بالشيخ مصطفى عبد الرازق.

عرفته اول ما عرفته وهو يلقي علينا درساً من ساعة واحدة اسبوعياً في علم المنطق ونحن طلاب في السنة الأولى المشتركة. وكنت أنا ـ كما قلت من قبل ـ قد حصّلت قسطاً لا بأس به من المنطق قبل دخولي الجامعة، خصوصاً من كتاب «علم المنطق» لعبده خير الدين. لكن المنطق الذي كان يدرّسه لنا الشيخ مصطفى عبد الرازق كان يختلف اختلافاً بيّناً عن المنطق كما عرفته في كتاب خير الدين. ذلك ان الشيخ مصطفى كان يدرّس لنا المنطق كما هو عند ابن سينا، وكما يتمثّل خصوصاً في كتاب «البصائر النصيرية» لعمر بن سهلان الساوي، وهو كما قلت خير متن في المنطق كما عرفه ابن سينا وأبناء مدرسته. وكان الشيخ محمد عبده يدرّس هذا الكتاب ـ «البصائر النصيرية» في الرواق العباسي بالأزهر. ويغلب على الظن ان الشيخ مصطفى عبد الرازق حضر دروس محمد عبده في المنطق استناداً إلى هذا الكتاب الذي نشره بالطبع محمد عبده وعلّق عليه بعض التعليقات. وربما كان هذا هو الذي يفسّر اتخاذه لهذا الكتاب أساساً لتدريس المنطق لنا. وهو قد أشار علينا باقتنائه، فاقتنيته منذ ذلك الحين، وصار مرجعاً أساسياً في المنطق عند العرب.

ولما أحسست بالفارق بين المنطق كما يدرّسه استناداً إلى «البصائر النصيرية» وبين المنطق الذي حصّلته في كتاب عبده خير الدين، كنت أوجّه إليه بعض الأسئلة سواء في أثناء الدرس، وعقب المحاضرة وكانت من الساعة ١٢ إلى الواحدة، مما كان يسمح لي بالتحادث إليه طويلاً حتى تأتي السيارة التي ستنقله إلى بيته. لهذا سرعان ما نشأت بينه وبيني علاقة وثيقة بعد مرور شهر واحد من بدء الدراسة.

وهذا هو ما شجّعني على اللجوء إليه في مسألة مجانية التفوق التي أشرت إليها من قبل.

كان الشيخ مصطفى عبد الرازق شديد التمسك بالمتون العربية القديمة، يشرحها فيتعمق في الشرح إلى درجة مفرطة احياناً، ويدافع عما فيها رغم مخالفتها للتطور الحديث في هذه العلوم التي تتناولها تلك الكتب العربية القديمة. وحينما كنت أعترض بالسؤال استناداً إلى هذا التطور الحديث، كان هو يبتسم ولا يلقي بالاً لأيّ اعتراض حديث. ولهذه الطريقة في التدريس مزية وعيب: مزيَّة التعمق في فهم النصوص أيًّا كانت، وعيب التمسك بأهداب معلومات عفى عليها تطور العلم. إنَّ طريقته هذه مفيدة في التدريب على فهم النص والتمرس بالأساليب العربية القديمة التي تجور بها لغتها العسرة المفرطة في الإيجاز عن الفهم السهل؛ ولكن التوقف عندها وحدها مضرّ بتحصيل الجديد في العلم وبالابداع فيه وبخلق عادة التفكير المستقل. وقد آليت أنا على نفسي بعد هذا ان أجمع بين كلتا الطريقتين ما استطعت: فأتعمق فهم النص القديم او الحديث وأحفره حتى أعمق أعماقه، وفي الوقت نفسه أتحرّر مما فيه من آراء فلا أسمح لها بأن تعوق انطلاق تفكيري المستقل. ولست أدري إلى أية درجة أفلحت في هذا التزاوج بين كلتا الطريقتين.

وفي السنة الثانية بقسم الفلسفة درّس لنا الشيخ مصطفى علم الكلام. فبدأ بشرح نص هو الفصل الخاص بعلم الكلام في «مقدمة» ابن خلدون، وهو فصل ـ شأنه شأن كل الفصول الخاصة بالعلوم الشرعية والعقلية في «المقدمة» ـ يمتاز بأنَّه يعطي لمحة عامة عن العلم المخصص له الفصل: تعريفه، وموضوعاته، وتطوره، وأسماء المؤلفات الهامة فيه. لكن ابن خلدون يلوّن هذا العَرْضَ بنظرته السُّنّية الضيقة، فلا يعطي للمذاهب المختلفة حقها، بل يقود التطور بحيث يتأدى إلى مذهب أهل السنة والجماعة، او مذهب الأشاعرة، ويحمل على الذين توسّعوا في الجانب العقلي من علم الكلام.

ولكن الشيخ مصطفى، بعد شرحه لهذا الفصل شرحاً استغرق أكثر من نصف العام، مع ان الفصل لا يزيد على ٤,٥ من القطع الكبيرة! ـ جاء بعد ذلك فتناول تاريخ علم الكلام في عرض مسترسل سهل، هو الذي يجده القارىء في الضميمة التي توجد في القسم الأخير من كتابه «التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية» (القاهرة ط ١ سنة ١٩٤٤). ورغم انه عرض مسترسل، فقد أكثر فيه من النصوص والاقتباسات، على عادته دائماً فيما يكتب.

ثم درّس لنا في السنة الرابعة ـ الليسانس ـ أصول الفقه والتصوُّف. أمّا أصول الفقه ـ مع أننا طلاب فلسفة، لا طلاب شريعة ـ فمرجع ذلك إلى ان الشيخ مصطفى كان يرى ـ ولو بخفة واعتدال ـ رأي الباحثين الأوروبيين ـ مثل رينان وجوتييه وغيرهما... من ان ما يسمّي «فلسفة اسلامية» هو في الحقيقة «فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية» على حد تعبير رينان Renan، أي انه لم يكن عند الفلاسفة المسلمين إبداع حقيقي في الفلسفة. أمّا الابداع الحقيقي عند المفكرين المسلمين فقد ظنَّ الشيخ مصطفى انه وجده في علم أصول الفقه.

لكنه حين حاول بيان هذا الابداع المزعوم عند الأصوليين لم يستطع ان يبرهن على صحة دعواه هذه، كما هو واضح للقارىء من قراءة القسم الثاني من كتاب «التمهيد إلى تاريخ الفلسفة الاسلامية». ولم يستطع أحدٌ ان يبين صحة هذه الدعوى. والعلة في هذا واضحة، وهي ان علم أصول الفقه يرتبط الفكر فيه بالنصوص الشرعية (القرآن والسُّنة) ومهما أعمل الفقيه ذهنه فلن يستطيع الخروج عن هذا الاطار المحدّد الذي اتخذه لنفسه. وقصارى أمره ان يجتهد في تأويل النص ـ تأويلاً متفاوت التعسف ـ حتى يقرب مما يقول به العقل الحرّ. وهيهات؛ هيهات ان يصل الى ما يصل اليه العقل الفلسفي الحر من كل قيد إلاَّ ما يقتضيه المنطق الفعلي، المطلق من كل إسار قد يفرضه عليه أي نص.

ولا شك ان الشيخ مصطفى في رأيه هذا في علم أصول الفقه كان متأثراً بنشئته الشرعية في الأزهر، وتدريسه للشريعة الاسلامية في جامعة ليون (فرنسا). صحيح أنه حضر دروس ادمون جُبلو في المنطق (وكتابه في المنطق هو خير الكتب الفرنسية في هذا لموضوع حتى الآن) في جامعة ليون، لكن نشأته الأزهرية طغت عليه فلم يتمكن من التحوُّل عنها إلى المنطق كما تطوّر في أوروبا.

وكان تدريسه لنا لمادة اصول الفقه استناداً إلى مجموع مطبوع في دمشق يشتمل على اربعة متون في هذا العلم، يمثل كل واحد منها أحد المذاهب الأربعة في الفقه. وهي متون شديدة الإيجاز ـ لأن واضعيها أرادوا بها ان يستظهرها الطلاب ـ فكانت تحتاج إلى شرح مُضنٍ.

أمّا في التصوّف فقد درّسه لنا في رسالة صغيرة لأحد خصوم التصوّف وهو ابن تيمية، وعنوانها: «الصوفية والفقراء». ولعله اختار هذه الرسالة لأنَّه ـ أي الشيخ مصطفى ـ كان لا يميل إلى التصوّف، وبخاصة التصوّف الغالي المتمثل في البسطامي والحلاّج وابن عربي ـ وهو التصوّف الذي طالما حمل عليه ابن تيمية في

كثير من رسائله (راجع كتابنا: «تاريخ التصوّف الاسلامي» الجزء الأول، الكويت سنة ١٩٧٥).

لكن الجانب العلمي لم يكن أقوى جوانبه، بل الجانب الانساني. لقد كان النُّبل كله، والمروءة كلها. كان دائماً هادىء الطبع، باسم الوجه، لا يكاد يغضب، وإن غضب لم يعبّر عن غضبه إلاّ بحمرة في وجهه وصمت كظيم: لقد كان آية في الحلم والوقار. لكنه وقار عفو الطبع، لا تكلف فيه ولا تصنّع. وفي حالات الأنس بمحدثيه من الأصدقاء او التلاميذ كان ودوداً محبًّا للسخرية الخفيفة. وإذا أراد التقريع لجأ إلى التهكم اللاذع.

وكان آية في الاحسان إلى الآخرين. ما لجأ إليه مظلوم إلاّ حاول اسعافه، أو صاحب حاجة إلاّ بذل له ما استطاع حتى لو كان من ماله. وكم له من أيادٍ بيضاء على بعض طلابه الذين سألوه المساعدة، رغم انهم لا يستحقونها، كما تجلّى في سلوكهم فيما بعد!

وكان عزوفاً عن المناصب الإدارية، ويتنازل عنها لمن هو حريص عليها. أذكر انه في شهر مايو سنة ١٩٣٦ أجريت انتخابات لمنصب العمادة في كلية الآداب بعد أن شغر بنقل منصور فهمي إلى دائرة الكتب، فنال الشيخ مصطفى أكبر عدد من الأصوات، وتلاه الدكتور طه حسين. وحينئذ أعلن الشيخ مصطفى أنه لا يريد تولّي منصب العميد، فكان أن عيّن طه حسين عميداً. ـ كذلك كان الشيخ مصطفى رئيساً لقسم الفلسفة، فلما جاءنا الأستاذ اندريه لالاند Lalande في أكتوبر سنة ١٩٣٧ تخلّى له الشيخ مصطفى عن رئاسة القسم تقديراً لمكانة لالاند.

ولما عُيّن وزيراً للأوقاف في مارس سنة ١٩٣٨ استمر في التدريس لنا حتى الوقت المقرر عادة وعرفاً لانتهاء الدروس في حوالى ٢٠ ابريل، واشترك في الامتحان الشفوي لنا في أواخر مايو في مادة الفلسفة الاسلامية. ولما ترك الوزارة بمجيء الوفد إلى الحكم بقوة الجيش البريطاني في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، التمسنا منه أن يلقي دروساً على طلاب الماجستير والدكتوراه فلبّى الطلب في العام الدراسي ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤.

وكان متحرر الفكر اجتماعياً، يدعو إلى تحرير المرأة، ومن هنا كان يكتب في مجلة «السفور» مقالات ذات نزعة تحريرية للحياة الاجتماعية، وقد أُعيد طبع هذه المقالات في الجزء الأول (والوحيد الذي ظهر) من كتاب «آثار مصطفى عبد الرازق» الذي أشرف على جمعه واخراجه أخوه الأستاذ علي عبد الرازق. وهذا التحرُّر الاجتماعي هو الذي كان هدف هجمات الأزهريين عليه، خصوصاً حين

صار شيخاً للأزهر في ديسمبر سنة ١٩٤٥. ولم يكن الدافع الحقيقي لهذا الهجوم من جانب شيوخ الأزهر لوجه الدين او غيرة على التقاليد الاسلامية، بل لأنّهم كانوا يطمعون في تولّي هذا المنصب. وشيوخ الأزهر بطبعهم طماعون حاقدون يأكل الحسد قلوبهم، وفي سبيل نيل أي منصب ذي شأن لا يتورعون عن استخدام أخسّ الوسائل: من وقيعة ودسّ ووشاية واختراع الأكاذيب. وأذكر أنّني حين علمت بتعيينه شيخاً للأزهر ذهبت إليه في مساء ذلك اليوم في منزله بشارع المأمون في منشية البكري بشمالي القاهرة وأبديت أسفي لقبوله لهذا المنصب، وحاولت تحذيره من دسائس كبار مشايخ الأزهر؛ لكن على عادته تلقّى كلامي بابتسامة رقيقة. ومع الأسف تحقّق سوء ظنّي، فتوفي الشيخ مصطفى في أصيل يوم من فبراير سنة ١٩٤٧ بعد جلسة عاصفة لمجلس الأزهر ظهر ذلك اليوم، عانى فيها الكثير من تطاول هؤلاء المشايخ عليه وسفالاتهم.

وأعود إلى الدراسة في قسم الفلسفة فأقول إنّ القسم كان آنذاك وقبل ذاك يحظى بعدد من أئمة الأساتذة الفرنسيين الذين توالوا فيه منذ نشأته في سنة ١٩٢٥؛ أذكر منهم على التوالي: اندريه لالاند، Lalande، واميل بريبه Bréhier، وابل ريه Rey ولوي روجييه Rougier والكساندر كويريه Koyré وبرلو Burloud. وحضر بعض هؤلاء اكثر من فترة: إذ حضر لالاند في العام الدراسي ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧، و١٩٢٧ ـ ١٩٢٨، و١٩٢٩ ـ ١٩٣٠، ثم في الفترة من اكتوبر سنة ١٩٣٧ حتى مارس سنة ١٩٤٠. وحضر كويريه في الفترة من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٤، وفي الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨، وفي الفترة الثالثة من اكتوبر سنة ١٩٤٠ حتى مارس سنة ١٩٤١.. وكان من عظيم حظّي ان تتلمذت على كليهما: لالاند في الفترة من اكتوبر سنة ١٩٣٧ إلى مارس ١٩٤٠؛ وكويريه في الفترتين: اكتوبر سنة ١٩٣٦ إلى مايو ١٩٣٨، واكتوبر سنة ١٩٤٠ إلى مارس سنة ١٩٤١. درست عليهما في مرحلة الليسانس، وأشرفا على تحضيري للماجستير.

وللالاند كان استاذاً ذا كرسي في السوربون منذ سنة ١٩١٨، وكان عضواً في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية منذ سنة ١٩٢٢، وأميناً عاماً للجمعية الفرنسية للفلسفة من سنة ١٩٠١ إلى ١٩٣٧. وكان ذا نزعة عقلية صريحة داعية إلى المزيد من توحيد العقول في كل الميادين: العلمية والسياسية والأخلاقية. ولهذا كان خصماً لتطورية هربرت اسبنسر القائلة بأنّ التطور يسير نحو مزيد من التفاضل والاختلاف والتفريق. والغاية التي سعى إليها هي توحيد الناس تحت سلطان

العقل، وتحرير النفوس وفقاً لقوانين العقل وحده. لهذا كان ينفر من برجسون والبرجسونية لأنَّها لا عقلية؛ ومن النزعات الفلسفية ذات الاتجاه الديني، مثل فلسفة بلوندل وماريتان.

أمَّا دروسه في السوربون وفي مصر فدارت كلها ـ أو جلّها ـ حول مناهج البحث العلمي. وله فيها كتاب أساسي بعنوان: «نظريات الاستقراء والتجريب». وقد درَّس لنا هذه المادة في العام الدراسي ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨.

وبعد حصولي على الليسانس في مايو سنة ١٩٣٨، حضرت دروسه لطلبة الماجستير وكانت في الميتافيزيقا لأنَّه لم يوجد أستاذ آخر لتدريس هذه المادة المقررة على طلاب السنة الأولى التمهيدية في مرحلة الماجستير، إذ كان كويريه قد ترك مصر في نيويورك سنة ١٩٣٨. ومن هنا كان لالاند برماً بتدريس هذه المادة التي لم يدرّسها طوال حياته. وإلى جانب ذلك كان يلقي علينا دروساً في المنهج العلمي.

وكان عليَّ أن أختار موضوع رسالتي للحصول على الماجستير فاخترت في اكتوبر سنة ١٩٣٩ الموضوع التالي: «مشكلة الموت في الفلسفة الوجودية». فلما عرضت عليه هذا الموضوع نصحني قائلاً: لا تثق أبداً بالبدع (الموضة) السائدة méfiez - vous toujours de la mode وكانت هذه «الموضة» هي الوجودية لأنَّه رآها تنتشر في الثلاثينات على نحو واسع وتغزو ميدان الفلسفة شيئاً فشيئاً على يد مارتن هيدجر وكارل يسبرز. لكن لم أقتنع بنصحه؛ وتوفيقاً للرأي بيننا جعلت العنوان أعم وهو: «مشكلة الموت في الفلسفة المعاصرة». فوافق خصوصاً وهو قد أخبرني أنَّه هو نفسه اختار موضوع «الموت» ليكون موضوع امتحان مسابقة الأجريجاسيون في الفلسفة في سنة لا أذكرها الآن.

غير أنَّه غادر مصر في سنة ١٩٤٠ لما رأى الحرب تقترب من فرنسا، ففضَّل ان يكون في وطنه قبل اندلاع الحرب في الميدان الفرنسي من جبهة القتال، خوفاً ـ فيما يبدو ـ من انقطاع السبيل بينه وبين وطنه بعد اندلاع القتال.

لهذا فإنَّه حينما جاء كويريه في اكتوبر سنة ١٩٤٠ تحوَّل إليه الإشراف على رسالتي هذه.

أي تأثير كان للالاند عليَّ؟ بث النزعة العقلية في تفكيري، وتوجيه عنايتي إلى مناهج البحث العلمي، وإلى الحرص على الدقة في تعريف المصطلحات الفلسفية (ولا عجب، فهو صاحب أهم «معجم فلسفي»). ثم انِّي كنت أفزع إليه

في الحصول على معلومات دقيقة عن الفلاسفة الفرنسيين الذين عرفهم عن قرب، والاسترشاد بأحكامه عليهم.

ومن مآثره عليّ انه هو الذي تحمّس لتعييني معيداً في قسم الفلسفة في ١٥ اكتوبر سنة ١٩٣٨ غداة حصولي على الليسانس: لقد اقترح على عميد الكليّة ـ د. طه حسين ـ تعييني وزكّاني تزكية حارة وكان هو ـ بوصفه رئيس قسم الفلسفة ـ صاحب الرأي الأول في هذا الشأن. كما انه في السنة التالية ـ ابتداء من اكتوبر سنة ١٩٣٩ ـ جعلني معيداً لدروسه التي كان يلقيها على طلاب السنة الأولى للماجستير، فكنت أعيد هذه الدروس عليهم بالفرنسية والعربية، خصوصاً وقد كانوا لا يكادون يفهمون حرفاً منها لجهلهم الشديد باللغة الفرنسية. وحين وضع جدول بدراسة هؤلاء الطلاب في السنة الأولى للماجستير أصرَّ على ان يظهر اسمي في الجدول مقروناً باسمه، مما أثار حفيظة سائر أعضاء هيئة التدريس بالقسم، فلم يحفل باحتجاجهم!

ومما أذكره له ايضاً انه كلفنا ـ ونحن في الليسانس ـ بكتابة بحث عن موقف كل من جاليليو وديكارت من المنهج التجريبي. فاعترضت على رأي أبداه في كتابه: «نظريات الاستقراء والتجريب» مفاده أن ديكارت كان من أنصار المذهب التجريبي. فاعترضت على هذا الرأي استناداً إلى نصوص لديكارت نفسه مؤداها انه كان يستطيع ان يكتشف اكتشافاته في الفيزياء دون اللجوء إلى أية تجربة. فانشرح صدر لالاند لهذا الاعتراض وكتب تعليقاً يقول فيه «أنت على صواب في اعتراضك هذا؛ وان في كتابي في هذا الموضع سوء تحرير، وسأعمل على تصحيحه في الطبعة القادمة» وأعتقد أنا انه كان سيفعل ذلك لو انه أصدر للكتاب طبعة ثانية، لكن لم تصدر له طبعة ثانية حتى الآن.

لقد كان تتلمذي على لالاند نعمة لا أستطيع ابداً نسيانها، ولا وفاءها حقها من الشكر وعرفان الجميل.

كذلك كان لكويريه عليّ فضل عظيم، لأنّه كان يجمع بين النزعة الميتافيزيقية والنزعة العلمية، وكان يهتم بالتيارات الصوفية (يعقوب بيمه، ڤالنتان ڤايجله، الخ) قدر اهتمامه بتاريخ العلم الحديث (جاليليو، نيوتن، كپلر). وله انتاج غزير في كل هذه الميادين؛ وفيها يحاول ان يربط بين النظرة الصوفية للكون، وبين النظرة العلمية للكون في نفس الفترة. فيرى مثلاً ان قول الصوفية الألمان في القرن السادس عشر بأنّ الكون لا نهائي، هو الذي اقتضى من الفزيائيين ان يتصوروا الكون لا نهائياً.

وقد درّس لنا تاريخ الفلسفة في العصور الوسطى وأنا في السنة الثالثة، مستنداً الى الطبعة الأولى ـ الصغيرة الحجم ـ من كتاب «الفلسفة في العصر الوسيط» تأليف اتيين جلسون Gilson ولجمال أسلوب هذا الكتاب الصغير حفظته عن ظهر قلب، مما أفادني خصوصاً في تقويتي في اللغة الفرنسية، فهماً وكتابة. وفي الوقت نفسه كان يتعمق كثيراً في شرح هذا الكتاب.

وفي السنة الرابعة ـ الليسانس ـ درّس لنا تاريخ الفلسفة الحديثة حتى كنت Kant. كان يفتح أمامه الجزء الخاص بالفلسفة الحديثة ومن «تاريخ الفلسفة» تأليف بربيه Bréhier يتخذ مما فيه نقط ارتكاز، ثم يفيض في الشرح والتوسّع، مما جعلني أعتمد على كلامه وشرحه فأسجله لنفسي ولسائر زملائي من الطلاب، لأنّي وجدت كتاب بربيه تافهاً سيىء التأليف فقير المادة.

وثمَّ ميزة أخرى لكويريه أفدت منها كثيراً وهي معرفته الجيدة باللغة الألمانية وبالفلسفة الألمانية، لأنّه وإن كان روسي الأصل (ولد في Tagaurog في سنة ١٨٩٢، وتوفي في باريس سنة ١٩٦٤) فإنّه تلقى دراسته في جامعة جتنجن الشهيرة بألمانيا في الفترة ما بين سنة ١٩٠٨ الى ١٩١١، حيث تتلمذ على هسرل Husserl مؤسِّس مذهب الظاهريات، وعلى هلبرت الرياضي الفيلسوف. لهذا وجدت فيه عزماً كبيراً في تفهيمي مذهب الظاهريات، وتوجيهي في ميدان الفلسفة الوجودية وقد كان على علم دقيق بها، على عكسٍ لالاند. ومن هنا أَفَدْتُ من إشرافه عليَّ لتحضير رسالة الماجستير لما ان تولّى الاشراف عليها ابتداء من اكتوبر سنة ١٩٣٩ بعد سفر لالاند، لسعة اطلاعه على الفلسفة الألمانية، ولأنّه لم يعترض على توسعي في القسم المتعلق منها بالموت عند الفلاسفة الوجوديين ـ وبهذا استعدت خطتي الأصلية وهي ان تنصب الرسالة في مجموعها على آراء الفلاسفة الوجوديين في مشكلة الموت بحيث كان ثلثا او ٣/٤ الرسالة في هذا الباب.

ولمّا أتممت الرسالة وأمر هو بطبعها على الآلة الكاتبة، كتب تقريراً مبدئياً عنها من أجل تحديد موعد مناقشتها ـ ثم كان ما كان مما حال دون مناقشتها في ذلك الوقت (فبراير سنة ١٩٤١) لأسباب شكلية سخيفة تتعلق بميعاد وتسجيل عنوان الرسالة، وهو ما سنذكره في حينه فيما بعد. وأذكر انه كان مستاءً لهذا التأجيل كل الاستياء، لأنّه لن يقوم هو بمناقشتها، لأنّه سيغادر مصر في الشهر التالي (مارس سنة ١٩٤١) متجهاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وشعر بمرارة شديدة لتصرف هذا العميد الحقود أحمد أمين، وراح يواسيني قائلا: «أنت

أصدرت كتابين حتى الآن، وهذا هو كتابك الثالث: ألا فلتعلم ان كل كتاب تصدره هو بمثابة خنجر تطعن به الزملاء العاجزين الحاقدين مهما بلغت مرتبتهم في الوظيفة!» ـ وكان لكلمته القوية هذه اثر بالغ في نفسي، جعلني بعد ذلك طوال حياتي لا أحفل بحقد أي حاقد، وأمضي في طريقي في الانتاج العلمي متحدياً كل حاقد او حسود، مهما يبلغ قدره في المنصب، ومهما يكن عمره، ومهما يكن نفوذه العملي في شئون الدنيا. لقد ازددت ايماناً بصواب السلوك الذي اخترته لنفسي في الحياة، والذي يتلخص في كلمة واحدة: التحدِّي!

الكتاب الثاني

- ١ -
السفر إلى أوروبا

كان تطوراً حاسماً في مجرى حياتي ان أُسافر إلى أوروبا في العشرين من شهر يونيو سنة ١٩٣٧ إبّان عطلة الصيف، حيث أمضيت في ألمانيا وايطاليا أربعة أشهر.

ويرجع الفضل في سفري إلى شخصين اثنين: الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب آنذاك، والأستاذ پاول كراوس أستاذ اللغات السامية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب.

عيِّن كراوس مدرّساً في الكلية في أوائل العام الدراسي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧، فوصل إلى مصر في شهر اكتوبر سنة ١٩٣٦. وجاء تعيينه بتوصية من الأستاذ لويس ماسينيون، المستشرق العظيم. وأتيح لي ان أقرأ هذه التوصية بوصفها ضمن مذكرة تعيين پاول كراوس. وقد أفاض ماسينيون في الإشادة بمناقب كراوس. وكنت أنا آنذاك من أشد المعجبين بماسينيون منذ ان حضرت له محاضرة عامة ألقاها في الجمعية الجغرافية عن «تخطيط مدينة الكوفة» وذلك في يناير سنة ١٩٣٥.

وكنت أنا منذ دخولي كلية الآداب في اكتوبر سنة ١٩٣٤ حريصاً كل الحرص على حضور كل المحاضرات العامة التي كانت تنظمها كلية الآداب، وتلقى في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية في اوائل شارع قصر العيني من ناحية ميدان الاسماعيلية (التحرير الآن). وكانت أولى هذه المحاضرات التي استمعت اليها خمس محاضرات ألقاها الشاعر الانجليزي Laurence Binyon كان يلقيها بهدوء وببطء فكنت أفهمها جيداً. وكان الرجل دمث الطبع، ليس فيه شيء من

شكليات الانجليز ولا كبريائهم الجوفاء. فكنت أتحدّث معه بعيد كل محاضرة. وكانت ثلاث من هذه المحاضرات عن الشعر بعامة، والاثنتان الأخريان كانتا عن الفن الصيني في الرسم، إذ كان من رواد الأوروبيين في دراسة فن الشرق الأقصى، وله كتاب عنوانه: «الرسم في الشرق الأقصى» (سنة ١٩٠٨)، وقد تابع هذا الموضوع في كتابين آخرين هما: «أطراف التنين» (سنة ١٩١١) و«روح الانسان في الفن الآسيوي» (سنة ١٩٣٥) أمّا في الشعر فله «قصائد مجموعة» (سنة ١٩٣١)، فضلاً عن مسرحياته: «أتيلا» Attila و«آرثر» (سنة ١٩٢٣) و«الملك الشاب» (سنة ١٩٣٤). كانت سنه آنذاك ٦٥ سنة (ولد في ١٠/٤/١٨٦٩، وتوفي في ١٠/٣/ ١٩٣٤). كان هادىء الصوت خفيض النبرة لكنه كان غزير العلم بالموضوع الذي يطرقه. فترك في ذهني انطباعاً قوياً لمدة طويلة، خصوصاً حين كنت أقارنه برئيس قسم اللغة الانجليزية آنذاك، ويدي سنكورت Sencourt فقد ألقى ثلاث محاضرات عن «السياسة الخارجية للڤاتيكان» كانت من اسوأ ما سمعت في حياتي من محاضرات: كان بذيء اللسان، أحمق الطبع، لا يهتم إلاّ بلبس الروب الجامعي، وكان لا يفهم في اللغة والأدب الانجليزي شيئاً يذكر.

وفي الطرف المقابل كان رئيس قسم اللغة الفرنسية آنذاك Henri Peyre (الذي صار بعد ذلك استاذاً في جامعة ييل Yale بالولايات المتحدة الأميركية حتى تقاعده): فقد كان هنري بير آية في الفصاحة، متدفقاً في الالقاء، عذب النبرة في النطق؛ وفي الوقت نفسه كانت محاضراته العامة في قاعة الجمعية الجغرافية تدور في الغالب حول الأدباء الفرنسيين المعاصرين: اندريه جيد Gide، مالرو Malraux، مونترلان Montherlane، اندريه سوارس Suares، مورياك Mauriac، پول موران Morand، جاك شاردون Chardoune، الخ الخ. وكان يلقي خمس محاضرات عامة في كل عام، وقد حضرتها جميعاً من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٣٧. كما أنه ألقى في احد مدرجات الكلية محاضرة عن «شعر الطبيعة عند شلي Shelley » باللغة الانجليزية، فكان موضع اعجاب الطلاب جميعاً لفصاحته البالغة في اللغة الانجليزية، وبمستوى لا يقل عن فصاحته بالفرنسية.

ومن بين كبار الزائرين الذين ألقوا محاضرات عامة في نفس القاعة، وحضرتها، أذكر: جول رومان Jules Romain الكاتب القصصي الفرنسي الكبير مؤلف سلسلة القصص التي عنونها بعنوان: «ذوو النوايا الطيبة» Les Hommes

de bonne Volonté، وكانت محاضرته بعنوان: «العقل والثورة الفرنسية». ثم ماكس دسوار Dessoir استاذ الفلسفة الألماني صاحب كتاب «متن في الفلسفة» Lehrbuch der Philosophies، وقد ألقاها بالانجليزية: ثم جان مستلر Mistler السكرتير العام للأكاديمية الفرنسية.

أمَّا ماسينيون فكان يلقي محاضرته العامة في شهر يناير من كل عام، بمناسبة حضوره جلسات المجمع اللغوي في دورته العامة.

قلت إنَّ ماسينيون هو الذي رشَّح كراوس وأوصى به خيراً. لهذا قررت ان أتصل بكراوس غداة وصوله إلى القاهرة. وفعلاً ذهبت إليه، وأخبرته أنَّني أُتقن اللغة الألمانية فأراد أن يستوثق من ذلك في الحال، فأخذ كتاب «دراسات اسلامية» لجولد تسيهر وفتح له صفحة، فرحت أقرأها وأُترجمها فقرة فقرة. ولغة جولد تسيهر صعبة، خصوصاً وانه ليست الألمانية، بل المجرية، هي لغة أبويه. وتحدّثنا بالفرنسية فازداد إعجاباً. وغداة تلك الليلة ذهب إلى الدكتور طه حسين في مكتبه، مكتب العميد، وأخبره بأنَّه التقى بطالب في السنة الثالثة من قسم الفلسفة يتقن الالمانية والفرنسية اتقاناً أدهشه كل الادهاش. وفي الحال استدعاني د. طه حسين، وذكر لي ما قاله كراوس عنِّي. فأخبرته أنَّني أُحسن الايطالية ايضاً. فقال على الفور: إذن سأرسلك في بعثة صيفية إلى المانيا وإيطاليا لتحصيل المزيد في هاتين اللغتين. هذا وعد منِّي صريح، فتعال وذكّرني به قبيل امتحان آخر العام لاتخاذ الاجراءات الرسمية.

وكانت البعثات الصيفية مخصصة للمعيدين والمدرسين المساعدين، وانا كنت ولا أزال طالباً في السنة الثالثة. لكن قوة ارادة الدكتور طه حسين لم يكن تقف أمامها أية شكليات ولا اعتبارات تنظيمية. فكان عند وعده، وتقرّر إرسالي في بعثة صيفية لإتقان اللغتين الألمانية والايطالية في ألمانيا وايطاليا.

❀ ❀ ❀

وسافرت في العشرين من يونيو سنة ١٩٣٧ من ميناء الاسكندرية إلى ميناء بيريه اليوناني على متن سفينة يونانية صغيرة (حمولتها ألف طن أو أقل، لا أذكر)، لم تكد تبعد عن الشاطىء عشرين ميلاً حتى بدأت تتلاعب بها الأمواج العاتية. وكان والداي في وداعي، فحرصا على ان يوفرا لي غداء جيداً من أحب الأطعمة إليّ. وما كادت السفينة تترنح حتى أصابني دوار البحر ولفظت كل هذه الأطعمة الشهية! وكلما توغلنا في البحر ازداد تلاعب السفينة، وازددت أنا استفراغاً لكل ما

في جوفي حتى لم يعد يخرج منه إلاّ مرارة صفراء اتقيّؤها بألم شديد. ولم أستطع النوم طبعاً وامتنعت عن كل طعام. واستمرت الحال على هذا النحو المؤلم حتى وصلنا عند مشارف جزيرة كريت، فخفَّ تلاعب السفينة، واستطعت الصعود على ظهرها؛ ووجدت ان خير حل هو البقاء على هذا السطح. وفعلاً أمضيت باقي الرحلة على ظهرها حتى وصلنا ميناء بيريه.

وكان على هذه السفينة ان تبقى يوماً وليلة في ميناء بيريه قبل استئناف السفر إلى برندزي Brindsi في أقصى جنوب ايطاليا. ففكرت أنا وزميل ايطالي الجنسية تعرّفت إليه في السفينة ـ وكان يعمل رئيساً للطهاة في نادي محمد علي بالقاهرة ـ الاستفادة من هذا التوقّف. فسافرنا إلى أثينا بالقطار. وقمنا بزيارة الأكروپول وما حوله. وحرصت خصوصاً على زيارة ما يسمّى بـ «سجن سقراط» وهو غرفة من الحجر الجيري ذات مدخل عليه ستارة من الحديد، وطبعاً لا علاقة له بالسجن الحقيقي الذي أودع فيه سقراط، بل هو عمل من أعمال ترويج السياحة.

ووقفت على الأكروپول أمام معبد البارثنون، ورحت أطوّف بنظري في المسرح الكبير المقام إلى جوار هذا المعبد. واستعدت في ذاكرتي «الصلاة على الأكرپول» لرينان، وكنت أكاد احفظها كلها عن ظهر قلب منذ أن قرأتها في «ذكريات الطفولة والشباب» لرينان وكان هذا الكتاب من أحب الكتب إلى نفسي، وقد قرأته في سنة ١٩٣٥، وأعدت قراءته عدة مرات بعد ذلك، لجمال أسلوب رينان.

ورحت أقارن بين «صلاة» رينان على الأكروپول وبين ما أُشاهده أمامي فامتلأت نفسي خيبة امل: فليس فيما أراه ما يوحي بأي حرف مما قاله رينان، مع ان الأكروپول كما شاهدته هو بعينه على الحال التي كان عليها عندما شاهده رينان قبل سبعين سنة.

فماذا بقي من البارثنون غير طائفة من الأعمدة الدورية الطراز التي يعلو قسمها الأمامي سقف، بينما القسم الخلفي عار من كل سقف، بل هو أعمدة واقفة لا يعلوها شيء. فماذا بقي إذن مما بناه اكتينوس Ictinus ومساعده قلقراطس Callicrates؟ وأين النحت الذي أبدعه فدياس؟ لقد بقي الپارثنون سليماً ـ فيما يقال، حتى سنة ١٦٨٧ لما ان انفجر مستودع البارود بفعل جيش ڤينيسيا لما ان حاصروا أثينا التي كانت آنذاك تحت حكم الأتراك. لكنه كان قد حوّله البيزنطيون إلى كنيسة، وظلَّ كذلك حتى استيلاء الأتراك على بلاد اليونان،

فحوّلوه إلى مسجد في القرن الخامس عشر. بعد تخريبه في سنة ١٦٨٧ استمر أنقاضاً اشتراها لورد الجن Elgin ونقلها إلى لندن من سنة ١٨٠١ إلى سنة ١٨١٢. فماذا بقي منه إذن؟ إنَّ ما نراه الآن قد بني في القرن العشرين.

وإذن فالذين دمروا البارثنون هم الايطاليون من أهل فينيسيا بقيادة Morosini ولا دخل للأتراك في هذه الفعلة الشنعاء. والذين استولوا على أنقاضه هم الانجليز بواسطة لورد الجن Lord Elgin.

وليست حال زميله: «الأرخثيون والپروپيليا بأحسن من حاله: فما نشاهده منهما اليوم معظمه أُعيد تشييده في أواخر القرن الماضي وهذا القرن. وأين وصف پاوسانياس (في القرن الثاني بعد الميلاد) لهما من حالهما اليوم!

البكاء على الأطلال هو الانفعال الوحيد أمام هذه المعابد الثلاثة. وهكذا كان شعوري وأنا أشاهدها؛ وهآنذا اعبّر اليوم ـ بأخرةٍ ـ عما كنت أشعر به آنذاك:

لهفي عليك يا آثار الجمال والخير والحق!

ليت شعري بأيّ مشاعر شاهدك أفلاطون وأرسطو وزينون الرواقي وأبيقور!

لقد شاهدوا أعمدتك الدورية من المرمر البنتيلي الناصع البياض، واستمتعت عيونهم بنحت فيدياس، وتنفّسوا جوّ القداسة الإلهية بين أحضانك، واتسعت صدورهم لتعدد الآلهة فعبدوها كلها على سواء او في القليل لم يتعصبوا لأحدها ضد الآخر لأنهم يمثلون أوجهاً عديدة للحقيقة الإلهية الواحدة. صارت قلوبهم قابلة لكل صورة، كما سيقول محيي الدين بن عربي، فأراحوا نفوسهم من مماحكات شكلية وطقوس رمزية، وشارات وهمية: إنها مثل هذه المعابد: تتسع لأكبر عدد من الآلهة، ويجري فيها شتى ألوان العبادات، وترن في أرجائها نغمات العديد من الأناشيد.

ولكم طافوا بصحبة تلاميذهم حولك ليدلّوهم على نماذج الفن الرائع، ويبصروهم بمعايير الجمال، ويرهفوا حساسيتهم الغضة.

لماذا حولّك النصارى البيزنطيون الى كنائس، والمسلمون الأتراك إلى مساجد؟! ولماذا لم يشيدوا هم من الكنائس او المساجد ما ينافسك، بدلاً من ان يستولوا بغير حق على ما ليس لهم؟! لو كانوا قادرين على منافستكم لفعلوا، لكنهم كانوا عاجزين فاغتصبوك ونهبوك وشوّهوك.

في تصميماتك المعمارية يتجلّى ميزان العقل والمنطق، واعتدال فضائل النفس، وتوافق الأنغام. ليس فيك جنون المعمار القوطي، ولا ثقل المعمار

الروماني، ولا تكتل المعمار المصري، ولا زخرفة المعمار العربي، ولا سماجة المعمار الباروكي، ولا بلاهة المعمار الأمريكي المعاصر!

أيها البارثنون (= في اليونانية: غرفة الفتيات)! كم من فتيات نبيلات رائعات الجمال أقمن فيك لأداء الشعائر في عيد الإلاهة أتينا! ولكم وددت ان أعيش في ذلك العهد الذي مزج بين الجمال والقداسة؛ بين الانسانية والألوهية؛ بين الشهوة والتقوى! آنذاك كانت تستمتع كل نوازع الانسان، وتقتات كل الحواس، ويتوافر على التكوين جماع العواطف والارادات: فلا تحريمات تحدّ من تطلعات الجسد، ولا قيود على انطلاق الغرائز.

لكن عزائي عن العيش في أيام مجدك، أي أثينا، وأنت تجسّد الحكمة، إنّي جعلت رسالتي في الحياة خدمة الحكمة، فأنا أقوم على خدمتك ايتها الإلاهة، في كل يومٍ، لا في يوم عيدك فحسب مثلما كانت تفعل أولئك الفتيات، أيتها العذراء.

ثم أفقت من أحلامي هذه ومناجياتي، لما ان استحثّني زميلي في السفر، حتى نعود إلى ميناء بيريه للحاق بالسفينة.

وأقلعت السفينة في صباح اليوم التالي متجهة إلى برندزي. فاخترقنا قناة كورنثوس الضيقة تحيط بنا جبال عالية جرداء سمراء، ودخلنا في البحر الادرياتي؛ وفي صباح اليوم التالي وصلنا الى برندزي. ومن هنا أخذنا القطار الليلي المتجه إلى روما، فوصلنا روما في الساعة العاشرة صباح يوم الأحد السابع والعشرين من يونيو سنة ١٩٣٧.

وكنت قد حددت لنفسي النزول في فندق يدعى Villa Rus في شارع اميليا Emilia رقم ٢٤، فاتجهت من محطة روما سائراً على قدميّ، بصحبة حمّال تولّى حمل الحقيبة، ونزلت في هذا الفندق. وما ان وضعت حقيبتي في غرفتي حتى خرجت لمشاهدة معالم روما، لأنَّ ما شاهدته عَرَضاً أثناء سيري من المحطة الى الفندق بهرني حقاً: هذا ميدان اسدرا Esedra (= أي السداسي الشكل) بنافورته العجيبة تتلألأ مياهها المتدفقة وأشعة الشمس الحارة تنعكس عليها، فتتراءى كلها في أطياف من الألوان الفاتنة. وها هو تمثال نهر النيل (عند تقاطع شارع Termi بشارع ٢٠ سبتمبر) يرقد فائضاً بأمواهه على أولاده، أي فروعه المختلفة. وها هو شارع Venato يتصاعد قليلاً ويفضي إلى بوابة البنشو Porta Pinciano. وصعدنا فيه، أنا والحمّال، قليلاً، ثم دخلنا إلى أول شارع على اليسار، فأفضى بنا إلى شارع إيمليا.

أمام هذه الصور الرائعة لم أتمالك ان أبقى في الغرفة المخصصة لي إلاّ دقائق ريثما رتبت بعض حوائجي، وما كان أقلّها! وعدوت إلى الشارع مسرعاً بودِّي ان ألتهم روما التهاماً دفعة واحدة. ومن أول كشك لبيع الصحف والمجلات في شارع ڤنتر اشتريت خريطة لروما وكنت قبل سفري قد اشتريت دليلاً لروما، عكفت عليه لأعرف ماذا ينبغي ان يشاهد في روما من معالم وآثار. ولما كانت نافورة ميدان اسدرا (وتسمّى الآن ميدان الجمهورية!) قد لفتت انتباهي اولاً، فقد يمّمت شطرها وقلت: لأجعل منها نقطة انطلاقي لأرتاد روما.

وبعد أن تملّيت برهة طويلة بجمال نافورة برنيني Bernini هذه، انحدرت في الشارع الوطني Via Nazionale. وكان اليوم يوم أحد، فالمحال مغلقة. لهذا لم أتلبث في هذا الشارع، بل قطعته قطعاً سريعاً لا ألتفت إلى شيء إلى أن وصلت إلى ميدان في وسطه نخلة باسقة فتوقفت، وإذا بي أشاهد أمامي جدراناً عتيقة تنحدر مع شارع ٤ نوفمبر، فقلت، لا بدَّ أن أنزل هذا الشارع كي أصل إلى ميدان البندقية Piazza Venezia وتوقفت عند تقاطع شارع ٤ نوفمبر مع شارع اومبرتو، أو شارع الكورسو كما يسمى Via delcorso وطمحت ببصري الى مشاهدة قصر ڤينيسيا عن يميني، وتمثال الجندي المجهول قبالتي. وطوّفت في الميدان طويلا، مستمتعاً بمشهد الكامبيدوليو، وتمثال الجندي المجهول، واستدرت ناحية اليسار حيث سوق تريانو Foro Traiano يتوسطه عمود مائل وحيد تتناثر حوله بقايا رؤوس اعمدة وقطع اسطوانية من اعمدة تحطمت وتشتتت وواصلت سيري في شارع الامبراطورية (المسمى الآن شارع الأباطرة): فامتد عن يميني السوق الرومانيّة Foro Romano وقد تناثرت في مساحتها بقايا اعمدة وتيجان أعمدة وقلة من بقايا جدران شبه قائمة؛ وعلى الشارع نفسه برزت كنيسة مسنسا Chiraci Massenza ولم يبق منها إلا مدخل وجدران متهدمة بينها ساحة واسعة ـ وسأسمع في هذه الباحة حفلة موسيقية، كلاسيكية بقيادة الموسيقار العظيم Mascagani. ومضيت في شارع الامبراطورية حتى وصلت الى الكولوسيو Colosseo، هذا البناء الشامخ الهائل: الذي يروع بضخامته ولا يثير أي معنى من معاني الجمال.

وهكذا وجدت نفسي ذاهلاً حائراً بين تل الكابتول من ورائي، وتل يتلوه عن يسار تل الكورينالي Quirinale، ثم الڤمنالي Viminale، ثم الاسكولينو Esquilino فيما يشبه نصف قوس دائرة، وفي هذه البقعة انبعثت في مخيلتي

روما القديمة، روما الامبراطورية الشاسعة. وأقول: «في مخيلتي» لأنَّ ما بقي من العمائر الرومانية العظيمة في منطقة السوق الرومانية قليل جداً، بل لم يبق شيء يستحق الذكر، باستثناء الكولوسيو، وهو كما قلت ضخم هائل ولكنه خالٍ من كل جمال. فكان عليَّ هنا، كما على الاكروپول في أثينا من قبل، أن أتخيل، لا أن أُشاهد؛ أن أستعين بالتاريخ، لا بالحاضر. وإلاَّ فأين معبد زحل (بني في سنة ٤٩٧ ق.م.) ومعبد كاستور Castor (سنة ٤٨٤ ق.م)، ومعبد الكونكوردیا Concordia (سنة ٣٣٦ ق.م) وأين البازلكات التي بدأها كاتو Cato سنة ١٨٢؟ أين بازلكا إيمليا (سنة ١٧٩ ق.م، وبازلكا سمپرونيا (سنة ١٧٠ ق.م)، وبازلكا يوليا التي أمر بتشييدها يوليوس قيصر؟ وأين قوس طيباريوس (سنة ١٦ ميلادية)؟ وأين معبد ڤسپسيان Vespasian الذي شيد في سنة ٨١ م؟ وأين أعمدة ديوقليسيان أمام بازلكا يوليا؟ وهل يغني عن هذه البازلكات الشامخة تلك البقية المتهدمة من بازلكا ماكسنتيوس Maxantios؟! ـ هذا في «السوق الرومانية». وأين سوق تريان Forum Traiani التي شيدها أپولو دورس الدمشقي في سنة ١١٣ ميلادية؟ تحيط بها بازلكا أولبيا Basilica Ulpia في الجانب الشمالي بناووسها الواسع وأجنحتها المزدوجة؟!

ولكن ما الفائدة من ذكر هذه «الأيْنات» اذا كانت كل هذه العمائر العظيمة قد صارت أنقاضاً أو شبه أنقاض؟ الحق ان المشاهد لهذه الآثار الرومانية لا يشاهد ببصره، بل بذاكرته. وهذا أشدّ ما يؤلم النفس وهو يشاهد هذه البقايا المتهدمة.

۞ ۞ ۞

ولكي أصرف هذه الخواطر الجليلة والمؤلمة معاً ـ قلت لنفسي: ها أنت ذا أمام رابية أوپيو Colle Oppio وفيها العنوان الذي أحمله، عنوان «الأكاديمية المصرية للفنون الجميلة» فلأصعد الدرج المتعرّج أمام الكولوسيو، ولأذهب إلى هناك للقاء المدير، سحاب ألماظ.

وعند وصولي الى الأكاديمية المصرية، وكانت بناء من طابقين صغيرين، وتحيط بها أشجار من الصنوبر. سألت عن المدير فلم أجده. لكني وجدت بعض الطلاب، فاستقبلوني بترحيب حار، وعلى رأسهم: عبد القادر رزق الذي كان يواصل دراسة النحت في روما مبعوثاً من مدرسة الفنون الجميلة بالزمالك بالقاهرة. ومنذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها نشأت صداقة حميمة بقيت قوية عميقة حتى

وفاته في سنة ١٩٧٧. ومن هؤلاء الطلاب أيضاً طالب كان يدرس الكهرباء في روما، على حسابه الخاص، يدعى فريد. وكان فريد هذا ـ ورغم تواصل معرفتنا سنين طويلة بعد عودته إلى القاهرة فإنّي لم أشأ أن أسأله عن باقي اسمه، فبقيت لا أعرف إلاّ اسمه الأول: فريد ـ أقول إنّه كان فعلاً «فريداً» في سلوكه. لم يكن مجتهداً في دراسته، ولكن كان طيب القلب، لطيف المعشر، يؤثر صحبة الإخوان على حضور الدروس؛ وكان ينفق فوق طاقته، فكان كثيراً ما يقترض من زملائه، ولكي يفيهم ديونهم كان عند أوائل الشهر يتوقع وصول «الخطاب الموصى عليه» Recommandata الذي يحمل الشيك الخاص بمصروفه الشهري ـ فيتردد طوال الأيام الأولى على الأكاديمية لاستلام هذا الخطاب «الموصى عليه». وكان للأكاديمية بوّاب خفيف الروح يدعى فرنشسكو، وهو الذي كان يستلم الخطابات المعنونة بعنوان الأكاديمية. وفي يوم وصول «الموصى عليه» اسم فريد، كان يقف أمام الباب، حتى إذا لمح فريد قادماً من بعيد صاح فيه: اجرِ، اجرِ، يا سنيور فريد، فها هو «الموصى عليه» قد يصل Corre, Corre, Signor Farid, eceo la recommandata فيلهث السنيور فريد عادياً منتفخ الأوداج يتصبب عرقاً ـ لأنّه كان بديناً، رغم شبابه ومن ثم صارت عبارة البوّاب هذه مما يتندر به سائر الطلاب باستمرار، كلما رأوا فريد قادماً إلى الأكاديمية.

ولما كان فريد خدوماً محباً للصحبة، فقد صحبني في خلال الأسبوع الذي أقمته في روما مرات عديدة.

أمّا عبد القادر رزق فقد كان يصحبني في زياراتي للمتاحف والكنائس، أحياناً وحده وأحياناً في صحبة فنانين مصريين آخرين، لأنّهم رأوا اهتمامي الشديد بمشاهدة الآثار الفنية، ومعرفتي الواسعة بتاريخ الفنون. وقد رحبت بصحبتهم، وكنا نتناقش كثيراً في قيمة ما نشاهد من أعمال النحت، لأنّني كنت آنذاك معجباً بالطراز الباروكي، بينما كانوا هم من أعدائه. ولما رأوني حريصاً على دخول كل كنيسة نمرّ بها، قالوا ضاحكين: إذن لن تفرغ منها أبداً، لأنّه في روما يوجد بين كل كنيسة وكنيسة كنيستان! فأنّى لك ان تزورها كلها. ولم يصحبوني إلاّ في زيارة كنيستين اثنتين هما: كنيسة سنتا ماريا الكبرى Santa Maria Maggiore على رابية الاسكولينو بالقرب من محطة السكة الحديدية، وكنيسة سان پيترو ان ڤنكولي (القديس بطرس في الأغلال) San Pietro in Vencoli في رابية أوپيو غير بعيد عن الأكاديمية المصرية. لأن فيها تمثال موسى للفنان العظيم ميكلنجلو. وقد أحدث هذا التمثال انطباعاً عميقاً في نفسي، وصرت بعد ذلك وأنا في روما

لا أتخلف عن زيارته ابداً، وأشاهده في بعض سفراتي لها عدة مرات.

وفي يوم ٢٩ يونيو كان عيد القديس بطرس. فاخترت هذا اليوم لزيارة كاتدرائية القديس بطرس وكان اليوم حاراً، وجموع الناس يغصّ بها الميدان؛ والنافورة التي تتوسطه تزيد من بهجة هذا العيد. وللزحام الشديد اكتفيت بمشاهدة الميدان فبهرتني سلاسل الأعمدة التي شيدها برامنتي Bramante وبرنيني Bernini. وقررت ان أعود في اليوم التالي لزيارة داخل الكنيسة.

وفي الغداة زرت كاتدرائية القديس بطرس زيارة سريعة هي ومدينة الفاتيكان. وستتوالى في سنة ١٩٤٧ ويتلوها زيارات طويلة متعمقة لهذا الصرح الأكبر للكاثوليكية فلنؤجل الحديث عنه إلى مناسبة أخرى.

ولما كانت الدراسة في الفصل الصيفي في جامعة منشن (ميونخ) ستبدأ في الخامس سن شهر يوليو، فقد كان عليّ أن أغادر روما في يوم ٣ يوليو.

وهكذا لم أقض في روما غير ستة أيام، في أثنائها كنت في شبه ذهول بسبب هذه الروائع الفنية العديدة التي شاهدتها في روما. ان هذا الفيض الوافر من الانطباعات قد هزَّ كياني كله هزاً عنيفاً حتى كدت أنهار تحت وطأته. نعم، كنت قد قرأت الكثير قبل ذلك عن عصر النهضة في ايطاليا، وكان كتاب «الحضارة في عصر النهضة» تأليف يعقوب يوركهرت رفيقي طوال شهرين؛ ولم أسمع باسم فنان: مصور، او نحّات، او معمار، وأنا في روما لم أكن قد سمعت به بل وعرفت نبذة عن حياته وأعماله من قبل. لكن فارق هائل جداً بين ان تكون قد عرفت هذه الأسماء بالقراءة، وان تشهد أعمالها الفنية ماثلة أمام عينيك. وكانت هذه الانطباعات من الوفرة والقوة بحيث لم تدع لي أية فرصة لتبيّن مشاعري وتمييز أحكامي عليها.

ـ ٢ ـ
في منشن (ميونخ)

وغادرت روما حوالى الساعة الثانية بعد الظهر من يوم السبت ٢ يوليو سنة ١٩٣٧ قاصداً منشن في المانيا، وكنت قد حصلت على تذكرة السفر ذهاباً وإياباً: روما ـ منشن ـ روما من أحد مكاتب السياحة في القاهرة.

وأمضيت في القطار ثماني عشرة ساعة متواصلة في عربة كتب عليها: «منشن»؛ فلم يكن لي ان أبدّل العربة طوال الرحلة؛ بينما تبدّل القطار عند الحدود

الايطالية النمساوية، في مدينة Brenner. وكان الأمن آنذاك في ايطاليا كاملاً لا يجرؤ أحد على تعكير صفوه - وهيهات هيهات أن يقارن بما يحدث في هذه السنوات الأربعين الأخيرة!! لهذا نمت ملء جفوني، ولم استيقظ إلاّ على صوت رجال الجمارك النمساويين عند منتصف الليل وهم يسألونني: هل معي ما يستحق المكوس، ويفحصون جواز سفري، وكنت من ناحيتي قد حصلت على تأشيرة دخول إلى النمسا رغم أنّي لن أنزل بها.

ومع اطلالة الفجر سرّحت بصري في المنظر أمامي وأنا في النمسا: تجلّى أمامي مشهد لم أر مثله من قبل: جبال الألب في اقليم التيرول وقد كستها غابات شاسعة من الصنوبر والشوح والشربين؛ والقمم والأودية تستعد لاستقبال أشعة الشمس في لهفة وقشعريرة؛ وقطرات الندى تتلألأ على الأوراق الإبرية (التي تشبه الإبر) كأنّها عقود متوالية من اللآلىء الصافية. وفي إحدى المحطات التي وقف عليها القطار في النمسا صعد فلاح يلبس حلّة خضراء نظيفة، ومحياه جميل جداً ببياضه وحمرته؛ ورأيته يحمل على كتفه منجلاً كبيراً - وهذا ما جعلني أعتقد انه فلاح. فرحت أقارن بين هذا الفلاح الفاتن الجمال النظيف الثياب، وبين الفلاح المصري بوجهه المعوج وثوبه الأغبر المتمزق. وقلت لنفسي: إنَّ بين الفلاح النمساوي والفلاح المصري ألف سنة من الحضارة فأنى للثاني ان يقطعها!

ووصلت منشن في الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد ٣ يوليو، وأخذت عربة لتحملني إلى الفندق الذي كنت قد اخترته من دليل منشن لقربه من الجامعة ولرخص ثمنه، ويدعى Pension Burger. وسأقيم فيه ليلتين اثنتين، لأنَّ المشرفين على ادارة الفصل الصيفي كانت لديهم عنوانات بنسيونات أرخص. وفعلاً لما ذهبت إلى هؤلاء في اليوم التالي دلّوني على بنسيون يقع في رقم ١٣ شارع ايزابلا Isabella strusse, n. 13، وهو على مسافة ١٠ دقائق من شارع ادلبرت Adelbert الذي تقع فيه الجامعة. وكان يملك هذا البنسيون رجل عجوز جداً، وزوجته التي لا تقل عنه في السن كثيراً.

ولما ألقيت حقيبتي في بنسيون بورجر هذا، خرجت ميمماً منزل فؤاد عسل، الذي كان أخوه عثمان - زميلي في قسم الفلسفة - قد حمّلني إليه سجائر وأشياء أخرى وكان يقيم عند سيدة يهودية تدعى Waiss. وكان اليهود آنذاك في محنة وهوان شديد ولم أجد فؤاد عسل، فتركت له بطاقة بعنواني. وكان منزله يقع في شارع Scnallirig المجاور. وأخذت أتجوّل في مدينة منشن على هدى من الكتاب الدليل الذي كنت اشتريته في مصر من مكتبة لينهارت ولاندروك،

وكان أحد أصحابها قد توطّدت المعرفة بينه وبيني منذ ثلاث سنوات لأنّي كنت أشتري منه الكثير من الكتب الألمانية. ولما علِمَ بأنّي مسافر إلى المانيا راح يقدّم لي الارشادات المفيدة، ومنها ذلك الكتاب الدليل.

وخلال أربع ساعات من السير في المنطقة المجاورة ببنسيون بورجر، الذي كان يقع في شارع أرسس arcisatrasse، عرفت منطقة مهمة من منشن تمتد من شارع أرسس إلى شارع لودڤج Ludwigstr، أكبر شوارع المدينة وعليه تقع «الحديقة الانجليزية Englischer Garten، هذا المتنزه الفسيح جداً.

لمحة عن المدينة

ومدينة منشن München هي عاصمة مقاطعة بايرن Bayern (باڤاريا) في جنوبي ألمانيا. وكان عدد سكانها آنذاك حوالى ٧٥٠,٠٠٠ نسمة. وتقع على نهر الايزر Isar آخر فروع نهر الدانوب. وترتفع بمقدار ٥٢٠ م عن سطح البحر، ولهذا كانت المدينة عرضة لتغييرات شديدة في درجة الحرارة. وتتألف من ٢٤ قسماً، أو حيًّا منها ١٩ من يسار نهر الايزر وهي: منشن الأصلية والضواحي - Sendling - Schuvaling- Nymphenburg - Neuhausen - Thallsirchen ـ وأنا كنت أسكن في هذا الحيّ الأخير: اشڤابنج الذي كان آنذاك مؤلفاً من شارع كبير واحد هو شارع Isabella وتتفرع عنه شوارع صغيرة؛ و٥ أحياء عن يمين نهر الإيزر هي - Au - Bagenhansen - Haidhausen - Ramersdary - Gésing.

وأهمية منشن سياسية، وعلمية، وفنيّة.

أ ـ من الناحية السياسية كانت منشن مقر مملكة بايرن إذ حصلت على حقوق المدينة في سنة ١٢٩٤ على يد لودڤج فون باير Ludwig Von Bayer. وتقلبت بها الأحوال فغزاها السويديون في سنة ١٦٣٢. واحتلتها النمسا أثناء حرب الوراثة النمساوية. وفي سنة ١٨٠٦ صارت مقراً لمملكة بايرن. وقام الملك ماكسمليان الأول بتوسيع المدينة. وفي سنة ١٨١٨ حصلت على دستور جديد. وفي سنة ١٨٢٦ نُقلت الجامعة من لاندسهوت Landshut إلى منشن. ولكن المدينة بلغت أوج عظمتها في عهد الملك لودڤج الأول، والملك مكسمليان الثاني. ومنذ سنة ١٨٧١ تطورت إلى مدينة كبيرة، وازدهرت علمياً وفنياً في عهد الأمير الوصي لويتبولد Luitbuld (١٨٨٦ ـ ١٩١٢). وفي سنة ١٩١٩ صارت لمدة قصيرة ـ مقراً لحكومة مستشارين. ولما قام هتلر

ولودندورف بانقلاب فاشل في سنة ١٩٢٣ وتلاه تأسيس حزب النازي NSDAP («الحزب الوطني الاشتراكي العمالي الألماني) صارت منشن عاصمة الحركة النازية. لكنها تلقت ضربات شديدة من الطيران الأمريكي ابتداء من سنة ١٩٤٣ حتى نهاية الحرب في مايو سنة ١٩٤٥ فدمّر نصف المدينة. بيد انها ما لبثت ان استعادت كل بنائها، واتسع العمران فأدمج فيها بعض ضواحيها. لكن أبنيتها الجديدة لا تتناسب في طرازها مع أبنيتها القديمة التي تميّزت بها ووسمتها بسمة فريدة بين مدن المانيا. لكن ما الحيلة، والمعمار الأمريكي التافه ـ لكنه عملي ـ قد طغى على المعمار كله ويا حسرتاه!

ب ـ أما من الناحية العلمية فتمتاز منشن بثلاث مؤسسات: أكاديمية العلوم، والجامعة، والمدرسة العليا التكنولوجية. والجامعة تدعى رسمياً: «جامعة لودفج مكسمليان Ludwig - Maximileans - Uneversitäl» منذ سنة ١٨٠٢. وأول ما نشأت كانت في مدينة انجولشتادت Ingolstadt، أنشأها الدوق لودفج الثري Ludwig der Reiche. ثم نقلت في سنة ١٨٠٠ إلى لاندسهوت Landshut. ثم نقلت أخيراً إلى منشن، وذلك في سنة ١٨٢٦ ـ أمّا المدرسة العليا التكنولوجية Technische Hochschale فتشتمل على مختلف فروع الهندسة: المدنية، والمعمارية، والكيمياء الصناعية، والكهرباء، والميكانيكا، الخ الخ. وقد تأسست في سنة ١٨٦٨. وقد تغيّر اسمها الآن إلى «جامعة تكنولوجية» Technische Universital.

جـ ـ ومن الناحية الفنية تعد منشن احدى كبريات مدن الفن الثلاث في ألمانيا: برلين، ودرسدن، ومنشن. فيها ٢٩ متحفاً أشهرها: «الپنياكوتيك القديم والپنياكوتيك الجديد Alte and neue Pinakotek، وجاليري شاك Schak (وشاك مستشرق وجامع تحف، راجع عنه كتابنا «موسوعة المستشرقين»)، والمتحف الألماني (وهو متحف لمختلف الصناعات)، والمتحف الوطني الباڤاري، ومتحف المدينة، ومتحف الدولة للفنون الشعبية، ومتحف الرزيدنتسي، ومتحف المسرح، الخ.

وفي الموسيقى لمنشن شأو عظيم. فمنذ سنة ١٩٠١ يقام فيها سنوياً احتفالات لعرض الأوبرات، وبعضها أوبرات لفجنر. وتقام في مسرحين: المسرح القومي Nationaltheater ومسرح الرزيدنس Residenstheater.

وفي نطاق منشن كانت المناظر الطبيعية آية في الجمال؛ فكان المجال واسعاً

أيام الآحاد للقيام بالرحلات. ومن أهم الأماكن للنزهة بحيرتان: بحيرة Kiensea وبحيرة الملك Konigsce. والأخيرة هي الأجمل. وتحيط بها جبال تجعل ترديد الصوت بالبوق ساحراً. ولهذا كان هناك زوارق للنزهة في البحيرة، وعند نقطة معينة منها كان احد البحارة ينفخ في البوق، فيتردّد الصدى ساحراً عميقاً. وكانت جامعة منشن تنظم رحلة في يوم الأحد من كل أسبوع لبقعة من هذه البقاع، وبعض هذه الرحلات كانت تمتد بعيداً حتى قرب الحدود النمساوية بيرستسجادن Berechtsgaden التي كان فيها لهتلر منتجع عال يدعى «وكر النسر» - وريجنسبورغ Regensburg.

الدراسة الجامعية

وذهبت إلى الجامعة غداة وصولي، أي في يوم الاثنين ٤ يوليو. وقمت بالتسجيل وأداء الرسوم. وهذا الفصل الصيفي كانت مدته شهراً ونصفاً. ويشمل دروساً في اللغة الألمانية بمعدل خمس ساعات في اليوم، ومحاضرات عامة: واحدة في الأدب الألماني وتاريخه بمعدل ساعة يومياً، وواحدة في الحضارة الألمانية بمعدل ساعة أيضاً؛ وواحدة في الفنون الألمانية: الموسيقى، التصوير، المعمار.

وكان يتولى إلقاء هذه المحاضرات العامة أساتذة من مختلف الجامعات الألمانية، لبعضهم مكانة رفيعة. وأخص بالذكر منهم أستاذ الأدب الألماني Walter Rehm، الذي ولد في ارلنجن في ١٣/ ١١/ ١٩٠١، وصار استاذاً في جامعة جيسن Geissen في سنة ١٩٣٨، واستاذاً في جامعة فرايبورج - في - بريسجاد في سنة ١٩٤٣. وتوفي في فرايبورج في بريسجاد في ٦/ ١٢/ ١٩٦٣. وله مؤلفات عديدة في تاريخ الأدب، منها: «فكرة الموت في الشعر من العصر الوسيط حتى الرومنتيك» (سنة ١٩٢٨)؛ «الثقافة اليونانية وعصر جيته» (سنة ١٩٣٦)؛ «كيركجور والمغرِّر» (سنة ١٩٤٩)؛ «أورفيوس: الشاعر والموتى» (سنة ١٩٥٠)؛ «سكون الآلهة وحِداد الآلهة» (سنة ١٩٥١)؛ «القاءات ومشاكل» (سنة ١٩٥٧).

كان ريم آنذاك في السادسة والثلاثين؛ وكان فصيحاً بليغ العبارة، يؤثر التحليل الجمالي على سرد التاريخ الأدبي، والنقد الانطباعي على التعمق الفيلولوجي. لهذا كانت محاضراته تتسم باللمعان أكثر منها بالعلم الغزير.

أمّا محاضرة الثقافة الألمانية فكان يغلب عليها الطابع السياسي والدعاوة؛

وقد توزعها أربعة من الأساتذة: فكان لكل استاذ اربع أو ست محاضرات ويتلوه آخر حتى قبيل نهاية الفصل. . فألقى الأستاذ كيلرويتر KŒllreuter خمس محاضرات عن نظام الدولة في مذهب النازية، وكان في لسانه حُبْسة فكان ثقيلاً على السمع، ويبدو أنه لم يكن قوي الايمان بما يقول، فكنت تحسّ فيه الافتعال ـ وألقى أستاذ في البيولوجيا ـ لا أذكر الآن اسمه، أربع محاضرات عن الأجناس، والجنس الآري بخاصة، وكيف تفسد العقول باختلاط الأجناس؛ وكان عذب المحاضرة، لكننا لم نفهم الكثير منها لبعد هذا الموضوع البيولوجي عن تخصصاتنا. وألقى الأستاذ Swobada، أستاذ الفلسفة وله مؤلفات غير قليلة ـ ست محاضرات عن الفلسفة الألمانية في القرن التاسع عشر، وعن الفلسفة التي يقوم عليها مذهب النازية. وألقى أستاذ رابع ـ لا أذكر اسمه ـ ٦ محاضرات عن تاريخ ألمانيا بهذا العنوان: من الرايش الأول إلى الرايش الثالث، أي من أوتر الأكبر مؤسِّس الرايش الألماني (بمعنى الوحدة الألمانية والامبراطورية) حتى أدولف هتلر مؤسِّس الرايش الثالث ـ وواضح ما في هذا العنوان من توجيه للتاريخ الألماني لبيان عصوره المجيدة.

وأمّا المحاضرة العامة الثالثة فكانت مثل النوع الأول: محاضرة ممتعة غنية بالانطباعات الفنية. فتولى إلقاء الخمس محاضرات الأول منها أستاذ تاريخ الفن، جعل موضوعه: الطراز في العمارة الألمانية، وخصّ بالذكر الطراز القوطي كما يتمثل في كاتدرائية كيلن Köln (كولونيا بألمانيا على نهر الراين)، بوصفها النموذج الأسمى والأصفى للطراز القوطي. ـ وألقى استاذ في الموسيقى خمس محاضرات بعنوان: «البناء الموسيقي لروائع ڤجنر». وكما كان الأول يشرح مستعيناً بالفانوس السحري، كان هذا يشرح مستعيناً بكلافير (بيانو)، مما جعلني أعجب بأوبرات ڤجنر أشد الاعجاب، ولهذا أصررت على حضور ما عرض منها في مسرحي فنشن، وبعضها كان بقيادة الموسيقار العظيم رتشرد اشتراوس وكان آنذاك في اوج شهرته محفوفاً بالرعاية من الدولة؛ وهو صاحب أوبرات «فارس الوردة» و«سالومي» و«هيلانة المصرية» والقصيدة السمفونية: «هكذا تكلم زرادشت». وريتشرد اشتراوس من أبناء منشن (ولد فيها في ٢١/ ٤/ ١٨٦٤، وتوفي بالقرب منها في Garmisch Partenkrcken في ٨/ ٩/ ١٩٤٩). وكان أعجوبة في تبكير عبقريته الفنية. فقد كان عازفاً جيداً على البيانو في سن الرابعة، ومؤلفاً موسيقياً في سن

السادسة، ودَرَسَ أصول الموسيقى في سن العاشرة على F.W. Meyor مدير فرقة البلاط الامبراطوري في منشن! وكانت أوبرات ڤجنر موزعة بين منشن وبين بايرويت. وكانت الدولة شديدة الاحتفال بڤجنر بوصفه خير ممثل للروح الألمانية الأصيلة.

وألقى أستاذ ثالث خمس محاضرات عن التصوير الألماني في عهد الرومنتيك، وشرح لنا روائع أنسلم فويرباخ Tischhem anselm Fewerback كما هي معروضة في جاليري شاك والمتحف (البيناكوتيك) الجديد. كما ألقى محاضرتين عن طراز الروكوكو وطراز بيدرماير Beidermeier بوصفهما سائدين في قصور منشن.

وكان من حسن حظّي ان شاهدت في منشن في أواخر يوليو احتفالاً عظيماً موسوماً باسم: «ألْفاسَنَة من الفن الألماني» اشتمل على أمرين رئيسين هما: موكب رائع بطول عشرين كيلومتراً توالت فيه العربات المزدانة بالأزهار الجميلة والفتيات الفاتنات واللوحات الفنية والتماثيل؛ ـ ثم افتتاح ادولف هتلر «دار الفن الألماني» Mans der dentschen Keunse. وتقع هذه الدار داخل «الحديقة الانجليزية». ولأول مرة أُشاهد أدولف هتلر وهو واقف يخطب ـ على مسافة لا تزيد عن خمسين متراً من المكان الذي كنت أقف فيه. وكانت خطبته حافلة طويلة وكان قويّ الصوت، جليل الأداء، يضغط بقوة على العبارات التي يريد توكيدها. وكان الموضوع الأصلي هو الدعوة إلى الفن الألماني الأصيل، والتخلّص من الفن «المنحلّ» الذي ساد ألمانيا في العشرينات. ولهذا الغرض أقاموا معرضاً مجاورا وضعوا فيه نماذج من هذا الفن «المنحل» كي يبينوا للمشاهدين فساد هؤلاء الفنانين وانحلال نفوسهم، خصوصاً وقد كان السائد فيه هو تيار السريالية والدادائية. ومما قاله هتلر ساخراً من هذه التيارات: «هل شاهد أحد سويّ العقل هذه الصور والأشكال في الطبيعة؟! إن كان هؤلاء «الفنانون» يزعمون أنّهم يرون الناس بهذه الأشكال الممسوخة ـ فإنّي أحيل أمرهم إلى وزير الداخلية ليعالجوا العلاج المناسب!!. وهو يقصد: وضعهم في مستشفيات المجانين، باعتبارها تتبع وزارة الداخلية.

وبعد هذا أخذ هتلر في الكلام عن السياسة الخارجية، وعن انجازات النازية في ألمانيا ـ بما لا محل لإيراده ها هنا.

وفي زحمة موكب الفن العظيم قدّر لي التعرُّف إلى فتاة في السادسة عشرة من

عمرها: كانت قصيرة القامة، بضة الجسم، كلها نضارة وحرارة. عيناها زرقاوان زرقة السماء في ذلك اليوم الضاحي في منشن، ووجهها غاية في البياض المشرب بالحمرة، وشعرها الذهبي غير الطويل يحيط رأسها بهالة صفراء ناصعة. وعلى رأسها قبعة كحلية اللون، وفستانها أبيض ومنقط بنقط بنية. فأخذت بلبي، وسحرتني فعلاً. لهذا ألححت على المكوث إلى جوارها طوال مرور الموكب. فلما انقضى الموكب دعوتها إلى تناول شراب في مقهى قريب. وببراءة ناعمة لبَّت الدعوة. ورحت أتملّق غرورها، وأُقسم لها أنِّي أحببتها حباً كأنَّه ضربة صاعقة. وبعد ساعة أو يزيد رغبت في العودة إلى أهلها، فأوصلتها إلى بيتها، بعد ان تواعدنا على اللقاء والعشاء بعد ثلاثة أيام.

ووفت بوعدها، وجاءت إلى مقهى رجينا في شارع مكسمليان. وتناولنا العشاء، ثم أخذنا في المشي في الطرقات في الظلام. ودخلنا «الحديقة الانجليزية»، وجلسنا على مقعد تحت زيزفونة ضخمة نتساقى أحاديث الغرام وملاطفات الهوى، حتى انتصف الليل. وعزمت على العودة إلى بيتها، فمشينا في الطريق الطويل ببطء مقصود؛ وكان عناق حار وتقبيل طويل ومزيد من الوعود. لكنِّي لم أرها بعد ذلك أبداً.

فيالك من حب ما كان أقصر منك عمرا! ويا لها من تجربة سريعة لكنها عميقة حافلة بالأحاسيس الحارة، والوجدانات العَرِمة، والخيالات الزاهية!

حاولت بكل سعي ان ألقاها، لكنها وأهلها كانوا قد ذهبوا للريف، حسبما أخبرتني إحدى الساكنات في البيت الذي أوصلتها إليه، ولا أحد يدري متى يعودون. وإقامتي في منشن لن تطول إلاَّ لأسبوعين بعد لقائنا هذا.

وكنت أُعزِّي نفسي بالسير في الطرقات التي سرنا فيها. وإذا مرَّت فتيات كنت أقول في نفسي ما كانت تقوله شولميت في سفر «نشيد الأناشيد»: «يا بنات منشن، هل رأيتن حبيبتي؟!».

ورحت أُناجيها في الخيال بهذه القصيدة:

يا ابنة «الإيزر» يا أحلى فتاة ... أيـن أنـت الآن؟ آهِ منـك آه!
شعلة الحب التي أوقدتها ... نوّرت للقلب أسباب الحياه
بسمة العينين وَحْيٌ وسنا ... وغذاء النفس من شهد الشفاه
ونداء النهد ريّان الصدى ... يعصر الشهوة في كأس الجناه
وصنوف الزهر في روض المحيّا ... هي للعاشق أقصى مشتهاه

أين وعدٌ منك خطته القبَل؟ أين عَهْدٌ بالوفا حتى الأجَل؟
أين حِلْفٌ شهد البدر على صِدْقهِ والثغر بالثغر اشتعل؟
أين أحلامٌ بنيناها على اللقـ ـيا بيوم حافل المعنى جَلَل؟
كان ذا لغواً ولهواً يا ترى؟ أو خداعاً وانطلاقاً في الأمل؟
أيّما كان ـ فقلبي ذاكرٌ متعة عشت بها أحلى المُثُل.

وفي أثناء الحرب، خصوصاً في عام ١٩٤٤ والأربعة أشهر الأولى من عام ١٩٤٥ حينما كنت أسمع أو أقرأ أنباء الغارات الوحشية التي قامت بها الطائرات الأمريكية على منشن، كنت أتذكرها وأناجيها من بعيد:

رحماك يا يوهنا جابلر Yohanna Gabler! وكان الله معك في هذه المحنة الرهيبة! إن برابرة هذا العصر ـ هؤلاء الأمريكيين الذين خلوا من كل وازع انساني وخلقي ـ يصبّون على بلدك الجميل نار عذاب دونه نار الجحيم. وليس في إجرامهم هذا أية شجاعة، لأنَّ الدفاع الجوِّي عن منشن لم يعد له وجود، وهؤلاء الجبناء قد استغلوا ذلك لتدمير منشن بوصفها عاصمة الحركة النازية، لا لارتباط ذلك بأيّ نصر عسكري.

بودي لو كنت بجانبك أُشاركك بعض هذه المحنة! لكن هيهات، هيهات!

حياة المساء والليل

وكانت الدراسة في الجامعة تمتد بي حتى الساعة السادسة مساء. فقد كنا نذهب في التاسعة ونتلقى دروس اللغة الألمانية من التاسعة حتى الحادية عشرة. ثم نتلقى المحاضرات العامة من الحادية عشرة حتى الواحدة. ثم تكون فترة غداء واستراحة حتى الثالثة. ثم نستأنف دراسة اللغة حتى السادسة.

وبين السادسة والسابعة أتريض في «الحديقة الانجليزية». وفي السابعة كان موعدي المعتاد مع فؤاد عسل، وكان يدرس الكيمياء الصناعية في المدرسة العليا التكنولوجية، وهو كما قلت أخو زميلي في قسم الفلسفة عثمان عسل. وكان ملتقانا في مقهى يسمى مقهى لويتبولد Luitpold Café، وكان مقهى ضخماً قريباً من ميدان اوديون ـ في شارع مكسمليان. وكان على نمط المقاهي الألمانية العريقة في فرانكفورت، أعني أنّه كان مقهى وقاعة موسيقية، تعزف فيها فرقة موسيقية أنغاماً كلاسيكية وحديثة. لكننا كنا في الغالب نجلس على شرفتها الواسعة. وهناك يوافينا زملاء مصريون آخرون لفؤاد عسل، أذكر منهم طبيبين

هما سرّي، والجندي. وطبيباً بيطرياً يدعى راغب كان يقضي فترة تدريب لمدة عام، وكان قبل ذلك في هامبورج. وفي مساء الخميس من كل اسبوع كنا نذهب معاً الى حانة هوفبروي Hofbräuhaus وهي حانة ضخمة جداً مؤلفة من ثلاثة طوابق وتقدم فيها أقداح ضخمة يسع كل منها لتراً، من البيرة. ومدينة منشن أشهر بلاد المانيا، بل العالم كله، بصنع البيرة. وفي يوم الخميس بخاصة كانت حانة هوفبروي تقدّم فراخاً مشوية على السِّيخ.

وكان منظراً عجيباً ان ترى الفتيات والسيدات اللواتي يعملن في هذه الحانة وهن يحملن في المرة الواحدة عشرة أو أكثر من أقداح البيرة الضخمة. وصار ذلك من المعالم البارزة في هذه الحانة. ويعجب المرء لقدرة هؤلاء الألمان على شرب البيرة: لقد شاهدت بنفسي وأمامي على المائدة التي نتشارك فيها رجلاً ألمانياً في منتصف العمر وقد تجرع في أقل من ساعتين اثني عشر قدحاً ـ أي اثني عشر لتراً من البيرة، وهو جالس هادىء جداً لا يكاد يبدو عليه أي أثر لذلك. كل ما هنالك انه كان يقوم بين الحين والحين ويذهب إلى دورة المياه.

ومع احتساء البيرة تعزف موسيقى صاخبة كلها آلات نفخ نحاسية وطبلة ضخمة. ويقدر عدد الحاضرين أحياناً بعشرة آلاف شخص في الوقت الواحد.

وقد اشتهرت هذه الحانة بالذات ـ دون سائر الحانات ـ لأنَّ هتلر وأركان الحزب النازي كانوا يلتقون فيها كل مساء خميس قبل وصوله إلى السلطة في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣. كما ان هتلر كان يختارها احياناً لعقد اجتماعات حزب النازي وفيها حدثت معركة للحزب في ١٩٢١/١١/٤.

وكان السهر في هذه الحانة يمتد حتى مطلع الفجر. ولما كنت لا أحتسي مشروبات كحولية آنذاك، فقد كنت أكتفي بأكل الدجاج المشوي، وطلب قدح واحد من البيرة طول الوقت يشربه أحد الزملاء عند عزمنا على الرحيل. لكن الجو العام للحانة كان يمتعني: الموسيقى الصاخبة، وتشابك الأذرع بين الجالسين على المقاعد الطويلة التي قد تمتد خمسين متراً مع الحرص على ان يكون جلوسي بين فتاتين جميلتين إن أمكن!

وكانت تكاليف المعيشة في منشن قليلة: فوجبة الغداء الحسنة كانت تكلف ماركاً واحداً، وكان الجنيه المصري يصرف بعشرين ماركاً في الصيف، ويصل إلى خمسة وعشرين ماركاً في الشتاء. وكان أفضل مأكول تشتهر به منشن هو «ركبة العجل» Kalbshaxen، وكانت القطعة منه تكفي أربعة أشخاص، وكان ثمنه

خمسة ماركات! وكنت أنا أقيم في بنسيون برقم ١٣ شارع ايزابيلا في حي اشڤابنج Schwabing، وكانت إقامتي فيه ـ وتشمل النوم في غرفة خاصة واسعة جداً والفطور والغداء الساخن والعشاء البارد ـ تكلّفني مائة مارك في الشهر!

النازية واليهود

وكانت معاملة الشعب الألماني غاية في الأدب وحسن المعاملة، والرغبة في المساعدة. ولم أشك في أية لحظة من أي تصرّف يصدر عن الألمان، حتى في الحانات الصاخبة. ولم أشعر ابداً طوال الشهر ونصف الشهر في منشن بأي أثر للشرطة الألمانية أيًّا كان نوعها: الشرطة العادية، او الشرطة السرّية. ولم أشعر بأية رقابة كائنة ما كانت مسلّطة على أحد ممن أعرف. وكثيراً ما كنا نختلط في السهرات في المراقص والحانات مع أفراد الـ SS أو الـ SA (فرق الدفاع Schützstaffel و Sturm abtalury)، فلم يحدث أبداً ان صدر عن أحد منهم أية اساءة لنا نحن المصريين أو لأيّ أجنبي. ولقد سألت فؤاد عسل ـ وكان يسكن كما قلت عند سيدة يهودية ـ هل حدث يوماً أن جاءت الشرطة إلى المنزل، فأكّد لي انه لم يحدث شيء من هذا طوال العامين اللذين كان قد أمضاهما لديها. ولما كانت كتب بعض الكتّاب الألمان اليهود مختفية عن البيع او ممنوعة التداول، وكنت قد احتجت لبعضها مثل كتب توماس مان واتسڤايج وايجون فريدل وفريدرش جوندولف وسألت صاحبة شقة فؤاد عسل عن امكان الحصول على بعض هذه الكتب، فوعدتني في اليوم التالي بإحضار مَن لديه بعض هذه الكتب، وكان يهودياً من معارفها، وجاء فعلاً وعرض عليّ ما لديه، لكنها لم تكن تهمني ـ فكلها قصص ـ فلم أشترِ منه شيئاً. ولم أسمع أثناء مقامي، ولا من أصحابي المصريين هؤلاء عن أيّ أعمال عنف ضد اليهود. إذن فما معنى هذه الأكاذيب التي أُذيعت في شتى أنحاء العالم ـ خصوصاً في أمريكا وفرنسا وانجلترة ـ عن اضطهاد مزعوم لليهود في المانيا حتى سنة ١٩٣٧ على أقل تقدير؟!

ثم إنَّ الكثيرين من العلماء والفلاسفة والمستشرقين اليهود بقوا في ألمانيا، وظلُّوا ينشرون مؤلفاتهم، ويواصلون العمل في الجامعات حتى سنة ١٩٣٩ ـ لم ينلهم أي أذى، أذكر منهم مؤسِّس مذهب الظاهريات ادموند هسرل Hesserl (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) الذي بقي في فرايبورج ـ ان ـ بريسجاد ـ وكان استاذاً في جامعتها ـ حتى وفاته في ابريل سنة ١٩٣٨.

وكان في ألمانيا في ذلك الوقت ـ سنة ١٩٣٧ ـ حوالى ثلثمائة ألف يهودي. وباعتراف دائرة المعارف اليهودية» (جـ ٧ عمود ٤٨٩ ـ ٤٩٠) Encyclopaedia Judaica فإن: «في الفترة سنة ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٣٧، على الرغم من كل الاجراءات المدمرة، كان لا يزال في أيدي اليهود مقدار ضخم من رؤوس الأموال (في المانيا) واستمر بعض اليهود في القيام بأعمال مُربحة. وإلى حد بعيد استفاد اليهود ايضاً من الرواج الاقتصادي الذي نشأ عن إعادة تسليح ألمانيا».

أمّا حملات النازية على اليهود فكانت جزءاً من حملات النازية على مَن كانوا خصوم النازية في الفترة السابقة على توليها الحكم في ٣٠/ ١/ ١٩٣٣. فكانت إذن عملاً سياسياً محضاً لا تفرق فيه بين يهودي وغير يهودي. ولا شك في ان اليهود في ألمانيا في عهد ما يُسمَّى بـ «جمهورية ڤيمار»، أي من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٣٣ كانت لهم قوة ضخمة في الحياة السياسية والاقتصادية والفنيّة الألمانية. وتقول «دائرة المعارف اليهودية» (جـ ٧ عدد ٤٨٣) عن هذه الفترة: «إن مشاركة اليهود ونفوذهم في الحياة السياسية لألمانيا وصلا إلى درجات لم يسبق لها مثيل من قبل. فكثير من زعماء الأحزاب الديمقراطية والاشتراكية كانوا يهوداً، كما كان اثنان من «قوميسيري (مندوبي) الشعب» الستة الذين ألّفوا الحكومة الألمانية التي قامت بعد الثورة، وهما O. Landsberg و H. Haase يهوديين. وفي باڤاريا لعب اليهود دوراً أكبر: فلقد كان رئيس الحكومة الثورية يهودياً، وهو Kurt Eisner، كما كانت الحكومة التي شكلت على النمط السوڤييتي بعد مقتل ايسنر Eisner وهم من المثقفين اليهود مثل Eugen Levine و Gustav Landaner، و Ernst Toller، وغيرهم. ولجنة التحقيق المكلّفة بتحرير مسئولية القيادة عن هزيمة ألمانيا، كان من بين أعضائها Oscar Cohen، وهو ديمقراطي اشتراكي وصهيوني. ودستور جمهورية ڤيمار قد وضع مسودّته رجل يهودي هو Hugo Prenss. وثم يهودي آخر، وهو Walter Rothenan كان اولاً وزيراً للتعمير وبعد ذلك صار وزيراً للخارجية: وكان اغتياله بواسطة شباب متطرف يرجع السبب الأكبر فيه إلى عداء للسامية. وعدد ضخم من اليهود قد عيّنوا في مناصب رفيعة في الخدمة المدنية، خصوصاً في پروسيا. وصعود اليهود إلى مواقع السلطة السياسية ـ بالإضافة إلى تفوقهم الاقتصادي والاجتماعي ـ قد نمَّى وزاد في عداوة الشعب الألماني لليهود، وسهَّل نمو الحركة النازية، واستغلت الدعاوة المعادية لليهود سلسلة من الفضائح المالية

والإفلاسات التي كان اليهود متورطين فيها وضالعين. والخلفية لهذه الأحداث كانت الأزمة الاجتماعية والاقتصادية التي أمسكت بألمانيا نتيجة للتضخم الهائل الذي حدث بعد الحرب. والدوائر اليمينية في ألمانيا ـ وقد حرصت على صرف انتباه الجمهور عن المستفيدين الفعليين من التضخم، وهم كبار رجال الصناعة والمال وأعمالهم الجبارة ـ كانت اكثر من مستعدة لاستغلال الدعاوة ضد اليهود من أجل اغراضها هي. والطبقة الوسطى وقد أصابها الاضطراب الاقتصادي بضربة قاسية، ثم طبقة النبلاء وطبقة الضباط الذين شعروا بتلطيخ الهزيمة لشرفهم والذين أُلغيت امتيازاتهم بواسطة الثورة ـ كل أولئك سهُل عليهم الاقتناع بالفكرة القائلة بمسئولية اليهود عن كل المصائب التي حلّت بألمانيا؛ وبأنَّ «اليهود طعنوا الجيش الألماني الذي لم يُهْزم، طعنوه من خلف» وهكذا أجبروه على التسليم؛ ـ وبأنَّ الرأسمالية والماركسية (يقصد: البلشفية والاشتراكية) كانتا ثمرة مؤامرات «اليهودية العالمية». (عمود ٤٨٣ ـ ٤٨٤).

«من فمك أدينك يا اسرائيل» ـ هذه العبارة أصدق ما يكون بالنسبة إلى ما أوردته من كلام «دائرة المعارف اليهودية» (جـ ٧ عمود ٤٨٣ ـ ٤٨٤ Encyclopaedia Judaica المطبوعة في اورشليم ـ القدس). وقد أوردناه في ترجمة حرفية دقيقة ليتبين منه بكل جلاء ان النازية إنَّما كانت تجسيداً لشكوى الشعب الألماني من تغلغل نفوذ اليهود في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى: في السياسة والاقتصاد، والفنون، وغيرها من مرافق الحياة، واستغلال اليهود للمصاعب الهائلة التي حلّت بألمانيا غداة هزيمتها، وسيطرتهم على مقاليد الحكم ومفاتيح الاقتصاد ووسائل الدعاوة والاعلام. ويذهل المرء من العدد الهائل من التنظيمات اليهودية في المانيا في تلك الفترة (١٩٢٠ ـ ١٩٣٣) ـ وقد ذكرتها بالتفصيل «دائرة المعارف اليهودية» (جـ ٧ عمود ٤٨٦ ـ ٤٨٧) على نحوٍ يكاد يجعل ألمانيا مستعمرة يهودية وبؤرة لكل المؤسسات اليهودية والصهيونية في العالم، ومكان إعداد للحركات الصهيونية واليهودية العالمية. ومع ذلك كان عدد اليهود في ألمانيا في سنة ١٩٢٥ هو ٥٦٤,٠٠٠. وكان عددهم في يونيو سنة ١٩٣٣ ٥٠٣,٠٠٠؛ وصار عددهم في سنة ١٩٣٩ هو ٢٣٤,٠٠٠. هذا في الوقت الذي كان فيه سكان المانيا في سنة ١٩٢٠ ستين مليوناً، وفي سنة ١٩٣٥ ستاً وستين مليوناً.

فبأي حق، وفي أي شرع يجوز أن يتحكم نصف مليون يهودي في أكثر من

ستين مليوناً من الألمان؟! إن أبسط قواعد العدالة والواجب كانت تقضي على كل ألماني حرّ الضمير أن يتخلّص من سلطان هذا النصف مليون. وهذا ما فعلته النازية تدريجياً وبالطرق القانونية السليمة. فتركت لهم الحرية التامة في مغادرة ألمانيا هم وممتلكاتهم، وسهّل لهم ذلك كونهم يحملون جوازات سفر ألمانية، وكان حامل جواز سفر ألماني له الحق في دخول معظم دول أوروبا بدون ڤيزا (تأشيرة دخول). ولم يمنع الحكم النازي أي يهودي من الرحيل خارج البلاد طوال حكم النازية. وتقول «دائرة المعارف اليهودية» في هذا الصدد عن السنوات الأولى من حكم النازي: «لم تكن القرارات الخاصة بتحويل النقد إلى الخارج متشددة» (جـ ٧ عمود ٤٩١).

والقوانين التي أصدرتها النازية لتنظيم شئون اليهود في ألمانيا ـ وقد صدرت في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٥ في نورمبرج وعرفت باسم «قوانين نورمبرج» لم تشتمل إلاّ على ما يلي من القواعد الأساسية: تحديد مَن هو «اليهودي»؛ منع الزواج بين اليهودي والمسيحي ـ وهو أمر تفرضه الكنيسة الكاثوليكية نفسها في قوانين الزواج المسيحي؛ والاتصال الجنسي بين اليهود وغير اليهود كان يعتبر تدنيساً للجنس Rassenschande، ويحتمل العقاب، منع استخدام اليهود لخادمات ألمانيات غير يهود.

فماذا في هذه القواعد من «شذوذ» يجعل اليهود في سائر أنحاء العالم يقيمون الدنيا ويقعدونها متهمين واضعيها بالفظائع والمنكرات والجرائم ضد الجنس البشري؟! إنَّ المرء يعجب كل العجب من وقاحة هذا الافتراء، ومن غفلة مَن يصدّقونهم! ولكنها الوقاحة في الكذب، والسيطرة على وسائل الاعلام هما السبب الأول في هذا الأمر العجيب.

وقد حاولت «دائرة المعارف اليهودية» أن تهوّل فيما يسميه اليهود بـ «شوأة» (وباللغات الأوروبية HoLocaust) أي «مذابح اليهود»، فلم تذكر غير حادثين اثنين لا ثالث لهما: وهما اغتيال Theodor Lessing (وهو مؤرخ فلسفة من الدرجة الرابعة، أو أقل) في مارينباد سنة ١٩٣٣، وتعذيب الشاعر والمسرحي Frich Muhsam حتى الموت في معسكر اعتقال Oranenburg في سنة ١٩٣٤ «إبادة للجنس»! ما أعجب هذا الكذب والتضليل!

أمّا ما حدث لليهود في ألمانيا وفي المناطق التي استولت عليها إبّان الحرب ـ فأمر تحكمه ضرورات الحرب، ولا محل للكلام عنه ها هنا. وفي اعتقادنا ان الأخبار الخاصة بهذا الموضوع كلها مشوّشة مبالغ فيها كل المبالغة، و٩٩٪ منه

ملفّق مخترع لأغراض في نفوس من اخترعوه ولفّقوه. وماذا يستطيع ان يفعل شعب مهزوم مغلوب على أمره ضد ما يلفق ضده! وويل للمغلوب!

فلنطوِ إذن هذا الموضوع.

مصريات في منشن

ولي في منشن ما يمكن ان يسمّى ذكريات مصرية:

١ ـ وأوّلها أنّه كان عند ميدان أوديون مقهى في داخل سور «الحديقة الانجليزية»، لما دخلته لأوّل مرة بصحبة فؤاد عسل جاء النادل وحيّانا ـ وقد عرف فؤاد عسل من قبل ـ قائلاً إن عبد العزيز جاويش كان دائم التردد على مقهانا هذا طوال إقامته في هذا البلد (منشن). فتذكرت ان الشيخ عبد العزيز جاويش ـ أحد رجال الحزب الوطني المتحمسين المتشدّدين في الدين والسياسة معاً ـ كان قد أتى الى المانيا هو ومحمد فريد؛ ويبدو أن الشيخ عبد العزيز جاويش قد استقر في منشن، بينما فضّل محمد فريد الاقامة في برلين. وكان هذا النادل عجوزاً قد جاوز الستين؛ لكنه لم يستطع ان يذكر لنا من ذكرياته عن عبد العزيز جاويش أي شيء يتجاوز جلوسه في المقهى ساعات طويلة!

٢ ـ ومنها تعرّفي إلى عبد الرحمن فهمي ـ وكان آنذاك عضواً وفدياً في مجلس النواب عن دائرة كرداسة في الجيزة ـ وكان له دور بارز في تنظيم ثورة سنة ١٩١٩. وحدث آنذاك في أغسطس ان أخرج النقراشي (باشا) من وزارة مصطفى النحاس. ولما كانت الصحف المصرية لا تصل إلينا في منشن (بينما كانت تباع في برلين) ـ فقد رحنا نضرب أخماساً لأسداس لتفسير هذا النبأ. أمّا انا فقد وجدتها فرصة للحملة العنيفة على الوفد، وهو ما أثار ثائرة عبد الرحمن فهمي؛ ولما سألته كيف يفسر هذا الحادث قال: إن ذلك تمهيد لتعيين النقراشي رئيساً للديوان الملكي! فأجبته هذا غير معقول اولاً لأنّ النقراشي معروف بالحمق والتزمت وجمود التفكير وخشونة التصرفات ـ فكيف يعين في منصب كهذا يحتاج إلى اللباقة والكياسة والمداورة؛ وثانياً لأنّ العلاقة بين الملك والنحاس يسودها التوتر والاحتكاك؛ فكيف يعينه الملك فاروق رئيساً للديوان الملكي؟! فازداد حنق عبد الرحمن فهمي لحججي المقنعة الدامغة هذه. ولما كان رجلاً طاعناً في السن، فقد صرفت النظر عن الاسترسال في هذا الجدال. وغادرنا مقهى لويتبولد حيث التقينا به إلى مقهى آخر. وقرّرنا عدم الكلام في السياسة طوال الأيام الثلاثة التي قضاها معنا. وفي اليوم التالي ذهبنا نحن الثلاثة هو وفؤاد عسل وأنا ورابع لا أذكره لأكل

«ركبة عجل» في المطعم الذي كنا نتردّد عليه حين نشتاق إلى هذا اللون من الطعام الشهي. ولما ودعناه وعدناه بلقاء في مصر. وقد حدث ذلك بعد عودة فؤاد عسل من ألمانيا في سنة ١٩٤٤، وكان عبد الرحمن فهمي قد أُصيب بالفالج ولم يبرأ من آثاره إلاّ ببطء. فكانت جلستنا معه استعادة لذكريات منشن، وتخفيفاً منا لما أصابه. ويجدر بالذكر ان النقراشي كان قد فُصل من الوفد في الوقت الذي طرد فيه من الوزارة، وراح ينشىء حركة مضادة للنحاس، أيّده فيها أحمد ماهر (وعبد الرحمن فهمي هو خال أحمد ماهر)، وأدّت هذه الحركة إلى إنشاء ما يسمَّى بالحزب «السعدي»، الذي تحالف مع حزب الأحرار الدستوريين حتى أُقيلت وزارة النحاس في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٧، وأجريت الانتخابات في مارس سنة ١٩٣٨، ورشح السعديون عبد الرحمن فهمي في دائرة كرداسة بوصفه عضواً سعدياً. وعلى سبيل المداعبة قلت له وأنا أُودّعه: ألم أكن أنا على حق إذن لما تناقشنا في منشن حول إخراج النقراشي من وزارة الوفد؟! فكان ضحك منه ومنا نحن الاثنين.

٣ ـ وتوفي أميرالاي في الجيش المصري في أحد المستشفيات في منشن. فجاءت إحدى ممرضات المستشفى إلى مقهى لويتپولد، ولست أدري مَن دلّها على هذا المكان، إلا ان يكون قد اشتهر بين أهل منشن انه ملتقى الطلبة المصريين! ـ وأنبأتنا بالنبأ. كما ان المستشفى أبلغ المفوضية المصرية في برلين. فتولَّى الطلبة المصريون في منشن إعداد دفنه: إذ تولَّى غسله والصلاة عليه مَن كانوا يدرسون الطب، واشترك الباقون في تشييع الجنازة من مقر الجثة في المكان المخصص للجثث في المقبرة، إلى حيث ووري الثرى. وكان ذلك في مقبرة نييفنبورج Nywphynburg احدى ضواحي منشن. والمقبرة جديدة، فسيحة جداً، غرست فيها أشجار الصنوبر والشربين والزيزفون، وعلا ثراها العشب الأخضر. فرحنا نقارن بين هذه المقبرة الوافرة الخضرة، الناضرة بالعشب والأشجار، وبين مقابرنا الكئيبة في مصر! لغيرتنا الدينية فإننا خفنا ـ بعد تغسيله والصلاة الاسلامية عليه ـ ان تجرى له طقوس مسيحية؛ وكان الممر من غرفة الجثث إلى مكان الدفن يمر بكنيسة، فرحنا ندفع العربة المحملة بالجثة بسرعة في الممر حتى لا يمكث أي وقت في داخل الكنيسة؛ ودفعنا العربة، بسرعة إلى الطريق الخارجي، حيث استأنفنا السير ببطء حتى المكان المعدّ لمواراته الثرى. وأثناء حفر حفرة الدفن، جاء نائب القنصل المصري ـ ومن عجب أنَّه سيصبح فيما بعد ممثلاً لمصر في هيئة الأمم وسفيراً في موسكو ـ وكان لا يعرف حرفاً واحداً من اللغة الألمانية، وطلب منِّي أن أتوسط في الترجمة بينه

وبين مندوب النيابة لأخذ تقرير منه بأنَّ الوفاة كانت طبيعية؛ كما يبلّغ هو بدوره هذا الأمر إلى وزارة الخارجية المصرية ويتخلص من كل مشكلة. وتعجبت من جهل هذا النائب قنصل المصري بلغة بلد يعمل فيها منذ اكثر من عامين، ومن سذاجة وتفاهة تفكيره ـ وهي نفس الصفات التي سترشحه ليكون ممثلاً لمصر في هيئة الأمم وسفيراً لها في موسكو! وفيما بعد سأعرف انه لا عجب في هذا، فتلك حال كل مَن نالوا أرفع المناصب في الخارجية المصرية!.

٤ ـ وأخيراً وبالمناسبة نشير إلى ما كان يدور من حديث بين الطلاب المصريين عن واقعة مولد رودلف هس Rudolf Hess في الاسكندرية في ٢٦ ابريل سنة ١٨٩٤، حيث كان أبوه تاجراً ألمانياً في الاسكندرية. وتعلّم في الليسيه الفرنسية بالاسكندرية ثم واصل دراسته في ألمانيا. وحمله أبوه على إشراكه معه في التجارة. لكنه آثر الخدمة في الحرب العالمية الأولى في نفس الكتيبة التي كان يخدم فيها هتلر، ثم صار بعد ذلك طياراً في سلاح الطيران. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التحق بجامعة منشن سنة ١٩١٩. واشترك في حركات سياسية وطنية ومضادة لليهود. وكتب بحثاً حصل به على جائزة بعنوان: «ماذا ينبغي ان يكون عليه تكوين الرجل الذي سيعيد ألمانيا إلى مكانتها السامية القديمة؟» وهو الذي عرّف هتلر بكارل هاوسهوفر Karl Haushofer، رائد علم الجيوبوليتيك (السياسة القائمة على الجغرافيا). واشترك مع هتلر في انقلاب نوفمبر سنة ١٩٢٣ في منشن الذي أشرنا إليه من قبل، وفرَّ إلى النمسا لكنه عاد بعد قليل ليشارك السجن مع هتلر، وقد عمل سكرتيراً (أو كاتباً) لهتلر وهو يملي كتابه «كفاحي». وقد أصبح نائب رئيس حزب النازي في ابريل سنة ١٩٣٣، وصار وزيراً بلا وزارة في ديسمبر سنة ١٩٣٣. وفي سنة ١٩٣٩ عيَّنه هتلر ثاني خلف له بعد هرمن جيرنج. وفي ربيع ١٩٤١ قام من تلقاء نفسه برحلة إلى انجلترة طمعاً في عقد الصلح معها، وكان من أمره بعد ذلك ما هو معروف ـ ولا يزال حتى الآن السجين الوحيد للحلفاء في سجن Spandan في برلين الغربية، رغم الافراج عن سائر زملائه!

والمهم في هذا هو ان بعض الطلبة المصريين في المانيا كانوا يظنون فيه أنَّه الشفيع لهم، وانهم يلقون الرعاية في ألمانيا النازية بفضل هذا الاسكندراني المولد! وكل هذا وهم! وما أكثر الأوهام التي تدور في أذهان الطلبة المصريين الذين يتلقون العلم خارج مصر! ذلك لأنَّهم لا يقرأون شيئاً جدياً عن البلاد التي

يقيمون فيها، وتنحصر معلوماتهم عن نظم الحكم او الاقتصاد او الاجتماع فيها ـ تنحصر في أنباء تافهة ومعلومات سطحية وشائعات ملفّقة يتبادلونها فيما بينهم وربما كانوا هم مخترعيها. فمثلاً في المانيا كنت أسأل الطلاب المصريين في منشن عن النظام النازي: أسسه واتجاهاته والنظريات التي يقوم عليها ـ فلا يجدون جواباً. وأسألهم عن الشخصيات الرئيسية في الحزب ـ فلا يعلمون إلاَّ مجرد أسماء ووظائف: همْلر رئيس الـ SS، وفيرك Frick وزير الداخلية، وجيرنج وزير الحربية، وجيبلز وزير الدعاية ـ وهذا كل ما في الأمر. واذا تحمسوا للحزب كانت حماستهم عبارة عن رفع اليد اليمنى ممدودة بحذاء الرأس حين يمرون بقاعة فلدهرن Feldherrenhalle التي سقط فيها بعض أنصار هتلر في انقلابه الفاشل في ٩ نوفمبر سنة ١٩٢٣، أو ان يحيّوا بتحية Heil Hitler حين يقابلون أحداً من معارفهم. ولم أجد واحداً منهم قرأ «كفاحي» لهتلر، وبالأحرى والأولى لم يقرأ شيئاً من مؤلفات ألفرد روزنبرج، ولا حتى مقالاته في جريدة الحزب Völkischer Beobwher التي كان رئيس تحريرها منذ مايو سنة ١٩٢٣، كما لم يقرأوا أي «كتاب» عن النازية.

ونفس الظاهرة وجدتها في ايطاليا، وسأجدها بعد الحرب في فرنسا واسپانيا وسويسرة.

وقد قررت ابان اقامتي في منشن ـ «عاصمة الحركة النازية» ـ أن أدرس هذه الحركة دراسة عميقة. وبدأت بكتاب «كفاحي»، وتلوته بكتاب «أسطورة القرن العشرين» تأليف ألفرد روزنبرج. ثم حصلت على النشرات الرئيسية للحزب النازي وحملتها معي لأقرأها في هدوء حين أعود إلى مصر. ودفعتني قراءتي لهذين الكتابين إلى الاطلاع على المؤلفات النظرية التي أسّس عليها هتلر وروزنبرج الايديولوجية النازية؛ ولما كان الوقت لا يسمح وأنا في ألمانيا، فقد اشتريت بعض هذه المؤلفات لأقرأها في مصر، وأهمها: «أماسي القرن التاسع عشر» (سنة ١٨٩٩) تأليف Housten st. Chamberlan(١٨٥٥ ـ ١٩٢٧) الذي فيه طبق المقولات العلمية على تطور تاريخ الانسانية، فانتهى إلى ان الأجناس هي حَمَلَة تاريخ الانسانية، وان الجنس الآري هو المدعو لزعامة بني الانسان، وان الألمان هم أبرز وأصلح فروع الجنس الآري. ثم كتاب Deuteche Schuften تأليف المستشرق Paul de Lagarde (١٨٢٧ ـ ١٨٩١)، وفيه آراؤه في اليهود والكنيسة، وكان روزنبرج يعده من مصادر الأيديولوجية النازية.

وعلى هذه الكتب وغيرها عديدة اعتمدت في سلسلة المقالات التي كتبتها في

مجلة «مصر الفتاة» في صيف سنة ١٩٣٨ وما تلاه.

حصيلة اقامتي في منشن

وعلى الرغم من ان اقامتي في منشن استغرقت شهراً وأحد عشر يوماً فقط، فإني أفدت منها فوائد جلّى:

أ ـ فقد اتصلت بالثقافة الالمانية، والطبيعة الألمانية، والروح الألمانية، والسياسة الألمانية اتصالاً حيًّا عميقاً نديًّا جعلني أنفذ إلى الحضارة الألمانية من الباطن، وأتعاطف معها عن ادراك واعٍ وأتفاعل مع تياراتها على طول تاريخها.

ب ـ وعاينت أول تجربة حيَّة للحضارة الأوروبية، بعد ان كنت لا أعرف عنها إلاَّ ما علّمتنيه الكتب أو ما تلقّيته من العلم لدى الأساتذة الأوروبيين.

جـ ـ وشاهدت الغابات الكثيفة الواسعة، والجبال الشاهقة فامتلأت اعجاباً بالطبيعة وصرت أتمنَّى أن أقضي العمر بين الغابات والجبال. وقويت نزعتي الرومنتيكية التي فطرت عليها، وصار للشعراء الرومنتيك الألمان: نوفالس، وهيلدرلن واشليجل وتيك ويزمتانو مكان الصدارة في تقدير الشعر بعامة، والألماني على وجه التخصيص.

د ـ أصبحت مولعاً بالموسيقى الألمانية، وموسيقى رتشرد ڤجنر بخاصة. وبالموسيقى الألمانية انفتح أمامي عالم ساحر، صار هو ملاذي حين تسودّ الدنيا في عيني؛ او يستبد بي الضيق واليأس. إنّي أعد الموسيقى أعظم انتاج انفردت به الروح الأوروبية.

هـ ـ تبلورت أفكاري السياسية حول معانٍ أساسية هي: الوطنية النابعة من صميم الشعور بمصر ومكانتها في الماضي وما آمُله من استعادة هذه المكانة في المستقبل القريب، وكان النموذج العيني الذي ينبغي استلهامه هو ما تحاول النازية تحقيقه لوطنها المانيا. . ولما كانت ألمانيا لم تستعمر مصر ولا أي بلد عربي أو اسلامي، وكان الإعجاب بألمانيا اصيلاً في الشعب المصري بل وسائر الشعوب العربية والاسلامية، فلم يكن ثمّ أي تحرّج في استلهام نموذج ألمانيا.

ـ ٣ ـ
في ﭘيروچا

وغادرت منشن في عصر يوم السبت ١٤ أغسطس عائداً إلى روما، فوصلتها

في ضحى اليوم التالي. وغداة وصولي ذهبت إلى الأكاديمية المصرية لأحصل على تذكرة السفر ذهاباً وإيَّاباً من روما إلى پيروچا، حيث «جامعة الأجانب» توفر دراسة اللغة الايطالية وآدابها والثقافة العليا في الشئون الايطالية. واستقللت القطار في نفس اليوم ـ الاثنين ١٦ أغسطس، فوصلت پيروچا بعد ثلاث ساعات ونصف. ونزلت في فندق يدعى La Rosetta.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ذهبت إلى «جامعة الأجانب» Universita per Straneri وسجّلت نفسي. واختارت الجامعة لي مكاناً في شارع بوناتسي Bonazzi المتفرع من أكبر شارع في المدينة وهو Corsa Vannucci.

ومدينة پيروچا Perogia (وباللاتينية Perusia) تقع في قلب اقليم الاومبريا Umbria، وهي عاصمته. وتقوم على رابية ارتفاعها ٤٩٣ متراً فوق سطح البحر، و٣٠٠ متر فوق وادي نهر التفرة Tevere. وهي نقطة تقاطع عدة طرق مهمة تصل اقليم اللاتسيو (حيث روما) باقليم توسكانا (حيث فيرنتسه) من الجنوب إلى الشمال، وتصل بين اقليم الماركي (حيث أنكونا) وبين پيزا وسيينا. وهي تشرف من علٍ على باقي اقليم الاومبريا الرائع الجمال، فيتمتع الناظر من پيروچا بمناظر فاتنة. وبالقرب منها تتناثر مدن صغيرة شهيرة بالفن والتقوى مثل أشيزي Assisi، بلد القديس فرنشسكو الأشيزي مؤسس الطريقة الرهبانية: الفرنسيسكان؛ ومدينة فولينو Folieno شوارعها ضيقة متعرجة، وبيوتها يستند بعضها إلى بعض، أو ترتبط بعقود.

وكانت في الأصل مدينة أومبرية، ثم صارت اوترسكية في القرن الخامس قبل الميلاد، وكانت إحدى المدن الاثنتي عشرة في الاتحاد الأوترسكي. ثم استولى عليها أهل روما. وفي أثناء الحرب بين الرومان وهنيبعل ظلت مخلصة لروما. وفي سنة ٤١ ـ ٤٠ قبل الميلاد حاصر أوكتافيان فيها لوقيوس أنطونيوس واستولى عليها ثم أحرقها؛ ولما صار اوكتافيان امبراطوراً أعاد بناء المدينة. ـ وفي العصور الوسطى بقيت پيروچا وقتاً طويلاً تحت حكم بيزنطة، واستولى عليها القوط واحتلها اللونجبرديني وجعلوا منها عاصمة لدوقية ـ ثم صارت في القرن الثامن ضمن ممتلكات البابا، واتسعت ناحيتها لتضم إليها مدينة كستلو Castello وجوبيو Gobbio، وضمت إليها أشيزي في سنة ١١٩٤. وفي سنة ١٤٠٠ صارت في حوزة Gian Ialsazza Visanti، ومن ١٤٠٨ إلى ١٤١٤ صارت تحت سيادة La dislao di Ourazzen. ثم تولاها آل بليوني Bayluni فكان لهم الفضل في بناء الكثير من عمائرها في عصر النهضة.

ثم ثارت على حكم البابا في سنة ١٨٥٩، واستولت عليها الجيوش الايطالية في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٦٠ وانتزعوها من حكم البابا.

وقد بقي من العهد الامبري الاتروسكي (القرون من الرابع إلى الأول قبل الميلاد) بعض الآثار، وأهمها سور حجري من كتل الصخر المربعة ويرجع إلى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، وله عدة أبواب قوية: باب تراسيمين Porta Trasimene، باب مندورلا Mandorla، باب جيلي Gigli، باب سان لوقا، باب الشمس، قوس سان اركولانو Ercolano، قوس أغسطس وحوله أبراج، باب مرسيا Merzia، وحوله غرف وتماثيل.

ومن العصر الوسيط وعصر النهضة نجد في الميدان الرئيسي نافورة عظيمة يرجع تشييدها إلى حوالى سنة ١٢٧٨، وعليها نحت بارز من عمل نقولا ويوحنا بيزانو Pisano وأمامها بناية الكامبير Collegia del Cambier (١٤٥٢ ـ ١٤٥٧)، وفيها قاعة غطيت جدرانها برسوم جدرانية من عمل الفنان العظيم، البروجينو Il Perugino أستاذ رفائلّو وغيره من كبار مصوري عصر النهضة، وقد عملها في سنة ١٥٠٠.

ومن أبرز عمائر العصر الوسيط كنيسة سانتانجلو Santangelo، وهي على شكل دائرة، وفيها أعمدة قديمة. لكن أكبر الكنائس هي كنيسة القديس بطرس S. Pietre، وترجع إلى القرن العاشر، ولها برج ناقوس سامق بني في سنة ١٤٦٨. وترجع عدة كنائس إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وهي: كنيسة سان اركولاند، وسان جوليانا، وسنتا ماريا دي مونتلوتشي Di Montelwe.

ومن أجمل الكنائس مصلى سان برنردينو Oratirio S. Bermardino (١٤٥١ ـ ١٤٦١)، خصوصاً الواجهة المزيّنة بالنقوش والنحوت من عمل أجوشينو دي دوتشو Agostino di Duccio. ولرفائلّو Raffaello، أعظم مصوري ايطاليا، رسم جدراني في كنيسة القديس سويرس S. Severs، عمله سنة ١٥٠٥.

وفي المتحف الوطني لإقليم الاومبريا في بيروچا، ومقره في قصر البريوري Priori توجد لوحات كثيرة لمصورين من اقليم الاومبريا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وخصوصاً لابن بيروچا الشهير، البروجينو، ولفرا انجلكو، ونقولا ألونّو، وبونفيلي.

وفي سنة ١٩٢٦ أنشأ موسوليني «جامعة الأجانب» Universita per Sravieri،

من أجل تعليم اللغة الايطالية والثقافة الايطالية للأجانب، وجعل مقرّها في قصر جلنجا Gallenga، وهو قصر كانت تملكه أسرة جالنجا، وقد شُيِّد في القرن الثامن عشر، وكان مهندسه هو F. Bianchi.

وافتتح موسوليني بنفسه هذه الجامعة بإلقاء محاضرة عن «روما على البحر»، وذلك في مايو سنة ١٩٢٦. وكانت المحاضرة استعراضاً تاريخياً لروما لما كانت تصل إلى شاطىء البحر الأبيض المتوسط في عهد الامبراطورية الرومانية. وهو ما سعى موسوليني إلى اعادته من جديد بالطريق الواسعة الفخمة التي امتدت من طرف روما إلى أوستيا Ostia على ساحل البحر المتوسط. وفي خلال الأربعين سنة الأخيرة امتد العمران حتى اتصلت روما بأوستيا، وأصبحت «روما الكبرى» على البحر المتوسط فعلاً.

وفي كل عام يستهل الفصل الصيفي بمحاضرة عامة تلقيها شخصية بارزة. وفي عام ١٩٣٧ ألقى المحاضرة الأولى الافتتاحية بيترو بادوليو Pietro Badoylio الذي قاد حملة ايطاليا في عام ١٩٣٦ على الحبشة واستولى عليها ـ وكانت محاضرته هي بعنوان: «حرب الحبشة». وطبعاً لم أستطع حضورها لأنّي إنّما وصلت پيروچا في منتصف أغسطس، وهو ألقاها في مايو.

والدراسة في پيروچا على نوعين: دراسة اللغة، ومحاضرات عامة. ودراسة اللغة تشمل ثلاث مراتب: مبتدئين، ومتوسطين، ومتقدمين ـ والمرحلة الأخيرة هذه تنتهي باجتياز امتحان يحصل الناجح فيه على شهادة «الأهلية لتدريس اللغة الايطالية في الخارج».

أمّا المحاضرات العامة فكان موضوعها قرناً من القرون: الرابع عشر، الخامس عشر، السادس عشر، الخ بكل جوانبه: في الأدب، في التاريخ السياسي، في الفن، في الاقتصاد، في الحياة الدينية. فيتوالى أساتذة وعلماء كبار من سائر الجامعات الايطالية لإلقاء عدد من المحاضرات العامة (٣ أو ٤ أو ٥) في موضوع داخل نطاق القرن المحدّد دراسته. ويضاف إلى ذلك ـ إن وُجد ـ سلسلة محاضرات احتفالاً بذكرى شاعر أو عالم أو فيلسوف أو فنان، الخ.

وكان القرن السادس عشر هو المقرر لعام ١٩٣٧. ومما أذكره من المحاضرات العامة في الفترة التي حضرتها ما يلي:

١ ـ محاضرات لانطونيو بانفي Antonio Banfi (١٨٨٦ ـ ١٩٥٧) عن ليونردو داڤنشي. وبانفي مؤرخ للفلسفة كان استاذاً في جامعة جنوة، ثم في

جامعة ميلانو؛ ونزعته عقلية، وله كتاب في «الفلسفة الروحية» ١٩٢٢، و«في نظرية العقل» سنة ١٩٢٦، وكتاب جيد عن «هيجل». لكنه جنح بعد ذلك إلى الشيوعية، وحاول التوفيق ين اتجاهاته السابقة وبين الماركسية والديالكتيك الماركسي، وذلك في كتابه: «الانسان الكوپرينكي» (١٩٥٠). ولم ألحظ عليه مطلقاً أية نزعة ماركسية او شيوعية لا في محاضراته ولا فيما قرأت له من كتب من قبل. ولذلك دهشت وأنا أمرّ بميلانو في سنة ١٩٤٧ إذ رأيته يخطب في حشد شيوعي من العمال ويمجد الشيوعية والماركسية!! وقد نال ثمرة هذا «التحول» بأن صار عضواً شيوعياً في مجلس الشيوخ الايطالي مرتين! وهذه الظاهرة شاهدتها في ايطاليا بعد الحرب مباشرة، حتى إنَّ بعض الأساتذة الايطاليين الذين كنت أعرفهم جيداً والذين شاهدت بعضهم في سنة ١٩٣٧ يلبس «القميص الأسود» الفاشستي. . وجدتهم يعلنون بكل وقاحة أنهم لم يكونوا ابداً من الفاشست بل ولا من أنصار موسوليني!! ولله في خلقه شئون!.

٢ ـ محاضرات لأستاذ يدعى Galetti عن بعض التيارات الفكرية في القرن السادس عشر.

٣ ـ محاضرات لأستاذ يدعى Carlo Cesare عن القديس برناردينو الذي هو من سيينا S. Bernardino da Siena ـ وكان مؤثراً في القائه لصفحات من مواعظ القديس برناردينو بصوت حارّ منفعل كأنّه سان برناردينو نفسه، وخصوصاً موعظة له عن واجبات المرأة. وكنت أداعب بهذه الموعظة بعض الزميلات اللواتي كنت أتمشى معهن بعد انتهاء المحاضرات في الساعة السادسة، وكانت نزهتنا في كورسو ڤنوتشي Vannucci أو أمام البلدية في الحديقة الصغيرة التي تزهى بتمثال الشاعر كردوتشي.

أمّا الاحتفال بذكرى شاعر، فقد كان من حسن الحظ ان هذا العام كان الذكرى المئوية الأولى للشاعر العظيم يعقوب ليوپردي Giacomo Leopardi. وقد ألقى بهذه المناسبة مؤرخ أدب ممتاز سلسلة المحاضرات الخاصة بهذه الذكرى، وهو الأستاذ Luigi Tonnelli وله خير كتاب عن ليوپردي بعنوان Giacomo Leopardi. وقد ألقى خمس محاضرات، واصطحبنا نحن الطلاب معه إلى Recanati مسقط رأس ليوپردي. وكنت أنا مولعاً بشعر ليوپردي، وطابعه الحزين، ولما فيه من فلسفة عميقة. وكنت أحفظ معظم قصائده Canti في نصها الايطالي منذ سنة ١٩٣٥ ـ وكنت قد بدأت تعلّم اللغة الايطالية في

سنة ١٩٣٤ في المدرسة الايطالية ببولاق (أمام الاسعاف، ولا تزال قائمة حتى اليوم).

وضمن محاضرات «الثقافة العالية» Alta Cultura هذه كانت هناك سلسلتان من الدروس: إحداهما خاصة «بالكوميديا الإلهية» لدانتي اليجييري، والثانية خاصة بتاريخ الفن من عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر في ايطاليا. وهذه السلسلة الثانية كان يكمّلها رحلة في يوم السبت الى متاحف الفن في پيروچا والمدن المجاورة: أشيزي، فولينو، أورڤيتو، اسپوليتو، الخ.

أمّا الطلاب في «جامعة الأجانب» هذه فكانوا في ذلك العام من ٢٨ جنسية وكنا نحن اثنين من مصر. والعدد الأكبر منهم كان من المانيا. ولحرصي على تعهد لغتي الألمانية فقد كان معارفي من الألمان خاصة. فكنت أقضي معظم أوقات فراغي مع طالبات المانيات او نمساويات، وكنَّ جميعاً بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين.

كنت أعرف الكثيرات من هؤلاء الفتيات الألمانيات والنمساويات في وقت واحد، ولكنني كنت أوثر واحدة منهن بالنزهة الخلوية في الروابي المحيطة بپيروچا والتي تكثر فيها أشجار الكروم والتفاح والكمثري، فنقضي المساء حتى ساعة متأخرة من الليل، وفي الليالي القمرية تستمر النزهة حتى مطلع الفجر. وكان العفاف أقوى رقيب علينا، فلا نتبادل أكثر من لمسات الأيدي أو المخاصرة في المشي. وحرّمنا على أنفسنا ما يتجاوز ذلك، حتى القُبَل الخفيفة. وكان يحتجزني في ذلك الوقت عفاف غريب، الباعث إليه هو تقديس المرأة والسموّ بمعنى الحب. وكنت أعتقد ان القُبَل وما بعدها تدنّس الحبّ، وتسقط المحبوبة في عيني. ولا شك ان قراآتي للشعراء الرومنتيك هي التي ملأتني بهذه الفكرة عن الحب الحقيقي. فيالها من سذاجة مقدّسة!

واستقر قلبي في منتصف شهر سبتمبر على إحداهن، وكانت تدعى أوجستا برونر Augusta Bronner، وهي نمساوية من ڤينا.

كانت فارعة القوام، بيضاء البشرة، زرقاء العينين، سوداء الشعر. وكانت ريا النهدين، بضة الردفين، أسيلة الخدّين.

تعقّبتها ذات مساء بعد الخروج من الجامعة، لما ان شاهدتها تسير وحدها في تريُّث. وكانت قد لفتت انتباهي لما ان شاهدتها في أثناء محاضرة عامة فرُحتُ أرمقها بنظري دون ان تردّ هي على نظرتي بنظرة؛ وبعد ذلك بيومين شاهدتها

وحدها في الحديقة الصغيرة أمام مبنى المحافظة Podesta، التي منها يستشرف المرء إلى آفاق اقليم الاومبريا. وكان معي زميل أمريكي، فاتخذته دريئة لكي أوجّه إليها هي بكلامي معه رسالة اعجاب ونداء غرام. وكما أخبرتني من بعد، كانت تكتم في نفسها ابتسامة رضا عن نفسها لما كنت أكيله من مديح لجمالها دون ان يكون الحديث موجهاً إليها. فكانت إذن على استعداد وتهيؤ نفسي للاتصال بها. لهذا فإنّني لم أكد أسير وراءها عشرين خطوة حتى أحسست بأنَّ لديها استجابة. ولكي أبدأها بالكلام سألتها: هل هذا الطريق يؤدِّي إلى كذا..؟ فاستدارت وعلى وجهها دهشة المفاجأة: لست أدري!

فقلت: أراك تسيرين وحدك. فهل تسمحين لي بالسير معك قليلاً في ضوء هذا القمر البديع؟

فقالت: يبدو أنَّك تحب الشعر والقمر؟

فقلت: لكن أحب الشعر إليّ هو الشعر الذي ينشده قمر مثلك ـ فإنَّ في صوتك عذوبة وموسيقى ما أجملهما حين ينشد بهما شعر مثل شعر نوفالس؟

فقالت: آه، أنت تحب إذن الشعر الرومنتيكي؟

فقلت: نعم، وبخاصة شعر نوفالس وهيلدرلن.

فقالت: إنَّ أستاذي نادلر ـ أستاذ تاريخ الأدب الألماني في كلية الآداب بجامعة ڤينا قد شرح لنا العديد من قصائد كليهما، وان كان هو لا يحب الرومنتيك.

ومضينا في الطريق الممتد حوالى پيروچا طوال كيلومترين. ثم أنبأتني انها تريد العودة إلى مسكنها لتناول العشاء. فقلت لها: وأنا بدوري قد حان وقت العشاء في البيت الذي أقيم فيه. فلننفصل الآن، وموعدنا في التاسعة مساء في حديقة المحافظة.

والتقينا من جديد في التاسعة. وتجاذبنا أطراف الحديث بيننا حتى منتصف الليل، يحاول كلّ منا ان يتعرف أحوال الآخر وعواطفه ونوازعه. ثم اتفقنا على ان يكون لقاؤنا في مساء كل يوم عقب انتهاء المحاضرات العامة في الساعة السادسة مساء.

وكان من وسائل تشجيع السياحة الداخلية تسيير قطارات الى المدن الكبرى في يوم الأحد من كل اسبوع. وبهذه الوسيلة سافرت إلى ڤينيسيا، وإلى فيرنتسه. يقوم القطار من پيروچا في منتصف الليل إذا كان السفر إلى ڤينيسيا، وفي الخامسة

صباحاً إذا كان السفر إلى فيرنتسه، ولا يتوقف في أية محطة حتى يصل إلى المدينة المقصودة.

وفي يوم الأحد التالي لتعرّفي إلى أوجستا، سافرنا معاً إلى فيرنتسه، وقضينا بها نهاراً كاملاً وطرفاً من الليل. إن مدينة فيرنتسه متحف بكاملها، لكن كان علينا ان نتوقف طويلاً في كل موضع فنّي.

بدأنا بميدان السنيوريا Signoria حيث يقوم بناءان عظيمان للفن: الأول هو «القصر القديم» Palazza Vecskio (أو قصر السنيوريا، وكان قديماً يُسمّى قصر آل بريوري Priori)، ويعلوه برج سامق نحيل (ارتفاعه ٩٤ متراً)، وهو يحتوي على زبدة الفن في فيرنتسه هو والكاتدرائية. ويشتمل على سلسلة من القاعات الفاخرة الزينة الحافلة إمّا باللوحات أو بالتماثيل؛ ومن أبرز هذه القاعات: «صالون الخمسمائة»، ومكتب فرنسوا الأول، وكاپلا اليانورا الطليطلية، وقد شيدت كلها في الثلث الأخير من القرن السادس عشر. - والبناء الثاني هو لوجيا السنيوريا Loggia della Signoria (بني سنة ١٣٧٦ - ١٣٨١).

وامام «القصر القديم» تقوم نسخة من تمثال النبي داوود، من صنع ميكلنجلو، أمّا الأصل فيوجد الآن في جاليريا الأكاديمية؛ وتمثال «جيوايت» من صنع دوناتلو Donatello (حوالى سنة ١٤٦٠).

وعن يسار القصر نافورة ضخمة تدعى «نافورة نپتون» (بنيت سنة ١٥٧٥). وبين القصر القديم واللوجيا يمتد ميدان الاوفتسي Uffizi، حيث يوجد في نهاية «قصر الأوفتسي»، وهو بناء واسع جداً بدأ تشييده فازاري Vasari في سنة ١٥٦٠ وأتمه پارجي A.Parigi؛ ويحتوي على أكبر مجموعة من روائع الفن في ايطاليا كلها، وبخاصة أعمال فناني توسكانيا.

وميدان السنيورية شهد مشاهد تاريخية فاجعة: ففيه شنق سلڤياتي Salviati أسقف پيزا، في ١٤٧٨/٤/٢٦، لاشتراكه في مؤامرة آل پتسي Pazzi وفيه نصبت المحرقة التي أحرق فيها ساڤوناردك في ٢٣ مايو ١٤٩٨. كما شهد احتفالات فخمة منها احتفال زواج الدوق الكبير فرنسوا الأول من بيانكا كاپلو Bianca Capello المرأة ذات المغامرات الواسعة.

وفي فيرنتسه وُلِدَ عدد ضخم من مشاهير الفنانين والعلماء والشعراء:

١ - فمن بين الأدباء نذكر دانته Danté (١٢٦٥ - ١٣٢١)، وبوكاتشيو Boccascio (١٣١٣ - ١٣٧٥).

٢ ـ ومن بين المفكرين نذكر: مرسليو فْشينو Marsilio Ficcino (١٤٣٣ ـ ١٤٩٩) مجدد الأفلاطونية، وسافرنارولا (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨)، ومكياڤلي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧)؛ وجوتشردِيني Guiccardini (١٤٨٣ ـ ١٥٤٠).

٣ ـ ومن بين العلماء يكفي أن نذكر جاليلو جاليلاي (١٥٦٤ ـ ١٦٤٤).

٤ ـ ومن الفنانين نذكر: من المعماريين أرنولفو دل كامبيو Arnolfo del Cambio (١٢٤٠ ـ ١٣٢٢) وبرونلّسكو Brunellesco (١٣٧٧ ـ ١٤٤٦)؛ ـ ومن النحّاتين: جيبرتي Lorenzo Ghiberti (١٣٧٨ ـ ١٤٥٥) ودوناتلو Donatello (١٣٨٦ ـ ١٤٤٦)، والڤروكيو Verrochio (١٤٣٥ ـ ١٤٨٨)، ولوقا دلاروبيا Luca della Robbea (١٤٠٠ ـ ١٤٨٢)، وميكلنجلو Michelangelo Bucriarotte (١٤٧٤ ـ ١٥٦٤) وبنڤنوتو اتشلّيني Celline (١٥٠٠ ـ ١٥٧١)؛ ـ ومن المصوّرين: تشيمابوي Cimabue (المتوفي في سنة ١٣١٠)، وجوتو Giotto (١٢٧٦ـ ١٣٣٧)، وأوركانيا Orcagna (١٣٢٩ ـ ١٣٧٦) ومنستشو Mazaccio (١٤٠١ ـ ١٤٢٨) ودومنكو جرلنذايو Ghirlandajio (١٤٤٩ ـ ١٤٩٥) وفلپو لپي Filippo Lippi (١٤٠٦ ـ ١٤٦٩) وأندريا دل سارتو Andrea del Sarto (١٤٨٧ ـ ١٥٣٠) وفرا برتولوميو Fra Bartolomio (١٤٧٥ ـ ١٥١٧) ـ وأخيراً أشهرهم جميعاً: ليونردو دافنتشي Leonardo da Vinci (١٤٥٢ ـ ١٥١٩)؛ ـ ومن الموسيقيين نذكر لولّي Lulli (المتوفى سنة ١٦٨٧) وكروبيني Cherubini (المتوفى سنة ١٨٤٢).

فأي عجب بعد هذا ان تكون فيرنتسه كعبة الفن في العالم؟!

والكنائس فيها هي بدورها متاحف عظيمة وتحف رائعة. وأقدمها معمودية القديس يوحنا Batistero S. Giovanna التي يُقال انها بنيت في سنة ١٠٠٠: وهي مثمنة الشكل. ذات ثلاثة طوابق، وسقفها يشبه الخيمة، وطلاؤها أبيض، وفيها يسود الرخام الأخضر. ولها ثلاثة أبواب من البرونز المشغول بالنحت، واثنان منهما هما من عمل Lorenzo Ghiberti الذي أمضى من سنة ١٤٠٣ حتى ١٤٥٣ في تطعيم العشرين لوحاً المذهبة في هذين البنائين. والباب الشرقي فيه صور محفورة لمشاهد من «العهد القديم» من الكتاب المقدّس، وقد قال عنه ميكلنجلو انه «جدير بالفردوس».

ويتلوها في الأهمية التاريخية كاتدرائية سنتا ماريا دي فيورة Santa Maria del Fiore التي بُدىء في تشييدها في سنة ١٢٩٤ وتمّ تدشينها في سنة ١٤٣٦. وهي من الطراز القوطي، لكنه قوطي من نوع خاص لا يحتفل بالصعود الى

أعلى، بل بالاتساع والضوء. وأول معمار اشتغل فيها هو Arnolfo di Cambo الذي يعده البعض أعظم معمار في أوروبا في العصر الوسيط، وتلاه جوتر Giotter الرسام الكبير فصمّم برج الناقوس Campoule (في عام ١٣٣٤ ـ ١٣٣٧)، ثم اندريه پيزانو Pisano (١٣٣٧ ـ ١٣٤٨) ثم تالنتي Talenti (١٣٤٩ ـ ١٣٥٩) ثم دي لاپوجيني Di Lapo Ghini (١٣٦٠ ـ ١٣٦٩). أمّا القبة فقد صممها برونلسكي Brunelleschi حوالى سنة ١٤٢٠.

والطريقتان الرهبانيتان المتنافستان: الفرنسيسكانية، والدومنكانية، شيدت كل واحدة منهما كنيسة: فالفرنسيسكان شيدوا، في الطرف الشرقي من فيرنتسه، كنيسة سانتا كروتشه Santa Croce، وتشتهر بالرسوم الجدرانية Fresco التي عملها جوتو، وينجوت دوناتلو، وباكلبلاّ التي صمّمها برونلسكي (في سنة ١٤٣٠ ـ ١٤٤٥) ـ وفي هذه الكنيسة دفن ميكلنجلو، وجالليو، ومكياڤلي، والموسيقار روسيني Rossini والشاعر Alfieri.

والدومنكان شيدوا كنيسة سانتا ماريا نوڤلا Santa Maria Novella (من سنة ١٢٧٨ إلى سنة ١٣٥٠) في الجانب الغربي من فيرنتسه. وفيها رسوم جدرانية (فرسكو) من عمل مزتشو Masaccio، وأوركانيا Orcagna، وجرلندايو Ghralandajo، ولپي Lippi.

وثم كنائس عديدة أخرى نقتصر على ذكر أسماء أهمها: S. Miniata al Monte وهي على الطراز الروماني (قرن ١١ ـ ١٣)؛ ـ S. Trinita، وطرازها قوطي (قرن ١٣ ـ ١٤)؛ ـ Ss. Annunziata، وفيها سلسلة من الفرسكانات من القرن ١٦.

ولا مناص من ذكر «المكتبة اللورنتسيانية» أو «المدتشية ـ اللورنتسيانية» Modicco Laurensiana التي بدأ في جمعها كوزمو العجوز، وزادها لورنتسو الفخم Lorenzo il Magnifico واستمرت في النماء بفضل الهبات والمشتريات. وتقع في بناء صمّمه ميكلنجلو، وافتتحت في سنة ١٥٧١. وتحتوي على ٥٣٠ من الكتب المطبوعة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر Incuvables وعلى ١٠,٢٠٨ مخطوط نفيس نخص بالذكر منها مخطوط لمؤلفات ڤرجيل مكتوب في القرن الرابع الميلادي، ومخطوط لمدوّنة جستينان تاريخه سنة ٥٣٣ Pandectes، ومؤلفات هوراس وعليها تعليقات لپترركه Petrarca الشاعر الغنائي الكبير، ومخطوط لقصص الديكاميرون Decameron تأليف بوكتشيو تاريخه سنة ١٣٨٤، ومخطوط به مذكرات ليونردو داڤنشي. وفيها بعض

المخطوطات العربية، وأهمها نسخة من تلخيصات ابن رشد لمنطق ارسطو، وهي التي عنها وعن مخطوط ليدن نشرنا ما نشرنا من هذه التلخيصات (الخطابة، الشعر، البرهان، القياس). وفيها الى جانب هذه النفائس ٤٢,٦٦٠ كتاباً مطبوعاً.

وسط هذا الفيض الزاخر المنقطع النظير من روائع الفن، ماذا كنت أستطيع أن أتأمل؟! الواقع أنّني لم أستطع التوقف إلاّ أمام لوحات بوتتشلي Botticelli، وخصوصاً لوحة «الربيع»، وتمثال «اللاأوكون» الذي انطبع في مخيلتي أعواماً طويلة، واستلهمته في صفحات من كتابي «شوپنهور» إنّ لوحات ساندرو بوتتشلي Sandro Botticelli (١٤٤٠ ـ ١٥١٠) مجنّحة، تشعر بأنّ شخوصها تطير، وتثير في النفس الانسجام الرائع الناجم عن موسيقى ناعمة النغمات لقد جمع بين خيال الأساطير اليونانية وبين مشاهد الايمان في المسيحية. فاستلهم الأساطير اليونانية في لوحاته: «ميلاد ڤينوس» و«الپلاد ذو الستتور»، و«الوشاية»، كما استلهم مشاهد الايمان المسمّى في لوحاته: «صلوات المجوس على يسوع» (في متحف الأوفتسي)، و«عذراء دعاء: نفسي تمجد الرب» (في الأوفتسي أيضاً)، و«الثالوث المقدّس». ولهذا فإنّ صور مريم العذراء في لوحاته تشبه تماماً صور «الألطاف الثلاثة» في «مرموزة الربيع» (في الأوفتسي أيضاً). لكن لمّا تقدّمت به السن غلّب الجانب المسيحي على الجانب اليوناني، وانكبّ على رسم صور عذاب المسيح المصلوب، وله في هذا لوحات في ميلانو وفي منشن. ولا عجب ان نراه ينضم حينئذ إلى حركة ساڤونا رولا الرجعية المتعصبة، للروح المسيحية ضد الروح اليونانية التي بعثت من جديد في عصر النهضة. لقد كان يعيش آنذاك عند أخيه سيمون الذي كان من أشد أتباع ساڤونا رولا حماسة. كما ان خطب ساڤونا رولا النارية ضد «فساد» العصر واحراقه للكتب اللاتينية واليونانية في ميادين عامة في فيرنتسه ـ أحدثا أثراً بالغاً في نفس بوتتشلي المتوقدة الحساسية. وإذا كان في العشر سنوات الأخيرة من عمره (١٥٠٠ ـ ١٥١٠) قد تناول في لوحاته بعض الموضوعات اليونانية واللاتينية، فلما فيها من العظة الأخلاقية مثل اللوحات التالية: «الوشاية» (في الأوفتسي)، و«لوكرتيا» (متحف جاردمز في بوسطن)، و«ڤرجينيا» (في أكاديمية كرّارا في برجمو). ونراه في لوحاته الأخيرة المستوحاة من حياة المسيح يومىء إلى ما سيصيب ڤيرنتسه من الويلات بسبب ما تخوض فيه من مفاسد وشهوات ـ كما هو مُشَاهد في لوحة

«الميلاد الروحي» التي رسمها سنة ١٥٠١ (وتوجد في لندن في متحف National Gallery)، وفي لوحة «الصلب» (في متحف فوج Figg في كمبردج بولاية ماسوشتس بالولايات المتحدة).

وعلى الرغم من ان ليونردو دافنتشي وميكلنجلو كانا من أبنا ڤيرنتسه، فإنَّ آثارهما في متاحفها قليلة او معدومة. فليونردو خطط لوحته «العذراء والقدّيسة حنّه» في سنة ١٥٠١ وهو يقيم في ڤيرنتسه، ولكنها الآن في «الجاليري الوطني» في لندن؛ وبدأ في رسم أعظم أعماله وهي لوحة «موناليزا» (الجوكندة) Monnalisa في سنة ١٥٠٣ وأتمّها في سنة ١٥٠٧، لكنه حملها إلى فرنسا وتوجد الآن مفخرة لمتحف اللوڤر في باريس.

وميكلنجلو لم أجد له إلاَّ لوحة «الأسرة المقدسة» في متحف الأوفتسي.

أمّا رفائلّو فقد كان في ڤيرنتسه سنة ١٥٠٤، ورسم هناك لوحة «المادونّا» (= مريم العذراء) في سنة ١٥٠٥، وتوجد في متحف قصر پتي Pitti في ڤيرنتسه.

على ان هناك فناناً آخر امتلأت به اعجاباً وله في ڤيرنتسه الكثير من اللوحات ـ وهو جويدو دي پيترو Guido di Pietro المشهور بلقب Fra Angelico (حوالى ١٤٠٠ ـ ١٤٥٥) لأنَّه كان راهباً دومنكياً. ولقد شاهدت له لوحة «تسمية يوحنا المعمدان» و«مذبح دير أنالينا» و«إنزال المسيح من الصلب» ـ وذلك في متحف سان مركو الملحق بدير سان مركو (القديس مرقص) في ڤيرنتسه؛ كما شاهدت له لوحة «الينبوع» في متحف الأوفتسي، وقد عاش فرا انجلكو فترة من الزمن راهباً في دير سان مركو مما جعله يهتم برسم لوحات على أخشاب المذابح، تتسم بأرضية زرقاء وذهبية ويتجلّى فيها يسوع الطفل وأُمّه مريم بين الملائكة. ومن شدة اعجابي به، فإنّي لما رجعت إلى روما في ٧ اكتوبر حرصت على زيارة قبره في دير الدومنكان المسمّى بـ «القديسة مريم فوق مينرڤا» Santa Maria supra Minerva، وعليه شاهد يقول في آخره: «اسمي هو جوڤنّي؛ والمدينة التي هي زهرة توسكانا هي وطني».

إذن كان يومي هذا في ڤيرنتسه حافلاً جداً، مليئاً بالاحساسات الجمالية العميقة. لقد كنت طواله منتشياً بنشوة فنيّة لا يبلغ مداها التعبير. ولما عدت في العاشرة مساء الى پيروچا، رحت أُفكّر في هذه المدينة ـ المتحف، ڤيرنتسه؛ وكيف استطاعت أسرة آل مدتشي ان تحيلها إلى مستودع لروائع الفن في فترة قصيرة تقل عن قرن واحد.

الموسيقى المقدسة (الدينية)

وفي الأسبوع الأخير من سبتمبر أقيم في پيروچا موسم «الموسيقى المقدسة في اقليم الاومبريا» وهو موسم سنوي، تعزف فيه قطع موسيقية دينية النزعة لكبار الموسيقيين، ويدير الأوركسترا بعض كبار قادة الأوركسترا في ايطاليا. ومكان العزف كان في كنيسة القديس بطرس في پيروچا، وفيها أورغن جيد.

وقد سمعت في هذا الموسم المقطوعات الموسيقية التالية:

١ ـ «تقف الأم الحزينة...» Stabat Mater، وفيها وصف لحزن السيدة مريم على ابنها المصلوب يسوع المسيح. وقد تناول هذا الموضوع كثيرون، سمعنا منهم في هذا الموسم قطعة من تأليف Rossini (١٧٩٢ ـ ١٨٦٨)، وقد ألف المقطوعات الست الأول منها في سنة ١٨٣٢، ثم أتمها كلها في سنة ١٨٤١؛ ـ وأخرى من تأليف شوبرت (١٧٩٧ ـ ١٨٢٨) ـ وثالثة من تأليف ليشت Liszt (١٨١١ ـ ١٨٨٦) مأخوذة من الاوراتوريو المعنون بـ «المسيح» Christus.

والقطعة «تقف الأم الحزينة...» مقطوعة شعرية تتناول ما يعرف بآلام العذراء (مريم) السبعة أمام الصليب الذي صُلب عليه ابنها. وتتألف من ١٠ مقاطع، كل واحد منها يتألف من ثلاثة أبيات الاثنان الأولان منها ذوا قافية واحدة، والثالث قافية تتفق مع البيت الثالث في سائر المقاطع ـ هكذا:

Cuius aninam genenterm	Stabat mater dolorosa
Contristatem et debentem	Iukta Crucem lacrimosa
Pertrausivit gladius...	Dum pendabat filims

ولا يعرف على وجه التحقيق مَن مؤلفها: فقد نحلت إلى القديس جريجوريوس الكبير، وإلى القديس بونا ڤنتورا وإلى القديس برنار، وإلى البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦). لكن الرأي الراجح الآن هو انها من نظم چاكو پوني دا تودي Jacopone da Todi (المتوفى سنة ١٣٠٦). وقد ألّف موسيقاها كثيرون نذكر منهم Palestrina و Caldara و Scarletti و Pergolese و Haydn، وشوبرت، وليشت وروسّيني وڤردي Verdi، وأڤورچاك Ovorak وغيرهم.

٢ ـ «آلام المسيح» Passion. وهي قطعة موسيقية طويلة تستمر احياناً أكثر

من ساعة. وتتناول أسبوع آلام المسيح من يوم أحد السعف حتى قيامته يوم الأحد التالي: ويتلى فيها وصف هذا الأسبوع بحسب انجيل متى (في يوم أحد السعف)، وانجيل مرقص (في يوم الثلثاء التالي)، وانجيل لوقا (في يوم الأربعاء)، وانجيل يوحنا (في يوم الجمعة الحزينة)، ولهذا سميت هذه القطعة بحسب هؤلاء الانجيليين الأربعة. وقد سمعنا منها: «الآلام بحسب القديس يوحنا» و«الآلام بحسب القديس متى» وكلتاهما من تأليف يوهان سبستيان باخ (عام ١٧٢٣ وعام ١٧٢٩ على التوالي).

٣ ـ بعض قطع دينية من تأليف هيندل Händel (١٦٨٥ ـ ١٧٥٩) مما يعرف بأوراتوريوات Oratoruis هيندل. ولا أذكر على وجه التحديد أيُّها سمعته. ومن المعروف أنَّ لهيندل الأوراتوريات التالية: «شمشون» (سنة ١٧٤٢)، و«يوراس المكابي» و«يوسف» (سنة ١٧٤٦)، و«يوشع واسكندر بالوس» (سنة ١٧٤٧) و«سوسّنا وسليمان» (سنة ١٧٤٨) وغيرها. ولربما سمعنا أيضاً قطعة من «المسيح» لهيندل.

وعقب سماعي لهذه الموسيقى الدينية كنت أُسائل نفسي: ما أروع هذه الموسيقى! ولماذا لم يكن للإسلام موسيقى من هذا الطراز؟! لماذا اقتصرنا في هذا الباب على تجويد القرآن، وهو يناظر نوعاً من موسيقى الأصوات غير المصحوبة بنغمات الآلات؟ صحيح ان الصوفية المسلمين، وبخاصة الطريقة المولوية، قد عنوا بالموسيقى، وجعلوا منها مصاحباً مهماً في حلقات الذكر؛ لكنهم لم يستخدموا في العزف غير الناي، والصّنج، والطبل ـ وهي آلات أوَّلية لا تكفي لتأليف موسيقي فنّي. وتلك بداية، ولكنها لم تستمر. وهي بداية تشبه بداية موسيقى الكنيسة المسيحية: فقد بدأت بالإنشاد بواسطة الأصوات الانسانية، لكنها أدخلت منذ القرن الثامن الأورغن في أول الأمر كوسيلة لتسهيل تعلُّم الأناشيد في الأديرة، ثم صار يستخدم في طقوس العبادات للتناغم مع الأصوات الانسانية. وابتداء من القرن الرابع عشر صاحبت الموسيقى صلوات القدّاس. واستمر التطور في اتجاه المزيد من الآلات في موسيقى الكنيسة، حتى كثرت الآلات ذوات الأقواس à Archet وآلات النفخ والريح. وبلغ هذا التطور أوجه في القرن الثامن عشر على يد يوهان سبستيان باخ J. S. Bach، وواصله هايدن وليشت وبروكنر Bruckner. ـ لكن السبب في عدم تطور الموسيقى الدينية عند الصوفية المسلمين هو نفس السبب الذي جعل الموسيقى الدنيوية في الدول الاسلامية أولية ـ أعني عدم ظهور عبقريّ في الموسيقى في العالم

الاسلامي. فالحال في الموسيقى كالحال في الفلسفة الاسلامية: نضوب في الإبداع.

الوداع

ثم كانت ليلة الوداع بينها وبيني، إذ عزمت على السفر في يوم ٢٩ سبتمبر، فكانت ليلة حافلة بأحر العواطف، وأعمق التنهدات، فقضيناها حتى مشرق الشمس على الروابي المحيطة ببيروچا، حيناً نمشي، وحيناً آخر نجلس على الرمل او الصخر، متبادلين الأقسام على الوفاء في الحب. وكان القمر في لياليه الأخيرة قد طلع عقب منتصف الليل، فاستحلفناه أن يكون شاهداً على هذه الأيمان. وقد عبّرت عن مشاعري في قصيدة نشرتها في ديواني الأول «مرآة نفسي».

وقضيت بعد ذلك اسبوعاً في پيروچا أتابع حفلات الموسيقى الدينية.

صدى الأحداث السياسية في پيروچا

وهنا لا بدَّ من ذكر أصداء الأحداث السياسية في پيروجا.

لقد كانت پيروچا نقطة انطلاق الزحف إلى روما في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٢، هذا الزحف الذي اشترك فيه ٢٥,٠٠٠ من الفاشست بقيادة أربعة من الزعماء في الحزب وهم: بلبو، ودي بونو، ودي فاشي C. De Vechi، وبياناكي M. Bianachi، بينما كان موسوليني في ميلانو ينتظر ما سيقرره الملك ڤكتور امانويل الثالث الذي اضطر ازاء ذلك إلى تكليف موسوليني برئاسة الوزارة. ومن هنا كانت لپيروچا أهمية في تاريخ الحركة الفاشستية. فكان من الطبيعي أن يكون فيها حزب فاشستي قويّ. ولهذا شاهدت فيها صدى حدثين من الأحداث السياسية:

الأول استيلاء الوطنيين الأسپان على مدينة سانتندر Santander في شمالي اسپانيا بمساعدة الفرقة الايطالية التي أرسلتها ايطاليا لمساعدة الوطنيين ضد الشيوعيين، وكانت هذه الفرقة بقيادة الجنرال جمبارا Gumbara. فاحتفلت ايطاليا بهذا النصر كما لو كانت ايطاليا هي المنتصرة لا اسپانيا الوطنية. وفي پيروچا احتشد جمع هائل في الميدان الواسع الذي تحيط به قاعة المكتبة ويصب فيه شارع ڤنونشي وتتوسطه النافورة التاريخية. وخطب فيه بحماسة شديدة مدرّس يدعى Ginbbini كان يدرس لنا اللغة الايطالية في جامعة

الأجانب. وكنت ترى الميدان يغصّ بعدد كبير من لابسي القمصان السوداء، أي انهم أعضاء في الحزب.

والثاني: هو سفرة موسوليني إلى برلين في ٢٥ ـ ٢٩ سبتمبر. فقد غصَّ الميدان السابق الذكر بالجمهور الغفير لسماع خطبة موسوليني، وكان يتكلم بالألمانية ويصاحبها ترجمة ايطالية ينطق بها المذيع من برلين. ولا أزال أذكر من هذه الخطبة جملة بليغة يقول فيها: «لا يمكن الذهاب إلى روما دون المرور بروما، كما لا يمكن الذهاب إلى روما دون المرور ببرلين». وكانت هذه العبارة توكيداً للتحالف بين المانيا وايطاليا، الذي عرف باسم: محور روما ـ برلين، والذي عقد في برلين في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٣٦، وقّعه هتلر عن المانيا، ووقعه تشيانو، وزير خارجية ايطاليا، نيابة عن موسوليني. وقد وصفه موسوليني في أول نوفمبر سنة ١٩٣٦ بقوله: «إنَّ هذا التحالف. . . هذا الخط العمودي برلين ـ روما ليس حجاباً حاجزاً، بل هو بالأحرى محور يمكن ان تتحد حوله كل الدول الأوروبية التي تسري فيها ارادة التعاون والسلام».

لكن عجبي لا ينقضي من تقلب أهواء الجماهير! فقد عُدْتُ إلى پيروچا في اكتوبر سنة ١٩٤٧ لاستعادة ذكرياتي فيها، لكني وجدتها قد صارت مدينة «حمراء» أعني شيوعية متحمسة للماركسية بنفس القدر من حماستها القديمة للفاشستية! بل سمعت بعض أهل پيروچا يتباهون بدورهم في «المقاومة» مع ان اقليم الاومبريا قد استولى عليه الحلفاء الأمريكيون والانجليز في بداية سنة ١٩٤٤، أي بعد نزول الحلفاء في الفترة من ٣ إلى ٢٠ سبتمبر في جنوبي ايطاليا بوقت قصير لا يسمح بتكوين «مقاومة». وهي نفس الظاهرة التي سأشاهدها في فرنسا غداة انتهاء الحرب: إذ وجدت كل الفرنسيين يتباهون باشتراكهم في «المقاومة»، التي لم يشارك فيها في الواقع إلاَّ القليلون جداً! لكن هذا شأن الناس في كل مكان في مثل هذه الظروف!

وواهم إذن كل زعيم يدَّعي «الشعبية» أو يصدّق ما تتصيح به الجماهير وهو في عنفوان سلطانه! إنَّ هذه الجماهير نفسها هي التي ستصبّ عليه ـ أو على ذكراه ـ أبشع اللعنات حين يزول عنه هذا السلطان.

تأبين ماركوني

ومن الأحداث العلمية البارزة في پيروچا في هذه الفترة حفل تأبين أقيم للفزيائي العظيم جليلمو ماركوني (١٨٧٤ ـ ١٩٣٧)Gu Glielmo Marconi، مخترع

جهاز التخاطب اللاسلكي وجهاز الراديو. فقد توفي في ٢٠ يوليو سنة ١٩٣٧، وأقيمت له جنازة رسمية فخمة، ودُفن في مسقط رأسه: بولونيا Bologna بناء على وصيته. وكان ذا حظوة عظيمة عند الحكومة الإيطالية، فعيّنته عضواً في مجلس الشيوخ في سنة ١٩٢٩، ورئيساً للأكاديمية الكلية الايطالية في سنة ١٩٣٠، ومُنح لقب «ماركيز».

وقد أُقيم حفل التأبين في جامعتنا ـ «جامعة الأجانب» ـ ورَأسه وزير الثقافة والدعاوة دينو ألفييري Dino Alfieri وحضره عدد كبير من العلماء والأساتذة والسياسيين الايطاليين. ولا أعلم السبب في اختيار پيروچا مقراً لهذا التأبين، لأنَّه لم يكن لماركوني أية صلة بالبلدة ـ إذ وُلِدَ في بولونيا (في ٢٥ ابريل سنة ١٨٧٤).

العودة إلى روما

وانتهت اقامتي في پيروچا في صباح يوم ٤ أكتوبر، حيث سافرت إلى روما، مليئاً بأعمق الأحاسيس، مزوّداً بقدر وافر من العلم باللغة والثقافة والفن الايطالي، وبنظرة جديدة إلى الحياة والعالم، ونزعة إلى التسامي في ميدان الفكر.

وأقمت في روما أسبوعاً حرصت فيه على اللقاء مع مَن أستطيع لقاءه من المستشرقين الايطاليين. فبدأت بكرلو الفونسو نلينو، وكنت قد تعرّفت إليه في مصر إبّان حضوره في يناير من كل عام إلى القاهرة لحضور مؤتمر المجمع اللغوي الذي كان عضواً فيه، وكان تعرُّفي اليه في يناير سنة ١٩٣٧. فخاطبته تلفونياً وحدَّد لي موعداً للقائه في منزله، ٢ شارع رفِّيني Ruffini في الجانب الأيسر (حيث الڤاتيكان) من روما.

وكنت، وأنا في مكتبة الجامعة في پيروچا قد قرأت المواد التي كتبها عن الإسلام في «دائرة المعارف الإيطالية»، وأثار انتباهي خصوصاً المادة التي كتبها عن النبي محمد (ﷺ) (مادة Maomette). إذ لاحظت فيها غلوًّا في النقد السلبي لرسالة النبي (ﷺ) وسيرته. فدار بيننا نقاش في هذا الموضوع امتد إلى أكثر من ساعة. ورغم سعة ذهني للنقد التاريخي فقد أنكرت مغالاته في دعوى التأثر بالمذاهب والآراء المسيحية الشائعة في القرن السادس الهجري. وفي ختام اللقاء أهداني مجموعة فِصَل من مقالاته، ومنها اخترت المقالات التي ترجمتها له في كتابي «التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية» (مارس سنة

١٩٤٠)، والتي قمت بترجمتها بعد عودتي من القاهرة، وصارت نواة لهذا الكتاب.

ولما توفي نلينو بعد ذلك بعام، في يوليو سنة ١٩٣٨، كتبت في ذكرى وفاته السنوية الأولى في يوليو سنة ١٩٣٩ مقالاً طويلاً عنه في مجلة «الثقافة» (هو الذي نشرته ـ مع زيادات ـ في ملحق تراجم في ذيل كتابي «التراث اليوناني. . .»).

وهو الذي عرَّفني آنذاك بابنته ماريا نلينو، وإن كنت قد شاهدتها مراراً في محاضرات الدكتور طه حسين لما كانت تأتي إلى مصر برفقة أبيها. وقد توثّقت علاقتي بها ابتداء من سنة ١٩٤٧ حتى وفاتها في سنة ١٩٨١. إذ كنت أزورها في كل عام من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٥٤ ثم من سنة ١٩٦٧ حتى سنة ١٩٨٠ حيث كانت تعمل في «معهد الشرق».

ثم زرت ثانياً الأستاذ جوزي جبريلي، ناشر ديوان الخنساء وصاحب الأبحاث العديدة، وخصوصاً الببليوجرافية في الدراسات العربية. وكان مديراً لمؤسسة كايتاني Fondazione Caetani التي تحتوي على مكتبة من أغنى المكتبات في الدراسات العربية في أوروبا، وكان قد أهداها الأمير ليوني كايتاني إل أكاديمية لنشاي Accademia dei Lincei (رقم ١٠ في شارع لونجار Langara) في الجانب الأيسر من روما والمقيمة في قصر آل اورسيني Orsini. وكان يتولى أيضاً تدريس اللغة الايطالية للمبعوثين المصريين. وكان عالماً واسع الاطلاع على الدقيق من المعلومات، محباً للإفادة، غاية في دماثة الخلق.

وقد عرَّفني بابنه فرنشيسكو (وُلِدَ سنة ١٩٠٤) الذي كان آنذاك يعمل مدرّساً في معهد نابلي للدراسات الشرقية. ومن ثم انعقدت بينه وبيني أواصر صداقة متينة وجرت بيننا مراسلات عديدة. وتعمقت هذه الصداقة وتواصل تبادل الكتب والأبحاث بيننا بعد استئناف سفري إلى روما في سبتمبر.

العودة إلى مصر

وحان موعد عودتي إلى مصر لاستئناف الدراسة. فغادرت روما في العاشر من أكتوبر سنة ١٩٣٧ متوجهاً إلى برندزي، حيث استقللت نفس الباخرة من برندزي إلى ميناء بيريه، حيث رست السفينة يوماً، فسافرت إلى أثينا كما فعلت في المرة الأولى، وشاهدت بعض المعالم الأثرية في أنحاء متفرقة من المدينة، ثم عدت إلى بيريه لأبيت في السفينة التي أقلعت في الصباح الباكر متجهة إلى

الاسكندرية. فبلغنا الاسكندرية في يوم ١٧ اكتوبر ووجدت والديّ في انتظاري، واستقللت معهما القطار الى طنطا، فالمنصورة؛ ومن المنصورة سافرنا بالسيارة الى شرباص.

وهكذا انتهت سفرتي الأولى الى أوروبا، تلك السفرة التي أعدّها منعطفاً محورياً في حياتي. لقد آليت على نفسي من ذلك الحين ان أعود إلى أوروبا كلما استطعت الى ذلك سبيلاً، ـ رغم كل المصاعب التي ستقف ـ ظلماً ـ في طريقي، على النحو الذي سأصفه فيما بعد.

الكتاب الثالث

ـ ١ ـ
الحصول على الليسانس

واستأنفت الدراسة في كلية الآداب في السنة الرابعة من قسم الفلسفة، وكانت الدراسة قد بدأت قبل ذلك بأسبوعين.

وفي أوائل شهر نوفمبر وصل إلينا الأستاذ أندريه لالاند Lalande، وتولّى رئاسة القسم بدلاً من الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي تنازل له فوراً عن رئاسة القسم. وكان لالاند قد أُحيل إلى التقاعد من منصبه استاذاً في كلية الآداب (السوربون) بجامعة باريس لبلوغه سنّ السبعين. وكانت هذه هي المرة الثالثة لعمله في كلية الآداب بالجامعة المصرية ـ كما ذكرنا من قبل. وقد درّس لنا مناهج البحث العلمي بمعدّل ثلاث ساعات في الأسبوع، وكانت هذه هي كل دروسه. وقبيل بدء التدريس قدَّمني الشيخ مصطفى إليه، ومنذ هذه اللحظة شملني باهتمامه ورعايته، خصوصاً لأنَّني كنت الوحيد بين طلاب الفرقة ـ وعددهم اثنا عشر طالباً، الذي أفقه الفرنسية. فكنت حلقة الوصل بينه وبين سائر طلاب الفرقة. إذ كنت ألخص ما يقوله في الدرس، او أكتبه بحروفه كلما استطعت؛ ثم أعطي كرّاستي التي لخصت فيها الدرس إلى ثلاثة من الطلاب ينسخونها، وهم بدورهم يزوّدون سائر الطلاب بما نسخوا. وبهذه الطريقة لم يشعر الطلاب بصعوبة تذكر، وكانوا يكتفون بالحضور دون التقاط شيء مما يسمعون. وكان الطلاب الاثنا عشر في هذه الفرقة من جنسيات مختلفة: واحد أندونيسي صار فيما بعد سفيراً لأندونيسيا في القاهرة سنة ١٩٤٧؛ واثنان البانيان؛ وواحد سوداني، والثمانية الباقون مصريون. ومن هؤلاء الثمانية المصريين اثنان صارا سفيرين (عثمان عسل وأخوه فريد)،

وواحد صار مديراً عاماً لمكتبات جامعة القاهرة (عبد المجيد أبو النجا) وواحد عمل أميناً أول في مكتبة جامعة القاهرة (عمر عزمي)، وواحد صار أستاذاً لعلم النفس في كلية الآداب (عثمان نجاتي) أمّا الثلاثة الباقون فلم يحصلوا على الليسانس في ذلك العام، بل في العام التالي.

كذلك قام بتدريس علم الاجتماع لنا في النصف الثاني من العام الدراسي ايڤانز برتشرد Evans Prichard، وكان قادماً من السودان حيث أقام طويلاً لدراسة قبيلة النوير وبعض القبائل السودانية الوثنية في جنوب السودان. وكان ذا نزعة استعمارية بريطانية عدوانية، ولهذا كان يثور بينه وبيني جدال شديد حاد في أثناء الدرس. وكان هو يرحب بهذا الجدل، لأنَّه لم يكن يحضّر محاضراته، ولا يلقي دروساً متصلة أكاديمية، بل كان يتناول نتفاً من هنا وهناك، فكان هذا النقاش فرصة له لتضييع الوقت وعدم القاء الدرس بصفة منتظمة. والواقع انه لم يكن لدروسه فائدة تذكر. وعلى العكس منه كان الأستاذ الانجليزي الآخر Hocheart، مؤلف كتاب: «تقدم الانسان» The progress of man فإنّه كان جاداً، يعنى بتحضير دروسه؛ بيد ان هذه الدروس كانت سطحية إلى حد كبير، وكان يعتمد فيها على كتاب جنزبرج، وهو كتاب في مجموعة Home University Library وهي مجموعة قصد بها القارىء العادي غير المتخصص.

أمّا علم النفس فقد قام بتدريسه لنا في الثلاث سنوات (الثانية والثالثة والرابعة) أستاذ روسي الأصل هو Walter. ولكنه كان يعمل في «معهد جان جاك روسو للتربية» في جنيف. وكان قليل البضاعة في علم النفس، يقتصر على قراءة متن علم النفس Manuel de Psychologie تأليف ارمان كوفييه A. Cuviller وقد التقيت به بعد ذلك بعشرين عاماً في محطة برن Bern بسويسرة سنة ١٩٥٧.

ولم يكد يدرس لنا من المصريين غير اثنين هما الشيخ مصطفى عبد الرازق، على النحو الذي فصّلناه من قبل؛ ود. ابراهيم مدكور الذي أصبح عضواً في مجلس الشيوخ في صيف سنة ١٩٣٧ خلفاً لأبيه، وكان يلقي علينا درساً واحداً في الأسبوع في مادة الأخلاق؛ وكان قد درَّس لنا في العام السابق مادة: فلاسفة الاسلام. وكان في دروسه ـ كما هو الشأن في محاضراته العامة وأبحاثه في المؤتمرات ـ يميل إلى اللهجة الخطابية، ويتناول العموميات دون التفاصيل الدقيقة.

أمّا اللغات القديمة فقد درّس لنا اللاتينية أستاذ سويسري هو Patry، وكان في الوقت نفسه مولعاً بالموسيقى وتاريخها، ويعزف عزفاً جيداً على البيانو. وقد درّس لي اللاتينية في السنتين الثالثة والرابعة. ولما رأى تفوّقي البارز في اللاتينية، فقد تطوع لكي يقرأ معي من الثامنة إلى التاسعة في يومي الثلاثاء والخميس «انيادة» ڤرجيل، فأتممناها في عامين، وجعلني أحفظ عن ظهر قلب النشيد الأول منها. وكان هذا منه فضلاً عظيماً يستحق عرفان الجميل. وقد التقيت به في سويسرة في سنة ١٩٥٧ إبّان ان كنت مستشاراً ثقافياً في السفارة المصرية، وتذاكرنا معاً عهد إقامته بمصر. وكان اللقاء في جنيف حيث يقيم.

ودرّس لي ولزميل آخر كان قد حصل في امتحان السنتين الثانية والثالثة على التقدير الذي يمكن من الحصول على الليسانس الممتازة ـ وهو عثمان عسل، لكنه فقد امتيازه في الليسانس ـ أقول درّس لكلينا اللغة اليونانية أستاذ انجليزي يدعى Crowford طوال عامين، وكان كروفورد من المشتغلين في أوراق البردي المكتوبة باليونانية، وكان منها قدر غير قليل في مكتبة الجامعة.

لكن الفضل الأول في اتقاني اللغة اللاتينية إنّما يرجع إلى أستاذ فرنسي درّس لنا اللاتينية في السنة الثانية، وهو موريك بران Moric Brin، إذ درّس لنا في كتاب Grammaire latine simple et complète تأليف Crouzet وآخرين، وهو في نظري حتى الآن خير متن في تعليم اللغة اللاتينية لوضوحه وحسن تقسيمه واعتماده في حفظ القواعد النحوية، على الأمثلة التي ينبغي ان تستظهر فتصبح القاعدة محفوظة وقتاً طويلاً أو أبداً ـ مثل:

Castigat ridendo niores

Ambulat in horto

Credodeum esse sanctum

Apud Cannas

وهذه في نظري أحسن طريقة لتعليم اللاتينية ـ وغيرها من اللغات. أمّا ما يسمى بالطرق «الحديثة» فهي مضيعة للوقت والجهد، وعبث لا طائل تحته، ولا تؤدّي أبداً إلى اتقان اية لغة. وكان النص الذي يقرأه معنا هو النص التقليدي القديم Deviris Illustribus تأليف Lhennerid، وقد كان النص الأساسي لكل الطلاب منذ أواخر القرن الثامن عشر في المدارس الفرنسية.

أمّا في السنة الثالثة فكان النص اللاتيني الذي اختاره Patry هو رسالة: «في الشيخوخة» De senectute لشيشرون، وفي السنة الرابعة كان رسالة «في الصداقة» De Amicitia لشيشرون ايضاً. ولصغر حجمهما فقد استظهرتهما عن ظهر قلب هما وترجمتاهما الفرنسية. ولهذا حصلت على الدرجة النهائية في اللغة اللاتينية في هذه الأعوام الثلاثة.

وكنت قد أحضرت معي من ايطاليا عدة نصوص لشيشرون وتاسيت وهوراس وفرجيل مطبوعة في سلسلة مدروسة مملوءة بالشروح والتعليقات. فرحت أقرأها، وأحفظ منها ما يتيسر لي حفظه. وأصبحت مولعاً باللغة اللاتينية ولعاً شديداً قراءة وكتابة. ولإبراز علمي بها كنت أكتب على «التختة» خطباً باللاتينية من تأليفي وتتناول حادثاً يومياً سياسياً آنذاك، وذلك قبل دخول الأستاذ كواريه الدرس، حتى إذا ما حضر قرأها وأبدى ملاحظاته عليها، وكان ذلك منّي تباهياً باتقاني اللاتينية. وأذكر انه جاء إلى الجامعة وفد من الطلبة البولنديين، وكانوا لا يعرفون الانجليزية ولا الفرنسية ولا الألمانية، فتولّيت انا الترحيب بهم باللغة اللاتينية لأنّني كنت أعلم ـ كما أخبرني بذلك الأستاذ كواريه ـ ان الطلاب في بولندة يتقنون ـ آنذاك طبعاً، وليس الآن! ـ اللغة اللاتينية، حتى ان المندوبين البولنديين في المؤتمرات العلمية الدولية كانوا غالباً ما يتكلمون باللاتينية.

ألا رَحِم الله ذلك العهد الذي كانت فيه اللاتينية لغة العلم، وكان يتقنها الطلاب في المدارس الثانوية في فرنسا، أمّا اليوم فما أبأس حالها، حتى عند رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية نفسها! لقد صار القدّاس نفسه باللغات المحلّية! وتلك بليّة أخرى من بلايا المجمع الفاتيكاني الثاني ـ وما أكثر بلاياه!

❀ ❀ ❀

وحصلت في مايو سنة ١٩٣٨ على الليسانس الممتازة في الآداب من قسم الفلسفة بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن)، وكان ترتيبي الأول ليس فقط على قسم الفلسفة، بل على كل أوائل الأقسام الأخرى في الكلية. وكذلك كنت في جميع سنوات الدراسة الأربع في كلية الآداب. ولما كنت في السنة الأولى المشتركة بين جميع الطلاب (إذ يبدأ التخصص من السنة الثانية) كان الفارق في الدرجات بيني وبين الثاني كالفارق بين هذا الثاني وبين الثاني عشر.

- ٢ -
تعييني معيداً

لهذا كان من الواجب إيفادي في بعثة إلى فرنسا أو ألمانيا، فأنا الأحق بذلك من السّبعة المتخرجين في قسم الفلسفة في أعوام ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٤ وقد أُرسلوا إلى فرنسا، لأن درجاتي في الليسانس تفوق درجاتهم جميعاً.

وكان العميد - د. طه حسين قد سافر الى فرنسا غداة ظهور النتيجة فلم أستطع لقاءه. فذهبت إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق - وكان وزيراً للأوقاف آنذاك - فحادثته في الأمر، فطلب منّي أن أكتب طلباً بذلك، وسيرفق؛ تزكية منه، إلى د. طه حسين في باريس. وبقيت أنتظر الرد شهرين. وإذا به يبلغ الكلية ان تخبرني بأنّه صار من المقرر ألا يوفد في بعثة بالخارج إلاّ مَن حصلوا على الماجستير أولاً من مصر!

«صار من المقرر»؟ ومن ذا الذي قرّر ذلك وليس في قرارات مجلس الكلية شيء من ذلك؟ ومتى صدر هذا القرار إن كان ثمّ قرار؟ ولِمَ لا يصدر إلاّ الآن وأكون أنا أول مَن يُطبق عليه؟!

هذه وبقية من الأسئلة بقيت أردّدها مع نفسي، وأعجب لهذا التصرّف الغريب.

لكني كظمت غضبي وقلت: فلأنتظر حتى يعود العميد - د. طه حسين - من سفره. فلما عاد في أواخر سبتمبر رأيت أن الأفضل ان ألتمس من الشيخ مصطفى أن يتولّى هو الكلام مع د. طه حسين. وكلّمه الشيخ مصطفى وتم الاتفاق بينهما على تعييني معيداً في قسم الفلسفة، وان يكون البتّ النهائي في الأمر لدى عودة رئيس القسم، أندريه لالاند. وعاد الأستاذ لالاند في أول اكتوبر، فبادر في الحال باقتراح تعييني معيداً، ووقع الدكتور طه بالموافقة فوراً. وتمّ تعييني معيداً لقسم الفلسفة في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٨.

وتحدياً لحرماني من البعثة في أوروبا، قرّرت أن أمضي كل اجازتي في أوروبا وهو ما قمت به فعلاً ابتداء من صيف سنة ١٩٤٦ غداة انتهاء الحرب وفتح الطريق؛ وان انجز في أوروبا من الأبحاث العلمية ما عجز عنه كل من أوفدوا من قبل من قسم الفلسفة. وكذا كان. ولهذا تفصيل سيأتي في أوانه.

وفي السنة الجامعية الأولى لتعييني معيداً قمت بعملين: أُعيد على طلاب الليسانس ما كان يلقيه عليهم الأستاذ لالاند من محاضرات ثلاث في مناهج البحث العلمي مشروحاً بالعربية والفرنسية: بالعربية حتى يفهموا ما قال، وبالفرنسية

حتى يستطيعوا أداء الامتحان عند لالاند. والعمل الثاني: تدريس «مقال في المنهج» لديكارت لطلاب الليسانس، مع شرح مفصّل، استندت فيه الى الشرح المسهب الذي وضعه آتيين جيلسون Gilsen لهذا الكتاب؛ كان هذا الدرس مكملاً للدرس الذي يلقيه لالاند في تاريخ الفلسفة الحديثة بدلاً من الأستاذ كواريه الذي عاد إلى فرنسا. وكان طلبة الليسانس في ذلك العام سنة ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ ضعافاً للغاية.

وفي الوقت نفسه كنت أحضر دروس الماجستير، وكانت أربعة دروس: درسان يلقيهما لالاند، يشرح فيهما «مقال في الميتافزيقا» تأليف ليبنتس Lebntz. ودرسان يلقيهما أ. برلو A. Burloud الذي كان استاذاً بعلم النفس في جامعة رن Rennes، وقد تناول فيهما موضوعات عامة في علم النفس، وخصص قسماً كبيراً منها لفرويد استناداً الى كتاب عن فرويد من تأليف Dalbiez.

ـ ٣ ـ
نشاطي السياسي

وهنا لا بد ان ألمّ بنشاطي السياسي.

كان اهتمامي بالسياسة نظرياً عند دخولي الجامعة في أول الأمر. ثم أخذ يتحول إلى نشاط عملي ابتداء من السنة الثانية (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦): والنشاط السياسي في الجامعة يبدأ في كل عام في ١٣ نوفمبر بمناسبة ذكرى ذهاب ثلاثة من الزعماء المصريين هم: عبد العزيز فهمي، وسعد زغلول، وعلي شعراوي ـ إلى دار الحماية البريطانية للمطالبة برفع الحماية البريطانية عن مصر ومنحها الاستقلال التام.

وقد انضاف الى هذا السبب التقليدي المتكرر كل عام سبب آخر اشعل الموقف تماماً. وهو ان صموئيل هور Samues Hoarc (١٨٨٠ ـ ١٩٥٩) وزير الخارجية البريطانية (عُيِّن في هذا المنصب في ٧ يونيو سنة ١٩٣٥) قد أصدر تصريحاً ينفي فيه حق مصر في الاستقلال والمطالبة بجلاء الانجليز عنها. فألهب هذا التصريح خواطر الطلبة، وصار سبباً كافياً لاستمرار المظاهرات ضد انجلترة.

وكانت الوزارة المصرية آنذاك برئاسة محمد توفيق نسيم، وكان من المتعاونين مع الاحتلال البريطاني، لكنه في هذه المرة جاء مرضياً عنه من الوفد

ظناً من هذا الأخير ان وزارة نسيم ما هي إلاّ تمهيد لإجراء انتخابات عامة يفوز فيها الوفد فيعود إلى الحكم. لكن نسيم ماطل في اجراء هذه الانتخابات واستمر في الحكم منذ نوفمبر سنة ١٩٣٤ حتى ذلك التاريخ، أي نوفمبر سنة ١٩٣٥، ولم يفعل شيئاً في تلك الأثناء يرضي به الوفد غير اعادة دستور سنة ١٩٢٣ في ابريل سنة ١٩٣٥، وهو الدستور الذي كان اسماعيل صدقي قد ألغاه في سنة ١٩٣١ وأحلّ محله دستوراً آخر. لكن نسيم لم يجرِ انتخابات على إثر إعادة دستور سنة ١٩٢٣.

وكانت نقطة انطلاق هذه الانتفاضة الطلابية في يوم ١٣ نوفمبر. إذ خرجنا في عدد ضخم من الطلاب الذين تجمعوا في الصباح الباكر في حرم الجامعة، ثم من هناك سرنا في مظاهرة ضخمة تبلغ عدة آلاف متجهين إلى كوبري عباس الموصل بين الجيزة والقاهرة (إذ لم يكن كوبري الجامعة قد أنشىء بعد) ابتغاء الوصول بالمظاهرة الى مجلس الوزراء في شارع قصر العيني. وكانت قوات البوليس ترابط بقيادة حكمدار - اللواء رسل Russell باشا عند الطرف الآخر من كوبري عباس، ولديها الأوامر بالتصدي لنا ومنعنا من متابعة السير. وأوعزت السلطات الى المشرفين على فتح كوبري عباس بفتحه في اللحظة التي ملأت فيها المظاهرة طول الكوبري (ويبلغ طوله حوالى ١٢٥٠ متراً). فانحصرت مقدمة المظاهرة في النصف الثاني من الكوبري المتاخم للروضة. ولما لم تفلح معنا المواجهة بعصي رجال البوليس (بلوك النظام)، أصدر رسل - أو مَن يتلوه من الضباط الانجليز في البوليس - امراً بإطلاق النار في المتظاهرين أنفسهم، لا فوق رؤوسهم - فقتل اثنان من الطلاب كانا في الصف الأول وهما: عبد الكريم الجراحي (كلية الآداب)، وعبد المجيد مرسي (كلية الزراعة) وجرح عشرات حولهما.

وكنت أنا لا أبعد عنهما غير ثلاثة أمتار. ونجاتي إذن كانت مجرد صدفة.

هنالك انطلقنا هاربين متفرقين في شوارع حي الروضة، نبحث عن منزل نأوي إليه. وكانت امدادات البوليس تتوالى، وحضر الحكمدار رسل نفسه للقبض على مَن يستطيع البوليس القبض عليه من المتظاهرين. وتفرّقت فصائل البوليس في شوارع الروضة بحثاً عنّا. لكن شهامة كثير من الأُسر في حي الروضة قد حالت بين البوليس وبيننا. وأذكر ان عددنا في البيت الذي أويت إليه كان لا يقل عن ثلاثين شخصاً. ورحّب بنا أهل البيت بكل حماسة، ولولا أنّنا كنا في شهر رمضان لكانوا

قدّموا لنا الشراب والطعام. وحدث الأمر لعشرات من جماعات مثل الجماعة التي كنت فيها.

ولم نترك مأوانا هذا إلاَّ قبيل الغروب، وكان البوليس قد عاد إلى ثكناته، وخلا حي الروضة من وجود جنود.

❁ ❁ ❁

وكان لاستشهاد هذين الطالبين واصابة العشرات بجراح متفاوتة الشدة ـ أثر هائل في نفوس الطلاب فقرَّروا إقامة جنازة ضخمة للشهيدين، وكانت جثتاهما في مشرحة مستشفى قصر العيني. وخافوا ان يسرق البوليس الجثتين فلا تتم الجنازة. لهذا قام بعض طلبة الطب بسرقة الجثتين من المشرحة وإيداعهما في مكان سرِّي أمين إلى حين قيام الجنازة في اليوم التالي. وأُقيمت في اليوم التالي جنازة ضخمة اشترك فيها عشرات الآلاف من الطلاب وسائر المصريين. وإزاء هذا الحشد الهائل آثر البوليس عدم التدخل، واستمرت الجنازة في سيرها إلى المسجد الذي سيصلى فيه على الشهدين. ثم تسلَّم أهالي كل واحد من الشهيدين جثة شهيدهم لدفنها في مقابر الأُسرة.

❁ ❁ ❁

ومنذ هذا الحادث قرَّر الطلاب أن يتولوا أمر تحرير مصر بأنفسهم، فكوّنوا ما عُرِف باسم «الجبهة القومية» وعزموا على ألا تستغل هذه الجبهة لصالح أي حزب من الأحزاب، بل عليها ان تعمل في استقلال تام عنها جميعاً. وكان هدفها التكتيكي الأول جمع كل الزعماء ـ على اختلاف احزابهم ومشاربهم ـ في جبهة واحدة للتفاوض مع الانجليز لاستقلال مصر التام، والغاء جميع التحفظات الأربعة الواردة في تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، ووحدة السودان مع مصر.

واستطاعت «الجبهة القومية» للطلاب ارغام أولئك الحزبيين على التجمع في جبهة واحدة للتفاوض مع الانجليز على تلك المطالب، وإن كان كل واحد من هؤلاء السياسيين يضمر في نفسه غير ما يظهر، ويتربص بخصمه.

وإزاء ذلك اضطر الملك فؤاد إلى إقالة وزارة توفيق نسيم في يناير سنة ١٩٣٦ وتكليف علي ماهر تشكيل وزارة محايدة تجري انتخابات عامة. وكان الملك فؤاد معتل الصحة جداً وما لبث ان توفي في ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦. ثم أُجريت الانتخابات في مايو، وفاز الوفد بالأغلبية. فشكل مصطفى النحاس وزارة وفدية.

ولما كان فاروق لم يبلغ سن الرشد بعد، وهو الذي نودي به ملكاً في يوم وفاة أبيه، أنشىء مجلس وصاية استمر حتى بلغ فاروق سن الرشد في ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧.

وسافر النحاس إلى لندن على رأس وفد من الوفديين والأحرار الدستوريين لعقد معاهدة مع الانجليز. وانتهت المفاوضات بين الطرفين الى توقيع معاهدة في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ تنص على «التعاون» الوثيق بين انجلترة ومصر في زمن الحرب، وعلى تقليص الاحتلال البريطاني شيئاً فشيئاً مع تزايد قوة الدفاع المصرية، أي الجيش، بحيث يتأدى ذلك إلى تقليل عدد القوات البريطانية في مصر وقصر مكان وجودها على منطقة قناة السويس. وكانت مدة المعاهدة عشرين عاماً. ولم تتناول مسألة السودان.

ولقصور هذه المعاهدة عن تحقيق المطالب التي من أجلها قام الطلاب في نوفمبر سنة ١٩٣٥ والشهور الأربع التالية بانتفاضتهم تلك، فقد عقد الغيّورون من طلبة الجبهة القومية العزم على معارضة هذه المعاهدة. وكانت اول فرصة لذلك، لما ان جاء مكرم عبيد في شهر اكتوبر، إلى الجامعة، ليلقي محاضرة في قاعة الاحتفالات الكبرى للدفاع عن هذه المعاهدة. وصعدنا إلى المقاعد العليا، ورحنا نستخدم الصفير في كل موضع يحاول فيه مكرم ان يتباهى بما في المعاهدة من مزايا.

واقترب يوم ١٣ نوفمبر، وهو اليوم التقليدي لتظاهر الطلاب. فأعدَّ هؤلاء «القوميون» العدة لكي يكون يوماً أسود على الوفد. لكن لم يفلح تدبيرهم هذه المرة، وكان عليهم ان ينتظروا العام التالي، اي ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٧ ليكون يوم الحسم مع الوفد. فأجمعوا أمرهم عشاءً، وكانوا يعلمون ان الكاتب الوفدي حسن نسيب سيحضر. وقرّروا ان يقابلوه بالضرب المبرح. وقد كان.

لقد استدرجوه وحملوه على الأعناق من لدن دخوله من الباب الكبير للجامعة، حتى إذا اقترب ـ محمولاً على الأعناق ـ من النصب التذكاري للشهداء في قلب حرم الجامعة، حتى طرحوه أرضاً من فوق أكتافهم، وانهالوا عليه ضرباً بالعصي وقطع الخشب والركل بالأقدام، ولم يخرج من الجامعة إلاّ محمولاً على نقالة إسعاف والدم يتساقط على وجهه وهو يصيح: حرام عليكم! لقد كنت زعيماً للطلبة على عهد سعد باشا. فما زادهم هذا الاسترحام إلاّ تهكماً عليه وسخرية؛ هو وزعيمه السابق وزعيمه الحالي.

نعم، كان يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٧ يوماً مشهوداً على الوفد حقاً. عرف فيه

الوفد أنَّه لم يعد له رصيد عند الطلاب، والشباب بعامة. وصار الطلاب الوفديون في الكليات الجامعية يلقون أشد التنكيل من الطلاب القوميين، حتى قبع الطلاب الوفديون القلائل في جحورهم.

وكان أشدّ هؤلاء الطلاب القوميين ضراوة وعنفاً على الوفديين اثنان، وهما: عبد العزيز الشوربجي (نقيب المحامين فيما بعد)، وعبد الوهاب حسني (المحامي).

وفي نفس الوقت كانت الأحوال قد ساءت في داخل حزب الوفد نفسه. فقد فصل محمود فهمي النقراشي ـ وزير المواصلات ـ من الوزارة في أغسطس ـ آب فاتخذ النقراشي له مكتباً في شارع المناخ في مواجهة جريدة الأهرام، ومنه راح يدبّر ضد الوفد. ومن ناحية أخرى ساءت العلاقات بين الملك فاروق وبين النحاس. وظهر ذلك جلياً في اصدار الملك مرسوماً ملكياً بتعيين علي ماهر باشا رئيساً للديوان الملكي. فاعترض النحاس على هذا التعيين بشدة ولكن دون جدوى، لأنَّ من حق الملك دستورياً ان يعين رئيس الديوان الملكي دون استشارة رئيس الوزراء. وكان فاروق قد بدأ يحظى برضا الشعب، بينما كانت فضائح الوفد في ازدياد: من محسوبيات، وترقيات استثنائية للأصهار، ومظالم عديدة يرتكبها رجال الوفد في البلاد التي يستشعرون بالنفوذ فيها ـ ثم المغانم التي اغتنمها بعض كبار رجال الوفد من تعيينهم في عضوية مجالس إدارة الشركات ـ ومعظمها شركات أجنبية تنعم بالأرباح الطائلة، ولا تكاد تؤدي عنها أية ضرائب. يضاف إلى ذلك تكوين الوفد لمليشيات مسّلحة للدفاع عنه، كانت تلبس الأقمصة الزرقاء، لهذا سميت بـ «القمصان الزرقاء». وهم طغمة من المرتزقة والرعاع والعيّارين والمتطفلين، الذين صاروا يفرضون الإتاوات، ويؤذون الجماعات السياسية الأخرى، مثل مصر الفتاة، وهم في حماية البوليس. وكم وقعت بينهم وبين «القمصان الخضراء» (= مصر الفتاة)، من معارك شرسة استعملت فيها المِدى والعصي في دمنهور، والاسكندرية، والقاهرة وغيرها من البلاد.

فتدافعت كل هذه العوامل: مظاهرات الطلاب القوميين، والسخط العام في الشعب المصري على تصرفات النحاس ووزرائه في الحكم مما لطّخ سمعة نزاهة الحكم وجعل من مصر ضيعة يستغلها الوفد لصالح أنصاره، والاحتكاك الشديد بين الملك فاروق وبين الوفد خصوصاً منذ تعيينه علي ماهر رئيساً للديوان الملكي، والشقاق في داخل صفوف الوفد نفسه بإخراج النقراشي وخروج أحمد ماهر وآخرين من كبار الوفديين، وشعبية الملك فاروق المتزايدة ـ نقول تدافعت كل هذه

العوامل فجعلت سقوط وزارة الوفد برئاسة النحاس امراً وشيكاً لا مناص منه ـ وهو ما حدث فعلاً. فقد أصدر الملك فاروق، في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٧، قراراً بإقالة وزارة النحاس، وصيغ كتاب الإقالة بعبارات مهينة دامغة لسلوك الوزارة. كما أصدر في الوقت نفسه قراراً بتكليف محمد محمود باشا تشكيل وزارة جديدة، ضمت أقطاب المعارضة.

وبفضل عبد العزيز الشوربجي وعبد الوهاب حسني كانت لكلية الحقوق اليد الطولى في قيام المظاهرات ضد الوفد في شهري نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٣٧. ولما كان طلاب الآداب أقل حماسة وأضعف شكيمة من طلاب الحقوق، فقد كنا نحن المتزعمين للحركة المضادة للوفد في كلية الآداب نلجأ إلى كلية الحقوق لتقوم بحملة تأديبية ضد كليتنا نحن، كلية الآداب، لتأديب الذين تسوّل لهم نفوسهم المريضة ان يرفعوا عقيرتهم بالهتاف للوفد. وكان هؤلاء يلجأون إلى عميد الكلية، د. طه حسين، لحمايتهم. لكن، عبثاً! فلم يكن من حق البوليس دخول الحرم الجامعي. وكان لطفي السيد هو مدير الجامعة، وناهيك بلطفي السيد حامياً قوياً حريصاً على استقلالية الجامعة. فلم يجد د. طه حسين حيلة غير ان يحث هؤلاء الطلاب المناصرين للوفد على غزو كلية الحقوق. وأذكر كلمته التي قالها لهم في ذلك اليوم: «اغزوهم، قبل ان يغزوكم، فما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا» وهي جملة مقتبسة من خطبة للإمام علي بن أبي طالب.

ولم يكد يسمع زعماء كلية الحقوق بهذه الخطبة حتى غزوا العميد نفسه في مكتبه بكلية الآداب، وكسّروا ما في المكتب من أثاث، ولولا ان د. طه قد هرب إلى الشرفة وأغلق الشباك دونها، لكان قد أصابه أذى أكيد.

وقد وقع هذا الحادث بعيد الساعة الواحدة. وكنت قد غادرتُ الكلية في الواحدة إلاً عشر دقائق عقب انتهاء المحاضرة الأخيرة، وإلاّ لو كنت موجوداً لحاولت اقناع زملائي المهاجمين ـ ونحن من فريق واحد ـ بالعدول عن هذا الاعتداء على الدكتور طه حسين، مهما كانت وجاهة الأسباب التي تحملهم على ان يفعلوا ما فعلوا.

وأقول «وجاهة الأسباب» لأنّه لم يكن يحق للدكتور طه أن يحرّض طلاب الآداب على الذهاب إلى كلية الحقوق والاعتداء على طلبتها. إنّه عميد، والعميد يجب أن يكون محايداً تماماً في هذه الأمور التي كانت تقع بين الطلاب. وإن كان طلاب الآداب قد استغاثوا به لحمايتهم، فلا يحق له أكثر من ان يلجأ إلى إدارة الجامعة. فإن لم تستطع إدارة الجامعة فعل شيء، فحسبه أنّه أدّى واجبه. لكن

المؤسف حقاً هو ان الدكتور طه حسين كان آنذاك غارقاً في الحزبية السياسية الوفدية، ومن هذا المنطلق وحده كان يتصرف آنذاك. ومَن يفعل هذا فعليه ان يتحمّل وزر هذا التصرّف، وليس له ان يطلب من الطلاب المعارضين لسياسة الحزب الذي ارتبط به أن يراعوا مقامه العلمي ومكانته الأدبية.

ومن مظاهر تصرفات الدكتور طه الحزبية المحض أنّه كان يبلّغ رجال البوليس عن زعماء الطلبة المعارضين في كلية الآداب ـ مستعيناً في ذلك ببعض الجواسيس المتزلفين إليه من الطلاب فكنا نسمع في اليوم التالي ان البوليس قبض على فلان وفلان من هؤلاء الزعماء. فيتملك الغضب زملاءهم، ويهجمون بالضرب الموجع على المشبوهين من هؤلاء الجواسيس. وكم شاهدنا في طرقات الكلية وأمام مكتب العميد من معارك عنيفة او تسوية حسابات في هذا المجال. وأذكر مرة انه كان عندنا درس في المدرج رقم ١٢ الملاصق لمكتب العميد يلقيه علينا الشيخ مصطفى عبد الرازق، وإذا برنين هائل لصفعة تلاه صراخ شديد ـ فطلب منّي الشيخ مصطفى ان أخرج لأستوضح جلية الأمر، فشاهدت الجاني وهو من القوميين، والمجني عليه وهو من المشبوهين المتهمين بالتجسس؛ فابتسم لي الجاني، وعدت إلى القاعة، وقلت للشيخ مصطفى: إنه تسوية حساب مع أحد المشبوهين! فابتسم الشيخ مصطفى بدوره، وقد فهم ما قصدت الاشارة إليه، واستأنفنا الدرس.

وكم كان يحزّ في نفسي ان يتعرض الدكتور طه لهذه الاهانات لأنها كانت تصدر ممن هم زملائي في النضال ضد الوفد! لكنّ للسياسة أحكامها القاسية الظالمة. ومن هذه الاهانات مثلاً ان بعض زعماء طلاب الحقوق المعارضين للوفد كانوا يتحينون ذهاب الدكتور طه إلى ادارة الجامعة لأمر من الأمور، فيحيطون به وهو يصعد السلم هاتفين: «يحيا الدكتور منصور فهمي عميد الآداب». ـ والدكتور منصور فهمي هو العميد السابق على الدكتور طه، وقد نقل من عمادة الكلية إلى ادارة دار الكتب المصرية فور تولّي وزارة الوفد الحكم في أوائل مايو سنة ١٩٣٦.

ومن رأيي أنَّ مَن يتولّى منصباً حكومياً ـ غير منصب الوزير ـ ويسلك مسلكاً حزبياً أو سياسياً ان يوطن نفسه على ان يكون هدفاً لأي هجوم او إهانة لأسباب سياسية وألاّ يعتقد ان منصبه او مكانته العلمية تحصّنه ضد أي هجوم أو إهانة. إنَّ عليه ان يتحمل وزر مسلكه السياسي الحزبي. وهذا ما سيحدث لعبد الرزاق السنهوري وهو رئيس لمجلس الدولة في مارس سنة ١٩٥٤ لقد اتخذ موقفاً سياسياً خالصاً في مسألة نظام الحكم إبّان الصراع بين محمد نجيب، وسائر أعضاء مجلس

قيادة الثورة. فكان على السنهوري ان يتحمل وزر سلوكه، لا ان يصيح مستصرخاً: «لقد اعتُدِي على حرمة القضاء». لا، لم يعتد على حرمة أي قضاء، بل اعتدي فقط على سياسي موجود في منصب قضائي. ولنا عود إلى هذا الموضوع.

الانضمام إلى «مصر الفتاة»

واستمررت أُشارك في حركة الطلاب القوميين ضد الوفد، إلى ان أُقيلت وزارة النحاس في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٧، وكلّف محمد محمود برئاسة وزارة تضم الوجوه اللامعة في الأحزاب المعارضة للوفد.

ولم يكن في وسعي، وقد خضت غمار السياسة العملية في حركة الطلاب القوميين طوال شهري نوفمبر وديسمبر أن أتوقف عن كل نشاط سياسي. فليس هذا من طبيعة الأشياء.

ومن ناحية أخرى، رأيت انه لا مجال لي في العمل مع الأحزاب: لا مع حزب الأحرار الدستوريين، رغم تعاطف أسرتي معهم، ولا مع حزب السعديين الجديد الذي أنشأه أحمد ماهر والنقراشي لأنِّي أبغضه وأبغض رجاله أشد البغض؛ ولا مع الحزب الوطني برئاسة حافظ رمضان، لأنَّه كان في عداد الموتى!

ثم إنِّي كنت متعاطفاً مع حركة مصر الفتاة منذ ثلاثة أعوام أو يزيد: أُتابع تحركاتها وأقرأ مجلتها: «الصرخة»، ثم «مصر الفتاة»، وأنفعل بكتابات أحمد حسين وفتحي رضوان ومحمد صبيح. لهذا رأيت في شهر فبراير سنة ١٩٣٨ أن اتصل بزعماء مصر الفتاة اتصالاً مباشراً، دون ان أنضم إلى أي تنظيم من تنظيماتها: مجلس الجهاد او القمصان الخضراء. بل اقتصر الأمر على التعرُّف إلى أولئك الثلاثة وغيرهم من البارزين من أعضائها.

وكانت أول مساهمة عملية هي أنَّني كتبت إلى جريدة «البورص اجبسيين» La Bourse égybtienne كبرى الصحف التي تصدر بالفرنسية في القاهرة أرد على مقال ورد فيها كان فيه نقد وهجوم على مصر الفتاة ونشرت جريدة «البورص» ردِّي هذا، فكان أول مقال يُنشر لي في أية صحيفة، ومن غرائب المفارقات ان يكون أول مقال يُنشر لي في صحيفة هو باللغة الفرنسية!

وفي شهر مارس حدثت مشكلة النمسا التي انتهت في ١٢ مارس سنة ١٩٣٨ بضم النمسا إلى المانيا. وكان لهذا الحادث صدى كبير في أرجاء العالم. وكنت أنا طوال عام ١٩٣٧ وما بعده أقرأ بانتظام صحيفتين اسبوعيتين فرنسيتين هما Je

suis partout و Gringoire، ونزعتهما يمينية متعاطفة مع المانيا، كما بدأت منذ عودتي من ايطاليا في اكتوبر سنة ١٩٣٧ اقرأ مجلة ايطالية في السياسة الخارجية اسمها Relazurie internazionale. وبواسطة هذه المجلات الثلاث صرت على علم حيّ واسع بالسياسة الخارجية. وكانت هذه المجلات وعشرات غيرها تصل إلى القاهرة بانتظام تام؛ والفرنسيتان منها كان يوزعهما باعة الصحف الجوّالة في شوارع فؤاد وعماد الدين وسليمان وثروت في قلب القاهرة، وينادون عليهما كما ينادون على «الأهرام» و«البلاغ».

لهذا ولتحمسي لما حدث في النمسا رأيت ان أكتب مقالاً عن «مشكلة النمسا». وطال المقال واستطال حتى ملأ عدداً كاملاً من مجلة «مصر الفتاة» ـ وكنت ـ حين قدمته إلى رئيس تحريرها محمد صبيح ـ قد أصررت على ان ينشر كاملاً، أو لا ينشر مطلقاً؛ ووافق الأستاذ صبيح على نشره كاملاً بعد تمنع ـ وربما لأنه لم تكن لديه مواد أخرى للنشر!!

ومنذ ذلك النشر الذي تمَّ في النصف الثاني من شهر مارس سنة ١٩٣٨، قرّرت ان أواصل الكتابة في جريدة «مصر الفتاة» (وكانت تصدر مرتين في الاسبوع) في موضوعات تتناول السياسة الخارجية.

فلم أكد أحصل على الليسانس في مايو سنة ١٩٣٨ حتى أخذت في كتابة مقالات في السياسة الخارجية في جريدة «مصر الفتاة». ووقع لي آنذاك ثلاث مقالات تتعلق بالسياسة في حوض البحر الأبيض المتوسط، فقمت بترجمتها، ونشرت في ثلاثة أعداد متوالية من جريدة «مصر الفتاة» في شهري يونيو ويوليو سنة ١٩٣٨.

وحتى يعرف القراء ايديولوجية الفاشستية والنازية، كتبت عدة مقالات عن النازية: مبادؤها، والفلسفة السياسية التي تقوم عليها، وتنظيماتها الحزبية، وترجمت وشرحت برنامج الحزب النازي. واستعنت في ذلك بكتب الفرد روزنبرج، وكتاب «كفاحي» لهتلر، ورسائل صغيرة كانت من مطبوعات حزب النازي حملتها معي من منشن.

أمَّا الفاشستية فقد اكتفيت منها بترجمة مقالة طويلة لموسوليني نشرت في «دائرة المعارف الايطالية» أولاً، ثم في كتاب مفرد على حدة ثانياً، بعنوان «مذهبي» Mia dettrina.

وكانت كل هذه المقالات بتوقيعي وباسمي بالكامل.

لكن ابتداءً من تعييني معيداً في كلية الآداب في ١٥ اكتوبر سنة ١٩٣٨ صارت مقالاتي ـ وكلها في السياسة الخارجية تنشر بتوقيع: «محرّر الشئون الخارجية». وواصلت الكتابة بهذا الوصف حتى آخر مقال نشرته في جريدة «مصر الفتاة» في أواخر سنة ١٩٣٩.

وما كانت تثار مشكلة دولية ذات أهمية ألاّ وأبادر بالكتابة المفصلة عنها: أستعرض تاريخ المشكلة، والعناصر الفعّالة فيها، وأتنبأ أحياناً بما ستؤدّي إليه من نتائج إن كانت لم تحلّ بعد. ومن أبرز ما تناولته من مشكلات: مشكلة السوديت ـ وهي المنطقة الألمانية المضمومة إلى تشيكوسلوفاكيا، وقد بلغت أوجها في سبتمبر سنة ١٩٣٨؛ مشكلة تشيكوسلوفاكيا، وعقد مؤتمر منشن (ميونخ) في ٢٩ ـ ٣٠ سبتمبر بين هتلر وتشمبرلن وموسوليني، ودالدييه، الذي بموجبه تقرر ارغام تشيكوسلوفاكيا على التنازل عن اقليم السوديت، فدخل الجيش الألماني اقليم السوديت في الفترة ما بين ١ إلى ١٠ اكتوبر سنة ١٩٣٨، وضمّه إلى المانيا. ـ ثم اجتياح الجيش الألماني لبوهيميا ومورافيا في ١٥ مارس سنة ١٩٣٩، واعلان الحماية الألمانية عليها. ـ مشكلة جزيرة هينان التي احتلتها اليابان في ١٠ فبراير سنة ١٩٣٩.

لكن أخطر هذه المقالات جميعاً مقالة كتبتها غداة مصرع كورنليو كودريانو Codreano مؤسِّس حركة الحرس الحديدي في رومانيا. وكان برنامج هذه الحركة شبيهاً ببرنامج حركة «مصر الفتاة»: إذ كان مزيجاً من الوطنية المتطرفة والنزعة الدينية المتأصلة. وقد وجدت حركة كودريانو انصاراً في مختلف الجبهات: عند رجال الدين، وفي بعض الأوساط البورجوازية، ولدى بعض المثقفين الوطنيين، وفي أوساط ذوي المهن الحرة؛ وعند الشباب الجامعي بخاصة، وكذلك عند الفلاحين الذين أرهقهم بالديون المرابون اليهود. وقد قامت الحركة بعدة اغتيالات سياسية: منها قتل ايون دوكا Ion Duca الوزير الليبرالي الذي حاول حلّ الحرس الحديدي، فعاجلوا باغتياله، سنة ١٩٣٣، واغتيال بعض القضاة الذين تولوا محاكمة كودريانو. وسجنته حكومة كالينسكو بتهمة الخيانة العظمى، وفي سجنه اغتالته الحكومة في بوخارست في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٨، وادعت انه حاول الفرار من سجنه فقتله الحراس!! وكان عمره حين قتل ٣٩ عاماً (ولد كودريانو في ١٣/ ٩/ ١٨٩٩).

فكتبت غداة مصرعه مقالاً في جريدة «مصر الفتاة» تحت عنوان: «لقد قتل كودريانو زعيم القمصان الخضراء في رومانيا». وكان أسلوب المقال حماسياً

وأدبياً معاً، فقلت في أوله: «لقد بدأ حياته بأن توّج رأسه بثلاث جماجم بشرية» ـ وهي جماجم أولئك الذين اغتالهم هو وجماعته.

وأثار هذا المقال انفعالات عنيفة لدى شباب مصر الفتاة للتشابه الشديد بين الحركتين: «الحرس الحديدي» و«مصر الفتاة» حتى في المظهر الخارجي: القمصان الخضراء.

واتفق مع ظهور المقال أو بعده بقليل ان قام أحمد حسين بالدعوة إلى تحطيم الحانات. وقام بعض شباب مصر الفتاة، بتحريض من أحمد حسين نفسه، بتحطيم بعض الحانات في القاهرة والاسكندرية، وأولها حانة تسمى «الكاپ دور» كانت تقع على تقاطع شارع ثروت مع شارع جواد حسني.

فتحركت الحكومة، وكان وزير الداخلية هو محمود فهمي النقراشي المعروف بشراسته وحمقه وضيق فكره. فاعتقل أحمد حسين، وأحاله قاضي الإحالة إلى محكمة الجنايات. فقام بعض شباب مصر الفتاة بتهديد هذا القاضي بعد غروب الشمس وهو يتريض في شارع بمصر الجديدة قريب من منزله. وأذكر ان الشابين اللذين قاما بذلك جاآ إليّ في اليوم التالي ـ وكانت الصحف قد نشرت الخبر ـ وقالا لي: ها نحن أولاً، قد طبّقنا ما جاء في مقالك عن كودريانو!! وأذكر كذلك انه تمّ في نيابة (أو قسم) مصر الجديدة عملية تعرّف من القاضي المذكور على مَن أطلق عليه النار ـ ارهاباً فقط ـ من شباب مصر الفتاة. وأحضر حوالى خمسة عشر شاباً من شباب مصر الفتاة الذين يشتبه فيهم القيام بهذا العمل. وكان منهم الشابان اللذان أطلقا النار في الهواء ارهاباً للقاضي على تهديد يفهم منه ان هذا الارهاب في الهواء إنّما هو بسبب احالته احمد حسين إلى محكمة الجنايات. ورأى هذا القاضي ـ بحصافة وتحوط ـ ان الأفضل له ألاّ يتعرف على أحد طلباً للعافية. وقد تطلع ملياً في هذين الشابين، لكنه استمر في المرور على الباقين. وأعلن لوكيل النيابة ان من اطلقا عليه النار ليسا من بين هؤلاء. وهكذا كفاه الله شر المستقبل من هؤلاء!

وفي عقابيل ذلك أخذ وكيل نيابة عابدين ـ وكان رجلاً واسع الاطلاع منفتح الذهن مشبعاً بمعاني الحرية ـ في مراجعته للمقالات المنشورة في جريدة مصر الفتاة في الفترة الأخيرة أي منذ عملية تحطيم الحانات ـ ولفت نظره مقالي عن كودريانو. فتولّى التحقيق مع رئيس التحرير المسئول ـ محمد صبيح ـ عن هذا المقال باعتباره يدعو أو على الأقل يحبّذ الاغتيال السياسي. ولما كان المقال بتوقيع «محرر الشئون الخارجية» وليس باسم أحد، فقد تحمّل الأستاذ صبيح

المسئولية عن المقال، ورفض ان يذكر لوكيل النيابة (أو رئيس النيابة) اسم «محرر الشئون الخارجية». وكانت هذه فيه شهامة منقطعة النظير. ولم يلح رئيس النيابة في معرفة مَن هو «محرر الشئون الخارجية» هذا. لكنه قيد التهمة ورفعها إلى القضاء. ونامت القضية، كما ان أحمد حسين أُفرج عنه ـ وكان ذلك بفضل وزير العدل، وكان حراً دستورياً، ونكاية في وزير الداخلية والسعديين بعامة، إذ كان الشقاق قد دبَّ واستشرى بين الوزراء السعديين في وزارة محمد محمود، من جهة وبين رئيس الوزارة والوزراء الأحرار الدستوريين من جهة أخرى.

فبقيت القضية لا تتحرك، إلى ان جاءت وزارة الوفد في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ فأصدرت عفواً عاماً عن جميع الجرائم الصحفية التي حدثت في المدة من أول يناير سنة ١٩٣٨ حتى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ فسقطت القضية نهائياً.

ماذا دعا أحمد حسين إلى اتخاذ هذه الدعوة الحمقاء الخرقاء إلى تحطيم الحانات؟

الداعي هو منافسة جماعة «الإخوان المسلمين».

ذلك ان جماعة «الاخوان المسلمين» قد نشطت منذ مجيء وزارة محمد محمود إلى الحكم في ١٩٣٧/١٢/٣١، وخصوصاً إبّان انتخابات مارس سنة ١٩٣٨، وبرزت علانية كحركة سياسية، بعد ان كانت حتى ذلك الحين تتظاهر بأنّها دعوة دينية محض، ولهذا لم يتعرّض لها الوفد إبان حكمه، ولم يقع بينها وبين سائر الأحزاب والجماعات السياسية أيّ احتكاك. وأخذت آنذاك تتغلغل في صفوف شباب الجامعة، وبدت حركة منافسة في انتخابات اتحاد الطلبة منذ أوائل العام الدراسي ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩. وكان انتشارها بين طلبة كليتي الهندسة والعلوم، لافتقار طلاب هاتين الكليتين إلى العلوم الانسانية التي من شأنها وحدها ان تبث التنوير العقلي في أذهان الطلاب. أمّا طلاب الآداب ـ باستثناء قسم اللغة العربية ـ فيميلون إلى الفكر الحرّ والتفكير العقلي، والسلوك النقدي بإزاء العقائد. لهذا لم يكن لدعوة الإخوان في كلية الآداب أي صدى، رغم وجود زعيم للأخوان في قسم اللغة العربية آنذاك ـ وهو عبد الحكيم عابدين. الأمر نفسه يقال عن طلاب كلية الحقوق: فإنَّ دراسة القانون الحديث تعصم من اتباع دعوة هي مزيج من السلفية واللامعقول ومصادرة حقوق الانسان لصالح «حقوق الله» فيما يدّعون. وأمّا طلاب الطب والزراعة والتجارة فيترجحون بين التدين المغالي وبين عدم الاكتراث للدين.

فلما رأى أحمد حسين ان كل مرشحي مصر الفتاة للفوز بعضوية الاتحاد في

مختلف الكليات قد أخفقوا جميعاً ـ باستثناء ابرهيم شكري في كلية الزراعة، ولشخصه فقط كان نجاحه، لا لإنتمائه إلى مصر الفتاة ـ ثار ثائره. كذلك رأى اجتماعات الاخوان المسلمين في مقرّهم بالحلمية الجديدة تشهد أعداداً وفيرة من الحاضرين فازداد غيرة منهم.

وخيّل له ضيق تفكيره واندفاعه الانفعالي أنَّ علاج الأمر يكون بمنافسة الاخوان المسلمين في دعوتهم هم! بل وأن يبالغ في ذلك إلى درجة الطيش والحماقة. فبينما كان الاخوان المسلمون يكتفون بالوعظ وتغيير المنكر باللسان، أراد هو ان يبزّهم ويزيد عليهم بأن يدعو إلى تغيير المنكر باليد، وليس باللسان فقط. وظنَّ أنَّه بهذا سيكسب المزيد من الأنصار، وأنَّه سيسلب من الطرف الآخر سرّ انتشاره. وكان ذلك منه تقديراً خاطئاً كله، جرّ على حزب مصر الفتاة ـ وقد صار الآن حزباً رسمياً ـ الدمار والتخلي عنه حتى من أخلص أنصاره العقلاء.

ولأنَّه فُطِر على العناد والاستبداد بالرأي ـ ولأنَّه في هذه التصرفات كلها لم يستشر أحداً من أعضاء الحزب، اللهم إلاَّ مصطفى الوكيل الذي كان بمثابة «أنا آخر» لأحمد حسين. ـ فقد أوغل في هذا الاتجاه الديني، وأطلق لحيته، ثم فاجأ الجميع ذات يوم بأنَّه غيّر اسم «مصر الفتاة» إلى اسم «الحزب الوطني الإسلامي». ويومها عارضه الكثيرون منَّا، فلم يأبه لرأينا متهماً أحدنا بأنَّه زنديق، والثاني بأنَّه فاتر الايمان، والثالث بأنَّه لا يكترث للدين، والرابع بأنَّه منحلّ العقيدة، إلى آخر هذه الأوصاف التي كان يطلقها مصحوبة بابتسامة تلطّفُ وَقْعَها على مَن تقع عليه. ولم يدرك آنذاك ان هذه القطرات هي التي سيتشقق منها الجدار عمَّا قليل.

ثم جاء أخيراً بمهزلة المهازل في هذا الاتجاه وهي كتابة رسالة إلى كل من هتلر وموسوليني يدعوهما لاعتناق الإسلام، وصاغ الرسالة على غرار الرسائل التي بعث بها النبي محمد (ﷺ) إلى كسرى والمقوقس والنجاشي.

وقد أوقعني آنذاك في مأزق حرج، لأنَّه طلب منِّي ترجمة الرسالة إلى الألمانية وإلى الإيطالية لترسل الترجمة الألمانية مرفقة بالأصل العربي إلى هتلر، والترجمة الايطالية مرفقة بالأصل العربي الى موسوليني. وقد حاولت إقناعه بالعدول عن ذلك، والاكتفاء برسالة مفتوحة تنشرها جريدة مصر الفتاة موجهة إلى هذين القطبين وغيرهما من زعماء المسيحية. لكنه أصرَّ على رأيه؛ ومن عجب أنَّني طاوعته فيما طلب، فترجمت الرسالة إلى الألمانية والإيطالية. وأرسلت الأولى إلى السفارة الألمانية، وأرسلت الثانية إلى السفارة الايطالية.

وقد أخبرني السكرتير الشرقي للسفارة الألمانية آنذاك، محمود الدسوقي ـ

بأنّه لما وصلتهم الرسالة، قرّر السفير ان يقف الأمر عند هذا الحد، أي تسلّم الرسالة دون إرسالها إلى وزارة الخارجية في برلين. كما قرّر وقف كل علاقة بين السفارة وبين أحمد حسين.

أمّا السفارة الإيطالية فقد تلقت الأمر بالمزاح والسخرية، وجاء زمبوني، رئيس تحرير الصحيفة الايطالية التي كانت تصدر في القاهرة، وكان كثير التردُّد على دار مصر الفتاة، وراح يخبر محمد صبيح، بين المزاح والجد، بأنَّ الرسالة ستبلغ إلى «الدوتش»؛ ولِمَ لا، وقد أعلن موسوليني نفسه حامياً للاسلام، وتسلّم وهو في ليبيا سيف الاسلام La sbada delle Islam وكان زمبوني هذا رجلاً لطيف الحديث، يحب المزاح. ولست أدري ماذا فهم صبيح من كلامه، أمّا أنا ففهمت أنّه يمزح، وقد أكّد لي ذلك وأنا أسير معه بضع خطوات خارج الدار.

ولم أفهم آنذاك ما الذي جعل أحمد حسين يصنع هذه المهزلة. لكني فهمت ذلك، لما ان سافر علي ماهر، رئيس الوزراء آنذاك، إلى السودان وشاهد متحف الخرطوم، وفيه بعض الوثائق بخط المهدي السوداني، ومنها رسالة بعث بها إلى بعض أقطاب دول ـ لا أذكرها الآن ـ يدعوهم فيها إلى الاسلام على غرار ما بعث به النبي محمد (ﷺ) إلى كسرى والمقوقس والنجاشي. فلما شاهد علي ماهر رسائل المهدي قال: «إنَّ أحمد حسين صنع صنيع المهدي؛ ولعله قلّده في هذا» ـ وأنا أعتقد ان افتراض علي ماهر هذا صحيح.

وبالرغم من هذا التحرك كله في اتجاه النزعة الدينية لمنافسة الاخوان المسلمين، لم يفلح أحمد حسين في ضمّ أي أنصار جُدد لمصر الفتاة، بل حدث العكس تماماً: وهو نفور أنصارها من هذا التحرّك وابتداء دخول الشقاق بين صفوفهم.

وتلك قاعدة عامة في تاريخ الحركات والمذاهب السياسية: ان كل حركة سياسية تخرج عن مبادئها الأولى ابتغاء كسب أنصار من خصومها لا بدَّ ان يصيبها الاخفاق والانحلال.

إنَّ على صاحب الحركة السياسية ان يتابع طريقه قدماً على أساس المبادىء التي قام يدعو إليها، مهما لاقى في سبيل ذلك من عقبات او انتكاسات. ولن يجديه نفعاً ان يستعيد من خصومه شعاراتهم. إن كان يمينياً محافظاً فعليه ان يتابع السير في خط يميني، يتطور في اطار يميني؛ وإن كان يسارياً فعليه ان يتحرك في اطار يساري. أمّا ان يكون يمينياً وفي الوقت نفسه يستعير شعارات اليسار او

أساليبهم وخططهم، فلن يؤدّي به ذلك إلاّ إلى الضياع، لأنّه سيفقد أنصاره الأصليين الذين يمكنه الاعتماد عليهم، ولن يكسب شيئاً يذكر من الطرف المضاد.

ولإيضاح رأينا هذا نذكر بعض الشواهد:

١ ـ ما أضاع شاه ايران محمد رضا بهلوي، وهو الذي استند في الأصل إلى كبار الملاّك الزراعيين (زمينداران) إلاّ محاولة استعارة أساليب اليسار فيما اسماه: «انقلاب سفيد (ثورة بيضاء)، او انقلاب شاه وملّت (ثورة الشاه والأمّة)»: وذلك بالاستيلاء على الأراضي الواسعة المملوكة لكبار الملاّك الزراعيين، وتوزيعها على الفلاحين. إنَّه بهذا قد أثار نقمة هؤلاء الملاّك، ولم يكسب رضا الفلاحين. وحاول استرضاء رجال الدين وتملق العاطفة الدينية عند عامة الشعب، فذهب إلى الحج؛ وحرص على أن تؤخذ له الصور وهو بملابس الاحرام، فأوعز بتوزيع هذه الصور في كل مكان في ايران؛ بينما ظلَّ أبوه حريصاً على عدم الخلط بين الدين والسياسة وعلى ابعاد رجال الدين عن شئون السلطة، وعلى التحرر والتمدن. فماذا كانت النتيجة بالنسبة إلى محمد رضا؟ لم يصدّق الشعب مظاهر تدينه، وازداد رجال الدين نفوذاً في الشعب وبين طبقة التجار في «البازار» (السوق)، وكان ما رأينا بعد ذلك من عزله وتولّي الخميني ورجال الدين أمور السلطة في ايران.

٢ ـ وما أساء إلى الرئيس السادات شيء قَدْر ظهوره بمظهر التقوى والتدين الشديد. فإنَّ هذا أغرى أصحاب النزعات الدينية المتطرفة بالشعور بالمزيد من الثقة في اتجاههم، بل والتعالي والغلبة عليه في هذا المجال الديني. فكان ما كان من مصرعه على أيدي هؤلاء المتطرفين في الدين.

٣ ـ وما أطاح بالاشتراكيين في فرنسا في كل تاريخهم في القرن العشرين إلاّ ممالأتهم حيناً للشيوعيين (ن. الجبهة الشعبية سنة ١٩٣٦، وفي سنوات ١٩٨٠ إلى ١٩٨٤ في عهد ميتران) وحيناً آخر لليمينيين (من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٥٨).

تلك شواهد قاطعة بفساد سلوك السياسي الذي يظن انه يكسب المزيد من الأنصار إن استعار من خصمه بعض شعاراته ذات الاغراء.

ولقد حار أحمد حسين آنذاك: بين ان يتقرّب إلى الاخوان المسلمين، وبين ان يتقرّب إلى الجماعات الدينية غير المعروفة بأي اتجاه سياسي مثل جماعة السُّنَّة المحمدية التي كان يرئسها الشيخ حامد الفقي. وأمّا الشيخ حسن البنا، المرشد العام للاخوان، فقد فهم ما يرمي إليه أحمد حسين، فأعرض عن اللقاء معه وتباعد بجماعته، ولم يجتمع بأحمد حسين إلاّ مرة واحدة فيما أذكر، ثم بدأت الخصومة

الشديدة بين الاخوان المسلمين ومصر الفتاة. واتخذت لها مظاهر عنيفة في الجامعة بقيام معارك شديدة بين أنصار مصر الفتاة وانصار الاخوان المسلمين، ثم في الأماكن التي قد يجتمع فيها أعضاء من هؤلاء وأعضاء من أولئك بمناسبة من المناسبات، وأذكر منها مما شهدته بنفسي ما حدث عند استقبال عبد الخالق الطريسي، الزعيم المغربي (في المنطقة الخليفية الخاضعة للحماية الاسپانية) في محطة القاهرة للسكك الحديدية.

ولقد صارت كلتا الحركتين: الاخوان المسلمين ومصر الفتاة ـ هدفاً لبطش النقراشي وزير الداخلية في سنة ١٩٣٩. وفي الوقت الذي كان القسم السياسي في بوليس محافظة القاهرة (برئاسة الأميرالاي سليم زكي ومساعده إمام) يطارد أعضاء مصر الفتاة ويعتقلهم ويلفق لهم التهم ـ وكذلك كان يفعل مع الاخوان المسلمين ـ أوعز النقراشي إلى كاتب السعديين في ذلك الوقت، عباس محمود العقاد، بالهجوم بقلمه على كلتا الحركتين. وقد كان العقاد طول حياته مأجوراً لحزب من الأحزاب: الوفد (حتى سنة ١٩٣٥) وخصوم الوفد (من ١٩٣٥ حتى ١٩٣٨) والسعديين (من سنة ١٩٣٨ حتى سنة ١٩٥٠)، كما كان مأجوراً لبريطانيا (طوال مدة الحرب: ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ على الأقل): يستخدم سلاطة لسانه، وما يزعمه لنفسه من قوة عارضة في التطاول على خصوم مَن يُستغل للدفاع عنهم.

فكتب العقاد مقالات ضد الاخوان المسلمين ـ لكن هؤلاء سكتوا ولم يحرِّكوا ساكناً.

ثم انكفأ بعد ذلك يهاجم مصر الفتاة. فلمَّا كتب أول مقال، تشاورنا في مصر الفتاة بماذا نرد. فرأى صبيح ان يكون ذلك بالرد القاسي في مجلة مصر الفتاة، وكتب فعلاً مقالاً بعنوان: «العقاد جهول يريد ان يعلّم الناس ما لا يعلم». فكتب العقاد مقالاً آخر أشد وأعنف. وكان من رأيي ان العقاد يرحب بالمقالات، فلا علاج له عن هذا الطريق، بل لا بدَّ من استخدام العنف معه لأنَّه لا ردعه غير العنف. وأخذ برأيي اثنان من اعضاء الحزب، احدهما هو الذي كان قد أرهب قاضي الاحالة؛ فتربصا للعقاد وهو عائد إلى بيته رقم ١٣ شارع سليم في مصر الجديدة، وانهالا عليه بالضرب والصفع والركل، وأفهماه ان هذا تأديب مبدئي بسبب مقالين ضد مصر الفتاة؛ فإن عاد، عادا إليه بما هو أشد نكالاً. وأحدثت هذه «العلقة» أثرها الحاسم، فخرس العقاد خرساً تاماً، ولم يعد إلى الكتابة ضد مصر الفتاة.

ولما زاد النقراشي ـ وزير الداخلية ـ في التنكيل ببعض أعضاء مصر الفتاة،

كتب أحمد حسين وصبيح عدداً خاصاً بالحملة ضد النقراشي. ونفد العدد كله منذ الصباح. ففرح أحمد حسين، وراح يهنىء أعضاء الحزب في أول اجتماع لاحق بهذا النصر. ولما جاء متعهد الصحف في اليوم التالي لدفع ثمن العدد الماضي راح صبيح يفاخر المتعهد بهذا الانتصار ويبشره بالمزيد من الطبع. فقال المتعهد بكل هدوء: إنَّني لم أُنزل إلى السوق إلا عدداً قليلاً من النسخ، لأنَّ رجال القلم السياسي قد جاءوا إليّ واشتروا كل النسخ!!

وراح صبيح يخبر أحمد حسين بهذا الخبر الذي أحلَّ اليأس مكان الافتخار، فقال أحمد حسين: آه! الحكاية هكذا إذن! ما صدّقنا وفرحنا!! لكن الويل للنقراشي.

ولقد سلّط النقراشي كل سلطاته لمطاردة أعضاء مصر الفتاة من الموظفين.

وإذا بي ذات يوم يطلبني العميد د. طه حسين في مكتبه. فذهبت إليه، وكان أحمد أمين حاضراً. فبادرني بالسؤال: هل أنت عضو في مصر الفتاة؟

فأجبت: كلا، ولكن أتعاطف معها.

فقال: وما مظهر هذا التعاطف؟

فقلت: أُساعدها ببعض المال والمقال.

فقال: هل تعدني بأن تكف عن ذلك؟

فقلت: ولكن، ماذا يدعوك إلى التكلّم معي في هذا الموضوع الآن؟

فقال: لأنَّ النقراشي باشا، وزير الداخلية، اتصل بي في هذا الشأن.

فقلت: وكيف تقبل أن تتلقى أوامر من وزير الداخلية؟ إنَّ الجامعة تتبع وزارة المعارف، لا وزارة الداخلية. فأين استقلال الجامعة ـ هذا الاستقلال الذي من أجله حاربت أنت وأيّدناك نحن؟ لو كان هيكل باشا هو الذي تكلّم معك في هذا، لكان الأمر مفهوماً. لكني على يقين بأنَّ هيكل باشا لا يمكن ان يكون قد كلّمك في هذا الموضوع.

وهنا أحسَّ د. طه حسين بقوة حجتي وأنها أصابت منه موضعاً حساساً، فقال: كنت أعلم أنك ستجادلني بهذه الحجة، خصوصاً وأنت تعرف هيكل باشا والوزراء الأحرار الدستوريين. لهذا فإنَّني قلت للنقراشي باشا حين كلّمني: إنَّ من العسير عليّ اقناع عبد الرحمن بدوي بالكف عن التعامل مع مصر الفتاة لهذا فإنَّني سأتكلم مع الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ وزير الأوقاف ـ في هذا الشأن، فهو الأقدر مني على التأثير عليه. وفعلاً اتصلت بالشيخ مصطفى، ولهذا أدعوك

للذهاب إليه ليحدثك في هذا الموضوع.

ثم انصرفت من عند الدكتور طه حسين، على أن أذهب لمقابلة الشيخ مصطفى.

وذهبت إلى الشيخ مصطفى في مكتبه بوزارة الأوقاف؛ فاستقبلني بابتسامته وعطفه المعهودين! ولما أخبرته بما قاله لي العميد، قال إنَّه اتصل بالنقراشي باشا وطمأنه من ناحيتي وتعهّد له بالتفاهم معي في هذا الأمر. وبعباراته الرقيقة دعاني إلى الابتعاد ـ ولو مؤقتاً في هذه الأسابيع ـ عن مصر الفتاة. فتعهّدت له بذلك، خصوصاً وقد ضقت ذرعاً بتصرفات أحمد حسين فيما يتعلق بعملية تحطيم الحانات، والتنافس مع الاخوان المسلمين في الهوس الديني، والرسالة التي أراد بها ان يدعو هتلر وموسوليني إلى الاسلام، وتصرفات جزئية أخرى لا أذكر الآن تفاصيلها.

وقد كان تصرّف العميد الدكتور طه حسين معي تصرفاً عاقلاً مهذباً. وعلى العكس من ذلك كله كان تصرّف الطبيب علي ابرهيم باشا، عميد كلية الطب، مع اثنين من الأطباء النوّاب آنذاك في قصر العيني وهما: د. عبد الرحمن الصدر، ود. أنور نعمان. فقد استدعاهما علي ابرهيم وراح يوبّخهما بكلام غليظ، ويهددهما بالويل والثبور ان استمرا في التعامل مع مصر الفتاة. ثم أمرهما بالخروج من مكتبه على نحو وقح.

وهكذا كان دائماً د. علي ابرهيم باشا ـ كبير الجراحين فيما زعموا: كان جباناً هيّاباً للسلطة، أيّا كانت. ولم يكن له أي مبدأ في السياسة، بل كان انتهازياً يأكل على كل مائدة من موائد مختلف الأحزاب السياسية والسلطات البريطانية. وكان مهرّجاً يحب الظهور في الأمور العامة التي لا تكلّفه اية مخاطرة، ومن ذلك رئاسته لمشروع القرش ـ هذا المشروع الفاشل الهازل الذي انتهى الى لا شيء، عدا ظهور وتظاهر علي ابرهيم باشا بالمساهمة في «المشروعات القومية»، واتخاذ أحمد حسين لهذا المشروع ـ وهو صاحب الاقتراح ـ نقطة انطلاق للعمل السياسي. وإلاَّ فقلّي بربك هل قامت هذه الضجة التي طوّقت أرجاء مصر من أجل اقامة «مصنع لصنع الطرابيش»! يا للمهزلة! إنَّ أي مموّل مصري كان في وسعه ان يقيم عدة مصانع، وليس مصنعاً واحداً ـ من هذا النوع، دون ان ينتظر من احد جزاءً ولا شهرة. لكنها تفاهة التفكير عند الشباب في مصر آنذاك هي التي ضخّمت في الأمر، مع انه كان مهزلة سخيفة.

ولقد أثير آنذاك ـ في سنة ١٩٣٣ ـ لغط شديد حول نزاهة أيدي القائمين على

هذا المشروع. لكنّي لا أملك أي دليل على صحة او عدم صحة ما أُثير آنذاك من شائعات في هذا الموضوع.

ومثل هذه الشائعات قد أصابت مصر الفتاة فيما يتعلق بتمويلها: فقيل إنَّها تتلقى أموالاً من دولتي المحور: المانيا وايطاليا، وقيل انها تلقت أموالاً من المصروفات السرية في عهد حكومة محمد محمود (عام ١٩٣٨).

لكني أنا شخصياً لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر، لأنّني لم أشاهد احمد حسين او غيره من رؤساء الحزب يأخذون أي أموال من هذه الجهات الثلاث. ولم يصدر عن أحمد حسين أي قول أو إشارة إلى الخاصة من أعضاء الحزب الذين اعرفهم يشير الى شيء من ذلك.

وإنَّما الذي أعرفه تماماً هو ان حزب مصر الفتاة كان في عامي ١٩٣٨ و١٩٣٩ يعاني من فقر مدقع في المال. وكان يفرض على ذوي اليسار من أعضائه مبالغ ماليّة في كل مناسبة: مثل إقامة صوان لاجتماع عام، أو للصرف على جريدة الحزب، أو لدفع ايجار دار مصر الفتاة (مع ان ايجارها كان خمسة عشر جنيهاً فقط) أو لدفع أقساط مكينة الطباعة بل والآلة الكاتبة. كما كان أحمد حسين يطلب من بعض الأعضاء أن يدوروا على بعض الشخصيات المتعاطفة مع مصر الفتاة. وأذكر انني اشتركت مع جماعة من هؤلاء الأعضاء في الدوران على مَن نتوسم فيهم الخير: فبدأنا بعيادة د. علي ابرهيم باشا، فأنكروا وجوده. وثنينا بعيادة عبد العزيز اسماعيل في ميدان عابدين وعلى مقربة من عيادة د. علي ابرهيم. وكان فصلاً مضحكاً حقاً. فقد أدخلنا التمورجي إلى قاعة الكشف ـ وكنا تسعة ـ ففرح عبد العزيز اسماعيل بهذا العدد الوفير من المرضى دفعة واحدة. وبدأ بأولنا ـ وأظنه محمود مكي ـ وطلب منه ان يرفع القميص ليكشف على صدره بالسمّاعة، فصاح محمود مكي: نحن لسنا مرضى، وإنَّما جئنا لنطلب من سعادتكم إعانة لحزب مصر الفتاة. فدهش د. عبد العزيز اسماعيل وامتقع وجهه لافلات هذا الفيض الكبير من يده، وصاح بأعلى صوته: مصر فتاتي! ما هذا مصر فتاتي! اخرجوا فوراً من عندي.

وخرجنا والتمورجي يكاد يدفعنا إلى الباب دفعاً!

فلما يئسنا من الأطباء، قلنا فلنجرب كبار المحامين. وذهبنا إلى مكتب علوبة باشا في شارع عدلي بجوار جروپي، فدخلنا عليه وأخبرناه بما جئنا من أجله. وكان يتعاطف مع مصر الفتاة، ويخطب في الكثير من اجتماعاتها. فراح ببلاغته وعذوبة صوته يلقي علينا خطبة جميلة في الوطنية والشهامة والجهاد

والتضحية. ثم نهض واقفاً معتذراً بأنَّ لديه موعداً، وبحركة سريعة غادر المكتب ناسياً او متناسياً ما جئنا من أجله.

وكان في نفس الشقة مكتب مصطفى مرعي المحامي. فقلت لزملائي: لا أمل لنا الآن إلاَّ عند مصطفى مرعي ـ وكنت أنا على صلة وثيقة به. فتقدمتهم ودخلنا غرفة مكتبه بنفس الشقة. وبدأت أنا بالحديث معه، لأنَّه لم يكن يعرف من الآخرين أحداً. فلما ألمحت إلى ما من أجله جئنا، فَهِم في الحال واعتذر بأنَّه صار لا يطيق السياسة، وراح يلعن العمل السياسي. فلم يكن أمامنا إذن أن نلحّ عليه في الأمر: إذا كان هو يلعن العمل السياسي، فكيف نطالبه بإعانة عمل سياسي؟! وخرجنا من عنده وقد استولى اليأس على جميعنا. وعاد كل منَّا إلى بيته، ووفاضنا خاوٍ من كل إعانة لمصر الفتاة.

ولهذا كان تمويل الحزب من أعضائه، وأعضاؤه قليلو العدد، متواضعو الحال في المال. إنَّهم أصفار لو قورنوا بأساطين الأغنياء في الوفد: المغازي باشا الذي كان يتبرع بالعشرة آلاف جنيه في كل مرة، ومثله سيد بهنس، ومحمد الوكيل، والأتربي، وأثرياء أقباط أسيوط، الخ ـ او في حزب الأحرار الدستوريين، وإن كانوا أقل ثراءً من رجالات الوفد (الذي كان يتبجح مع ذلك على لسان زعيميه سعد والنحاس بأنَّه يمثل أصحاب الجلابيب الزرقاء! ويا لهذا من كذب وقح). لهذا كانت خزانة حزب مصر الفتاة خاوية على الدوام، وكان أصحاب الديون ـ تاجر ورق الصحف، مندوب وكالة آلة الطبع، مندوب شركة نجار للآلات الكاتبة، البوّاب المكلّف بتحصيل ايجار الدار، الخ ـ يتعاقبون طوال النهار على دار الحزب مطالبين بالأقساط. فكيف تكون حال الحزب هذه الحال، إن كان له تمويل من جهات أخرى غير اشتراكات الأعضاء وتبرعاتهم؟!

ولم يكن في دار الحزب موظف يتقاضى اجراً غير كاتب يرقم على الآلة الكاتبة، مرتبه أربعة جنيهات. ورئيس تحرير الجريدة ـ محمد صبيح ـ كان يصدر سلسلة بعنوان: دار الثقافة العامة، قوامها إصدار ما كان يسمَّى «كتاب الشهر» عن شخصية سياسية في الغالب اسلامية: أبو بكر ـ عمر ـ عثمان ـ علي ـ صلاح الدين، الخ. وكان من هذه السلسلة يتعيّش. ود. مصطفى الوكيل كان مدرساً في كلية العلوم ـ قسم الرياضة ـ وفتحي رضوان كان محامياً يدرّ عليه مكتبه بشارع الساحة ما يكفل له عيشة راضية. أمَّا سائر الأعضاء فكانوا جميعاً يتعيشون من وظائفهم إن كانوا موظفين، أو من أعمالهم الحرة إن كانوا غير موظفين. لهذا لم

تكن إدارة الحزب تحتاج إلاّ إلى القليل من المال الذي توفّره اشتراكات الأعضاء وتبرعاتهم في المناسبات.

وربما كان الوحيد الذي يتعيش من مال الحزب هو أحمد حسين. لكنه ما كان يحتاج إلاّ إلى قليل من المال، إذ كان يكفي المرء آنذاك أن يعيش بعشرة جنيهات في الشهر. والسيارة التي بدأ يركبها منذ سبتمبر سنة ١٩٣٨ كانت سيارة من نوع Fiat الصغير جداً المسمّى باسم Balilla وكانت شركة Fiat قد تبرّعت له بها لما أن زارها في تورينو (مصانع Ausaldes) في صيف سنة ١٩٣٨.

ولهذا فإنّني ـ حسب معلوماتي ـ لا أُصدّق أنّ حزب مصر الفتاة كان يتلقّى تمويلاً من جهة أجنبية أو من المصروفات السريّة للحكومة في عهد محمد محمود.

وأوّل مرة أخبرنا فيها أحمد حسين بأنّه عُرِضَت عليه أموال أجنبية كان في شهر ديسمبر سنة ١٩٣٩ بعد قيام الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر. إذ أخبرنا في اجتماع ضمَّ حوالى خمسة عشر شخصاً من رجال الحزب ان المخابرات البريطانية عرضت عليه كدفعة أولى مائتي جنيه وأن يسافر إلى انجلترة للتفاهم معها، واعترف بأنّه استلم هذا المبلغ فعلاً، وانه بسبيل إتمام هذه العملية. فما كان جواب أغلبيتنا إلاّ الاعتراض الشديد على هذا العمل وتوالى فتحي رضوان وحمادة الناحل وأنا في الهجوم العنيف على أحمد حسين لقيامه بهذا العمل الذي يقوّض كل الأساس التي قامت عليها حركة مصر الفتاة وهي: عدم التعاون مع الانجليز بأيّة حال من الأحوال ومهما كانت الأسباب، بل محاربتهم حتى الجلاء التام عن مصر، وعدم قبول أية معونة من جهة أجنبية.

وكانت جلسة عاصفة خرجنا إثرها نحن الثلاثة: فتحي رضوان، وحمادة الناحل، وأنا وقد صمّمنا على الانسحاب نهائياً من حزب مصر الفتاة.

ومنذ تلك اللحظة لم تطأ قدماي دار مصر الفتاة، وكذلك فعل حمادة الناحل. أمّا فتحي رضوان فلا أذكر هل قطع صلته بمصر الفتاة، او استمر على علاقة متباعدة معها.

وأثارت هذه المسألة شقاقاً واسعاً بين أعضاء الحزب. وحاول أحمد حسين التراجع عمّا خطط له مع المخابرات البريطانية في القاهرة. ولم يتمّم العملية. لكن ذلك لم يغيّر من موقفنا نحن الثلاثة ومن انضم الينا.

بيد أنّنا لم نعلن رسمياً انفصالنا عن حزب مصر الفتاة، وإنّما كان الانفصال واقعياً، لأنّ حالة الطوارىء قد أُعلنت في البلاد، والأحكام العرفية قد فُرضت،

فصار من الممكن للشرطة ان تعتقلنا بدون سبب؛ ووزارة الداخلية المصرية قد صارت عملياً تحت إمرة الانجليز: فوكيل الداخلية للأمن العام حسن رفعت كان يتلقى الأوامر مباشرة من السلطات البريطانية، ويتولّى التنفيذ والقمع القسم المخصوص بوزارة الداخلية، والقسم السياسي بالمحافظة. لهذا وجدنا ان الحكمة تقضي بألاَّ نعلن شيئاً عن انفصالنا عن مصر الفتاة، وقرّرنا في الوقت نفسه عدم الاتصال بها.

ومضينا على هذا الوضع إلى فبراير سنة ١٩٤٢ لما ان أرسل أحمد حسين - وكان معتقلاً آنذاك - رسالة فخرية إلى النحّاس، رئيس الوزارة، يتوب فيها عن كل ما قام به من قبل ضد الوفد، ويصرح بأنَّه «ما زال طفلاً يحبو في السياسة».

فلم نستطع احتمال هذا التصرُّف الشائن المهين الصادر عن أحمد حسين. لقد أهدر بذلك كل نضالنا السابق. ففيمَ إذن كان هذا النضال، إن كان زعيمه «طفلاً يحبو في السياسة» ويستجدي أمام النحاس الذي جاء على دبابات الجنرال استون وتهديد لامپسون بخلع الملك او تكليف النحاس بتشكيل الوزارة؟! وقد كانت الأُمَّة كلها - باستثناء الوفديين طبعاً! - تغلي غضباً وسخطاً على النحاس - فكيف يأتي أحمد حسين بعد هذا ويستجديه ويستسلم له؟!

لهذا أعلن جماعتنا على الملأ تنصلها من أحمد حسين، وانفصالها التام عن حزب مصر الفتاة. وأيّدنا في هذا الموقف أعضاء بارزون آخرون من مصر الفتاة، أذكر منهم: د. نور الدين طراف، وعبد المنعم الشرقاوي، ومحمود مكي وآخرون كثيرون لا تحضرني الآن أسماؤهم. ولم يبقَ مع أحمد حسين إلاَّ ابرهيم شكري ومحمد صبيح (على تردّد). وكان مصطفى الوكيل قد سافر إلى العراق للعمل في كلية العلوم ببغداد منذ اكتوبر سنة ١٩٤٠. ولما قامت حركة رشيد علي الكيلاني في مايو سنة ١٩٤١ انضم إليها، ولما فشلت الحركة وهرب رشيد علي الكيلاني إلى تركيا ثم المانيا هرب معه.

وأُفرج عن أحمد حسين بعد خطابه الشائن هذا بفترة قليلة. فوجد حزب مصر الفتاة قد تمزّق شرّ ممزّق. وكان قد تعهّد قبل الإفراج عنه بعدم القيام بأي نشاط سياسي ونفّذ هذا التعهد من مارس سنة ١٩٤٢ إلى ان قبض عليه إثر مصرع أحمد ماهر في ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥.

والخُلاصة أنّني تركت حزب مصر الفتاة عملياً منذ ديسمبر سنة ١٩٤٠، ورسمياً ونهائياً في فبراير سنة ١٩٤٢. ولم تعد لي بعد ذلك بهذا الحزب وما سيخلفه بعد ذلك (حزب مصر الاشتراكي) أية علاقة كائنة ما كانت.

تقويم تجربتي مع مصر الفتاة

ولو سألني سائل: وما تقويمك لهذه التجربة مع مصر الفتاة؟ لقلت: إنَّ فيها جوانب ايجابية، وأخرى سلبية، والسلبية أكثر من الايجابية:

أمَّا من الناحية الايجابية فهي التعرُّف إلى بعض المشتغلين بالسياسة في مصر، مما ستتولد عنه صداقات او علاقات ودية؛ وتحقق الفرصة للكتابة والنشر في موضوعات أساسية؛ والاطلاع العملي على امكانات العمل السياسي في مصر.

أمَّا النواحي السلبية في هذه التجربة فعديدة:

ـ منها الشعور باليأس والإحباط فيما يتعلق بإمكان احداث تغيير جذري في الحياة السياسية في مصر. إنَّ ثَمَّ قوالب جامدة لا يمكن الخروج عنها، وإلاَّ لامتنع النجاح السياسي: ومن هذه القوالب الجامدة بنية المجتمع المصري، خصوصاً في الأرياف. ولهذا لم تفلح مصر الفتاة في اجتذاب أي واحد من أعيان الريف ذوي النفوذ في مناطقهم، بل ظلت محصورة في فئة من الشباب المثقف والقليل من أصحاب المهن الحرة المقيمين في المدن الكبرى. ـ ومنها أيضاً هذه الحقيقة الواقعة والتي لا مفرّ من أخذها بعين الاعتبار، وهي ان الناس بعامة انما يهمهم في المقام الأول تحقيق مصالحهم الشخصية المحض. فمَن يستطع تحقيقها يظفر بالأنصار، ومَن لا يملك شيئاً من النفوذ فلن يحفل به أحد. فما انصار الوفد إلاَّ المنتفعون بالوفد حين يجيء في الحكم، وما أنصار الأحرار الدستوريين إلا المنتفعون بهم حين يتولون السلطة. ولا يقتصر هذا على الاعيان، بل يشمل الطبقة الوسطى، بل وطبقة العمال: فهؤلاء وأولئك إنَّما يؤيّدون من يرفع رواتبهم إن كانوا موظفين، أو يمكن من نفوذهم في مناطقهم ان كانوا من الأعيان، او يسنّ لهم تشريعات لحمايتهم من أصحاب العمل إن كانوا من العمال، وهكذا. ومن هنا كان من المضحك الهزليّ أن يخطب أحمد حسين في أوائل سنة ١٩٦٩ زاعماً ان مصر الفتاة ستتولى الحكم بعد ثلاث سنوات! فعلى أي أساس بنى هذه النبوءة؟ لم يكن للحزب عضو واحد في مجلس النواب او الشيوخ. فكيف يصل إلى الحكم عن طريق نظام ديمقراطي؟! ولم يكن له في الجيش أنصار يقومون بانقلاب يأتي بحزبه إلى الحكم.

ـ ومنها انتفاء الثقة بكل مَن يتزعم حركة سياسية وطنية في مصر. وكفاني ما شاهدت من تقلبات أحمد حسين.

ـ ومنها حالة القلق النفسي العقيم المنبعث من الخوف من بطش السلطات

البوليسية دون أدنى سبب غير انتمائي إلى مصر الفتاة. ومن بلادة الشرطة في مصر انها إذا سجلت لشخص أنَّه ينتسب إلى جماعة ما، في وقت ما، فإنَّها تتصور أنَّه مستمر معها أبداً، مهما تغيّرت الأوضاع بالشخص ـ وكان لسان حالها يقول: لقد سجلنا ذات يوم أنَّك في حزب كذا، إذن أنت في هذا الحزب إلى الأبد. حتى لو كان هذا الحزب قد زال من الوجود منذ عشرات السنين. ولهذا لازمتني «تهمة انتسابي إلى مصر الفتاة» طوال حياتي، وصار صاحب السلطة ينبّش لي عن هذه «التهمة» كلما عنَّ له ايقاع الأذى بي، أو عند منعي من نيل حق من حقوقي. وعبثاً أقول لهم إنَّ هذا كان منذ ثلاثين سنة ـ كما حدث لي في سنة ١٩٦٥ ـ وان مصر الفتاة قد زالت من الوجود منذ ٢٣ عاماً ـ لكنّهم يصمُّون آذانهم ويستمرون في التهديد بها! ـ وبسبب ذلك كان يطلب القبض عليّ كلما حدث حادث سياسي خطير، مثل مصرع أحمد ماهر في ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥. ولولا تغيّر عنوان سكني لكانوا قبضوا عليَّ في تلك الليلة، إذ ذهبوا إلى عنواني القديم الذي كان عنواني يوم ان سجّلوني ضمن المنتسبين إلى مصر الفتاة. وقد مكّنني هذا الخطأ في العنوان من «الهروب» إلى الريف، إلى ان هدأت عاصفة الاعتقالات فعدتُ إلى القاهرة.

معرفتي بعزيز المصري

وكان من ثمار علاقتي بمصر الفتاة ان تعرّفت إلى اللواء (ثم الفريق) عزيز علي المصري باشا. ولا أذكر على وجه الدقة هل كان ذلك في دار مصر الفتاة، أو في منزله. وأرجح الفرض الثاني، وكان ذهابي إليه بصحبة محمد صبيح، وعبدالله صادق الذي كان ضابط بوليس وعلى علاقة وثيقة بعزيز المصري. وكان عزيز المصري يقيم في ڤلاً صغيرة تتوسط حديقة واسعة مساحتها حوالى أربعة عشر فدّاناً، وتقع بالقرب من ضاحية عين شمس، إحدى ضواحي القاهرة، وعلى خط السكة الحديدية الذي يبدأ من محطة كوبري الليمون بجوار محطة مصر ويستمر حتى ضاحية المرج، ولذلك كان يعرف «بخط المرج». وأظن أنَّ هذا اللقاء كان في أواخر سنة ١٩٣٨ او في أوائل سنة ١٩٣٩ على الأكثر. وكان عزيز المصري قد قرأ مقالاتي في «مصر الفتاة» عن النازية والفاشية. ولما كان هو معجباً بالألمان، ويحسن شيئاً من اللغة الألمانية، فقد انصب الحديث على الألمان وهتلر والثقافة الألمانية. وراح هو ـ كعادته دائماً ـ يتحدث عن دوره في حركة الاتحاد والترقي التي أطاحت بالسلطان عبد الحميد، وكان هو من بين الضباط الأتراك الذين قاموا

بالحركة، ومنهم أنور وطلعت ونيازي. وكان عزيز المصري يبالغ في الدور الذي قام به آنذاك ويتكلم عن أنور أو طلعت كما لو كان زميلاً له نصيب شبه مساوٍ لعزيز المصري في تلك الحركة!! وحين كنت أسأله: متى وفي أي مكان قام بالدور الذي يزعم انه قام به، كان يتفادى الرد ويعرج على دوره في الحرب الايطالية التركية في عامي ١٩١٢ ـ ١٩١٣، وكيف أرسله أنور وفتحي بك إلى برقة لتنظيم المقاومة ضد الايطاليين إلى ان وصل أنور إلى برقة واشتركا معاً في محاربة ايطاليا وهزيمتها في مواقع عديدة من برقة.

وتعددت اللقاءات بين عزيز باشا المصري وبيني أنا مع جماعة من إخواني، في منزله ذاك بالقرب من ضاحية عين شمس. وكان هو المتحدث الوحيد طوال الوقت، إلاّ ان يسأل أحدنا سؤالاً سريعاً: وقلت له ذات مرة: ولماذا لا يكتب مذكراته؟ فأجاب بأنّه كتب مذكرات عن حياته الأولى في الجيش التركي، وهي بالانجليزية، ويريد طبعها بالانجليزية في أمريكا.

وكنت قد قرأت كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» تأليف لورانس T.E. Laurence وقد أشار فيه إلى عزيز المصري. فسألته عما قاله لورانس عنه، وعن دور لورانس وحركة الشريف حسين للتخلص من سلطان تركيا. فلم يفدني بشيء واضح، بل ظلَّ على عادته يستطرد هنا وهناك، ويعود إلى التحدّث عن دوره في «حركة الاتحاد والترقي» وخلع السلطان عبد الحميد ـ وما إلى هذا من أمور صار يكررها في كل مقابلة.

لكنّي أنا وأصحابي الذين كانوا يلتقون به كنا معجبين به مع ذلك لأنَّه القائد المصري الوحيد الذي خاض معارك حربية، بينما لا يوجد في الجيش المصري كله ضابط ـ بأي رتبة كان ـ قد خاض غمار أي حرب.

ولما جاءت وزارة علي ماهر في ١١ أغسطس سنة ١٩٣٩ عُيِّن عزيز المصري رئيس أركان حرب الجيش المصري، ورقِّيَ إلى رتبة فريق.

ولما أعلنت انجلترة الحرب على المانيا في ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩، أعلن علي ماهر ان سياسة حكومته تقوم على «تجنيب مصر ويلات الحرب» واستمر على هذه السياسة حتى أُقيل من الوزارة في ٢٣ يونيو سنة ١٩٤٠ بتأثير ضغط الانجليز على الملك فاروق؛ وكان الانجليز مستائين من الموقف الحيادي الذي وقفه علي ماهر بتشجيع من الملك.

وكان من نتائج إخراج علي ماهر من الوزارة إخراج عزيز المصري من

الجيش وإحالته إلى التقاعد رغم انه لم يبلغ الخامسة والستين، وهي السن المقررة لتقاعد مَن هو في رتبة فريق.

وفي أثناء هذه المدة التي تولّى فيها عزيز المصري رئاسة أركان الحرب لم ألتقِ به.

ولكني استأنفت اللقاء به بعد إخراجه من الجيش.

وفي مايو سنة ١٩٤١ قام عزيز المصري بمغامرة فاشلة منذ البداية. فقد ركب من مطار ألماظة الحربي طيارة حربية يقودها الضابط الطيار حسين ذو الفقار صبري ويصحبه يوزباشي في سلاح المشاة هو عبد المنعم عبد الرؤوف. ولم تكد الطائرة تقلع من مطار ألماظة في منتصف الليل حتى سقطت بعد خمس دقائق فوق بستان موالح في مدينة طوخ التي تبعد عن القاهرة بحوالى عشرين كيلومتراً. ولأنَّ الطائرة صغيرة وحمولتها خفيفة فقد هوت على شجر البرتقال، مما حماها من السقوط والارتطام بالأرض. وخرج الثلاثة من الطائرة سالمين، واستقلوا سيارة اجرة إلى القاهرة. وفكّروا في ملجأ يلجأون إليه، فجاءوا إلى الجيزة، وكان عبد المنعم عبد الرؤوف ـ كما أخبرني فيما بعد ـ يعرف أنّي أسكن في شارع همدان بالجيزة، لكنه لا يعرف بالضبط أين يقع منزلي. فمضوا إلى منزل شوكت التوني المحامي عند طرف الجيزة المواجه لمحطة السكة الحديد. فاعتذر عن استقبالهم. فخطر ببال عزيز المصري اللجوء إلى منزل المثّال عبد القادر رزق، وكان يعرف المنزل جيداً لأنّه في الفترة الأخيرة كان يتردّد عليه كيما يصنع له عبد القادر رزق تمثالاً. فأحسن عبد القادر رزق استقبالهم، وقَبِلَ أن يؤويهم. ولم يكن في البيت أحد إلاَّ أخوه الطالب في قسم النحت بمدرسة الفنون الجميلة التي كان أخوه فيها مدرّساً في القسم الحر للنحت، ثم أختهما.

وأقام عزيز المصري وزميلاه في بيت عبد القادر رزق اثنين وعشرين يوماً، حتى فوجئوا بضابط القلم السياسي ابرهيم إمام يدخل عليهم! ويا لهول مفاجأة ابرهيم إمام هذا! ذلك لأنه جاء على أساس معلومات لديه بأنَّ أحمد حسين، زعيم مصر الفتاة الذي كان هارباً آنذاك ومطلوباً للاعتقال ـ يختبىء في هذا البيت. ففوجىء بغنيمة أخطر بكثير: إذ لم يجد أحمد حسين، وإنَّما وجد هؤلاء الثلاثة الذين حارت الشرطة آنذاك في العثور عليهم.

كيف استدلت الشرطة على منزل عبد القادر رزق بالذات، وهو لم يكن معروفاً بأي نشاط سياسي؟ الذي حدث هو ان الشرطة كانت تتعقب معلّم الألعاب الرياضية في وزارة المعارف أحمد مرزوق، لأنَّه كان ينتسب إلى مصر الفتاة وبسبب

التفاتاته وهو يسير في الشارع كان موضوع ارتياب: إذ من عادته وهو يمشي في الشارع ان يتلفت دائماً يمنة ويسرة ووراء كما لو كان شخصاً مطارداً من رجال الشرطة!! ولم يكن هذا حاله بالفعل، بل هي عادة ربما اكتسبها من مهنته: تعليم الجمباز (الألعاب السويدية).

وبهذه المناسبة أذكر عضواً آخر في مصر الفتاة آنذاك ـ ثم تقلبت به الأحوال فيما بعد حتى صار من الاخوان المسلمين، واعتقل بهذه البناية في أغسطس سنة ١٩٦٥، واستمر في الاعتقال طويلاً وكان قد تعود الاعتقال قبل ذلك مراراً منذ سنة ١٩٣٧، إذ كان القاسم المشترك في كل اعتقال سياسي بمناسبة أيّ حادث سياسي عنيف: في نوفمبر سنة ١٩٣٧ بمناسة حادث الاعتداء على (سيارة) النحاس في حي السيدة زينب، وفي فبراير ـ مارس ـ ابريل سنة ١٩٤٥ بمناسبة مصرع أحمد ماهر، وفي يناير ـ فبراير ـ مارس سنة ١٩٥٢ بمناسبة حريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، ثم في أغسطس سنة ١٩٦٥ بمناسبة الاعتقال الكبير للاخوان المسلمين في ذلك التاريخ. لقد كان جمال الشرقاوي، وهذا هو اسمه، وهو متخرج في كلية الزراعة ويدير اقطاعية من الاقطاعيات التي منحت لخريجي الزراعة في اوائل الأربعينات ـ أقول انه لكثرة خوفه من البوليس السياسي كان يتصور دائماً أنه مراقَب، وبلغ به هذا الشعور درجة لا سويَّة: فكان دائماً يتلفت يمنة ويسرة إلى الوراء، فإذا شاهد احدا ينظر اليه او يتابع السير في نفس الاتجاه ظنَّ انه مخبر بوليسي. وكنت اسير مرة معه في احد الشوارع، ولاحظت ان أحد إخوتي قادم سن ورائي، وكان طبيعياً ان يسير في نفس الاتجاه للحاق بي. فوجدتها فرصة للسخرية من جمال الشرقاوي ـ فقلت له: ألا تلاحظ هذا الشخص القادم؟ أراه يتتبعنا. فقال جمال: آه أنا أعرفه، إنَّه مخبر في القسم السياسي. فقلت له: أأنت متأكد من هذا؟ فقال: بكل تأكيد، لأنَّني شاهدته يراقبني من قبل عدة مرات، وهو من أخطر المراقبين. وكنت أنا أكتم ابتسامة في نفسي. وهنا وصل أخي، فصافحته بحرارة وقلت له: لماذا تراقب الأستاذ جمال الشرقاوي صديقي؟ فضحك مدهوشاً وقال: أراقبه؟ إنَّها أول مرة أشاهده! وما شأني به حتى أراقبه؟ وقدمت أخي إلى جمال الشرقاوي قائلاً: هذا أخي، وهو لم يرك في حياته، وهو طالب في كلية كذا. فأفاق جمال الشرقاوي من ذهول المفاجأة. وسرنا نحن الثلاثة مستغرقين في الضحك. ولما انصرف أخي قلت لجمال: ألست ترى أنك تعيش في أوهام ووسواس؟! أرجو ان تكون هذه الصدمة الكهربائية شافية لك من هذا الوسواس الخناس الذي يوسوس لك ان البوليس السياسي يتبعك في كل مكان!

وأعود إلى أحمد مرزوق، فأقول إنَّه كان يلتقي بعبد القادر رزق في جروبي أو غيره من المحلات العامة ليوصل إلى عزيز المصري بعض الحلوى أو المآكل المصنوعة في جروبي. وكان أحمد مرزوق قوي العلاقة مع عزيز المصري، ومع عبد القادر رزق معاً. ولهذا فإنَّ رزق أبلغ مرزوقاً بأنَّ عزيز المصري يختبىء في بيته. فوفاء من مرزوق لعزيز المصري كان يسهم في الانفاق على عزيز المصري وصاحبيه.

وكان مرزوق فعلاً مراقباً من قِبَل البوليس السياسي لعلاقته الوثيقة أيضاً بأحمد حسين. ولما كان البوليس قد فتَّش بيت مرزوق بحثاً عن أحمد حسين فلم يجد شيئاً، فإنَّه تعقّب مرزوقاً في جولاته، ورآه مع عبد القادر رزق عدة مرات. فافترض أنّه ربما يكون أحمد حسين مختبئاً في منزل عبد القادر رزق: فلهذا ذهب ابرهيم إمام إلى بيت عبد القادر رزق، وكانت المفاجأة التي ذكرناها.

قُبض إذن على عزيز المصري وصاحبيه، وأُودعوا سجن الأجانب ـ فيما أذكر ـ حوالى خمسة أشهر. ثم نقلوا من ثم إلى مكان أفضل، هو مبنى عسكري يبعد حوالى ٥٠٠ متر عن مستشفى الجيش في منشية البكري. وصار من المسموح به زيارتهم في أي وقت ولأية مدة.

وكان زميلي في الدراسة، الموظّف آنذاك في وزارة الخارجية عثمان عسل يذهب لزيارة حسين صبري على أساس ان هذا الأخير هو زوج بنت خالته، وكنت أنا قد التقيت بحسين صبري في بيت خالة عثمان عسل قبل ذلك الحادث بشهرين وسألني آنذاك عن رأيي في عزيز المصري ولم يطل بنا الحديث عنه، ولم يظهر من كلامه معي أنَّه يعرفه شخصياً، ناهيك بأن يكون بينه وبيني أي تدبيرا فكنت أذهب بعد الظهر من كل يوم ثلاثاء الى ذلك المكان العسكري الذي اعتقل فيه الثلاثة. وأبدأ بزيارة حسين صبري، وأُقدّم له ما يطلب من كتب، ثم أثني بزيارة عبد المنعم عبد الرؤوف، لأنَّه كان زميلاً لي في المدرسة السعيدية حتى حصولنا على البكالوريا، وكانت بيننا صداقة حميمة، ومن ثم كان يعرف الشارع الذي أسكنه في الجيزة دون ان يحقق تماماً أين يقع منزلي منه لأنّه لم يأتني إلاَّ مرة واحدة ويصحبتي. ثم أذهب ثالثاً إلى عزيز المصري، فأتحادث معه بعض الوقت. ثم أُغادر المكان أنا وزميلي عثمان عسل حوالى السابعة مساءً.

وحضرت الجلسة الأولى ـ وربما الثانية ـ من محاكمة عزيز المصري وزميليه أمام محكمة عسكرية. وقد ترافع عن عزيز المصري مصطفى الشوربجي ـ وزير العدل السابق، والمحامي ـ فطعن في قانونية قانون الأحكام العسكرية الذي

بموجبه يحكم هؤلاء الثلاثة، كما طعن في تشكيل المحكمة العسكرية على أساس انه لا يجوز محاكمة ضابط بواسطة ضابط أقل منه رتبة: وعزيز المصري كان فريقاً، بينما كان رئيس المحكمة برتبة لواء. وبواسطة هذه الدفوع الشكلية، تأجّلت المحاكمة وقتاً طويلاً، إلى ان جاءت حادثة الوفد في فبراير سنة ١٩٤٢، فقام علي الشمسي باشا ـ وهو ذو الحظوة عند الانجليز، وعضو قديم في الوفد ـ بالتوسط في هذه المسألة لأنّه كان خال حسين صبري. وانتهى الأمر بإغلاق ملف القضية، والاكتفاء بتسريح حسين صبري وعبد المنعم عبد الرؤوف من الجيش.

إلى أين كان عزيز المصري يريد الذهاب؟

تفاوتت الأقوال، ولم أستطع أن أستخلص من عزيز المصري أيَّ اعتراف في هذا الشأن؛ أمّا حسين صبري فاكتفى بأن قال لي: إنَّ عزيز المصري طلب منه ان يحمله إلى بيروت، فقبلت القيام بهذه المهمة، وكنت سأعود فور وصولنا إلى بيروت ـ إلى القاهرة، دون ان يشعر أحد في الجيش بما حدث.

والتفسير الشائع هو ان عزيز المصري كان يريد التوجه إلى بيروت، ومن هناك إلى العراق للاشتراك في حركة رشيد عالي الكيلاني.

وكان ما يسمَّى بـ «المربع الذهبي» في الجيش العراقي، وأبرز شخصياته القائمقام صلاح صباغ، قد قام في ليلة ١ إلى ٢ أبريل سنة ١٩٤١ بمحاصرة قصر الوصي على عرش بغداد، عبد الإله، وإرغام رئيس الوزراء آنئذ ـ طه الهاشمي ـ على الاستقالة؛ فهرب الوصي إلى القاعدة البريطانية في الحبّانية، ثم إلى البصرة، محاولاً إثارة بعض فرق الجيش للمقاومة. فلم يفلح، وفرَّ إلى شرقي الأردن حيث لحق به بعض الساسة المناصرين له، وعلى رأسهم نوري السعيد. فأعلن رئيس اركان الجيش، بإيعاز من «المربع الذهبي» ان عبد الإله خائن. ودعا رشيد عالي الكيلاني إلى تشكيل الوزارة (وهذه رابع مرة يشكل فيها الوزارة). وقرَّر البرلمان عزل الوصي عبد الإله، وإحلال الشريف شرف محله في الوصاية على العرش (إذ لم يكن فيصل الثاني قد بلغ سن الرشد بعد). وتوالت الاصطدامات بين حكومة رشيد عالي ـ ومن ورائها قادة الجيش ـ وبين الانجليز. وقامت معارك حربية في قاعدة الحبّانية بين فرقة من الجيش العراقي بقيادة البكباشي فهمي سعيد، وهو أحد رجال «المربع الذهبي»؛ لكنه اضطر إلى الانسحاب في ٦ مايو سنة ١٩٤١. وسقطت الرطبة، بقيادة فوزي القاوقجي، في ١١ مايو. ثم وصل الجيش الانجليزي إلى مشارف بغداد في ٢٩ مايو. وفي نفس اليوم هرب رشيد عالي ومعظم أنصاره إلى ايران. وقام أرشد العمري، رئيس لجنة الأمن الداخلي، فوقّع

هدنة مع الانجليز بمقتضاها توقف القتال، وعادت القوات العراقية إلى ثكناتها. وحاول رشيد عالي دون جدوى مساعدة السعوديين. وكان السبب الأكبر في فشل حركة رشيد عالي وزملائه هو عدم التنسيق مع المانيا التي كانت آنذاك مشغولة جداً بالإعداد لغزو روسيا، فنصحت العراق ـ بواسطة قنصلها جروبا Grobba، بعدم الاصطدام مع الانجليز، وان الفرصة لم تسنح بعد كي تقوم ألمانيا بمساندة الجيش العراقي. لهذا لم تستطع المانيا ان ترسل إلاَّ عدداً قليلاً من الطائرات الحربية وبعض الأسلحة قبيل انهيار مقاومة الجيش العراقي أمام القوات البريطانية بوقت قليل. فإخفاق حركة رشيد عالي إنَّما يرجع إلى تسرُّع القادة العراقيين في مهاجمة الانجليز في قاعدة الحبّانية، وإلى عدم تنسيقهم مع الألمان.

ولا أدري هل كان عزيز المصري على اتصال بالقائمين بحركة رشيد عالي بحيث يكونون هم الذين دعوه، أو قام هو بهذه العملية من تلقاء نفسه! لم تكشف الوثائق عما يلقي الضوء على هذه النقطة بل ليس هناك أي دليل يدل على وجهة عزيز المصري بعد الوصول إلى بيروت.

أغلب الظن عندي ان عزيز المصري قام بذلك من تلقاء نفسه، تراوده أحلامه القديمة لما أن أنشأ جمعية «القحطانية» في سنة ١٩٠٩ في استانبول وانضم إليها عدد من الضباط ـ الذين من أصل عربي ـ في الجيش العثماني، ثم خصوصاً لما انشأ بعد ذلك جمعية «العهد» في سنة ١٩١٤ وكانت تتألف من ضباط في الجيش، بعكس الجمعية الأولى «القحطانية» التي كانت تتألف من عسكريين ومدنيين. وكان الهدف من كلتا الجمعيتين تحرير البلاد العربية من سلطان تركيا. وبسبب جمعية «العهد» هذه قُبض على عزيز المصري، وحُوكم محاكمة سرية، وحُكم عليه بالاعدام. لكن الحكم لم ينفذ، وعاد عزيز المصري إلى مصر. لكن جمعية «العهد» نمت بعد ذلك، وتكوّنت لها فروع في بغداد والموصل. وكان من أبرز أعضاء جمعية «العهد» هذه نوري السعيد. (يمكن للقارىء مراجعة بحث لمجيد خدوري بعنوان: «عزيز المصري والقومية العربية»).

والغريب في أمره انني كنت حين أطلب منه ان يذكر أنباء محددة عن جمعية «العهد» هذه ودوره فيها كان يكتفي بالقول بأنَّه ذكر ذلك في «مذكراته». فأسأله: ولكن أين هذه «المذكرات» فيقول في أول معرفتي به إنه بسبيل تنقيحها واعدادها للطبع في امريكا. فلما سألته عن هذه «المذكرات» بعد الافراج عنه في قضية الطائرة الفاشلة وطي القضية كلها، كان يقول إنَّ ابرهيم إمام ـ وكيل القلم السياسي

ـ استولى على هذه «المذكرات» أثناء تفتيش بيته في مايو سنة ١٩٤١ غداة محاولته تلك الفاشلة. وهكذا استمر يكرّر هذا القول حتى آخر عمره. ويبدو لي انه لم يكتب مذكرات، بل كان يتمنى ذلك، وكان يحدّثنا عن أمنيته هذه كما لو كانت واقعة انجزت بالفعل.

وفي خصال عزيز المصري ما يجعله لا يستمر في عمل إن بدأه أو كُلِّف به: فقد تولَّى قيادة الفيلق العربي الذي بعثه «الشريف حسين ـ شريف مكة ـ إلى المدينة لاخضاع الحامية التركية التي ظلّت تقاوم طويلاً وبحزم. لكنه عُزِل بعد قليل من قيادته هذا الفيلق، وتولَّى مكانه جعفر العسكري، وهو قائد عراقي كان يعمل أولاً في الجيش التركي ثم انضم إلى حركة الشريف حسين ضد تركيا.

كذلك اختاره الملك فؤاد الأول في سنة ١٩٣٥ ليكون ضمن المشرفين على تربية وتعليم ولي عهده فاروق في انجلترة. فلم يلبث ان اختلف مع هؤلاء المشرفين وخصوصاً مع اللواء عمر فتحي كبير الياوران، فعاد إلى مصر بعد قليل. ومع ذلك كان عزيز المصري يقول لنا إنَّ فاروقاً ـ وقد صار ملكاً ـ يكنّ له كل احترام ويجلس أمامه مجلس «الولد المهذب». وكان يعتز ايضاً بأنَّ الزوجة الأولى لفاروق ـ فريدة ذو الفقار ـ من أقربائه.

وحتى بعد مرور أكثر من عشر سنوات على حادث الطائرة الفاشل لم يكن يرضى أن يفصح عمّا انتواه آنذاك بهذه السفرة، رغم ان كل ظروف الحادث قد زالت ولم يعد لها أي أثر حتى يخشى من الافصاح عن جليَّة الأمر. أتراه كان خجلانَ من هذا الاخفاق الشنيع؟!

وهكذا لم أستطع ان أستخلص من عزيز المصري، رغم تعدد لقاءاتي؛ وطولها أحياناً لأكثر من خمس ساعات ـ أية معلومات تفيد في التأريخ لحياته وأعماله، لا قبل سنة ١٩٣٩ لمّا تعرّفت به، ولا بعدها إلاَّ ما هو معروف عند سائر مَن يختلطون به.

على ان مقابلاتي معه قد تضاءلت شيئاً فشيئاً ابتداء من سنة ١٩٤٥، ولم أره في عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩ لأنّي كنت في لبنان وفرنسا، ولما عدت في أواخر سنة ١٩٤٩ إلى القاهرة، كنت لا ألقاه إلاَّ في مقهى جروبي وبالصدفة، وذلك في أعوام ١٩٥٠ إلى ١٩٥٢.

فلما قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ بدأ عزيز المصري يستشعر نوعاً من الاغتباط، لأنَّ القائمين بالثورة أظهروا له نوعاً من التقدير ـ لمصلحتهم هم طبعاً

كي يكون لهم بعض الأنصار ذوي السمعة الوطنية والكارهين لكبار ضباط الجيش في أواخر عهد فاروق. ورأى القائمون على الثورة ان من الأفضل لهم ان يستريحوا منه ـ إذ كانوا يخشونه بعض الخشية ـ فبعثوه سفيراً إلى موسكو. وسلّطوا عليه في الوقت نفسه من يحصي له حركاته في موسكو، فعيّنوا معه مستشاراً (او سكرتيراً أول، لا أدري) مدرساً في كلية الطب وهو مراد غالب، وكان صديقاً لعلي صبري؛ وتولّى مراد غالب (وسيصير فيما بعد وزيراً للخارجية!) مراقبة عزيز المصري وكتابة تقارير عنه أدت إلى استدعاء عزيز المصري بعد فترة قصيرة، وإخراجه من عمله بوزارة الخارجية. ماذا كتب مراد غالب في تقاريره عن عزيز المصري ـ هذا ما تضاربت حوله الشائعات. وعسى ان تكشف وثائق المخابرات المصرية عن هذه التقارير، إن كانت قد حفظت، وهو ما نشك فيه.

ولم أر عزيز المصري بعد عودته من موسكو إلاّ مرة أو مرتين، وفي محل «جروبي». ولم أجد فائدة، ولا مناسبة، لسؤاله عن أسباب عودته.

وحسبي هذا من الكلام عن معرفتي به.

الكتاب الرابع

ـ ١ ـ
بداية الانتاج العلمي

وأدع هذا الفصل الأول من نشاطي السياسي، لأتناول نشاطي في الانتاج العلمي.

قلت إنَّني عُيِّنت معيداً في قسم الفلسفة بكلية الآداب في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٨، وخلال العام الجامعي الأول ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ كنت أحضر دروس الماجستير عند لالاند وبيرلو، كما كنت أُعيد دروس لالاند على طلاب الليسانس، وأشرح لهم «مقال في المنهج» لديكارت.

لكنِّي في الوقت نفسه وضعت خطة للانتاج العلمي فيما أستقبل من عمري. ورسمت هذه الخطة على أساس أن تسير في ثلاثة اتجاهات: الأول هو المؤلفات المبتكرة التي أُعبّر فيها عن مذهبي في الفلسفة؛ والثاني هو عرض الفكر الأوروبي على القارىء العربي؛ والثالث هو الاسهام في دراسة الفلسفة الاسلامية. على ان يتم العمل في هذه الاتجاهات الثلاثة إمَّا معاً، وإمَّا على التعاقب. هكذا الشأن بالنسبة إلى الفلسفة، وهكذا الشأن أيضاً ـ ولكن بدرجة أقل كثيراً ـ بالنسبة إلى الأدب بعامة.

والآن، وقد تجاوزت كتبي المائة والعشرين أستطيع أن أقول بكل فخر واعتزاز إنَّني حققت هذه الخطة تحقيقاً كاملاً.

وكان أول انتاج لي هو كتاب «نيتشه» الذي ظهر في اكتوبر سنة ١٩٣٩ عند الناشر: مكتبة النهضة المصرية (١٥ شارع المدابغ آنذاك). ويدخل في الاتجاه الثاني، وهو تقديم الفكر الأوروبي إلى القارىء العربي، ولهذا وضعته داخل

سلسلة سميتها: «خلاصة الفكر الأوروبي». وقد حددت في تصديره ان الهدف من هذه السلسلة هو تقديم خلاصة الفكر الأوروبي إلى القارىء العربي، والدافع إلى ذلك هو إحداث ثورة روحية في الفكر العربي. إذ وجدت ان السبيل إلى ذلك هو اولاً الاطلاع على الفكر الأوروبي الذي استطاع أن يحقق تقدماً عظيماً في الفكر الانساني فيما تخلّف العقل العربي ـ الاسلامي عن متابعة تطور الفكر الانساني منذ القرن الثاني عشر. وكما ان معرفة التراث اليوناني هي التي أوجدت نهضة الفكر الاسلامي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وما تلاه، فإني رأيت ان معرفة الفكر الأوروبي الحديث والمعاصر هي الكفيلة بإحداث نهضة في الفكر العربي والاسلامي. كما قلت في ذلك التصدير انه لا جدوى من العودة إلى القيم القديمة التي سادت الفكر الاسلامي في القرون الثلاثة الأولى منه، وإنّما الدواء الناجع لتخلّف العرب الفكري هو الاستفادة من الفكر الأوروبي، ويكون ذلك باستيعابه كله والأخذ بالقيم التي وضع أصولها ما دامت تقوم على أساس عقلي انساني عام.

وكان في مسودة الكتاب فصل بعنوان: «أصنام السياسة». فلما قامت الحرب في ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ وفُرضت في مصر الأحكام العرفية والرقابة، رأيت حذف هذا الفصل أثناء الطبع، ومزّقته، لهذا لم أنشره في الطبعات التالية لانتهاء الحرب.

وقد راج الكتاب رواجاً عظيماً حتى نفدت طبعته الأولى (٢٠٠٠ نسخة) بعد عامين اثنين، رغم انه أول انتاج لي. وكتب عنه الشيخ مصطفى عبد الرازق مقالاً في مجلة «السياسة الأسبوعية»، وكذلك كتب عنه د. ابرهيم مدكور مقالاً في مجلة «الثقافة».

وأعتقد ان السرّ في رواج هذا الكتاب هو الحرارة والجمال في أسلوبه، والحماسة في عرض آراء نيتشه وهي بطبعها مليئة بالاثارة والتشويق، وملاءمة الظروف آنذاك ـ ظروف الانتصارات الكاسحة للجيش الألماني ـ لقبول الفكر الألماني الرامي إلى القوة والحرب والانتصار.

وقد طبع الكتاب بعد ذلك خمس مرات، والطبعة الخامسة توليت اعادة طبعها بالأوفست على يد الناشرين اللصوص في الكويت ولبنان، وهذه الطبعة الخامسة قد طُبعت في القاهرة سنة ١٩٦٥.

ومن الفئات التي أقبلت بشدة على قراءة هذا الكتاب فئة ضباط الجيش الذين كانوا ذوي تطلعات سياسية، ومنهم جمال عبد الناصر وأنور السادات كما صرّحا

مراراً. لكن اشد هؤلاء الضباط حماسة للكتاب كان الضابط البطل أحمد عبد العزيز، الذي استشهد في فلسطين سنة ١٩٤٨، وكان القائد المظفّر الوحيد في تلك الحرب. وكان آنذاك مدرساً في كلية اركان الحرب، وقد أخبرني انه فرض على طلابه آنذاك قراءة كتابي «نيتشه». وقد أوصى بأن يكتب على قبره هذه العبارة التي كتبها نيتشه وأوردتها في كتابي: «لكي تجني من الوجود أسمى ما فيه عِشْ في خطر!». وفي اللقاء الوحيد بينه وبيني في بيته بمصر الجديدة، راح يردّد لي عن ظهر قلب كثيراً من الجمل المنحوتة الحماسية في كتابي.

وبعد ظهور كتابي «نيتشه» بستة أشهر، صدر كتابي الثاني وهو: «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية» ويحتوي على جملة من الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع والتي كتبها من كبار المستشرقين، وهم: كارل هينرش بكر Becker، وكرلو ألفونسو نلّينو Nallino، واجنتس جولد تسيهر Goldziher، وماكس مايرهوف Meyerhuf وپاول كراوس Kraus، وكلها بالألمانية، ما عدا ما كتبه نلّينو. وقدمت لهذه الترجمات بتصدير مهم عن خصائص الحضارة الاسلامية. وهذا الكتاب يندرج في الاتجاه الثالث - أي الدراسات الاسلامية، ولهذا كان هو الأول في السلسلة الثانية من كتبي، وعنوانها: «دراسات إسلامية».

وفضلاً عمّا في عنوان الكتاب من دلالة على اتجاه رئيسي في انتاجي طوال حياتي، وهي دراسة التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، وتحقيق كل ما بقي لنا من ترجمات عربية قديمة للتراث اليوناني في الفلسفة - فإنّني أردت أيضاً أن أطلع الباحثين العرب على نماذج من الدراسات العلمية الدقيقة التي قام بها المستشرقون في هذا الميدان، حتى يأتوا بمنهجها فيما يتبادلون من موضوعات في التراث الاسلامي، كيما يطرحوا الكتابات الخطابية غير العلمية ولا المنهجية التي دأبوا عليها في هذا الباب.

- ٢ -
رسالة الماجستير

وفي الوقت نفسه كنت أعدّ رسالة الماجستير، وعنوانها: «مشكلة الموت في الفلسفة المعاصرة»، وهي باللغة الفرنسية. وتدخل في الاتجاه الأول، أي عرض مذهبي في الفلسفة. وثلاثة أرباع الرسالة يتناول مشكلة الموت في الفلسفة الوجودية، وبخاصة عند مارتن هيدجر Haidegger (١٨٨٩ - ١٩٧٦). إذ كنت

أرى ان مشكلة الوجود لا يمكن ايضاحها إلاّ ابتداءً من واقعة الموت. ولهذا انتهيت في الفصل الأخير منها إلى عرض مخطط لفلسفة تتخذ نقطة اشعاعها من واقعة الموت، فلسفة يمكن تقسيمها إلى انطولوجيا الموت ـ أخلاقية الموت ـ اكسپولوجيا (فلسفة المعايير والقيم) الموت. وقد طبعت هذه الرسالة طبعة أنيقة في مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة، في سنة ١٩٦٥، ضمن مطبوعات كلية الآداب بجامعة عين شمس.

وكما أشرت من قبل، كان المشرف الأول على هذه الرسالة هو الأستاذ أندريه لالاند؛ لكنه سافر في مارس سنة ١٩٤٠ قبل اتمام الرسالة، وجاء من بعده الأستاذ الكساندر كويريه Koyré فتابع الاشراف على الرسالة. وفرغت من كتابتها في شهر ديسمبر سنة ١٩٤٠، ووافق كويريه على كتابتها على الآلة الكاتبة متهيئاً لمناقشتها. وكتب عنها تقريراً كله ثناء على الرسالة وتمجيد لقيمتها وأصالتها.

وقدّم التقرير إلى عميد الكلية آنذاك ـ أحمد أمين ـ من أجل عرض الأمر على مجلس الكلية لتحديد موعد للمناقشة.

وكان أحمد أمين رجلاً حقوداً ضيّق الأفق تأكل قلبه الغيرة من كل متفوق، ومن كل متقن للغات أجنبية لأنّه كان لا يعرف لغة أجنبية فيما عدا قشوراً تافهة من أوليات اللغة الانجليزية. وكان يسعى للتعويض عن عجزه هذا بانتحال أعمال الآخرين، خصوصاً الناشئة المتطلعون إلى الشهرة بالتسلق على جذوع الشخصيات ذات الشهرة أو النفوذ. وقد حاول ان يصنع معي هذا الصنيع، لما ان قدمت إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ وكان هو رئيسها ـ أصول كتابي: «التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية» في أواخر سنة ١٩٣٩. فلم تفلح محاولته هذه وصَدَدْتُهُ منذ اللحظة الأولى. إذ قلت في نفسي: وما شأن هذا الرجل بكتاب مؤلف من دراسات بالألمانية والايطالية، وفي موضوع بعيد عنه؟! وكيف يمكن ان أبرِّر وجود اسمه إلى جانب اسمي على كتابي هذا؟! إنها منه صفاقة ما بعدها صفاقة. ونشرت الكتاب عند ناشري الأول: مكتبة النهضة المصرية. ولما صدر قدمت إليه نسخة، ولسان حالي يقول له: على الرغم منك صَدَر الكتاب! وهذه واقعة سأصادف العديد من أمثالها طوال حياتي في الانتاج والنشر.

فتذرع أحمد أمين، لما ان قدّم إليه تقرير الأستاذ كويريه، بمسألة شكلية تافهة، وهي انه لم يتم تسجيل موضوع رسالتي في الموعد القانوني، وهو عام قبل المناقشة! يا لسخافة التفكير، وتفاهة الادراك! فهذا أمر لا قيمة له، ما دام قد

مضى على حصولي على الليسانس عامان، وهو الشرط الأساسي في مناقشة رسالة الماجستير.

فتمسَّكَ أحمد أمين بهذه النقطة الشكلية التافهة وهي تسجيل عنوان الرسالة قبل عام من مناقشتها ووجد فيها ضالّته للكيد بي وتحقيق حقده الدفين، فعرض هذه المسألة على مجلس الكلية، ولم يكن الدكتور طه حسين حاضراً، وحمل المجلس على أخذ قرار بتأجيل المناقشة عاماً! وما أكثر الخُشب المسنّدة في مجالس الكليات حين لا يتعلق الأمر بمصالحهم الشخصية!

فلما علمت بهذا القرار ذهبت إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ وكان وزيراً للأوقاف آنذاك ـ وأخبرته بما حدث. فقام الشيخ مصطفى بالتوسط في الأمر: فكلّم أحمد أمين، لكن هذا الرجل الحقود لم يستجب. فكلّم الدكتور طه حسين بوصفه عضواً في مجلس الكلية؛ فتعهّد الدكتور طه بإثارة الموضوع في الجلسة القادمة لمجلس الكلية وقال انه سيحضر لهذا الغرض وحده. وانعقدت الجلسة التالية، وتحفّز الحقد المتأجج في صدر أحمد أمين، فأثار مسألة: مَن يوافق على اعادة النظر في الموضوع؟ فانقسم المجلس إلى نصفين بالضبط: نصف موافق، ونصف غير موافق كان منه أحمد أمين رئيس الجلسة. وما دام من المقرر أنّه عند تساوي الأصوات يرجّح الجانب الذي فيه رئيس الجلسة، فقد رجح قرار عدم الموافقة على اعادة النظر في الموضوع. وانفض المجلس، وخرج دكتور طه حسين مغضباً ساخطاً على هذا التصرُّف الدنيء من أحمد أمين. وكنت أنا أمام قاعة«مجلس الكلية» في تلك اللحظة انا ود. محمد مندور، فثارت ثائرتي في وجه مَن توسمت أنّهم كانوا من المعارضين في اعادة النظر في الموضوع، وساعدني في ذلك محمد مندور. وعلا الصياح بيننا وبين تلك «الخشب المسنّدة» المتملقة لأحمد أمين، فخرج أحمد أمين من مكتب العميد وجرى شجار بيننا عنيف.

لقد بيّن د. طه لأعضاء المجلس أنَّ الذي يدعو إلى عدم الالتفات إلى هذه النقطة الشكلية التافهة هو ان الأستاذ كويريه سيغادر مصر في نهاية هذا العام الدراسي سنة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١، وهو المشرف على الرسالة، وهو حريص على أن يتولّى مناقشتها لأنها عملت معه. لكن أنّى لمثل هذه الحجة المبالغة أن تفعل في عقول (إن كان لهم عقول) تلك «الخُشب المسنّدة» من أعضاء مجلس الكلية؟! وكان كويريه قد غضب غضباً شديداً لهذا التصرّف من العميد، وأخبر د. طه حسين باستيائه الشديد من هذا الصنيع الوضيع، الذي لم يصدر عن أية مراعاة لمصلحة علمية وأذكر أنّه قال لي، حيث حدثته في الأمر؛ قال باسماً ساخراً: هذا جزاؤك،

لأنّك ألّفت كتباً ونشرتها! الا فلتَعْلَمْ ان كل كتاب تصدرُهُ هو بمثابة خنجر في قلوب الحاسدين والحاقدين». ـ وهذه كلمة حكيمة جداً، طالما عرفت صدقها في كل مرة أصدرت فيها كتاباً، في طول حياتي العلمية. لكن ذلك لم يزدني دائماً إلا إيماناً برسالتي العلمية، وحرصاً على الاستمرار في الانتاج، ولسان حالي في كل مرة هو: موتوا بغيظكم أيّها الحاقدون!

ثم تمت مناقشة الرسالة في شهر نوفمبر سنة ١٩٤١، وحصلت على الماجستير بتقدير ممتاز. وكان أعضاء اللجنة هم: الشيخ مصطفى عبد الرازق، ود. طه حسين، ود. ابرهيم مدكور. ودارت المناقشة بالفرنسية والعربية. وكنت قد أعددت ملخصاً بالعربية هو الذي ألقيته ـ دون قراءة من ورق ـ عند بدء المناقشة.

ونشرت جريدة «الاهرام» خبراً مفصلاً عن المناقشة في اليوم التالي.

ولهذا السبب جاءتني رسائل عديدة من قرّاء كلهم في سن كبيرة، إذ صارت مشكلة «الموت» تشغلهم كل الشغل؛ وفيها يسألونني: هل وجدت حلاً لهذه المشكلة؟!

ـ ٣ ـ
التدريس في كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن)

وفي السنة الثانية لتعييني معيداً، أي في العام الجامعي ١٩٣٩/ ١٩٤٠، قمت بتدريس ثلاث مواد هي: تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس حتى أفلاطون (بما في ذلك أفلاطون) ـ مصطلحات فلسفية ـ نصوص فلسفية باللغة الفرنسية. وهي المواد الفلسفية التي كان يدرسها طلبة قسم الفلسفة في السنة الأولى، إذ صار تخصُّصُ الطلاب في أقسامهم يتم ابتداء من دخولهم الكلية مباشرة، لا بعد سنة عامة مشتركة كما كانت عليه الحال من قبل.

وقد حدث في القسم في ذلك العام الجامعي أمرٌ جديد، هو عودة المبعوثين إلى فرنسا، عودتهم إلى مصر، دون ان يحصل أي واحد منهم على الدكتوراه (باستثناء يوسف مراد الذي عاد متأخراً في مارس سنة ١٩٤٠) رغم قضائهم في بعثتهم عشر أو تسع سنوات!! محمود الخضيري ونجيب بلدي عبد العزيز عزت بقوا عشر سنوات، وعثمان أمين بقي تسع سنوات. وكانت الحال نفس الحال

بالنسبة إلى مبعوثي الأقسام الأخرى: محمد مندور وعلي حافظ (قسم اللغة العربية) والشحات أيوب، وعبد الهادي شعيره (قسم التاريخ)، الخ الخ. ماذا فعلوا إذن طوال هذه السنوات العشر او التسع) بعضهم حصل على الليسانس من جديد ـ وكان قد حصل عليها في مصر سنة ١٩٢٩ أو ١٩٣٠ ـ مثل محمود الخضيري ونجيب بلدي وعثمان أمين؛ وبعضهم لم يحصل إلاَّ على رُبْع ليسانس ـ أي شهادة واحدة من الشهادات الأربع التي تؤلّف الليسانس ـ مثل محمد مندور (شهادة في اللغة اليونانية) وعلي حافظ (شهادة في اللغة اللاتينية)!

وهكذا كانت البعثات الأولى التي أرسلتها كلية الآداب إلى فرنسا مخفقة كل الاخفاق. ما السبب في ذلك؟ ليست اللغة الفرنسية هي السبب، فقد كان المتخرجون في قسم الفلسفة يتلقون معظم دروسهم بالفرنسية، وبعضهم ـ مثل نجيب بلدي ويوسف مراد ـ تعدّ اللغة الفرنسية هي لغته الأولى.

إنّما كان السبب هو قلة الذكاء المقرونة بالكسل وعدم الرغبة في العلم والتحصيل. وتقع مسئولية إيفادهم على عاتق مَن لم يحسنوا اختيار الموفدين في البعثات؛ ومع الأسف البالغ ان سوء الاختيار سيكون هو الطابع العام لكل مَن سيوفدون بعد ذلك في بعثات إلى الخارج، على الأقل في قسم الفلسفة بخاصة، وكلية الآداب بعامة. وحتى الذين سيحصلون على الدكتوراه لن يجدوا ناشراً ينشر لهم رسائلهم، لأنَّ هذه الرسائل قليلة القيمة.

وبعض الذين ذكرناهم بدأوا بعد عودتهم في تحضير رسائل دكتوراه وحصلوا عليها، مثل محمد مندور وعثمان أمين وعبد العزيز عزت، وبعضهم لم يحصلوا على دكتوراه أبداً مثل محمود الخضيري والشحات أيوب، والبعض الثالث عاد إلى فرنسا وحصل على الدكتوراه في سنة ١٩٤٥ (نجيب بلدي) وفي سنة ١٩٤٨ (عبد الهادي شعيره)، أي بعد ١٦ و١٩ سنة من تخرّجهم!

وقد سافر بعد هذه الطبقة، طبقة ثانية لم يحصلوا على الليسانس من فرنسا، وانما حصلوا على الدكتوراه بعد عشر سنوات (محمد ثابت الفندي)، أو لم يحصلوا حتى على ما يعادل الدكتوراه، بل حصلوا على الشهادة الجامعية الأولى، وتسمى D. Phil وهي تعادل الليسانس (مثل محمد عبد الهادي أبو ريدة). وأولئك الذين عادوا دون دكتوراه (وهي حالهم جميعاً ما عدا يوسف مراد) عيّنوا معيدين في الدرجة السادسة. فلهذا لم يكن يشاهد عليهم إلاَّ المرارة والسخط والإحباط. وبدلاً من ان يلوموا أنفسهم على ما فرّطوا في جنب العلم، كانوا موغري الصدور على الآخرين ممن بقوا في مصر واجتهدوا في

تحصيل الدرجات العلمية العالية. لهذا كان جوّ القائمين بالتدريس في كلية الآداب جوًّا مسموماً خانقاً تكثر فيه الحزازات والوشايات والمهاترات والمؤامرات.

لهذا رأيت ان الأمثل هو ان أسلك طريقي غير عابىء بأحد، متخذاً من الترفّع بل والازدراء جهاز دفاع فعّالاً في هذا المحيط الوبيل. وجعلت قاعدة سلوكي في الحياة هي:

امتلىء «ثقة بنفسك، وازدراء» للحاقدين

لقد كان الجو في كلية الآداب بين أعضاء هيئة التدريس فاسداً للغاية وخير وصف له هو عبارة طه حسين: «لا يعملون، ويؤذيهم ان يعمل الناس». لم يكن سلاحهم في التنافس العلم والانتاج العلمي، بل الدس والوقيعة والوشاية، والتزلّف إلى ذوي النفوذ داخل الجامعة وخارجها؛ فتحوّلت هيئة التدريس إلى عش للأفاعي، ينهش بعضها بعضاً، ويؤرّث الخصومة بينهم عمداء لم يصلوا إلى هذا المنصب بالعلم او الكفاية الادارية الجامعية، بل بالصلات مع مَن في الحكم (مثل أحمد أمين) أو العلاقات الحزبية الدنيئة (حسن ابرهيم حسن)، أو الدجل الديني والسياسي (عبد الوهاب عزّام)، أو الدسائس الخسيسة (زكي محمد حسن).

وزاد من حدة الخصومة بين أعضاء هيئة التدريس قلة الدرجات المالية المعروضة وكونها مشاعاً بين أعضاء هيئة التدريس في جميع الأقسام على السواء، فكان يحدث احياناً ان يتنافس عشرون عضواً من مختلف الأقسام على درجتين لوظيفة أستاذ مساعد في كل الأقسام. وهنا يكون الفصل في أيدي مَن لا ضمير لهم ولا ذمّة ممن يتملقون العميد الذي يتملق بدوره مَن هو أعلى نفوذاً. فكان لا ينال الدرجات الشاغرة إلاّ مَن هم أخسّ تملقاً وأدنى درجة في العلم وأشد عجزاً عن الانتاج. ووصلت النذالة ببعض هؤلاء العملاء حداً جعلته يهدر الشروط القانونية للتعيين في وظائف استاذ مساعد وأستاذ. وهو ما حدث ضدّي لأحد أساطين التملق والنفاق، فاضطررت إلى رفع قضية في مجلس الدولة، فأصدر حكماً لصالحي في يونيو سنة ١٩٥٠ بأنَّ حكم بالغاء ترقية ذلك المدرس إلى أستاذ مساعد.

كيف الخلاص من هذا المحيط المليء بالشرور والأشرار؟

لم يكن أمامي إلاّ الابتعاد عنه، متى ما تهيأت الفرصة لذلك.

وتهيأت الفرصة للمرة الأولى في نوفمبر سنة ١٩٤٧ لما ان جاءتني دعوة من

المدرسة العليا للآداب في بيروت لتدريس الفلسفة الاسلامية فيها.

وقد سبقت هذه الدعوة للتدريس دعوة في يناير سنة ١٩٤٧ لإلقاء ثلاث محاضرات عامة في تلك المدرسة العليا، التي كان يديرها رجل ممتاز علماً وخلقاً وعزة نفس، هو الأستاذ جبرييل بونور Gabriel Bonoure. كان بونور ناقداً أدبياً ممتازاً له مقالات عديدة في النقد الأدبي، نشرت في «المجلة الفرنسية الجديدة» NRF المشهورة التي كان يشرف على تحريرها اندريه جيد André Gide وتصدر عن دار النشر المعروفة Gallimard وقد جمعت هذه المقالات فيما بعد تحت عنوان متواضع هو: «ألاعيب أطفال في الساحة» Marielles sur le Parvis (عند الناشر Plon). وكان مديراً للعلاقات الثقافية في السفارة الفرنسية ببيروت منذ سنة ١٩٢٤، وهي إدارة لها أهمية كبيرة، لكثرة عدد المدارس الفرنسية في لبنان، ومعظمها مدارس دينية، وأقواها تلك التابعة لطريقة اليسوعيين القوية النفوذ جداً في لبنان في فترة الانتداب الفرنسي. ولما كان بونور مفكراً حراً، فقد كان على خلاف مستمر مع اليسوعيين. وكان أيضاً منصفاً بين الطوائف، وهذا أوغر صدر الطائفة المسيحية ومن ورائها اليسوعيون، لأنَّ هؤلاء كانوا يريدون ان تقتصر المعونة الفرنسية في التعليم على مدارسهم. وكانت معرفتي بالأستاذ بونور هي في بيت الأستاذ ماسينيون في اكتوبر سنة ١٩٤٦.

وسافرت إلى بيروت بناء على هذه الدعوة لإلقاء محاضرات، في الأسبوع الثاني من يناير سنة ١٩٤٧. وألقيت المحاضرات الثلاث ـ وهي التي نشرتها في نفس العام بعنوان: «الإنسانية والوجودية في الفكر العربي» ـ في قاعة غصَّت بالحاضرين حتى كان ثلثهم وقوفاً، وقد زادوا على الألف. وتولَّى أديب وصحفي بارز هو موريس صقر تلخيص هذه المحاضرات في جريدة l'Orient، كما لخصتها بعض الصحف العربية: بيروت، النهار، الديار، الحياة. الخ. وتوالت المقالات في الصحف في تقريظ هذه المحاضرات، حتى بلغ ما جمعته من قصاصات تلك الصحف اربعاً وستين قصاصة. وفي مصر نشرت جريدة «الاهرام» أنباء هذا النجاح الهائل.

وكما هو متوقع، أوغر هذا النجاح العظيم صدور الحاقدين في كلية الآداب وعلى رأسهم عميد الكلية عبد الوهاب عزام. وما لبث ان كشف عن سخائمه علناً وفي غير محل: ذلك ان جمعية المقاصد الاسلامية برئاسة عمر الداعوق قد طلبوا مني البقاء اسبوعاً ثانياً حتى يحين موعد الاحتفال بالمولد النبوي فأكون الخطيب

الرئيسي في هذا الحفل. والطائفة الاسلامية في بيروت وسائر لبنان شديدة الحرص على هذا الاحتفال بالمولد النبوي، وكان عندهم المقابل لاحتفالات عيد الميلاد عند المسيحيين في لبنان. لهذا رأيت من واجبي المشاركة في هذا الاحتفال. لكن الاجازة التي أخذتها كانت لأسبوع واحد. لهذا طلبت من عمر الداعوق أن يبرق إلى عبد الوهاب عزام ـ هذا المدعي للعروبة والاسلام! ـ لمد اجازتي اسبوعاً آخر. لكن الحقد والحسد من نجاحي الهائل في بيروت أعمياه، وبحماقته المعهودة أبرق إلى عمر الداعوق يقول: «عبد الرحمن بدوي ليس في اجازة ولا علم للكلية بسفره» ـ وكل هذا كذب صارخ: لأنني أبلغت مكتب العميد بسفري قبل السفر وطلبت اجازة عارضة لمدة ثلاثة أيام ـ هي الأيام التي تقع فيها دروسي. وكان هذا من حقّي الذي لا يستطيع احد ان ينازعني فيه، ولا يحتاج الأمر إلى أي موافقة من جانب العميد أو غيره. إنّه حق مطلق لي، استخدمته الاستخدام القانوني الصحيح، وقد لجأت إلى هذا الاجراء حتى لا أكون تحت رحمة اهواء هذا العميد الحقود المتقلب الأهواء. فما كان منّي إلاّ ان أتحدى ادعاء العميد الكاذب. فقررت البقاء اسبوعاً آخر لتلبية دعوة جمعية المقاصد الاسلامية، وليفعل هذا الرجل الحقود بعد ذلك ما يشاء.

وألقيت في ذلك الاحتفال بالمولد النبوي محاضرة في «الجانب الصوفي في حياة النبي محمد ﷺ». وحضر المحاضرة أعيان الطائفة الاسلامية في بيروت، ومنهم رئيس الوزراء رياض الصلح وابن عمه سامي الصلح وصائب سلام وجميل بيهم الخ الخ.

ولما عدت إلى القاهرة ذهبت في اليوم التالي إلى كلية الآداب، ومعي الأربع وستون صحيفة او قصاصة التي كتبت عن محاضراتي، حتى ألقي بها في وجه عبد الوهاب عزام، لكن الذي حدث في تلك الأثناء هو ان سكرتير العميد قد أخبر هذا بأنَّ ما ورد في البرقية غير صحيح، وأنّني فعلاً أبلغت الكلية رسمياً بسفري إلى بيروت، مع طلب اجازة عارضة لثلاثة أيام ـ الأحد والاثنين والثلاثاء ـ وهي الأيام التي ألقي فيها محاضراتي. فسقط في يدي عبد الوهاب العزام، وراح يلوم نفسه أكثر لما عرف أنَّ هذه الاجازة المطلوبة هي للمشاركة في الاحتفال بالمولد النبوي بناء على إلحاح زعماء الطائفة الاسلامية في بيروت، فكيف يصنع هذا الصنيع وهو المتجر بالاسلام والعروبة هو وابن عمه عبد الرحمن عزام؟! لقد وقع في حيص بيص، لحماقته واندفاعه الأهوج. لهذا وجدت السكرتير يلقاني بالترحاب؛ ويخبرني بأن العميد وافق على مد الاجازة!! بل وانه ندم على تلك البرقية.

لكني لم أغتفر له هذا الفعل الخسيس الوقح. فما الداعي لاقحام وجهاء بيروت في الخلاف بينه وبيني؟ لو كان لديه شيء من التعقل، لكان قد اكتفى بالقول في رده: «يؤسفنا عدم تلبية طلبكم...» أو ما أشبه ذلك. لكن الحقد يعمي ويُضِل.

وصرت حين ألقاه عرضاً في ردهات الكلية أشيح بوجهي عنه ازدراءً واشمئزازاً، إلى ان ترك العمادة في أواخر ذلك العام ليكون سفيراً في المملكة العربية السعودية.

وبمناسبة تعيينه سفيراً أروي هنا ما يدل على تفاهة هذا الرجل ومن اختاروه لهذا المنصب. لقد سأله أحد الصحفيين آنذاك، لماذا تترك عمادة كلية الآداب والبحث العلمي (كذا!! بينما عزام أبعد ما يكون عن البحث العلمي) وتعمل في السلك الدبلوماسي؟ فأجاب عزام: «إنِّي لن أَبْعُد عن الأدب، فإنَّني سأدرس المواضع التي ورد ذكرها في الشعر العربي القديم والكائنة في المملكة العربية السعودية!!» - إي والله، بهذا أجاب، وهكذا ظنَّ هذا الجهول ان هذه المواضع لا تزال قائمة اليوم، مع ان هؤلاء الشعراء أنفسهم قد وصفوها فقالوا بلسان النابغة الذبياني: «عفت الديار محلها بمقامها...» لكن هذا مبلغ علم الرجل ورغبته في الدجل على الناس. وحتى لو وجد بعضها، فهل ترسل مصر سفيراً لها في السعودية من أجل التجول على متون الإبل بحثاً عن مواضع المعشوقات اللواتي تغنَّى بديارهن امرؤ القيس والنابغة والأعشى وعمر ابن ابي ربيعة الخ؟!

لكن هكذا تمنح المناصب الخطيرة في مصر دائماً حتى يوم الناس هذا!

❀ ❀ ❀

ونظراً إلى هذا النجاح العظيم الذي لقيته محاضراتي الثلاثة، دعتني المدرسة العليا للآداب للتدريس فيها ابتداء من العام الجامعي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨.

ـ ٤ ـ
التدريس في لبنان (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨)

فلبّيت هذه الدعوة، ووافقت كلية الآداب على انتدابي لمدة عامين للتدريس في المدرسة العليا للآداب في بيروت.

وسافرت إلى بيروت في نوفمبر سنة ١٩٤٧ عن طريق البحر من بور سعيد،

لوجود وباء الكوليرا في مصر. ونزلت في ميناء بيروت، وأقمت في المحجر الصحّي أسبوعاً. وفي اليوم التالي لخروجي منه ذهبت إلى المدرسة العليا للآداب، وكانت قد انتقلت من حي الأشرفية إلى جوار السفارة الفرنسية في شارع كلمنصو، وعلى مقربة من الجامعة الأمريكية.

وبعد ان اتفقت مع الأستاذ بونور ـ مدير هذه المدرسة العليا ـ على خطة التدريس، وعلى البدء ابتداء من ١٥ ديسمبر، نزلت في پنسيون في حي الزيتونة يقع في الطابق الرابع من بناية مجاورة لمقبرة قديمة مهجورة، كنا نسميها «المقبرة البحرية» استعارة لاسم قصيدة پول ڤاليري Valéry المشهورة. وأعجبني في هذا المكان قربه من البحر، ووقوعه في حيّ عامر زاهر، تكثر فيه المطاعم وعُلَب الليل: أي المراقص والملاهي، والفنادق الفخمة: النورماندي، وسان جورج آنذاك، وفي أبهائهما كان يجلس في المساء السياسيون والأدباء والأعيان.

وكانت صاحبة الپنسيون فنانة (أرتيست) سابقة، تبلغ الخمسين من عمرها، وتدعى «ارما» وهي مجرية الأصل، وبعد تركها لمهنتها في الملاهي تزوجت لبنانياً شاباً ـ ربما من أجل الحصول على الجنسية اللبنانية، فقط، حتى تستطيع الاستمرار في الاقامة في لبنان ـ وكانت تقيم في غرفة من غرف الشقة الست، وتؤجّر الخمس الباقية. ولعطفها على بنات مهنتها، كانت تؤجّر واحدة او اثنتين من هذه الغرف الخمس لأرتيستات. وكانت هؤلاء الأرتيستات يعدن من عملهن في الساعة الواحدة وربما الثالثة صباحاً، ويستغرقن في النوم حتى المساء. وكان اسم الپنسيون هو: «پنسيون أجريا» لأنه يقع في شارع أجريا.

ومن الحوادث الطريفة في هذا الپنسيون أنّه كان يسكن فيه فترة من الوقت أحد المهندسين السويسريين العاملين في بيروت. وكانت غرفته مجاورة لغرفة تسكنها ارتيست، ولا يفصل بينهما إلاّ باب مسدود باستمرار وتغطيه ستارة في كلا الجانبين. وذات يوم رأت صاحبة الپنسيون ان تنظف الستارتين، فلاحظت ان في الباب ثقباً واسعاً مستديراً قطره حوالى خمس سنتيمترات. فدهشت كل الدهشة ولاحظت أيضاً ان هذا الثقب له نظير في الستارة التي تغطّي الباب من ناحية الغرفة المجاورة. ولما عاد المهندس من عمله سألته عمَّن عمل هذا الثقب. فتلعثم الرجل، وبعد الحاح في السؤال اعترف بأنّه هو الذي عمل الثقب في الباب وفي الستارة حتى يشاهد من خلاله جارته الارتيست لدى عودتها في منتصف الليل (أو بعده) وهي تخلع ملابسها، فيستمتع مجاناً بهذا «الاستريتيز» Striptease بدلاً من

تضييع أمواله في الكباريهات، خصوصاً وأنَّه هنا سيرى ما لا يكفله الاستربتيز من مواضع المتعة! فقررت صاحبة البنسيون طرده وإلزامه بالتعويض الوافي عن ثقب الباب، وإلاَّ أبلغت الشرطة. فامتثل هذا المهندس المراهق لما فرضته، وغادر البنسيون.

وممن اقاموا في هذا البنسيون من المشهورين الوافدين على لبنان: المستشرق العظيم لويس ماسنيون إبّان انعقاد مؤتمر اليونسكو في بيروت في ديسمبر سنة ١٩٤٨، وأساتذة الأدب الفرنسي الموفدون من جامعة ليون للتدريس في المدرسة العليا للآداب.

وقد لاحظت على ماسينيون أثناء اقامته عشرة أيام في هذا البنسيون أنَّه كان يغادر البنسيون في الخامسة والنصف صباحاً فلما سألته عن السبب قال انه يذهب إلى كنيسة الكبوشية الواقعة في باب ادريس، ليشترك في قدّاس الساعة السادسة! وقد فعل هذا كل صباح أثناء هذه الأيام العشرة، على الرغم من البرودة الشديدة. وقد أدّى به هذا إلى الإصابة بالتهاب رئوي شديد، حمله معه إلى عمّان، مما اضطره إلى الإقامة في المستشفى أسبوعين في عمّان!

فعجبت كل العجب من صدور هذا السلوك من رجل عظيم في مكانة ماسينيون العلمية. كيف يحرص هذا العقل المليء بالعلم على أداء هذا الطقس الشكلي في أصعب الظروف! ولله في خلقه شئون!

كما لاحظت أيضاً أنَّه كان يحرص على أن يضع إلى جوار المخدة على السرير لوحة من الورق كُتِبَ عليها هذه الآية القرآنية ﴿ لن يجيرني من الله أحد! ﴾ ثم عبارة ـ لا أذكرها الآن ـ قالها الحلاج.

وقد غادر ماسينيون البنسيون ذات صباح متجهاً إلى عمان دون أن يدفع أجر الإقامة! فلمّا سألتني صاحبة البنسيون ماذا تفعل، قلت لها إتصلي بالسفارة الفرنسية، فستدفع لك الأجر. وفعلاً اتصلت بالسفارة الفرنسية، فتولت هذه دفع الحساب.

وكان ماسينيون يحضر إلى لبنان في كل عام بعد حضوره جلسات مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة. وفي بيروت كان يقيم في العادة ضيفاً على الأستاذ بونور في منزله الواسع الذي كان يقع في شارع عبد النور في حي المصيطبة.

وكان ماسينيون يلقي محاضرة في كل عام في المدرسة العليا للآداب.

وكانت محاضرته في فبراير سنة ١٩٤٨ عن «امكانيات اللغة العربية». وأظنها منشورة في «مؤلفاته الصغرى» Opera Minora.

❀ ❀ ❀

وكانت المدرسة العليا للآداب فرعاً من جامعة ليون: تعدّ ثلاث شهادات من الشهادات الأربع التي تتألف منها الليسانس، وعلى الطالب بعد اجتياز هذه الشهادات الثلاث أن يعد ويجتاز الشهادة الرابعة في جامعة ليون في مدينة ليون. ولم يكن من بين هذه الشهادات التي تعدّ لها المدرسة شهادة في الفلسفة الاسلامية. فوضعت مشروعاً لذلك، وأرسل إلى وزارة التربية الفرنسية في باريس فأقرّته وصدر قرار وزاري بإنشاء هذه الشهادة في جامعة ليون، وبالتالي في فرعها ببيروت وهو مدرسة الآداب العليا: وكانت هذه مدرسة عليا Ecole Supérieure ولم تكن كلية Faculté بسبب انها لا تمنح الليسانس الكاملة، بل ثلاث شهادات من الشهادات الأربع المطلوبة للحصول على الليسانس. وهكذا كان الوضع أيضاً في المدرسة العليا للآداب في الجزائر. والتي اشتهرت بعدد من المستشرقين البارزين منهم: ليون جوتيه Léon Gautier ولوسياني Luciani.

و«شهادة الفلسفة الاسلامية» التي أنشأناها كانت تشتمل على تاريخ الفلسفة الإسلامية من القرن الثالث الهجري إلى القرن السادس، ودراسة شخصيات رئيسية في التصوف الاسلامي وفي علم الكلام.

وكان عدد الطلاب في العام الأول خمسة عشر طالباً وطالبة، وفي العام التالي قرابة ذلك العدد. لكن لم يستطع أي واحد منهم التقدّم للامتحان في نهاية العامين، نظراً لصعوبة المادة وكون الطلاب غير متفرّغين، بل كانوا موظفين. لكن منهم مَن صار سفيراً بوزارة الخارجية (حسن حشاش) ومَن برز في المحاماة او التدريس.

وكنت ألقي أربعة دروس في الأسبوع. لكن كانت هناك محاضرات عامة، ألقيت منها ثلاثاً في العام الأول بعنوانات: «شهيدة العشق الإلهي: رابعة البدوية» و«شطحات الصوفية» و«هل يمكن قيام أخلاق وجودية» ـ والمحاضرتان الأوليان كانتا الأساس لكتابين أصدرتهما بنفس العنوان، أمّا المحاضرة الثالثة فطبعت على حدة في مجلة كلية الآداب عين شمس (وعنوانها: «حوليات كلية الآداب»)، ثم حرّرتها في رسالة صغيرة أحدثت آنذاك ضجّة لا مبرّر لها في الصحف وفي الجهات الرسمية.

وفي العام الثاني ألقيت محاضرة عن «كاتب وجودي في القرن الرابع الهجري: أبو حيّان التوحيدي»، وقد نشرتها ضمن تصديري لتحقيقي لكتاب «الاشارات الإلهية» (الجزء الأول) لأبي حيّان التوحيدي (القاهرة سنة ١٩٥٠).

كما ألقيت محاضرة في المولد النبوي ضمن الاحتفال الذي جرت عادة الجامعة الأمريكية في بيروت على إقامته كل عام، وكان عنوانها: «تصوف النبي محمد» (ﷺ). ونظراً لما عقدته فيها من مقارنات بين حياة النبي محمد (ﷺ) وحياة عيسى المسيح، فقد أثارت هياجاً وكلاماً كثيراً في الأوساط المسيحية في بيروت.

ونظراً للنجاح الكبير الذي كانت تلقاه محاضراتي العامة، ونظراً إلى الخصومة الشديدة بين اليسوعيين في بيروت وبين الأستاذ بونور، ونظراً إلى ما شعر به المسلمون من سند علمي قويّ في شخصيتي ـ فقد عمل اليسوعيون على إبعادي من لبنان. فأرسلوا إلى باريس في صيف سنة ١٩٤٨ صنيعتهم الدجال الجهول فؤاد أفرام البستاني ليتصل بالمسئولين في الخارجية الفرنسية عن العلاقات الثقافية. وفعلاً ذهب هذا الافرام إلى مسيو ماكس، المدير المساعد لإدارة العلاقات الثقافية في وزارة الخارجية وطالب بعدم تجديد اعادتي لمدرسة الآداب العليا. وبما عهد فيه من تعصّب أعمى وخساسة نفس راح يزعم لمسيو ماكس هذا (وهو يهودي) خطورتي على النفوذ الثقافي الفرنسي والأوروبي وعلى الثقافة المسيحية في لبنان. وقد أخبرني بذلك الأستاذ بونور، لأنّه استدعي إلى وزارة الخارجية، فسأله مسيو ماكس عن صحة ادعاءات فؤاد أفرام، فشرح له بونور جليَّة الأمر، وضاعت دسائس اليسوعيين وعميلهم فؤاد افرام سدى وبغير طائل.

وكان أشد ما أوغر صدر اليسوعيين آنذاك ـ وعلى رأسهم الأب موترد Mouterde رئيس ما يُسمَّى «معهد الآداب الشرقية» وهو مسخ مزيف من «معهد» ومن «آداب شرقية». فمستواه العلمي في غاية الهبوط، ومستوى القائمين بالتدريس فيه منحط للغاية، إذ ليس بينهم أي واحد يحمل مؤهلات للتدريس في معهد عالٍ أو كلية جامعية. وأعجب العجب ـ لكن لبنان كله عجائب! ـ أنّه صار بعد ذلك يمنح درجة الدكتوراه! إي والله درجة الدكتوراه! وهي لا تساوي ربع ليسانس ـ أقول إنَّ أشد ما أوغر هؤلاء اليسوعيين ضدي هو أنَّ القائمين بالتدريس فيه من اليسوعيين كانوا شديدي الحملة على الاسلام بواسطة افتراءات كاذبة مفضوحة ينسبونها إلى بعض كبار المستشرقين حتى تبدو مسنودة بحجة علمية. من ذلك أنَّ بعض طلاب ذلك المعهد

جاؤني وسألوني: هل صحيح ان معاوية ابن أبي سفيان، الخليفة الأموي والصحابي الجليل، قد اعتنق المسيحية؟» فقلت لهم: مَن قال لكم هذا الكلام العجيب؟ فقالوا: إنَّه الأب لاتور Lator قال لنا ذلك في محاضرة الأمس في «معهد الآداب الشرقية» وزعم ان ذلك ورد في كتاب «الدولة الاسلامية وسقوطها» تأليف يوليوس ڤلهوزن Julius Wellhausen. وأنا قد قرأت هذا الكتاب قبل ذلك، فقلت لهم: هذا كذب على ڤلهوزن، فأنا أعرف كتابه هذا جيداً، ولو كان فيه خبر كهذا لكان قد لفت نظري ونظر سائر مَن قرأوه. وسأذهب غداً للقاء الأب لاتور Lator لكي يبيِّن لي من أين استقى هذا الكلام». وفعلاً ذهبت إليه في اليوم التالي في الصباح، وأخبرته بما نُقِلَ إليّ عنه. فجاء بالكتاب وقال هذا الكلام ورد ها هنا ـ وأشار إلى الصفحة. فقرأتها وإذ بها خالية من هذا تماماً، وكل ما ورد فيها هو انه كان معاوية يريد ان يتشبه بالنظام الملكي البيزنطي في الحكم؛ لكنه «لو كان قد فعل ذلك لكان عليه ان يعتنق المسيحية». فالعبارة في صيغة الشرط الماضي، أي الذي لم يقع مطلقاً ولو كان قد وقع لكان الأمر قد أدَّى إلى كذا.

فقرأت عبارة ڤلهوزن في النص الألماني وترجمتها له بالفرنسية وشرحت معناها وهو تماماً عكس ما يفهم وما قاله للطلاب. فتلعثم وبلح وجنح وغصّ بريقه وقال: «معذرة، فإنّي لا أُحسِن الألمانية، وقد قرأت العبارة بسرعة، ولم أدرك أنها في صيغة الشرط الماضي». فقلت له: «هذا الاعتذار لي لا يكفي، لأنَّ الأمر يتعلق بهؤلاء الطلاب الذين أضللتهم بجهلك باللغة الألمانية فيما تزعم. وعليك ان تقرّ بذلك وتصحّح الأمر لهؤلاء الطلاب في المحاضرة القادمة، وسأحضر انا هذه المحاضرة لأكون شاهداً على اقرارك بخطئك هذا». وفعلاً حضرت محاضرته التالية، فبدأها بتقديم اعتذار عن سوء فهمه للنص وبشكري أنا على تنبيهي له على ذلك.

وأمثال هذه الحادثة كثير جداً. فتحت ستار الشخصيات العلمية الكبيرة من المستشرقين كان هؤلاء المدرّسون اليسوعيون لا يتورعون عن اختراع أبشع الأكاذيب والافتراءات ضد الإسلام. ولم يكن الطلاب المساكين، ولا أحدٌ من المشتغلين بالعلم في بيروت، قادراً على كشف هذه الأكاذيب والافتراءات. ومن هنا كانت حيرة الكثير من الطلاب المسلمين، والشيعة منهم بخاصة، في أمور دينهم. وهو ما يفسّر ـ جزئياً على الأقل ـ تحوّل بعض هؤلاء الطلاب الشيعة إلى المسيحية: مثل عفيف عسيران، وماجد فخري تحت تأثير شارل مالك، وتحوّل

غيرهما إلى المسيحية عن طريق اليسوعيين مِمّن لا تحضرني الآن أسماؤهم.

وما أصابني من كيد اليسوعيين المسيحيين قد أصابني مثله من كيد الأزهريين المسلمين!! فقد كان في بيروت موفدون من المشايخ الأزهريين الذين كانوا يقومون بالتدريس في «الكلية الشرعية» وغيرها أو بالوعظ في المساجد، وعلى رأسهم شيخ يدعى الشيخ «طيرة» لا يعرف غير الوشاية والدسّ والوقيعة، أما علوم الدين فهو منها عارٍ تماماً. ولما كانت محاضراتي العامة تتناول موضوعات إسلامية، وكانت تلقى ذلك الاقبال العظيم، وكانت تقوم على المنهج العلمي الدقيق والتحليل العقلي المستقيم، فقد بارت تجارة أولئك الأزهريين في الأوساط الاسلامية. فلم يجدوا وسيلة للتخلص منّي غير الوشاية بي عند مفتي لبنان آنذاك ـ الشيخ محمد خالد ـ وكان رجلاً مصاباً بالفالج لا يفارق سريره، فكان من السهل التأثير عليه من جانب أولئك الوشاة الأزهريين. وكانت وشايتهم تقول إنّني أدعو في محاضراتي إلى النزعة الفينيقية!! إي والله الفينيقية. ولم أكن قد ألقيت إلاّ محاضرة عامة واحدة بعنوان: «شهيدة العشق الإلهي: رابعة العدوية»، فضلاً عمّا ألقيته في يناير سنة ١٩٤٧ من ثلاث محاضرات عن «النزعة الانسانية في الفكر العربي» و«أوجه التلاقي بين التصوف الاسلامي والوجودية» و«فن الشعر الوجودي». فأية دعوة فينيقية في هذه المحاضرات، أيُّها الأزهريون الجهلة المضلِّلون؟! هل رابعة العدوية، والبسطامي، والحلاج وابن عربي فينيقيون، يا أجهل من أقلّتهم الأرض؟! لكن الرجل المشلول ـ الشيخ خالد ـ صدَّق وشايتهم، وخاطب في ذلك الأمر رياض الصلح رئيس الوزراء آنذاك. ورياض الصلح أخبر بذلك القائم بالأعمال في السفارة المصرية. ولم يجرؤ هذا أن يكلّمني في الموضوع، بل أرسل مدرساً مصرياً كان يدرّس في إحدى مدارس بيروت، وكلّفه بإبلاغي بما قاله رياض الصلح للقائم بالأعمال. وجاءني هذا المدرّس وأخبرني بما كلّفه بإبلاغه إياي القائم بالأعمال.

هناك اتصلت بصديق لي، هو المستشار حسن قبلان، المستشار آنذاك في محكمة التمييز (محكمة النقض والإبرام)، وأخبرته بالأمر. فقال: تعال معي غداً لنقابل رياض الصلح. وذهبنا في الغداة إلى رياض الصلح في مكتبه بوزارة الخارجية (إذ كان وزيراً للخارجية بالنيابة، في غيبة وزير الخارجية في الخارج السيد/ حميد فرنجية). ورأيت أن أُبادئه بالهجوم لإرغامه على الوقوف موقف المدافع عن نفسه، وكان حسن قبلان قد أفهمه ان ما قيل له هو افتراء محض. رحّب بي أولاً فبادرته قائلاً: ما هذا الذي قلته للقائم بأعمال السفارة المصرية؟

وهل رابعة العدوية فينيقية حتى ينطلي عليك كلام المفتي؟

فرد رياض قائلاً: أريد ان أقول لك أولاً أنَّني لم أقل للقائم بالأعمال أي شيء بالنسبة إليك. وإنَّما كنا على مائدة غداء لتكريم صالح حرب، فجاء ذكرك على لسان أحد الحاضرين وأنَّك تلقي محاضرات في تأييد الفينيقية: فقلت لهم: أنا أستبعد ذلك تماماً، وقد أُعجبت بمحاضرته في أوائل العام لما قرأت عنها في الصحف، وكلها تمجيد للفكر الاسلامي. وهذا كل ما قلته.

فقلت: إذن القائم بأعمال السفارة هو الذي اخترع هذا الادعاء؟

فقال رياض الصلح: نعم، ولك أن تقول له ذلك نيابة عنِّي. بيد أنَّني أعتب عليك في أمرين: الأول أنَّك جئت من جديد إلى لبنان ولم تزرني، مع حرصك على زيارتي في المرة السابقة. والثاني أنَّك لم ترسل دعوة إليّ لحضور محاضرتك عن رابعة العدوية، لأنَّني من المعجبين بالسيدة رابعة. وقد أخبرني الأستاذ حسن (قبلان) أنَّه حضرها وأُعجب بها غاية الإعجاب.

هنالك انفرج الجو بيننا، وتبادلنا المزاح الخفيف، وودّعته ونحن في وئام.

وبعد اسبوع أخبرني حسن قبلان ان استياء رياض الصلح لا علاقة له بمحاضراتي اطلاقاً، وإنَّما هناك أمر آخر أخبره به مدير الأمن:

ذلك ان المستشرق النمساوي الأصل الأميركي الجنسية آنذاك جوستاف فون جرونباوم Gustav V. Gruenebaum كان يزور بيروت في أوائل يناير سنة ١٩٤٨، فتعرّف إليّ، وحضر محاضرتي عن «رابعة العدوية»؛ وبعد ذلك بيومين رجاني ان أزور بصحبته هو وزوجه بعلبك. فسافرنا إلى بعلبك وزرنا آثارها الضخمة وهناك التقينا بالشاعر الشعبي ميشيل طراد وكنت قد تعرّفت إليه في مدة سابقة أثناء زيارتي لبعلبك في يناير سنة ١٩٤٦ مع مجموعة من أساتذة وطلبة كلية الآداب. وفي طريق العودة من بعلبك اقترحت على جرونباوم ان نزور زحلة في طريقنا ليرى وادي العرائش الذي تغنّى به شوقي في قصيدة: «يا جارة الوادي...». فرجعنا زحلة، لكننا وجدناها تمور بحشد كبير من الناس في الشوارع، وتذاع بالمذياع فيها خطب، فقصدنا فوراً إلى وادي العرائش. ولدى عودتنا من الوادي للركوب في السيارة التي أقلّتنا من بيروت، قابلنا الشاعر سعيد عقل ومعه جماعة. فرحّب بي، وقدّمت إليه جرونباوم. فقال سعيد: لا بدَّ ان نستضيفكم بعض الوقت لأطلع هذا المستشرق على آخر أعمالي الشعرية. وقبلنا الدعوة، وذهبنا إلى بيت سعيد

عقل، وكان معه واحد من آل أبي خاطر هو نائب عن زحلة. وأمضينا ساعة عند سعيد عقل ثم استقللنا السيارة عائدين إلى بيروت. وسألت سعيد عقل عن السبب في هذا التجمهر في شوارع زحلة والقاء الخطب؟ فقال إنَّها بمناسبة مرور أربعين يوماً على انتفاضة زحلة ومصرع بعض أبنائها على أيدي رجال الشرطة.

ولجهل مخبري الشرطة كتبوا تقريراً بأنَّني جئت إلى زحلة لمواساة أهل زحلة ومشاركتهم في هذا الاحتفال ضد الحكومة!! وانني زرت بيت نائب زحلة، ومن أسرته كان أحد صرعى هذه الأحداث، وبيت سعيد عقل أحد رؤوس الفتنة!

وقال مدير الأمن: هكذا وردنا هذا التقرير، فأبلغنا الأمر إلى رئيس الوزراء رياض الصلح.

فشرح الأستاذ حسن قبلان لمدير الأمن حقيقة الأمر، وقال إنَّه كان يريد ان يجيء معنا في هذه الرحلة إلى بعلبك، لكن كانت لديه جلسته في ذلك اليوم في محكمة التميز. ففهم مدير الأمن ما جرى، وأخبر بذلك رياض الصلح.

وإذن كان استياء رياض الصلح هو بسبب هذا التقرير الزائف الذي أبلغه به، مدير الأمن ومفاده أنّني ذهبت إلى زحلة لمشاركة أهل زحلة في العزاء بضحاياهم التي أوقعها بهم البوليس!!

وهكذا تكتب الشرطة السريَّة التقارير الكاذبة الظالمة دون ان تتحرى الحقيقة فتوقع الأذى بالأبرياء! وتلك حال عامة في كل البلاد، وكم وقع من ضحايا في مصر وغيرها لهذه التقارير السريَّة الكاذبة. وكم سيذهب ضحايا لها في مصر، خصوصاً من سنة ١٩٥٢ حتى يوم الناس هذا!

وهذا كله يفسّر سرّ تغير رياض الصلح من النقيض إلى النقيض: من الاستياء والوعيد إلى التهليل والترحيب بي، لما ان اتضحت له جلية الأمر وكذب تقارير شرطته السريَّة.

وهكذا أخفقت وشايات الأزهريين المصريين لدى المفتي خالد، وأكاذيب تقرير الشرطة المقدّم إلى رياض الصلح ـ فاندحر هؤلاء وأولئك في أقماع السمسم، كما يقال. ولم تعد تسمع لهؤلاء الوشاة الأزهريين أية نأمة طوال العامين اللذين أمضيتهما في لبنان.

وما أعجب المعلومات التي يتصرف على أساسها رئيس الوزراء! محاضرة

عن رابعة العدوية تبلغ إليه على انها دعوة إلى الفينيقية، وزيارة وادي العرائش على انَّها مشاركة في تعزية سياسية.

وكان لبنان آنذاك في بداية عهده بالخلاص من الانتداب الفرنسي. وكان منذ تكوين دولة «لبنان الكبير» في سنة ١٩٢٠ ملتقى الصراعات من كل الأنواع: الدينية، والثقافية. ويُؤرث الفتنة بين الطوائف العديدة المتنابذة المتصارعة رجال دين، ورجال دنيا، لأنهم إنَّما يتعيشون من هذه الفتنة. لقد كان لبنان، قبل سنة ١٩٢٠، هو جبل لبنان: وكان الصراع فيه بين الدروز، وبين الموارنة؛ لكن الحكم كان للدروز، إلى ان حدثت حوادث سنة ١٨٦٠ التي قام فيها الدروز بقتل عدد غير محدد من المسيحيين في زحلة وغيرها. فتدخلت فرنسا سنة ١٨٦١ بأسطولها. وقامت الدول الأوروبية بفرض نظام القائمقامين بالحكم في لبنان: وهؤلاء القائمقامون تعيّنهم الدول الأوروبية الكبرى وكانوا جميعاً من النصارى. ولما فرضت فرنسا انتدابها على سوريا ولبنان سنة ١٩٢٠، اقتطعت أربعة أقضية من سوريا وضمّتها إلى جبل لبنان، ومن هنا سمّت الدول الجديدة باسم دولة «لبنان الكبير» - أي المكبّر بهذه الأقضية الأربع (صور، وصيدا، وبيروت، وطرابلس). كما جعلت الحكم والنفوذ الفعلي للمسيحيين. ومن هنا ولدت دولة لبنان الكبير على الشقاق: بين النصارى وبين المسلمين؛ وفي داخل هذين الدينين بين المذاهب الدينية المختلفة. حتى ان لبنان يعترف بسبع عشرة فرقة دينية مختلفة. لكن أبرزها بين المسلمين هي: السُّنَّة، والشيعة، والدروز، وبين المسيحيين: الموارنة، والروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، والپروتستنت. كذلك فرض الانتداب الفرنسي توزيعاً غير عادل في التمثيل النيابي: فجعل للمسيحيين نسبة ٥٦٪، وللمسلمين ٤٤٪، رغم ان العدد الحقيقي للسكان هو آنذاك ٦٠٪ للمسلمين، و٤٠٪ للمسيحيين، وقد صار الآن (في سنة ١٩٨٥) ٦٧٪ للمسلمين و٣٣٪ للمسيحيين. وكان توزيع المقاعد بين المسيحيين كما يلي: ٢٨٪ للموارنة، و١٠٪ للروم الأرثوذكس، و٦٪ للروم الكاثوليك وباقي الـ ٥٦٪ للأرمن والبروتستنت واللاتين وسائر الطوائف المسيحية.

على ان أسوأ ما في نظام الحكم في لبنان هو السلطة الواسعة جداً التي لرئيس الجمهورية: فهو الذي يعيّن رئيس الحكومة والوزراء وسائر موظفي الدولة حتى أدناهم. ولما كان مارونياً، فإنَّ السلطان الفعلي في لبنان هو للموارنة. أمَّا سائر الطوائف - من مسيحية واسلامية - فلا سلطان لها في تسيير أمور الدولة. ومن هنا كان رجال الحكومة من غير الموارنة يستجدون ويتملقون رئيس الجمهورية

الماروني وأتباعه من الموارنة: فكان رياض الصلح، رئيس الوزراء السُّنّي، ذليلاً خاضعاً لبشارة الخوري، وكذلك كان عبد الحميد كرامي، وعبدالله اليافي، وحسين العويني. كما كان سامي الصلح خاضعاً ذليلاً لكميل شمعون، ورشيد كرامي لسليمان فرنجية وهكذا وهكذا. والتوزيع الطائفي للمناصب الكبرى كان مهزلة في الواقع: فالوزير السنّي كان عاجزاً أمام مدير الوزارة الماروني؛ والعكس بالعكس. أذكر مثلاً أعرفه جيداً: فقد كان وزير العدل سنّياً، لكنه كان عديم الحول الى جوار وكيل العدل انيس صالح (الماروني) والسبب في هذا الوضع العجيب المخزي هو ان السلطة الحقيقية هي كلها في يد رئيس الجمهورية الماروني. حتى كان هناك مثل شعبي شائع مفاده ان رجال الشرطة وقفوا عند مدخل شارع ليمنعوا الناس من الدخول فيه. فجاء شخص يريد الدخول فقالت له الشرطة: ممنوع! فقال: حتى على الماروني؟ فقالت الشرطة: لا، تفضّل أهلاً وسهلاً. ولم يكن لمنع المرور أي سبب طائفي، حتى تقول الشرطة هذا القول. وإنّما المقصود بالمثل هو أن كل شيء مباح للموارنة، وممنوع على غيرهم.

وهذا الوضع قد جرّبته بنفسي عبر تجارب عديدة أثناء بقائي في لبنان. لهذا كنت إذا أردت انجاز أمر في دواوين الحكومة كنت أستعين دائماً بماروني مهما صغرت مرتبته.

وكنت أنا على علاقات وثيقة بأفراد من كلتا الطائفتين، المسيحية والاسلامية: المسيحية لأنّني كنت أستاذاً في جامعة فرنسية، وكل ما هو فرنسي أو مقرّب من هيئة فرنسية فله الحفاوة عند المسيحيين، أليست فرنسا عندهم هي «الأم الحنون» التي أنقذتهم في سنة ١٨٦٠، ورسّخت نفوذهم في عهد الانتداب (١٩٢٠ ـ ١٩٤٥)؟! ـ وعند المسلمين باعتباري مسلماً تعتز به الطائفة الاسلامية في مواجهة المثقفين المسيحيين، وعالماً يبرز الجوانب العظيمة في الفكر الاسلامي.

ولهذا كنت أسمع من أفراد إحدى الطائفتين ما يكنه للطائفة الأخرى من حقد وعداوة وازدراء وكراهية. وأذكر في بداية حضوري للبنان ان دعاني أستاذ ماروني للعشاء في بيته، ودعا أيضاً صهراً له كان طبيباً في الخمسين من عمره تقريباً؛ وبعد التحدّث مع هذا الطبيب قال لي بالحرف الواحد: هل تعلم أنّك أوّل مسلم أطمئن إلى الحديث معه، بل أتصور إمكان الحديث معه؟!

وكان يعمل على تغذية الأحقاد والكراهيات بين المسلمين والنصارى جماعة من المثقفين البارزين في كلا المعسكرين: في المعسكر المسيحي. - فؤاد افرام البستاني، وشارل مالك، وميشيل أسمر، الخ؛ وفي المعسكر الاسلامي عمر فرّوخ

وغيره. وكل فريق يحاول ان يصوّر دور لبنان الحضاري بحسب نزعته. وكان الفريق المسيحي يحرص على ابراز الوجه المسيحي للبنان في المؤتمرات الدولية. وأوضح ما ظهر ذلك كان في مؤتمر اليونسكو الذي عقد في ديسمبر ١٩٤٨ في بيروت. فقد تجمعت كل القوى المسيحية السياسية والثقافية من اجل ابراز ما سمُّوه «الوجه الحقيقي للبنان»، أي الوجه المسيحي وغير العربي. ونشط في هذا المجال الأب يوحنا مارون، ممثل لبنان في اليونسكو، وعضو الاتصال بين المنظمة في باريس وبين لبنان، ثم فؤاد أفرام البتساني ـ هذا الأفعوان الهرم الخبيث ـ وكسروان لبكي الصحفي وجورج حنين الصحفي الكتائبي، كميل أبو صوّان وغيرهم عديدون. وبلغت الوقاحة بهم إلى حد انهم رفضوا ان يلقي المحاضرة عن الاسلام أستاذ مسلم وجاءوا بقسطنطين زريق ـ وهو ارثوذكسي سوري الأصل ـ ففوّضوه ليكون هو المحاضر الذي يلقي المحاضرة عن الاسلام! إي والله، في لبنان الذي أغلبيته من المسلمين لا يلقي المحاضرة عن الاسلام إلاَّ هذا المسيحي المتجر بالعروبة، والممكّن للمسيحية في الجامعة الأمريكية. وكان المسلمون في اللجنة المكلّفة بتنظيم مؤتمر اليونسكو قد اقترحوني أنا لإلقاء هذه المحاضرة، فاعترض المسيحيون في اللجنة وكانوا هم الأغلبية، ولم يُوافق على الاقتراح.

على ان مؤامرات هؤلاء قد ذهبت كلها أدراج الرياح بفضل المحاضرة التي ألقاها الدكتور طه حسين. وكان حسن صعب، وهو إذ ذاك سكرتير ثان بوزارة الخارجية، هو الذي اقترح على وزير الخارجية حميد فرنجية دعوة الدكتور طه لإلقاء محاضرة عامة في هذا المؤتمر. فوافق حميد فرنجية على الاقتراح وجاء د. طه حسين إلى بيروت وألقى هذه المحاضرة الرابعة باللغة الفرنسية. وكان جمهور الحاضرين لا يقل عن ثلاثة آلاف شخص. وأذكر انه حين القى في وسط المحاضرة بيتاً من الشعر العربي بصوته الساحر اهتزت أرجاء القاعة بالتصفيق اكثر من خمس دقائق. فكانت هذه المحاضرة العظيمة شمساً أخفت كل شموع الدساسين الذين سعوا إلى طمس حقيقة لبنان.

ومنذ اللحظة الأولى التي فيها رست السفينة المقلّة لطه حسين من بور سعيد (أو الاسكندرية، لا أذكر) في بيروت، وأنا أرافقه طوال الأيام السبعة التي قضاها في لبنان. وبالمشاركة مع تلاميذ طه حسين اللبنانيين في الجامعة المصرية وهم حسن صعب، وبهيج عثمان، وزهير فتح الله أقمنا له حفلة في فندق سان جورج حضرها بعض رؤساء الجمهورية والوزارة والوزراء الحاليين والسابقين في لبنان.

كما أنّي كتبت عنه مقالاً في مجلة «كل شيء» التي كان يصدرها سعيد سربيه ومحمد بعلبكي.

وكما قال جبران خليل جبران في مقالته الجميلة بعنوان: «لكم لبنانكم ولي لبناني» ـ فقد كان في لبنان رؤوس عديدة تحكم وتتحكم كما يحلو لها دون قانون ولا ضابط ولا وازع. وكان القتل او الضرب المبرح من الأساليب التي يلجأ إليها رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وغيرهم من مدّعي السلطان للتنكيل بخصومهم السياسيين. ولهذا قامت في بيروت جماعة تسمى بـ «القبضايات» ـ وغالبيتهم من العتالين في ميناء بيروت ـ تعمل لحساب هؤلاء. وكان رئيسهم في ذلك الوقت يدعى «أبو عفيف كريدية». وكان يسير في الشوارع وفي الأماكن العامة وهو يحمل عدة مسدسات وخرطوشات رصاص: في حزامه وفي جيوب جاكتته. وكان يعمل لحساب بشارة الخوري، رئيس الجمهورية، ورياض الصلح رئيس الوزراء.

وثم منظر لا أنساه وهو أن جورج نقاش، رئيس تحرير جريدة l'Orient اليومية ـ وكانت أوسع الصحف انتشاراً في بيروت، كتب عدة مقالات يهاجم فيها بشارة الخوري ورياض الصلح. فقدّمه المدّعي العام ـ بإيعاز من الحكومة ـ إلى المحاكمة. وكان أحد المحامين المرافعين عنه من أصدقائي، فدعاني إلى حضور الجلسة لسماع مرافعته. فحضرت. ولم تكد الجلسة تبدأ حتى دخل في القاعة شخص مسلّح يمسك بمسدس في يده اليمنى وآخر في يده اليسرى، وراح يطلق الرصاص في هواء القاعة من الباب حتى منصة المستشارين، وهو يقول بصوت عال مهدّداً: مَن يجرؤ يهاجم رئيسنا الشيخ بشارة وزعيمنا رياض بك؟! أنا بأقوّس (اضرب) عليه في المليان. وساد القاعة والمستشارين وجوم تام حتى خرج هذا الشخص وهو يطلق الرصاص من مسدسيه عائداً من المنصة إلى الباب. وطبعاً لم يعترضه أحد من الشرطة الواقفين عند باب القاعة او داخلها. وكان هذا الشخص هو أبو عفيف كريديه!

كذلك كان هناك قبضاي آخر أشد فتكاً من أبي عفيف هذا، ويدعى رشاد قليلات. وفي سجل أعماله قتل ما يزيد عن عشرة أشخاص، استؤجر من جانب زعماء الحكم وبعض السياسيين لقتلهم وذهب دمهم هدراً، لا تجرؤ الشرطة ولا المحاكم على التعرّض له.

وتلك صورة مصغّرة لما ستكون عليه الحال في لبنان ابتداءً من سنة ١٩٧٥ وحتى كتابة هذه السطور. ومعظم النار من مستصغر الشرر.

ثم كان لرؤساء الطوائف الدينية، خصوصاً المارونية، سلطان هائل. وكان أخطرهم جميعاً مطرانٌ يدعى المطران اغناطيوس مبارك. كان لا يتورع عن أي شيء؛ وكان شديد التعصّب ضد المسلمين، ويحمل على الاسلام حملات شعواء، بل ويطالب بحرمان المسلمين في لبنان من كل الحقوق ولما قامت اسرائيل في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ أعلن تأييده الكامل لها، وعقد معها صلات سياسية قوية، إلى درجة انه كان يبعث برسائل مطبوعة على المطبعة تحمل اسمه ويلتمس فيها من حكومة اسرائيل ان تراعي فلاناً ـ المذكور في السطر الخالي من البطاقة ـ لأنّه «صديق وموالٍ لإسرائيل».

وقد وصل إلى عبدالله المشنوق، رئيس تحرير مجلة «بيروت المساء» الأسبوعية بعض بطاقات من هذا النوع، فنشرها بالزنكغراف في جريدته. أتدري على مَن قامت القيامة في إثر ذلك؟ على عبدالله المشنوق اولاً من بشارة الخوري ورياض الصلح، وثانياً من أنصار المطران مبارك من الكتائب المسلّحين، إذ وضعوا قنابل في مدخل دار بيروت في اليوم التالي، وانفجرت القنابل لكنها كانت قليلة الأثر!

ذلك ان رياض الصلح ـ ومن ورائه بشارة الخوري ـ كان يطارد كل وطني مخلص. لهذا أصاب بالتنكيل والأذى الكثيرين من الوطنيين المخلصين، فأودعهم السجون، أذكر منهم: الشيخ اللغوي الفذ عبدالله العلايلي، والزجّال السياسي اللاذع عمر الزعنّي، الخ الخ.

والحق انه ما من أحد مكّن لطغيان الرؤساء الموارنة أكثر من رياض الصلح في عهد الشيخ بشارة، وصار ذلك امراً مكتسباً لهم. وما يزعمونه من «الميثاق الوطني» لسنة ١٩٤٣ لا ينص أبداً على توزيع المناصب الثلاثة الكبرى على نحو ما يزعمون، أي: رئاسة الجمهورية لماروني، ورئاسة المجلس النيابي لشيعي، ورئاسة الوزراء لسُنّي. والدليل القاطع على ما أقول هو أن رئيس المجلس النيابي في الفترة التي كنت فيها في لبنان (١٩٤٧ ـ ١٩٤٩) لم يكن شيعياً، بل كان رومياً أرثوذكسياً وهو حبيب أبو شهلا ـ فأين إذن هذا التوزيع المزعوم؟!

وأذكر هنا لقاءً بيني وبين پيير الجميل رئيس الكتائب تمّ في مقهى باريس في باريس سنة ١٩٤٩ (أو سنة ١٩٥٠؟). دار الحديث بيننا طوال ساعتين؛ وفيه كشف عن كراهية شديدة لكل ما هو اسلامي وعربي. وقال: إنّنا نحن النصارى لن نسمح ابداً لغير النصارى ان تكون لهم السيادة في لبنان؛ إنّ اللبنانيين الحقيقيين ـ كذا زعم! ـ هم المسيحيون، وبخاصة الموارنة، ومن عداهم هم لبنانيون «بالفرصة»

Libanais d'Occasion (وهي عبارة طالما قرأتها في الصحف اللبنانية المسيحية). وراح يهذي بكلام غريب في هذا الباب حتى قال من بين ما هذى به: لماذا تضع البلاد العربية اللون الأسود في علمها؟ فعجبت من هذا الكلام وقلت له: وألمانيا أيضاً تضع هذا اللون الأسود في عَلَمها؛ وعلم مصر (وكان الأخضر آنذاك) ليس فيه لون أسود، وكذلك علم السعودية وعَلَم اليمن، وعلم المغرب. ولا شأن لهذا اللون بعروبة ولا بإسلام. وكان وهو يتكلم يتميز غيظاً ويحرّك فكّيه بعصبية غريبة. فأنهيت اللقاء وانصرفت.

وبعد ذلك بأيام جاءني بعض الطلبة المسلمين الذين يدرسون في باريس، وكانوا قد عرفوا نبأ هذه المقابلة، فسألوني، ما رأيك في بيير الجميل بعد لقائك معه؟

فقلت لهم بالحرف الواحد: خلاصة انطباعي، هي أنّه لو تمكّن هذا الرجل من الوصول إلى الحكم ـ وزيراً أو أعلى من ذلك ـ فسيكون ذلك علامة انهيار لبنان.

وقد صدقت نبوأتي هذه كل الصدق، وواأسفاه!

إنّ دولة «لبنان الكبير» التي أنشأها الانتداب الفرنسي سنة ١٩٢٠ كانت دولة مفتعلة تماماً: أقليّة تتحكّم في أغلبية؛ وتوتر ديني شديد بين طوائفها؛ واستعداد لدول أجنبية كيما تتدخل وتسند فريقاً ضد فريق؛ ونفاق ظاهري يستر وراءه كراهية قاتلة؛ وعصبيات أُسريّة تخوض فيما بينها بعضها وبعض معارك طاحنة؛ واتجار بالسياسة سلعته التأييد لمَن يدفع أكثر من جانب حكومات أجنبية.

فكيف يمكن لكيان معتقل كهذا أن يصبح دولة بالمفهوم السياسي الصحيح؟!

❀ ❀ ❀

ذلكم هو الجانب القاتم من لبنان.

أمّا جانبه اللامع المشرق، فقد تغنيت به في كتابي «الحور والنور» بما لا مزيد عليه، فعلى القارىء ان يتلمس مشاعري في هذا الجانب في ذلك الكتاب.

زيارات سوريا

وفي أثناء اقامتي في لبنان كنت آتحيّن فرص العطلات المدرسية كي أسافر إلى دمشق، خصوصاً في عطلة الربيع، حتى أطّلع على مخطوطات المكتبة الظاهرية

من ناحية، وأنعم بجمال الأزهار في وادي بردى وفي الغوطة.

فكنت أمضي فترة الصباح في المكتبة الظاهرية، وفترة بعد الظهر حتى الغروب في منازه دمشق: شاذروان، عين الفيجة، الغوطة، داريا، الخ. وأمضي المساء في مقهى «سقراط» مع بعض أهل الأدب، أحياناً حتى منتصف الليل.

وكانت دمشق آنذاك عامرة الأسواق، حافلة بأطايب الطعام والحلويات، ناعمة المزاج العام، تسري فيها أنسام الحرية السياسية، لا يخشى أحدٌ اعتقالاً او تلفيقاً لتهمة أو وشاية من متجر بالوشايات. والصراع السياسي بين الأحزاب كان هادئاً لا يكاد يتجاوز قاعة البرلمان.

هكذا كان الأمر حتى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩ يوم ان قام الزعيم (الكولونيل) حسني الزعيم بانقلاب عسكري أبيض، شاهدته بنفسي من نافذة غرفتي في فندق أمية. ففي الساعات الأولى سن صباح ذلك اليوم استيقظت على حركة وضجة في الساحة المواجهة ـ ساحة العرجة ـ وما يطل عليها من مباني حكومية: وزارة الدفاع ووزارة الداخلية. وبقيت ساهراً حتى الصباح الباكر، فخرجت من الفندق في السابعة صباحاً ووجدت جمهوراً من الناس متجمعاً في ساحة المرجة، فسألت عن الخبر، فعلمت أن الجيش قد قام بانقلاب عسكري. ولم تقع اية مقاومة من أية جهة، لهذا لم تسفك قطرة دم واحدة في هذا الانقلاب.

وفي الأيام التالية توالت الأحداث: شكري القوتلي، رئيس الجمهورية، اعتقل في منزله، وجرى ايداع بعض السياسيين الذين يخشى خطرهم في سجن المزة وسجن القلعة. وشكلت وزارة برئاسة د. محسن البرازي، وهو كردي مثلما أنَّ حسني الزعيم كردي. وجرت حركة تطهير واسعة النطاق، عشواء الأسباب، بين الموظفين، لعب لها الدور الأخسّ علي بوظو الذي صار وزيراً للداخلية. وصار الكل في رعب شديد من بطش الحكومة. وصارت سوق الوشايات والانتقامات الشخصية رائجة جداً.

ولإرهاب الناس، كان هناك ١٩ شخصاً، بينهم امرأتان، قد حكم عليهم بالإعدام من قِبَل المحاكم في عهد شكري القوتلي، لكن القوتلي لم يشأ تنفيذ الأحكام حتى لا يلطّخ عهده بالدم فيما زعم، وكان هؤلاء المحكوم عليهم بالإعدام قد ارتكبوا جنايات عادية هي القتل، ولم يكن بينهم واحد محكوماً عليه بالإعدام لأسباب سياسية. فأمر حسني الزعيم بتنفيذ حكم الاعدام في هؤلاء التسعة عشر، وكان تنفيذ الحكم يتم في الفجر وفي ساحة المرجة. فبقيت أنا ثلاثة أيام أُشاهد وأنا خارج من الفندق متوجهاً إلى المكتبة الظاهرية، جثث ستة من

هؤلاء معلقة في المشانق المنصوبة على شكل دائرة في ساحة المرجة. وهي عادة ترجع إلى العهد العثماني لمزيد من تخويف الناس، وكانت تجري في لبنان، والعراق ايضاً.

وكان الشخص التالي لحسني الزعيم هو سامي الحناوي. وكان عديلاً للدكتور اسعد طلس، الصديق والزميل السابق في كلية الآداب بالجامعة المصرية. فتشفعت عنده، وكان قد صار مديراً لمكتب عديله سامي الحناوي، لإنقاذ بعض أصدقائي الموظفين من مقصلة الفصل من الوظيفة. لكنه مع الأسف لم يفلح مسعاي لأيّ منهم، بسبب نذالة ذلك المدعو علي بوظو، الذي صار هو المتحكم في أمر عملية الفصل للموظفين.

وبعد اسبوعين غادرت دمشق عائداً إلى عملي في بيروت، ونفسي حزينة مما شاهدت، متوجسة شراً لنظام الحكم في سوريا، رغم أنّني كنت أتعاطف مع المعارضين لحكم القوتلي وحزبه الوطني وجميل مردم خصوصاً، لما كنت ألمسه في رجال ما كان يسمّى «الرعيل الأول» من تخاذل وضعف وفساد ومحسوبية. لكن ما حدث بعد ذلك ـ وسيصدق هذا على سائر الانقلابات في البلاد العربية وعلى رأسها مصر ـ جعلني أردّد هذا البيت:

ربَّ يوم بكيت منه فلما   صِرت في غيره بكيت عليه

لقد توالت الانقلابات العسكرية بعد ذلك في سوريا حتى يومنا هذا:

١ ـ فحسني الزعيم قبضت عليه جماعة عسكرية بقيادة الكولونيل سامي الحناوي، الرجل الثاني في انقلاب حسني الزعيم (ا)، في ١٤ أغسطس من نفس العام، وأعدمته هو ورئيس وزرائه محسن البرازي.

٢ ـ وسامي الحناوي قد أزاله من السلطة انقلاب قام به أديب الشيشكلي في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٥١.

٣ ـ وأديب الشيشكلي لقي نفس المصير في ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٥ بواسطة انقلاب كان على رأسه شوكت الشقير، ومهّد له سلطان الأطرش، زعيم الدروز، بثورة في جبل السويداء، وحوران.

والظاهرة العجيبة في هذه الانقلابات العسكرية، على الأقل في الثلاثة الأولى منها (حسن الزعيم ـ سامي الحناوي ـ أديب الشيشكلي)، ان بعض الضباط المتزعمين للانقلاب؛ كانوا قاسماً مشتركاً فيها كلها!!

ولأدع سوريا في انقلاباتها، مترحماً على هذا البلد المسكين، الذي أصبح

مثل دول أمريكا اللاتينية.

ولم أعود لزيارتها إلاّ مرة في ابريل سنة ١٩٥٢ وأنا عائد من مؤتمر ابن سينا في بغداد، ومرة أخرى في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٨ إبّان «الوحدة» المشؤومة بين مصر وسوريا.

العودة إلى لبنان

وعدت في العاشر من ابريل سنة ١٩٤٩ إلى بيروت، واستأنفت عملي في المدرسة العليا للآداب حتى نهاية العام الدراسي في يونيو ١٩٤٩.

وفي شهر مايو أُقيمت لي حفلات توديع عديدة، من أبرزها حفلة وداع أقامها لي وزير الخارجية حميد فرنجية، وقلّدني في أثنائها وسام المعارف من الطبقة الأولى تقديراً لما قمت به في أثناء عملي في لبنان من خدمات جليلة للثقافة والفكر في لبنان. وألقيت أنا خطبة ـ من دون قراءة ـ كان لها وقع عظيم: فقد قارنت بين اقامتي هذه، واقامة الشيخ محمد عبده في عامي ١٨٨٣ ـ ١٨٨٥ وإلقائه الدروس التي ضمها كتابه «رسالة التوحيد»، وشبهت حالي بحالي من حيث ان كلينا جاء إلى بيروت بعد ان ضاقت به مصر. ومن ناحية أخرى مجدت لبنان بأساطيره وتاريخه العريق القديم. وختمت خطبتي بهذه الأبيات الجميلة:

قفا ودّعا نجداً ومَن حلَّ بالحمى ... وقلَّ لنجدٍ عندنا أن يودّعا

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الثرى ... وما أحسن المصطاف والمتربّعا

وليست عشيات الحمى برواجعٍ ... إليك ولكن خلِّ عيناك تدمعا

ونشرت الصحف خطبتي هذه كاملة، بوصفها قطعة أدبية رائعة مشبوبة بالمشاعر الجميلة نحو لبنان. وصار كل مَن يلقاني في الطريق ـ ممّن أعرف ولا أعرف ـ يهنئني عليها.

فواحسرتاه على لبنان الجميل الفاتن الذي عرفته وأمضيت فيه ملاوة من العمر تعد واحدة من المُلاوات الثلاث الجميلة في حياتي.

الكتاب الخامس

ـ ١ ـ
الدكتوراه ومذهبي الوجودي

وأعود إلى سنة ١٩٤٣ حين فرغت في شهر أغسطس من تأليف رسالتي لنيل الدكتوراه في الآداب (قسم الفلسفة) من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (الجامعة المصرية سابقاً، وقد غُيِّر الاسم في أواخر سنة ١٩٤٢ بمناسبة تسمية الجامعة الناشئة في الاسكندرية باسم: جامعة فاروق).

وكان موضوع الرسالة هو «الزمان الوجودي». وفيها عرضت مذهبي الوجودي، القائم على أساس تفسير الوجود بواسطة فكرة الزمان، وما يترتب على ذلك من اقامة مذهب فلسفي كامل. في علم الوجود، وفي المنطق، وفي الأخلاق.

واشترك في مناقشة الرسالة، وقد جرت في ٢٩ مايو سنة ١٩٤٤ الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور طه حسين والأستاذ پاول كراوس. وغصّت القاعة (المدرج ٧٨) بجمهور ضخم لم تشهد له الكلية مثيلاً من قبل؛ تجاوز الألف شخص. واستهلت المناقشة بعرض مني لمحتوى الرسالة، وهو الذي نشرته بعد ذلك بعنوان: «خلاصة مذهبنا الوجودي» في آخر كتابي «دراسات في الفلسفة الوجودية». فأكتفي بإحالة القارىء إليه (وقد أعدت نشره في «الموسوعة الفلسفية» سنة ١٩٨٤). وفي الوقت نفسه قدمت مع الرسالة ـ وهي بالعربية ـ ملخصاً وافياً، في حجم نصف الرسالة العربية؛ باللغة الفرنسية.

وبعد مناقشة استغرقت قرابة خمس ساعات قررت اللجنة منحي درجة الدكتوراه في الآداب بتقدير جيد جداً. ولما أُعلنت النتيجة حملني بعض الطلاب

على الأكتاف وداروا بي في ردهات الكلية وهم في غاية الحماسة لي. فكانت مظاهرة علمية رائعة.

ونشرت جريدة «الأهرام» في اليوم التالي (٣٠ مايو سنة ١٩٤٤) نبأ المناقشة وأوردت بالنص بعض ما قاله د. طه حسين أثناء المناقشة، وهو: «لأول مرة نشاهد فيلسوفاً مصرياً». وكان الدكتور طه قد أفاض في تقريظي واظهار الأهمية الكبيرة لهذه الرسالة. كما ان پاول كراوس قال إنَّ الرسالة تجتاز القرون لتلحق بكبار الفلاسفة والمتكلمين في القرون الثالث والرابع والخامس والسادس للهجرة.

وقد عاد د. طه حسين فكتب في مجلة «الكاتب المصري» في سنة ١٩٤٥، وهو يكتب عن الرسالة بعد ان ظهرت مطبوعة، فأكَّد ما سبق ان قاله أثناء المناقشة وزاد على ذلك كثيراً، مما زاد في إيغار صدور الحاقدين والحاسدين.

وكنت قد قمت بطبع الرسالة، وظهرت في أوائل سنة ١٩٤٥، لدى ناشري الدائم: مكتبة النهضة المصرية. وأعدت طبعها في سنة ١٩٥٥، وكانت قد نفدت بعد عام واحد من صدورها. وصدرت لها طبعة ثالثة في بيروت سنة ١٩٧٢.

وإسهامي في الفلسفة الوجودية إنَّما يرتبط مباشرة بوجودية هيدجر، ويعد إكمالاً لمذهبه في عدة نواح:

أولاً: في تفسير ظواهر الوجود على أساس الزمانية؛

ثانياً: وضع لوحة مقولات وفقاً لها ينبغي تفسير أحوال الوجود، فكما فسَّر امانويل كنت الأحكام العقلية وفقاً للوحة مقولاته الاثنتي عشرة، كذلك وضعنا نحن ـ وهو ما لم يفعله هيدجر ولا غيره من الفلاسفة الوجوديين ـ لوحة مقولات تفهم وفقاً لها أحوال الوجود. وتتميز هذه اللوحة بأنَّها تقوم على التوتر في أحوال الوجود، مما يهب الفهم تفسيراً ديناميكياً للوجود قائماً على ديالكتيك عاطفي وارادي.

ثالثاً: فهم احداث التاريخ فهماً كيفياً باعتبار ان الوجود تاريخي، وتاريخيته كيفية.

رابعاً: تفسير العدم بأنَّه الهوّات القائمة بين الذرات، لأنَّ الوجود منفصل وليس متصلاً.

❀ ❀ ❀

وقد كان عليّ بعد هذا المخطط الذي عرضته في رسالة الدكتوراه: «الزمان

الوجودي» ان أتناول موضوعات الميتافيزيقا، والمنطق، وعلوم القِيَم (الخير والجمال) وفقاً للمبادىء التي وضعتها في كتاب «الزمان الوجودي».

لكن العمر مضى دون أن أستطيع تحقيق ذلك ـ لأنَّ الاتجاهين الثاني والثالث استغرقا جهودي:

١ ـ فالاتجاه الفيلولوجي المتأصل في عقلي جعلني أهتم بنشر كل التراث اليوناني الفلسفي المترجم إلى العربية. فحققت كل ما لأرسطو وأفلاطون وأفلوطين والاسكندر الأفروديسي وبرقلس من كتب أو نصوص صحيحة أو منحولة مترجمة إلى العربية. وقمت في هذا الباب بما لم يستطع العشرات من المستشرقين الأوروبيين مجتمعين القيام به ولا بعُشره. كذلك حققت كل ما نسب إلى الفلاسفة اليونانيين من حِكَم وأقوال جامعة ضمتها مجموعات عديدة.

وكان من أبرز نتائج ما عملته في هذا الميدان:

أ ـ انني حققت نصوصاً فلسفية ضاع أصلها اليوناني، ولم يبق لدينا منها غير ترجمات عربية، فأنقذت بذلك من الضياع نصوصاً ذات قيمة، منها الحجة الأولى لبرقلس في قِدم العالم، وعشرات من رسائل الاسكندر الأفروديسي؛

ب ـ الإفادة من الترجمات العربية لمؤلفات أرسطو الصحيحة في تقويم النص اليوناني لأنَّ المخطوطات التي على أساسها تمت هذه الترجمات العربية ترجع إلى القرن الحادي عشر وفي الغالب إلى ما بعد القرن الثاني عشر.

جـ ـ الافادة من هذه الترجمات العربية القديمة مباشرة، دون حاجة إلى اعادة ترجمتها من جديد، لما تتسم به من دقة وعبارة محكمة موجزة.

وإلى جانب ما ترجم عن اليونانية عنيت بتحقيق عدد وافر من كتب الفلاسفة المسلمين: الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن باجة، وابن رشد. وكلها (تقريباً قد نشرتها لأول مرة، فكانت طبعاتها هي Editions Princeps أي أوّل طبعات لهذه الكتب. وبهذا قدمت للباحثين مادة غزيرة جداً لقيام أبحاث تالية على أساس هذه النصوص. وقد حدث لبعض ما نشرته من كتب ومجموعات أن تناولته عشرات، بل مئات الأبحاث فيما بعد، وأذكر هنا على وجه التخصيص كتابي: «أرسطو عند العرب» (ط ١، القاهرة سنة ١٩٤٧) فقد قامت على أساسه مئات من الأبحاث ـ على شكل مقالات وكتب ـ بالعديد من اللهجات. ثم «منطق ارسطو» وهو يشمل ترجمة كاملة لكل مؤلفات ارسطو المنطقية وفقاً لمخطوط باريس رقم ٢٣٤٦ عربي كم تهيّب العديد من

المستشرقين الأوروبيين دون تحقيقه منذ أكثر من مائة وخمسين عاماً او يزيد، وكل ما استطاعوا هو تحقيق عشر وريقات من (المقولات، والعبارة) فحسب!!

وأمام هذا العمل العملاق الجبار جنَّ جنون العاجزين الحاقدين من هؤلاء المستشرقين الأدنياء وتلاميذهم الأديناء، فحاولوا نقده، فكان نقدهم المزعوم هذا:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يَضِرْها وأوهى قرنه الوَعِلُ

وهيهات هيهات ان يؤثر طنين هؤلاء الذباب في جبل شامخ!

وكنت أزود جميع تحقيقاتي هذه بمقدمات مستفيضة تبلغ الواحدة منها في المتوسط ستين صفحة أعالج فيها كل ما يحيط بالكتاب المحقق من مشاكل.

٢ ـ والاتجاه الآخر، وهو تقديم الفكر الأوروبي، قد تطور من النموذج الذي على غراره ألّفت الكتب الثلاثة الأولى: نيتشه، واستنبجلر، وشوپنهور ـ إلى نموذج أكثر توسعاً وأشد اعتماداً على النصوص والتفاصيل، مثلما فعلت في كتابي عن شلنج، ثم خصوصاً في كتابي عن «امانويل كنت» المؤلف من اربعة أجزاء. وفيما أعلم، لا يوجد كتاب عن امانويل كَنتْ بهذا الاتساع والتفصيل، في أية لغة من اللغات التي أعرفها، وان كانت توجد مئات من الكتب يتناول الواحد منها جانباً او موضوعاً في فلسفة كنت على نحو أشد تفصيلاً. لكنني إنَّما أتحدث عن كتاب واحد عن «كل» فلسفة كنت: فلا كتاب كونو فشر، ولا كتاب ارنست كاسيرر بهذا الاتساع الذي لكتابي.

وحالي ها هنا تشبه حال هيدجر: فكتابه الرئيسي «الوجود والزمان» Sein and Zeit الذي صدر سنة ١٩٢٧ قد كتب عليه: الجزء الأول، لكن هيدجر توفي بعد ذلك بخمسين عاماً (سنة ١٩٧٦) دون ان يصدر جزءاً ثانياً. واضطر في الطبعة الأخيرة منه ان يحذف من صفحة العنوان كلمة «الجزء الأول»، إذ يئس نهائياً من إمكان اخراج جزء ثانٍ. وما صدر لهيدجر من دراسات كبيرة الحجم نسبياً بعد ذلك الكتاب إنَّما هي دراسات لفلاسفة: مثل كتابه عن نيتشه، وعن «كنت ومشكلة الميتافيزيقا»، ودراساته الصغيرة عن جوانب أو نقط في فلسفة هيجل، وشيلنج، وليبنتس، وهيرقليطس وأرسطو الخ.

❀ ❀ ❀

لكنني كتبت مع ذلك دراسات صغيرة عن مسائل في الوجودية أُوضح فيها بعض جوانبها وأُعبّر فيها عن رأيي؛ وهي:

١ ـ «أوجه التلاقي بين التصوّف الاسلامي والمذهب الوجودي» ـ وكانت ضمن المحاضرات الثلاث التي ألقيتها في بيروت في يناير سنة ١٩٤٧، ونشرتها بعد ذلك في كتابي «الانسانية والوجودية في الفكر العربي» (ط ١، القاهرة سنة ١٩٤٧) وفيها بيّنت العناصر الوجودية في التصوّف الاسلامي خصوصاً عند الحلاج وابن عربي والسهروردي المقتول.

٢ ـ «هل يمكن قيام أخلاق وجودية؟»، وهي محاضرة القيتها في بيروت سنة ١٩٤٨ ونشرتها بعد ذلك في «حوليات كلية الآداب» جامعة عين شمس سنة ١٩٥٢. وقد شرحت فيها رأيي في هذه المسألة، وهي ان من الصعب وضع قواعد ثابتة للأخلاق الوجودية، لأنها تقوم على الحركة والديناميكية، وهو ما يتنافى مع الثبات اللازم لـ «القواعد». وقد أثارت ضجة كبيرة في الصحف المصرية خلال عام ١٩٥٥، لكنها ضجة مبعثها الجهل التام بالوجودية وبالفلسفة بعامة.

٣ ـ «فن الشعر الوجودي»، وهي محاضرة ألقيتها في بيروت في يناير سنة ١٩٤٧ وفيها أُحاول رسم خطوط عامة لفن الشعر على أساس الوجودية. وقد نشرتها ضمن كتابي: «الانسانية والوجودية في الفكر العربي» (القاهرة ط ١ سنة ١٩٤٧؛ ط ٢، الكويت سنة ١٩٨٣).

أمّا كتابي «دراسات في الفلسفة الوجودية» (ط ١ القاهرة سنة ١٩٦٢، ط ٢، القاهرة سنة ١٩٦٥؛ ط ٣، بيروت سنة ١٩٧٢، ط ٤، بيروت سنة ١٩٨٠ ـ وكل طبعة تزيد عن السابقة عليها بما يبلغ الثلث أو النصف) ـ فيشتمل على دراسات صغيرة مبسّطة عن كل الفلاسفة الوجوديين. وقد قصدت منه تيسير فهم الوجودية على عامة المثقفين.

وبفضل ما كتبت عن الوجودية، صارت الوجودية رافداً أساسياً في تكوين غالبية المثقفين العرب، على تفاوت بينهم في مقدار فهم كل واحد منهم لها وفي تحديد موقف منها، وفي إساءة فهمها والخلط بينها وبين ما لا علاقة لها به. وهذا يدل على قوة الفلسفة الوجودية في النفوذ الى وعي المثقفين، وهو أمر لم يحظ به أي مذهب فلسفي آخر. وقد أفادت الوجودية من خصومها وأنصارها على السواء، من خصومها بإثارة الاهتمام بها، ومن انصارها بالشرح والدفاع والإيضاح. وإلاّ فليدلني أحد على مذهب فلسفي آخر حظي بما حظيت به الوجودية من اهتمام واطلاع ومساجلات!

وقد ظلَّت الوجودية بمنأى عن عبث الجهّال من الكتّاب والصحفيين والوعّاظ حتى سنة ١٩٤٥ حين صارت «الوجودية» اسماً لِـ «موضة» La Mode من «الموضات» الأدبية والاجتماعية في فرنسا غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية. وقد دارت هذه «الموضة» حول شخص جان پول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠)، فأُنشئت في باريس نواد ليلية في حي سان جرمان دي پريه St. Germain - De - Prés الذي انتقلت إليه الحركة الأدبية والفنية بعد ان كان مقرها في مونپرناس Mont Parnasse. ولست أدري ما هو الدور الحقيقي الذي قام به سارتر في خلق هذه «الموضة». لكني حين زرت باريس لأول مرة في يونيو سنة ١٩٤٦ وجدت هذه «الموضة» قد استشرت في ذلك الحيّ. وكان المنتسبون إليها والمتشوقون إلى معرفتها ومعايشتها يتخذون من مقهيين في ذلك الحيّ مثابة لهم، وهما مقهى: «الفلور» Café de Flore ومقهى Les deux Magots، بالإضافة إلى نادٍ ليلي في شارع سان بنوا St. Benoit. وقد دعاني حب الاستطلاع إلى غشيان هذه الأماكن الثلاثة لسؤال المتردّدين عليها عن الوجودية. فلم أجد شخصاً واحداً سألته يعرف أي شيء عنها، وقصاراه أن يردّد اسم: سارتر. وحين تسأله: هل قرأت له شيئاً؟ كان يتلعثم ثم يبين إلى أنّه لم يقرأ له شيئاً، وإنّما قرأ اسمه في الصحف! فأثار هذا في نفسي ضيقاً شديداً لهذا العبث بمذهب هو الغاية في الجدّ والصعوبة. وأصابني الغثيان الشديد من الحال الفكرية التي انحدر إليها الناس في فرنسا.

ولم أكن أعرف لسارتر قبل سنة ١٩٤٥ أي علاقة بالوجودية. لقد قرأت له قبل ذلك كتابه الأول في علم النفس وعنوانه: «التخيل» (سنة ١٩٣٦)، ومقالاً عن «علوّ الأنا» (في مجلة Recherches plus compliqués التي كان يصدرها استاذنا كويريه) ـ ولا صلة لكليهما بالوجودية، بل هو تأثر فيهما بعلم النفس عند هسرل. وأول ـ وآخر كتاب لسارتر في الوجودية هو كتابه: «الوجود والعدم» (سنة ١٩٤٣)، ولم أشاهده ولم أقرأه، إذن إلاّ في باريس في صيف سنة ١٩٤٦ لما ان زرت باريس لأول مرة. ولما قرأته وجدته بعيداً كل البعد عن وجودية هيدجر، وخليطاً من التحليلات النفسية. فدهشت من زعم سارتر وحوارييه ان هذا الكتاب هو إسهام في المذهب الوجودي، خصوصاً في الانطولوجيا (= علم الوجود). ومنذ قراءتي له لم أشعر نحو سارتر بأي تقدير من الناحية الفلسفية. وعددته مجرد أديب، وباحث نفساني يستند إلى منهج

الظاهريات. ولم أعتبره ابداً فيلسوفاً وجودياً، قد أسهم بأي إسهام يذكر في تكوين المذهب الوجودي.

وهذا ما صرّحت به لمحررة في جريدة Samedi - soir الأسبوعية الواسعة الانتشار آنذاك في باريس سنة ١٩٤٧ حين سألتني عن رأيي في وجودية سارتر.

وقد زار باريس غداة الحرب العالمية الثانية في أعوام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧ بعض الصحفيين المصريين. ولأنهم في غاية الجهل والصفاقة والادعاء، فإنّهم لما سمعوا الناس في باريس يتحدثون عن الوجودية، ورأوا فتيات وفتياناً في حي سان جرمان دي پريه متحررين من بعض القيود الاجتماعية ـ خصوصاً في العلاقات الجنسية ـ فقد توهموا أنَّ هذه هي الوجودية، مع أنَّ هذا التحرر أمر سائد في باريس منذ مئات السنين، ولا علاقة له بأي مذهب فلسفي كائناً ما كان. لكنها التفاهة والجهل والادعاء الكاذب قد حملت هؤلاء الصحفيين المصريين على أن يربطوا بين ما هو مشاهد منذ مئات السنين في باريس وبين «الموضة» السائدة لها آنذاك، أي «الوجودية». ولم يكلفوا أنفسهم قراءة أي كتاب بسيط عن الوجودية حتى يفهموا ما هي. فلما عادوا إلى مصر راحوا يكتبون مقالات عما شاهدوا في باريس، فزعموا أنَّ الوجودية هي التحرر الأخلاقي خصوصاً في أمور الجنس!! وبثوا هذا الجهل الفاحش في نفوس القراء في مصر، فلم يعد في أذهان هؤلاء للوجودية من معنى غير ما زعمه هؤلاء الصحفيون الممعنون في الجهل والتفاهة والادعاء. والمصري بطبعه لا يتمعن من أي شيء يقرأه أو يسمعه، بل يصدق أي شيء ما دام الأمر لا يتعلق بمصلحته الشخصية.. والعجيب في أمره انه اذا وَقَرَ في ذهنه أي شيء، حتى أكذب الأكاذيب، فإنّه لا يتخلّى عنه بعد ذلك مهما آتيت إليه على عكسه بألف دليل ودليل. ولهذا كان من المحزن حقاً ان تسمع من أفواه المستشارين في القضاء وكبار المحامين والأطباء والمهندسين الخ نفس هذا الجهل الفاضح عن الوجودية الذي تلقاه من كتابات الصحفيين الموغلين في أحط درجات الجهل، وذلك لأنهم لا يكلفون أنفسهم عناء قراءة أي كتاب جاد في أي موضوع خارج عن مهنتهم، ولا يحققون في صحة ما يسمعون او يقرأون. وهذا في نظري أعضل داء أُصيبت به عقول المصريين. فما بالك إذا انضاف إلى هذا الجهل المركب العنيد الحقد الأزرق المدمّر!

ـ ٢ ـ
الرحلة إلى باريس

وكانت رحلتي الأولى إلى باريس في يوم السبت الثاني والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩٤٦، على متن طائرة تابعة لشركة ايرفرانس Air France. ولم تتوقف الطائرة إلاَّ في تونس. ووصلت باريس حوالى الساعة السادسة مساء. وتوجهت مباشرة إلى فندق لوتسيا Lutetia (٤٣ شارع Raspail في القسم السادس) لأنَّه كان يقيم فيه آنذاك زميل وصديق هو الدكتور مصطفى زيور، وكنت قد كتبت إليه أُخبره بحضوري إلى باريس. فاستقبلني عند مدخل الفندق ولما أتممنا عملية التسجيل في الفندق، صحبني للبدء في تعريفي بباريس: كيف استعمل «المترو»، وللتجربة ركبنا الخط الرئيسي الذي يمرّ من محطة سڤر ـ بابلون Sèvres - Babylone التي عندها يقوم فندق لوتسيا ـ وهو خط Porte de la chapelle - Mairied'Iny. ونزلنا في محطة بيجال Pigalle، ومررنا في الشوارع المحيطة بها، وهي كلها تزدحم بملاهي الليل. واكتفينا بالتجوال نصف ساعة في حي بيجال. ثم عدنا إلى فندق لوتسيا، حيث أَقَمْتُ في الغرفة رقم ١٢١ اي في الطابق الأول. وهي غرفة ذات حمام، وسعرها آنذاك ٣٥٠ فرنك فرنسي قديم، أي ما يعادل اليوم ثلاثة فرنكات ونصفاً. فهل تعلم، أيُّها القارىء، كم سعرها اليوم؟ سبعمائة فرنك فرنسي جديد، أي انها زادت مائتي مرة في خلال اربعين عاماً! هذا بينما مرتب عضو هيئة التدريس في الجامعات المصرية لم يزد إلاَّ مرتين اثنتين خلال هذه الأعوام الأربعين!!

ولما تناولت العشاء في الفندق شعرت بالضيق: فالخبز مقنَّن، واللحم ممنوع في معظم الأيام، ومنها يوم وصولي، ولم يكن في قائمة الطعام غير حساء رديء وقطعة صغيرة من اللحم القديد Cerrine وقطعة من الكعك! فانقبضت انقباضاً شديداً وقلت لنفسي: أهذا كل ما تستطيع ان تقدمه باريس من طعام، مع ان رأسي كان مملوءاً بأسماء أطباق شهية وبما ذاع عن المطبخ الفرنسي من أكاذيب تتحلب من سماعها الألسنة وتتلمظ الشفاه؟! ورحت أتطلع في النادلين (الجرسونات) بثيابهم السوداء الرسمية وهم يجولون بالأطباق وكأنَّهم في مأدبة من مآدب لوكلّوس؛ أو لويس الرابع عشر؛ بينما هم لا يقدمون إلاَّ أردأ ما يتصوره الانسان من الطعام!

وتركت المائدة منقبضاً آسفاً، ورحت إلى غرفتي، أنشر أمامي خريطة باريس، استعداداً لتجوالي في الغداة. وقد رسمت في ذهني خطة ان أبدأ بمواقع رينان في باريس. وفي الصباح الباكر، بعد فطور رديء كانت القهوة فيه من الشيكوريا المحمّصة، سرت في شارع سفر Sèvres ثم شارع Vieux Colombier، حتى بلغت كنيسة سان سولپيس St. Sulpice. فدخلتها وكان اليوم يوم الأحد، فشاهدت جانباً من القداس. ثم خرجت عن يسار لأبحث عن معهد سان سلپيس الديني الذي تعلّم فيه رينان من سنة ١٨٤١ إلى سنة ١٨٤٥، لكني وجدت مكان المعهد قد احتلته مراقبة ضرائب Hôtel des Finances! فمضيت إلى شارع پونابرت الذي تمتد عليه هذه البناية، وصعدت فالتقيت بشارع ڤوجيرار Vaugirard. وهنا تذكرت عبارة رينان في كتابه: «ذكريات الطفولة والشباب» التي يقول فيها: لقد أمضيت في باريس عامين لم أعرف فيهما من باريس إلاّ شارع «ڤوجيرار» ـ لأنّه الشارع الطويل جداً ـ وهو أطول شارع في باريس، إذ يبدأ من ميدان السوربون ويستمر حتى نهاية باريس عند ضاحية ايسي Isey ـ الذي كان يسلكه رينان في ذهابه من معهد سان سولپيس إلى ضاحية ايسي حيث يوجد بيت اقامة الطلاب المنتسبين إلى معهد سان سولپيس. وخطر ببالي ان أسلك هذا الشارع على قدميّ، مثلما كان يفعل رينان؛ لكنني رأيت ان هذا ليس وقته آنذاك، فلؤأجل ذلك إلى فرصة أخرى. خصوصاً وقد رأيت نفسي أمام حديقة اللوكسمبور Luxembourg التي قرأت عنها الكثير.

فدخلت حديقة اللوكسمبور، وطوّفت بالناحية الجنوبية منها، حيث توجد تماثيل الشعراء: بودلير، وڤرلين، وهرويا، وڤكتور هيجو. ويطلق اسم «اللوكسمبور» على القصر والحديقة الواسعة الممتدة وراءه. وكانت ماري دي مدسيس Marie de Médicis الوصية على العرش قد أمرت ببناء هذا القصر، فتولى بناءه سالومون دي بروس De Brosse في المدة من سنة ١٦١٥ إلى سنة ١٦٢٠. وقد جعل المدخل الرئيسي بوابة ضخمة مزينة بقبّة مثمّنة الأضلاع تمثل فن لويس الثالث عشر. وزينت غرف القصر بلوحات للرسّام روبنس Rubens (سنة ١٦٢٢)، والرسّام پوسان Poussin، وفيليب دي شامباني Philippe de Champagne. وفي الثورة الفرنسية صار سجناً، ثم صار مقراً لحكومة الادارة (سنة ١٧٩٥) ولحكومة القناصل. ثم صار بعد ذلك مقراً لمجلس الشيوخ سنة ١٨٠١، ثم لمجلس الأعيان Chambre des Paris (سنة

١٨١٥ ومنذ سنة ١٩٥٨ عاد من جديد مقراً لمجلس الشيوخ. قد أحدث فيه المهندس دي جيزور De Gisors تعديلات سنة ١٨٣٦ ـ ١٨٤١).

وأبرز معالم الحديقة «نافورة آل مدتشي» عن يسار الداخل من شارع فوجيرار من الباب الحديدي القائم على يسار القصر. لكنها مظلمة الجو بسبب الظلال الكثيفة التي تلقيها الأشجار، ثم النافورة التي تتوسط الحديقة، وهي نافورة حقيقية، لأنَّ الماء يندفع معها في أغلب أوقات النهار، فيصب في بركة واسعة يدفع إليها الأطفال بسفنهم الصغيرة.

ومنذ دخلت حديقة اللوكسمبور في ذلك اليوم ـ ١٩٤٦/٦/٢٣ ـ وقد صارت أحبّ المنازه في باريس إلى نفسي. وصار من عادتي ان أغدو إليها كل يوم في الساعة السادسة مساء حتى مغرب الشمس، مستمتعاً بروضات أزهارها المفوّفة العديدة الألوان، وقد نُضّدت أجمل تنضيد يشهد بمهارة فن البساتين عند الفرنسيين.

وتبلغ الحديقة ذروة جمالها في أشهر الصيف الأربعة؛ ثم تأخذ أوراق أشجارها ـ ومعظمها من القسطل ـ في الاحمرار والانتشار، فتتخذ في الخريف منظراً مثيراً للأحزان. وفي الشتاء تتعرّى من كل أوراقها، فتصبح كئيبة كأن لم تغن بالأمس. ثم تعود البراعم في شهري ابريل ومايو، وتسترد الأشجار اوراقها الطريّة، وتنبعث الحياة من جديد في هذه الحديقة التي هجرها الناس طوال الشتاء. إن الشعور بتغيير الفصول بارز كل البروز في هذه الحديقة.

وكثير من القصائد التي نظمتها في أثناء مقامي بباريس إنَّما نظمتها في حديقة اللوكسمبور في ساعات الأصيل وأنا جالس عند روضة الزهر الواقعة على يسار النافورة إذا نظرت إلى الساعة الموجودة في أعلى القصر، إذ كنت أجلس في هذا الموقع عادة تحت ظل شجرة رمان تفتّحت أزهارها الحمراء. وكم قضيت ساعات في هذا الموضع مع فتيات من السويد، او النرويج، او النمسا او هولندة؛ نتبادل الأحاديث العذبة الرقيقة! لقد كنت آنذاك شاباً أدور حوالى الثلاثين من العمر، وللشباب سحره الذي لا يعوّض عنه شيء. فواحسرتاه اليوم على نفسي وأنا أرتاد هذا الموضع الآن دون صاحبة ولا رفيقة! وإنّي لأناجيهن في الذكرى وأقول:

أين أنتنَّ الآن، أيَّتها الصواحب!

وماذا حلَّ بكنّ، وماذا فعل المصير بكنّ!

كان الوصال إمَّا قصيراً، وإمَّا طويلاً؛ وفي كلا الحالين كان الفراق نهائياً.

كان الوصال كهذه الأزهار الماثلة أمام عينيّ: برعم، ثم يتفتّح ملاوة من الزمان، ثم تذبل الزهرة، وتموت بلا بعث ولا رجعة.

كانت العلاقة على دَخَلٍ: استمتاع بالشهوة من جانبي، وطمع في الزواج من جانبهن. فكان لا بد للعلاقة ان تنقطع، مهما طالت المناورة بيني وبينهن.

سلما Salma، أولاّ Ulla، هندريكا Hendrika، نلكا Neleka، جردا Gerda، انكرنا Encarna، الخ الخ ـ أسماء ترن الآن أصداؤها في أذني، وأهتف بها في داخل ذاكرتي، لكن لا سميع ولا مجيب!

إن نسيتنّ فهذه أشجار القسطل شواهد باقيات على ما تبادلنا من قبلات، ما دار بيننا من أحاديث وزفرات، وما استولى على مشاعرنا من مواجيد وانفعالات، وما تحدر من عيوننا من عَبَرات.

غفر الله لكنّ إن كنتنَّ نَسِيتُنَّ. أما أنا فما زالت الذكرى مشبوبة، والدموع مصبوبة، والحظوظ مندوبة.

لكن سواء لديّ ان تكنَّ حاضرات او غائبات: لأنّكنَّ لن تجتمعن معاً، ولن تغبن معاً،

لن تجتمعنَّ معاً لأنّني لن أستطيع الجمع بينكنَّ
ولن تغبن معاً لأنّكنَّ بضعة من حياتي.

وبعد جولة سريعة في أرجاء حديقة اللوكسمبور خرجت من الباب المواجه للپنثيون. وانحدرت في شارع سان ميشيل قاصداً كنيسة نوتردام Notre - Dame de Paris، فوصلت إليها في الساعة الحادية عشرة، وكان القدّاس على وشك الانتهاء. فاستمعت إلى بعض الأناشيد والموسيقى، وصوّبت نظري في أرجاء الكنيسة، والألوان الزاهية تملؤها من الورديات الثلاث: وردية الباب، والوردية اليمنى، والوردية اليسرى عند طرفي العرضية Transept فاستروحت هذا الجوّ السحري العابق بالألوان والأنغام.

وكنيسة نوتردام دي پاري يرجع الفضل في تشييدها إلى أسقف پاريس، موريس دي سولّي Maurice de Sully، الذي صمَّم على تشييد كنيسة عظيمة بدلاً من الكنيسة القديمة التي كان الملك شلدبير Childeber قد أمر بإنشائها في سنة ٥٢٨ م. راح سولّي يجمع الهبات من الملك ورجال الكهنوت والنبلاء وعامة الناس، حتى جمع من المال قدراً وافراً. وطلب من البابا الكسندر الثالث ان يضع حجر الأساس في سنة ١١٦٣. وتوفي موريس دي سولّي في سنة

١١٩٦، فاستطاع إذن أن يشرف طوال ثلاث وثلاثين سنة على تشييد هذه الكنيسة.

بيد ان بناءها لم يكتمل إلاً في سنة ١٣٣٠، أي بعد ١٧٠ سنة من وضع حجر الأساس. ويمكن بيان تاريخ بناء أجزائها على النحو التالي:

- في عهد حكم لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠): الكورس، والمذبح الرئيسي، والعَرَضية؛

- في عهد حكم فيليب أوجيست (١١٨٠ - ١٢٢٣): الطولية nef، ما عدا الصفوف الأولى؛

- في عهد حكم القديس لويس، لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠): الصفوف الأولى Travées، والواجهة، والبرجان.

ثم أُضيفت بعد ذلك بعض التحسينات: اطالة العرضية، والاضافات: الجدار الدائري الداخلي Jubé، والكاپلاّت، ويابا العرضية، - والتقويات: العقود ذوات طول ١٥ متراً. واكتملت نهائياً في عهد فيليب السادس (١٣٢٨ - ١٣٥٠)، وذلك في عام ١٣٣٠.

ويمثل بناؤها انتقالاً من الطراز الروماني إلى الطراز القوطي.. ويتمثل الروماني في الأعمدة الضخمة المستديرة، بينما يتمثل القوطي في الأعمدة الرفيعة السامقة التي تصّاعد حتى سقف الكنيسة، وفي العقود المتقاطعة.

وواجهة نوتردام تتألف من ثلاثة قطاعات متساوية، تعلوها ثلاثة أخرى، تعلوها ثلاثة ثالثة، ويتناقص اتساعها كلما صعدنا في هذه القطاعات الثلاثية.

واتساعات الأبواب الثلاثة متفاوتة، وأوسطها هو أوسعها. والأيسر منها (إذا ما واجهت الواجهة) يتخذ عقده شكل مثلث، بينما الآخران ذوا عقد أقرب إلى الاستدارة. وفي كل عقد صفوف متوالية من التماثيل الصغيرة المنحوتة في البناء. والباب الأوسط يدعى باب «يوم الحساب»، والأيمن باب القديسة حنة (أم العذراء مريم)، والأيسر باب العذراء. وعلى جوانب الأبواب تماثيل كبيرة للحواريين.

وفي القطاع الثلاثي الثاني، في وسطه، وردية Rosace كبيرة قطرها عشرة أمتار تحتوي على ألواح زجاجية يقال إنّها ترجع إلى زمان بناء الكنيسة. وهذه الوردية على شكل هالة تحيط بتمثال العذراء مريم التي يحيط بها ملكان يحملان شمعدانات، كانت توضع فيها شموع تضاء في ليلة الخميس إلى الجمعة إبّان فترة السُّدَاس Sexagésime؛ بينما كهنة الكنيسة يحتشدون في

الساحة المواجهة للكنيسة ويمضون الليل في إنشاد الأناشيد الدينية.

وفوق قطاع الوردية دهليز كبير يتألف من صف من الأعمدة الحجرية المتشابكة، طول الواحد منها ٥ أمتار وقطره ١٨ سم.

أمَّا البرجان، فالأيسر منهما أوسع من الأيمن. وفي البرج الأخير ناقوس قديم، كان سير مونتيجو Sire de Montaigu قد أهداه في سنة ١٤٠٠ شكراً لله على ان زوجته، جاكلين قد أنجبت بنتاً. وفي عهد حكم لويس الرابع عشر في سنة ١٦٨٦، أنزل هذا الناقوس وصُهر مع كمية مساوية من البرونز، وقامت السيدات النبيلات وبعض سيدات الشعب بالقاء حليّهنّ من الذهب والفضة في هذا الانصهار؛ ويقال إنَّ ذلك هو ما أعطى لهذا الناقوس صفاء نغماته. وتبلغ زنته ثلاثة عشر ألف كيلوجرام. ولم يكن لهذين البرجين أيّ سهم، وإن كان بناؤهما قد صُمِّم من أجل تحمل سهام.

وقد ظلّت كنيسة نوتردام زماناً طويلاً بيتا للشعب: يتجمع فيه أهل باريس لشؤونهم الهامة؛ وفيها كان يحرّر العبيد؛ وتمثل مسرحيات دينية تسمَّى «الأسرار» Mystères؛ وكانت ملاذاً للفقراء و المطاردين. واذا سافر أحدهم سفرة طويلة أودع فيها أشياءه الثمينة، كما كانت تعقد فيها العقود بين المتعاقدين. واجتمع فيها البرلمان Etats Géneraux مرتين: الأولى في سنة ١٣٠٢ لتأييد الملك فيليب الجميل في نزاعه مع البابا، والثانية في سنة ١٣١٦ للنظر في امكان تولي بنات الملوك العرش.

وفي عهد الثورة الفرنسية (١٧٨٩ ـ ١٧٩٥) عانت كنيسة نوتردام الويلات من الثوار. فنهبت، وصهرت كنوزها، ووضع على المذبح الرئيسي شعلة الحرية. وألقي بتماثيل ملوك اليهودية الثمانية والعشرين على الأرض فتحطمت كلها. وبلغ التدمير ذروته لما أعلن عن قرار لهدم الكنيسة، وأوشك هذا الهدم ان ينفذ لولا أحداث ٩ ترميدور (٢٧ يوليو سنة ١٧٩٤) التي انتهت بإعدام روبسپيير Robespierre وكوتون Couthon وسان جيست Saint - Just و١٩ من رفاقهم في الإرهاب. وهكذا نجت كنيسة نوتردام من الهدم. وجاء نابليون في سنة ١٨٠٢ فأعادها إلى العبادة؛ وتوّج فيها نابليون امبراطوراً في ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٤.

وظلّت نوتردام على حالها من التخريب، إلى ان أصدر ڤكتور هيجو في سنة ١٨٣١ كتابه الشهير: «نوتردام دي باري» Notre - Dame de Paris في سنة ١٨٣١ فحرّك وجدان الفرنسيين لاصلاح كنيسة نوتردام، وقامت حركة أدت إلى

حمل المجلس النيابي على اقرار اعتماد بمبلغ يزيد على ٢,٥ مليون فرنك لاصلاح الكنيسة، وعهد إلى كل من لسّوس Lassus وڤيوله لو دوك Viollet - le - Duc المعماريين بترميم هذه الكنيسة في سنة ١٨٤٥. ولما كان لسّوس قد توفي في سنة ١٨٥٧ فإنَّ العمل الأكبر في هذا الترميم قد تولاه ڤيوليه لو دوك الذي سلخ خمسة وعشرين عاماً في هذا العمل العظيم، وقد صمَّم على إعادة الكنيسة كما كانت في القرن الرابع عشر وإزالة كل التعديلات التي تمت بعد ذلك؛ وهكذا أعاد نوتردام إلى الحال التي كانت عليها في سنة ١٣٣٠.

وقد قوبل عمل ڤيوليه لو دوك هذا بالاستنكار من جانب بعض نقاد الفن؛ حتى تساءل بعضهم: هل أنقذ، أو على العكس مسخ، ڤيوليه لو دوك كنيسة نوتردام، والكاپلاّ المقدسة Sainte Chapelle، وكنيسة سان مرّي St. Merri في باريس، وكنيسة المادلين في ڤزليه Vezelay؟ لقد أخذوا عليه ان لديه تصوراً عقلياً للفن القوطي، يحمله على ان يحذف او يضيف ما يراه متفقاً مع هذا التصور. وتبعاً لذلك حذف كل التحويلات والاضافات التي اجريت لكنيسة نوتردام في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

والرأي عندي ان هؤلاء النقاد قد ظلموا ڤيوليه لو دوك ظلماً كبيراً: فإنَّ أية إضافة للمعمار القوطي من شأنها ان تشوّهه. إن ميزته الرئيسة هي التجرد من التوشيات، وتمكين النور من ملء فراغ الكنيسة، والعمل على تزويد المشاهد بانطلاقة نحو السماء، وكأنَّ الكنيسة وثبة إلى أعلى وسَبْحة في ملكوت الفضاء.

ومنذ ان شاهدت كنيسة نوتردام دي پاري. في يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر يونيو سنة ١٩٤٦، وهي مقصدي في صباح كل أحد أكون فيه موجوداً في باريس: أولاً لسماع الأناشيد الجريجورية المصحوبة بموسيقى الأورغن، وثانياً: تأمل الألواح الزجاجية الملوّنة. فكلا الأمرين يملأ نفسي وسمعي وبصري بمشاعر وأحاسيس سامية. وتلذّ لي خصوصاً ان أجلس على مقعد في مواجهة ألواح زجاج الكابلّة الموجودة في الطرف الشرقي الأقصى من الكنيسة: فإنَّ ألوان قطع الزجاج هناك تؤلف سيمفونية رائعة من الألوان التي يسود في بعضها الأحمر والأصفر، وفي بعضها الآخر الأزرق والكحلي الغامق. وهناك أنطلق في تأملات لا نهاية لها، منتشياً بألحان الأناشيد الجريجورية.

❁ ❁ ❁

وخرجت من كنيسة نوتردام عند الظهر، وخطر ببالي ان أستعيد ذكريات

بطرس أبيلارد، ومغامرته الغرامية في هذه المنطقة مع بنت أخي فولبير Fulbert. فاتجهت إلى شارع «المنشدين» Rue des Chantres وصرت قبالة الموقع الذي كان فيه دير نوتردام Le Cloitre Notre - Dame، وكان هذا الدير بمثابة مدينة صغيرة قائمة برأسها لها سور فيه ٤ أبواب، وحارات، وبيوت وبساتين. وفيه كان يقيم كهنة نوتردام القانونيون Chanonies. وقد تخرّج في هذا الدير عدد من كبار رجال الكنيسة، سبعة منهم صاروا بابوات، و٢٩ صاروا كرادلة، وعدد كبير من الأساقفة. وكان فيه مدرسة بلغت في القرن الحادي عشر مكانة رفيعة في التعليم، وكان يدرّس فيها الفنون الحرّة السبعة: الثلاث: النحو والمنطق والخطبة، والرباع: الحساب، والهندسة، والفلك، والموسيقى. وكان فيها أساتذة ممتازون، نخص بالذكر منهم جيوم دي شامپو، وصاحبنا بطرس أبيلارد، واسكندر الباريسي Alexandre de Paris الذي اخترع الوزن الاسكندري (والبيت فيه مؤلف من ١٢ قدماً)، وبطرس اللومباردي صاحب كتاب «الأقوال» الذي صار النص المعتمد الذي تتوالى عليه شروح الشرّاح (مثل «المواقف» للايجي، في الاسلام)، وموريس دي سولّي (صاحب الفصل في الدعوة إلى تشييد كنيسة نوتردام) والقديس دومينيك (مؤسس طريقة الدومنكان)، والقديس بونافنتورا لـ «العلامة الساروفيمي»). ولما صار أبيلارد خصماً لأستاذه جيوم دي شامپو في مسألة «الكليات» (هل «الكلي» في الذهن والواقع ـ أو في الذهن فقط؟) ارتحل أبيلارد من هذه المدرسة، وأنشأ لنفسه مدرسة خاصة به في الضفة الشرقية من نهر السين بين الكروم الواقعة على جبل سانت چنڤياڤ (حيث يوجد الآن البانتيون وما حوله).

وقد زالت مدرسة دير نوتردام في سنة ١٢٠٠ حين أنشأ الملك فيليب أوجيست جامعة باريس.

وفي بيت من بيوت هذه الأزقة كان يسكن الكاهن القانوني فولبير Fulbert ومع بنت أخيه هلويزة Héloise. وكانت هلويزة من أسرة نبيلة، وأمّها هرسندة Hersande كانت على علاقة مصاهرة مع آل مونتمورنسي Montmorency ونُشئت هلويزة في دير ارجنتيني Argentinil. وأراد لها عمُّها تكميل تربيتها، فعهد بذلك إلى أبيلارد. فعشقها أبيلارد، وبادلته هي الغرام، وكان أبيلارد يقيم عند فولبير. وفي هذا يقول أبيلارد: «لم يكن لنا غير بيت واحد، وعما قليل لم يصر لنا غير قلب واحد». وبدأ أبيلارد يكتب شعراً باللغة العامية (الفرنسية). وأثمرت علاقة أبيلارد مع هلويزة، فحملت منه. فأخذها أبيلارد

في الليل وحملها إلى اقليم بريتاني عند أخيه دنيس Denyse. وهناك ولدت هلويزة ولداً سمّي بطرس اسطرلاب. فأراد أبيلارد عقد الزواج بها، لكنها رفضت لأنّها وهي التي تعرف قدر عبقرية أبيلارد، لم تشأ أن تشغله بشئون الأسرة، وراحت تدلل على ذلك بشواهد من كتب رجال الدين اللاتين واليونان. ويقال انها وافقت بعد ذلك، وعقد الزواج.

أمام هذا العار صمّم عمها (أو خالها) فولبير على الانتقام. فاتفق مع خادم لأبيلارد، وجاء في جنح الليل مع عصبة من أصدقائه وأقربائه، ودخلوا غرفة نوم أبيلارد، وأوثقوه بالحبال، ثم جبّوا قضيبه!

وقد اكتفيت بهذا القدر من المشاهدات في اليوم الأول (١٩٤٦/٦/٢٣) من إقامتي في باريس.

وفي صباح اليوم التالي (الاثنين ٦/٢٤) اشتريت «الدليل الأزرق» Guide Bleu الخاص بباريس والصادر عن دار النشر الشهيرة هاشت Hachette. وأخذت في قراءته، ورسم خطة منظمة منهجية لمشاهدة المعالم الأساسية في باريس. وأقرأ في المساء ما سأشاهده منها في اليوم التالي.

الطلبة المصريون في باريس

ولمّا عرف بعض أصحابي من الطلبة المصريين في باريس أنّي وصلت، اتصلوا بي.

وكان في باريس في ذلك الوقت ـ صيف سنة ١٩٤٦ ـ عدد كبير من الطلاب المصريين الذين وصلوا إليها منذ بضعة أشهر. وكانوا ثلاث فئات: مبعوثين على حساب الحكومة المصرية، مبعوثين على حساب الحكومة الفرنسية، وطلاباً يدرسون على حساب أهلهم. والفئة الثالثة كانت أكبر هذه الفئات عدداً. والجميع قد جاءوا للحصول على الدكتوراه: دكتوراه الدولة، إن كانوا من الفئة الأولى، ودكتوراه الدولة أو الجامعة إن كانوا من الفئتين الثانية والثالثة. وأبناء الفئات الثلاث كانوا يسكنون إمّا في المدينة الجامعية، أو في فنادق صغيرة تقع غالباً إمّا في منطقة باب أورليان Porte d'Orléans، وإمّا في شارع المدارس الذي تطل عليه السوربون.

وإلى جانب هؤلاء الطلاب المستجدين، كان هناك بقايا مختلفة من بعثات قديمة وصلت إلى فرنسا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، ومضى على بعضهم

في باريس (أو فرنسا بعامة) عشر سنوات أو يزيد دون أن يحصلوا على الدكتوراه.

وكان بوليڤار سان ميشيل St. Mishel يعج آنذاك بالآلاف من الطلاب الأجانب: العرب، والأفارقة الذين قدموا من المستعمرات الفرنسية الافريقية، والسّود الذين وفدوا من المستعمرات الفرنسية في المحيط الأطلسي أو الهادي او الهندي. وطوال الأربعين سنة التي قدمت فيها إلى باريس لم أشهد مثل هذا القدر الهائل من الطلاب الأجانب. كنت تسير في بوليڤار سان ميشيل فلا تسمع في الغالب إلاّ اللغات الافريقية ولهجات المستعمرات في المحيطات الثلاثة، أو اللغة العربية.

وكان مركز تجمعهم الرئيسي في مقهى ديپون Dupont عند تقاطع بوليڤار سان ميشيل وشارع المدارس. وكان واسعاً جداً، أمّا الآن فلم يبق منه - مع تغيير اسمه - إلاّ أقل من سُدْسه. وكان يعج بالحركة والتنوع طوال النهار وشطراً كبيراً من الليل، فلا يغلق أبوابه أكثر من ست ساعات في اليوم الكامل. وكان المشروب فيه يتراوح بين سبعة سنتيمات، وبين ثلاثين سنتيماً، أمّا اليوم فيتراوح بين خمسمائة وخمسين سنتيماً، وبين ألفي سنتيم!!

ومن أطرف الشخصيات الذين عرفتهم في هذا المقهى - وكان يقضي معظم أوقاته فيه - شاب سوري يدعى عبد الرحيم آل شلبي، لكنه كان يغضب ويثور اذا ناديناه بهذا الاسم، ويطلب منا ألاّ نناديه إلاّ باسم: «آله» فقط! وقد جاء إلى باريس سنة ١٩٣٧، وظلّ بها حتى سنة ١٩٤٧ دون ان يحصّل أية شهادة، وكان قد جاء للحصول على الليسانس ثم الدكتوراه في الآداب. وكان مع ذلك يتقن اللغة الفرنسية، ويقرأ الكثير من كتب الأدب الفرنسي. وكان يأتي المقهى حاملاً حقيبة كبيرة من الجلد فيها بعض كتب الأدب الفرنسي، وخصوصاً كتب الأدباء المعاصرين ذوي الشهرة المشبوهة مثل بوريس ڤيان Boris Vian؛ كما يحمل فيها كيساً مملوءاً بالشاي والسكر. وكان طلبه الوحيد هو: ماء مغلي Infusion وذلك ليضع فيه الشاي والسكر. وكان ثمن هذا الطلب سبعة سنتيمات.

وكان في حديثه معي يثير دائماً موضوعاً واحداً: وهو أنّني وأمثالي من المؤلفين لا يخلقون جديداً أمّا هو فيريد أن يخلق أدباً جديداً تماماً صادراً عن تجاربه الحية الشخصية وحدها! وفعلاً راح يكتب عن تجاربه هذه، وسوّد من ذلك صفحات تبلغ الثلاثمائة تقريباً. ولما عاد إلى بلده حلب (سوريا) طبعها في كتاب سمّاه: «من المجهول إلى المايا». ورأيته بعد ذلك في دمشق، بعد ان طبع الكتاب بعدة أشهر، فسألته عن حال كتابه هذا من حيث البيع؟ فراح يندب حظّه، ويقول إنّه

لم يبع منه في ستة أشهر إلاّ نسختين اثنتين! فقلت له متهكماً: «هذه النتيجة سببها ان كتابك خَلْق جديد تماماً. والناس لا يحبّون إلاّ ما تعودوا عليه!» وهذا الكتاب هو في الواقع نوع من الهذيان الذي لا معنى له ولا ينطوي على أية أفكار أو مشاعر حقيقية.

وصاحبنا هذا هو نموذج لنمط من الطلاب في باريس وسائر بلاد أوروبا، يظنون او يوهمون أنفسهم ان الانتاج الأدبي وحي يتنزل على المرء من مجرد غشيان المقاهي الأدبية، وان الابتكار العلمي في مختلف فروع العلوم الانسانية والفيزيائية يتم بمجرد مرور الزمان الطويل منتسباً إلى هيئة علمية أو مسجلاً لتحضير درجة جامعية! وهم يبرّرون عجزهم بشتى المبرّرات التي لا يصدقها أحد، ولا هم أنفسهم وتمتلىء نفوسهم بالمرارة والحقد والذّحل ضد أولئك الذين انتجوا وأنجزوا ما عليهم من مهمات!

❀ ❀ ❀

وفي مقهى «ديبون» Dupont هذا تعرّفت إلى بعض الطلاب العرب الذين سيخوضون غمار السياسة في بلادهم: فمن التونسيين الشاذلي القليبي، الذي صار وزيراً للثقافة في تونس، ثم أميناً عاماً للجامعة العربية بعد انتقال مقرها إلى تونس في سنة ١٩٨٠؛ وأحمد بن صالح الذي صار وزيراً للمالية وضحية لتصرفاته الانقلابية؛ ومحمود مسعدي، المؤلف المسرحي ووزير التربية والتعليم؛ ـ ومن المراكشيين: عبدالله ابرهيم، الذي صار رئيساً للوزراء ـ ومن العراقيين والسوريين أعداداً كبيرة متباعدة الاتجاهات، تولوا الوزارات في ظل الانقلابات المتوالية العديدة في العراق وسوريا.

وفي هذا المقهى ايضاً ـ في سبتمبر سنة ١٩٤٦ ـ تعرّفت إلى شخصية فريدة ستصبح في السنوات التالية حتى سنة ١٩٥٤ معلماً بارزاً في إبّان إقامتي في باريس كل عام، وأعني بها يونس بحري، الصحفي والمذيع من برلين إبّان الحرب العالمية الثانية، وصاحب المغامرات الطويلة العريضة في أرجاء العالم الاسلامي وأوروبا.

ولما عرفته آنذاك ـ في سبتمبر سنة ١٩٤٦ ـ كان قد هرب من المانيا قبل انهيارها في مايو سنة ١٩٤٥ بصحبة المفتي الحاج أمين الحسيني وبعض مَن كانوا يعملون مع هذا الأخير في برلين. واعتقل في باريس لبعض الوقت هو وهذه الجماعة، ثم أُفرج عنهم.

كان يونس بحري شخصية متعددة المواهب: فكان يحسن الكلام والقراءة ـ دون الكتابة الصحيحة ـ باللغات: الانجليزية والفرنسية والألمانية والتركية؛ وكان ذا أسلوب جديد في اللغة العربية تكثر فيه التعبيرات القرآنية، والمحسّنات البديعية، والملَح الهزلية. سافر كثيراً حتى وصل إلى أندونيسيا، كما جاب معظم بلاد أوروبا. وكان يحرر في بغداد صحيفة تُسمَّى «العقاب» فيها من الهزل بقدر ما فيها من الجد. وعرف كثيراً من السياسيين العرب: ملوكاً ورؤساء وزراء ووزراء وزعماء. ويبدو انه كان على علاقة وثيقة مع الملك غازي بن فيصل، ملك العراق. وكان يزعم انه كان مع الملك غازي في سيارته لما ان قُتل في حادث تصادم مع سيارة أخرى؛ وكان يقول إنَّ الذي دبَّر هذا الحادث هو قنصل بريطانيا في الموصل. كما كان يزعم أنَّه هو الذي قتل قنصل بريطانيا في الموصل في سنة ١٩٣٧ انتقاماً لمصرع الملك غازي. وقد هرب بعد ذلك إلى تركيا، ومن ثم إلى ألمانيا، حيث انضم إلى رشيد عالي الكيلاني الذي كان قد لجأ إلى ألمانيا بعد انهيار حركته في مايو سنة ١٩٤١.

وأنا أذكر هذه الأخبار كلها نقلاً عنه هو، وفي صيغة الشك، لأنَّه كان يتباهى بالكثير من الأفعال التي لم يصحّ منها شيءٌ.

كذلك كان كثيراً ما يتحدث عن الصراع بين الحاج امين الحسيني، مفتي فلسطين، وبين رشيد عالي الكيلاني في برلين؛ ويذكر انه انضم إلى رشيد عالي في هذا الصراع مما أغضب عليه الحاج أمين، فأدّى ذلك بدوره إلى تنحيته عن الاذاعة العربية لبرلين في عام ١٩٤٣. وكان هو المذيع الأول في هذه الإذاعة، وكانت لتعليقاته في هذه الاذاعة وتمجيداته لانتصارات الالمان في السنوات الثلاث الأولى من الحرب تأثير كبير في نفوس المستمعين في كل أنحاء العالم العربي، وكان الإقبال على سماعه شديداً جداً في تلك السنوات حتى صارت هذه الاذاعة العربية من برلين أقوى إذاعة للدعاية في العالم العربي لصالح ألمانيا. فصوته بوصفه مذيعاً جهور عذب، وتعليقاته كلها نكات لاذعة مستمدة من الجناس اللفظي والآيات القرآنية: فدف Duff كوپر، وزير الدعاية البريطاني، يصبح عنده: دفّ (طبلة) انجلترة كوپر؛ ويتعمد الخطأ في ذكر أسماء الوزراء الانجليز، فيقول عقب ذلك: عفوا، لكن «البقر تشابه علينا».

ولما استقر به المقام في باريس سنة ١٩٤٦ فكَّر في اصدار صحيفة في باريس بعنوان: «العرب». وتحقق له ذلك ابتداء من نوفمبر سنة ١٩٤٧، فأصدر هذه

الصحيفة في ١٦ صفحة من قطع صحيفة Le Monde. وكان هو وحده تقريباً ـ الذي يحرّرها من أولها إلى آخرها. وكان يستخدمها خصوصاً للهجوم اللاذع على الشخصيات السياسية العربية: الملك عبدالله، ملك الأردن، عبد الرحمن عزام، أمين عام الجامعة العربية، الأمراء السعوديين، نوري السعيد، رياض الصلح، قادة الانقلابات في سوريا، الخ الخ. وكان يهدف من هذا الهجوم اللاذع إلى غرضين: ترويج الصحيفة، ثم (ربّما في المقام الأول) حمل هؤلاء على التبرّع للصحيفة حتى تستمر في الظهور، وحتى يتعيش منها. وأسلوبه في هذه الصحيفة شبيه بأسلوبه في الاذاعة من برلين: الهجوم باستعمال التورية والجناس: فيكتب اسم عبد الرحمن عزام هكذا: هزّام (بسبب هزائم الجامعة العربية المتوالية)؛ ويقول عن الشيشكلي: سئل الشيشكلي لماذا هو عاجز عن عمل شيء في قضية من القضايا ـ فيجيب الشيشكلي: لأنّي شيء شكليا وخصص عموداً بعنوان: «اسكت يا أزعر» ـ يتحدّث فيه عن التصريحات الطنانة الزفافة للسياسيين العرب، وبخاصة عبد الرحمن عزام. فكانت الصحيفة من خفة الروح ولذع الهجوم وكثرة الفكاهات بحيث لا يمل المرء قراءتها من أولها إلى آخرها.

وقد اتخذ له مكتباً في رقم ٣٦ من شارع Vivienne بالقرب من بورصة باريس. وكنت أتردّد عليه في ساعة الظهيرة أحياناً في هذا المكتب القريب من المكتبة الوطنية حيث كنت أعمل كل يوم في مخطوطاتها. وكنت أساعده أحياناً بكتابة مقالات صغيرة أو أخبار خفيفة، تتسم أيضاً بالنكات والتهكم والسخرية.

ثم كنا في العادة نلتقي حوالى الساعة الخامسة كل يوم في قاعة شاي تدعى Le Marcusot تقع عند تقاطع بوليڤار سان ميشيل وشارعي راسين ومدرسة الطب، قبالة مقهى «ديپون» السالف الذكر.

وكنت ابتداء من صيف سنة ١٩٤٧ أتخذ من قاعة الشاي هذه (وقد زالت في سنة ١٩٦٨ وحلّ محلها محلات لبيع الملابس) قاعدة للقاء الأصدقاء في باريس ابتداء من الساعة الخامسة وحتى السابعة من مساء كل يوم. وفي السابعة حتى الغروب أقضي الوقت في حديقة اللوكسمبورج. وهناك كنت أجتمع بالكثيرين من الطلاب العرب وغيرهم من المقيمين في باريس، فنتبادل الرأي في الأمور العلمية والسياسية. واستمر الأمر على هذا النحو حتى سنة ١٩٥٥. فلما عدت إلى باريس

سنة ١٩٦٧ بعد غيبة استمرت أحد عشر عاماً ونصفاً لم أستطع فيها زيارة باريس، وجدت قاعة الشاي هذه قد تجدد زخرفها الداخلي، لكنها فقدت روحها السابقة، لهذا لم أدخلها في سنة ١٩٦٧ إلاَّ مرة واحدة، ثم وجدتها في العام التالي قد زالت وتحولت إلى محل بيع ملابس.

❀ ❀ ❀

ومن بين الطلاب المصريين الذين كانوا يدرسون في باريس على نفقة ذويهم تبرز شخصية مختار البخشونجي: كان مربّع القامة سميناً، وكان حسن الشمائل كريم الأخلاق، سبّاقاً إلى المساعدة في الأمور العملية. وكان يقيم في رقم ٢٥ مكرر شارع المدارس، ويتخذ من مقهى مقابل يسمَّى مقهى سلتيك Le Celtique محلاً مختاراً لجلوسه هو وأصحابه. وكان يتقن طهي الطعام في بيته، ويقيم مآدب مرة كل عام يتولى هو فيها طهو أطايب الطعام المصري ويدعو إليها قلة من الصحاب، فينعمون بطعام كانوا اشتاقوا إليه في باريس. وبرزت شخصيته في الحيّ اللاتيني بين العرب، حتى أطلق عليه الطلاب لقب «عمدة باريس». وقد ذكّره بهذا اللقب ليڤي پروڤنصال أثناء مناقشة رسالة للدكتوراه الجامعية! ولم يعرف الطلبة المصريون ـ بل والعرب ـ شخصاً خدوماً مثله في باريس. أمَّا بضاعته من العلم فكانت قليلة متواضعة: فحصل على ليسانس حرّة، ثم على دكتوراه جامعة، وعاد إلى مصر في عام ١٩٥٥ بعد أن قضى في باريس عشر سنوات.

وغالبية مبعوثي الحكومة المصرية كانوا ينتسبون إلى فئتين: الآداب، والحقوق. أمَّا مبعوثو الآداب فمنهم مَن حصل على الدكتوراه في فترة معقولة (خمس أو ست سنوات)، ومنهم مَن لم يحصل على الدكتوراه إطلاقاً حتى اليوم. أما مبعوثو الحقوق فقد حصلوا جميعاً على الدكتوراه في القانون، وفي مدة معقولة (خمس أو ست سنوات)؛ وقد اتسمت غالبيتهم بالتطلع إلى المناصب القيادية لهذا فشت فيهم نزعة قوية إلى الانتهازية والنفاق السياسي، ولهذا صار عدد كبير منهم وزراء أو أشباه وزراء في العهد الأسود الذي ابتدأ خصوصاً من سنة ١٩٦٢ وما تلاها ولعبوا دوراً قذراً لدى المخابرات ومراكز السلطة: بدءاً من اللجنة التحضيرية في يناير سنة ١٩٦٢، ثم المؤتمر العام، ثم السنوات التسع التي تلت ذلك، والتي فيها عانت مصر أبشع استبداد عرفته في كل تاريخها.

زيارة أساتذتي القدماء

وكان طبيعياً ان أسعى لزيارة أساتذتي الفرنسيين القدماء. فبدأت بلقاء مع أندريه لالاند في فندق لوتسيا الذي كنت أقيم فيه، وكان قد ضرب لي موعداً فيه لأنَّه سيجيء لزيارة الدكتور طه حسين المقيم في نفس الفندق. وكان لالاند آنذاك في سن التاسعة والسبعين، لكنه كان قوي البنية مستقيم القامة، يقظ الذهن والذاكرة، وكان يقيم في ضاحية آنيير على نهر السين Asnières - sur - seine. وبقينا حوالى الساعة رحنا فيها نتذكر أيام تدريسه في مصر، وسألني عن الشيخ مصطفى عبد الرازق، وعن حصولي على درجتي الماجستير والدكتوراه، وما أقوم به آنذاك من دراسات.

ثم سعيت إلى أستاذي الثاني، الكساندر كويريه، فذهبت إليه في منزله برقم ٤ شارع ناڤار Navarre في الحي الخامس بباريس، غير بعيدين عن مسجد باريس. وطال الحديث بينه وبيني أكثر من ساعتين. وسلّمته نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة من الملخص الفرنسي لرسالتي للدكتوراه: «الزمان الوجودي». فوعدني بالتوصية بطبعها عند ناشر. وفعلاً اتصل بناشر كتب الفلسفة الشهير ڤران Vrin (٦ ميدان السوربون)، وأوصى بنشرها توصية حارة. وذهبت إلى الناشر، جوزف ڤران، فرحّب بالنشر، لكنه طلب منِّي أن أُشارك في النفقات بالنصف. فوعدته بالتفكير في هذا العرض وانتهى الأمر عند هذا الحد، فلم يتم نشر هذا الملخص الفرنسي حتى اليوم.

وإلى جانب هذين الأستاذين الرسميين، قمت بزيارة أستاذ ثالث لم أتلق عنه العلم في قاعات الدرس، وإنَّما في كتبه ومقالاته، وهو المستشرق العظيم لويس ماسينيون. وكنت قد التقيت به في يناير من نفس العام في القاهرة حينما جاء لحضور المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية. وكان قد قرأ كتابي «الزمان الوجودي» وكتابي «هموم الشباب» وأُعجِب بهما كل الإعجاب كما ذكر لي ذلك أثناء لقائنا بالقاهرة، ثم إنَّه فرض كتاب «هموم الشبان» على الطلاب المتقدمين للحصول على الأجريجاسيون في اللغة العربية في ذلك العام الذي يليه.

فذهبت إليه على موعد معه في منزله الكائن في رقم ٢١ شارع مسييه Monsieur في الحي السابع بباريس. واتفقنا على أن أُترجم بحثيه عن «سليمان الفارسي» وعن «المنحنى الشخصي لحياة الحلاج» ـ وقد أنجزت ذلك فور عودتي إلى مصر، ونشرتهما ضمن كتابي «شخصيات قلقة في

الاسلام» (ط ١ القاهرة سنة ١٩٤٧، وقد طبع بعد ذلك ثلاث مرات بمعرفتي، وطبع مرتين طبعات مسروقة). ولما علم مني أنني - وكان ذلك في يوم السبت في أواخر سبتمبر سنة ١٩٤٦) - ذاهب غداً لزيارة كاتدرائية شارتر، نصحني بقراءة قصة «الكاتدرائية في تأليف كارل جوريس ويسمانس K.G. Huysmans، وأعطاني نسخة فاخرة منها أوصاني بالمحافظة عليها وردها إليه في يوم الاثنين؛ لأنَّ هذه النسخة الخاصة النفيسة قد أهداها المؤلف - ويسمانس - إلى والد ماسينيون، وكانا صديقين حميمين؛ وعلى النسخة وجدت فعلاً هذا الإهداء. فأمضيت معظم الليل في قراءة ما تيسّر لي قراءته من هذه التحفة الأدبية الدينية، مما جعل زيارتي لشارتر في اليوم التالي غنية بالأحاسيس والمعاني. ومن ثم صارت لهذه الكاتدرائية مكانة عظيمة تفوق مكانة نوتردام دي پاري، وصرت أتردّد عليها كل عام طالما كنت في باريس؛ وقد وصفتها وصفاً مفصلاً حماسياً في كتابي «الحور والنور».

ولدى خروجي من عند ماسينيون جاء جبرييل بونور Gabriel Bounoure، فعرّفني به ماسينيون، فقال لي بونور إنَّه سيرسل إلي دعوة لإلقاء محاضرات في «المدرسة العليا للآداب» التي كان مديراً لها، على النحو الذي ذكرته من قبل تفصيلاً.

❀ ❀ ❀

وكان الدكتور طه حسين قد وصل إلى باريس في آخر يونيو او أوائل يوليو، ونزل في فندق لوتسيا بتوجيه من د. مصطفى زيور، فكنا نحن الثلاثة نقيم في هذا الفندق. أمّا د. زيور فقد أقام فيه اربع سنوات متوالية، إذ كان يحضّر للدكتوراه في علم النفس. أمّا الدكتور طه حسين فقد كان يقيم في هذا الفندق كلما جاء إلى باريس من سنة ١٩٤٦ حتى سنة ١٩٥٦. وهو لم يعد بعد ذلك إلى باريس. أمّا أنا فأقمت فيه من سنة ١٩٤٦ حتى ١٩٥٥، ثم استأنفت الاقامة فيه من فبراير سنة ١٩٦٧ حتى اليوم، كلما كنت في باريس. وهذا الفندق ضخم، يشتمل على ٣٥٠ غرفة. وقد أنشىء للمرة الأولى في سنة ١٩١٢. ومن مزاياه أنَّه يقع على الحدود بين القسم السادس والقسم السابع في الشاطىء الأيسر من السين، وعلى مقربة من حيّ مونپارناس، الذي كان حيّ الفن والأدب في العشرينات والثلاثينات، من هذا القرن، ومن حيّ سان جرمان دي بيريه حيّ الفن والأدب غداة الحرب العالمية الثانية.

وكنا نحن الثلاثة ـ د. طه حسين، ود. زيور، وأنا نتناول الغداء في مطعم قريب يدعى Doucet يقع على تقاطع شارع ڤوجيرار وأقتاس Assus أمام «المعهد الكاثوليكي» وحتى عام ١٩٨٤ كان أصحاب المطعم ونادلوه يتذكرون د. طه حسين. وكان الطعام فيه جيداً ورخيصاً معاً. وقد انتقلت ملكيته إلى آخرين في سنة ١٩٨٥، وصار من ثم أقل جودة وأغلى سعراً.

وكان د. طه حسين يقيم في باريس حتى العشرين تقريباً من شهر يوليو، ثم يسافر إلى اقليم جبلي في شرقي فرنسا ـ هو في الغالب اقليم الڤوج Vouges ـ ثم يعود في الاسبوع الثاني منذ سبتمبر ويبقى حوالى اسبوعين، ثم يسافر بالقطار إلى مرسليا ليستقل الباخرة إلى الاسكندرية. ذلك انه، وخصوصاً زوجته، كان يخشى ركوب الطائرات. وأوّل مرة ركب فيها الطائرة كان في اواخر ديسمبر سنة ١٩٤٨ حين جاء الى لبنان لإلقاء محاضرة ابان اجتماع المؤتمر العام لليونسكو ـ وكان قد جاء بالباخرة. فلما أراد العودة أقنعته بعد شرح طويل وتطمين كبير بأن السفر بالطائرة أسهل جداً ولا يقل أمناً. وبعد الحاح منِّي اقتنع، وطلب منِّي إقناع زوجته. فتوليت إقناعها، فأسلمت أمرها في النهاية وقالت: «ستكون هذه هي المرة الأولى والأخيرة، ولو اضطررنا إلى السفر مرة أخرى بالطائرة فلن نركب نفس الطائرة معاً أنا وطه». وفعلاً لا أذكر أنهما سافرا بعد ذلك بالطائرة. وقد دُهشت من هذا التعلق الشديد بالحياة، ومن هذا الخوف الغريب من ركوب الطائرة.

ومن شدة تعلّق د. طه حسين بفندق لوتسيا، فإنَّه حين جاء إلى باريس في يونيو سنة ١٩٥٠ ـ وكان وزيراً للمعارف ـ لحضور مؤتمر اليونسكو، لم يقم في فندق «سان رفائيل» المجاور لمقر اليونسكو آنذاك (في شارع كليبر) إلاَّ مدة حضوره هذا المؤتمر، فلما انقضى المؤتمر انتقل للسكنى في فندق لوتسيا.

وكان طبيعياً ان التقي بالدكتور طه حسين مراراً كثيرة ونحن نقيم في نفس الفندق في باريس، خصوصاً في المساء قبل أو بُعيد العشاء في بهو الفندق. وكنت أزوّده بالصحف المصرية التي أشتريها من ميدان الاوپرا كل يوم، حيث كانت تباع في كشك مواجه لمقهى Café de la Paix الشهير.

ومن نوادر توفيق الحكيم أنَّني اتفقت معه ومع يونس بحري والسفير مختار مخيش على السفر بسيارة الأخير إلى دوڤيل. واجتمعنا لذلك في فندق لوتسيا. وقلنا: نتناول الغداء قبل السفر. فانتقلنا من البهو إلى قاعة الطعام. وهنا قال توفيق الحكيم: إنَّه سيذهب أولاً إلى المرحاض، وسيلحق بنا في قاعة الطعام. وانتظرناه

نحن الثلاثة عبثاً على المائدة، وأخذنا في تناول الطعام. ولما خرجت من القاعة أخبرني البواب ان شخصاً ترك لي رسالة. فقرأتها فإذا هي بخط توفيق الحكيم ويقول فيها إنّه يفضّل السفر «بالقطر» (هكذا والله كتبها هذا الكاتب «الكبير»!). فسافرنا نحن الثلاثة ولم نحفل به. وعند عودتي رأيت د. طه فأخبرني بأنّ توفيق الحكيم جاء إليه، وأخبره بما اتفقنا عليه من السفر بسيارة السفير اللبناني مخيش، لكنه يخشى ان يحدث له حادث بالسيارة. فجاء إلى الدكتور طه، وهرب منّا!

والشيء بالشيء يذكر: فقد صنع معنا: يونس بحري ومصطفى فتح الله ـ وهو الداعي وسيدفع نفقاتنا جميعاً ـ وأنا ـ نفس الصنيع، لما ان دعاه مصطفى فتح الله ـ وهو ناشر لبناني ـ إلى قضاء سهرة في كباريه التاباران Tabarin في حيّ بيجال. وذهبنا نحن الأربعة ـ ومعنا توفيق الحكيم ـ إلى ذلك الكباريه وقضينا حوالى الساعتين نشاهد ما يعرض من مشاهد. وتلت ذلك استراحة، يستأنف بعدها العرض. وإذا بتوفيق الحكيم يقول إنّه ذاهب إلى المرحاض، فانتظرناه وشاهدنا العرض التالي ولم يَعُد من المرحاض. فلما انتهت السهرة أخذنا تاكسي متوجهين إلى حيث يقيم، وأثناء مرورنا بميدان الأوبرا ـ في حوالى الساعة الثانية صباحاً ـ أخذ يونس بحري يصيح بأعلى صوته ليسمعه توفيق الحكيم الذي كان يسكن في «الجراند أوتيل» المطلة على هذا الميدان، موجّهاً اليه عبارات نابية مضحكة، انتقاماً منه لما صنعه معنا، فكان ذلك خير ختام لسهرة ممتعة. وكان ذلك في أغسطس سنة ١٩٤٩، وكانت صحيفة «أخبار اليوم» قد أرسلت توفيق الحكيم على نفقتها الكاملة إلى باريس ليوافيها بمقالات عنها وعن ذكرياته فيها. فبعث بمقالات هزيلة سمجة تدل على جهله التام بباريس. وأنا أعجب لهذا الرجل ـ وكان في سن الحادية والخمسين ـ كيف تصدر عنه هذه التصرفات الصبيانية!

حضور مناقشات رسائل الدكتوراه

ومن الأمور التي حرصت عليها منذ أول سفرة لي إلى باريس في صيف سنة ١٩٤٦ حضور مناقشات رسائل الدكتوراه في الفلسفة وفي الأدب، وقليلاً في التاريخ. وكان معظمها يتم في قاعة لوي ليار Louis Liard بمبنى السوربون. وتستمر المناقشة بالنسبة إلى رسائل الدكتوراه الدولة ـ من الساعة الواحدة والنصف حتى الساعة السادسة مساءً لا يقطعها إلاّ استراحة قصيرة بين مناقشة الرسالتين: الكبرى، والصغرى. وعن هذا الطريق حضرت مناقشة رسائل

العديدين ممَن سيصبحون فيما بعد من كبار الأساتذة في جامعات فرنسا.

وكانت هذه فرصة لأمرين: الاجتماع ببعض الأساتذة الحاضرين في القاعة أو المشتركين في مناقشة الطالب بعد انتهائها؛ ثم الافادة من المناقشة، وما يتم فيها من تبادل آراء ومعلومات، والاطلاع على مستوى الرسائل وأصحابها. وكان عدد الحاضرين لا يتجاوز الخمسين في الغالب، بما في ذلك بعض النسوة العجائز او المتعطلين Clochards الذين يجيئون لإزجاء الوقت دون ان يفهموا حرفاً واحداً مما يقال، او للتدفئة من البرد في الشتاء!

وعن هذا الطريق شاهدت كثيراً من الأساتذة الذين كنت أود أن أراهم وأسمعهم بنفسي، بعد ان عرفتهم في كتبهم ـ وأذكر منهم خصوصاً: في الفلسفة: جاستون باشلار Bachelard بلحيته الضخمة ووجهه البسّام، وجان ڤال Wahl بجسمه النحيل وشعره الأشعث الأغبر، ومارسلان جيرو Gueroult بقامته النبيلة ولغته الجليلة، وألبير باييه Bayet بلسانه الغضب وآرائه المتحررة، وجورج داڤي Davy ـ العميد آنذاك ـ بهدوئه ورصانته، واميل بريبه بصوته الضعيف المملّ ووجهه الضيق، وپيير مكسيم شول Schuel بصفاقته وادعائه وصغار نفسه؛ ـ وفي الأدب: جان پوميه Jean Poumier بغزارة علمه ودقة ملاحظاته، وموريس لوڤايان Maurice Levaillant صاحب النشرة النقدية الجيدة لـ «مذكرات ما بعد القبر» لشاتوبريان، وجان ماري كاريه Carré أستاذ الأدب المقارن ومؤلف كتاب «الرحالة الفرنسيين في مصر». ـ أمَّا أساتذة الدراسات الاسلامية والعربية فكنت أعرفهم جميعاً عن طريق آخر، لكنِّي حضرت مناقشاتهم للكثيرين من الطلبة العرب والمسلمين، وخصوصاً المصريين.

لكن مستوى المناقشة لم يكن رفيعاً في كثير من الأحيان. وظلّ ينحط شيئاً فشيئاً حتى بلغ الدرك الأسفل في الثماني عشرة سنة الأخيرة (١٩٦٧ ـ ١٩٨٥). لهذا لم أعد أحضر هذه المناقشات إلاّ نادراً ولأسباب شخصية: مجاملة لصاحب الرسالة. إذ رأيت مشرفين على رسائل يعترفون أمام الجمهور بأنَّهم لم يقرأوا من الرسالة إلاّ نصفها، أو لا علم لهم بموضوع الرسالة وأنما سيحكمون عليها حكم «فرنسي متوسط الثقافة»!!)، أو لا يتكلمون إلاّ عن أمور تافهة سطحية لا علاقة لها بموضوع الرسالة: مثل الفهارس، او بعض العبارات الفرنسية غير الصحيحة، أو أرقام صفحات المراجع، إلى آخر هذه الترهات التي لا يخجلون من اضاعة الوقت المخصص لهم في ذكرها. وتظهر هذه البليّة أكثر ما تظهر في الرسائل المندرجة في

ميدان الدراسات الاسلامية والعربية، حيث يقل جداً عدد المختصين، ولا يتورع الباقون عن الاشراف على رسائل في موضوعات لم يسمعوا بها من قبل. وبلغ بعضهم في هذا الباب ذروة الحماقة، فراح يتباهى بأنّه يشرف على خمسين رسالة في آن واحد: منها ما هو في الفلسفة، وفي الجغرافية، وفي التاريخ، وفي الرياضيات والعلوم، وفي تخطيط المدن، وفي السحر، وفي العقاقير، وفيما لست أدري ايضاً! أكأنه الإله العليم بكل شيء؛ بينما هو في الواقع الجهل متجسداً والغباء يسير على قدمين. ولهذا انهارت قيمة الدكتوراهات التي قدّمت في باريس (وغيرها من المدن الفرنسية)، وصارت غير ذات قيمة أصلاً. ثم يعود هؤلاء الطلاب الحاصلون على مثل هذه الدكتوراهات يتنفَّجون مغترّين بأنهم حاصلون على الدكتوراه من السوربون!!

فوارحمتاه على الدكتوراهات التي حصل عليها أمثال ماسينيون وليڤي پروڤنصال، ولأوست، وبلاشير، وكلود كاهان، وروبير برونشڤلا، وپلا، وبيرله وأمثالهم ممَن صارت رسائلهم معالم عظيمة في تطور الدراسات الاسلامية والعربية!!

وعمل على انحطاط مستوى دكتوراه الدولة في فرنسا ما طرأ على نظمها من تعديلات منذ سنة ١٩٦٨: فقد أصدر ادجار فور Faure وزير المعارف قانوناً جديداً جعل الحصول على دكتوراه الدولة برسالة واحدة (بدلاً من رسالتين)، بل وبدون أية رسالة: وذلك بمجرد تقدم جملة من الأبحاث المنشورة سابقاً في المجلات!! وأخيراً جاء سافاري Savary فأجهز على الدكتوراه الفرنسية تماماً، وذلك في سنة ١٩٨٣. ولما كان الوزراء المتعاقبون يتنافسون في تسهيل درجة الدكتوراه على طالبيها، فمَن يدري! فلربما يأتي يوم قريب يحصل فيها الطالب على الدكتوراه من الجامعات الفرنسية بمجرد مرور عام أو عامين على قيده للحصول على الدكتوراه، كما هي الحال في جامعات انجلترا بالنسبة إلى الماجستير. إذ يحصل عليها الطالب من مجرد اقامته عاماً في البلد الذي فيه الجامعة (اكسفورد، كمبردج، الخ) لابساً الروب الجامعي!

العمل في المكتبة الوطنية

ومنذ رحلة صيف سنة ١٩٤٧ وأنا أقضي سحابة النهار في المكتبة الوطنية: من العاشرة صباحاً حتى الخامسة إلاّ الربع، في قسم المخطوطات، وكان آنذاك مندرجاً فيه المخطوطات الشرقية.

وقد قرّرت منذ اللحظة الأولى ان أحقق كتب أرسطو المنطقية الثمانية الموجودة في المخطوط الممتاز رقم ٢٣٤٦ عربي ـ وهو الذي عجز عن تحقيقه كل الباحثين حتى ذلك الحين، فلم يستطيعوا ان يحققوا منه إلاَّ ترجمة كتاب «المقولات» وكتاب «العبارة»، وهما لا يمثّلان معاً غير ٥٪ من المخطوط! رغم المحاولات العديدة من جانب المستشرقين منذ ما يقرُبُ من مائة عام أو يزيد.

وأثناء صيف سنة ١٩٤٧ حققت «المقولات» و«العبارة» و«التحليلات الأولى» («القياس»). وفور عودتي إلى مصر، بدأت في طبعها في مطبعة دار الكتب المصرية، وتم الطبع في يوليو سنة ١٩٤٨. وصدر هذا الجزء الأول بعنوان: «منطق أرسطو».

وفي صيف سنة ١٩٤٨ حققت كتاب «البرهان» وكتاب «الطوبيقا». ولدى عودتي إلى مصر في اكتوبر سنة ١٩٤٨، دفعت به إلى مطبعة دار الكتب المصرية، وصدر هذا الجزء الثاني من «منطق أرسطو» شاملاً كتابي «البرهان والطوبيقا» في صيف سنة ١٩٤٩.

وفي صيف سنة ١٩٤٩ واصلت العمل في المخطوط فحققت كتابي «السوفسطيقا» بترجماته الثلاث، و«ايساغوجي»، وظهرت الكتب الثلاثة ضمن الجزء الثالث من «منطق أرسطو» في سنة ١٩٥١.

وفي صيف ١٩٥٠ فرغت من تحقيق باقي المخطوط، أعني كتابي «الخطابة» وكتاب «في الشعر». وهما لا يدخلان في باب المنطق بالمعنى الدقيق، وإنْ أدرجهما المؤلفون المسلمون دائماً ضمن كتب أرسطو المنطقية. ولهذا نشرت كليهما على حدة:

فنشرت «في الشعر» مع تحقيق لما كتبه في الشعر: الفارابي، وابن سينا، وابن رشد. ونظراً لسوء الترجمة العربية القديمة، فقد قمت بترجمة كتاب «في الشعر» لأرسطو من جديد مع شروح مستفيضة ومقدمة ضافية. وظهر المجلد بعنوان: «فن الشعر» (القاهرة سنة ١٩٥٣).

وأمّا كتاب «الخطابة» فقد ظهرت الترجمة العربية المحققة في سنة ١٩٥٩؛ ولأنّه ايضاً سيىء الترجمة، فقد أعدت ترجمته مع مقدمة طويلة وشروح واسعة، وظهر في بغداد في سنة ١٩٧٩.

وهكذا أنجزت هذا العمل الجبّار متحدياً كل الباحثين ـ القدماء والمعاصرين. وهذا ما أثار حقد العاجزين الحاسدين الأدعياء مثل رتشرد ڤلتسر

Rishard Walzer الذي كتب مقالاً طويلاً في مجلة Oriens راح يخبط فيه على عادته دون علم ولا دراية (وقد أعاد نشر مقاله هذا ضمن كتابه From greckaito Arabe). فهو لم يصحح موضعاً واحداً من النص الذي حققته، وإلاَّ لكان قد أسهم بشيء. وإنَّما راح يقارن بين الترجمة الواردة في الصُّلْب وبين بعض الترجمات الأخرى الواردة في هامش المخطوط او فوق كلماته؛ وهي مراجعات قام بها في غالب الظن ـ ابن الخمّار، صاحب المخطوط الأصلي الذي عنه نسخ مخطوط باريس. وقد توهم السطحيون الذين لا يحسنون قراءة ما يقرأون ان ما كتبه ڤلتسر يتعلق بتحقيق للنص، مع ان الأمر يتعلق فقط بالمقارنة بين الترجمات المختلفة الواردة في نفس المخطوط، والتي أوردتها كلها بغاية الدقة!

وبهذا العمل العظيم الذي لا أجد له مثيلاً في تاريخ تحقيق المخطوطات في العالم كله وبأية لغة أديت مهمة عظيمة الفائدة:

١ ـ فقد أنقذت هذه الترجمة العربية القديمة الممتازة من الضياع، خصوصاً ومخطوط باريس هذا تتحلل أوراقه عاماً بعد عام، إذ مضى عليه قرابة ألف عام، وورقه هش يتفتت كلما اطلع عليه انسان، رغم محاولات ترميم بعض أوراقه.

٢ ـ ويسّرت للباحث في تاريخ الفلسفة الاسلامية الاطلاع على ترجمة منطق أرسطو إلى العربية في القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد) ـ وهذا هو الأساس في قيام أبحاث في تاريخ الفلسفة الاسلامية وتأثير أرسطو فيها.

٣ ـ وقدمت تحقيقي كتب أرسطو المنطقية في أصلها اليوناني أداة غير مباشرة لتحقيق هذا الأصل، إلى جانب ما لدينا من مخطوطات يونانية ترجع كلها إلى فترة متأخرة عن الأصل اليوناني الذي عنه ترجم المترجمون العرب هذه الكتب المنطقية.

٤ ـ وفيما عدا كتابي «الخطابة» و«الشعر» ـ ولهذا أعدت ترجمتها ـ يمكن الانتفاع بهذه الترجمات العربية القديمة، والاستغناء بها عن اعادة ترجمتها.

❀ ❀ ❀

وبعد ان فرغت من تحقيق «منطق أرسطو» على هذا النحو، رحت أُفتّش في مخطوطات المكتبة الوطنية عمَّا يستحق النشر مما فيها من كتب في الفلسفة:

أ ـ في صيف سنة ١٩٥١ حققت قسم «البرهان» من كتاب «الشفاء» لابن سينا ـ وقد ظهر سنة ١٩٥٤ بعد مقارنته مع مخطوطات في القاهرة.

ب ـ وفي صيف سنة ١٩٥٢ حققت كتاب «الحكمة الخالدة» («جاويدان خرد») لمسكوية ـ وقد ظهر سنة ١٩٥٤، بعد مقارنته مع مخطوطات في ليدن (هولندة) والمتحف البريطاني (لندن) وغيرهما.

جـ ـ وفي صيف سنة ١٩٥٣ حققت كتابي: «العهود اليونانية» المنسوب إلى أفلاطون، و«سرّ الأسرار» المنسوب إلى أرسطو؛ وقد ظهرا في مجلد واحد بعنوان: «الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام» (القاهرة سنة ١٩٥٧).

د ـ وفي صيف سنة ١٩٥٤ ـ ولم أمض منه في باريس إلاّ شهراً ونصفاً، حققت صفحات مختلفة من مخطوطات مختلفة أفدت منها في مجموعات لاحقة. وقد سافرت من باريس إلى ليدن في هولندة حيث أخذت في تحقيق كتاب «مختار الحكم ومحاسن الكلم» للمبشر بن فاتك، ومن هولندة سافرت إلى انجلترة حيث واصلت تحقيق هذا الكتاب بحسب ما في المتحف البريطاني من مخطوطات. وقد تمَّ طبع الكتاب في مدريد سنة ١٩٥٨ ضمن منشورات المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد.

ثم استأنفت العمل في المكتبة الوطنية لما ان عدت إلى باريس من جديد في فبراير سنة ١٩٦٧، ونؤجّل الحديث عمّا أنجزته فيها إلى أوانه.

ومن هذا يتبيّن ما للمكتبة الوطنية بباريس ـ وفيها أكتب الآن ما أسطّره هنا ـ من فضل عظيم على انتاجي العلمي؛ ولولاها لما استطعت انجاز ثلاثة أرباع أعمالي العلمية. إنّها مقصدي الأول من سفراتي السنوية إلى باريس، والمكان الذي أقضي فيه معظم أوقاتي حين أكون في باريس.

السفرة الأولى إلى سويسرة

وفي أول أغسطس سنة ١٩٤٦ سافرت بالقطار من باريس إلى برن Bern عاصمة سويسرة. ولم أكد أتجاوز الحدود الفرنسية السويسرية في Porrentruy حتى شاهدت مناظر تختلف تماماً عما كنت أشاهده من نافذة القطار وأنا لا أزال في فرنسا: هناك في سويسرة يسود الجمال الرائع في الجبال والأودية، والجو يعبق بصفاء يسمو بالنفس الى الأعالي، والخضرة تكتسب نصاعة وطهارة منقطعتي النظير.

ووصلت الى برن حوالى الساعة الخامسة من أصيل ذلك اليوم المشرق، ونزلت في فندق مواجه لمحطة السكة الحديدية، لم أجده حين عدت الى برن في

سنة ١٩٥٦، بل وجدت مكانه مطعماً ضخماً يسمّى Moven Pick، وهو أحد المطاعم العديدة ـ في سويسرة، وفي الخارج ـ المسماة بهذا الاسم. وهنا في برن وجدت الطعام أفضل بعشرات المرات من باريس؛ ولم يكن بالبطاقة آنذاك في سويسرة غير الخبز؛ وما عدا ذلك من ألوان الطعام كان موفوراً جداً.

ولصغر مساحة سويسرة وجمال كل أماكنها، وضعت خطة لزيارتها كلها بطريقة منظمة، عن طريق القطار. ولذلك اشتريت بطاقة اشتراك عامة صالحة لكل سكك حديد سويسرة طوال شهر. وما أكاد أتناول فطوري في السابعة صباحاً حتى أتوجه كل يوم إلى محطة السكة الحديدية أمام الفندق، وأركب القطار إلى المنطقة التي حددتها لنفسي. ولما فرغت من مشاهدة كل البلاد الكبيرة وما حولها صرت أختار أماكن معيّنة أكرر الزيارة إليها. وكانت أحب البلاد إلى نفسي ـ بعد برن ـ: لوتسرن، وتون Thun، وفوريجن Furigen، ومورتن، ولوزان، ثم سلسلة المدن الصغيرة المتوالية من ڤيفيه Veviez فكلارانس Clarens، فمونتريه Monterieu فشيون Chillon. أمّا البحيرات فكان أحبها إلى نفسي: بحيرة الكانتونات الأربعة، فبحيرة مورتن Mürten، فبحيرة تون Thun، فبحيرة ليمان Léman على الترتيب.

واستهدفت في هذه الرحلات مواطن الفلاسفة والأدباء والفنّانين الذين أُعجبت بهم: فسرت على آثار نيتشه في النواحي المحيطة بسان مورقس، وقد نزلت في فندق بها. وفي الصباح ذهبت إلى سلز ماريا ـ Sils Maria وزرت المنزل الذي كان يقيم فيه نيتشه، وعبرت البحيرة أمامها لأشاهد المكان الذي نظم فيه نيتشه قصيدته الرائعة: «أيُّها الانسان! انتبه...» وقد نقشت كلماتها على شاهد كبير في نفس المكان الذي كان يتردّد عليه نيتشه. وذهبت، وأنا في لوتسرنا، إلى قرية تربشن Tribschen التي كان يقيم في أحد ڤلاتها رتشرد ڤجنر، وإلى هناك وافاه نيتشه؛ وقد تحولت هذه الڤلاّ إلى متحف، فيه بعض رسائل من نيتشه بخطه إل ڤجنر، وفي بازل زرت قصور آل بوركهرت، تلمساً لذكرى يعقوب بوركهرت. وفي تسوري (زيورخ) تلمست آثار جوتفريد كلر Keller الشاعر القصصي الكبير.

ولما كنت قد وصفت مشاعري أمام المواقع الجميلة في سويسرة في كتابي «الحور والنور» فإنّي أجتزىء بالإحالة إليه. أمّا عن الشعب السويسري والحياة في سويسرة، فيتسع لها مجال القول حين أتحدث عن مقامي في سويسرة في المدة من

فبراير سنة ١٩٥٦ حتى نوفمبر سنة ١٩٥٨، بوصفي مستشاراً ثقافياً في السفارة المصرية في برن ومديراً للبعثة التعليمية.

عودة إلى إيطاليا

ولما كنت قد شعرت بحنين شديد لإيطاليا بعد الحرب، فقد اشتركت في رحلة سياحية نظمتها شركة سياحية سويسرية لزيارة شمالي ايطاليا لمدة ستة أيام. فدخلنا ايطاليا من مدينة كياسو Chiasso السويسرية التي وصلناها بالقطار. ومن الحدود الايطالية ركبنا سيارة حافلة. فمررنا أولاً ببحيرة كومو، ثم اتجهنا إلى ميلانو فأمضينا فيها نصف نهار. وواصلنا السير في المساء إلى برجمو Bergamo، حيث أمضينا فيها الليلة. وفي الصباح توجهنا إلى بحيرة جردا Jarda وطفنا حواليها: ومن ثم مضينا إلى برشيا، ثم ڤيرونا، فشاهدنا المسرح الروماني. ومضينا متجهين إلى ڤينيسيا، فوصلناها في المساء. وأقمنا في ڤينيسيا Venezia يومين. ثم عدنا من حيث أتينا إلى سويسرة بعد قضاء ستة أيام في ايطاليا.

وباستثناء ڤينيسيا، لم أكن في رحلتي الأولى إلى ايطاليا سنة ١٩٣٧ قد شاهدت شماليها. فكانت هذه فرصة لمشاهدة ميلانو وبرجمو وڤيرونا وبرشيا، والاستمتاع بجمال بحيرتيها: كومو وجردا، ولجمالهما طابع خاص يختلف عن طابع البحيرات السويسرية: فهو جمال ناعم، دافىء، هادىء الألوان، أمّا جمال بحيرات سويسرة فرائع، مهيب، يغلب فيه الجليل على الجميل. أمام البحيرة الايطالية يستغرق المرء في الأحلام، أما أمام البحيرة السويسرية فيحتشد الخاطر وتتوثب المشاعر.

وفي ميلانو توقفت ساعة أمام الدومو Duomo، وهي أكبر كاتدرائية قوطية في ايطاليا. وقد بدىء في تشييدها في سنة ١٣٨٦ بأمر من جان جليتسو ڤسكونتي Gian Galeazzo Visconti، وتبادل العمل فيها معماريون ايطاليون وأجانب. والتأثر فيها بالمعمار القوطي في ألمانيا وفرنسا واضح جداً. لكن واجهتها الحالية قد أمر ببنائها ناپليون بوناپرت، فتولى العمل فيها أماتي C. Amati، يساعده زانويا G. Zanoia. وتتميز هذه الواجهة عن نظائرها من الكاتدرائيات القوطية بوفرة الأبراج الرفيعة (ستة أبراج) الكثيرة التقاسيم والعروق والزخارف. مما يشوّش على صفاء الخطوط.

أمّا مسرح الاسكالا Teatro Allascala الشهير بأوپراته فلم يتح لي مشاهدة

أية أوبرا حتى اليوم، لأنّي لم أقم في ميلانو إلاّ بعض نهار؛ ولم أعد إليها من ذلك الحين، إلاّ مروراً بالقطار وأنا ذاهب من باريس إلى روما في السنتين التاليتين (سنة ١٩٤٧ و١٩٤٨).

وفي فينيسيا وقد أقمت بها أكثر من يومين تيسّر لي مشاهدة كل روائع هذه المدينة العجيبة والتي لا مثيل لها في العالم: فشوارعها قنوات مائية، ومعابرها جسور حجرية، وكنائسها تتوزع التحف الفنيّة، والجندول زورق يجمع بين المتعة الفنيّة والمنفعة العملية (العبور).

لقد شيّدت مدينة فينيسيا على البركة الواسعة الممتدة بين نهري Reno و Pô في الجنوب ونهري Tagliamento و Isonzo في الشمال الشرقي، شيدتها قبائل مرّان أمام الغزاة اللومبارديين في القرن السابع الميلادي. ثم استقر وضعها نهائياً على أرخبيل ريالتو Rialto إبّان القرن التاسع أثناء توزيع مناطق النفوذ بين بيزنطة والامبراطورية الكارولنجية. وصارت تقوم على ١١٨ جزيرة صغيرة تبعد عن البحر بمقدار كيلومترين، وعن اليابسة بأربع كيلومترات، وفيها ١٦٠ قناة، وحوالى ٤٠٠ جسر، منهما اثنان طويلان: أحدهما وطوله ٣٦٠١ م عليه السكة الحديدية، والثاني وطوله ٤٠٧٠ م خاص بالسيارات.

ومركز المدينة هو بازليكه (كنيسة بيزنطية الطراز) القديس مرقص، التي أُسّست سنة ٨٢٩، وجدّدت سنة ٩٧٦، ثم حُوّلت نهائياً في سنة ١٠٦٣ لتكون على طراز بازليكة الحواريين في القسطنطينية. وقد استدعى الدوج (= دوق امبراطوري) دومنكو سلفو Domenico Selvo (١٠٧١ ـ ١٠٨٤) صُنّاع موزائيك من القسطنطينية لتزيين البازليكة، لكن لم يبق من عملهم إلاّ شذرات قليلة على عمود يقع عن يمين الكورس. أمّا مجموع الموزائيك البيزنطي الطراز الموجود في داخل الكنيسة وعتبتها فيرجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ونخص بالذكر منها صور: القديسين بطرس، ومرقص، وهرمجوراس ونقولا على جدار النصف دائري، والقديسين بطرس، وبولس، ولوقا، ويوحنا، والعذراء واقفة ومعها ابنها، بالقرب من الباب الرئيسي. وفي القبة الشرقية صورة «المسيح عمانويل» يحيط به الأنبياء، ثم العذراء. أمّا القبة المركزية ففيها صورة «الصعود». وفي القبة الغربية صورة «نزول الروح القدس».

كذلك نجد مشاهد حياة المسيح مصوّرة بالموزائيك: «التعزير»، «دخول أورشليم»، «العشاء الأخير»، «غسل الأقدام»، «الصلب»، «القيامة». كما توجد

صور لمشاهد من حياة القديس مرقص، ومنها «نقل جسد القديس مرقص».

وأمام البازليكة ميدان فسيح تتكاثر فيه الحمائم، تلك الحمائم التي تغنّى بها نيتشه في قصيدة جميلة.

وقد أمضيت عدة ساعات في هذا الميدان الفريد أتأمل الحمائم الأليفة والحركة الدائبة والمنظر الخارجي للبازليكة.

ويتلوها في الأهمية قصر الدوج الذي بُني في نهاية القرن الثاني عشر، وأُضيفت إليه قاعة «المجلس الكبير» في سنة ١٣٤٠. ويتألف من ٤ طوابق؛ أمّا قاعة «المجلس الكبير» و«قاعة الانتخاب» فلهما طابقان فقط.

أمّا اللوحات الجديرة بالذكر فهي:

ـ في الطابق الأول: «المسيح ميّتاً تسنده العذراء والقديس يوحنا، بين القديس نقولا والقديس مرقص وهما يصلّيان» ـ من عمل جوفنّى بلّيني G. Bellini؛ و«قيامة المسيح» ـ من صنع تنتورتو G. Tintoretto؛ و«القديس مرقص» و«القديس مرقص يحمل الميزان والسيف» ـ وكلتاهما من صنع D. Tintoretto؛ و«العذراء والأفوجدور الثلاثة» ـ من عمل بسّانو L. Bassano.

ـ وفي الطابق الثاني: «أسر القديس مرقص» ـ من عمل كرپتشيو Carpaccio؛ ورسم على مثلث من الخشب من عمل H. Boule.

وفي الطابق الثالث رسم تنتورتو G. Tantoretto على السقف صورة «العدالة تقدّم السيف والميزان إلى الدوج جيرولمو پريولي Girolamo Priuli؛ كذلك نجد في الجدار لوحتين من عمل ڤيرونيزي P. Veronese: «أسرة آدم» و«الصلاة في بستان الزيتون». ولڤيرو نيزي الكثير من الصور في قاعة «الكلية»، وهي القاعة التي قام تنتورتو بتزيين جدرانها ما بين سنة ١٥٨١ و١٥٨٤.

لكن أعظم فنان استمتعت بروائعه في ڤينيسيا هو تيسيانو Tiziano (١٤٨٨ ـ ١٥٧٦)، على الرغم من ان ڤينيسيا لا تملك إلاّ القليل من روائعه. لكن حسبي منها رائعته الكبرى: «صعود العذراء» Assanta، التي كلّفه برسمها رئيس كنيسة «سنتا ماريّا دي فراري» Santa Maria dei Frari في سنة ١٥١٥، واحتفل بوضعها في الكنيسة في ٢٠ مارس سنة ١٥١٨. و«صعود العذراء» عقيدة كاثوليكية تزعم ان العذراء مريم ـ أم عيسى المسيح ـ قد رفعت إلى

السماء. والصورة التقليدية عند الفنانين لهذا الصعود هي رسم وجه العذراء في نوط تحملها الملائكة إلى السماء: فهكذا رسمها رسامو القرن الخامس عشر: ماسولينو Masoluno وپنتوركيو Pintorichio والپروجينيو Peruginio لكن جاء تيسيانو في هذه اللوحة فرسم العذراء بكامل جسمها معلّقة في الفضاء بين السماء والأرض تحيط بها الملائكة فوق قبرها الفارغ من جثمانها. وأصبح هذا التصور هو النموذج الذي احتذي فيما بعد ابتداء من روبنس Rubens حتى تيپلو Tieplo. . ولهذا فإنَّه لما عرضت لوحة تيسيانو في اطارها المرمري على المذبح الرئيسي في كنيسة الفرنسيسكان في ٢٠ مارس سنة ١٥١٨ دهش منها اهل ڤينيسيا، وعدّوها جرأة منقطعة النظير. وقد وصفها دولتشه Dolee فقال انها تجسّد «الجلال الرهيب لميكلنجلو مع السحر والجمال عند رفائيل، ولون الطبيعة نفسها» وفي اللوحة ترى الحواريين متحلقين حول القبر ويتطلعون بدهشة ولمحات غريبة الى العذراء وهي تصعد على السحب التي تتناثر فيها الملائكة؛ أمَّا العذراء فعيناها شاخصتان إلى أعلى، إلى الله، ويداها مرفوعتان براحتين مفتوحتين؛ وثيابها وملاءتها الفضفاضة ترفرف في الفضاء؛ وحول قدميها يتواثب الملائكة الأطفال.

لهذا وقفت مبهور الأنفاس أمام هذه اللوحة العظيمة طوال ساعتين.

ثم عدت إلى برن، وأمضيت في سويسرة عشرة أيام أخرى، أتنقل بين ما لم أزره من قبل من أماكن فيها.

وفي ١٧ سبتمبر (١٩٤٦) قفلت راجعاً إلى باريس، فوجدت النشاط والحركة قد ازدادا فيها بعد عودة المصطافين واستئناف الدراسة في المدارس الابتدائية والثانوية، والاستعداد للعام الدراسي الجديد في الجامعة. وفي هذه الأيام القليلة حضرت اجتماعاً حافلا في قاعة «التكافل» Mutualité في الحي الخامس بباريس نظمته الحركات الوطنية الجزائرية والتونسية والمغربية، وبرز فيه خصوصاً المناضل مصالي الحاج زعيم النقابات الجزائرية العمالية في فرنسا. وقد خصصت له في العام التالي مقالاً ضافياً، نشر في صحيفة «الأساس» (صيف سنة ١٩٤٧)، ثم المناضل التونسي صالح بن يوسف. وكان هذا الاجتماع هو الانطلاقة الأولى لتحرير بلاد المغرب: مراكش وتونس والجزائر، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

انشاء الحزب الوطني الجديد

تركتُ إذن، وترك معي خيرة شباب مصر الفتاة هذا الحزب في فبراير سنة ١٩٤٢. وبقينا طوال حكم وزارة الوفد (٤ فبراير ١٩٤٢ ـ ١٤ اكتوبر سنة ١٩٤٤) نرقب تطورات الحرب، ونفكّر فيما ينبغي علينا ان نفعله حتى نخلّص مصر من قيود معاهدة سنة ١٩٣٦: احتلال الجيش البريطاني لمنطقة قناة السويس، ووجود حاميات بريطانية في القاهرة والاسكندرية، و«التحالف» الأبدي بين مصر وبريطانيا، وحق الأخيرة في استخدام امكانيات مصر إذا ما هُدِّدت بريطانيا بالعدوان عليها.

وكان المصريون جميعاً ـ باستثناء الخونة من أذناب الانجليز وعملاء الشيوعية ـ يتمنون انتصار ألمانيا، لأنَّ هذا الانتصار هو الذي سيحل مشاكل كل البلاد العربية:

١ ـ فتتخلص سوريا ولبنان من الانتداب الفرنسي؛

٢ ـ وتستقل تونس والجزائر ومراكش استقلالاً تاماً؛

٣ ـ وتتخلص مصر والعراق ودول الخليج من الاستعمار البريطاني باختلاف أشكاله؛

٤ ـ وتقتلع الصهيونية من جذورها وتمحى من الوجود، وتصبح فلسطين عربية خالصة لأهلها العرب وحدهم.

فأيّ مكابر ـ مهما بلغ من العناد ـ يستطيع ان يجادل في هذا؟!

وإذن لكانت البلاد العربية قد وفّرت مئات الآلاف من الأرواح، وآلاف الملايين من الدولارات؛ وحينئذ لن يجد الطغاة أية فرصة لفرض طغيانهم، فكم من حكومة طاغية، لم تجد ذريعة لقيامها غير الاتجار بالقضية الفلسطينية أو بالاستقلال الوطني عن المستعمرين! سيقول الخونة والأذناب والعملاء لبريطانيا وامريكا وروسيا وفرنسا: لكن ألمانيا كانت ستحل محل هؤلاء، وسيستبدل استعمار باستعمار.

وهذه الدعوى داحضة مضلّلة: لأنَّ ألمانيا كانت ستكتفي بسيطرتها على دول أوروبا، ولن تحتاج إلى غيرها من الدول لبسط نفوذها عليها، بل يكفيها فقط ضمان الحصول على المواد الأولية ونشر التجارة مع الدول الافريقية والآسيوية. أمّا حليفتها ايطاليا فإنّها من الهوان والضعف في الحرب بحيث لم يكن يحق لها ان

تطالب بشيء وبالتالي لن تمكنها المانيا من الحصول على أية مكاسب، بل ربما حملت على إزالتها من مستعمراتها الافريقية. أمَّا اليابان فحسبها دول شرقي آسيا، وبسط تجارتها مع دول آسيا وافريقيا.

صحيح ان من الصعب ان نتنبأ في التاريخ لكن مَن هو العاقل الذي يخشى من مستقبل لم يقع وهو غير يقيني، ولا يتخلص من كارثة تمسك بخناقه بالفعل؟! إن عليه ان يتخلص أولاً مما هو فيه من بلاء؛ فإن جاء بلاء آخر، فعليه ان يعمل للتخلص منه في حينه إن وقع.

لهذا كان شعور البلاد العربية نحو ألمانيا وتمنيها لانتصارها شعوراً صادقاً عميقاً صادراً عن غريزة لا تخطىء ووجدان صائب. وأولئك الذين كانوا يصيحون في المظاهرات العارمة في شهر يناير سنة ١٩٤٢ ثم في شهر يونيو ويوليو من نفس العام: إلى الأمام يا رومل! إنَّما كانوا يعبّرون عن الوجدان الصادق لمصر.

لهذا لم يكن غريباً ان يعتبر المصريون يوم ٥ مايو سنة ١٩٤٥ يوم الحداد الوطني الكبير.

وقد جاء حادث ٤ فبراير ليفتح عيون الغافلين والمتغافلين عن المهانة الكبرى التي تعيش فيها مصر تحت نير الحكم البريطاني، وعمَّا يرتكبه الوفد من خيانات لا حصر لها. ولم ينسَ أحد تلك الصور الفوتوغرافية التي نشرتها الصحف آنذاك، وفيها زينب الوكيل ـ زوجة مصطفى النحاس، تقف بين زوجها الأبله المعتوه وبين السفير البريطاني سير مايلز لامبسون وهي تمسك بذراعي كليهما عن يمين وشمال ـ وذلك غداة كارثة ٤ فبراير التي فرض فيها لامبسون والجنرال استون بدباباته على فاروق حكومة النحاس.

ورحنا ـ نحن الشباب ـ نعضّ على أغلالنا بغيظ لا يبلغ مداه التعبير، لأنَّنا كنا عاجزين عن عمل أيّ شيء أمام طغيان الانجليز وعميلهم الوفد، بما فرضوه من أحكام عرفية رهيبة وما ملأوا به المعتقلات السياسية من أشخاص. وكانت مواد التموين وتجارة الصادر والوارد قد صارت كلها في يد الحكومة. فراح زبانية الوفد يستأثرون بمواد التموين وترخيصات تجارة الصادر والوارد، حتى كوّنوا ثروات هائلة. وعلى رأس هؤلاء أسرة زينب الوكيل، ومحمود أبو الفتح وأخوه، وشذاذ الآفاق من اللبنانيين واليهود، ممَّن قاموا بدور الوسطاء لأولئك الزبانية الوفديين، حتى صار هؤلاء أكبر مستفيدين من الحرب والغلاء الطاحن والأزمة في مواد التموين. وبعض هذه الأمور قد فضحها «الكتاب الأسود» الذي كتبه مكرم عبيد.

ولاحت لنا فرصة التحرك لما أن سقطت حكومة الوفد في اكتوبر سنة ١٩٤٤، وتألّفت في إثرها حكومة برئاسة أحمد ماهر تضم أقطاب المعارضين للوفد: من أحرار ودستوريين وسعديين وحزب وطني ومستقلّين. فقررنا نحن الذين تركنا حزب مصر الفتاة ان نستأنف النشاط السياسي. ولكن كيف؟

كان أمامنا خياران: إمَّا ان ننضم إلى أحد الأحزاب القديمة: الأحرار، الدستوريين، السعديين، الحزب الوطني؛ وإمَّا أن ننشىء حزباً جديداً.

واستبعدنا كلا الاختيارين: فماذا يجمع بيننا وبين تلك الأحزاب القديمة ونحن شباب دون الخامسة والثلاثين كان لنا ماضٍ سياسي له اتجاهه ومبادؤه. لن نكون حينئذ إلاَّ طارئين في مؤخرة صفوفهم، لا رأي لنا ولا وزن.

لكن الخيار الثاني غير ممكن هو الآخر: فكيف نبدأ من الصفر، والناس في مصر يجلّون ما هو قديم أو عريق؟! لن نكون حينئذ إلاَّ جماعة صغيرة يصعب عليها ان تشق طريقها وسط هذه الجماعات السياسية الكثيرة.

لهذا استقر الرأي على المزج بين الخيارين: أعني: الانتساب إلى حزب طاهر عريق في الوطنية، لم يتهم بأي تخاذل ولا مساومة في تحقيق المطالب الوطنية، ولا تزال ذكرى مؤسسه ـ مصطفى كامل ـ عاطرة في نفوس كل الوطنيين في مصر، وهو الحزب الوطني لكن هذا الحزب كان بعد وفاة محمد فريد، ثاني مؤسِّسيه، في سنة ١٩١٨ ـ قد أصابه هزال شديد وصار في نفوس الغالبية العظمى مجرد ذكرى جميلة، لا تنبض بالحياة، ولا وزن لها في الحياة السياسية العملية منذ أكثر من عشرين عاماً. وكان زعيمه، حافظ رمضان، خطيباً مفوّهاً وكاتباً جيد العبارة بالعربية والفرنسية، لم يتهم في ذمّته؛ لكنه كان مجرد تمثال أنيق لا يحسب له أحد حساباً. وباقي رجالاته كانوا إمَّا مستشارين في القضاء، أو محامين لامعين، أو صحفيين بارزين. لكن لم تكن لهم أية شعبية: لا بين عامة الشعب، ولا بين الشباب المتعلم.

لهذا رأينا ان ننضم إلى الحزب الوطني، لكن على أساس ان نجدّد شبابه، ونبعث فيه الحيوية والديناميكية، وان نقرّب بين مبادئه القديمة وبين الاتجاهات الجديدة في السياسة. وكان على رأس القائمين بهذه الحركة ثلاثة: فتحي رضوان، ود. نور الدين طراف، وأنا. وكان رئيس الحزب الوطني حافظ باشا رمضان قد دخل وزارة أحمد ماهر وزيراً للعدل. وتولّى الاتصال به في هذا الشأن فتحي رضوان. فرحّب حافظ رمضان بالفكرة، كيما تكون لحزبه قاعدة من الشباب كان يفتقر إليها الحزب الوطني أشد الافتقار، إذ كان لا يضم آنذاك إلاَّ شيوخاً في

حدود الستين فأكثر. وهؤلاء الشيوخ لم يطمئنوا منذ البداية إلى انضمامنا إليهم: ومنهم مَن عارض صراحة مثل عبد الرحمن الرافعي وعبد العزيز الصوفاني، ومنهم مَن وافق على حذر مثل زكي علي، ومنهم مَن رحَّب مثل فكري أباظة. أمّا حافظ رمضان، رئيس الحزب، فقد أخذ الأمر من وجهة نظر أبوية متعالية، لا تخشى شيئاً من هؤلاء «الشباب».

ورأينا نحن «شباب الحزب الوطني» ان أول عمل يجب ان نقوم به هو ان نُصدِر مجلة تعبّر عن آرائنا. وكان طبيعياً أن نفكّر في تسميتها باسم «اللواء» اسم صحيفة الحزب الوطني الذي أنشأه مصطفى كامل. وأضفنا إلى الاسم ما يعبّر عن اتجاهنا الجديد في الحزب، فسميناها باسم «اللواء الجديد»، وأصدرنا العدد الأول منها - وهي أسبوعية - في شهر ديسمبر سنة ١٩٤٤. وتوليت أنا الإشراف على طبعها في مطبعة «لجنة التأليف والترجمة والنشر». ودارت معظم مقالاتي حول السياسة الخارجية، ومن أبرزها مقالات حول الوضع في الهند بين غاندي ومحمد علي جناح، مما أدّى إلى تقسيم الهند إلى دولتين: الهند، وباكستان. وأخرى حول مؤتمر سان فرنسيسكو لوضع أُسس هيئة الأمم المتحدة.

وسارت الأمور سيراً هادئاً بالنسبة إلى حركتنا: سواء بالنسبة إلى الحزب الوطني القديم وبالنسبة إلى الحكومة القائمة، حكومة أحمد ماهر؛ إلى ان وقع حادث اغتيال أحمد ماهر في مجلس النواب في مساء يوم السبت الأول من فبراير عقيب إعلانه في مجلس النواب أن مصر قرّرت إعلان الحرب على ألمانيا ودولتي المحور (ايطاليا، واليابان).

وقد قام باغتيال أحمد ماهر محام شاب هو العيسوي، وكان يعمل محامياً في مكتب عبد الرحمن الرافعي.

وإذا بالشرطة - على عادتها - تعتقل القائمة الجاهزة عندها للمشتغلين بالسياسة العملية من الشباب بخاصة. وعلى رأس القائمة أحمد حسين، وفتحي رضوان. وكانت القائمة تشمل أفراداً من اتجاهات مختلفة، بل ومتضاربة: مصر الفتاة، الحزب الوطني الجديد، الاخوان المسلمين، اليساريين. وكنت أنا ضمن هذه القائمة. وكان عنواني لدى البوليس السياسي هو عنواني القديم (شارع رمضان بالجيزة). فلما ذهبت الشرطة إلى هذا العنوان لم يجدوني طبعاً، وأخبرها صاحب المنزل أنّه لا يعرف عنواني الجديد (٦ شارع همدان بالجيزة) الذي انتقلت إليه منذ شهر يونيو سنة ١٩٣٩، أي قبل ذلك بقرابة ست سنوات لكنَّ الشرطة المصرية لا

تجدد أبدا معلوماتها! بل إن العدد الأكبر ممّن اعتقلتهم في تلك الليلة وما بعدها كانوا قد تركوا السياسة نهائياً منذ عدة سنوات.

وبعد أسبوع، وكانت نوبة الاعتقال قد هدأت عند الشرطة، اهتدت هذه إلى عنواني، فجاء وكيل نيابة وضابط، وقاما بتفتيش المنزل، ولكن برفق واعتدال. ولم أكن موجوداً، بل بعض اخوتي. وكان وكيل النيابة رجلاً وطنياً ممتازاً، أذكر له مواقف وطنية تشرّفه وهو طالب. فهدّأ من حماقة ضابط الشرطة. وأسفر التفتيش عن لا شيء. وأخذاً بالأحوط، رأيت ان أُسافر إلى أخي، وهو قاض في الفيوم، لأقيم عنده بضعة أيام تكون فيها حماقة الشرطة قد توقفت.

وأقول «حماقة» الشرطة، لأنّه لم يكن هناك أي مبرّر لاعتقال أحد، ما دام القاتل قد قبض عليه في الحال في قاعة مجلس النواب متلبساً بجريمته. ومنذ اللحظة الأولى اعترف بكل شجاعة ورباطة جأش أنّه هو القاتل، وأنّه هو وحده المسئول، وأنّه قام بهذا العمل دفاعاً عن شرف مصر، وبدافع من الوطنية الخالصة لأنّه شعر ان اعلان مصر الحرب على ألمانيا هو عمل دنيء يلوث كرامة مصر ويجعلها مجرد ألعوبة في يد بريطانيا. فماذا جنت ألمانيا ضد مصر حتى تعلن مصر الحرب عليها؟! إنَّ الجاني على مصر هو بريطانيا التي تحتل مصر منذ ثلاثة وستين عاماً وتسومها الخسف والذل والهوان. فبأي حق إذن تعلن مصر الحرب على عدوّ عدوّها؟!

وكان هذا هو شعور كل المصريين الوطنيين المخلصين.

أمّا حجة أحمد ماهر ومن لفّ لفّه من السياسيين المصريين الطامعين في الحكم والذين باعوا ضمائرهم في مقابل الوصول إلى كراسي الوزارة ـ فكانت: ان الحرب قد أوشكت على الانتهاء لصالح الحلفاء (انجلترة وأمريكا وروسيا) وان هؤلاء قد قرروا ألا يدخلوا في هيئة الأمم المتحدة ـ التي كانوا بسبيل تشكيلها تمكيناً لهم من السيطرة على العالم كله ـ إلاَّ أولئك الذين أعلنوا الحرب على دول المحور (ألمانيا وايطاليا واليابان) قبل انتهاء الحرب.

ويا لها من حجة سخيفة واهية!

ـ فما قيمة الانضمام إلى هذه الهيئة الجديدة التي ستحل محلّ «عصبة الأمم» المتوفاة غير مأسوف عليها؟

ـ هل تتخلص مصر من الاحتلال البريطاني القائم بفضل «هيئة الأمم المتحدة»؟ كلاَّ! فلقد ذهب النقراشي ـ رئيس الوزارة بعد مصرع أحمد ماهر ـ إلى

الأمم المتحدة ومجلس الأمن في صيف سنة ١٩٤٧ فلم يحفلا به ولم يصدرا قراراً لصالح مصر في مخاصمتها لانجلترة. بل على العكس تماماً، أشاعا اليأس في نفوس المصريين من إمكان ازالة الاحتلال البريطاني عن هذا الطريق الدولي السلمي.

ثم ماذا كان سيحدث لو لم تُضم مصر إلى هيئة الأمم المتحدة الجديدة؟

لا شيء قطعاً غير ما حدث. بل إنَّ الدول الكبرى (أمريكا وانجلترة وروسيا) هي التي كانت في أشد الحاجة إلى ضم دول مثل مصر إلى حظيرة هذه المنظمات الدولية، حتى تحكم قبضتها على الدول الصغيرة، وتحملها على الاستكانة والامتناع من الكفاح العملي؛ وتخدّر شعورها القومي بتلك المناقشات العقيمة والقرارات الهزلية التي لن ينفّذ منها شيء يتعارض مع مصالح الدول الكبرى.

لو كانت هذه الدول الكبرى التي انشأت «هيئة الأمم المتحدة» صادقة النيَّة فيما ادعته من أهداف لهذه المؤسسة، لكان اول قرار لها هو إعلان استقلال جميع دول العالم وتنفيذ ذلك فوراً. لكن الذي حدث هو على العكس تماماً: استغلت الدول الخمس الكبرى دائمة العضوية (الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفييتي، وانجلترة، وفرنسا، والصين) هذه المؤسسة الدولية لإسكات كل صوت ينادي باستقلال وطنه، وترسيخ سيادتها على الدول التي اقتطعتها لنفسها نتيجة لانتصارها في الحرب، وللعمل على صرف أبناء البلاد المحتلّة عن الكفاح العملي وتحويل الأمر إلى «قضية» قانونية يتبارى الخطباء من كلا الطرفين للدفاع عن موقف بلده. وإلا فقل لي بربّك، ما هي الدولة التي نالت استقلالها بفضل قرار من «الأمم المتحدة»؟

- أهي مصر، التي اضطرت إلى الكفاح وأساليب العنف ضد الانجليز في سنة ١٩٤٦ حتى اضطرت انجلترة إلى سحب جنودها من القاهرة والاسكندرية (وحدهما)، وفي سنة ١٩٥١ فأدّى ذلك إلى اتفاق سنة ١٩٥٤، ومع ذلك بقي الاحتلال البريطاني حتى ١٦ يونيو سنة ١٩٥٦، وهو اليوم الذي حدّدته معاهدة سنة ١٩٣٦ لانتهاء الاحتلال البريطاني؟!

- أم هي الجزائر وفرنسا ومراكش - التي لم تنل استقلالها إلاَّ بفضل الكفاح المسلّح، والبطولة العظيمة في التضحية بالنسبة إلى الجزائر؟!

- أمَّا أندونيسيا التي مكنت لها اليابان من هزيمة هولندة بالنضال المسلّح في الغابات بحرب العصابات؟

ـ أمّا دول أوروبا الشرقية التي سيطرت عليها روسيا حتى هذه الساعة، ولم تستطع واحدة فيها ان تنعم ولو بقليل من الحرية، وداس الجيش الأحمر الروسي بدباباته على كل رأس فيها حاولت ان تتحرر أقل تحرر ـ واحداث المانيا الشرقية في سنة ١٩٥٣، وأحداث المجر في اكتوبر سنة ١٩٥٦، واحداث تشيكوسلوڤاكيا في ربيع سنة ١٩٦٨، وأحداث بولندة المتكررة خير شواهد على ما نقول؟!

إذن كان عملاً مشيناً خسيساً عارياً عن كل شهامة وكرامة، أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا في فبراير سنة ١٩٤٥، في الوقت الذي أطبقت فيه جيوش الحلفاء على ألمانيا وتيقن أمر هزيمتها بعد بضعة أسابيع.

ونعود إلى قضية اغتيال أحمد ماهر فنقول إنَّه لما كان القاتل العيسوي قد اعترف بأنَّه وحده الفاعل، ولم يستطع التحقيق ان يكشف عن وجود شركاء له أو محرّضين لا من قريب ولا من بعيد، فقد أخذ القضاء في الافراج عن المعتقلين جماعة إثر جماعة، في خلال خمسة وأربعين يوماً من الحادث.

من المفارقات في هذه القضية أنَّه كان لنا زميل مولع بتشكيل الأحزاب، فكان إذا جلس مع جماعة من الشباب الوطني، خصوصاً من زملائه القدماء في مصر الفتاة، يأخذ في تشكيل حزب ممن يرى انهم خير مَن يمثلون الوطنية في مصر، ويقيد أسماءهم على ورقة يحتفظ بها؛ وقد وجد البوليس السياسي عند تفتيشه لمنزله بعض هذه الأوراق، فاتخذها هادياً له في اعتقال مَن اعتقل! رغم ما في هذه الورقات من تشكيلات يبدو للوهلة الأولى أنَّها نوع من الهذيان: إذ تجد فيها اسم اسماعيل صدقي (باشا) إلى جانب أسماء شُبّان ناشئين من زملاء هذا المولع بتشكيل الأحزاب. ولما سُئل أحد اليساريين المعتقلين عن سبب ورود اسمه في احدى هذه الورقات، قال صائحاً: كيف يجمع بين اسمي واسم اسماعيل صدقي (باشا) وعبد الرحمن بدوي في كشف واحد! هذا مستحيل!

۞ ۞ ۞

على كل حالٍ كان حادث مقتل أحمد ماهر أوّل صدمة في حركة الحزب الوطني الجديد، صدمة زادت من توسيع الفجوة بين أعضاء الحزب الوطني القديم، وأعضاء الحزب الوطني الجديد.

وكانت الصدمة الثانية بعد ذلك بتسعة أشهر لما قام حسين توفيق باغتيال أمين عثمان في ديسمبر سنة ١٩٤٥.

لقد كان أمين عثمان ـ وزير المالية في عهد وزارة ٤ فبراير برئاسة مصطفى

النحاس ـ الرمز المتجسد للخيانة العظمى. ولم ينس له المصريون جميعاً ـ باستثناء القلة من الخونة عملاء بريطانيا في مصر ـ قوله في خطبة له في الاحتفال السنوي الذي أقامته كلية ڤكتوريا بالاسكندرية في سنة ١٩٤٣ ـ إنَّ «االعلاقة بين بريطانيا ومصر هي علاقة زواج كاثوليكي» أي زواج دائم أبدي لا طلاق معه أبداً. ومما هو جدير بالذكر ان رئيس الوزارة ـ مصطفى النحاس ـ وسائر وزرائه باركوا هذا الكلام، بدليل ان أمين عثمان ظلَّ وزيراً للمالية بعد ذلك وحتى سقطت وزارة النحاس في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٤. ولم يصدر عن أية شخصية وفدية، ولا عن الصحف الوفدية (المصري وغيرها) أي استنكار لهذا الكلام المنطوي على أبشع أنواع الخيانة الوطنية.

لهذا كان من المتوقع ان يلقى أمين عثمان جزاءه عن هذه الخيانة العظمى على يد أحد الشباب الوطنيين. فكان ان تطوّع حسين توفيق لأداء هذه المهمة، يشاركه في التدبير لها بعض أقاربه من الشباب الوطني المتحمس. وكان أمين عثمان قد ألّف جماعة صغيرة من الخونة المصريين عملاء بريطانيا، اتخذت مقراً لها في عمارة بشارع عدلي مجاورة لمقهى جروبي. فتربّص له حسين توفيق في مدخل العمارة وصعد معه في المصعد، وما ان خرج منه أمين عثمان حتى عاجله حسين توفيق ببضع رصاصات أودت بعد ذلك بحياة أمين عثمان.

ولم يكن حسين توفيق عضواً في شباب الحزب الوطني الجديد، بل بعض أقاربه. وبسبب سذاجته الحماسية أقرَّ بمن دبّروا معه هذه العملية، ومنهم شباب معروفون بانتسابهم إلى الحزب الوطني الجديد.

لكنه نظراً إلى أن أمين عثمان لم يكن في السلطة، وكانت مصر قاطبة تكرهه وتتمنى له هذا المصير، فقد جرى التحقيق والاعتقال في القضية بنزاهة وعدالة. فلم يُعتقل إلاَّ مَن اعترف عليه حسين توفيق. وانحصرت الاعتقالات فيمن لهم صلة فعلية بهذه القضية. لهذا لم يستطع البوليس السياسي ان يخرج كشوفه التقليدية الموروثة. ومرَّ هذا الحادث بذيوله الطويلة دون أن يمسّ القائمين على الحزب الوطني الجديد: فلم يعتقل منهم أحد، ولم يسأل منهم أحد.

ثم كان أن سافرت إلى لبنان في نوفمبر سنة ١٩٤٧ وأمضيت فيها عامين أستاذاً في «المدرسة العليا للآداب» التابعة لجامعة ليون بفرنسا، فأدّت هذه الغيبة إلى توقف نشاطي السياسي في الحزب الوطني الجديد.

ولما عدت إلى مصر في اكتوبر سنة ١٩٤٩ استأنفت نشاطي فيه. وقد وجدت ان بعض العناصر الشيوعية ـ بتوسط من ابن اخت فتحي رضوان ـ قد حاولت

الاندساس في صفوف الحزب الوطني الجديد وتطعيمه بمبادىء الماركسية، فأخذت على عاتقي التصدّي لهذا الاتجاه بكل حزم. ولما كان فتحي رضوان قد ساير هذا الاتجاه، فقد رأيت انه لا بد من الاستعانة بشخصيات بارزة معروفة بعدائها لليسار وبمكانتها الاجتماعية. وأبرز هذه الشخصيات: مصطفى مرعي، وزهير جرانة. أما مصطفى مرعي فقد انضم إلينا في ديسمبر سنة ١٩٤٩ بعد استقالة صاخبة من وزارة حسين سري التي كان هو وزير دولة فيها. أمّا زهير جرانة فكان قد انضم إلى الحزب الوطني قبل ذلك بعامين أو أكثر، وصار عضواً في اللجنة الادارية للحزب مع قدماء أعضائها. وكان نور الدين طراف عنصراً ثالثاً مساعداً، وهو من المؤسّسين للحزب الوطني الجديد منذ البداية، وكان قد صار نائباً في مجلس النواب الذي أشرفت على انتخاباته وزارة أحمد ماهر في بداية سنة ١٩٤٥. وكانت خطتي لذلك هي عدم انتخاب رئيس للحزب الوطني الجديد، وأفلحت في منع ذلك بحجة عدم حضور مصطفى مرعي حيناً، أو نور الدين طراف حيناً آخر، أو زهير جرانة في معظم الأحوال.

وجاءت وزارة الوفد في ١٩ يناير سنة ١٩٥٢، ونشطت مجلة «اللواء الجديد» وصارت تحفل بالمقالات النارية ضد الانجليز، وضد الوفد، وضد الملك الذي صار منذ سنة ١٩٤٧ يلوذ بالانجليز ويستعين بالآفاقين ـ النصّابين والسماسرة: وعلى رأس هؤلاء: كريم ثابت وادجار جلاد من اللبنانيين والياس اندراوس من النهّابين المصريين، وبولّي الإيطالي الجنسية، وغيرهم عديدون من رجال السراي التافهين والمنافقين (عمر فتحي، محمد حسن الشماشرجي، الخ الخ). ومن المقالات المثيرة التي نشرت في مجلة «اللواء الجديد» مقال لمصطفى مرعي بعنوان: «اليخت مخر البحار»، وكان هجوماً قوياً على الملك فاروق؛ ومقالات بقلمي ضد رجال الجامعة العربية: عبد الرحمن عزام، وأحمد الشقيري.

وتزايد مع ذلك انضمام الكثيرين من الشباب البارز في الحركات السياسية الوطنية إلى الحزب الوطني الجديد.

لكن هذه المسيرة الزاحفة توقفت بعد حادث احراق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ وفرض الأحكام العرفية في مساء ذلك اليوم مع مجيء وزارة علي ماهر. فاعتقل فتحي رضوان في مساء ذلك اليوم، كما اعتقل أحمد حسين وآخرون. وبقي فتحي رضوان معتقلاً حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فأفرج عنه في يوم ٢٥ يوليو.

وخلال هذه الفترة ـ من يناير حتى يوليو سنة ١٩٥٢ استمررنا في إصدار

مجلة «اللواء الجديد» رغم الرقابة والأحكام العرفية، لكن طبعاً في الحدود التي تسمح بها الرقابة، والحق يقال إنَّها كانت رقابة معتدلة.

وتوالت الأحداث في انهيار رهيب يؤذن بنهاية الملكية: فسقطت وزارة علي ماهر بعد شهر وأيام قليلة، وجاءت وزارة نجيب الهلالي فازدادت الأمور سوءاً، وتلتها بعد ثلاثة أشهر وزارة حسين سرّي، فلم تزد الأمور إلاّ فساداً، فانهارت بعد بضع أسابيع، وعاد نجيب الهلالي يرئس وزارة ثانية أطاحت بها ثورة يوليو بعد أربعة أيام.

تقويم

والآن، لو ساءلت نفسي: ما حصيلة حركة الحزب الوطني الجديد طوال ثمانية أعوام؟

فإنَّ الجواب هو: حصيلة ضئيلة:

١ ـ لقد أردنا ان نبعث الحياة في الحزب الوطني القديم، فلم نفلح، لأنَّ العناصر التي كان يتألف منها كانت من التيبّس والتجمّد على أحوالها بحيث لم يكن ثم أي رجاء في إنعاشها وجعلها تخضرّ وتزهر. وكان من الواجب علينا ان نتوقع ذلك، لأنَّه لا يمكن بعث الحياة في قطع متحف.

٢ ـ ولهذا كان الانفصال عن الجذع المتيبّس للحزب الوطني القديم امراً محتوماً. واضطررنا إلى هذا الانفصال بعد ثلاث أو أربع سنوات، ضاع بعضها في صراع داخلي لا طائل تحته.

٣ ـ ثم إنَّ بنية الحياة الحزبية السياسية في مصر لم تمكّن من إيجاد حزب قويّ ذي قواعد شعبية، للأسباب التالية:

أ ـ الحزبية في مصر تقوم على تحصيل المنافع العملية، وهذا لا يتم إلاّ إذا كان للحزب سلطة أو يؤمل في الحصول على سلطة، لأنه بالسلطة وحدها تستطيع ان تحقق للناس مآربها ومنافعها: فتعيّن في الوظائف الحكومية أبناء الناخبين، وتيسّر الحصول على أذون الاستيراد والتصدير، وتمكّن من تعيين العمد، وترقّي الموظفين الطامعين في المزيد من النفوذ والترقيات، وتوفّر وسائل الريّ والمواصلات، إلى آخر هذه المنافع المختلفة التي تؤثر في أصحاب النفوذ بين الناخبين. فماذا كان يستطيع الحزب الوطني الجديد ان يقدّمه من هذا كله؟ لا شيء مطلقاً.

ب ـ والعصبيات المحلية في الأرياف تلعب الدور الأكبر في الانتخاب، سواء كانت عصبية الدم أو عصبية المال. وأنّى لشباب الحزب الوطني ان تكون لهم عصبيات، حتى بين أهلهم، لأنَّ أهلهم يريدون تحقيق مصالح عاجلة، آنية، ملحّة، لا يغني عنها أيّ أمل في المستقبل.

جـ ـ ثم إنَّ الشباب في مصر، خصوصاً طلاب الجامعات، كان موزعاً بين تيارين: التيار الديني متجسداً في حركة الاخوان المسلمين، والتيار اليساري المتعدد الألوان. صحيح ان هذا التيار الثاني كان ضعيفاً، توجّهه عناصر أجنبية ويهودية، لكنه كان يستهوي بعض الشباب. أمّا التيار الليبرالي الذي كان قوياً في فترة ما بين الحربين العالميتين، فقد انحسر وغاصت روافده، ولم يعد يلقى أي هوى في نفوس الشباب. ـ ولم يكن للحزب الوطني الجديد أيّ مكان بين هذه التيارات الثلاثة، لأنّه نأى بجانبه عنها، ولم يستطع ان يصوغ ايديولوجية جديدة قائمة برأسها.

إن الوصولية والنفعية هما الدافعان الأساسيان، إلى الانضمام إلى الأحزاب السياسية في مصر طوال القرن العشرين وحتى يوم الناس هذا. ولم يكن للمبادىء السياسية والوطنية أيّ أثر في انضمام كل او جلّ المنتسبين إلى الأحزاب السياسية في مصر. وحتى المنتسبين إلى أحزاب الشباب كانوا هم الآخرون يؤملون في أن يجدوا مكاناً بارزاً في السياسة، لما ان عزّ عليهم ان يجدوه بين الصفوف الأولى المتكتلة في الأحزاب القديمة. ولما وصل بعضهم إلى كرسي الوزارة في المرحلتين الأوليين بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ نسوا كل ما نادوا به من مبادىء من قبل، وتورطوا في كل المظالم وصنوف الاستبداد وتدمير الكرامة للإنسان المصري. ولم يرتفع لواحد منهم صوت طوال تلك السنوات الرهيبة، رغم ما تعرضوا له في كرامتهم من امتهان منقطع النظير.

الانتقال إلى جامعة عين شمس

وأدع الآن السياسة جانباً إلى أن نلتقي بها فيما بعد قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، لكي أُتابع الحديث عن الجانب التعليمي والعلمي.

فأقول إنَّ د. طه حسين قد تولّى وزارة المعارف في ١٩ يناير سنة ١٩٥٠ ضمن وزارة الوفد. وكما عمل على انشاء جامعة الاسكندرية حين كان مستشاراً لوزير المعارف، نجيب الهلالي، في سنة ١٩٤٢، كذلك أعلن في ربيع سنة ١٩٥٠ عن إنشاء جامعة ثالثة، أطلق عليها اسم «جامعة ابراهيم باشا الكبير»، ضمَّت ثلاث

كليات جديدة، هي كلية الآداب وكلية الحقوق، وكلية الطب، وضمّت إليها مدارس عليا قديمة صارت كليات باسم: كلية الهندسة، وكلية البنات (آداب وعلوم)، وكلية التجارة وكلية التربية، وكلية الزراعة، وكلية العلوم.

وكنت أنا قد امتلأت ضيقاً بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن)، فرحّبت بالانتقال إلى كلية الآداب الجديدة في جامعة ابرهيم باشا الكبير (جامعة عين شمس فيما بعد)، خصوصاً وأنَّ مَن انتقلوا معي من أساتذة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول كانوا في مثل حالي من التبرّم بهذه الكلية التي أضحت في السنوات الأخيرة من مقامنا بها عشاً للأفاعي وموئلاً للمنافقين، ومرتعاً خصباً للجهال والدسّاسين.

وكان موقع كلية الآداب الجديدة طوال أحد عشر عاماً ونصفاً في شبرا مكان مدرسة ايطالية صغيرة تحوّلت إلى مدرسة اجنبية انجليزية، ثم إلى مدرسة للمعلمين عليا، بعد الاستيلاء على ممتلكات الإيطاليين غداة قيام الحرب العالمية الثانية. وكان انتقالي إلى كلية الآداب في جامعة ابرهيم باشا الكبير، في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٥٠، حيث صرت رئيساً لقسم الفلسفة والاجتماع.

وقد حاولنا منذ البداية ان نجعل هذه الكلية متميزة تماماً في نظامها التعليمي عن نظيرتها في جامعة فؤاد. واتفق رأينا ـ في سبيل ذلك ـ على اتخاذ نظام الشهادات، بدلاً من نظام السنوات. فحددنا لكل قسم عدداً معيناً الزامياً من الشهادات التي اذا حصل عليها الطالب حصل على الليسانس. بيد أنّنا رأينا من العسير تطبيق نظام الشهادات المعمول به في الجامعات الفرنسية كما هو، أعني بترك الحرية للطالب يختار من الشهادات المقرّرة عليه في قسمه ما يريد الالتحاق به والامتحان فيه، بل جمعنا في الواقع بين نظام الشهادات ونظام السنوات: فالمواد الرئيسة في كل قسم صار لكل منها شهادة، وعلى الطالب ان يحضر للشهادات بحسب ترتيب محدد لا يحيد عنه، ويستغرق أربع سنوات. فهو لا يستطيع ـ على عكس الطالب الفرنسي ـ أن يختار شهادة قبل أخرى، ولا أن ينتقل من سنة إلى تالية إلاّ إذا نجح في الشهادات المقررة للسنة السابقة. ولا يستطيع ان ينتهي من دراسته ويحصل على الليسانس إلاّ بعد قضائه أربع سنوات دراسية كاملة.

وحاولت أن أعيد إلى قسم الفلسفة مكانته التي كانت له قبل سنة ١٩٤٠؛ بدعوة أساتذة فرنسيين ممتازين للقيام بالتدريس فيه. فاتصلت، في صيف سنة ١٩٥١ وأنا في باريس بلوسن René Le Senne أستاذ الأخلاق في السوربون، لكنه اعتذر عن عدم إمكان الارتباط بعام دراسي، واقترح أن تكون الدعوة

لثلاثة أشهر على الأكثر. ولما كان هذا الوضع غير مفيد بالنسبة إلى طلابنا، فقد انصرفت عنه إلى استاذ آخر لم يكن في السوربون، ولكنه كان يدرّس في الليسيه، وهو أرمان كوڤييه Arman Cuvillier صاحب المتن Manuel المشهور في علم النفس والميتافيزيقا والمنطق. فتمنّى لو لبّى الدعوة، لكنه مرتبط بأمّه الطاعنة في السن: لهذا اعتذر هو الآخر. وأخيراً وافق أوجيست دييس Auguste Diès وهو أحد كبار المتخصصين في أفلاطون، فعمل في قسم الفلسفة طوال ثلاثة أعوام، على الرغم من انه كان قد جاوز الثمانين. وكان د. طه حسين قد فرض علينا مدرساً فرنسياً آخر كان يعمل في الليسيه فرانسيه بالقاهرة منذ تسعة أعوام ولم يكن ذا شأن في العلم، ولم يحصل على الدكتوراه إلاّ في ديسمبر سنة ١٩٥٥، واثر حصوله عليها عاد إلى فرنسا في أوائل سنة ١٩٥٦، وعيّن استاذاً في جامعة بوردو. وتلاه مدرّس فرنسي آخر لم يمض إلاّ نصف عام.

لهذا وقع العبء الأكبر في التدريس على عاتقي أنا: فكنت أدرّس المنطق، والفلسفة الاسلامية (علم الكلام، فلاسفة الاسلام، التصوف) والفلسفة المعاصرة (من كنت حتى هيدجر).

وفي يونيو سنة ١٩٥٤ أصدر مجلس الكلية قراراً بترقيتي إلى أستاذ ذي كرسي، وأرسل القرار إلى مدير الجامعة لعرضه على مجلس الجامعة. وسافرت أنا إلى باريس في منتصف شهر يونيو، وأنا مطمئن إلى تصديق مجلس الجامعة على هذا القرار. لكن مدير الجامعة لم يعرض القرار على مجلس الجامعة في الجلسة التي عقدها في أواخر يونيو، وكانت الجلسة الأخيرة في ذلك العام الدراسي.

ثم حدث في أوائل سبتمبر ان عُيّن كمال الدين حسين، عضو مجلس قيادة الثورة، وزيراً للمعارف، فأحدث تغييرات واسعة المدى: منها فصل سبعة وثلاثين عضواً من هيئة التدريس في الجامعة كانوا قد وقفوا ـ أو اتهموا بأنهم وقفوا ـ ضد مجلس قيادة الثورة في نزاعه مع اللواء محمد نجيب في شهري فبراير ومارس سنة ١٩٥٤؛ ومنها وضع قانون جديد للجامعات.

وكان من بين مواد هذا القانون ما يلي: يُشترط فيمن يعيّن أستاذاً ذا كرسي أن يكون قد مضى على تخرّجه ثمانية عشر عاماً.

ولما كنت أنا قد تخرجت في سنة ١٩٣٨، أي منذ ستة عشر عاماً، فقد توقف قرار ترقيتي الصادر من مجلس الكلية في يونيو سنة ١٩٥٤، لأنَّ القرار لم يصادق عليه بعد مجلس الجامعة والوزير.

وهكذا كان عليّ أن أنتظر عامين آخرين.

ولما كان القانون الجديد يقضي بالاعلان عن وظائف أعضاء هيئة التدريس، فقد تمّ الاعلان عن وظيفة استاذ «الفلسفة وتاريخها» في شهر اكتوبر سنة ١٩٥٦، وكنت آنذاك مستشاراً ثقافياً ومديراً للبعثة التعليمية في سويسرة منذ أول مارس سنة ١٩٥٦.

وتقدمت لترشيح نفسي للحصول على هذه الوظيفة، وتقدّم شخصان آخران هما أحمد فؤاد الأهواني وزكي نجيب محمود. وشكلت لجنة للنظر في طلبات المتقدمين الثلاثة، وكانت اللجنة تتألف من د. أبو العلا عفيفي، ود. ابرهيم مدكور، ود. عثمان أمين. وأصدرت اللجنة قرارها الاجماعي بأنّني أحق الثلاثة بهذا المنصب. وعرض تقرير اللجنة على مجلس الكلية، فقرّر ترشيحي لمنصب أستاذ ذي كرسي «للفلسفة وتاريخها» بكلية الآداب، وكان ذلك في شهر ديسمبر سنة ١٩٥٦. وعُرِضَ قرار مجلس الكلية في يناير سنة ١٩٥٧ على مجلس الجامعة - وكان واحد من ألد أعدائي قد صار وكيلاً للجامعة، واستطاع بخبث أن يجعل مجلس الجامعة يؤجّل النظر في الموضوع إلى حين عودتي من انتدابي في سويسرة. وهي حجة واهية تخالف قانون الجامعة، لأنّه نص على أن المعار ينال علاواته ودرجاته وترقياته كما لو كان غير معار، شأنه شأن أعضاء هيئة التدريس القائمين بالعمل في مصر تماماً.

ثم عدت من إعارتي هذه في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥٨، واستطعت إبطال مناورات ذلك الشخص، وقد صار مديراً للجامعة. فاضطر مرغماً إلى عرض الموضوع على مجلس الجامعة في ٢٨ يناير سنة ١٩٥٨ فوافق المجلس، ثم وافق وزير التربية والتعليم، الاستاذ نجيب هاشم، وهو رجل يتحلى بالنزاهة ونبالة الأخلاق، وحسن التقدير. وهكذا صرت أستاذاً ذا كرسي في ٢٨ يناير سنة ١٩٥٨.

وأتوقف هنا ملياً لأتأمل في هذه القضية:

أمّا حقد مدير الجامعة فقديم بدأ في كلية آداب جامعة فؤاد، وكان باعثه تشابه الأسماء: فقد كنت أنا مشهوراً في العالم العربي كله، بينما كان هو مغموراً لا يعرفه أحد. فكان يحدث أحياناً أن يذهب إلى بلد عربي لحضور مؤتمر في الآثار، او يحضر بعض المجالس التي يغشاها بعض الكتّاب العرب، يتقدّم إليهم باسم: د. بدوي، وإذا بمَن يقدم إليه يقول: نعم، أعرفه بالقراءة، فقد قرأت له «نيتشه» و«شوبنهور»، أو «أرسطو»، أو «أفلاطون»؛ أو: اقرأ لك في مجلة «الثقافة» أو «الأديب»، الخ - فيمتلىء هو خجلاً من نفسه، وحقداً عليّ لأنّني أنا المقصود،

أمّا هو فمجهول تماماً. لهذا كان ممتلئاً غيظاً وكيداً مني ورغم انه امضى عشر سنوات في ألمانيا، فإنّه لم يكن يحسن من اللغة الالمانية الأدبية شيئاً، ولم تفده هذه المعرفة بشيء، فلم ينتج شيئاً له علاقة بالثقافة الألمانية، بينما أسهمت أنا بالعديد من المؤلفات والترجمات في تقديم الثقافة الألمانية إلى القارىء العربي، وصار اسمي مقروناً بالثقافة الألمانية في العالم العربي. - أمّا كيف ترقى في المناصب الادارية فهذا أمر ميسور في مصر لكل مَن يتخذ من النفاق والوصولية وسائر أساليب الاتصالات الشخصية الدنيئة وسائل له في السلوك الاجتماعي.

أمّا الشخصان اللذان تقدما لمنافستي فأمرهما غاية العجب: فأولهما، وهو أحمد فؤاد الأهواني كان آخر طالب في ليسانس الفلسفة سنة ١٩٢٩، وظلّ مدرساً في المدارس الثانوية حتى سنة ١٩٤٥ حين عُيّن عبد الوهاب عزام عميداً لكلية الآداب فراح يتملقه بمقالات في مجلة «الثقافة» (أو «الرسالة» - لا أذكر)؛ فكافأه هذا بتعيينه في قسم الفلسفة كلية الآداب، رغم ان رسالة الدكتوراه لا شأن لها بالفلسفة، بل هي في التربية.

والثاني، وهو زكي نجيب محمود، تخرّج في مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٣٠، ولم يكن فيها تدريس للفلسفة، فلم يدرّس إذن شيئاً في الفلسفة. وعُيّن مدرساً في المدارس الثانوية. وراح يكتب مقالات أدبية سطحية في مجلة «الرسالة»، معظمها تلخيص بسيط ساذج لكتاب ول ديورنت: «قصة الفلسفة»، وهو كما يدل عليه اسمه كتاب تافه جداً سطحي جداً يتوجه لعامة المبتدئين في الثقافة. وبالمراسلة مع جامعة لندن تقدّم للحصول على بكالوريوس في الآداب B.A ثم سافر في منحة علمية للمجلس البريطاني في سنة ١٩٤٤ إلى انجلترة وبعد ثلاث سنوات حصل على P.H.D فهو إذن لم يدرس الفلسفة دراسة منتظمة في معهد علمي. ولم يكن له من الانتاج إلاّ مقالات بسيطة في المجلات الأدبية - تماماً كما يفعل الآن في صحيفة «الأهرام» - مستواها لا يزيد على مستوى طالب في المرحلة الاعدادية.

ولم يكن لأيّ واحد منهما أي انتاج علمي في الفلسفة يستحق الذكر حين تقدّما للوظيفة المعلن عنها. لكنها هي المنفعة وخداع النفس وعدم الوعي بقدر النفس - قد حملت كليهما على التقدّم لهذه الوظيفة. ولربما توهم كلاهما ان وجودي في الخارج - في سويسرة - سيجعل الجوّ خالياً لاختطاف ما لا يستحقانه ابداً. فضلاً عن انه لم يكن لثانيهما الحق في التقدم، لأنّه لم يكن قد أمضى المدة المطلوبة في وظيفة استاذ مساعد!

وربما زوّر لهما هذا الوهم ما هو معهود في مصر من العبث بكل قيمة وإهدار كل حق في غيبة صاحبه.

وهو العبث الذي نراه مهيمناً في مصر منذ عشرات السنين في أمر جوائز الدولة التقديرية وتولّي المناصب العالية واقتسام العضوية في الهيئات العلمية ـ مما أهدر قيمة كل جائزة او عضوية وجعل من العار على صاحب الفضل ان ينالها. وما على المرء إلاَّ ان يتصفح أسماء الذين حصلوا على جائزة الدولة التقديرية في مصر منذ سنة ١٩٦٥ حتى اليوم ليتبين انهم أقل من كثير غيرهم استحقاقاً لهذه الجائزة، وان معظمهم لم ينتجوا شيئاً يذكر بل كان العقم والجهل معاً هما الصفتين الغالبتين عليهم. ذلك ان للوزير المختص (وزير التربية ثم وزير الاعلام والثقافة) اثني عشر صوتاً يتصرف فيها كما يشاء، لأنّها أصوات موظفين تابعين له، وباقي اعضاء المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية تحركهم دوافع غير علمية: من صداقات أو حَسَد ونفاسة الخ. فهل من عجب بعد هذا ان يتم الاختيار وفقاً لدوافع سياسية أو شخصية، ليس للتقدير العلمي فيها أي نصيب. لهذا تحوّلت جائزة الدولة التقديرية من تقدير للعلم إلى إهدار لكل قيمة علمية. وبدلاً من أن تكون حافزاً للانتاج العلمي الممتاز، صارت وسيلة وفرصة للتزلف والنفاق والعمل في خدمة مخابرات الدولة، في خدمة السلطة الحاكمة الظالمة وتأييد مظالمها وجرائمها ومخازيها!!

وبهذه المناسبة اذكر واقعة تدل على أحط درجات النفاق لدى بعض الأساتذة الجامعيين الذين يتولون الترشيح للجائزة التقديرية. كان ذلك في اجتماع للجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في خريف سنة ١٩٦٢، وكان جمال عبد الناصر قبل ذلك ببضعة أشهر قد أصدر ما دعاه «الميثاق الوطني». وإذا بذلك «الأستاذ» الجامعي يقول ونحن بصدد الترشيح لنيل الجائزة التقديرية في العلوم الاجتماعية: «الأمر لا يحتاج إلى أي تفكير؛ إنَّه أوضح من نور الشمس؛ إنَّ علينا ان نرشح صاحب «الميثاق الوطني». واستولت الدهشة على الحاضرين، وأُحرج مقرر اللجنة (د. ابو العلا عفيفي) فتوجه إلى الأعضاء يسألهم الرأي في هذا الاقتراح. وفي تأفف وحرج ظاهر قال: إنَّ الاقتراح جدير بالنظر. وتلاه زكي نجيب محمود، فأيّد الاقتراح، ولكن بفتور. كذلك فعل آخران غيره. وبقيت أنا صامتاً. فقال مقرر اللجنة: لماذا تسكت، نحن في انتظار رأيك. فقلت في حدّة: «أنا مندهش من هذا الاقتراح! فكيف يتجرأ صاحب الاقتراح (د. محمد ثابت الفندي) على ان يتطاول على رئيس الجمهورية فيزجّ به في التنافس على هذه

الجائزة؟!» إنَّ هذا تطاول على مركز رئيس الجمهورية! فأسرع صاحب الاقتراح بسحب اقتراحه، وارتاح سائر الأعضاء الجبناء لأن ردِّي هذا خلَّصهم من الورطة التي انزلقوا إليها. وبهذه الحيلة الماكرة أفسدت على صاحب الاقتراح ـ ما كان يتطلع إليه من ورائه وهو ان يكافأ عنه بتعيينه مديراً لجامعة الاسكندرية، بعد ان استنفد كل وسائل النفاق في سبيل ذلك دون جدوى. ولم يكن قصدي طبعاً الدفاع عن مقام رئيس الجمهورية، بل ضرب النفاق بأنجع سلاح!

في سويسرة: مستشاراً ثقافياً ورئيساً للبعثة التعليمية

وفي يناير سنة ١٩٥٦ عُيِّنت مستشاراً ثقافياً ورئيساً للبعثة التعليمية في سويسرة. فسافرت إلى برن في ٢٤ فبراير سنة ١٩٥٦.

وكان مكتب البعثة التعليمية المصرية في سويسرة قد أُغلق قبل ذلك بثلاث سنوات، وأُحيلت أعماله إلى مكتب البعثة التعليمية في بون Bonn بألمانيا. فكان عليّ ان أبدأ بالسفر إلى بون لتسلّم ملفات الطلاب الذين يدرسون في سويسرة.

واتخذت مكتباً في عمارة بشارع ڤابرن Wabern، كان فيه أيضاً مكتب الملحق العسكري، ومكتب الملحق التجاري.

وكان الطلاب ثلاث فئات: فئة الموفدين على نفقة الحكومة المصرية، وفئة طلاب ينفق عليهم آباؤهم ويخضعون للإشراف المالي والاشراف العلمي معاً، وفئة قليلة جداً تخضع للإشراف العلمي فقط. وكانت ميزة الخضوع للإشراف المالي ان يحوّل الآباء مصروفات الطالب عن طريق ادارة البعثات بالسعر الرسمي وهو ١٢,٥٦ فرنك سويسري للجنيه المصري، بينما كان السعر في السوق الحر لا يتجاوز ١١ فرنكاً، فضلاً عن صعوبة ـ بل واستحالة ـ التحويل عن طريق البنوك. وكان مرتب طالب البعثة الحكومي ٧٢٠ فرنك شهرياً في المدن الكبيرة (زيورخ، بازل، برن، جنيف) و٦٣٠ فرنكاً في سائر المدن. إلى جانب مرتب شهر كامل اضافي في شهري ابريل وسبتمبر للملابس، ونصف شهر في شهر اكتوبر للكتب.

وعدد طلاب الفئات الثلاثة كان متغيراً، لكنه وصل في أوجه (سنة ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨) إلى ٤٢٨، منهم ١٢٦ مبعوثاً حكومياً، والآخرون على نفقة أهاليهم.

وكانت الغالبية العظمى من الطلاب الحكوميين تدرس في «مدرسة الهندسة

الفدرالية» في زيورخ، وتعد من أعظم كليات الهندسة في العالم كله. وكان عدد غير قليل من مبعوثي كلية الهندسة في مصر يرسلون إليها، خصوصاً منذ ان كان عميدها سويسرياً. وهؤلاء كانوا يحضّرون للحصول على الدكتوراه في الهندسة بمختلف فروعها: مدني، عمارة، ميكانيكا، كهرباء. وكان الطبيعي هو ان يكون المبعوثون الحكوميون أحسن علماً من الذين يتعلمون على نفقة أهليهم. لكن هذه لم تكن القاعدة دائماً، إذ كان بعض هؤلاء الأخيرين أفضل كثيراً من المبعوثين الحكوميين، والسبب في هذا هو ان الاختيار للإرتقاء في بعثات حكومية كان يخضع أحياناً لاعتبارات غير علمية: كالنفوذ السياسي، او القرابة من أصحاب الأمر في وزارة التربية، الخ. ولهذا فإنَّ بعض هؤلاء المبعوثين الحكوميين أخفقوا في دراساتهم فلم يحصلوا على الدكتوراه، لكن عددهم كان قليلاً على كل حال، لا يقاس بمهازل المبعوثين الحكوميين في فرنسا أو انجلترة.

وكان العدد الأكبر من الدارسين على نفقات أهاليهم طلاباً في المرحلة الجامعية الأولى (البكالوريوس) لأنهم لم تؤهلهم مجاميعهم في الثانوية العامة للدخول في كلية الهندسة في مصر. ولهذا كان مستواهم العلمي سيئاً، ومن ثم لم يفلح الكثير منهم في الحصول على البكالوريوس.

وكان من نتائج العدوان الانجليزي الفرنسي على مصر في أوائل نوفمبر سنة ١٩٥٦ ان حوّلت بعض البعثات المقررة لفرنسا وانجلترة إلى سويسرة، ومن ثم تنوّع تخصّص المبعوثين الحكوميين في سويسرة فلم يعد مقصوراً على الهندسة، بل امتد إلى العلوم التجارية، والعلوم البحتة، والصيدلة، واللغة الفرنسية، والجغرافيا. ومن هؤلاء مَن سيصير رئيساً للوزراء (د. علي لطفي).

كما كان سن نتائجه ان أصبحت الوسيط بين مكتبي البعثة في لندن وباريس وبين ادارة البعثات في القاهرة، واستمر الوضع على هذا النحو سن أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ حتى أول أغسطس سنة ١٩٥٧.

وعمل مدير البعثة التعليمية يشمل: الحاق الطلاب بالجامعات والمعاهد العلمية؛ دفع رواتبهم الشهرية والفصلية؛ متابعة تحصيلهم العلمي، وكتابة تقرير عقب امتحاناتهم عن نتائجهم فيها. وهذا العمل الأخير هو الذي أيقظ الطلاب من سُباتهم، وجعلهم يشعرون أنَّ هناك رقابة يقظة متصلة على دراستهم، بعد ان كانت تمر السنوات دون أن تعلم إدارة البعثات في مصر وأهالي الطلاب عن دراساتهم شيئاً.

ومكتب البعثة التعليمية المصرية في سويسرا قد أُنشيء منذ أوائل هذا القرن،

وكان مديروه الأوّلون من السويسريين، ثم تولاه مصري يدعى محمد فهمي كان يتعلم في سويسرة في السنوات الخمس الأولى من هذا القرن، وكان من زملائه في ذلك الوقت علي الشمسي (باشا) الذي صار وزيراً للمعارف في سنة ١٩٢٧ فعيّن زميله القديم محمد فهمي مديراً لمكتب البعثة، وكان مقره في جنيف (٤ شارع هولندة)، وظلّ فهمي في هذا المنصب طويلاً. فاستطاع ان يدّخر ثروة لا بأس بها، بواسطتها استطاع أن يستمر في العيش في جنيف حتى وفاته بها في سن متقدمة جداً جاوزت الخامسة والثمانين وربما ناهزت التسعين.

وكانت جنيف في السنوات الخمس عشرة الأولى من هذا القرن مركزاً لحركة طلابية مصرية وطنية قوية، فقد كان يتردّد عليها مصطفى كامل، ثم محمد فريد، وكانا يقيمان في فندق روسيا Hôtel de Russie عند تقاطع شارع الألپ وشارع البحيرة. ومن بين أولئك الطلاب نخص بالذكر علي الشمسي (باشا) ومحمد محمود جلال (عضو الحزب الوطني ونائب بني مزار) اللذين بقيا حريصين على زيارة جنيف في صيف كل عام حتى وفاتيهما.

ومن الشخصيات السياسية المصرية والعربية التي كانت تقيم في جنيف ما بين الحربين العالميين: الخديوي عباس حلمي الثاني الذي خلعته بريطانيا عن العرش في سنة ١٩١٤ وولّت مكانه السلطان حسين كامل حتى سنة ١٩١٧، وتولّى بعده السلطان ثم الملك فؤاد. وقد انحصر نشاطه في المطالبة بالعودة إلى عرش مصر، إلى ان تم الاتفاق معه على التنازل عن هذا المطلب مقابل تعويضات مالية!

ثم الأمير شكيب ارسلان، الكاتب الاسلامي الداعي إلى توحيد العالم الاسلامي. ولست أدري مِمَّن كان يتعيش: لأنَّه كان فقيراً على الرغم من «إمارته» الدرزية هذه. لكن الغالب على الظن هو أنَّه كان يتلقى إعانات من الملك عبد العزيز بن سعود، ومن أمان الله خان ملك أفغانستان ثم من ألمانيا ابتداء من سنة ١٩٣٦ وطوال الحرب العالمية الثانية.

ثم علي الغاياتي، الذي لجأ إلى جنيف حوالى سنة ١٩١٢ بعد ان حُكم عليه بالسجن بسبب ديوانه الشعري: «وطني» وكان فيه هجوم على الخديوي عباس. وقد أصدر في جنيف مجلة غير منظمة الصدور اسمها: «منبر الشرق» معظمها بالعربية وفيها صفحتان بالفرنسية. ولست أدري مَن كان يقرؤها، وأغلب الظن أنه لم يكن يقرؤها أحد غيره هو! كيف كان إذن ينفق عليها، وينفق على نفسه؟ لست أدري، لأنَّه لم يخطر ببالي ان أبحث هذا الأمر، الذي لا يعنيني في شيء. وقد عاد إلى مصر حوالى سنة ١٩٣٨ حيث استقر نهائياً.

وكانت جنيف في الثلث الأول من هذا القرن واسعة الصدر لاقامة اللاجئين السياسيين، حتى أخطرهم. فإليها لجأ ڤلاديمير لينين مؤسّس روسيا البلشفية. وكان دائم الجلوس في مقهى بميدان Plainpalais المواجه لجامعة جنيڤ. وقد أمضى في جنيف ثلاث سنوات.

ومن المفارقات العجيبة ان من الممكن ان يحصل الأجنبي على جنسية جنيڤ، دون ان يحصل على الجنسية السويسرية؛ لأن جنيف ـ من حيث الشكل الرسمي ـ «جمهورية»!

وليس بصحيح ما يشاع عامة من ان جنيف من حيث الأخلاق الاجتماعية، تتسم بالتشدّد الذي أضفاه عليها كلڤان. ولم أشهد على أهلها أيّ اثر للتصلّب الديني الأخلاقي الساري في مذهب كلڤان. بل أهلها اكثر سراوة وتساهلاً في أمور الأخلاق الاجتماعية من سائر مدن سويسرة.

عملي مستشاراً ثقافياً

وإلى جانب كوني مديراً للبعثة التعليمية المصرية في سويسرة، كنت مستشاراً ثقافياً في السفارة المصرية في برن Bern. لهذا، ولأنَّ برن مركزية وطلاب البعثات موزعون في البلدان الكبرى في سويسرة كلها، ولأنّي من الناحية النفسية أستريح إلى برن أكثر من سائر المدن السويسرية، فقد قرّرت ان يكون مقرّي في برن، واتخذت مكتباً لي في شقة في شارع ڤابرن Wabernstrasse رقم ٣١. واستأجرت لسكني شقة في منزل يقع في شارع ديفور Dufourstrasse رقم ٣٣. وكان يسكن في نفس المنزل وزير الحربية پول شودية Paul Chaudet الذي صار بعد ذلك رئيساً للاتحاد السويسري لمدة عام. وهو منصب يتولاه احد المستشارين الفدراليين (= الوزراء) لمدة عام واحد، ولا يجوز إعادة انتخابه مرة ثانية قبل مرور أربع سنوات على توليه للمنصب في المرة السابقة. وهذا نظام ممتاز، لأنه يحول دون الاستبداد من جانب رئيس الاتحاد، ويكفل تنوّع المتولّين لهذا المنصب، ولا يثير من الطامعين فيه إلاّ أقل تنافس، لأنه منصب شبه دوري بين أعضاء الوزارة.

وهذا النظام نفسه يطبق في كثير من المناصب الادارية، ومنها منصب العميد في كلية، والمدير في جامعة ـ مما قضى على التنافس الخسيس بين الأساتذة، ذلك التنافس الذي عانت منه الجامعات في مصر الكوارث والمهازل والمخازي.

وحين شكّل رجال الثورة في مصر في سنة ١٩٥٣ لجنة لتعديل نظام الجامعات في مصر، وكنت أنا أحد أعضائها، اقترحت هذا النظام ليكون اساساً في اختيار العمداء والمديرين في الجامعة. لكن اقتراحي قُوبل بالرفض سواء من كمال الدين حسين (الضابط المشرف من بين رجال مجلس قيادة الثورة على قطاع التعليم، والذي صار بعد ذلك وزيراً للتربية والتعليم من سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٦٤) لأنّه رأى في هذا الاقتراح الغاء لسلطة وزير المعارف ـ وكان يعدّ نفسه لتولي ذلك المنصب) في تعيينه وفصل المديرين والعمداء ـ ثم من أساتذة الجامعة المشتركين في اللجنة ـ وكانوا يتطلعون إلى هذين المنصبين ـ لأن الاقتراح سيقلّص سلطان العميد والمدير مدة واختصاصاً، وسيجعلهما دوريين عاريين من الوجاهة والسلطة!!

وكان عملي، بوصفي مستشاراً ثقافياً يشمل:

١ ـ القاء محاضرات عامة في الجامعات السويسرية للتعريف بالثقافة المصرية، والعربية، والإسلامية. وكنت أصحبها أحياناً بعرض افلام عن الآثار المصرية ومعالم الحضارة العصرية في مصر.

٢ ـ الاعداد للمؤتمر الدولي السنوي للتربية الذي ينظمه المكتب الدولي للتربية Bureau International d'Education في جنيف: بكتابة تقرير عن تقدم التربية والتعليم في مصر خلال عام، ويحضر المؤتمر وفد من مصر يتألف عادة من وكيل الوزارة ووكيل مساعد، او مدير عام للقطاع الذي سيكون الموضوع الرئيسي للمؤتمر في ذلك العام داخلاً في نشاطه.

٣ ـ المشاركة في المؤتمرات التي لا تستطيع مصر إرسال مندوب مختص إليها، وكتابة تقرير عن نتائج هذا المؤتمر.

٤ ـ مشاهدة المعارض الفنية والعلمية وكتابة تقرير عما تفيده مصر منها.

أ ـ وفيما يتصل بالأمر الأول فقد بدأت بإلقاء محاضرة عامة بالفرنسية في جامعة جنيف عن «النزعة الانسانية في الفكر العربي». وقد كتبت عنها معظم الصحف الصادرة في جنيف، وأثنت عليها كثيراً، وفي مقدمتها جريدة La Tribune de Genève. وقد نشرتها بعد ذلك في كتابي Thème et Figures.

ثم القيت محاضرة في جامعة برن Bern عن «العروبة ومقوّماتها»، تلتها مناقشة طويلة مع الطلاب؛ باللغة الألمانية.

وألقيت محاضرة عن «الشاعر رنير ماريا رلكه في مصر» ـ وذلك أولاً في

جامعة نيو شاتل، ثم بعد ذلك بشهر في جامعة جنيف. وقد حضر كلتا المحاضرتين حوالى ألف شخص في كل مرة. وكانت المحاضرة باللغة الفرنسية، وقد نشرت تلخيصاً بالعربية لها في عددين من مجلة «المجلة» في سنة ١٩٥٩. وللشاعر رلكه ذكريات حية قوية في سويسرة. وهو مدفون في مدينة Raron بالقرب من قصر ميزو Muzols الذي كان يقيم فيه في السنة الأخيرة من عمره في سنة ١٩٢٦. ومن هنا كان الاهتمام بالمحاضرة، في الوقت نفسه تحدّثت عن علاقته بمصر وزيارته لها، ووصفه شعراً ونثراً لما أعجبه من آثارها، وخصوصاً في الكرنك؛ ثم علاقته بالاسلام.

ب ـ وفيما يتصل بالأمر الثاني، أصدرت تقريري عامي ١٩٥٧، ١٩٥٨ في كتيّب جيد الطبع باللغتين الفرنسية والانجليزية، وهو أمر لم يحدث لا من قبلي ولا من بعدي للتقرير السنوي الذي يقوم على تطوير التعليم في مصر خلال عام. وكان لي دور بارز في مناقشة التقارير المقدمة من سائر دول العالم المشتركة في المؤتمر السنوي للتربية في جنيف، وكذلك في صياغة التوصيات النهائية.

وعند مناقشة تقرير الوفد الفرنسي، كنت أُهاجم السياسة التعليمية لفرنسا في الجزائر، حدّدنا بالأرقام مثلاً ان عدد الطلاب في المدارس الثانوية (الليسيه) في الجزائر حوالى ٢٧,٠٠٠ طالب ليس من بينهم غير ٧٥٠ طالباً فقط من الجزائريين الوطنيين، بينما الباقون كلهم من الفرنسيين والأجانب الطارئين على الجزائر. وكنت قبل الجلسة قد طلبت من ممثل المغرب: محمد الفاسي، وممثل تونس الوزير محمد الشابي أن يؤيداني بعد القاء ملاحظاتي، لكنهما اعتصما بالصمت، وتهرّباً، مع أنّني حييت إنضمامهما إلى مكتب التربية الدولي واستقلاليهما اللذين نالاه منذ شهرين او ثلاثة!

كذلك اقترحت في بداية مؤتمر سنة ١٩٥٦ إعطاء تمثيل الصين للصين الشعبية، بدلاً من الصين الوطنية، اعترافاً بالواقع الفعلي بدلاً من التعلق بالشكل الوهمي الذي كان قائماً آنذاك في مجلس الأمن والجمعية العامة لهيئة الأمم. وكان لاقتراحي هذا دويّ كبير، إذ تناقلته وكالات الأنباء العالمية باعتباره اول دعوة من نوعها في ذلك الموضوع آنذاك ووقوفاً رسمياً لمصر إلى جانب الصين الشعبية.

وبعد تركي لمنصبي في سويسرة لم يقدم التقرير السنوي لا مطبوعاً ولا مدقوقاً على الآلة الكاتبة في السنة التالية ولا أدري ماذا جرى بعد ذلك، لأنّ أحداً لم يعد يسمع بهذا الأمر.

جـ ـ وأمّا المؤتمرات التي حضرتها بسبب غياب ممثل مصري مختص، فهي

مؤتمر الآثار في بازل سنة ١٩٥٧، ومؤتمرات الخزف في جنيف في يونيو من كل عام، وكنت مجرد مستمع يجمع الأبحاث التي أُلقيت ويرسل بها إلى وزارة الثقافة في مصر.

د ـ أمّا المعارض الفنية فكنت حريصاً على مشاهدتها وكتابة تقارير عنها؛ وكانت عديدة: في بازل، وبرن، وزيورخ، وجنيف. ومن أبرزها معرض الفنانين التجريديين في برن، ومعرض النحّات جاكومتي في جنيف.

وإلى جانب هذه الأمور الأربعة، اهتممت بكتابة تقريرات عن:

١ ـ التعليم المهني في سويسرة، لأنّه متقدم جداً، ونحن أحوج ما نكون إليه في مصر. ويتم في المرحلة التالية للمرحلة الابتدائية (أو ما يسمونه Velksschule أي المدرسة الابتدائية الاجبارية على كل الشعب)، وفيه يُعَدُّ الطالب اعداداً عملياً للمهن الصناعية الرئيسة: الساعات، النجارة، الحدادة، الأدوات الكهربائية، تصليح الساعات، العمارة الصغيرة، النقش، صناعة الأحذية، صناعة الأدوات المنزلية، الديكور، الخ، الخ. وتعزيزاً لتقريري التفصيلي عن هذه المدارس الصناعية، المتوسطة، أرسلت جميع المتون المدرسية المقررة على الطلاب، عسى ان يترجموها في مصر ويستعملوها مترجمة في مدارس الفنون والصناعات.

ويدخل في هذا الباب تقرير ضخم عن مدارس الفنادق والمطاعم، في سويسرة الشهيرة بالفندقة حيث توجد مدرسة تعد أكبر مدارس الفندقة في العالم، وهي مدرسة الفنادق أو (الفندقة) في لوزان، وتوجد مدرسة أقل منها شأناً في لوتسرن، كما يوجد في جنيف مدرسة للطباخين. وعلى أساس هذا التقرير أُقيمت أول مدرسة للفنادق في مصر، وهي مدرسة بولاق.

وتيسيراً على الطلاب الذين يوفدون إلى سويسرا ألفت كتاباً (في حوالى مائتي صفحة) عن «الجامعات في سويسرة» تولت وزارة التربية والتعليم في مصر طبعه، وان كان مدير البعثات آنذاك قد حمله الجحود الوضيع على طبع الكتاب بدون ذكر اسم المؤلف! وهو أمر وبّخه عليه توبيخاً شديداً وكيل الوزارة (محمد نجيب هاشم) وإن كان قد جدَّد له في الخدمة رغم بلوغه سن التقاعد مرتين أو ثلاثاً! وعلى ذكر مدير البعثات هذا (يوسف سيد) أقول إنّه لم يكن يحسن من عمله شيئاً أبداً، إذ كانت جميع رسائله إليّ ـ وقطعاً إلى غيري من مديري مكاتب البعثات ـ وريقات مطبوعة سلفاً على الاستنسل وليس فيها غير سطرين اثنين هما «مرسل إليكم طيّه رزمة من الأوراق الملحقة، للإحاطة وإجراء اللازم». وكان عليَّ

أن أُفتّش طويلاً في هذه الأوراق التي هي مجرد استمارات مطبوعة كتبت فيها بيانات من الطالب ـ كي أعرف ما هو المطلوب، لأنه لا مدير البعثات، ولا سائر موظفي الادارة قد كلّفوا أنفسهم قراءة هذه الأوراق وتحديد المطلوب منها. ولهذا كتيت أُلقّب مدير إدارة البعثات بلقب: «مدير الاحاطة وإجراء اللازم». ومع ذلك جدّدوا له ثلاث أو (أربع) مرات بعد بلوغ سن التقاعد. فواعجبا لما يجري في الادارات الحكومية في مصر! إنَّه الابقاء على التافه الهزيل، وإبعاد المجتهد الكفء. ومن هنا كانت سوق الجهل والتفاهة في الحكومة المصرية رائجة؛ بينما أولو الاجتهاد والعلم والكفاءة مُبعدون مخذولون.

الأحداث السياسية وأصداؤها في سويسرة

١ ـ العدوان الثلاثي على مصر

وإلى جانب هذه الأعمال التي تدخل في اختصاصي بوصفي مديراً للبعثة التعليمية ومستشاراً ثقافياً، كنت أؤدّي مهام أخرى بدافع من الوطنية الخالصة:

فقد كانت السنة الأولى من عملي في سويسرة ـ عام ١٩٥٦ ـ سنة حافلة بالأحداث السياسية الخطيرة التي هزّت مصر هزًّا شديداً. وأبرزها تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ وما ترتب عليه من حوادث جسيمة: سياسية واقتصادية.

فمن الناحية الاقتصادية تدهور سعر صرف الجنيه المصري في سويسرة: فبعد ان كان قبل ٢٦ يوليو في السوق الحرّة في المتوسط ١١,٥ فرنك سويسري، أخذ ينهار فصار بعد يومين اثنين (لأن التأميم كان يوم سبت) ٨,٥ فرنك واستمر في التدهور يوماً بعد يوم حتى بلغ ٤ فرنكات يوم مغادرتي سويسرة في ٢٣/١١/١٩٥٨، وواصل تدهوره حتى بلغ اليوم فرنكين اثنين!

وقامت أزمة المرشدين في قناة السويس، ولولا نجدة يوغوسلافيا واليونان لكادت الملاحة ان تتوقف، وعلى كل حال فقد أخذ عبور السفن في التضاؤل، مما قلّل كثيراً من عائدات المرور.

وتوالى هجوم الصحف الأوروبية والأمريكية على مصر في عنف منقطع النظير، حتى في الدول التي لا تسهم ولا يسهم أبناؤها في شركة قناة السويس؛ ومنها سويسرة. وحين كنت أتحدث مع المثقفين والأساتذة والصحفيين السويسريين في هذا الموضوع سائلاً إيّاهم: وما شأنكم أنتم في قناة السويس وليس لكم فيها أسهم ثم إنّكم صنعتم نفس الصنيع بالنسبة إلى ممر سمپلون ـ كان جوابهم: نحن لا

نعترض على التأميم نفسه، وإنَّما على الكيفية التي تمَّ بها.

وهذه الحجة وجيهة من غير شك، ويستحيل الردّ عليها بطريقة مقبولة. ذلك ان امتياز شركة قناة السويس كان ينتهي في ١٩٦٧. فماذا كان علينا لو انتظرنا هذه الأعوام الأحد عشر؟ إن كنا نريد اختصار المدة الباقية، فما كان علينا إلاَّ أن ندخل في مفاوضات مع الشركة، كما فعلت سويسرة تماماً بالنسبة إلى ممر سمپلون؛ وكان من المحتمل جداً ان تستجيب الشركة مقابل بعض التعويضات البسيطة التي خسرنا عشرات أضعافها من إغلاق قناة السويس فيما بعد. وحتى لو لم تستجب الشركة، لكان من الممكن الضغط عليها من حيث زيادة حصة مصر في العائدات، وفي عدد كبار الموظفين.

لكن جمال عبد الناصر لم يكن يهمه من الأمر أية منافع اقتصادية، بل كان يريد عملاً سياسياً مفاجئاً مثيراً يكفل له الشهرة والدويّ، حتى لو جرَّ على مصر الخراب. وقد قام بعمله هذا بمفرده دون أن يستشير أحداً من زملائه ووزرائه. ولم يعرض الأمر على هؤلاء إلاَّ بعد أعلانه وتنفيذه للتأميم. وقد تبيَّن فيما بعد ان عبد الحكيم عامر اعترض عليه في جلسة مجلس الوزراء التالية للإعلان بحجة ما سيؤدِّي اليه من عواقب عسكرية سياسية، كما اعترض فتحي رضوان بحجة ان هذا العمل يضعف حقنا في المطالبة بالتأميم، لأنَّ هذا العمل خرق لاتفاق قانوني مسنود دولياً.

وهكذا كانت وستكون كل تصرفات جمال عبد الناصر خارجياً وداخلياً: تصرفات حمقاء طائشة لا تحسب حساباً لأي شيء غير الدويّ الأجوف العقيم حول شخصه، مهما ترتب عليها من خراب وويلات لمصر وشعب مصر ومكانة مصر في المجتمع الدولي.

وندع هذا الآن جانباً، فسيكون لنا فيه حديث طويل.

ونقول إنَّ الأحداث توالت: فحاولت الولايات المتحدة الأمريكية، بعد ان علمت بنيات انجلترة وفرنسا العدوانية، ان تعالج الأمر بالمفاوضات. فدعا وزير خارجيتها، دلس، John Foster Dulles الى عقد مؤتمر في لندن يضم المنتفعين من قناة السويس، وقد أطلق عليهم آنذاك نادي المنتفعين (أو المستعملين) لقناة السويس. وانعقد المؤتمر في أغسطس سنة ١٩٥٦. فهل تدري بماذا واجه جمال عبد الناصر وصحبه هذا المؤتمر؟ لقد طلبوا من السفارات في بعض الدول الأوروبية ان يتجمع المصريون في ميدان واسع في عواصم البلاد التي يوجدون فيها، وان يقفوا حداداً في هذا الميدان ساعة افتتاح

مؤتمر لندن؟! وان تؤخذ لهم صورة وهم في وضع الحداد هذا! واتصل بي القائم بأعمال السفارة ـ لأنَّه لم يكن في السفارة آنذاك سفير بعد ان عزل السفير السابق ـ أحمد ثروت ـ في أواخر يوليو. وطلب منّي أن أطلب من الطلاب في جنيف وزيورخ ان يفعلوا ما طلبته وزارة الخارجية المصرية. فقلت له: ما هذه المسخرة؟ فقال: أنا معك بأنَّها مسخرة لا معنى لها. لكن ماذا أعمل؟! مضطر إلى تنفيذ التعليمات الصادرة. فقلت له: اما هنا في برن فلا؛ لكني سأتصل بالكلية في جنيف ليفعلوا ذلك ويرسلوا صورة لهم وهم في هذا الوضع! واتصلت بطلاب جنيف وطلبت منهم ان يفعلوا ذلك، وفعلوا ذلك وهم يستهزئون، بدليل ان معظمهم كان يبدو في الصورة وهو يضحك!

ولست أدري ماذا فعلت السفارات في البلاد الأخرى. لكن هذه هي «الحيلة» الجبارة التي تفتقت عنها عبقرية القائمين على الحكم في مصر!

وأصدر مؤتمر لندن هذا قراره وكان يقضي بتعيين لجنة تتولى الاشراف على قناة السويس وادارتها تتألف من الدول الرئيسية المستعملة للقناة! فكأننا استبدلنا بشركة القناة العديمة الحول والطول لجنة دولية تتألف من دول كبيرة تشرف على القناة إلى ما شاء الله، بعد أن كان عقد الشركة ينتهي خلال احد عشر عاماً!!

وكان طبيعياً ألاَّ تقبل مصر هذا القرار، فرفضته. وفي الوقت نفسه أخذت بريطانيا وفرنسا تستعدان لشن حملة عسكرية على مصر ابتداء من منتصف أغسطس كانت ارتال من الدبابات والمدرعات تسير في الطرق الرئيسية في فرنسا متجهة الى طولون، وأرسلت بريطانيا تعزيزاتها البحرية وبعض بوارجها إلى قبرص. وكان على الاسطولين الفرنسي والانجليزي ان يتجمعا في قبرص، ومن هناك تبدأ الحملة.

وكل هذا كان يجري في فرنسا، وفي انجلترة، دون ان يعلم الملحق العسكري في كل من سفارتي باريس ولندن بأي شيء عن هذه التحركات، لأنه مشغول فقط بالتجسس الرخيص التافه على المصريين المساكين المقيمين في فرنسا وانجلترة: ليعرف مَن جلس مع مَن في المقهى، ومَن يصاحب مَن مِن الفتيات، ومَن ينتقد أي شيء يجري في مصر، إلى آخر هذه الترهات التي أنفق عليها جمال عبد الناصر وزبانيته في المخابرات الشطر الأكبر من العملة الصعبة التي في حوزة الخزانة المصرية!

وتدخلت هيئة الأمم فوكلت إلى سكرتيرها العام داج همرشولد مهمة التوسط

في النزاع. واتفق هذا على اللقاء بوزير الخارجية المصري محمود فوزي في جنيف لبحث الموضوع.

وجاء محمود فوزي خلال شهر اكتوبر. وكنت في جنيف، فاشتركت في استقباله في مطار جنيف. ولما نزل من الطائرة، سأله بعض الصحفيين عن رأيه في الموقف. «فأجاب: الجو جميل في جنيف، والسماء صاحية». فدهش الصحفيون من هذا الجواب، فكرروا السؤال، فكرر هو نفس الجواب. وازدادت الدهشة من هذا الوزير. ورد عليه أحد الصحفيين قائلاً: ما هذا الذي يقوله وزيركم! ماذا أصابه - فابتسمت وقلت: ربما كان هذا هو ما يسمَّى بالدهاء الدبلوماسي!

وأصابتني حيرة وخجل من هذا الوزير الذي لا يستطيع ان يرد بجملتين تتعلقان بالموضوع ولا تلزمانه بشيء، كأن يقول مثلاً: أنا قادم إلى جنيف للالتقاء بسكرتير عام الأمم المتحدة لبحث موضوع تأميم القناة. وأرجو ان نصل الى حل في هذه المسألة»، أو ما يشبه ذلك من عبارات مفيدة لا تقيده بشيء. أمَّا ان يقول ما يقول فهذه هي البلاهة بعينها.

وازددت يقيناً من بلاهة هذا الرجل - الذي زمَّر له بعض الصحفيين منذ ان كان ممثلاً دائماً لمصر في هيئة الأمم من سنة ١٩٢٧ حتى سنة ١٩٥٢ - لما ان جاء إلى برن، وأقام له السفير عشاء حضره أعضاء السفارة؛ وكان الهدف من الاجتماع به استيضاح الأمور الجارية والافادة من توجهاته. لكنه أمضى السهرة كلها، طوال ثلاث ساعات، دون ان ينطق بكلمة واحدة في موضوع الساعة. وانبرى مستشار السفارة - وهو شخص ناقص العقل - وتحدث عن صيد الأسود في الصومال وكينيا، يوم ان كان عضواً في هيئة الوصاية على الصومال قبيل استقلاله. وكلما حاولت ان أسأل محمود فوزي عن رأيه في الموقف الحالي كان يشيح بوجهه ويطلب من ذلك المستشار المأمون ان يتابع حديثه عن صيد الأسود في الصومال وكينيا! وهمست في اذن الملحق العسكري ليدخل ويوقف هذا الهراء، فاعتصم بالصمت.

وهكذا أيقنت بأن وزير الخارجية المصري، محمود فوزي، ما هو إلاَّ رجل معتوه جهول لا يدري في السياسة شيئاً.

ثم سمعته بعد ذلك، بعد العدوان الثلاثي، يخطب في مجلس الأمن عند عرض هذا العدوان على مجلس الأمن. فسمعت شخصاً عيياً غبياً لا يستطيع ان ينطق بحجة، فضلاً عن صوته الذي كان يموء به مواء القط المخنوق. خصوصاً

وقد تلاه في الخطابة آبا ايبان بفصاحته وبلاغته وصوته الجهوري الأخاذ. فامتلأت نفسي حسرة وغماً وانا أسمع المناقشات في مجلس الأمن من الراديو السويسري وهو ينقلها على الهواء مباشرة من نيويورك ابتداء من منتصف الليل.

ألم يخطر ببال عبد الناصر ان يستمع إلى كلام ممثله في مجلس الأمن أثناء عرض قضية العدوان الثلاثي على مصر في اوائل نوفمبر سنة ١٩٥٦، ويدرك منه مدى عيّ وعجز هذا المندوب، محمود فوزي؟

لكن يبدو ان هذا العيّ والعجز هما الصفتان المطلوبتان في وزرائه وأعوانه. وإلاَّ فإنَّ محمد حسنين هيكل وهو من أشد الكتّاب مبالغة في تقدير محمود فوزي، فهو الذي رشّح محمود فوزي لرئاسة الوزارة في بداية عهد أنور السادات ـ أقول إنَّ هيكل يذكر في أحاديثه عن عبد الناصر ان هذا كان في بريوني بيوغسلافيا أثناء زيارة تيتو، وحدث انقلاب ١٤ تموز (يوليو) في العراق سنة ١٩٥٨، واراد ان يتخذ موقفاً من هذا الحادث فاستشار محمود فوزي، وكان يصحبه في الزيارة؛ فطلب امهاله فسحة من الوقت للتفكير، وعاد بعدها ليقول لعبد الناصر: «لقد فكرت طويلاً في هذه المسألة، وانتهيت إلى انه لا يستطيع ان يفصل فيها غير سيادة الرئيس» ـ وهكذا تفتقت عبقرية هذا «الدبلوماسي» الكبير عن هذا الحل العظيم وهو أن عبد الناصر هو وحده الذي يستطيع ان يدلي برأي في هذه المسألة!! فما دوره إذن، بوصفه وزيراً للخارجية و«دبلوماسياً» كبيراً إن كان رئيس الجمهورية وحده هو الذي يستطيع التفكير في المشاكل الدبلوماسية!! إنّه إذن مجرد «رقم» (نمرة) يكتمل به عدد الوزراء!

ولا أريد هنا ان أروي الفضائح المالية التي تورط فيها محمود فوزي لما كان قنصلاً في القدس عام ١٩٤٣ في موضوع يتعلق بالملكة الوالدة نازلي، والدة فاروق ـ وقد رواها لي أحمد رمزي القنصل آنذاك في بيروت، ـ ولا تلك التي وقع فيها لما كان ممثلاً لمصر في هيئة الأمم من سنة ١٩٤٧ حتى أواخر سنة ١٩٥٢، وقد رواها لي أحمد فراج طائع وزير الخارجية في وزارة محمد نجيب الأولى التي شكلت في ١٩٥٢/٩/٨.

وقد أطلت أكثر مما ينبغي بالنسبة الى محمود فوزي، لأنّه نموذج صارخ ـ إذ ظلَّ وزيراً للخارجية من ديسمبر ١٩٥٢ حتى توليه رئاسة الوزارة في أول عهد السادات في أخريات سنة ١٩٧٠، فهو أطول الوزراء عمراً في تولي وزارة في تاريخ مصر ـ أقول انه نموذج صارخ لهذا الصنف من الناس الذين يولون أرفع المناصب في الدولة في مصر. وهو ما يفسّر بعض أسباب ضعف الأداة الحكومية

وضعف مركز مصر الدولي، وما هي عليه من تخلف في هذا المضمار. لقد أردت ان نتخذ منه نموذجاً لحالة مزمنة أليمة، وإلاَّ فهو في ذاته لا يستحق أي ذكر.

وأحداث العدوان الثلاثي من ٣١ اكتوبر حتى ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٦ معلومة جيداً لا تحتاج إلى تذكير بها ها هنا. وإنّما أذكر موقف الشعب السويسري منها.

منذ ان بدأت الأزمة غداة تأميم القناة في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ والصحف السويسرية كلها ـ باستثناء جريدة واحدة هي La Suisse ـ تهاجم موقف مصر كل يوم. وهو أمر لا يستغرب كثيراً لأنها مأجورة للولايات المتحدة الأمريكية وانجلترة وفرنسا. لكن الأمر الغريب حقاً هو موقف الشعب السويسري نفسه، خصوصاً منذ ابتداء العدوان الثلاثي في ٣١ اكتوبر. فقد كان يظهر لنا نحن المصريين الموجودين في سويسرة عداءً شديداً وكراهية سوداء، لدرجة ان الخوّافين منا كانوا يخشون الظهور في الشوارع او الجلوس في الأماكن العامة. واختلط الأمر في أذهان بعض عامة الناس فربط بين احداث المجر ـ في اكتوبر سنة ١٩٥٦ ـ وبين الأحداث في مصر؛ اذ ظنوا ان الأمر في كلتا الحالتين واحد وهو الصراع ضد روسيا!! والشعب السويسري بطبعه ساذج التفكير في أمور السياسة الدولية فلا يستطيع تمييز الأمور بوضوح، فضلاً عن جرعات التسميم الإعلامي التي يتلقاها صباح مساء من الصحافة السويسرية.

واتيحت لي فرصة اللقاء مع بعض المفكرين والأساتذة والصحفيين السويسريين أثناء «اللقاءات الدولية» التي تعقد في جنيف في كل عام في شهر سبتمبر. وتبيَّن لي من خلال حماستهم لانجلترة وفرنسا في قضية تأميم قناة السويس ان الأمر عندهم يتعلق في المقام الأول «بالتضامن الأوروبي» أي انهم يتضامنون حتماً وبلا تردد مع الدول الأوروبية في أي نزاع يقع بينها وبين الدول العربية او الاسلامية او غير الأوروبية بوجه عام. وليس من شك في ان ثم رواسب عتيقة باقية في لاشعور الشعب السويسري ـ وسائر الشعوب الأوروبية ـ للصراع بين الاسلام وبين اوروبة ذلك الصراع الذي تجسَّد في ثلاث مراحل كبيرة: الصراع بين الدولة الكارولنجية (شارل مارتل وشارلمان) وبين المسلمين في اسبانيا، والصراع بين أوروبا المسيحية والشرق الأوسط الاسلامي إبان الحروب الصليبية (من سنة ١٠٩٩ حتى سنة ١٢٩١)، والصراع بين الدولة العثمانية المسلمة وبين دول البلقان والامبراطورية النمسوية المجرية. صحيح ان سويسرة لم تكن لها شأن يذكر في هذه الصراعات الثلاثة، على الرغم من ان المسلمين قاموا بغزوات في سويسرة واحتلوا بعض بلادها امتداداً لغزواتهم في جنوبي فرنسا. لكن العامل الفعّال الباقي

هو التضامن الأوروبي ضد الاسلام بعامة. وأذكر أنّني تلقيت عدة برقيات من سويسريين وسويسريات في جنيف تسب المصريين سبًّا بذيئاً جداً.

كما أذكر أنّني رأيت من واجبي ازاء هذه الكراهية ان أنبّه على الأقل أعضاء البرلمان السويسري إلى جرائم العدوان الثلاثي وأناشدهم ان يتفهموا عدالة قضية مصر إزاء هذا العدوان، فكتبت عدة بيانات بالفرنسية ـ مرفقة أحياناً ببعض صور عن آثار العدوان تلقيتها من مصر ـ وكنت أحسب ان هذا سيحرك ضمائرهم. لكن الذي حدث هو ان بعض هؤلا النواب استجوب الحكومة بشأن ارسال هذه البيانات، واحتج عليها!!

وكان الموقف في السفارة المصرية في برن يدعو إلى أشد السخط: فالسفير (عبد الشافي اللبان) متبلد الاحساس لا يهتم بأي شيء، اللهم إلاّ أن يوزع المبلغ الذي تبرّعت به الصين الشعبية لتأييد مصر (ومقداره عشرون مليوناً من الفرنكات السويسرية) على أعضاء السفارة المصرية في باريس الذين لجؤوا إلى سويسرة (وعلى رأسهم السفير كمال عبد النبي) وكانوا يحلمون بهزيمة مصر في بضع ساعات وإعادة العلاقات مع فرنسا في خلال أيام وعودتهم هم بكامل أفرادهم ـ وهذا هو الشيء الوحيد المهم عندهم ولو خربت مصر خراباً تاماً ـ عودتهم إلى باريس من جديد وكأن لم يكن شيء!

وكان الملحق العسكري (وحيد رمضان) يتلقى من وزارة الحربية بلاغات كلها كاذبة عما أسقطناه من طائرات للعدو (الانجليز والفرنسيين)؛ وكان يطلب منّي أن أتصل برئيس قسم الشئون الخارجية في جريدة Neue Zuricher Zeitung التي تصدر في زيورخ وتعدّ أكبر صحيفة يومية في سويسرة، وكنت أعرفه معرفة وثيقة بتوصية من أستاذي روبرت ران Rahn الذي صار مستشاراً ثقافياً للسفارة السويسرية بالقاهرة وأوصى بي لدى بعض الأساتذة والمثقفين والصحفيين السويسريين عند تعييني في منصبي هذا. فاتصلت به، كما اتصلت بمن أعرف في جريدة La Tribune de Genève لينشروا هذه البرقيات. فأخبروني ان البرقيات الواردة إليهم من المصادر المحايدة ـ وكالات الأنباء: رويتر، يونيتدبرس، اسوشيتدبرس الخ ـ تناقض كل المناقضة تلك البرقيات. وكنت أنا أعلم هذا تماماً، وقُلْتُهُ للملحق العسكري في وقته، لكن كان عليّ تبليغ رسالته. ولما عاود الملحق العسكري في اليوم التالي الاتصال بي لتبليغ برقياته، قلت له: لا داعي للاستمرار في هذا، فلن نضلّل أحداً؛ بل سنصير أضحوكة في نظر الناس. والأولى متابعة الأخبار.

وفعلاً رحت أتابع الإذاعات بكل اللغات التي أحسنها. وكنت أول مَن سمع بالإنذار الروسي الذي بعث به بولجانين، وكان ذلك في الساعة الخامسة من يوم الاثنين ٥ نوفمبر، وأسرعت فوراً بابلاغه إلى بعض العسكريين المصريين الذين لم يستطيعوا العودة إلى مصر (المهندس البشري، والمهندس البدري، والبكباشي عرفة). وقضينا المساء والسهرة في الاستماع إلى جهاز الراديو وهو يوالي نشر الأنباء حول هذا الموضوع من مختلف الاذاعات العالمية.

هنالك أفقنا لأول مرة بعد الأيام الستة العصيبة السابقة ولمحنا بصيص أمل في وقف العدوان عند الحدود التي امتد إليها في الكاب على قناة السويس جنوباً وبور سعيد وما حولها (دون بور فؤاد) شمالاً، فضلاً عن سيناء كلها.

وفي اليوم التالي كان اعلان ايدن في مجلس العموم بموافقته على وقف القتال، واعلان جي موليه في البرلمان الفرنسي بعد ذلك بثلاث ساعات وقف فرنسا للقتال، استجابة لقرار مجلس الأمن.

وكان الفضل الأكبر - إن لم يكن الوحيد - لإرغام انجلترة - وبالتبعية فرنسا - لاتخاذ هذا الاجراء هو الولايات المتحدة الأمريكية ووزير خارجيتها جون فوستر دالس Dulles ومن ورائه الجنرال ايزنهاور رئيس الولايات المتحدة. فلولا موقف الولايات المتحدة الصلب القوي لما أذعنت بريطانيا للإنذار الروسي، لأنها تعلم ان روسيا تهدّد ولا تستطيع تنفيذ تهديدها.

ذلك هو الواقع الذي لا جدال فيه، لكننا رأينا ان نرفع من قيمة التهديد الروسي، حتى لا تنفرد امريكا بالفضل، فتغالي في تقاضي الثمن.

وتحدد يوم ٢٣ ديسمبر لجلاء الغزاة الانجليز والفرنسيين عن منطقة القناة. وتمَّ الجلاء في الموعد المقرر. أما اسرائيل فماطلت، ولم تجل عن سيناء إلاَّ في فبراير سنة ١٩٥٧ بعد وعد ووعيد من الولايات المتحدة الأمريكية.

وكنت خلال أيام العدوان الثلاثي أتجرع أشد الغُصص مرارة، وأنا أُشاهد في السينما السويسرية نشرة أنباء القتال، وكلها حافلة بمخازي القوات المسلحة: المطارات المصرية تدمّر عن آخرها بما فيها من طائرات، والضباط والجنود وهم يهربون مجردين من الملابس العسكرية وأقدامهم حافية، وقائد حامية بور سعيد (الموجي) وهو يسلّم المدينة بعد ثلاث ساعات فقط من الهجوم البحري الانكليزي الفرنسي ونزول قوّات المظلاّت في جنوب بور سعيد؛ والقوات الاسرائيلية بقيادة موشي ديان تجتاح شبه جزيرة سيناء في ٣٦ ساعة فقط - كل هذا كانت تعرضه

جريدة الأنباء في جميع دور السينما في سويسرة، ويعلّق المعلّق بشماتة عجيبة وكأن القوات السويسرية هي التي قامت بهذه العمليات العسكرية!

وهذا كله يحدث أمامك بالصور، بينما لو فتحت الاذاعة المصرية كنت لا تسمع إلاَّ أناشيد النصر: «الله أكبر فوق رأس المعتدي. . .» او الأغاني الحماسية من فايدة كامل وغيرها ـ وكأن مصر في عالم آخر لا تدري شيئاً عما جرى على أرضها في سيناء ومنطقة شمالي القناة!!

أين إذن «أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط»؟ وأين إذن هذه «القوات المسلّحة» التي سلمت لها مصر كل شيء، ابتغاء تكوين جيش قويّ يدافع ـ على الأقل ـ عن مصر؟ وأين التضحيات الجسيمة التي ضحَّى بها الشعب المصري: من حريات وأموال، وما عاناه الكثيرون من إهانات واستبداد واغتصاب للأموال والحرمات والمناصب القيادية ـ إذا كانت هذه هي النتيجة حين يجدّ الجد ويتوجب على القوات المسلّحة المسيطرة على كل مقادير الأمور في البلاد أن تقوم بواجبها؟!

لهذا زالت الغشاوة عن عيني، وزال ما تبقَّى من حماسة عندي لثورة ٢٣ يوليو، وأصبحت أوقن كل الإيقان ان هذه الثورة هي اكبر كارثة عانتها مصر منذ الفتح العثماني سنة ١٥١٧.

وكانت حماستي للثورة قد تزعزعت قبل ذلك بعام لما ان عقد رجالها اتفاقية السودان التي بمقتضاها استقل السودان عن مصر! استقلالاً تاماً، بعد ان ظلت مسألة السودان هي العقبة الكأداء في كل المفاوضات التي أجرتها مصر مع بريطانيا منذ سنة ١٩٢٠ حتى ذلك التاريخ. لقد قلت لنفسي آنذاك، فيمَ إذن كان كل نضالنا طوال خمسين عاماً إن كانت النتيجة هي هذا التسليم المطلق في مسألة السودان؟! وكان أعجب المفارقات ان استقل السودان عن مصر وبريطانيا استقلالاً تاماً في أول يناير سنة ١٩٥٦ بينما بقيت القوات البريطانية في احتلالها لمصر حتى ١٥ يونيو من نفس العام!!

لكنني عزّيت نفسي آنذاك قائلاً: إن كان هذا هو ما يريده شعب السودان، فليذهب وشأنه. فكل ما يهمّنا منه هو ضمان تدفق مياه النيل إلى مصر في الحدود المقرّرة بالاتفاقات. لقد صار السودان عبئاً ثقيلاً بعد يقظة جنوب السودان وتطلّعه الى حكم نفسه بنفسه. فكفانا ما نحن فيه من مشاكل، ولنعمل فقط على ضمان حقوقنا المشروعة في مياه النيل.

ولهذا فإنَّ اتفاقية السودان هذه خيّبت أحد آمالي في الثورة، ولكنها لم تخيّب إلاَّ أملاً واحداً فحسب.

وكنت أسأل الملحق العسكري (وحيد رمضان) والملحق الجوّي (عمر الجمال) كيف حدثت هذه الكارثة للجيش المصري، الذي لم يصمد ولو لبضع ساعات، سواء في سينا وفي منطقة بور سعيد ـ فيلوذ أولهما بالصمت أو يخوض في كلام لا معنى له يتهرب به من الجواب؛ أمَّا الثاني فكان صريحاً من اللحظة الأولى فكان يقول صراحة إنَّه لا قِبل لنا بمواجهة هذا العدوان، لا في الجو ولا على الأرض، وإن طيراننا ضعف عُدة وتدريباً. ولما أخبرته بما سمعته في الاذاعة المصرية من تصريح لقائد سلاح الطيران (صدقي) من أن سلاح الطيران المصري لا يزال سليماً وانه مستعد ـ وكان ذلك بعد وقف القتال ـ للقضاء على كل من تسوّله نفسه العدوان على مصر ـ علَّق قائلاً: متى نكف عن هذه الأكاذيب الصبيانية!! ولماذا إذن لم يردّ على هجوم الطيران البريطاني في الليلة الأولى لقيام العدوان؟!

وهنا قلت في نفسي: إن الهزيمة هزيمتان: هزيمة مادية عسكرية، وأخرى معنوية مدمّرة لكياننا المعنوي. والثانية أشد وأنكى، لأنَّ معناها هو أننا سنواصل التضليل والكذب على أنفسنا وعلى الشعب المصري، ولن نسعى لتلافي ما وقعنا فيه من أخطاء، بل سنظل فرائس للخداع والأوهام. إنَّ أول خطوة للانقاذ هي الوعي بمدى الكارثة والاعتراف الذاتي بالأخطاء الفاحشة التي ترتكبها القيادة السياسية والعسكرية، ومحاولة التغيير الجذري الشامل للأوضاع التي أدَّت بنا إلى هذه الكارثة الفظيعة.

لكن الذي فعلته القيادة السياسية والعسكرية كان على العكس تماماً: إذ راحت عن طريق الاذاعة والصحافة توهم الناس أننا انتصرنا نصراً عسكرياً كاسحاً مؤزّراً، وان «المقاومة الشعبية» في بور سعيد هي التي ردَّت أساطيل الغزاة الانجليز والفرنسيين على أعقابها، وساقت الحناجر المزيفة للتغنّي بهذا النصر العظيم، وتشبع الجوّ بهذه الأباطيل.

وليس ثمَّ عامل أكثر تدميراً لمعنوية أُمَّة من الأمم أشد من الأكاذيب. لكن هذه ستكون الوسيلة التي سيعتمدها الحكام في مصر طوال السنوات التالية.

وألمح الآن هذه الشجون المحزنة لأتأمل في موقف كل من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا من هذه الأزمة: أمَّا موقف الاتحاد السوفييتي فمفهوم،

لأنَّه يتمنَّى القضاء على الدولتين الاستعماريتين انجلترة وفرنسا، ليخلو له الجوّ في تلك المستعمرات او مناطق النفوذ.

أما موقف الولايات المتحدة الأمريكية فأشد تعقيداً: لأنَّ انجلترة وفرنسا حليفتان للولايات المتحدة. لكنها من ناحية أخرى كانت تسعى إلى الحلول محلّهما في البلاد الخاضعة لهما؛ تحقيقاً لسعي امريكا بعد الحرب العالمية الثانية للهيمنة على العالم. وكانت سياستها تقليص النفوذين البريطاني والفرنسي تدريجياً. فلما قامت انجلترة وفرنسا بعدوانهما على مصر، أدركت الولايات المتحدة ان في ذلك ارتداداً عن سياستهما في التخلص من هذين الاستعمارين للحلول محلّهما. لهذا وجدت ان مصلحتها تقضي بوقف هذا العدوان حتى لا تسترد الدولتان القديمتان سلطانيهما السابقين. لهذا وقفت الولايات المتحدة هذا الموقف الحازم ضد العدوان. وبالصدفة البحتة تلاقت ارادتها مع ارادة روسيا، وإن كان الدافع عند الواحدة مضاداً للدافع عند الأخرى.

وحتى تبدو الولايات المتحدة وفية ـ رغم ذلك ـ لحليفتيها انجلترة وفرنسا، فإنَّه حينما أصدر بولجانين إنذاره، بادرت الولايات المتحدة بإعلان وقوفها إلى جانب حليفتيها لو حدث أي عدوان روسي عليهما. ومن هنا فإنَّ الانذار الروسي لم يكن له أثر قوي في امتثال انجلترة وفرنسا لقرار الأمم المتحدة بوقف القتال. وإنَّما التأثير الحاسم ـ وربما الوحيد ـ كان موقف الولايات المتحدة.

ولشعور الولايات المتحدة بقوة دورها الحاسم في هذا الموضوع، فإنَّها ارادت ان تجني الثمن فكان مشروع ايزنهاور للشرق الأوسط الذي كان يهدف إلى هيمنة الولايات المتحدة على السياسة في الشرق الأوسط.

٢ ـ انتحار النائب العام السويسري

وكان لثورة الجزائر التي بدأت في أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ ساحة في سويسرة:

أولاً لأنَّ فرحات عباس ـ رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة في المنفى ـ كان يتخذ من جنيف مركزاً لنشاطه؛

وثانياً: لأنَّ سويسرة كانت مصدراً مهماً من مصادر سلاح الثوار الجزائريين، خصوصاً المفرقعات والقنابل البلاستيكية والأسلحة الصغيرة.

لهذا كانت المخابرات الفرنسية نشيطة جداً في سويسرة. ولسبب غير واضح

قامت أجهزة الأمن السويسرية بالتعاون معها فكانت أجهزة الأمن السويسرية تزوّد المخابرات الفرنسية بمعلومات عن نشاط عباس فرحات والمناضلين الجزائريين في سويسرة، وعن السويسريين المشتركين في اعداد وبيع وتهريب السلاح الى الثوار الجزائريين. ومن أجل ذلك وضعت اجهزة الأمن السويسرية اجهزة تنصت على السفارة المصرية في برن، على أساس ان هذه السفارة كانت اداة وصل بين فرحات عباس وبين هيئة التحرير الجزائرية. وقد لعب الدور الأكبر في هذا التعاون من جانب السلطات السويسرية النائب العام الذي كان يقوم بهذا العمل دون اذن ولا علم الحكومة السويسرية الفدرالية.

وذات يوم انكشف أمر هذا النشاط الذي كان يقوم به النائب العام السويسري. فاستدعاه رئيس الاتحاد السويسري آنذاك، فلدمن Feldmann واستجوبه في هذا الأمر وعنّف في توبيخه وحمّله مسؤولية هذا العمل الذي يتنافى مع حياد سويسرة، والذي قام به النائب العام من دون إذن من رؤسائه. وخرج النائب العام من عند رئيس الاتحاد السويسري وهو في حالة انهيار شديد. وعاد الى منزله في برن، ثم صعد الى غرفة على السطح، وأطلق الرصاص على رأسه فخرَّ صريعاً يتضرج في دمه. وبعد صوت الطلقات هرع مَن في البيت ليجدوه غريقاً في دمه، وما لبث ان مات.

وشاع خبر وفاته بعد ساعات قليلة، إذ أصدرت جريدة برن Der Burne عدداً خاصاً منها في المساء (لأنها جريدة صباحية). وكنت أجلس في مقهى Embassy الذي اعتدت الجلوس فيه في المساء ودخل بائع صحف ينادي على الصحيفة وما فيها من خبر مثير. فقرأتها، وأثار دهشتي خصوصاً ان لوحات الاستماع التلفوني كانت متعلقة خصوصاً بالسفارة المصرية.

وفي اليومين التاليين نشرت الصحف المزيد من الأنباء والتفاصيل عن هذا الأمر؛ فذهبت في يوم الاثنين إلى السفير المصري أسأله عما ينوي أن يفعله. وهذا الأمر يتعلق في المقام الأول بالسفارة المصرية. وعلى عادته تهرّب وتملّص وتباله، فقلت له: إنَّ من واجبك على الأقل ان تقابل غداً وزير الخارجية ـ Petit Pierre المستشار الفدرالي للشئون الخارجية، وتستوضحه الأمر، وتقدم احتجاجاً على هذا الانتهاك لحصانة السفارة المصرية. فانتابه الذهول، وتركته وانا واثق انه لن يفعل شيئاً. وهذا ما حدث فعلاً، فلم يقابل وزير الخارجية ولم يبعث اليه بأية مذكرة، وكأن الأمر لا يخصّه في شيء!

وتلك هي حال كل ـ أو جل ـ رجال السلك السياسي المصري في الخارج

منذ سنة ١٩٢٤ (أي انشاء وزارة الخارجية المصرية) حتى هذا اليوم الذي أكتب فيه: إنَّهم لا يهمهم من أمر مصر وكرامة مصر والعمل من أجل مصر ـ أي شيء. بل كل همهم محصور في البقاء في أماكنهم، إن كانت في عواصم دول متحضرة او السعي للانتقال منها إلى عواصم دول كبرى. ولذلك لا يهمهم من الصحف المصرية إلاَّ ان يقرأوا منها شيئاً عن «الحركة» ـ ويقصدون حركة الترقيات والتنقلات الدبلوماسية. وما عدا هذا مما يرد في الصحف فلا يعنيهم في شيء ولا يثير في نفوسهم أي انفعال.

وبهذه المناسبة أذكر ان فتحي رضوان ـ وزير الارشاد آنذاك ـ كان في موسكو في زيارة استغرقت اسبوعين او يزيد؛ وفي طريق عودته إلى مصر نزل في براج (تشيكوسلوفاكيا). ولما كان لم يستطع قراءة الصحف المصرية في موسكو، فقد سأل السفير المصري في براج: هل وصلتكم صحف مصرية في الاسبوعين الماضيين؟ فأجاب السفير: نعم وصلتنا؛ وقد قرأتها فلم أجد فيها شيئاً مهماً يستحق الذكر. فقال له فتحي رضوان: ارجو ان ترسلها إليّ في الفندق إن كانت لا تزال موجودة لديك. قال الاستاذ فتحي: «وارسل السفير ما لديه من أعداد الأهرام، فتصفّحتها، فوجدت فيها خبراً يقول إنَّ صلاح سالم استقال». فانتابتني الدهشة جداً، كيف لم يدرك السفير ما في هذا الخبر من خطورة كبيرة! لقد كان ذلك اول خطوة في تفكك أعضاء قيادة الثورة!. فقلت له: «لا تعجب من موقف السفير، فهذه حال جميع السفراء ورجال السلك السياسي المصري في الخارج: لا يهمهم من مصر كلها غير شيء واحد: «الحركة»، حركة التنقلات والترقيات بينهم، ولتذهب مصر كلها إلى الشيطان فهذا لا يحرك في بدنهم شعرة. فعساك صدقت الآن ما كنت أقوله لك دائماً عنهم!».

وهذه حال رجال السلك السياسي المصري دائماً، ولا سبيل مطلقاً لتخليصهم منها. ذلك ان الجهل والتفاهة والتملق هي المؤهلات الأساسية عندهم جميعاً. وبفضلها وحدها يترقون في سلم المناصب الدبلوماسية، وينعمون بالعمل في عواصم البلاد الكبيرة المتمدنة. وإذا ظهر بينهم واحد أوتي شيئاً من العلم او الاهتمام بوطنه، فالباقون جميعاً أعداؤه. وأهم ما يتباهى به الواحد منهم هو ملابسه، وكيف يراعي البروتوكول: في الوقوف والجلوس والسلام وترتيب الجلوس على موائد الطعام ـ إلى آخر هذه التفاهات ولأن المثل الأعلى عند الواحد منهم ان يكون رئيس جرسونات Maitre d'Hôtel!

أمَّا عن جهلهم بشئون البلد الذي يوجدون فيه، وبشئون السياسة العالمية، بل

وبشئون مصر كلها حتى ما تعلموه في المدارس منها ـ فحدث ولا حَرَج! جهل مطبق مركب، لا حياء فيه ولا خجل منه. ولو أردت ذكر ما عرفته من شواهد على هذا الجهل الفاحش، لاحتجت إلى مجلد كامل، يندى له جبين مصر، التي هي الضحية الدائمة للعبث في اختيار ممثليها في الخارج.

وأعود إلى مسألة انتحار النائب العام السويسري فأقول إن أسباب إقدامه على الانتحار لم تكشف عنها الصحف ولا المعلومات الميسورة، ولا بد ان ثم اتهامات خطيرة وجهها إليه رئيس الاتحاد السويسري حملته على الانتحار. فإنَّ عملية تبادل المعلومات بين أجهزة الأمن السويسرية وبين المخابرات الفرنسية لا تكفي لكي يقدم على هذا العمل. ولهذا دار بين المطلعين على بواطن الأمور حديث عن مبالغ من المال قد تقاضاها ذلك النائب العام لقاء وضعه أجهزة التنصت التليفوني على السفارة المصرية (وربما غيرها). وإذا كان الأمر مقصوراً على تبادل المعلومات، فأية معلومات يمكن ان تقدمها المخابرات الفرنسية وتفيد أجهزة الأمن السويسرية؟ ليس للحكومة السويسرية معارضون في الخارج، ولا مهرّبون للأموال السويسرية لأنَّ النقد فيها حرّ، ولا داعي فيه لأي تهريب، والمعارضة حرّة في داخل سويسرة لا تحتاج الى اللجوء إلى الخارج لتقوم بنشاطها. ولهذا فإنَّ مسألة حصول النائب العام على أموال من المخابرات الفرنسية لقاء عمله هذا هي أكثر الأمور احتمالاً في اتهامه اتهاماً أدّى به إلى ان ينتحر.

وكان هذا النائب العام قد عُيِّن بترشيح وتأييد من الحزب الاشتراكي، وكان الحزب المسيطر على الحكم آنذاك هو حزب الفلاحين برئاسة فلدمن وبعض الأحزاب الصغيرة. فاهتبل هذا الحزب الفرصة لطعن خصمه وهو الحزب الاشتراكي.

٣ ـ الوحدة بين مصر وسوريا

ومن الأحداث السياسية أثناء فترة اقامتي في سويسرة قيام الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير سنة ١٩٥٨. ولا أذكرها ها هنا إلاّ لشيء واحد، هو ان وزارة الخارجية المصرية بعثت إلى السفارات في الخارج في اوائل فبراير تسألها رأيها في هذه الوحدة قبل إعلانها. وسألني السفير رأيي فقلت له: سجّل رأيي كتابة. وأمليت عليه أنني لا أنصح بقيام هذه الوحدة للأسباب التالية:

أولاً ـ ان طلب الوحدة لم يصدر عن الشعب السوري، بل عن العسكريين السوريين ومن يلوذ بهم من أحزاب صغيرة لا قيمة لها على الصعيد الشعبي، هي:

حزب البعث برئاسة ميشيل عفلق وصلاح بيطار، وحزب أكرم الحوراني الذي يستند إلى الجيش ولا وجود له خارج حماة. وكان العسكريون وعلى رأسهم عبد الحميد السرّاج ومن ورائهم ذلك الحزبان الصغيران التابعان قد صاروا في مأزق سياسي لم يجدوا مخلصاً منه إلاّ الاتحاد مع مصر. ورداً لضغط العراق والأردن على سوريا وتضييقهم الخناق عليها إثر مشروع ايزنهاور وحلف بغداد. فهؤلاء العسكريون والسياسيون السوريون لم يريدوا الوحدة مع مصر اقتناعاً بفكرة الوحدة، ولا حبًا في مصر، بل لإنقاذ أنفسهم. ووحدة تقوم لهذه الدوافع لا يمكن أبداً ان تستمر طويلاً، بل مآلها العاجل إلى الاخفاق الذريع. وهو ما حدث فعلاً بعد اقل من عامين اثنين.

ثانياً ـ ان معرفتي بالسوريين عامة، والداعين إلى هذه الوحدة بخاصة ـ وكنت أعرف منهم جيداً رجال حزب البعث، تجعلني لا أُحبّذ التعامل السياسي معهم: فهم طامعون في بسط نفوذهم الدائم على سوريا، وطامعون في استغلال مصر اقتصادياً وعسكرياً إلى أقصى درجة.

وقد ظهرت مطامعهم هذه جليّة منذ اللحظة الأولى: فضلاً عن تدفق التجار السوريين ببضائعهم المزجاة لبيعها في مصر وعقد الصفقات المشبوهة، فقد حاول السياسيون السوريون ابتزاز أموال مصر ومرافقها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وبلغت الوقاحة ببعض الوزراء السوريين ان طلبوا من جمال عبد الناصر ان يهدي إلى سوريا احد الخطين الحديدين القائمين بين مصر والاسكندرية وقالوا له: «سيادة الرئيس! سافرنا بالأمس بالقطار إلى الاسكندرية. وقد لاحظنا ان الخط الحديدي مزدوج، وسوريا في حاجة شديدة إلى خط حديدي، فهلاً تتفضل مصر فتتنازل لها عن أحد شقي هذا الخط المزدوج؟!» إي والله قد قالوا له هذا بكل وقاحة، وكأن خطوط السكك الحديدية في مصر مُلْك لعبد الناصر، أو خطوط ليكوڤيل ممتدة في ضياعه الخاصة!

وربما كان من أسباب الاستقالة المفاجئة المحرجة التي قدّمها صلاح بيطار وأكرم الحوراني وأتباعهما من الوزارة المركزية عدم الاستجابة لهذا الطلب الذي تجاوز كل وقاحة!

ذلك كان رأيي في الوحدة بين مصر وسوريا، سجّلته صراحة وإملاءً على السفير المصري في برن. ولست أدري هل أبلغه ـ وكيف إن كان فعل ـ إلى وزارة الخارجية في القاهرة. وطبعاً لم يأخذ برأيي القائمون بالأمر في مصر، لكن حالي معهم كحال أخي هوازن:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلاّ ضحى الغد

وسيفيق عبد الناصر من وهمه الهائل في صباح يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١. ولهذا الحدث بقية فيما يستقبل.

وقد عرفت مشاعر الشعب السوري نحو الوحدة حينما دعا وزير التعليم المركزي (كمال الدين حسين) الى عقد مؤتمر للمستشارين والملحقين الثقافيين ومديري البعثات التعليمية في القاهرة أولاً ثم في دمشق بعد ذلك بأسبوعين في شهر سبتمبر سنة ١٩٥٨.

وأنا أعرف سوريا جيداً منذ سنة ١٩٤٦، وكنت أتردّد عليها في كل عطلة أثناء إقامتي في لبنان لعامين من نوفمبر سنة ١٩٤٧ حتى يونيو سنة ١٩٤٩، ولي صلات وثيقة حميمة بكثير من أدبائها وأساتذتها ومثقفيها وأُسَرها وسياسيّيها. ثم عدت إليها في ابريل سنة ١٩٥٢ أبان عودتي من مؤتمر ابن سينا في بغداد. وفي جميع هذه الزيارات كنت ألقى ترحيباً بالغاً وحرارة استقبال ولقاء عند سائر أفراد الشعب السوري في دمشق، مما جعل هذا البلد أثيراً عندي ويحتل في مشاعري مكانة عزيزة.

لكن حين زرت دمشق في سبتمبر سنة ١٩٥٨ لحضور ذلك المؤتمر، شعرت بعامة الناس يعاملونني بحذر، بل وبنفور وكراهية وغيظ. وكان هذا كله بسبب الوحدة التي فرضت على الشعب السوري فرضاً من جانب عسكريين وسياسيين مغامرين غير مخلصين، وما ترتب على ذلك من ارهاب وقد مارسهما عبد الحميد السرّاج وزبانيته، وكل ذلك باسم الوحدة مع مصر فيما يزعمون، وهو زعم كاذب كل الكذب. إنَّ أوزار هؤلاء العسكريين وأذنابهم السياسيين السوريين قد انصبت كلها على رأس مصر، ومصر منها براء كل البراءة.

وكان من المفروض ان يكون القصد من هذا المؤتمر تبادل الرأي في المشاكل الثقافية بين مصر والبلاد الأخرى، والكشف عن النقائص، واقتراح العلاج. لكن نتيجة المؤتمر كانت على العكس تماماً: فالذين أوضحوا المشاكل، واقترحوا وسائل العلاج قد قرّر وزير المعارف (كمال الدين حسين) إعادتهم إلى مصر، بينما الذين لم ينطقوا بكلمة واحدة طوال عشرين يوماً هم الذين أُبقي عليهم في أماكنهم في الخارج. فهل هناك عبث أكبر من هذا العبث؟! فيم إذن كان استدعاؤهم وتحمل تكاليف أسفارهم وإقامتهم وبدلات سفرهم - إذا كانت هذه هي النتيجة؟! إن المرء ليحار كل الحيرة في فهم تصرفات القائمين على تسيير الحكم

في مصر! إن الهوى واللامعقول والاستبداد الأحمق ـ هي التي تحكم تصرفاتهم.

الحياة السياسية في سويسرة

وأعود إلى سويسرة لوصف أحوالها السياسية ولأبدّد الأوهام القائمة في أذهان معظم الناس عنها.

إنَّ الاتحاد السويسري وُلِدَ في أول أغسطس سنة ١٢٩١ لما قامت ثلاث مقاطعات صغيرة هي أوري Uri واشڤيتس Schevyz واونترڤلد Unterveld بالتعهد فيما بينها على تبادل المساعدة إذا ما تعرّضت إحداها لأي عدوان من جانب آل هبسبورج حكام النمسا. وأقسمت على أن تساعد بعضها بعضاً بالأشخاص والأموال، والمناصرة في الهجوم وفي الدفاع، دون أي حدود ولا تحفظات، ضد مَن يسيء إلى إحداها. فمتى ما طلبت إحداها المساعدة، فعلى الأخيرتين ان تهبّا للمساعدة على حسابيهما. وقرّرت رفض قبول أي والٍ ممثل للسلطة العليا يكون مستأجراً لوظيفة أو ليس من أبناء هذه المقاطعات. وتقرّر أن يكون هذا التحالف أبدياً غير محدود المدة.

وخاض هذا التحالف اول تجربة حاسمة له حينما أراد الدوق ليوپولد، ابن ألبرت حاكم النمسا، ان يفرض سلطة آل هبسبورج على اشڤيتس وعلى اونترڤلد، في سنة ١٣١٥، فانبرت المقاطعات الثلاث لحمل السلاح وحاربوا جيشه وهزموه هزيمة منكرة في ١٥ نوفمبر سنة ١٣١٥ في مورجارتن Morgarten، الواقعة على الحد الشمالي لمقاطعة اشڤيتس. وكان انتصار التحالف في معركة مورجارتن على الأُسرة الحاكمة في النمسا بداية نزاع متواصل بين كلا الجانبين، كما كان باعثاً لمقاطعات أخرى على الانضمام للنواة الأولى الثلاثية.

فانضمت مدينة لوتسرن Luzern إلى الحلف في سنة ١٣٣٢؛

وانضمت زيورخ Zürick في سنة ١٣٥١؛

وبالقوة العسكرية قام المتحالفون الخمسة بارغام اتسوج Zug على الانخراط في الحلف في سنة ١٣٥٢؛

وطالبت جلاريس Glaris بالانضمام إلى الحلف، فأجيبت إلى طلبها في سنة ١٣٥٢؛

وفي السنة التالية، سنة ١٣٥٣ تحالفت المقاطعات الثلاث الأولى مع برن Bern، وكانت برن ذات قوة عسكرية قوية.

وهكذا يكون ما عرف باسم «الاتحاد الكونفدرالي للمقاطعات الثماني» وإن لم تكن هذه التسمية دقيقة لأنَّه لم يكن هناك آنذاك تحالف بين برن من ناحية، وبين زيورخ وجلاريس واتسوج من ناحية أخرى؛ كما ان المقاطعات الثماني كان يربطها بعضها ببعض ستة مواثيق مختلفة.

واشتد الصراع بين هذا التحالف الثماني وبين النمسا في الربع الأخير من القرن الرابع عشر، اذ حاولت النمسا ان تثأر لنفسها، فهاجمت المتحالفين، لكنهم هزموها هزيمة منكرة في سنة ١٣٨٦ في سمپاخ Sempach، وفي سنة ١٣٨٨ في نيفلز Naefels.

وكان انتصارهن في سمپاخ عظيماً، فسقط في ساحة القتال دوق النمسا ليوپولد وزهرة النبلاء من آل هبسبورج، ومن ثم كان لهذا الانتصار دويّ قويّ في أرجاء المانيا. ومن ذلك الانتصار استمد السويسريون شهرتهم فيما بعد بأنَّهم محاربون أشدّاء، سيستعين بهم كبار الحكام في مختلف دول أوروبا، مقابل أجر مرتفع.

أخذت كل مقاطعة من المقاطعات الثماني المتحالفة تتوسّع: فبرن فتحت منطقة فسيحة على طول نهر الآر Aar؛ ولتسرن وزيورخ بسطتا نفوذهما على ممتلكات آل هبسبورج المجاورة لهما؛ وقامت المقاطعات الثماني مجتمعة فاستولت على وادي نهر رويس Rews والوادي الأسفل لنهر الآر حتى مصبه في نهر الراين. كذلك قام الثمانية في سنة ١٤٦٠ بالاستيلاء على مقاطعة تورجاو Thurgau المتاخمة لحدود ألمانيا في الشمال الشرقي لسويسرة.

ودخلت معها في تحالف مقاطعات أخرى هي: سولوتورن Solothurn، وفرايبورج Fribourg السويسرية، وبيل Biel (Beinne بالفرنسية) ونيوشاتل Neuchâtel؛ لكنها كانت حليفات في الدرجة الثانية، أي في مستوى أقل من التحالف القائم بين المقاطعات الثماني.

ووقع النزاع بين شارل المتهوّر وبين أهل برن بتحريض من لويس الحادي عشر ملك فرنسا. فقامت برن ومعها حليفاتها من المقاطعات السويسرية بمهاجمة شارل في سنة ١٤٧٤. فردَّ شارل في ربيع سنة ١٤٧٦ بالهجوم على اقليم الڤو Vaud ليزحف من هناك على برن. لكن برن هزمته في جراندسون Grandson (في ٢ مارس) وفي مورتن Murten (في ٢٢ يونيو).

هنالك طالب سولوتورن وفرايبورج بأن تكون مكانتهما في التحالف مثل

المقاطعات القديمة. فعارضت المقاطعات الريفية لأن ذلك سيزيد من أهمية المدن على الريف. ولكن أمكن تسوية النزاع في سنة ١٤٨١، وأصبحت فرايبورج وسولوتورن عضوين مساويين لسائر الأعضاء القدماء في التحالف السويسري.

وقام النزاع مرة أخرى بين المقاطعات السويسرية المتحالفة وبين الامبراطور ماكسمليان فانتصرت المقاطعات في كل المعارك. ونتيجة لهذا دخلت بازل وشافهاوزن Schaffhausen في الاتحاد السويسري في سنة ١٥٠١ بنفس الشروط التي دخلت بها سولوتورن وفرايبورج. كذلك دخلت مقاطعة أپنتسل Appenzale في سنة ١٥١٣.

وحدثت حركة الاصلاح الديني، وكان على رأسها اتسڤنجلي Zuvingli. فانقسمت المقاطعات السويسرية المتحالفة حيالها، وانتهى النزاع الى أن صارت: زيورخ، وبرن، وبازل، وشافهوزن - پروتستنتية؛ بينما اوري، واشڤيتس، واوترڤلد، ولوتسرن وتسوج وفرايبورج وسولوتورن بقيت كاثوليكية؛ أمّا جلاريس وأپنتسل فجمعت بين الكاثوليكية والپروتستنتية.

وقامت برن مرة أخرى ففتحت اقليم الڤو Vaud ودخلت مدينة جنيڤ في ٣ فبراير سنة ١٥٣٦. وبهذا الفتح انتصرت الپروتستنتية في كل سويسرة الناطقة بالفرنسية (لوزان، وجنيڤ).

لكن الاتحاد السويسري أصيب بضربة قاضية على يد حكومة الادارة في فرنسا التي تألفت غداة القضاء على الإرهاب الذي انتهت إليه الثورة الفرنسية - فقد بعثت حكومة الادارة بجيش فرنسي ضد برن، واستولى هذا الجيش الفرنسي على برن في ٥ مارس سنة ١٧٩٨. وهكذا سقط الاتحاد السويسري المؤلف آنذاك من ثلاث عشرة مقاطعة. وفرضت فرنسا دستوراً موحداً على غرار دستور فرنسا. وضمت فرنسا إليها: جنيڤ، وبيل ومدن الجوار؛ واعتبرت الجمهورية السويسرية بلداً تابعاً لفرنسا. ومن ثم ضربت الفوضى كل انحاء سويسرة.

وتوسط ناپليون، وقد صار القنصل الأول في حكومة القنصلية في فرنسا، في الفوضى الضاربة أطنابها في سويسرة، وأصدر ما يُسمَّى بـ «مرسوم الوساطة» في ١٩ فبراير سنة ١٨٠٣، وبمقتضاه صارت سويسرة تتألف من ١٩ مقاطعة: فإلى جانب الثلاث عشرة القديمة، دخلت ست مقاطعات جديدة هي: سانت جالن، وجراوبوندن Graubunden وآرجاو Aargau، وتورجاو Thurgau، والتسين Tessino والڤو Vaud.

ولما سقط نابليون في سنة ١٨١٤، عادت سويسرة، وقد صارت جمهورية واحدة في عهد نابليون، إلى وضعها القديم: إذ صارت اتحاداً من دويلات ذات سيادة، الغرض الوحيد من اتحادها هو الدفاع المشترك عن استقلالها في مواجهة الأجنبي، والمحافظة على الأمن والنظام العام في الداخل. وتشترك في مجلس دياط Diète، لكل مقاطعة فيه صوت. ويتولى الدياط الاشراف على السياسة الخارجية للاتحاد، لكن من حق كل مقاطعة ان تتعامل مباشرة مع الدول الأجنبية في الشئون الاقتصادية والقانونية، وان تعقد اتفاقات فيما يتعلق بتوريد جنود. وإذا تعلّق الأمر بالحرب أو بالسلام، او عقد معاهدة، فإنَّ الدياط يصدر قراره بأغلبية ثلاثة أرباع الأصوات. وفي غير ذلك من الشؤون كانت الأغلبية البسيطة كافية لإصدار القرارات.

ولما قامت الثورة في فرنسا في سنة ١٨٣٠، امتدت آثارها الى سويسرة، فحدثت اصلاحات سياسية في عامي ١٨٣٠ و١٨٣١ بفضل الأحرار.

ثم وقع نزاع بين المقاطعات الكاثوليكية من جهة، والمقاطعات الپروتستنتية من جهة أخرى بسبب وجود الأديرة، وبسبب قيام اليسوعيين بالتعليم. وأدّى ذلك إلى قيام ٧ مقاطعات كاثوليكية (لوتسرن، أوري، اشڤيتس، اونترڤلد، تسوج، فرايبورج وڤالس Wallis) بتكوين رابطة خاصة أو مستقلة Sonderbunel. فاعترضت المقاطعات الأخيرة بحجة ان ذلك مخالف لمبدأ الميثاق. وأعلن الدياط ان «الرابطة الخاصة» تتنافى مع الميثاق، وطالب بحلّها. ولما قاومت مقاطعات «الرابطة الخاصة» قرّر الدياط حلّها بقوة السلاح (في ٤ نوفمبر سنة ١٨٤٧) وعهد إلى الجنرال ديفور Dufour بقيادة الحملة ضد هذه المقاطعات السبع. وكانت قوات هذه المقاطعات ضعيفة، متباعدة من حيث المكان. وخوفاً من لجوئها إلى دولة أجنبية، أسرع الجنرال ديفور بجيشه إلى مواجهة فرايبورج، التي اضطرت إلى التسليم على الفور. وبعد استسلام فرايبورج، زحف إلى لوتسرن، فاستسلمت هي الأخرى، بعد معركة واحدة في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٧. وخلال ثلاثة أسابيع كانت المقاطعات السبع المتمردة قد استسلمت كلها. ولم تحدث خسائر كبيرة في الأرواح، إذ لم يقتل غير مائة شخص تقريباً، مما سهّل التئام الجراح بين كلا الفريقين.

وخلال النصف الأول من سنة ١٨٤٨ وضع دستور جديد، ووفق عليه بأغلبية كبيرة. وكان هذا الدستور توفيقاً بين الفدرالية المتطرفة، وبين التوحيد الذي كان يُطالب به الجناح اليساري من الحزب الراديكالي.

وبهذا الدستور تحوّلت سويسرة من اتحاد كونفدرالي بين دول إلى دولة فدرالية. فبعد ان كانت السيادة لكل مقاطعة على حدة، تمارسها هي وحدها، صارت مقسّمة بين المقاطعات وبين الدولة الفدرالية. فصار من حق الدولة الفدرالية وحدها التعامل مع الدول الأجنبية، في كل الشؤون مهما كانت؛ وصارت للدولة الفدرالية سلطة واسعة جداً على الجيش؛ ولها وحدها فرض وأخذ الضرائب الجمركية؛ وحق سك النقود؛ وكذلك صار البريد من شأنها وحدها. ولها وحدها حق السهر على الحريات في كل المقاطعات. ودساتير المقاطعات صارت خاضعة لموافقة السلطة الفدرالية، وهي وحدها التي تضمنها.

ويقوم على رأس الاتحاد السويسري حكومة فدرالية. والسلطة التنفيذية وُكّلت إلى مجلس من سبعة أعضاء، هو المجلس الفدرالي Conseil Fédéral. ويرأسُ هذا المجلس رئيس بالتناوب، هو أحد أعضائه، ولا يجوز إعادة انتخابه لفترة تالية مباشرة، وليس له أسبقية على زملائه في المجلس.

أمّا السلطة التشريعية فتقوم على أساس مشابه للنظام الأمريكي: أي على مجلسين، احدهما يمثل الشعب، والآخر يمثل المقاطعات. والأول، ويُسمّى المجلس الوطني Nationalrat ينتخب من الشعب بالانتخاب المباشر على أساس نائب من كل عشرين ألف مواطن (ثم زيد العدد إلى ٢٢,٠٠٠، ثم إلى ٢٤,٠٠٠؛ وقد حدّد عدد النواب في سنة ١٩٦٢ بمائتين مهما زاد عدد السكان). والمجلس الآخر هو مجلس المقاطعات Ständerat، ويتألف من ٤٤ نائباً، على أساس نائبين عن كل مقاطعة (وازداد بعد ذلك بزيادة عدد المقاطعات التي يبلغ عددها الآن ٢٦). وهذا المجلس يمثل المقاطعات، لكنه لا يتلقى التعليمات منها.

والمجلسان مجتمعيْن يعيّنان المجلس الفدرالي، والمحكمة الفدرالية، وفي حالة قيام حرب يعيّنان القائد العام للجيش.

ولكلا المجلسين سلطة تشريعية متساوية، ويقترع كل مجلس على حدة على مشروعات القوانين.

وكل تعديل في الدستور يجب أن يعرض على استفتاء للشعب وللمقاطعات معاً، وكذلك ادخال أية مادة جديدة او تعديل في مادة.

ولم يتعرّض الدستور لحالة قيام نزاع بين المجلسين، ولا لحالة وجود اختلاف بين الأغلبيتين: الأغلبية الشعبية وأغلبية المقاطعات. لكن من عجائب

المصادفات ان هذا النزاع لم يحدث حتى الآن.

وتحتفظ كل مقاطعة بالسيادة التامة في ميدان القانون والعدالة، والتعليم العام، والعبادة، مع عدم المساس بحرية عقيدة المواطن وحرية العبادة المسيحيَّة؛ كذلك لها السيادة التامة في ميدان الأشغال العامة، والمالية، والتجارة والصناعة مع كفالة حرية الصناعة والتجارة.

وتجنباً للأحداث التي أدت إلى الحرب الأهلية في سنة ١٨٤٧، صار ممنوعاً على المقاطعات عقد محالفات ذات طابع سياسي فيما بينها بعضها وبعض. ويمكنها التفاهم فيما بينها على أمور ادارية، بشرط ان توافق على اتفاقاتها السلطة الفدرالية.

كذلك مُنع اليسوعيون والطرقُ الدينية الاقامةَ في أراض الاتحاد السويسري.

واختيرت برن عاصمة للاتحاد السويسري، بفضل موقعها المركزي وأهميتها التاريخية في تكوين الاتحاد السويسري. كما أختيرت لوزان مقراً للمحكمة الفدرالية.

ذلك هو الدستور سنة ١٨٤٨. وقد عدّل بعد ذلك في سنة ١٨٧٤. وبمقتضى هذا التعديل زادت السلطة الفدرالية في أمور الجيش. وزادت القوى الشعبية: فأدخل نظام الاستفتاء الاختياري ومفاده أنَّه إذا طلب ٣٠,٠٠٠ مواطن او ثماني مقاطعات اجراء استفتاء خلال ثلاثة أشهر على قانون وافق عليه المجلسان التشريعيان، فلا بدّ من اجراء هذا الاستفتاء، ولا يصير القانون نافذاً إلاَّ اذا وافقت عليه الأغلبية في هذا الاستفتاء.

وفي سنة ١٨٩١ أدخل حق آخر وهو انه اذا وافق ٥٠,٠٠٠ مواطن على ادراج مادة جديدة في الدستور، أو تعديل مادة قائمة، فإنَّ الأمر يعرض على استفتاء مزدوج: استفتاء الشعب، واستفتاء المقاطعات.

كذلك قرّر دستور سنة ١٨٧٤ سيطرة الدولة على الكنيسة فيما يتصل بأمور التعليم: فإدارة التعليم الابتدائي يجب أن توكل إلى سلطات مدنية؛ والمدرسة العامة لا يجوز ان تكون ذات طابع مذهبي واحد؛ وتأسيس أديرة جديدة صار ممنوعاً، كذلك لا يجوز إعادة الأديرة المندثرة؛ والزواج صار مدنياً، وكذلك المقابر.

وأثناء الحرب العالمية الأولى احتفظت سويسرة بحيادها، وصادقت على حياد سويسرة معاهدة ڤرساي سنة ١٩١٩. وتخلّت سويسرة عن المطالبة باقليم

Vorarlberg السويسري، رغم مطالبة شعب هذا الاقليم بأن يكون المقاطعة الثالثة والعشرين. أمّا امارة ليشتنشتين Lechtenstein فاحتفظت باستقلالها، ولكنها عقدت اتحاداً جمركياً ونقدياً وبريدياً مع سويسرة.

أمّا من حيث الأحزاب، فإنَّ الحزب الراديكالي كانت له الأغلبية في المجلس القومي منذ سنة ١٨٤٨ حتى سنة ١٩١٩. ثم انفصل عنه الجناح اليميني وألّف حزباً جديداً هو حزب الفلاحين والصناع والبورجوازيين. ومن ثم صارت الأحزاب المتمثلة في المجلس القومي (الوطني) هي: الحزب المحافظ الكاثوليكي، والحزب الراديكالي، والحزب الاشتراكي ـ ولكل واحد منها رُبع المقاعد ـ وحزب الفلاحين، وله عُشْر المقاعد، وإلى جوارها عدة أحزاب صغيرة.

وكان للحزب الراديكالي ستة (من سبعة) أعضاء، فصار لهم أربعة، بدخول ممثل ثان للحزب المحافظ في سنة ١٩٢٠، وممثل للفلاحين في سنة ١٩٢٩. وبقي الحزب الاشتراكي في المعارضة، لكنه تحوّل من حزب ثوري إلى حزب اصلاحي: ففي سنة ١٩٣٦ تخلّى عن مبدأ دكتاتورية الپروليتاريا، وعن نزعته المضادة للحروب؛

وبقي عدد المقاطعات على حاله إلى سنة ١٩٧٨، إذ أنشئت مقاطعة منفصلة عن برن، هي مقاطعة شمال الجورا الفرنسية اللغة، وأمّا جنوب الجورا فقد آثرت البقاء ضمن مقاطعة برن.

ولم يكن للمرأة حق الانتخاب في سويسرة حتى سنة ١٩٧١ حين ووفق في استفتاء عام على منحها هذا الحق. وفي سنة ١٩٨١ ووفق على مبدأ المساواة بين الجنسين، لكنه لم يتم وضع ذلك المبدأ موضع التطبيق إلاَّ في سنة ١٩٨٥ فحقق للمرأة المساواة مع الرجل في الأجور عن نفس الأعمال، كما صار للمرأة الحق في الاحتفاظ باسم أبيها وعدم ذكر اسم زوجها بالضرورة.

وخُفِّض سنّ البلوغ المدني إلى ١٨ سنة، وكان قد رفض بأغلبية ضئيلة على المستوى الفدرالي سنة ١٩٧٩، لكن العديد من المقاطعات اعتمدته.

وفيما يتصل بوضع الأجانب في سويسرة، اقترح نائب عن زيورخ في المجلس الوطني (القومي) يدعى اشڤارتسنباخ Schevarzenback اصدار قانون بتحديد عدد الأجانب في سويسرة بعشرة في المائة على الأكثر، فرفض اقتراحه باقي أعضاء المجلس ولم ينل غير صوته هو، لكن في الاستفتاء الشعبي رفض الاقتراح بأغلبية ٥٤٪ فقط. ومن ثم ازدادت النزعة المضادة

للأجانب في سويسرة عاماً بعد عام، وحقق أصحابها انتصارات بارزة في الانتخابات المحلية في جنيف سنة ١٩٨٥.

❀ ❀ ❀

تلك لمحة عامة عن انشاء الاتحاد السويسري وعن دساتيره ونظمه.

ونريد الآن أن نبدي ملاحظاتنا الشخصية على الاتحاد السويسري كما عرفناه بالتجربة أثناء مقامنا فيه قرابة ثلاث سنوات متوالية:

١ ـ صحيح ان سويسرة، من الناحية القانونية، دولة محايدة. لكنها من الناحية الفعلية دولة منحازة إلى أوروبا الغربية في جميع المنازعات التي تقوم بين دول الكتلة الشرقية، ودول الكتلة الغربية. وهي منحازة إلى الدول الأوروبية ضد دول العالم الثالث. وقد سمّي بتلبير هذا الحياد «جاداً فعلاً» Active.

٢ ـ وصحيح ان نظامها ديمقراطي حرّ يقوم على الاستفتاء الشعبي، لكن الملاحظ هو ان المشتركين في التصويت في الاستفتاءات والانتخابات المختلفة يتراوح بين ٣٥٪ و٤٥٪ وأحياناً ينزل إلى ٢٥٪. فهل مثل هذا الاستفتاء يعبّر حقاً عن رأي الشعب كله؟! صحيح انه لا توجد وسيلة أخرى، كذلك ليس من الديمقراطية في شيء ان يكون التصويت اجبارياً، فهذا يتنافى مع مبدأ الحرية. ولكن ينتقص من معنى الاستفتاء ألا يشترك فيه إلاّ هذا العدد القليل. ولسنا نفهم المبرر لهذا التقاعس عن ممارسة حق الادلاء بالصوت في الأمور العامة: أهو عدم الاكتراث، أو اليأس من إمكان التغيير.

٣ ـ ذلك انه من الملاحظ اللافت للنظر بقاء المستشارين الفدراليين (= الوزراء) في مناصبهم مدداً طويلة جداً؛ وأذكر على سبيل المثال ان ماكس پتيپير Max Petit Pièrre ظلّ مستشاراً فدرالياً للشئون الخارجية من سنة ١٩٤٤ حتى سنة ١٩٦١! وهي مدة لم تُعهد لأي وزير خارجية في الدول الغربية، ولا نعرف مثلها إلاّ لأندريه جروميكو وزير خارجية الاتحاد السوڤييتي (١٩٥٧ ـ ١٩٨٥)! والمشاهد أيضاً ان المستشارين الفدراليين (= الوزراء) يُعاد انتخابهم باستمرار ولا يتركون مناصبهم إلاّ بارادتهم، أو بالوفاة، باستثناء حالتين اثنتين فقط أُرغم فيهما صاحباهما على ترك منصبهما. ولهذا الوضع مزية طبعاً من حيث الاستقرار والمواصلة، لكن له عيوبه من حيث عدم التجديد في الأشخاص وبالتالي في السياسة المتبعة.

٤ ـ هناك وهم شائع حول القوة العسكرية لسويسرة. إذ ظنّ البعض ان كون

سويسرة على الحياد، ولم تشترك في أي حرب في الخارج منذ سنة ١٨٠٨ إذن سويسرة لا تهتم بالجيش. لكن الواقع عكس هذا تماماً: فإنّ الخدمة العسكرية في سويسرة مستمرة من سن الحادية والعشرين حتى سن الستين. وعلى كل مواطن، بعد اداء الخدمة العسكرية الأولى طوال عام، أن يؤدّيها كل عام لمدة تتناقص كلما ازداد السن حتى تصبح اسبوعاً واحداً كل عام. والجندي السويسري - أي كل سويسري أدّى الخدمة العسكرية وهي اجبارية على الجميع - يحتفظ ببندقيته في بيته بعد أدائه مدة الخدمة. ويحدث في بعض الأمور المهمة ان يقوم أفراد الشعب بالتظاهر أمام المجلس الفدرالي او امام المجلسين: الوطني ومجلس المقاطعات - حاملين بنادقهم، إذ لهم مطلق الحق في ذلك. لكن هذا أمر رمزيٌّ أكثر منه فعلياً، إذ لا يستخدم أحد سلاحه في التخويف، ولا يطلقون أيّ رصاص للإرهاب.

والجيش السويسري ممتاز التدريب، ممتاز العدّة من جميع الأسلحة الدفاعية فقط، لا الهجومية. فعنده أفضل الطيارات المطاردة، والمدفعية البعيدة المدى، والدبابات والمدرعات. وفي سويسرة مصانع أسلحة للمدافع والدبابات وصواريخ الأرض والجوّ. وهو يطوّر أسلحته باستمرار: فيتخلص من العتيق، ويستبدل به الأحدث والأشد فعالية.

لكن من الصعب الحكم على قدرته القتالية الفعلية، لأنّه لم يجرب في حرب فعلية منذ أكثر من مائة وثمانين عاماً.

ومن المفارقات العجيبة ان آخر مرة اشترك فيها جيش سويسري في حرب خارج سويسرة كان في حملة فريزر على مصر سنة ١٨٠٨، تلك الحملة التي هزمتها مصر هزيمة منكرة في رشيد. وكانت الفرقة السويسرية التي اشتركت في الحملة فرقة من فرايبورج كلهم من المرتزقة.

٥ - إلى جانب الأحزاب الأربعة الرئيسية: الراديكلي، الديمقراطي المسيحي (الكاثوليكي سابقاً)، الاشتراكي، وحزب الفلاحين، ولكل واحد من الثلاثة الأولى عضوان في المجلس الفدرالي، وللرابع عضو واحد - تقوم «الجماعات الاقتصادية» بدور أساسي في اتخاذ القرارات، خصوصاً في المراحل التمهيدية. وأهم هذه الجماعات: الاتحاد السويسري للتجارة والصناعة، الاتحاد السويسري للفنون والصناعات، الاتحاد السويسري للفلاحين، الاتحاد النقابي السويسري، شركة المجروس Migros: فإنَّ النظام التشريعي في سويسرة يسمح لها بالتدخل في جميع المراحل السابقة على البرلمان: مثل اعداد المشروع الأوّلي مع الادارة المركزية، اجتماعات لجان الخبراء، الاستفتاءات، صياغة المشروع النهائي.

كما ان علاقاتها بالأحزاب الممثلة في المجلسين تمكنها من توجيه المناقشات في اللجان البرلمانية. لهذا ينبغي ان نحسب حساباً كبيراً لقدرة هذه «الجماعات الاقتصادية» في توجيه الحياة السياسية في سويسرة وأن يقوم النظام الديمقراطي فيها وفقاً لهذا الوضع.

خصائص الشعب السويسري

ليس صحيحاً ما قاله الشاعر فكتور هوجو عن سويسرة: «سويسرا تحلب بقرتها، وتعيش في سلام». فإنَّ الشعب السويسري من أنشط شعوب العالم إن لم يكن أنشطها جميعاً، لا ينافسه في ذلك غير ألمانيا. ولهذا يتباهى أبناؤه بعقولهم: «الله خلق العالم، والانسان السويسري خلق سويسرا».

فعلى الرغم من قلة مواردها الطبيعية، فإنّها متقدمة جداً في الصناعة وفي الصناعات الزراعية. وانتاجها القومي بحسب السكان يجعلها تحتل المركز الثاني في أوروبا، بعد السويد. والازدهار الاقتصادي يقوم أساساً على: الصناعات، والبنوك، والتأمينات.

١ ـ أمّا في الصناعة فقد أدى بُعدها عن البحر وفقرها في المواد الأولية إلى قصر اهتمامها على الصناعات التحويلية: المنسوجات، الساعات، الآلات، الصيدليات، الكيماويات. وفي المقدمة تأتي صناعات الآلات، وتؤلف ١٢٪ من الناتج القومي، وتشغل ٣٠٪ من العمال الصناعيين وتكوّن ثلث الصادرات إلى الخارج. ويتلوها في المرتبة الكيماويات. وفي المرتبة الثالثة تأتي الساعات وتمثل ١١٪ من مبيعات سويسرة إلى الخارج، وان كانت المنافسة الأمريكية قد ضيّقت عليها ابتداء من سنة ١٩٤٦، ثم خصوصاً المنافسة اليابانية ابتداء من ١٩٦٠ ـ ويتلوها في المرتبة صناعة المنسوجات وتمثل ٩٪ من مجموع صادرات سويسرة إلى الخارج. وفي المرتبة الخامسة تأتي الصناعات الغذائية، وكثير من شركاتها صارت ذات فروع في الخارج، مثل نستله؛ وأهمها منتجات الألبان، والشوكولاته، والمعلبات من اللحوم والخضراوات. أمّا الزراعة فلا تكاد تكفي نصف حاجة سكان سويسرة.

٢ ـ وفي مجال البنوك تعد سويسرة ثالث دول العالم، بعد الولايات المتحدة الأمريكية، وانجلترة. ومن بعض النواحي تفضل هاتين الدولتين: بسبب الاستقرار السياسي، والحرية التجارية والنقدية المطلقة، ومبدأ سرّية الحسابات في البنوك.

وقد كانت الميزانية العامة للبنوك السويسرية ـ في سنة ١٩٧٠ ـ حوالى ١٩٩ مليار فرنك سويسري، وهو يمثل ثلاثة أضعاف الدخل القومي السويسري (٢,٧ مرة). وعدد البنوك ـ في تلك السنة ـ ٤٧٢ بنكاً، و٤٤٨٣ كونتوار، بحيث يوجد ٧ مراكز بنكية لكل عشرة آلاف نسمة من السكان. ونسبة صناديق التوفير هي ١٦٦ بالنسبة إلى كل مائة ساكن. لكن ٣٣ بنكاً فقط تتقاسم وحدها ٧٠٪ من الميزانية الكلية.

ونظام الحسابات السريَّة يغري الأموال الأجنبية، خصوصاً في البلاد المضطربة السياسة أو الاقتصاد، باللجوء إلى سويسرة. لكن البنوك السويسرية لا تشجع على الإيداع بالعملة السويسرية، حتى لا يحدث تضخم في التداول النقدي السويسري، وإنَّما تشجع فقط الإيداع بالعملات الأجنبية القويّة.

والبنوك السويسرية نشيطة جداً في العمليات المتعلقة بالذهب، حتى ان ثلاثة أرباع العمليات المتعلقة بالذهب تمرّ عبر البنوك السويسرية.

٣ ـ وشركات التأمين السويسرية ذات نشاط ضخم في التأمين وإعادة التأمين. والعجز في الميزان التجاري السويسري يغطيه ويزيد عليه عنصران: التأمين، والسياحة.

وقد بلغ الدخل من السياحة في سنة ١٩٧٠ مليارين ومائة مليون فرنك سويسري.

وكل هذه الميادين الثلاثة: الصناعات، البنوك، التأمينات ـ ميادين انسانية بحتة، أتت من صنع الانسان، ولا دخل للطبيعة فيها. ومن هنا حق للسويسريين ان يفخروا بأنَّهم هم الذين خلقوا سويسرة. حتى جمال المناظر الطبيعية معظمه من خلق الانسان السويسري.

ذلك ان السويسري ـ خصوصاً في القسم الناطق بالألمانية (٦٤,٩٪؛ وبالفرنسية ١٨,١٪؛ وبالايطالية ١١,٩٪؛ ١,٥٪ بالرومانية) ـ في غاية الاجتهاد في العمل، لا يكل ولا يملّ. وهذا الاجتهاد في العمل يعوّض عن النقص في حدة الذكاء. وهو في عمله يميل الى التروّي والبطء وهذا يؤدّي به إلى اتقان الاختتام Finishing، أي الصقل النهائي، وإلى المهارة في الصناعات الدقيقة التي تحتاج إلى بطء العمل، مثل الساعات وأجهزة التدقيق.

❀ ❀ ❀

والسويسري شديد الاقتصاد، حريص على المال، ينفر من البذخ والتبذّخ.

مهما كانت ثروته كبيرة ومنصبه رفيعاً. وكثيراً ما تجد رئيس الاتحاد السويسري يركب في الدرجة الثانية من القطار. ومن النوادر الشائعة ان أحد هؤلاء الرؤساء سُئل: لماذا تركب في الدرجة الثانية؟ فأجاب على الفور: لأنّه لا توجد درجة ثالثة!

وعلى الولد أو البنت أن يكسب معاشه بنفسه متى ما تخرّج في المدرسة، حتى لو تخرّج في سن السادسة عشرة من مدرسة متوسطة. فعليه حينئذ ان يدفع مبلغا من مرتبه لقاء اقامته عند أهله: ولداً كان أو بنتاً. والأفضل لهما ان يستقلا عن الأبوين في أبكر وقت ممكن.

ويلاحظ على العاملين، وخصوصاً العاملات، السويسريين سرعة انتقالهم من مكان عمل إلى مكان عمل آخر إمّا في نفس المهنة وإمّا في مهن متعددة، وذلك طمعاً في زيادة المرتب مهما كلفهم ذلك من انتقالات. ولهذا فإنّهم شديدو الحرص على قراءة المجلات الاسبوعية المتخصصة في الاعلان عن الوظائف (Feuilles d'avis با لفرنسية، أو Arbeitsangeiger بالألمانية)، والتقدم للوظائف المعلن عنها؛ ولا يخجلون ابداً من رفض طلباتهم او اخفاقهم في الاختبار الخاص بالقبول، مهما تعدد الرفض والاخفاق في العام الواحد!

❀ ❀ ❀

والعلاقات الجنسية بين الفتيان والفتيات، أو بين الرجال والنساء بعامة علاقات بسيطة هيّنة خالية من كل تعقيد او احتجاز. فلا غيرة، ولا مناورات، ولا دسائس غرامية. ولم أقرأ في الصحف ولم أسمع من الناس عن أية «جرائم غرامية»، أي متعلقة بالحب Crimes Passionnels؛ طوال السنوات الثلاث التي أقمتها في سويسرة.

ومن رأيي ان هذا هو الوضع العاقل السليم. اذ لا ينبغي ان تكون العلاقة بين الرجل والمرأة مصدراً للعذاب. وكفى الانسان همومه الأخرى. وانما الواجب هو ان تقوم هذه العلاقة على التراضي، والحرية المتبادلة دون قهر ولا إرهاب من أحد الطرفين ضد الطرف الآخر. إن الحب علاقة بين طرفين، فإذا شاء أحد الطرفين قطعها، فليقطعها دونما حرج، ودون أن يرى الطرف الآخر في ذلك اهانة له. وإذا نجم عن الاتصال الجنسي حَمْلٌ، فعلى المرأة وحدها ان تتحمل نتائجه الآن وقد كفلت لها وسائل منع الحمل ان تتجنبه.

وإنّها لحماقة كبرى من رجال الدين ان يجعلوا من العلاقات الجنسية مشكلة حادّة ينفقون في الكلام عنها معظم نشاطهم:

١ ـ انهم يزعمون ان الأمر يتعلق بصيانة كيان الأُسرة؛ ولكن الأُسرة لا تقوم بالقهر، بل بالرضا التام بين الطرفين المكوّنين لها. وليس عنصر الجنس إلاَّ واحداً من عناصر عديدة في تركيب الأُسرة، ولو فتشت عن أسباب الانفصال بين الزوجين لوجدت عنصر الجنس أقلّها تأثيراً. فلماذا يحصرون كل همّهم وهنائهم في هذا العنصر الذي لا يمثل ٥٪ من أسباب الانفصال؟!

٢ ـ وأعجب من هذا تدخلهم في مسألة وسائل منع الحمل، حتى ان بابا روما الحالي (يوحنا بولس الثاني) جعلها الموضوع الرئيسي في نشاطه البابوي ومواعظه الرعوية التي طوّف بها في مختلف بلاد العالم على نحوٍ يدعو إلى أشدّ العجب من هذا البابا الرحّالة السندباد الجوّي! ذلك ان وسائل منع الحمل لا تقتل كائناً حياً، وإنَّما تمنع من ولادة كائن حيّ.

٣ ـ والتيارات الاسلامية المتطرفة تجعل من المرأة مشكلتها الأولى، فتريد ان تتدخل في تحديد ملابسها وعملها وسيرها وسعيها للرزق وتعليمها وسائر أمورها. ذلك ان بعض أصحابها أفلسوا من العلم والأخلاق التي هي الفضائل في التعامل بين الناس، فلم يجدوا وسيلة للإثارة وجذب الاهتمام بهم طمعاً في نيل السلطة غير هذا الهوس حول المرأة.

❀ ❀ ❀

والشعب السويسري معتدل في التدين، سواء أكان المرء كاثوليكياً، أم پروتستنتياً. ولهذا لم يكن لرجال الدين دور في الحياة السياسية، خصوصاً في القرنين الأخيرين. ومنعاً لاستفحال تأثير رجال الدين، نص الدستور السويسري في سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧٤ على منع اليسوعيين والطرق الدينية من الإقامة في سويسرة أو فتح مدارس خاصة بها، ومنع اقامة أديرة مكان ما يندثر منها، منع إنشاء أديرة جديدة. لهذا نجت سويسرة في المائة عام الأخيرة من الأضرار الحتمية الناجمة عن نفوذ رجال الدين في السياسة وفي الحياة العامة.

والمتردّدون على الكنائس في سويسرة قليلون، بل نادرون فيما يتعلق بالكنائس الپروتستنتية.

وقد أشرنا من قبل إلى انه من الأوهام الشائعة ان يقال ان جنيڤ، مقر دعوة المصلح الديني كلڤان Calvin، متأثرة بصرامة أخلاق هذا الرجل. بل العكس

هو الصحيح: إنَّ أهلها اكثر أهالي سويسرة مرحاً وإقبالاً على اللذات في الحياة وترخصاً في العلاقات بين الرجل والمرأة. وما اكثر الأوهام الكليشيهات التي يردّدها الناس، وخصوصاً الكتّاب والصحفيون، دون وعي ولا تفكير!

وبسبب عدم الاكتراث للدين شاع التسامح، ووجدت النحل والملل المختلفة مناخاً صالحاً فكثرت الجماعات الدينية الصغيرة الدولية الطابع مثل البهائية والقاديانية من بين الفرق المنبثقة في ديار الاسلام، ومجدّدي التعميد Anabaptistes والسبتيين Adventistes والعنصريين Pentecôtistes وعشرات غيرها من الفرق المسيحية الصغيرة، والمذاهب الثيوصوفية العديدة المتأثرة بالغنوص او بالديانات الهندية.

اما اليهود فعددهم في سويسرة ٢٠,٢٦٨ من عدد السكان البالغ ستة ملايين وسبعمائة ألف بحسب احصاء سنة ١٩٧٠، أي بنسبة ٠,٣٪، لكن ١١,٩٧٧ فقط منهم هم مواطنون سويسريون يحملون الجنسية السويسرية، والباقون (٨,٢٨٩) أجانب، أي ان نسبة اليهود السويسريين الى عدد السكان السويسريين هو ٠,١,٥٪ (أي ١,٥ بالألف). وأهم مواطنهم في زيورخ (٥٤٧٧ يهودي) وجنيف (٣١٢٨) ولوزان (١٣٩٤) وبازل (٢٠٧١) وبرن (٥٦١). وهم في تناقص مستمر لأنَّ معدل المواليد هو اقل من ولدين لكل أم يهودية.

وقد صدر قانون فدرالي في سنة ١٨٩٢ يمنع اليهود من الذبح على الطريقة اليهودية (كوشير) واستمر باقي المفعول حتى اليوم، رغم محاولات اليهود العديدة لإلغائه، وآخرها محاولة في سنة ١٩٧٧ لكن البرلمان رفضها.

وفي الجيش لا يجوز ان يصل اليهودي إلى أعلى من رتبة مقدّم (بكباشي).

والزواج المختلط بين يهودي وغير يهودية (أو يهودية وغير يهودي) بلغ في احصاء سنة ١٩٧٦ ـ ٨٩ زواجاً من اجمالي ١٩٥ زواجاً لليهود (فيه كلا الطرفين او احدهما فقط يهودي).

والشعب السويسري بصفة عامة في كل تاريخه حتى اليوم يكره اليهود ويحذرهم ويعمل على ابعاد تأثيرهم سواء في السياسة وفي الاقتصاد والمال. ولهذا فإنّه لا اثر لليهود في سويسرة في السياسة وفي الاقتصاد والمال.

❀ ❀ ❀

وفي ميادين الأدب والفكر والفن لا يشارك السويسريون بنصيب بارز، فضلاً

عن ان انتاجهم الأدبي يحيا في ظل الآداب التي تنتجها الدول الكبرى الثلاث المحيطة بها والتي تشاركها في اللغات: الأدب الألماني، الأدب الفرنسي، الأدب الايطالي، حتى ان الناس تعوّدوا ان يدرجوا الأدباء السويسريين ضمن تاريخ هذه الآداب.

ورغم ذلك يستحق الذكر بين أدباء سويسرة:

أ ـ في اللغة الألمانية: يرميا جوتهلف Gotthelf (١٧٩٧ ـ ١٨٥٤) وهو قصصي يستلهم الأساطير والمناظر السويسرية؛ وجوتفرد كلر Gottfred Keller (١٨١٩ ـ ١٨٩٠) صاحب قصة «هينرش الأخضر» وهي من روائع القصص الألماني؛ وكونراد فرديناند ماير Mayer (١٨٢٥ ـ ١٨٩٨) وهو شاعر وقصصي بارز؛ وكارل اسپتلر Carl Spitteler (١٨٤٥ ـ ١٩٢٤) الشاعر الكبير صاحب ملحمة «الربيع الأولمپي» (١٩٠١ ـ ١٩٠٤) والحاصل على جائزة نوبل في الآداب سنة ١٩١٩؛ وجون كنتل John Knittel (١٨٩١ ـ ١٩٧٠) القصصي صاحب قصة Via Mala. ومن الأحياء المعاصرين: فريدرش دورنمات Dürrenmate (وُلِدَ سنة ١٩٢٤) المؤلف المسرحي الذي ترجمنا له مسرحية «علماء الطبيعة»؛ وماكس فرش Frisch (وُلِدَ سنة ١٩١١) القصصي («صحراء المرايا» سنة ١٩٦٤) والمؤلف المسرحي («السور الكبير» سنة ١٩٤٦، «دون جوان أو حب الهندسة» سنة ١٩٥٣، «يبدر من ومشعلو الحرائق» سنة ١٩٥٨ الخ).

ب ـ في اللغة الفرنسية: جان جاك روسو Rousseau (١٧١٢ ـ ١٧٧٨)؛ ومدام دي ستائل Stäel وبنجامان كونستان واميل Amiel صاحب «اليوميات» البالغة العمق في التحليل الذاتي (١٨٢١ ـ ١٨٨١)؛ وشارل فرديناند رامو Ramuz (١٨٧٨ ـ ١٩٤٧) صاحب قصة «الرعب الكبير في الجبل» (سنة ١٩٢٦) التي لخّصناها في جريدة «الأهرام»؛ وبليز سندرار Blaise Cendrars (١٨٨٧ ـ ١٩٦١)؛ مؤلف «الذهب» (١٩٢٥) و«الانسان الصريع» (١٩٤٥) و«خذني إلى نهاية العالم» (١٩٥٥).

وأولئك أدباء منشئون. وهناك الكثير من نقّاد الأدب ومؤرخيه: مثل اميل اشتيجر Staiger في المنطقة الناطقة بالألمانية وألبير بيجان A. Reymard, Begguin في المنطقة الناطقة بالفرنسية.

وفي تاريخ الحضارة يبرز عَلَم عظيم هو يعقوب بوركهرت Berckhardt (١٨١٨ ـ ١٨٩٧) صاحب كتاب «حضارة عصر النهضة في ايطاليا»، و«عصر

قسطنطين الكبير» و«تأملات في التاريخ العام».

وفي علم النفس تجلى في هذا القرن عالمان عظيمان هما: جوستاف يونج Gustav Yung (١٨٧٥ ـ ١٩٦١) وجان پاجيه (١٨٩٦ ـ ١٩٨٠).

وفي اللاهوت كارل بارت Barth (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨).

والحياة الثقافية نشيطة. وقد شاركت في «اللقاءات الدولية» التي تعقد كل عام في شهر سبتمبر في مدينة جنيف، وتحضرها شخصيات فكرية وأدبية لامعة، وفيها تلقى المحاضرات المصحوبة بالمناقشات التي تدور كل عام حول موضوع محدّد: فمثلاً في سبتمبر سنة ١٩٥٦ كان الموضوع هو: «مشكلة القدماء والمحدثين» وقد اشترك فيه دانيل روبس D. Ropis الكاتب الكاثوليكي صاحب المؤلفات الواسعة الانتشار عن «يسوع في عصره» وتاريخ الكنيسة؛ وفي مقابله اشترك فيها اتيامبل Etiemble الأستاذ في السوربون، المتحرر من كل عقيدة، والداعي إلى التسامح والنزعة الانسانية الشاملة؛ وهو مجادل لوذعي حادّ الهجوم، فكان الجدل بينه وبين روپس حادّ النبرة مثيراً ممتعاً.

وقد طلب منّي المشرف على هذه «اللقاءات الدولية» الأستاذ رابل Rabel، الاشتراك في هذه المناقشات بالتحدّث عن الموقف في الاسلام تجاه هذه المشكلة: مشكلة القديم والحديث. فرحت أُفكّر، فوجدت أنّني لو قلت رأيي الحرّ فلربما استغلّه المتربصون بي من رجال السفارة المصرية؛ ولو شايعت الرأي التقليدي المحافظ لأسأت إلى مكانتي العلمية المعروفة عنّي. لهذا آثرت العافية، فاعتذرت عن المشاركة.

وأذكر من الشواهد على هذا التربص للدّس، ان طالبين توفيا في جنيف مختنقين بالغاز في مسكنهما. ومن بين مراسم تشييعهما كان اجتماع تأبيني في قاعة بكلية الطب بجامعة جنيف. وألقيت أنا خطبة التأبين، ومن بين ما قلت فيها قلت: «إنّهما رحلا عنّا لسنا ندري إلى أين». وكان من بين الحاضرين الملحق العسكري وسوري خبيث دسّاس يعمل في مكتب الجامعة العربية؛ وبعد انتهاء التأبين قال هذا السوري الدسّاس (ويدعى زهير قباني) للملحق العسكري المصري (وهو لا يعرف الفرنسية، وكانت كلمتي بالفرنسية): هل أخذت بالك مما قاله د. بدوي؟ فقال الملحق العسكري: وماذا قال؟ فقال ذلك السوري الدسّاس: لقد قال «إنّهما رحلا في داهية!» ومن سذاجة ذلك الملحق ـ وكان يتظاهر بالتديّن الشديد ـ انه صدّق ذلك، وراح يتحدّث عن هذا الأمر. فمَن يدري! فربما كتب عنه تقريراً!

وأعود إلى مشاركاتي في الحياة الثقافية في سويسرة. فأقول إن شهرتي في الدراسات الخاصة بأرسطو كانت قد استفاضت في أوروبا. ولهذا دعتني الجمعية السويسرية للفلسفة، وكان على رأسها آنذاك جيجون Gigon الذي أشرف على اخراج تحقيق جديد لمؤلفات أرسطو النهائية، فشاركت في مؤتمرها الذي عقدته في برن.

كذلك كان يقيم في برن أستاذ ممتاز في الدراسات اليونانية هو الاستاذ ڤلي تيلر Willy Theiler، وكان في ذلك الوقت (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧) مكلّفاً بإعداد تحقيق جديد للنص اليوناني لكتاب «في النفس، لأرسطو». وكنت أنا قد نشرت الترجمة العربية القديمة لهذا الكتاب، والتي قام بها اسحق بن حنين. فاتصل بي كي أراجع معه النص اليوناني على الترجمة العربية، عسى أن تفيد هذه الترجمة في تقويم النص اليوناني في بعض المواضع المشكلة. فقمت معه بالمراجعة، وكتب في ذلك مقالاً، ثم ذكر ذلك في مقدمة النشرة المحققة التي قام بها، وهي تدخل ضمن مجموعة برلين لمؤلفات أرسطو.

وكنت على اتصال مع المستشرق السويسري البارز فرتس ماير Fritz Meier المختص في التصوف واللغة الفارسية وصاحب الأبحاث والترجمات العديدة في هذا الميدان. وهو الذي أوصاني بأحد تلاميذه، Reinert، فرشحته لمنحة مصرية، وسافر إلى مصر، وكان اختياراً موفّقاً فإن رسالته عن «التوكّل في التصوف الاسلامي» هي من الأبحاث الجيدة الراسخة القيمة.

وكان المستشرق السويسري، المقيم في اسبانيا سيزار دوبلر César Dübler حين يقدم إلى وطنه يمرّ عليَّ في برن فنقضي سحابة النهار معاً. وكان قد كرّس معظم أبحاثه لكتاب ديستوريدس في الحشائش في ترجمته العربية، وأصدر نشرة محققة ودراسة مفصّلة، تقع في خمسة مجلدات. وكانت وفاته المبكرة خسارة كبيرة للبحث في تاريخ الطب والعقاقير عند العرب.

كذلك أُتيح لي ان أحضر ثلاث محاضرات للفيلسوف الوجودي الألماني كارل يسپرز (١٨٨٣ ـ ١٩٦٩)، كانت المحاضرات الثلاث الأخيرة من الدروس التي يلقيها على الطلاب في جامعة بازل في الفصل الصيفي سنة ١٩٥٦. وكان الموضوع هو الأخلاق عند الأخلاقي الصيني لاؤتسيه. وقد لاحظت ان عدد الطلاب كان قليلاً لا يتجاوز العشرة. وكان صوته خفيفاً، مملاً، يبعث على النوم. وكان يقرأ من كراسة دوّن فيها محاضراته. وقد نشرها بعد ذلك في كتاب. وكانت

تحضر هذه المحاضرات أيضا زوجته، وهي يهودية بينما هو مسيحي، وكانت تكبره بأربع سنوات.

كذلك سمعته مراراً في الاذاعة السويسرية يلقي احاديث قصيرة بسيطة الأسلوب؛ واضحة.

الحياة اليومية في برن

والحياة اليومية في مدينة برن Bern هادئة رتيبة، لا يتخللها أيّ انفعال: فالناس مقبلون على أعمالهم في جد وتجلّد واجتهاد، تفتح المحلات أبوابها في الساعة السابعة والنصف صباحاً صيفاً وشتاءً وتغلق في الساعة السادسة والنصف. وسوق الخضروات والفواكه تقام من السادسة حتى العاشرة صباحاً في الميدان الفسيح المواجه للبرلمان. وفي الحادية عشرة لا تجد لها أي أثر: بل صار الميدان لامعاً مصقولاً كأنّه المرآة الصافية. وواجهات محال الجزّارين تمتع العين وتسيل اللعاب وعصارة المعدة معاً، لتفنّن القصاب السويسري في تقطيع اللحم وعرضه والافادة من كل جزء من الذبيحة. وهذا هو ما كان يغريني بالقيام بالطهو في منزلي في يومي السبت والأحد. وكل ما يشتاق اليه المرء من مواد طهي الأطعمة الأجنبية كان موجوداً في البقالات المتخصصة وأشهرها بقالة جفنر Gaffner. التي كانت متخصصة في استيراد المواد من بلاد الشرقين الأدنى والأقصى، وخصوصاً التوابل والأرز والشاي. والمطاعم الممتازة في برن عديدة، ومن أفخر ما تقدمه في الخريف لحوم الظباء والوعول مع العجائن المخلوطة بمربّى الجروزي Grascille وفي برن مصنع الشوكولاة الشهير: توبلر Tobler. لهذا كثرت فيها محال الحلوى المصنوعة من الشوكولاتة بأشكال لا تحصى ودُمى أغلبها على شكل «دبّة»، لأنَّ الدّبّة هي اشارة الرمزية لمدينة برن. وفي برن عرين دُبّة وصغارها، يُعَد من معالم المدينة.

ولا يقيم أهل برن أي وزن اقتصادي لوجود السلك الدبلوماسي فيها، لأنَّ أعضاء السلك الدبلوماسي شديدو البخل والكزازة، ويشترون معظم حوائجهم - حتى الأطعمة! - من تاجرين دوليين متخصصين في البيع للدبلوماسيين بدون ضرائب جمركية احدهما يدعى وسترمان (ومقره في كوبنهاجن)، وغالباً ما يكتفون في عشائهم بما عسى ان يلتقطوه من فتات الموائد في حفلات الكوكتيل! خصوصاً إن كانت حفلة الكوكتيل بمناسبة العيد الوطني، إذ تتسع الدعوات لتشمل أكبر عدد

من الدبلوماسيين حتى السكرتيرين الثوالث بل والملحقين الدبلوماسيين! وكانت أفخر هذه الحفلات في برن تلك التي تقيمها سفارة الصين الشعبية بمناسبة عيدها القومي، فتتوافر فيها الديوك الرومية وأسماك السلمون والشبوط. أمَّا الحفلة التي كان يقيمها السفير المصري في العيد الوطني (٢٣ يوليو) فلا تعثر فيها إلاّ على العِصي المملّحة Bâtons Salés!! والمسؤولية في هذا تقع على عاتق وزارة الخارجية المصرية، لأنَّها تعطي بدل التمثيل كجزء من مرتب السفير، ولهذا يقتنصه لنفسه، ولا ينفق منه إلا القليل جداً على هذه الحفلة وغيرها من المظاهر، مع ان من المفروض فيه ان ينفق بدل التمثيل كله على هذه الأغراض. والحكومات الأخرى في معظم البلاد الحريصة على كرامتها ومالها، لا تعطي السفراء بدل تمثيل لهذه الأغراض؛ وإنَّما يكون الانفاق على الحفلات من اعتماد خاص في السفارة لهذا الغرض، يصرف منه بحسب ايصالات (فواتير) معتمدة، على ألاَّ يتجاوز حداً معيّناً، تماماً كما شأنه في الانفاق على المشتريات اللازمة لصيانة وتأثيث السفارة. وعبثاً يلفت المرء نظر المسؤولين في مصر الى هذا الوضع الفاسد المبدّد للأموال، لأنَّ المصدّرين في وزارة الخارجية هم سفراء في قاعة انتظار السفر إلى مواقع في الخارج!!

ولكزازة رجال السلك الدبلوماسي فإنَّ أهل برن يكرهونهم وكثيراً ما يضعون القاذورات في سياراتهم الواقفة!

ونهر الآر Aar ـ وهو أحد فروع نهر الراين الكبير ـ يعانق برن ويلتوي في أحضانها متدفقاً بقوة في أواخر الربيع وبجلال وامتلاء طوال الصيف، وبهدوء إبّان الخريف! وغالباً ما يتجمد في الشتاء. وعليه جسور عديدة أجملها جسران: جسر كرشنفلد، وكنت أجتازه مرتين أو أربع مرات كل يوم، ومنه يتطلع المرء إلى قمة جورتن Jurten المشرفة على برن ويربط بين قلب برن وبين منطقة كرشنفلد التي تكثر فيها الحدائق حول المنازل فهي بمثابة مدينة البساتين Garden City. والجسر الآخر هو المقابل له في الطرف المقابل من برن ويصل قلب المدينة من الناحية الأخرى بمنطقة الكورسال Kursaal، ويشرف على وادٍ فسيح حافل بالأشجار السامقة.

وبين الجسرين يقع الحيّ الارستقراطي العريق في برن. وكانت تسكنه الأُسَر الارستقراطية، ولا تزال لبقاياها بيوت فيه. وأرستقراطية برن هي أنبل الأرستقراطيات السويسرية، وهي صاحبة الفضل الأكبر في التمكين لقوة برن في

الاتحاد السويسري طوال تاريخه فهي التي نظمت القوة العسكرية لمقاطعة برن، وبها أمسكت بزمام الاتحاد السويسري، وضمّت ما ضمَّ إلى نواة الاتحاد من مقاطعات. وقد وصف هيجل قوة هذه الارستقراطية البرناوية (نسبة إلى برن) ومناوراتها السياسية، وقد بدأ حياته بالعمل مربّياً في احدى أُسَرها. لكن لم يبق اليوم من هذه الارستقراطية البرناوية إلاّ أفراد قلائل يميزون بحرف فون (مثل فون جرافنريدVon (Von Grafeuried، لكن لا حول لها في السياسة ولا في الاقتصاد.

ويشق برن حارة طويلة تمتد من ميدان المحطة حتى نهاية برن عند الجسر المؤدِّي إلى مغارة الدببة. وتتخذ ثلاثة أسماء في مسارها: حارة المستشفى Spitalgarse، فحارة السوق Marktg فحارة كرام Kramgarse وفي بدايتها ساعة فريدة يخرج منها في الساعة الثانية عشرة تماماً فرسان يدق كل واحد منهم دقة حتى تكتمل اثنتا عشرة دقة. وعند بداية الحارة الثانية والحارة الثالثة بوّابة ضخمة من الحجر المتكتلّ. ويزعم البعض ان طراز بناء هذه الحارات قد صُمّم لتكون بمثابة تحصينات. وهو زعم لا أساس له، لأنَّ المنازل القائمة على هذه الحارات مكشوفة من سائر نواحيها. وليس حول برن أسوار عالية تحميها من المهاجمين كما هي الحال في المدن الحصينة في العصور الوسطى.

وليس في برن أماكن للسهر واللهو، على نحو ما نجد في جنيف ولوزان وزيورخ. والمكان الوحيد الذي يلجأ إليه الناس للسهر، خصوصاً ليلة الأحد، هو قاعة الكورسال، وتحتوي على صالة رقص واسعة جداً، وعلى غرفة صغيرة للقمار فيها لعبة الكرة Boulespiel، والرهان فيها بفرنك أو فرنكين على الأكثر (وصار بعد ذلك بخمس فرنكات). فإن وقفت الكرة على الرقم الذي وضع عليه الرهان كسب المراهن ستة أضعاف رهانه. وعدد الأرقام ٩. ولهذا فإنَّ الدول المجاورة المحيطة بسويسرة أنشأت في بلدان الحدود نوادي للقمار بشتى أنواعها: ففرنسا لها نوادي قمار في مدينتي آن ماس Annemasse وديڤون Divone الملاصقتين لجنيف، وفي اڤيان المواجهة للوزان؛ وألمانيا هيأت نادياً للقمار في مدينة كونستانس؛ وايطاليا هيأت نادياً في كمپيوني Campione ينفرد عن غيره من نوادي القمار بأن الرهان فيه غير محدود القيمة، بينما له حد أعلى في سائر نوادي القمار. وعن طريق هذه النوادي تقتنص هذه الدول الثلاث أموال المقامرين السويسريين: وبهذا تخسر سويسرة مرتين: أموال

أبنائها، والضرائب المفروضة على المراهنات.

لكن في برن داراً للتمثيل والموسيقى لا بأس بها، وتعرض فيها الأوپرات الكلاسيكية إمَّا بواسطة فرق موسيقية سويسرية أو أجنبية. لكنها لا تقاس ابداً إلى أوپرا مدينة زيورخ ذات المكانة العالمية. ولم ينبغ في برن قائد اوركسترا مثل ارنست أنسرميه Ernest Ansermet في جنيڤ (١٨٨٣ ـ ١٩٦٩).

ولم يفد على برن محاضرون ممتازون طوال اقامتي بها؛ لهذا لم أسمع غير محاضرتين: إحداهما لپياجيه J. Piaget عن ذكاء الطفل، والثانية لرجل دين طوّاف كانت له آنذاك شهرة واسعة ويلقب بـ Abbé Pierre وكان خطيباً مقوالاً مؤثراً، لكني لم أسمع عنه بعد ذلك.

لهذا كانت حياتي اليومية في برن رتيبة جداً من العاشرة حتى الواحدة، ثم من الرابعة حتى السادسة في مكتبي بشارع ڤابرن أُعالج شئون الطلاب، ومن السادسة إلى الثامنة في مقهى بشارع حارة السوق، يدعى Embassy. ومرة في الأسبوع ـ ما عدا السبت، أتردّد على الكورسال.

وفي أثناء هذا كله أختلس بعض الوقت للقيام بنشاطي العلمي. وكان محدوداً بحكم الظروف، فالمراجع التي أعود إليها في أبحاثي العلمية ليست في متناول يدي، ومكتبة برن، وهي مكتبة وطنية فخمة البناء في حي كرشنفلد، لا تحتوي إلاَّ على الكتب الخاصة بسويسرة أو بالكتّاب الذين ارتبطوا بسويسرة، ومن هنا لم تفدني إلاَّ في المحاضرة التي ألقيتها عن الشاعر رلكه Rilke: إذ فيها جميع مؤلفاته وعدد لا بأس به من الكتب المؤلّفة عنه.

ومن هنا اقتصر انتاجي العلمي، طوال السنوات الثلاث التي أمضيتها في برن، على الترجمة وتحقيق النصوص:

١ ـ ترجمة «دون كيخوته» لثربانتس، وكنت قد أحضرت معي شرح رودريجث مارين عليها؛ وقد طبعته في القاهرة في جزئين سنة ١٩٦٤ وسنة ١٩٦٦.

٢ ـ ترجمة بحث يوليوس ڤلهوزن بعنوان: «أحزاب المعارضة الدينية السياسية في صدر الاسلام: الخوارج والشيعة»، وقد طبعته في القاهرة لدى عودتي، وذلك في سنة ١٩٥٩.

٣ ـ تحقيق «رسائل ابن سبعين»، وقد طبعته في القاهرة سنة ١٩٦٥.

بيد أنّني اقتنيت عدداً وافراً من الكتب الألمانية، يصل إلى حوالى الف

وخمسماية كتاب، اشتريتها من مكتبات بيع الكتب القديمة في برن وزيورخ وبازل وجنيف.

جولاتي في سويسرة

بيد أنّي كنت أقضي أيام الآحاد كلها دون استثناء في التنقل في أنحاء سويسرة، حتى لم أدع فيها مكاناً لم أزره، مهما كان نائياً عن برن: فحين يكون المكان بعيداً كنت أبدأ الرحلة بعد ظهر يوم السبت، وأعود احياناً في الصباح الباكر من يوم الاثنين، وفي العطلات الرسمية الطويلة (الأعياد) كنت أمضي ثلاثة أيام أو يزيد. لهذا أستطيع ان أقول بكل اطمئنان إنّني زرت كل مدينة في سويسرة، وزرت المئات من القرى الصغيرة المحلقة على سفوح وقمم الجبال او قيعان الأودية. صحيح ان مساحة سويسرة صغيرة نسبياً (٤١,٢٨٨ كلم^{2})، لكن تضاريسها تزيد في مساحتها. وتنوّع من مشاهدها، وتجدّد في مناظرها. ومن أسف أنني لم اجد أحداً قاس مساحة سويسرة بحسب مساحة جبالها وأوديتها؛ إذن لكانت أضعاف مساحتها السطحية؛ التي تذكر وحدها حين التحدث عن مساحتها.

لكن النفس، مهما تكن شديدة الحساسة، كلما تعودت على المناظر الجميلة قلَّ تأثرها بها. ولهذا فإن انطباعاتي في هذه الأسفار كانت أقل حرارة من انطباعاتي لزيارتي الأولى لسويسرة في أغسطس ـ سبتمبر سنة ١٩٤٦ والتي عبّرت عنها بانفعال عارم في كتابي «الحور والنور». وحتى الأماكن التي لم أُشاهدها في سفرتي الأولى هذه لم يكن لها تأثير بارز في نفسي ابان زيارتي لها أثناء مقامي الطويل في سويسرة.

وهذا يفسّر لماذا كان السويسريون أقل شعراء العالم وَصْفاً للطبيعة. ذلك انهم نشئوا منذ نعومة أظفارهم بين هذه المشاهد الطبيعية الرائعة الجمال، وتعوّدوا عليها، والعادة تفُلُّ من ارهاف الحساسة فلا تتأثر كثيراً بالجمال مهما سمت درجته في الجمال.

فعلى نقّاد الأدب أن يحسبوا حساب هذه الواقعة، وان يطّرحوا آراءهم التافهة في تأثير الوسط.

فإن قيل: ولكن الشعراء كثيراً ما يصفون بيئتهم ـ قلنا: إنهم ان وصفوا بيئتهم فلأنهم لم يعرفوا غيرها؛ ثم انهم لا يصفون منها إلاَّ ما هو شاذ غريب فيها يلفت النظر؛ أمّا المناظر والأمور المعتادة فلا يصفونها.

لهذا كان أكثر ما يأخذ بلبّي في المناظر السويسرية ما لم أَنَشَّأ عليه في وطني: الجبال الشامخة السوداء، والينابيع المتدفقة من شقوق الصخور، وغابات الزان والشوح والشربين، والبحيرة الشديدة التعرُّج في المقاطعات الأربع Vierwald Städtersee، والصخور المعلّقة في نتوءات الجبال تكاد أن تنقض. والثلوج وهي تتلألأ على قمم الجبال في ضوء الشمس.

شخصيات ظريفة في برن

وفي برن شخصيات ظريفة طريفة تثير الضحك او التعجب:

١ ـ منها بائع صحف، كان متخصصاً في بيع جريدة برن اليومية Der Bund (= الاتحاد) وكان يقف على رصيف محطة الترام الكائنة في ميدان محطة السكك الحديدية. رأيته لأول مرة في أغسطس سنة ١٩٤٦، ولما عدت إلى برن في فبراير سنة ١٩٥٦ وجدته في نفس مكانه لا يتحول عنه، وينادي بنغمة خاصة على جريدة «البوند» بنبرة للحروف خاصة به. وفي فمه دائماً سيجار رفيع طويل جداً، يبلغ طوله ثلاثين سنتيمتراً او يزيد. وكان طويل القامة مسنون الوجه نحاسي البشرة وعلى رأسه قبعة مثل الطاقية عليها كتب اسم الجريدة. وقد تقاعد من هذا العمل، بعد ان أمضى فيه خمسين عاماً، في سنة ١٩٥٨ وكتبت عنه جريدته مقالاً بهذه المناسبة بوصفه مثالاً للمثابرة على العمل الواحد بتفان وإخلاص.

٢ ـ ومنها طالب في العشرين من عمره كان يتقن الرقص بكل أنواعه الجديدة: وكان الجديد آنذاك هو قصة الرول آند روك، وخصوصاً المصحوب بأغاني الفس پرسلي وكان آنذاك في بداية شهرته. فكان هذا الطالب في يوم الاثنين من كل اسبوع يغشى مرقص الكورسال، وبحركاته البهلوانية النشيطة يحيل «الپيست» (أرض الرقص) إلى دوَّامة عاصفة، مراقصاً هذه، ومخاصراً تلك، وملوّحاً بذراعه الطويل من فوق الراقصين بتيه وافتخار. ولا أظن ان شاباً هذا شأنه كان له في الدراسة الجادة نصيب.

٣ ـ وفي قاعة القمار بلعبة الكرة كنت ترى وجوهاً غريبة: امرأة عجوز ضخمة البنية كانت تردّد دائماً، كلما وقفت الكرة على رقم ٥، : خمسة طيبة (بلهجة عامية سويسرية برناوية هكذا Fifi Icsh Gut)، لهذا كانت تعرف بهذه العبارة: فيفي اش جوت». فإذا وقفت الكرة على الرقم ٥ صاح في الحال بعض الماكرين: «فيفي اش جوت»!! ولما كان قانون القمار في سويسرة لا

يسمح بأن تزيد الرهان في كل مرة على فرنكين، فقد وجدت فرقة من الناس، معظمها من العمال الفقراء والعمال الايطاليين، مهمتها ان يضع كل واحد منها رهاناً بفرنكين يعطيه له مراهن كبير، ويضع الرهان على الرقم الذي يختاره المراهن الكبير. فإذا وقفت الكرة على الرقم المختار، حصّل كل واحد منهم الربح وهو ١٤ فرنكاً واحتفظ لنفسه بفرنكين وأعطى المراهن الكبير ١٢ فرنكاً. وتستمر العملية عدة مرات بقدر ما يريد المراهن الكبير. وبهذه الوسيلة يتحايل هذا على القانون الذي لا يسمح للمراهن الواحد بأن يراهن بأكثر من فرنكين اثنين. وفرقة «المساعدين» هذه كانت موجودة باستمرار، وإنَّما يتغير أفرادها ين الحين والحين.

وأرباح قاعة القمار هذه يذهب قسم منها إلى بلدية برن، والقسم الأكبر إلى أصحاب ملهى الكورسال.

٤ ـ وفي شهر مايو يتوافد على المطاعم والمقاهي أفراد أو جماعات يلبسون الملابس الوطنية، وينفخون في مزمار خاص معزوفات جبلية لها موسيقى خاصة تُسمَّى Jodeln تعتمد على تنغيم بالحنجرة لولبي. وهذا اللون من العزف او النفخ في جبال سويسرة، وله نظير في جبال جنوبي ألمانيا وجبال النمسا الغربية. والناس هناك يعجبون به، أما أنا فلم أطرب له، بل وجدته ثقيلاً على الأذن، خالياً من التطريب. وكثيراً ما كنت أسأل مَن أعرف من السويسريين هل يطربون حقاً من هذا اللون من العزف. فكانوا يحارون في الجواب.

لكن الأمر هنا هو كالأمر بالنسبة إلى ما أسميه بالأدوات الموسيقية المحلية: فنحن في مصر مثلاً قد نطرب للنفخ في الأرغول، او السلّمية؛ لكنّي واثق أنّه لا يطرب لهذا اللون احد في العالم غيرنا، ولا في أي بلد عربي آخر. ومثل هذا يقال عن كل أدوات الموسيقى المحلية في العالم كله: لا أحد يطرب لها إلاّ أصحابها المحلّيون. انها تثير حب الاستطلاع عند الآخرين، وليس أكثر من ذلك. ولهذا فإنَّ من الحماقة ان تطالب الآخرين بأن يطربوا لما نطرب له محلياً.

تبقى وحدها الموسيقى الرفيعة: فإنّها عالمية، تخاطب الجميع على سواء. لكن لا يقدرها حق قدرها إلاّ الصفوة من الناس.

والموسيقى العربية هي من النوع المحلّي، ولهذا لا تطرب إلاّ العرب، ومن الادعاء الأحمق ان نطالب غير العرب بأن يطربوا لها.

الأمن والجاسوسية في سويسرة

شاع بين السُّذّج من الناس ان الأمن مستتب تماماً في سويسرة، وان المنازعات بين الناس قليلة في كل الأمور، حتى المدنية منها. واستولى هذا الوهم على رجال القضاء في مصر؛ حتى ان أحدهم ـ وكان آنذاك رئيساً لمحكمة النقض أو نائب رئيس، لا أذكر على وجه التحديد ـ كتب مقالاً في «الأهرام» زعم فيه أنّه زار احدى المحاكم في سويسرة، فذهب في التاسعة صباحاً فلم يجد أحداً غير رجل يقوم بكنس المحكمة وتنظيفها. فسأله: متى تبدأ المحاكمة؟ فقال الرجل.. المحكمة فتحت من الساعة الثامنة، لكن لا يوجد متقاضون. فسأله: وأين القاضي لألقاه، فأنا رئيس (أو نائب رئيس) محكمة النقض في مصر: فقال الرجل: أنا القاضي. فاستولت الدهشة التامّة على رئيس محكمة النقض المصري، وتلعثم ولم يدر ما يقول. وأردف القاضي السويسري (المزعوم) قائلاً: نحن نفتح المحاكم في الثامنة صباحاً وننتظر أن يحضر متقاضون. وفي الغالب لا يحضر احد، لأنه لا توجد منازعات إلا في النادر. وفي الساعة العاشرة أُغلق المحكمة وأعود إلى منزلي.

هكذا والله كتب رئيس محكمة النقض! فيا لها من سذاجة وغفلة! ألا يعلم هذا الرجل ان القضايا تعرض على المحاكم وفقاً لمواعيد محدّدة، يعرفها المتقاضون والمحامون الموكّلون في هذه القضايا؟ ألا يعلم أن للقاضي في سويسرة كرامته ومكانته، فكيف يعقل ان يقوم بتنظيف المحكمة؟! وهل المحكمة السويسرية مثل دار العمدة في القرية المصرية، يأتيها مَن له مظلمة؟!

امَّا أن يكون هذا القاضي المصري «الكبير» قد ذهب إلى مكتب موثق عقود، وإمَّا انه لم يذهب إلى أية محكمة، ولكنه عاد إلى مصر وأراد ان يتباهى بما رآه من عجائب القضاء في سويسرة، فاخترع هذه الحكاية الدالّة على منتهى الغفلة والسذاجة.

كلا، يا حضرة القاضي الكبير! إنَّ القضايا التي تعرض على المحاكم في سويسرة عديدة جداً، والقضاة فيها يشكون من كثرة المعروض منها في «الرول». والقضاء هناك ـ لهذا السبب ـ بطيء، وقد يستغرق نظر القضية الواحدة العادية عدة سنوات. فما بالك بالقضايا المعقدة! والمحامون عديدون جداً، لكن هذه ليست مشكلتهم الرئيسية إنَّ القضايا وفيرة جداً، وإنَّما مشكلتهم هي ان المحامي الذي اتخذ له محلاً مختاراً في مدينة بإحدى المقاطعات، لا يحق له آلياً ان يترافع في

قضايا معروضة على محاكم في مقاطعة أخرى، إلاَّ بإذن خاص. إنَّ المحامي في أسوان يستطيع ان يترافع في أية محكمة أخرى في مصر من الاسكندرية (أو دمياط) حتى أسوان، دون ان يطلب إذناً خاصاً. وكذلك الشأن في سويسرة، وايطاليا، وأسپانيا، وانجلترة وغيرها. أمّا في سويسرة فالأمر مختلف: المحامي لا يحق له ان يترافع إلاَّ أمام المحاكم الداخلة في نطاق المقاطعة التي اتخذ فيها محلاً مختاراً له؛ اللهم إلاَّ بإذن خاص.

مُحَصّل هذه التجربة

وقد غادرت سويسرة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٥٨ بعد اقامة مستمرة امتدت من ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٦. وخرجت من هذه التجربة بالنتائج التالية:

أوّلاً فيما يتعلق بالعمل مديراً للبعثة التعليمية:

١ ـ كان المبعوثون الحكوميون أفضل بكثير جداً من الدارسين على حساب أهليهم؛ وهذا طبيعي لأنَّ المفروض في المبعوثين الحكوميين انهم اختيروا بحسب كفايتهم العلمية وتفوّقهم على غيرهم من المتقدمين للترشيح في بعثة حكومية. ومع ذلك فإنَّ هذه القاعدة العامة شابتها مخالفات، فأوفد في بعثة حكومية مَن لا يستحقونها، وكانت النتيجة تعثرهم تعثراً كاملاً أحياناً، أو تأخراً في مدة تحصيل الدكتوراه. وكان من أسباب سوء اختيار المبعوثين انفراد إدارة البعثات بهذا الاختيار، مما مكّن أحياناً من عدم مراعاة العدالة في الاختيار. وكان العلاج لهذا هو ان تتولى الجهة الموفدة ـ الجامعات أو المدارس العليا ـ وحدها اختيار مبعوثيها دون أي تدخل من جانب ادارة البعثات. ولهذا، بعد عودتي، ألححت في تطبيق هذا المبدأ، لكن دون جدوى، لأنَّ الوزير ورجالاته في الوزارة أرادوا الابقاء على سلطتهم حتى يتدخلوا لصالح مَن يريدون.

لكني لاحظت على كلا الفريقين: الحكومي والأهلي أنهم لا يحسنون اللغة الأجنبية للبلد الذي يدرسون فيه: الألمانية للذين يدرسون في المقاطعات الألمانية اللغة، والفرنسية لمَن يدرسون في المقاطعات الفرنسية اللغة. ومعظمهم كان لا يعرف الكتابة بلغة البلد الذي يدرس فيه؛ وهي ظاهرة دهشت لها من أول حضوري؛ لأنّي ووجهت بطلبات دفع مبالغ معلومة مقابل كتابة الرسائل! ووجدت ايصالات لمبالغ دفعها من كان يتولى ادارة البعثة في سويسرة نظير كتابة الرسائل. فقررت وضع حد لهذه المهزلة الغريبة.. طالب أمضى في زيورخ خمس سنوات،

وتلقى محاضراته باللغة الألمانية طوال تلك المدة، ومع ذلك لا يستطيع ان يكتب بالألمانية رسالة من خمسين صفحة فيها الكثير من الرسوم والحسابات والمعادلات!! وزاد عجبي حينما وجدت المدرسة الفيدرالية التكنولوجية العليا ETH وفيها كان معظم المبعوثين من المهندسين ـ تسمح للطالب ان يقدم رسالة بالانجليزية أو الألمانية أو الفرنسية!! ما الفائدة إذن في إيفاد هؤلاء المبعوثين إن كانوا لا يستطيعون كتابة الرسالة بإحدى هذه اللغات رغم اقامتهم في سويسرة خمس سنوات أو يزيد!!

وقد وافقت الإدارة العامة للبعثات على قراري هذا بعدم دفع أية مبالغ لقاء كتابة الرسائل بلغة أجنبية. وطبعاً شكا هؤلاء الطلاب، لكن لم يحفل أحد بشكواهم. وكان الأحرى بهم ألاَّ يفضحوا أنفسهم هذه الفضيحة الشائنة!

أما آراؤهم السياسية في الأحوال في مصر، فقد رأيت ألاَّ أتدخل فيها بأي حال من الأحوال. وهذا هو ما أسخط الملحق العسكري الذي كان يريد استغلالهم، ومن أجل ذلك كان يلحّ عليّ باستمرار ولدى الوزير في انشاء نواد لهم لتسهل مراقبة آرائهم. فوقفت بحزم تام ضد هذا الاقتراح، ولم يتحقق منه شيء طوال مدة عملي. لقد عجبت لهذا التدخل من جانب الملحق العسكري. ألم يكن الأجدر به ان يهتم بمهمته التي من أجلها عيِّن في وظيفته، بدلاً من ان ينصرف عنها إلى التجسّس على اتجاهات الطلاب وآرائهم في أحوال بلادهم!

وكان هذا تصرفاً حكيماً منِّي. لأنَّ منَ خَلَفَني ـ وكان ضابطاً في الأصل برتبة بكباشي ـ حاول التدخل في أفكار الطلاب السياسية، فكانت النتيجة ان بعضهم اعتدى عليه بالصفع والركل في أول اجتماع عقده لهم! وتمشياً مع المبدأ الذي اتخذته؛ فإنِّي كنت أرفض الاستماع إلى أية وشاية من طالب على طالب آخر فيما يتعلق بالأمور السياسية او السلوك الشخصي، رغم تطوع البعض لهذه الوشايات والدسائس، خصوصاً وأنا أعلم تمام العلم انها لا تصدر عن اخلاص في الوطنية او الأخلاق، بل تصدر دائماً تقريباً عن منافسات شخصية بين الواشي ومَن وشى بهم. ولما وجد هذا النفر الخسيس من الطلاب ان بابي موصد تماماً امام وشاياتهم، اتجهوا بها إلى باب الملحق العسكري، مما كان له عواقب وخيمة بالنسبة لهم؛ وأدّى الغرور بأحدهم الى حد وضع رمز C.D على سيارته، وقد انتهى به الأمر إلى السجن بعد محاولة سطو على كهف خمور!! على الرغم من انه كان من أسرة ثرية جداً في مديرية المنيا!

ثم إنَّ بعض الطلاب الأقباط كانوا يتخذون أساليب خسيسة لتحقيق مآربهم

بأقل مجهود: بأن يستدروا عطف ـ او انحياز ـ أساتذتهم بادعاء ان الأقباط مضطهدون في مصر لأنهم مسيحيون لهذا يطلبون من الاستاذ المسيحي ان يمنحهم الدكتوراه بأيسر طريق. التقيت ذات يوم بأستاذ الرياضيات في جامعة برن، واسمه Mevier. فسألني: هل صحيح ان الأقباط مضطهدون في مصر؟ فقلت له: مَن قال لك هذا؟ فقال: الطالب الذي يحضّر معي الدكتوراه. فقلت له: هذا الطالب كذاب أشر، وحقير البتة وجاحد. لأنّه لو كان ما يقول صحيحاً، فكيف اختير للإيفاد وفي بعثة حكومية؟! لو كان هناك اضطهاد، لكان الموفد مسلماً، وهناك عشرات بل مئات غيره من الطلاب المسلمين الحاصلين على البكالوريوس في الرياضيات من كلية العلوم في الجامعات المصرية؛ وانما تمَّ الاختيار وفقاً للمجموع، وتصادف في هذا العام ان كان الأول على البكالوريوس في الرياضيات قبطياً، ولهذا اختير، لهذا الاعتبار وحده وليس لأي اعتبار آخر. إنَّ هذا الطالب يظن بكذبه هذا انه يستدر عطفك، وأنت مسيحي، ليحصل على الدكتوراه بدون عناء ولا اجتهاد. وهذا اسلوب معروف جداً ومألوف لدى الطلاب الأقباط الذين يدرسون في جامعات أوروبية او أمريكية. فأرجو ألاّ تتأثر بكلامه هذا، وان يكون تعاملك معه بحسب ما يمليه عليك ضميرك العلمي وواجبك الذي ننتظره منك، ومن أجله أرسلناه إليك».

وفي اليوم التالي استدعيته وألقيت عليه درساً قاسياً جداً، حتى لا يلجأ إلى هذا الأسلوب الدنيء.

ثانياً: فيما يتصل بعملي مستشاراً ثقافياً:

كنت بحكم هذه الوظيفة عضواً في الهيئة الدبلوماسية. وكنت مستقلاً على ذلك عن السفارة استقلالاً تاماً، فلا أدخل في الترتيب تحت السفير، بل شأني شأن الملحق العسكري كنت قائماً برأسي، علاقتي هي مباشرة بوزارة التربية والتعليم في مصر. ومنذ اللحظة الأولى لوصولي إلى برن أفهمت السفير آنذاك ـ أحمد ثروت هذا الوضع، ففهمه واستقرّت علاقتي به على هذا النحو: لا شأن لدي، ولا شأن لي بالسفارة. ثم تلاه سفير آخر ـ عبد الشافي اللبان ـ فتوهّم أنّني أتبع السفارة وأراد أن يعاملني تبعاً لهذا الوهم. فوقفته عند حده منذ اللحظة الأولى، ومنعته من التدخل في أي شأن من شئون المكتب الثقافي والبعثة التعليمية. فراح يدسّ ويتآمر ضدّي، وأرسل شكوى إلى وكيل وزارة الخارجية،

وهذا بدوره ـ وكان ممتلئاً غيظاً منّي لما كان سفيراً في مدريد سنة ١٩٥٣ وانهالت المقالات في جريدة ABC كبرى الصحف الاسپانية ضد الثورة المصرية بقلم رئيس تحرير وكالة الأنباء الاسپانية Efe؛ فلم يحرّك السفير ساكناً. ومررت بعد ذلك على ايطاليا وكان السفير صديقي أحمد فراج طايع، فلما سألني عن أخبار السفارة المصرية في اسپانيا فأخبرته بأنها تغط في النوم وعدم المبالاة بما يكتب من مقالات ضد نظام الحكم الجديد في مصر. ولما كان صديقاً للسفير في مدريد فقد بعث اليه بما أخبرته به وينبهه إلى واجبه. فحاول هذا السفير، لما ان صار وكيلاً للخارجية في سنة ١٩٥٦، ان ينتقم. فاتصل بوكيل وزارة التربية ـ سيد يوسف، الذي صار بعد ذلك وزيراً للتربية والتعليم، فرد هذا عليه بما مقتضاه ان وزارة الخارجية لا شأن لها به وليس من حقها ان تتدخل في عملي، ثم أثنى عليّ وعلى عملي أطيب ثناء. وبهذا ألقم وكيل الخارجية ومن ورائه سفيره في برن حجراً صمت بعده حتى أخرج بعد ذلك بثلاثة أعوام وهو دون سن التقاعد بخمس سنوات! وكذلك سيكون مصير صاحبه السفير في برن!

ونظراً لما لاحظته السفارات الأخرى في برن من مكانتي العلمية وسعة اطلاعي على الشئون السياسية والثقافية، فإنها كانت تدعوني في كل ما تقيمه من احتفالات وكوكتيلات حتى لو كانت مقتصرة على شخصين، بل وشخص واحد، من كل سفارة. وكان هذا أيضاً مما زاد من لهيب الحقد في نفس السفير.

على ان الغالب على لقاءات الدبلوماسيين هو التفاهة والحذر الشديد والكلام الخالي من كل معنى. فأحاديثهم هي عن الجوّ، ومتى سيأخذ الواحد منهم اجازة، والملابس، وأحسن الأسعار لشراء السلع والألعاب الرياضية. واذا سألت أحدهم عن مشكلة حادة في بلده تتناقل أخبارها الصحف والإذاعات أكتفى بالقول: كل شيء يسير على أحسن وجه، ولا يوجد أي خلاف. وإذا بك تسمع او تقرأ بعد يومين ان احد المخاصمين في بلده قد أطاح بالآخر وربما قتله! والبعض الآخر كان لا يرد على سؤالك، بل يقول: إنّني لم أسمع آخر الأخبار، فهل سمعت أنت شيئاً؟! ـ أذكر مثلاً انه قام صراع عنيف في أندونيسيا آنذاك بين سوكارنو وبين نائبه محمد حِتّي. فسألت القائم بالأعمال الأندونيسي عن رأيه وما لديه من الأخبار، فظلّ يردّد باستمرار هذه الجملة: «كل شيء يسير على أحسن وجه، ولا يوجد أيّ خلاف». وقابلته بعد ذلك بثلاثة أيام في كوكتيل آخر فكرّر نفس العبارة، رغم التطور الخطير في هذه الأزمة. وبعد أسبوع قابلته، وكان

سوكارنو قد أطاح محمد حتّي، فقلت له ساخراً: «كل شيء يسير على أحسن وجه، ولا يوجد أي خلاف. أليس كذ لك؟!»

وابان الأزمة التي نجمت عن تأميم قناة السويس، رأيت العجب: مسرحية من الأكاذيب. يختلي الملحق العسكري المصري مع الملحقين العسكريين الروسيين، ويعد خلوتهما لربع ساعة يعودان إلى الاشتراك مع المدعوّين، وعلى وجههما علامات ارتياح يريدان بها ان يوهما الحاضرين أنّهما حسما مشكلة العدوان البريطاني الفرنسي على مصر، وان قوات هذين البلدين ستنسحب مدحورة بعد بضع ساعات!! مع انهما لا يدريان عن الأمر كله شيئاً، ومعلوماتهما عن الحوادث أقل بكثير من معلومات أي مستمع للاذاعات أو قارىء للصحف. حتى إنّني كنت أول مَن أنبأ الملحق العسكري المصري بإنذار بولجانين بعد ذلك بيومين، وكنت قد سمعته لتوي في الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين ٥ نوفمبر؛ فلما أنبأته فوجىء تماماً واستولت عليه الدهشة المذهلة.

كذلك كان القائم بأعمال سفارة الهند، خلال شهر أغسطس وسبتمبر يتباهى لنا بموقف الهند من الأزمة وكأن له ضلعاً في اتخاذ الهند لهذا الموقف النبيل، مع انك تشعر من كلامه انه لا يتابع أحداث الأزمة، ولا تطوراتها. لكنه وقد علم ان حكومته تؤيد موقف مصر، فقد راح هو يطمئننا!

لهذا فإنّي أرى ان لقاءات الدبلوماسيين في هذه الحفلات العديدة، التي يقيمونها هي عبث لا طائل عنه، ولا تفيد أي فائدة في الحصول على معلومات كما يزعمون، ولا تسهم في أي تحسين للعلاقات او تقارب بين الدول. وأستطيع ان أؤكد انها لا تسهم في حل أية مشكلة، مهما تكن بسيطة. لقد كان لها قديماً بعض الفائدة، حينما لم تكن هناك أدوات اتصال سريعة؛ أمّا الآن ووسائل الاتصال في غاية السرعة، فإنّه لم يعد للسفير أي دور غير أن يكون ساعي بريد أو عامل تليفون (استاندرديست) يوصل الرسالة او يتوسط في نقل المكالمة.

ويزداد هذا الأمر وضوحاً حين يكون الدبلوماسي جباناً لا يستطيع ان يتصرف بنفسه او يجتهد برأيه فلا يفعل إلاّ ان يردّد بالحرف الواحد ما تلقاه من تعليمات ـ وتلك حال ٩٩٪ من رجال السلك السياسي.

وبهذه المناسبة أذكر انه اثناء ازمة تأميم قناة السويس سافر سفير فرنسا ـ الكونت دي شايلا ـ الى باريس ليتحدث مع وزير خارجيته ـ كرستيان پينو Pinaud. في هذه المشكلة. وكان الكونت دي شايلا رجلاً حصيفاً عاقلاً ذكياً فاهماً الأحوال في مصر، فقال لوزير الخارجية: «أرجو أن لا يكون صحيحاً ما

يتردّد من استعدادات فرنسا لغزو مصر، لأنّنا سنضيع بذلك ما لنا من رصيد هائل من التقدير في مصر». فردَّ عليه پينو، وكان أحمق متعجرفاً: «اعلم يا سيد دي شايلا أننا نرسل سفراءنا إلى الخارج لينفذوا تعليماتنا، لا ليقدموا إلينا نصائح». وكان جزاء دي شايلا، لأنّه كان على حق، ان نُقِل إلى سفارة في أمريكا الجنوبية. ومن عجب أن يأتي كريستيان پينو هذا بعد ذلك بخمس عشرة سنة فيزعم في «مذكراته» بأنّه كان ضد اشتراك فرنسا في الغزو العسكري لمصر في اول نوفمبر سنة ١٩٥٦! فيا لها من وقاحة!

لكن ما أندر أمثال الكونت دي شايلا في السلك السياسي في العالم كله! أمّا ٩٩٪ من السفراء فهم أجهزة تليفون أو سعاة بريد!

وبالجملة، فقد كانت فترة حياتي هذه في سويسرة حافلة بالمتع الجِسّية، لكنها كانت قليلة الحظ من المتع العقلية.

أسفاري في هولندة

ولا بدَّ لي هنا من متابعة الحديث عن أسفاري في دول أوروبا الأخرى.

أمّا هولندة فقد زرتها للمرة الأولى في أوائل أغسطس سنة ١٩٥٤ فأمضيت بها اسبوعاً واحداً. لكني عدت إليها في السنة التالية (١٩٥٥) فأمضيت بها أسبوعين في شهر أغسطس. وزرتها مرتين زيارة سريعة في عام ١٩٥٦. ثم كانت أطول إقامة لي بها في أغسطس سنة ١٩٥٩، إذ أقمت بها ثلاثة أسابيع.

وكانت هذه الزيارات تجمع بين أمرين: الاطلاع على المخطوطات العربية النفيسة في مكتبة جامعة ليدن Laiden، والاستمتاع بجمال الطبيعة وثراء الحياة.

كانت اقامتي في أمستردام، لكنني كنت أستقل القطار في الصباح الباكر كل يوم إلى ليدن، اشتغل في قسم المخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة ليدن من التاسعة إلى الثانية عشرة، ثم من الثانية إلى الخامسة.

وليدن Laiden من أقدم مدن هولندة، وكانت في سنة ١٥٧٢ «قلعة» الكفاح ضد الأسپان. وتقع في مقاطعة جنوبي هولندة على مرتفع رملي في أرض من البولدر Pulder، في الشمال الشرقي من مدينة دن هاخ (لاهاي). وعدد سكانها في سنة ١٩٧٧ هو ١٠١,٥٠٠ نسمة. وتخترقها قنوات عديدة، وتبعد عن البحر بعشرة كيلومترات، وتقع على نهر الراين القديم. وفيها أبنية جميلة أهمها كنيسة القديس بطرس، وهي على الطراز القوطي، ثم مبنى

البلدية، وقصر عتيق. وجامعتها من أعرق جامعات أوروبا، وقد أُنشئت سنة ١٥٧٥، وقام بالتدريس فيها كبار العلماء، نذكر منهم يوستوس لبسيوس Juste Lipse، واسكاليجيه Scaliger وسوميز Saumaise، وهوجو جروتيوس Hugo Grotius وهينسيوس Hensius، ورينهرت دوزي Dozy. وكان اسمها عند الرومان Lugdunum Batavorum، ثم صار اسمها في العصور الوسطى Leighis.

وكانت فيها صناعات عظيمة: الجوخ والصوف؛ ودبغ الجلود؛ ومصانع الحديد والصب، ومصانع المواد الغذائية. ولا تزال تزدهر بصناعة الآلات والأجهزة، والنسيج، والطباعة، ومواد التجميل، ومصانع المواد الغذائية.

واشتهرت منذ القرن السادس عشر بطباعة الكتب النفيسة. فقد قامت أسرة تدعى Elzevier بإنشاء دار للطباعة عظيمة. وأقدم أفراد هذه الأسرة هو لويس (١٥٤٠ ـ ١٦١٧) المولود في لوڤان (بلجيكا)، ثم صارت لها فروع في لاهاي وأوترخت وأمستردام. ولا تزال طبعات هذه الدار من أهم ما يتنافس على اقتنائه هواة الكتب القديمة الطبع.

وفي ليدن قامت ثاني مطبعة عربية في العالم، أنشأها فرانسيسكوس رافلنجيوس Raphelengius (١٥٣٩ ـ ١٥٩٧): ومما صدر عنها من أول عهدها كتاب في النحو العربي من تصنيف توماس اربينوس Erpenius (١٥٨٤ ـ ١٦٢٤)، وقد طبع في سنة ١٦١٣. وبعد ذلك اشتهرت ليدن بأعظم مطبعة عربية في أوروبا، ولا تزال تواصل عملها حتى الآن، وهي دار برل E.J.Brill الشهيرة جداً. وقد زاد عمرها على ثلاثة قرون في اتصال مستمر.

والشعب الهولندي كان في الأصل مزيجاً من الفريزيين والسكسون والفرنجة. وفي عهد الامبراطورية الرومانية تدفقت عناصر جرمانية. وكانت نتيجة ذلك ان ساد العنصر الفريزي والسكسوني في الشمال الشرقي، بينما ساد العنصر الفرنجي في الجنوب. ونظراً لما جرت عليه هولندة من حسن استقبال المهاجرين والمضطهدين، فقد استقرَّ بها عدد من الهوجنوت الفرنسيين (البروتستنت)، ومن أهل مدينة زالتسبورج (النمسا) ومن السويسريين ومن اليهود الاسپان والبرتغاليين. كذلك هاجر إليها يهود ألمان ومن سائر انحاء أوروبا لأسباب اقتصادية. وبعد الحرب العالمية الثانية هاجر إليها عدد من أبناء مستعمراتها السابقة: أندونيسيا، وسورينام.

وكان عدد سكان هولندة بحسب احصاء سنة ١٩٦٠ هو ١١,٤٦٢,٠٠٠، وصاروا بحسب احصاء سنة ١٩٧٢ هم ١٣,٢٧٠,٠٠٠. وكانت نسبة المواليد في المدة من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٤ هي ٢٤ في الألف، وبعد ذلك نقصت في الستينات، الى ١٨ في الألف. ونسبة الوفيات في المدة من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٤ هي ٧,٧ في الألف. ويزيد عدد المهاجرين إلى خارج هولندة عن عدد المهاجرين إلى داخلها بحوالى عشرة آلاف شخص كل عام.

والمساحة الكلية لهولندة هي ٤١,١٦٠ كم٢، وكلها مستوية. وتتميز بالكثبان والسدود Dikes التي لولاها لغمر البحر ٣٨٪ منها وقد تم تحصيل هذا المقدار من الأرض بفضل تجفيف المياه باقامة السدود، ثم صرف المياه إلى البحر، وهو ما يُسمَّى Polder. ويوجد عدة مئات من البولدرات (أي الأراضي المجففة بهذه الطريقة). وكانت طواحين الهواء تستخدم قديماً في عملية صرف المياه. لكن استخدم بعد ذلك البخار والديزل والمضخات الكهربائية وبفضلها تمَّ تجفيف مساحات هائلة، مثل تلك التي في ايسلمير Ijsselmeer (زودرزي Zuiderzee). والقسم الغربي من هولندة يقع تحت مستوى سطح البحر، وأحياناً بمقدار ٦,٧ أمتار تحت البحر. وفي هذه المواضع لا يمكن البناء إلاَّ على خوازيق تنزل إلى الطبقة الرملية.

والنباتات في هولندة هي نباتات الكثبان: النباتات المالحة والنباتات الرملية، ثم (المراعي) ثم الأراضي الزراعية، والقليل من الأشجار الخشبية. ثم عُني الهولنديون بزراعة نباتات التربة والأزهار والأبصال. وخصوصاً زهر التوليب، حتى صارت هولندة أكبر مصدري هذا النوع من الزهر الذي تنتشر زراعته في اقليم يقع بين ليدن وهارلم وأمستردام.

ومن حيث الدين تتميز هولندة بالانفصال الحادّ بين البروتستنت (بما فيهم أتباع كلڤان) من ناحية، والكاثوليك من ناحية أخرى. أمّا اليهود فعددهم في تناقص مستمر: ١٧,٣٠٠ في سنة ١٩٦١، ١٣,٢١٤ في سنة ١٩٧٧، منهم ٨٦٠٠ يعيشون في أمستردام وضواحيها، و١٢٢٠ في لاهاي، و٧٠٠ في روتردام. وغالبيتهم العظمى من الاشكنازي، أمّا السفردي فبضع مئات.

وهاك جدولاً بإحصاء الأديان والمذاهب الدينية في هولندة يبين النسبة المئوية في مجموع سكان هولندة الذي بلغ: ٣,٣ مليون في سنة ١٨٥٩ و ٩,٣مليون سنة ١٩٤٥، و١٢,٩ مليون سنة ١٩٦٩، و١٣,٩ مليون في سنة ١٩٧٨:

السنة	الكاثوليك	الاصلاحيون الهولنديون	الاصلاحيون	اليهود	سائر الأديان	بغير دين
١٨٩٩	٣٥,١	٤٨,٤	٧,١	٢	٥,١	٢,٣
١٩٢٠	٣٥,٦	٤١,٢	٨,٣	١,٧	٥,٤	٧,٨
١٩٤٧	٣٨,٥	٣١	٧	٠,١٥	٦,٣	١٧,١
١٩٦٠	٤٠,٤	٢٨,٣	٦,٩	٠,١	٦	١٨,٣
١٩٧١	٣٩,٥	٢٣	٧	٠,١	٧	٢٢,٥

ومن هذا الجدول يتبين ان الاصلاحيين كانوا الأغلبية حتى سنة ١٩٤٧، ثم صار الكاثوليك هم الغالبية. ورغم ذلك ظلّت السيادة الرسمية للاصلاحيين (البروتستنت): فالقاعدة هي ان يكون الملك (أو الملكة) تابعاً للكنيسة الاصلاحية الهولندية التي ظلّت دين الدولة الرسمي حتى الثورة الفرنسية؛ كما أنّه ممنوع على الكاثوليك تسيير مواكب دينية، ثمّ أن الكاثوليكية الهولنديّة كانت في طليعة الكنائس الكاثوليكية المنادية بالتحرر المذهبي في السنوات الثلاثين الأخيرة وأشدّها تمرّداً على البابوية في روما. وتتعدد المذاهب المسيحية الصغيرة بين هؤلاء وأولئك: التعميديون، والمشيخيون، الخ.

كما يلاحظ تزايد عدد الذين لا يؤمنون بأيّ دين (٢٢,٥٪). وكان دستور اتحاد اوترخت في سنة ١٥٧٩ قد نصَّ على حرية العقيدة الدينية، وتأكدت هذه الحرية ابتداء من سنة ١٨٤٨.

وأبرز المفكرين الدينيين في تاريخ هولندة هو ارسموس Desideruis Erasmus (ولد في نوتردام سنة ١٤٦٦ أو ١٤٦٩ ـ وتوفي في بازل بسويسرة في ليلة ١١/١٢ يوليو سنة ١٥٣٦. وقد وقف موقفاً وسطاً بين الكنيسة الكاثوليكية في روما وبين دعوة الاصلاح الديني التي قام بها مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦). لقد كان ذا نزعة انسانية، يدعو إلى الاستفادة من التراث اليوناني واللاتيني في الأدب والفلسفة والعلوم، وينادي بالعودة إلى الأصول اليونانية واللاتينية، وباطراح الشكليات في الطقوس الدينية والمجادلات العقيمة الاسكلائية. ولهذا عاداه كلا الطرفين المتصارعين: كنيسة روما، وحركة الاصلاح الديني. وشعاره الأساسي هو التقريب بين الله والانسان، والربط بينهما في علاقة متبادلة: من الله إلى الانسان، ومن الانسان إلى الله. لهذا رأى ان الدين في جوهره شعور باطن، وان المظاهر الخارجية (الطقوس والشعائر

والعبادات الظاهرة) ليست بذات شأن في التدين الحق.

ومن عهد ارسموس سادت روح التسامح الديني في هولندة، حتى صارت ملاذاً للأحرار والمضطهدين لأسباب دينية، خصوصاً في القرن السابع عشر: فإليها لجأ ديكارت لما ضاقت به الحياة في فرنسا، كما لجأ الهجونوت أي الپروتستنت الفرنسيون لما ان ألغى لويس الرابع عشر مرسوم نانت في ١٧ أكتوبر سنة ١٦٨٥ وكان هذا المرسوم الصادر في ابريل سنة ١٥٩٨ يكفل حرية العبادة للپروتستنت في فرنسا، ويسمح لهم بأربع جامعات وبحق عقد مجامع دينية.

ولكن وجد في هولندة من رجال الدين مَن ينكر حرية إرادة الانسان ويكل كل شيء إلى تقدير الله الخالق. ونخص بالذكر كورنليوس جانسنييوس Cornelius Jansenius (وُلِد في اكوي Acquey بهولندة، سنة ١٥٨٥ ـ وتوفي في ايپر Ieper Ypres في بلجيكا سنة ١٦٣٨) الذي قرَّر أنه منذ خطيئة آدم فإنَّ ارادة الانسان شريرة لا تقدر على فعل الخير إلاَّ بعون الله. واللطف الإلهي الفعّال هو الذي يمكّن من تفضيل النعيم السماوي على النعيم الدنيوي. ولا يمنح الله هذا اللطف لكل الناس. وكان اليسوعي لويس مولينا (١٥٣٦ ـ ١٦٠٠) Luis Molina قد قرَّر ان اللطف الكافي يزوّد في كل مناسبة بالعون الالهي الضروري لفعل الخير، وعند كل انسان الحرية في الافادة من هذا العون او عدم الافادة. وبعد وفاة جانسنيوس بعامين ـ أي في سنة ١٦٤٠ ـ ظهر كتابه بعنوان Augustinus، وفيه أكدَّ مذهبه ذاك. فهاجم اليسوعيون هذا الكتاب. فانبرى للدفاع عنه أنطوان أرنولد Antoine Arnauld (١٦١٢ ـ ١٦٩٤) بدفاعين Apologies Pour Jansénius (١٦٤٤ ـ ١٦٤٥). وصار دير پورورويال (في اقليم الشڤرز بالقرب من ڤرساي) مركزاً لنشر مذهب جانسنيوس. وحرّض اليسوعيون البابا على ادانة مذهب جانسنيوس، فأصدر بولاً تبدأ بالعبارة Cumoccasurie أدان فيها خمس قضايا مأخوذة من كتاب «اوغسطينوس». فقام أرنز ونقول Nicole بالدفاع عن مذهب جانسنيوس قائلين إنَّ هذه القضايا الخمس هرطقة، ولكنها غير موجودة بهذا المعنى في كتاب «أوجستينوس»، بل لها معنى آخر لا يتسم بأية هرطقة.

وانتشر مذهب جانسنيوس في هولندة، مما أوقع القطيعة بين الكنيسة الكاثوليكية في هولندة والبابا.

ومن الشخصيات الهولندية البارزة في تلك الفترة ايضاً هوجو جروتيوس Hugo Grotius (وُلِدَ في دلفت سنة ١٥٨٣ ـ وتوفي في روستوك سنة ١٦٤٥)

الذي يعدّ مؤسّس القانون الدولي الحديث بكتابه الشهير: «قانون الحرب والسلام» (باللاتينية، سنة ١٦٢٥).

لمحة تاريخية

وكانت هولندة في عهد يوليوس قيصر (القرن الأول قبل الميلاد) يقيم بها جنس الباتاڤيين وهو جنس جرماني يشمل قبائل عديدة أبرزها الفريزيون (على الساحل من الفلاندر حتى الدانيمرك) والسكسون: وكان الباتاڤيون حلفاء يوليوس قيصر. لكن ما لبث الباتاڤيون ان شعروا بوطأة هذه المحالفة غير المتكافئة والتي كانت في الواقع سيطرة قاسية من جانب الامبراطور الروماني على الباتاڤيين، فثار هؤلاء عدة ثورات أشهرها تلك التي نشبت في سنة ٧٠ ميلادية، بزعامة كيويليس Civilis.

وفي أثناء هجرات القبائل استعمر الفرنجة الجزء الأكبر من هولندة، بينما استعمر السكسون القسم الشرقي، وتوطّد استيطان الفريزيين في القسم الشمالي. وجاءت الأسرة الكاروليجنية (٧٥٢ ـ ٩٨٧) في القرن الثامن فأخضعت لحكمها الفريزيين والسكسون. ولما انقسمت الامبراطورية الكارولينجية في القرن التاسع صارت هولندة من نصيب لوتير. لكن بفضل الازدهار التجاري في بعض المدن صارت هذه المدن ذات استقلال ذاتي: وتلك حال اوترخت ودوردرفت وهان أولاً، ثم بعد ذلك أمستردام وروتردام. لكنها لم تخلُ من منازعات داخلية شرسة أحياناً بين الطبقة الوسطى وبين العامة. وفي بعض الأحيان كانت الطبقة الوسطى تتحالف مع الكونت الحاكم للدفاع عن نفسها ضد النبلاء، مثال ذلك الصراع العنيف ين هوكن Hocken، وكابلياون Kabeljauwen في منتصف القرن الرابع عشر. وقد اشتهرت نيميخن Nymegen وليدن Laiden بصناعة الجوخ، ودوردرخت بتجارة الصوف المستورد من انجلترة. وأدى اختراع حفظ الرنجة في البراميل، في نهاية القرن الخامس عشر، إلى ازدهار تجارة الرنجة وتصديرها إلى الخارج.

وأول توحيد سياسي لهذه البلاد شبه المستقلة تمّ على يد بيت بورجوني Maison de Bourgonie في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ثم انتقلت السلطة إلى بيت هابسبورج Habsburg لما ان تزوّج مكسميليان النمساوي (١٤٥٩ ـ ١٥١٩) من ماري دي بورجوني بنت شارل الجسور، ودوق بورجوني. وقد صار حفيده كارل الخامس (شارل ـ كان) حاكماً على الولايات البورجونية منذ سنة ١٥١٥، ثم أصبح في سنة ١٥١٦ ملكاً على

اسپانيا، وفي سنة ١٥٢٩ صار امبراطوراً على امبراطورية هبسبورج؛ وأعطى حكم هولندة لعمته مرجريت النمساوية ومن بعدها لأخته ماريا الهنجارية. ومكّن من تماسك الأقاليم الهولندية بإنشاء مجلس للدولة، يتألف من ممثلين للعدالة، ومجلس سرّي، ومجلس للمالية.

وفي ذلك الوقت بدأت حركة الاصلاح الديني التي قام بها لوثر تتسرب إلى هولندة. فمنذ سنة ١٥٢٠ ترجمت كتابات لوثر إلى اللغة الهولندية، وتكوّنت جماعات تناصر الاصلاح اللوثري. وما لبث مذهب كلڤان هو الآخر ان تسرّب بقوة.

لكن كارل الخامس (شارل ـ كان) هب لمقاومة حركة الاصلاح في هولندة منذ اللحظة الأولى، رغم انه اضطر إلى مهادنتها في ألمانيا، فأصدر مرسوماً في سنة ١٥٢١ ضد مذهب لوثر: لكنه لم يفلح في وأد حركة الاصلاح في هولندة. ثم إنّه ترك لابنه فيليب حكم الأراضي الواطئة في سنة ١٥٥٥، وفي السنة التالية تخلّى له عن ملك اسپانيا.

وكان فيليب الثاني هذا (١٥٢٧ ـ ١٥٩٨) شديد التعصب للكاثوليكية. ولما صار ملكاً على اسپانيا في سنة ١٥٥٦ تخلّى عن حكم الأراضي الواطئة (= هولندة وبلجيكا) لأخته غير الشقيقة مرجريت دي پارم. وإزاء قهرها للپروتستنت وضغطها الشديد على الحريات وعلى الاقتصاد اجتمع النبلاء في بريدا Brada سنة ١٥٦٥ ووقّعوا على عريضة يطالبون فيها بإلغاء محاكم التفتيش، واستدعاء البرلمان. وكان أبرز النبلاء هو ڤلهلم فون تساد، أمير بيت أورانج، واستولى على مقاطعات هولندة، وزيلندة وأوترخت. فناصر الحركة سراً، حتى تفلح. وقدمت العريضة إلى مرجريت دي پارم في بروكسل. وتلا ذلك قيام ثورة عنيفة مسلحة ضد الكهنوت الكاثوليكي وموظفي فيليب الثاني وعاد المهاجرون الپروتستنت فاشتركوا في الحركة.

هنالك ارسل فيليب الثاني إلى الأراضي الواطئة (هولندة وبلجيكا) بدوق أليا، وكان محارباً قوياً عرف بالقسوة. فأخمد الثورة في حمام من الدم، وذلك في سنة ١٥٦٨. وكان ذلك بداية ما يسميه الهولنديون باسم «حرب الثمانين عاماً»، لأنّها انتهت في سنة ١٦٤٨. وقد لعب فيها دوراً عظيماً وليم اورانج، الذي قاد حركة التحرير ضد الاسپان. لكن حدث صدع في جبهة الثائرين، أدّى إلى ما عُرف باسم اتحاد اوترخت في ٢٣ يناير سنة ١٥٧٩ الذي أدّى إلى اتحاد الأقاليم السبعة الشمالية (هولندة، زيلند، اوترخت، خلدرن، اوفريبيل Overijssal، فريزلند،

خرونغن Groningen)، وأعلنت هذه المقاطعات السبع استقلالاً لها عن اسپانيا في سنة ١٥٨١ وألغت «جمهورية الأقاليم المتحدة» التي استمرت حتى سنة ١٧٩٥، حين غزتها قوات الثورة الفرنسية بقيادة Ch. Oichegru وأعلنت «الجمهورية الپاتاڤية». وجاء نابليون فحولها إلى ملكية، وجعل ملكاً لها أخاه لويس بوناپرت سنة ١٨٠٦، ثم ضمّها إلى فرنسا في سنة ١٨١٠.

وجاء مؤتمر ڤيينا سنة ١٨١٥ فجعل من الأراضي المنخفضة كلها (هولندة وبلجيكا معاً) مملكة واحدة تحكمها أسرة أورانج نسّاو، وصار الملك هو ڤلهلم الأول. لكن الصراع بين الأقاليم الشمالية والأقاليم الجنوبية (بلجيكا ولوكسمبورج) ما لبث ان اندلع، مما أدى إلى ثورة سنة ١٨٣٠ في بلجيكا. فانعقد مؤتمر للدول العظمى في لندن سنة ١٨٣١ وقرَّر الفصل التام بين هولندة وبين بلجيكا. وقد تلا ڤلهلم الأول على العرش ڤلهلم الثاني (١٨٤٠ ـ ١٨٤٩) ثم ڤلهلم الثالث (١٨٤٩ ـ ١٨٩٠) ثم ابنته ڤلهلمينا (١٨٩٠ ـ ١٩٤٩) وتلتها ابنتها جوليانا (١٩٤٩ ـ ١٩٨٠) التي تخلّت لابنتها Beariu عن العرش في ابريل سنة ١٩٨٠.

وقد كانت هولندة على الحياد في الحرب العالمية الأولى فأفلتت من ويلاتها. أمّا في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) فقد انحازت إلى انجلترة وحلفائها، فكانت النتيجة هي ان اجتاحتها ألمانيا في مايو سنة ١٩٤٠ في يوم واحد دون ان تلقى أية مقاومة.

❀ ❀ ❀

وكانت هولندة قد كوّنت في القرن السابع عشر امبراطورية استعمارية قاصية الأطراف. ففي سنة ١٥٩٠ قرّرت جماعة من تجار أمستردام إرسال أربع سفن عن طريق الجنوب ـ وهو الطريق الذي كان يسلكه البرتغاليون منذ بداية القرن السادس عشر، ويحاذي الساحل الغربي لافريقية ثم يتجه شرقاً نحو الهند والملايو وجاوة ـ تحت إمرة كورنليوس هوتمن Cornelius Hautman. وبعد عامين عادت ثلاث من هذه السفن الأربع الى هولندة محملة بالتوابل، فاستقبلها الناس بحماسة بالغة؛ إذ تبيَّن للهولنديين ان في وسعهم القيام بهذه المغامرة، وصمّموا على ان يحلُّوا محل البرتغاليين، وكانت البرتغال آنذاك تحت حكم فيليب الثاني ملك اسپانيا، فكانت لذلك ضعيفة لا حَول لها؛ ومن الممكن اذن طردها من مستعمراتها ومحطاتها البحرية في الهند وسيلان والملايو واندونيسيا. ولتحقيق هذه النية، أنشأ الهولنديون في سنة ١٦٠٢ «الشركة المتحدة لبلاد

الهند الشرقية» وبواسطة هذه الشركة استولت هولندة على المراكز البرتغالية الرئيسية في جنوب شرقي آسيا. وبدأوا بالجزر المنتجة للتوابل: أمبوان، وملقا وجاوة، فوطّدوا سلطتهم فيها اكثر مما فعل البرتغاليون ثم واصلوا الاستيلاء على المحطات البحرية البرتغالية المنتشرة على الشواطىء الغربية لافريقية: جوريا (سنة ١٦١٧)، ساو جورجه دافينا التي كان منها يستخرج ذهب غينيا (سنة ١٦٣٧) وساو توما وساو باولو دي لواندا. كما واصلوا الاستيلاء على محطات في طريق الهند الشرقية: سيلان (سنة ١٦٠٩)، ملقا (سنة ١٩٢٠)، فورموزا، ثم جزيرة دشما في خليج نجازاكي، ومن ثم أصبح الهولنديون هم المتاجرين الوحيدين الأوروبيين مع اليابان. وهكذا صارت الامبراطورية الشرقية البرتغالية في قبضة شركة الهند الشرقية الهولندية حوالى سنة ١٦٤٠. (Vereenig de Ocstindische Compagnie = V.G.C).

وبالمثل وقعت البرازيل، وكانت تابعة للبرتغال، تحت سيطرة الشركة الهولندية للهند الغربية، وكانت قد تأسست في سنة ١٦٢١ على غرار اختها الشركة الهولندية للهند الشرقية. ففي سنة ١٦٢٤ قام القرصان Piet Hecin بالنزول في البرازيل والاستيلاء على باهيا. ثم تمَّ الاستيلاء على رصيف Racife في سنة ١٦٣٠، مما مكَّن من بدء غزو ساحل البرازيل. وواصلت هولندة استعمارها لسواحل البرازيل وشمالها وفقاً لسياسة استعمارية منظمة وصفها يوحنا موريس فون نساو Jean-Maurice de Nassao. وكان البرتغاليون قد عملوا على زراعة مزارع واسعة بقصب السكر، فتوسع الهولنديون في هذه المزارع، حتى صارت أمستردام في منتصف القرن السابع عشر أكبر سوق في العالم لتجارة السكر.

وهذا الازدهار الهائل لهولندة في منتصف القرن السابع عشر قد جعل منها هدفاً لحسد الدول الأوروبية الكبيرة: كانت هولندة دولة صغيرة يسكنها مليونان، ومع ذلك كانت أغنى دول أوروبا من حيث نسبة عدد السكان، وكانت جمهورية في وقت سادت الملكية فيه سائر دول أوروبا؛ وكانت متسامحة دينياً، في وقت سيطر فيه التعصب الديني، وكان اقتصادها حرًّا، بينما كان مقيداً بالأغلال في باقي بلاد أوروبا؛ وكانت ذات امبراطورية استعمارية، مترامية الأطراف، في الوقت الذي كانت فيه دول أوروبا لا تملك مستعمرات، وتتطاحن فيما بينها للسيطرة على أرض أوروبا.

أمَّا انجلترا فكانت على علاقات وثيقة وتضامن ديني وسياسي مع الأقاليم

المتحدة (= هولندة) في نهاية القرن السادس عشر. لكن ما لبث الحسد والتنافس ان فَعَلا فعليهما في انجلترة مما أدَّى إلى نشوب الحرب بينهما ثلاث مرات خلال الأرباع الثلاثة الأولى من القرن السابع عشر. وقد بدأ النزاع حول مسألة الصيد في بحر الشمال. كان الهولنديون يصطادون الرنجة عند سواحل بريطانيا، بينما كانت بريطانيا تريد التوسع في الصيد لتقوية اقتصادها. لهذا جاء ملك بريطانيا جيمس الأول في سنة ١٦٠٩ فحرَّم على الصيادين الأجانب الصيد عند سواحل بريطانيا وايرلندة دون الحصول على رخصة بذلك. فكان لهذا القرار وقع شديد في نفوس الصيادين الهولنديين لأنَّ صيد الرنجة كان يكفل الرزق لآلاف الصيادين وبناة السفن وعمال صناعة حفظ الأسماك.

وانضاف سبب ثان هو ان الانجليز انزعجوا من احتكار الهولنديين للتجارة في بحر البلطيق وفي روسيا. ثم سبب ثالث هو ان الهولنديين طردوا التجار الانجليز من الجزائر التي تنبت التوابل في جنوب شرق آسيا، وتوغلوا في المستعمرات الانجليزية في جويانا وأمريكا الشمالية.

وبدأت المعركة كلامية قانونية. إذ أصدر هوجو جروتيوس، مؤسِّس القانون الدولي، كتاباً بعنوان «البحر الحرّ» Mare Liberum في سنة ١٦٠٩، يؤكّد فيه ان البحر حرّ للجميع ولا يحق لأية دولة ان تدَّعي فرض قانونها على البحار. وللرد عليه كلّف الملك جيمس الأول المشرّع سلدن Selden (١٥٨٤ ـ ١٦٥٤) بتأليف كتاب سيطبع في سنة ١٦٣٥ بعنوان: «البحر المغلق او السيطرة على البحر»، وفيه يذكر ان لكل دولة السيادة على البحار التي تحيط بأرضها.

ومع ذلك ظلَّت العلاقات بينهما سلمية طالما كانت الحروب قائمة بين هولندة واسپانيا. فلما انعقد الصلح بين هاتين في سنة ١٦٤٨، انكشفت العداوة بين هولندة وبريطانيا، على مراحل انتهت باعلان شارل الثاني، ملك انجلترة، الحرب على هولندة في سنة ١٦٦٥، وانتصرت انجلترة في البداية، لكن ما لبثت هولندة ان أحرزت انتصارات كبيرة على انجلترة بفضل Tromp و Ruyter الذي قام بغزوة بحرية مفاجئة على الترسانات البحرية الانجليزية في مدوى Medway. وانتهت الحرب بصلح بريدا Breda في سنة ١٦٦٧: وبمقتضاه تنازل الهولنديون عن امستردام الجديدة (= نيويورك فيما بعد) والكاپ (في جنوبي افريقيا) في مقابل الحصول على سورينام وجزيرة پولو رون Pulo Run في ملّوقا Malugues لكن الحرب ما لبثت ان شبّت من جديد في سنة

١٦٧٢ وفي هذه المرة كانت انجلترة متواطئة مع فرنسا ضد هولندة. إذ قام لويس الرابع عشر فاجتاز نهر الراين في ١٢ يونيو سنة ١٦٧٢ بجيش قوامه مائة ألف رجل. فلم يستطع الهولنديون مقاومته واضطروا إلى الانسحاب. فاحتل جيش فرنسا اقليمي اوترخت وخلدرن وأعاد فيهما الكاثوليكية؛ بينما الاقاليم الشرقية المتاخمة لألمانيا سلمت دون مقاومة للأمراء الأساقفة الألمان. فاضطر اقليم هولندة الى عرض السلام على فرنسا مقابل التخلّي لفرنسا عن الشاطىء الأيسر من نهر الميز Meuse ودفع تعويضات. لكن لويس الرابع عشر لم يقبل هذه الشروط، وأصرَّ على فرض شروط قاسية مهينة. لهذا ثار الشعب الهولندي، وقتل جان دي ڤت Jeaan De Wett (الذي كان بمثابة رئيس جمهورية لهولندة) وأخاه في ٢٠ أغسطس سنة ١٦٧٢ في مدينة لاهاي لأنّه أبدى استعداده لقبول شروط ملك فرنسا. وعادت السلطة في هولندة لآل أورانج. وقاوم الهولنديون طويلاً جيش لويس الرابع عشر الذي حاصر ماسترخت Maastrickt.

لكن الظروف تحسّنت لصالح هولندة، إذ عقدت انجلترة معها صلحاً في سنة ١٦٧٤، كما ان ملك اسپانيا أعلن مؤازرته لهولندة ضد فرنسا.

❀ ❀ ❀

وندع الأحداث السياسية والحروب لنتحدث عن الحياة الاجتماعية واليومية في هولندة في القرن السابع عشر.

قال ديكارت في رسالة بعث بها إلى جيز دي بلزاك Guez De Balzac بتاريخ ١٦/٥/١٦٣١ يدعوه فيها إلى اللحاق به في هولندة:

«ينبغي عليك ان تغفر لي حماستي إذ أدعوك إلى اختيار امستردام مكاناً لاعتزالك وإلى تفضيلها ليس فقط على كل أديرة الكبوشيين والشارتريين، التي يلجأ إليها كثير من الشرفاء، بل وأيضاً على كل المنازل الجميلة في فرنسا وايطاليا. . . وكيف لا يفضل المرء ـ على كل مكان آخر في العالم ـ هذا المكان الذي فيه يسهل الحصول على كل مُتع الحياة وكل ما يتمنّاه الانسان من الأشياء الغريبة؟ وأين هو البلد الآخر الذي يمكن المرء ان ينعم فيه بالحرية الكاملة، وان ينام ملء جفونه بمتاعب أقل، وتوجد فيه جنود متأهبة لحراسته، ويقل فيه حوادث التسميم، والغدر، والوشاية، ولا تزال فيه بقية من براءة الأجداد؟»

هكذا كانت امستردام في النصف الأول من القرن السابع عشر.

أمَّا اليوم، في النصف الثاني من القرن العشرين، فإنَّ الحال لم تعد هي الحال. فمدينة امستردام تعج الآن بالشباب المتمرد الذي يملأ الساحة الواسعة امام القصر الملكي وهم بثيابهم المهلهلة وأسمالهم القذرة التي يزعمون أنَّهم بها يتمردون على المجتمع البورجوازي المحافظ، مجتمع الاستهلاك. ويطلقون على انفسهم ألقاب Provos حيناً، أو Beatnik حيناً آخر. وتنتشر بينهم أخبث الأمراض الجنسية، ويدمنون على تعاطي المخدرات. وبلغ هذا الخبال أوجه في العقدين السادس والسابع من هذا القرن، ولا تزال بعض بقاياه تتجلى في العقد الثامن.

لكن «مُتع الحياة» لا تزال على عهدها: مُتع الفرج والبطن والعين. ثم حيّ كبير تتوافر فيه متع الجنس، وتتوالى في طرقاته الضيقة واجهات زجاجية تجلس وراءها المومسات وهن يدعين المارة الى الدخول. فإذا دخل الزبون أسدلت الستارة على الواجهة الزجاجية ايذاناً بأن المحل مشغول، وبعد عشرين دقيقة او نصف ساعة ـ بحسب الأجر ـ ترفع الستارة من جديد وتجلس المومس في مكانها، وهكذا دواليك! وتستمر هذه الحال ابتداء من عصر كل يوم حتى صباح اليوم التالي.

والغريب ان هذا الحيّ يقع خلف كنيسة فخمة عتيقة تؤدّى فيها موسيقى كنسية رفيعة المستوى في مساءي الثلاثاء والأربعاء، وكان المايسترو آنذاك ـ في أعوام ١٩٥٤، ١٩٥٥، ١٩٥٦ هو فايك اسما Feik Asma. ونظراً للمستوى الرفيع لهذه الحفلات الموسيقية فإني كنت حريصاً دائماً على حضورها فيما بين الخامسة والسابعة من يومي الثلاثاء والأربعاء من كل اسبوع.

وفي مقابل هذه الموسيقى الرقيقة، كانت هناك قاعات ضخمة تتسع للآلاف، وتعزف فيها موسيقى نحاسية صاخبة جداً، يطلق عيها لقب Humpa Humpa Musik. وتقع هذه القاعات في ميدان رامبرنت.

وهذا الميدان هو مركز الحياة الليلية في امستردام، ويزخر بعُلب الليل، وتتوافر فيه كل الملذّات. ويدهش المرء من الفارق الهائل بين حال هذا الميدان في الليل، وحاله في النهار، فلا يصدّق وهو يسير فيه ابان النهار انه هو نفس المكان الذي تجوّل فيه إبّان الليل.

وليت شعري ماذا كانت حال هذا الميدان أيام ديكارت!

وأطايب الطعام موفورة جداً في أمستردام وسائر أنحاء هولندة، خصوصاً

السمك والدجاج المشويّ ولحم العجول. أمّا السمك فكنت أتناوله في مطعم مختص به في ميدان ليدن Leids-Plein، وكان يقدّم أنواعاً فاخرة من سمك بحر الشمال، وخصوصاً سمك موسى (صول). أمّا الدجاج المشويّ فكان يتقن طهوه مطعم على قناة أمستل، كان يغريني على التردُّد إليه - إلى جانب الدجاج - فتاة تخدم فيه فاتنة الجمال، ناعمة النبرة، شديدة الاغراء، فلم أكن أملك ضبط نفسي عن إدامة التطلّع إليها وابداء الإعجاب بجمالها، رغم ما كان يثير ذلك من غيرة صاحبتي المرافقة لي وتقريعها لي وازورارها عنّي فيما يتلو من السهرة!

لكن لندع ذلك الجانب الشهواني من أمستردام - مؤقتاً - كيما ننظر في جانبها الجادّ الثري بالفن والمال والصناعة والتجارة.

كانت أمستردام لا تزال في القرن الثالث عشر قرية صيادين تقوم على السدّ القائم بين قناة أمستل وخليج إي Ij. لكنها في سنة ١٣٠٠ حصلت على حقوق المدينة، وصارت تحت حكم كونتات هولند في سنة ١٣٢٧. وفي سنة ١٣٦٩ انضمت إلى انهزا Hanse أي المؤسسة التجارية لشمالي ألمانيا. وانضمت إلى حركة الكفاح ضد حكم اسپانيا في سنة ١٥٧٨. ولما طرد اليهود - القادمون من البرتغال - من أنثفرب لجأوا إلى أمستردام وعملوا فيها في حقل الماس. وبعد غزو الاسپان لأنثفرب في سنة ١٥٨٥ ازدهرت أمستردام ازدهاراً سريعاً جداً في التجارة حتى صارت في القرن السابع عشر أعظم المدن التجارية في أوروبا كلها.

وكان عدد سكانها بحسب احصاء سنة ١٩٧٥ هو ٧٥٨,٠٠٠ نسمة. ويقسّمها خليج «الإي» إلى شطرين يرتبطان بنفقين تحت الماء. وفيها جامعتان: جامعة المدينة والجامعة الحرّة، وفيها أكاديمية للعلوم (منذ القرن السابع عشر) وأكاديمية للفنون.

والحركة التجارية في ميناء أمستردام كبيرة (١٩ مليون طن في سنة ١٩٧٤). والميناء يرتبط ببحر الشمال بواسطة قناة ملاحية تتسع لكل السفن، كما انه يرتبط بداخل البلاد بقناة الراين. وأشهر السلع التي ترد إلى هذا الميناء: الطباق، والبن، والكاكاو، والأخشاب، والأرز، والكوتشوك، والتوابل، والحبوب.

وفيها صناعات عديدة: صناعة الآلات، شغل المعادن، بناء الطائرات والسفن، أدوات المكاتب، والأجهزة الكهربائية. كما ان فيها شركات لنقل البضائع على السفن كبيرة. وفيها مطابع ضخمة ممتازة الطبع. لكن شهرتها كسوق

للمال وبورصة للبضائع ومكان لصقل الماس قد تضاءلت في الخمسين سنة الأخيرة.

ولمتاحفها الفنّية مكانة عالمية:

١ ـ متحف الدولة Rijksmuseum الغني بالتصوير الهولندي؛

٢ ـ متحف الدولة الجديد: ويزخر بلوحات فان خوخ Niewemuseum؛

٣ ـ متحف المدينة، ويحتوي على التصوير الحديث؛

٤ ـ بيت رمبرانت؛

٥ ـ متحف المناطق الحارة.

فن التصوير الهولندي

ولفن التصوير في هولندة مميزات خاصة فريدة:

١ ـ فهو فن الضوء؛

٢ ـ وهو فن صور الأشخاص؛

٣ ـ وفن داخل البيوت؛

٤ ـ وفن الطبيعة غير الحيّة؛

٥ ـ وفن الألوان الكابية، والرمادية، والقاتمة.

إنَّ سرّ الفن الهولندي هو انه «يحفر اللوحة» كما يقول فرومنتيان، لأنَّ توزيعه للضوء في جو قاتم يشعرك بأنَّك تنفذ في أغوار اللوحة. ولهذا يتسم بالعمق، والجدّ، والحزن العميق، والأنس والألفة. إنَّه فن الوضوح المظلم Clair Obscur إلى أعلى درجة.

والرسام الهولندي يعامل كل موضوعاته على انها صور شخصية Portrait، حتى إنَّه يعامل هولندة نفسها بمناظرها الطبيعية كما لو كانت صورة شخصية. وأول مَن صوّر هولندة على هذا النحو هو يان فون جوين Jan Von Goyen (ليدن ١٥٩٦ ـ لاهاي ١٦٥٦)، الذي كان عبقرية قلقة، كثيرة التقلّب، تنقل من ليدن، وطنه الأول إلى هارلم، ثم عبر إلى ليدن، ثم انتقل الى لاهاي، وغامر في شئون المال، فضارب في الأراضي والمنازل، وأزهار التوليب، ومات مفلساً. ولوحاته تتسم باتساع مكان السماء فيها (ثلاثة أرباع اللوحة)، وبالغيوم، وبالأبخرة. كما يتجلّى في لوحته بعنوان: «شواطىء نهر في هولندة».

أمّا تلميذه يعقوب راو سديل Ruysdaël (١٦٢٩ ـ ١٦٨٢) فقد وُلِدَ في هارلم في سنة ١٦٢٨ أو سنة ١٦٢٩، وفيها توفي وهو في الثانية والخمسين، في ١٤ مارس سنة ١٦٨٢ وتتجلّى براعة راو سديل في تصوير السماء. لقد كان المصورون قبله يتصورون السماء على انها خلاء، فجاء هو وجعل منها مفتاح اللوحة: إذ رتب الموضوعات في اللوحة وفقاً للسماء: علواً واتساعاً، وعمقاً وضحالة. ذلك انه ملأ السماء بالسحب، وبأهرام من الأبخرة، وبأقواس مما يشبه القطن المندوف، وبالأمطار.. ويتجلّى هذا خصوصاً في لوحته الشهيرة في متحف الدولة في أمستردام بعنوان: «طاحونة ڤيك Wijck بنواحي دورستيدة Duursteede.

لكن سيد المصورين الهولنديين غير منازع هو رمبرانت Rembrand Von Rijn (١٦٠٦ ـ ١٦٦٩)؛ الذي يُعد فنان هولندة الوطني، كما كان روبنس بالنسبة إلى بلجيكا وبلاثكث بالنسبة إلى اسپانيا.

وُلِد رمبرانت في ١٥ يوليو سنة ١٦٠٦ في مدينة ليدن Leiden.. وكان أبوه طحّاناً يملك طاحونة على الفرع الشمالي من نهر الراين في ضواحي ليدن، وهو الوحيد من أفراد أسرته الذي تحوّل من الكاثوليك إلى مذهب كلڤان في أواخر القرن السادس عشر، وقد أنجب تسعة أولاد، كان رمبرانت الثامن منهم. والتحق الفتى رمبرانت وهو في سن السابعة بالمدرسة الابتدائية والثانوية في ليدن استعداداً لدخول الجامعة؛ وكان برنامج الدراسة يشمل التوسع في اللغة اللاتينية والالمام باليونانية. ولهذا لمّا تخرّج في هذه المدرسة. في سن الرابعة عشرة كان قد حصّل قدراً وافراً من الأدب الكلاسيكي اللاتيني واليوناني. ودخل جامعة ليدن في ٢٠ مايو سنة ١٦٢٠، لكنه لم يستمر في الدراسة بها؛ إذ تجلّت ميوله للرسم والتصوير؛ فأخرجه أبوه من الجامعة، وبَعَثَ به إلى رسام هو يعقوب اسحق فان اسوانبرش Swannburch فتتلمذ عليه حوالى ثلاث سنوات برز فيها في نبوغه في التصوير. وكان اسوانبرش قد أمضى ١٥ سنة في ايطاليا، واشتغل في ڤينا، وروما، وناپلي. ويبدو أنّه عرف فن كاراڤجيو Caravugguo وأسلوبه الواقعي المولع بالموضوع المظلم Chiaroscuro (الضوء والظلام)، فلقّن هذا الأسلوب لتلميذه رمبرانت.

وبعد ثلاث سنوات تقريباً من تتلمذه على اسوانتبرش في ليدن، أخذه والده إلى امستردام ليتدرّب عند الرّسام P. Lastman، الذي عاش في ايطاليا من سنة

١٦٠٣ إلى سنة ١٦٠٥. وقد علّمه لاستمن كيف يرتّب الأشكال في السلم وفي المستويات في ثوانٍ على السطح المرسوم، كأنّه نحت بارز قديم. وأهم من هذا انه علّمه كيف يصوّر المعاني الرئيسية في لوحة بواسطة الضوء، والظل، والبوادر، وموضع الأشخاص، وترتيب مواضع المنظر الطبيعي.

وفي الوقت نفسه راح رمبرانت يدرس أعمال المصورين السابقين والمعاصرين. كما انه أخذ يمارس الحفر على النحاس، إلى جانب التصوير بالألوان؛ وفي ذلك تأثر بألبرشت ديرر Dürer ومارتن شونجاور Schongauer، ولوكاس فان ليدن.

وهكذا تمكّن رمبرانت من أصول الرسم والتصوير والحفر على النحاس Etching، فغادر امستردام عائداً إلى بلده ليدن في سنة ١٦٢٧، وراح يشتغل مع فنان آخر كان تلميذاً للاستمن وهو Jan Lievens. وفي الفترة من ١٦٢٧ إلى ١٦٢٩ راح يصوّر نفسه عدة صور: بالتصوير بالألوان، وبالرسم بالفحم، والحفر على النحاس.

هذه الصور الذاتية التي رسمها في شبابه تتفاوت فيما بينها: فثم صورة ذاتية يصوّر نفسه فيها حوالى سنة ١٦٢٨ ـ وتوجد في متحف الدولة بأمستردام ـ بشعر منكوش ووجه مليء بالانفعال وثم صورة أخرى رسمها حوالى سنة ١٦٢٩ (توجد في متحف لاهاي: Mauritshuis) يصوّر نفسه فيها أنيقاً معتنياً بهندامه.

ثم عاد رمبرانت في سنة ١٦٣١ إلى أمستردام، حيث اشترك مع رسام يتاجر في اللوحات يدعى اولنبرج Uylenburg من أسرة كريمة أصلها من اقليم فريزلند. وعن طريقه تعرّف إلى بنت عمه، وتدعى سسكيا Saskia، بنت أحد أعيان مدينة ليڤاردن Leevarden، فتزوّجها رمبرانت وهو في الثامنة والعشرين من عمره. وفي سنة ١٦٣٢ رسم لوحته الشهيرة «درس في التشريح»، وبها استطارت شهرته. ورسم عدة صور عائلية: منها صورة لزوجته سسكيا وهي راقدة في فراشها وفي وجهها جزع: إمّا أنّه يعبر عن الطلق، او عن حادث فاجع. وقد وُلِدَ له منها ولد سُمّي Rumbatus عمّد في ١٥/ ١٢/ ١٦٣٥ في الكنيسة العتيقة في أمستردام؛ ولكنه مات بعد ذلك بشهرين. ثم ولدت له بنت سمّيت كورتليا عمدت في ٢٢/ ٧/ ١٦٣٨ لكنها ماتت هي الأخرى بعد ٢٣ يوماً! وولدت له بنت ثالثة سمّيت بنفس الاسم وعمدت في ٢٩/ ٧/ ١٦٤٠ فلم تكمل من العمر شهراً حتى توفيت. وأخيراً وُلِد له ولد سُمّي Titus عمّد في ٢٢/ ٩/ ١٦٤١، وقد عاش سبعة وعشرين عاماً. بيد ان سسكيا توفيت في

١٤/٦/١٦٤٢. وهكذا كانت حياة رمبرانت العائلية يحوّم حولها الموت باستمرار.

ولم يشأ رمبرانت ان يسافر الى ايطاليا، كما سافر سائر المصوّرين الهولنديين. وقد عبّر عن رأيه في هذا الأمر في قوله لأحد تلاميذه وهو هوخستراتن Hogstraten: «في وطنك ستجد من ألوان الجمال ما لا تتسع حياتك لفهمه كلّه. وايطاليا، مهما يكن من جمالها، لن تفيدك إذا كنت غير قادر على التعبير عن الطبيعة التي تحيط بك». لكنه مع ذلك كان يعيش في جو الفن الإيطالي: فمعلّماه زارا ايطاليا وتشبّعا بفنها؛ وفي المتحف الذي اصطنعه في بيته كانت هناك لوحات لجويدي وكرتس ويلما وجورجوني، فضلاً عن لوحتين كان يظن أنّهما لرفائيل. وكان فيه اكثر من خمسين تمثالاً مصبوباً لروائع من الفن اليوناني والروماني. وفي لوحته «درس التشريح» يُقلّد لوحة «المسيح ميّتاً» للمصوّر الايطالي منتنيا Mantegna. ثم إنّ لوحة رفائيل بعنوان: «صورة يلتسار كستليوني» (الموجودة حالياً في اللوڤر) ولوحة متسيانو: «صورة أريوستو» (؟) (وتوجد الآن في الجاليري الوطني في لندن) ـ وكانتا آنذاك في حوزة ثري جمّاع هولندي يدعى ألفونسو لوپث Lopez ـ قد أثّرتا في الصورة الذاتية التي رسمها رمبرانت لنفسه على النحاس في سنة ١٦٣٩، والصورة التي رسمها لنفسه بالألوان في سنة ١٦٤٠ (الآن في الجاليري الوطني في لندن)؛ وهي تمثّل تطوراً في فن رمبرانت من الأسلوب المشتعل إلى الأسلوب الرصين الوقور.

❀ ❀ ❀

وفي سنة وفاة زوجته رسم رمبرانت ـ في سنة ١٦٤٢ ـ أشهر لوحاته؛ وعنوانها: «الحراسة الليلية». وهي تصوّر الكاپتن فرانس بانج كوك Frans Banning Cocq الضابط في الحرس الوطني، وهو يأمر الملازم Vlaardingen Von Rujtenburck بالتحرك مع فصيلته. والمكان هو القاعة الكبيرة في قيادة الحرس الوطني. وكانت هذه اللوحة واحدة من عدة لوحات رسمها عدد من مشاهير المصوّرين في ذلك الوقت، نذكر منهم Eliaz, Backer, Flinck, Sandrart تُطلب من قيادة الحرس الوطني لتزين بها القاعة المذكورة. وقد كوفىء رمبرانت على لوحته بمبلغ أربعة آلاف اسكودي.

تعد هذه اللوحة اليوم أعظم نفائس متحف الدولة في أمستردام، ويتقاطر

عليها الناس طوال النهار من شتى البلاد، ويقفون طويلاً أمامها. وكانت حتى سنة ١٩٤٦ مغطاة بالزيت المغلي والورنيش، لكن في عامي ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ أزيل الورنيش فانكشف التلوين اللامع.

وكم أُثيرت المجادلات حول قيمتها! بعضهم يغلو في تقدير قيمتها، والبعض الآخر يبخسها حقها. يقول تلميذه هوخستراتن: «إنَّ فكرتها أخّاذة وترتيبها أنيق، وتأثيرها قوي، إلى درجة ان سائر اللوحات تبدو عليها سمة لعبة الورق».

ومن مادحيها مَن يؤوّلها بحث يجعل هذا الموضوع التافه: ذكرى للحروب المستعرة بين هولندة من ناحية، واسپانيا من ناحية أخرى وانتصارات هولندة على الاحتلال الاسپاني. ولهذا فإنَّه يتصوّرها على أنها «زحف بطولي»، وانها نشيد الزحف للقتال، ونشيد الاستقلال الذي سيعترف به نهائياً في سنة ١٦٤٨.

وبعد وفاة زوجته سسكيا توالت المتاعب على رمبرانت في بيته. ذلك ان أرملة نافخ البوق في سفينته، واسمها Geertghe Disex قد عملت في بيت رمبرانت ظئراً (مربّية) لابنه ميلتوس. ـ اما قبيل وفاة زوجته أو بُعيد وفاتها بقليل. وسرعان ما صارت خليلة له. واستمرت العلاقة حتى سنة ١٦٤٩. إذ استخدمت رمبرانت خادمة تدعى Hendricbje Stabbele قُبيل سنة ١٦٤٩ بوقت غير معلوم، وكانت سنّها ٢٣ عاماً، فتحوّل رامبرنت إلى حبها. فغارت خيرتجه، وتركت البيت في يونيو سنة ١٦٤٩ ورفعت قضية عليه بدعوى انه فسخ وعده إيّاها بالزواج. واضطر رمبرانت إلى ان يدفع لها نفقة سنوية مقدارها ٢٠٠٠ جلدر حتى وفاتها..

وانضافت إلى المتاعب المنزلية أخرى مالية أفضت به إلى الافلاس في الخمسينات من القرن السابع عشر. لقد اشترى بيتاً واسعاً غالي الثمن في شارع القديس أنطون في أمستردام Sint Anthonisbreestraat بمبلغ ١٣,٠٠٠ جلدر في سنة ١٦٣٩؛ على ان يدفع ثلاثة أرباع الثمن خلال ست سنوات، أمّا الباقي فلم يحدد العقد متى يتم الدفع وما مقدار الأقساط؛ ومقابل هذا الدين صار البيت مرهوناً. وبسبب اضطراب أحوال رمبرانت المالية أرسل صاحب الرهن يطالبه بالدين في سنة ١٦٥٣، وقد بلغ آنذاك ٨٤٧٠ جلدر. فاقترض رمبرانت من عمدة أمستردام مبلغ ٤١٨٠ جلدر بدون فوائد لمدة عام، ودفع الدين فوراً؛ واقترض كذلك مبلغ ألف جلدر من صديقه Jan Sie كما اقترض ٤٠٠٠ جلدر بفائدة ٥٪ من تاجر لوحات فنية: فاضطر رمبرانت إلى بيع بعض مقتنيات أملاكه، لكنها لم تكْفِ لسداد ديونه. لهذا ارسل طلباً الى المحكمة

العليا في لاهاي يطلب فيه اشهار افلاسه. ويظهر من هذا الطلب انه كان قد اشتغل في تجارة اللوحات، وانه اشترك في صفقات تجارية بحرية أصابتها الكوارث بسبب الحرب البحرية مع انجلترة. واضطر رمبرانت إلى بيع بيته الكبير في شارع القديس انطون في خريف سنة ١٦٥٨، لكنه لم يغادره إلاَّ في ١٨/١٢/١٦٦٠.

ومن العلاقة بين رمبرانت وخادمته هندريكه وُلِدَت لهما بنت سمّيت كورنليا. وتوفيت هندريكه في يوليو سنة ١٦٦٣.

اما رمبرانت فتوفي في ٤ أكتوبر سنة ١٦٦٩. ودُفن في ٨ أكتوبر في كنيسة ڤستركرك Westerkerk بأمستردام.

❀ ❀ ❀

ولقد أمضيت ما لا يقل عن مائة ساعة في التطلع الى لوحات رمبرانت في متحف الدولة في أمستردام ومتحف مورتس هاوس Mauritshuis في لاهاي. فشاهدت له في متحف الدولة بأمستردام اللوحات التالية:

١ ـ «صورة ذاتية» (حوالى سنة ١٦٢٨).

٢ ـ «والدة رمبرانت» (سنة ١٦٣١).

٣ ـ «رحلة ماريا» (سنة ١٦٣٩).

٤ ـ «الحراسة الليلية» (سنة ١٦٤٢).

٥ ـ «درس التشريح للدكتور دايمان» (سنة ١٦٥٦).

٦ ـ «صورة ذاتية بوصفه القديس بولس» (سنة ١٦٦١).

٧ ـ «موظفو النماذج في نقابة تجارة الجوخ» (سنة ١٦٦٢).

٨ ـ «العروس اليهودية» (حوالى سنة ١٦٦٥).

٩ ـ «طوبيت وحنّة مع الطفل» (سنة ١٦٢٦).

١٠ ـ «انكار القديس بطرس للمسيح» (سنة ١٦٦٠).

أمّا في متحف Mauritshuis في لاهاي فقد شاهدت له:

١١ ـ «صورة ذاتية» (حوالى سنة ١٦٢٩).

١٢ ـ «درس التشريح للدكتور نقولاوس تولپ Tulp» (سنة ١٦٣٢).

١٣ ـ «تقديم يسوع المسيح في المعبد» (سنة ١٦٣١).

وكنت قبل ذلك بسنوات قد شاهدت له في متحف اللوڤر بباريس:

١٤ ـ «صورة تيتوس (ابنه)» (حوالى سنة ١٦٥٩).

١٥ ـ «صورة ذاتية» (سنة ١٦٦٠).

١٦ ـ «بتشيبا تحمل رسالة الملك داوود» (سنة ١٦٥٤).

١٧ ـ «السامريّ الطيب» (سنة ١٦٤٨).

١٨ ـ «حُجّاج عمواس» (سنة ١٦٤٨).

١٩ ـ «أوريان فان رين» [أخوه] (حوالى سنة ١٦٥٠).

٢٠ ـ «هندريكه استوفلس Stoffels» (حوالى سنة ١٦٥٢).

أمام هذه اللوحات يشعر المرء بالانطواء الباطن:

أ ـ فرمبرانت منطو على باطنه يصور نفسه عشرات الصور في مختلف أطوار عمره، وكأنّه محلل نفسي عميق البصيرة، نفاذ إلى أعمق عمائق. ذاته إنّه يتأمل نفسه لا من باب النرجسية المعجبة بذاتها، بل لمزيد من الايغال في أغوار الذات. وفي هذا لمحة صوفية عميقة لا نجد لها نظيراً عند فنّان آخر. ولهذا فإنّما أدعو رمبرانت صوفيّ المصورين.

ب ـ وهو منطو على أسرته، يفرض على أفرادها: زوجته سيسكيا، وابنه تيڤوس، وخادمته خليلته هندريكة ـ المثول أمامه لتصويرهم. وهو في هذا إنّما يصوّر البيئة الهولندية أصدق تصوير: فالبيت الهولندي منطو على ذاته، إذ النوافذ ملوّنة حافلة بالتصاوير لتحجب الضوء الخارجي وتحصر الضوء في الداخل؛ إنّه بيت منغلق، لا يحب الانفتاح على الخارج. ومن المناظر المألوفة أيام الآحاد في المدن الصغيرة والقرى ان ترى أهل البيت في أيام الآحاد قابعين في بيوتهم، يكتفون بفتح نافذة واحدة والتطلع منها إلى العالم الخارجي: يستوي في ذلك العجائز والكهول بل والشباب.

لهذا كانت الموضوعات السائدة في معظم لوحات الفنّانين الهولنديين هي: البيت، والأسرة، والأولاد، وبالجملة: الحياة العائلية بكل تفاصيلها الدقيقة وأوضاعها المبتذلة: طفل يتبرّز، كرسي مطبخ، خادمة تقشّر البطاطا، طماطم وبصل وكرّات، الخ. وهذه الواقعية العائلية لا تجد لها نظيراً عند سائر الفنّانين الأوروبيين من عصر النهضة (القرن الخامس عشر) حتى القرن التاسع عشر.

جـ ـ ويدخل في نطاق هذه «الواقعية العائلية» تصوير الجماعات المهنية:

طلاب الطب يتلقون درساً في التشريح، تجار يحترفون تجارة الجوخ، فصيلة من الحرس الوطني تتحرك لتأخذ مكانها في الحراسة، الخ.

د ـ واتخاذ الفاتح والغامق، الضوء والظل تلويناً أساسياً في كل لوحات رمبرانت إنّما ينبع من نفس الروح: روح الانطواء على الباطن، لأنّ هذا التلوين هو وحده القادر على التعبير عن الانطواء على الباطن. أمَّا الأزرق السماوي، والأحمر والأصفر بكل فروقهما اللونية، والأخضر الفاتح، فكلها ألوان انفتاح على الخارج، وهروب من الباطن، واستشفاف لعمق الروح.

هـ ـ والنسوة اللواتي يصورهن رمبرانت كابيات منطويات على أنفسهن، وعلى وجوههن سمات الحزن العميق ـ فأين هنَّ من نساء روبنس Rubens ذوات الأجساد المنتفخة الوردية، والنهود المترهّلة المترامية، والأفخاذ الهركولة المنفوخة!.

وكلاهما عاش مع ذلك في نفس العصر، وفي نفس البلاد: الأراضي الواطئة ـ مما يقطع بفساد نظرية تين Taine وأنصاره، والتي تزعم ان انتاج الفنان (أو الشاعر والأديب) يتحدّد بالمكان والزمان والجنس. لقد اشترك رمبرانت وروبنس في هذه العوامل الثلاثة، ومع ذلك كان انتاجهما على طرفي نقيض.

إنّما يرجع الأمر اولاً وآخراً الى نفسية الفنان فهي العامل الطبيعي الأساسي الذي يفسّر العمل الفني، أما ظروف الزمان والمكان والجنس فهي عوامل عارضة سطحية التأثير.

حياتي اليومية في هولندة

هولندة في الصيف عكسها في الشتاء:

فهي في الصيف بساط أخضر يمتد من أقصاها إلى أقصاها.

وهي في الشتاء ملاءة ناصعة البياض لا يتميّز فيها غير البيوت والطواحين المكسوّة بالثلوج.

في الصيف تشاهد العشب الممتد إلى غير نهاية، ترعى فيه البقرات الفريزيّة المفوّفة الألوان، وضروعها حافلة بالألبان، ونظراتها شاخصة في الأفق البعيد. ولكم طاف بخلدي في أحلام اليقظة ان أقتني عشرين بقرة، ومرعى واسعاً، وفلا صغيرة يحيط بها هذا المرعى، في المنطقة الممتدة من ليدن إلى لاهاي (دن هاخ)

والتي كنت أجتازها عصر كل يوم في أغسطس سنة ١٩٥٩ راكباً ترام ڤازنار Wasenaar وأنا عائد من عملي في مكتبة جامعة ليدن!

لقد كنت أقضي سحابة النهار في ليدن، أقرأ أو أنسخ وأحقق ما أختار تحقيقه من نفائس مخطوطات مكتبة ليدن، قسم المخطوطات الشرقية. وكان أمين هذا القسم، وهو Voorhofe عالماً واسع الاطلاع، محبًّا للمخطوطات، سبّاقاً إلى تقديم المعونات العلمية للباحثين الذين يتردّدون على المكتبة. ونظراً إلى حاجة المكتبات الأخرى في أوروبا وتركيا إلى الافادة من مخطوطات ليدن، فقد كان على علاقة وثيقة مع المكتبات الأوروبية التي تقتني مخطوطات عربية. وأفدت انا من هذه العلاقة فطلبت منه التوسط للحصول على مخطوطات في مكتبة لينجراد (روسيا) وفي بعض مكتبات استانبول. وبفضله استطعت الحصول على هذه المخطوطات، ولولاه لما تيسّر لي الحصول عليها.

كذلك، يحفل هذا القسم الشرقي بالعديد من المطبوعات النادرة، وخصوصاً الفِصَل المستلّة من مجلات أو مجموعات، كلها أو جلّها مهداة من مؤلفيها للمستشرقين الهولنديين الذين تبرّعوا بمكتباتهم - بعد وفاتهم - لهذا القسم الشرقي - أمثال: رينهرت دوزي، ودي خويه، ودي يونج، واستوك هرفرونيه، وفان آرندونك، وفنسنك (راجع ترجمتنا لسيرهم في كتابنا: «موسوعة المستشرقين»، بيروت سنة ١٩٨٤).

لهذا كانت متعة لا تَعْدِلُها متعة أن أقضي خمس ساعات كل يوم، أثناء اقاماتي المختلفة في هولندة - في هذه المكتبة.

وكنت بين الثانية عشرة ظهراً والثانية بعد الظهر أتناول غدائي في أحد المطاعم العديدة المتنوعة في ليدن. وكنت أوثر منها مطعمين: أحدهما فاخر يحفل بأفخم أطايب الطعام الأوروبي، والثاني متواضع المنظر فيه أتناول أطعمة أندونيسية، أساسها الأرز وإلى جواره عشرة أطباق من التوابل، ثم كفتة على شكل كُرى إمّا وحدها أو غائصة في مَرَق حرّيف. وأحياناً يكون طبق اللحم مؤلفاً من شرائح صغيرة من البط مع شرائح من الأناناس. وكنت أناوب بين الطعام الأندونيسي، والطعام الأوروبي حتى تتحمل معدتي.

ومن المناظر المألوفة في ليدن وسائر بلاد هولندة ان تجد في الشارع عربة محمّلة بالرنجة المملّحة أو الحلوة، وإلى جوارها طبق كبير مملوء بالبصل المخروط، ويقف الناس عند العربة ويرفعون في أيديهم إلى أعلى أسماك الرنجة

مخلوطة بالبصل ثم يتناولونها بأفواههم الفاغرة ويأخذون في قضمها بشغف شديدا وربما استغنوا بذلك عن وجبة طعام.

ومن الوجبات الفريدة في هولندة ما يسمى بـ «مائدة الجُبنة» Kaastafel وهي وجبة من شرائح عريضة من مختلف أنواع الجبن الهولندية: ايدام Edam، خودا Gouda الخ ـ مع تناول الشاي، وذلك كغداء في الظهيرة. وهي وجبة يتناولها معظم العاملين في وقت الغداء، أملاً في ان يتناولوا الطعام الساخن في العشاء.

۞ ۞ ۞

وبعد قضاء سحابة النهار في ليدن، كنت أعود في ساعة الأصيل إلى أمستردام، فأجلس في مقهى دي پول De Pool القريب من الميدان الملكي؛ وإلى هناك توافيني صاحبتي، لنقضي معاً الأماسي. فإن كان اليوم يوم الأربعاء ذهبنا في الساعة السادسة والنصف إلى الكنيسة القديمة لسماع موسيقى الأورغن بقيادة فايك أسما Feik Asma. وفي ليلة الأحد نذهب إلى المقهى الضخم في ميدان رمبرانت، حيث يجتمع الآلاف من الناس لسماع موسيقى «جاز» صاخبة؛ في جو صاخب حافل. ونذهب مرة أو مرتين كل اسبوع إلى مبنى الكونسرت Concertgebouw حيث تعزف الأوپرتات، وتعرض الأوپرتات، إمَّا بواسطة فرق هولندية وإمَّا بفرق أجنبية.

أسفاري في ربوع هولندة

أمَّا في أيام الآحاد فإني كنت وصاحبتي نسافر إلى بلد يستحق المشاهدة:

أ ـ فسافرنا مرة إلى أوترخت، وتملّينا طويلاً بمشاهدة البرج الشاهق المقام وحده، وهو أعلى برج في هولندة، إذ يبلغ ارتفاعه ١١٢ متراً، وبجواره كاتدرائية القديس مارتن (بُنيت من القرن الثالث عشر إلى السادس عشر). وفيه ناقوس ضخم، حرصتُ على أن أنقش اسمي عليه ـ وأرجو أن تكون الكتابة باقية! والمعمار الذي بناه يدعى Jan Ten Doem.

وقد أُنشئت اوترخت Utrecht (واسمها الروماني الأصل هو Trajectum Ad Rhenum = معبر على نهر الراين) في القرن الأول من الميلاد حول معسكر ألبيولا Albiola الذي كان أقصى حاميات دفاع الامبراطورية الرومانية من ناحية الشمال ضد القبائل البيتونية المتوحشة. واتخذها الاسقف

Willibrord مقراً لأسقفيته حوالى سنة ٦٩٥، ومن هنا نشر المسيحية في مناطق واسعة في شمال غربي أوروبا. ثم تطورت إلى مركز ديني وتجاري هام، وصارت عضواً في العصبة الهنسياتية التجارية. واتخذ منها الأباطرة الجرمان الأوائل مقراً لهم مرات عديدة، وصار لها حكم ذاتي في سنة ١١٢٢، ومجلس مدينة في سنة ١٣٠٤. وصارت جزءاً من ممتلكات آل هبسبرج في سنة ١٥٢٧. لكنها قامت بدور كبير في نضال الأقاليم الهولندية من اجل الاستقلال عن اسپانيا ولهذا فإنَّ اتحاد الولايات السبع البروتستنتية في الأراضي الواطئة (وهي هولندة، زيلند، اوترخت، خلدرلند، خرونخن، فريسلند، اوفريسل Overyseel) في سنة ١٥١٩ عرف باسم «اتحاد اوترخت» وكان ذلك الاتحاد هو أساس «الجمهورية الهولندية» التي استمرت حتى سنة ١٨١٤.

وفي اوترخت جامعة تأسست سنة ١٦٣٦، وهي أوسع الجامعات الحكومية في هولندة، وبها مكتبة كبيرة استقرت في قصر الملك لويس نابليون، وبها مخطوط للمزامير من العصر الكارولنجي.

وإلى جانب كاتدرائية القديس مارتن الآنفة الذكر، توجد كنائس عديدة نذكر منها: كنيسة القديس بطرس (أسست سنة ١٠٤٨). وكنيسة نقولا (١١٣١)، ويانس Janskerk (سنة ١٠٤٠)، والقديسة كرونيه (سنة ١٤٦٨، وهي الآن الكاتدرائية الرومانية الكاثوليكية). ومن أبناء أوترخت كان البابا أوربانوس السادس.

وفي المساء عدت وحدي إلى أمستردام، أما صاحبتي فقد سافرت إلى بلدتها امرسفورت Amersfoort القريبة من اوترخت، حيث يقيم اهلها.

ب ـ وسافرنا مرة الى S-Hertogembosch الواقعة في الجنوب الشرقي من هولندة، لأنَّ بها كاتدرائية قوطية شهيرة تدعى كاتدرائية القديس يوحنا Sint Jan (بُنيت من القرن ١٤ إلى القرن ١٦)، وتمتاز بأن بها خمسة قطاعات طولية، ونوافذها من الزجاج الملوّن.

وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى الدوق (= Hertog) هينرش الأول دوق برابنت Brabant، وصارت مدينة في سنة ١١٨٥، وظلّت محصّنة حتى سنة ١٨٧٦.

جـ ـ ونظراً إلى أن سوق الجبنة في ألكمار إنّما يقع في يوم الجمعة، فقد اخترنا لزيارتها يوم جمعة. فوجدنا في السوق أكياساً هائلة من أقراص الجبن

الضخمة التي قد يزن القرص الواحد منها مائة كيلوجرام أو يزيد.

وألكمار Alkmaar تأسست في القرن العاشر الميلادي، ولعبت دوراً بطولياً في النضال ضد الاحتلال الأسپاني، وحاصرها الجيش الأسپاني سنة ١٥٧٣ فصمدت للحصار واضطر الجيش الاسپاني ان يرتد عنها خائباً مدحوراً.

ولم يكن الدافع عندي لزيارة ألكمار مشاهدة سوق الجبن بقدر ما كان ذكرى عابرة. ذلك أنّي كنت في زيارة لمدينة شارتر مع صاحبتي الهولندية، فتعرفّنا إلى طائفة من الفتيات الهولنديات الفاتنات اللواتي كنَّ في سن دون العشرين. وجذبت انتباهي منهنَّ خصوصاً فتاة ناعمة رقيقة وردية الخدين زرقاء العينين بضّة غضة، تدعى Nelcke (= بنفسجة) وآثرتها بالحديث تاركاً لصاحبتي التحدث إلى مواطناتها الأخريات. وعرفت منها انها تسكن في ألكمار، وأعطتني عنوانها هناك. فآليت ان سافرت إلى هولندة في العام التالي ان أزورها في بلدها. وعدت إلى هولندة في العام التالي، لكن عنوانها ضاع منّي! لهذا كان منظراً مضحكاً منّي ان أتجول ـ ومعي صديقتي ـ في سوق ألكمار وطرقها الضيقة وأنا أهتف ضاحكاً: نلكا، نلكا! ولم يكن ثم مجيب. ولأنَّ صاحبتي عرفت أنّي لا أحمل عنوان نلكا، فقد شاركتني هي الأخرى في هذا المزاح، ولا عليها ولا محل لغيرتها، فإنّها كانت تعلم علم اليقين أنّنا لن نعثر عليها ونحن نهتف باسمها عالياً في شوارع ألكمار.

د ـ وشاهدنا دلفت Delft واستعدنا تاريخ هولندة في عهد آل اورانج ناساو Nassau - Oraniem، ففيها قبور أمراء هذه الأسرة. وفيها بلاط الأمراء، الذي كان مقراً لڤلهم فون أورانج. غير ان شهرة المدينة الآن تقوم في صناعة الخزف، وخزف دلفت من أشهر أنواع الخزف في العالم، ويسوده التلوين بالأزرق. وقد بدأ ازدهار فن الخزف في دلفت حوالى منتصف القرن السابع عشر واتخذ له آنذاك موضوعات للتصوير على الخزف عديدة: منها: مناظر بحرية، بحّارة، مناظر طبيعية، موضوعات من الكتاب المقدس، صور أشخاص. وكان التنفيذ يجري بالكمايو الأزرق؛ وبرز في هذا التصوير عدة رسامين، أشهرهم ابراهام دي كوخه Abraham De Cooge وفان فريتوم Van Friytom. وقد تأثر هؤلاء الخزفيون بخزف الشرق الأقصى: الصيني ذي اللونين الأزرق والأبيض! والياباني ذي اللونين الأحمر والذهبي. ومهر خزّافو دلفت إلى حد ان نافسوا أساتذة الفن الصيني والياباني. ثم انهم في

نهاية القرن السابع عشر أخذوا في استعمال اللون الأسود.

ومنذ القرن السابع عشر أخذ فن دلفت يغزو فن الخزف في بلدان ألمانيا إذ صاروا يحاولون تقليده في مصانع مدن: هامبورج، وهناو Hanau، وفرنكفورت. كما أخذت مصانع انجلترة في تقليده، وذلك في مصانع مدينتي برستول وليڤرپول؛ حتى سمّي الخزف فيهما اسم دلفت: Delftware.

وقد شاهدت في متحف الدولة في أمستردام مجموعة ممتازة من الأواني الخزفية Vases المصنوعة في دلفت في بداية القرن الثامن عشر.

وكان فيه «المينا» من أبرز الفنون الاسلامية في القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر للميلاد)، تشهد على ذلك الأواني الخزفية التي عثر عليها في سامرّا (العراق) والرقة (سوريا). وفي مصر في العهد الفاطمي تقدّم هذا الفن تقدماً كبيراً، تشهد عليه الأواني الخزفية التي عثر عليها في حفائر الفسطاط وبني حسن، ويرجع تاريخها إلى الفترة من سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٦٩م إلى ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م. وفي ايران عثر على أنواع متقدمة الصناعة في مدن ساوة، وقاشان، والريّ (قرب طهران). وفي الوقت نفسه ازدهر هذا الفن في الأندلس، خصوصاً ابتداء من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وقد عثر على بعضها في حفائر مدينة الزهراء التي أسّسها الخليفة عبد الرحمن في سنة ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦ م وقد اشتهرت المرية ومُرسيه وملقا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) بأوانيها المذهّبة. ولما جرى العمل في تزيين قصر الحمراء في غرناطة ابتداء من سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م انتعشت مصانع الخزف لصنع البلاط الذي يغطّي الأرضية، وكان في الحمراء أوان خزفية مزيّنة بالتوريق وبرسوم الحيوان.

لكن التصوير في هذا الفن الاسلامي اقتصر على التوريق (الرسوم النباتية) وعلى رسم الحيوان؛ ولم نعثر حتى الآن على تصوير لانسان. وليس السبب في هذه الظاهرة ما ذهب إليه بعض الفقهاء من تحريم تصوير الانسان، لأنهم حرّموا أيضاً تصوير الحيوان. ومع ذلك فإن تصوير الحيوان في الاسلام قديم جداً يرجع إلى العصر الأموي: فإنّ جدران قصير عمرة حافلة برسوم الحيوان، وكذلك قصور الفاطميين في مصر، كما وصفها لنا المقريزي في «الخطط». وقصور بني أمية في الأندلس لا تزال شاهدة على ذلك حتى اليوم، بل ان المنصور بن أبي عامر، وكان من أكثر الحكام تشدّداً في أمور الدين، كان في قصره رسوم للحيوان عديدة. ماذا أقول، بل إنّ المقرّي في «نفح الطيب» (راجع ترجمة جانيجوس، جـ ١ ص ٢٣٢) يذكر ان تمثالاً للزهراء كان منصوباً على باب مدينة الزهراء. ويؤيد ذلك اكتشاف

قطعة من تمثال قريب الشبه من التماثيل الرومانية في حفائر مدينة الزهراء. (راجع Velazquez Basco Medina Azzahra, Pl. XXXV)، تمثال انسان عليه ثوب. ومعنى هذا هو ان الحكام المسلمين وعامة الجمهور من المسلمين والفنانين المسلمين لم يحفلوا بما زعمه بعض الفقهاء من تحريم رسم الانسان والحيوان في الاسلام وبما اخترع لتبرير هذا الزعم من أحاديث منسوبة إلى النبي.

لكن قيام فن الخزف في دلفت لا يرجع إلى تأثير الخزف الاسلامي، بل إلى تأثير الخزف الصيني والياباني الذي كانت تنقله الشركة الشرقية الهولندية من الصين واليابان الى هولندة.

الحياة الأدبية والفكرية في هولندة المعاصرة

وقد حاولت التعرّف الى الأدب الهولندي المعاصر لعلّي أجد فيه ما يضارع التقدم الاقتصادي والعلمي في هولندة. لكن خاب أملي.

ذلك ان الانتاج الأدبي في هولندة فقير نسبياً. وقد قيل في تفسير ذلك ان الناطقين بالهولندية قليلون. ١٣ مليون في هولندة، ٤ مليون في بلجيكا، ٦ مليون في افريقية الجنوبية، نصف مليون في شتى بقاع العالم ـ والمجموع ٢٣,٥ مليون ناطق بالهولندية. لكن هذا السبب غير كافٍ. فالناطقون بالفرنسية في القرن السابع عشر كانوا لا يزيدون عن عشرين مليوناً (أول احصاء رسمي للسكان في فرنسا جرى سنة ١٨٠١، وكان عدد السكان ثمانية وعشرين مليونا)، والناطقون بالانجليزية كانوا أقل من ذلك، وكذلك الناطقون بالايطالية والاسبانية ـ ومع ذلك كان الانتاج الأدبي في فرنسا (وكذلك واسبانيا) في أوج ازدهاره. إذن لا عبرة بعدد السكان، وإلاّ لكان الانتاج الأدبي في الصين أعظم من انتاج سائر الدول المتحضرة في العالم كله! لهذا لا محل لتفسير فقر هولندة في الانتاج الأدبي والفكري بقلة الناطقين باللغة الهولندية. وانما هي ظاهرة طبيعية أعني واقعة قائمة وهي نضوب العِرق الأدبي في هذا الشعب المتقدم في التجارة والملاحة والزراعة وشؤون المال.

والشخصية الأدبية (بالمعنى الواسع جداً لكلمة «أدب») ذات القيمة الدولية بين الكتّاب الهولنديين هو يوهان هاوزنجا Johan Huizinga (١٨٧٢ ـ ١٩٤٥).

وكتابه: «انحلال العصر الوسيط) (سنة ١٩١٩) ترجم الى لغات أوروبية عديدة. ومن اعماله الأخرى الواسعة الانتشار سيرة للمفكر الانساني النزعة ارسموش ـ الذي تحدّثنا عنه من قبل (سنة ١٩٢٤). كذلك كتابه «الانسان اللاعب» (سنة ١٩٣٨) Homa Ludens وفيه يبحث عن دور اللعب في المدنية، نال شهرة واسعة. وقد تناول المدنية الأمريكية في دراسات عميقة، احداها بعنوان: «الانسان والعامّة في امريكا»، والثانية بعنوان: «أمريكا كما تعيش وتفكر». وتحليله للحضارة الحديثة تسوده روح متشائمة، كما يظهر في كتابه «في ظلال الغد» (سنة ١٩٣٥) الذي ترجم إلى تسع لغات.

وكان في بداية حياته مستشرقاً، وقام بالتدريس اولاً في جامعة خرونخن ثم بعد ذلك في ليدن من سنة ١٩١٥ حتى سنة ١٩٤١. لكنه اتجه بعد ذلك الى دراسة تاريخ هولندة، خصوصاً، القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر. وقد جمع في كتبه بين نصاعة الأسلوب والقدرة على العرض المُنَظّم، مع الاستعانة بالدراسة العينية للمدن والنظم.

أمّا من الأدباء بالمعنى المحدود، فإنّنا نجد في المقام الأول:

أ ـ لويس كوپيروس Couperus (١٨٦٣ ـ ١٩٠٣) القصصي الذي يعدّه الهولنديون أكبر قصاصيهم. وأول قصصه هي بعنوان Elni Vere (سنة ١٨٨٩) وفيها يروي السقوط النفسي لفتاة موهوبة مرهفة الاحساس، لكنها مصابة بداء المالنخوليا الذي أفضى بها إلى الانتحار. وهي تشبه رواية «أنا كرنينا» لتولستوي. لكن كوپيروس كان متأثراً خصوصاً بفن اميل زولا، أي النزعة الطبيعية في كتابة القصة. وكما جعل زولا من باريس مسرحاً لأبطال قصصه، فإنّ كوپيروس قد جعل من لاهاي (هولندة) مسرحاً لأبطاله الذين يعيشون في جوّ مترف منحل، وينساقون وراء دوافعهم الطبيعية المنحلّة. لكن نزعته الطبيعية ليست نابعة من تصورات علمية كما هي الحال عند زولا، بل من جبرية على غرار الجبرية اليونانية التي تؤمن بالقدر والمصير المقدّر المحتوم.

ويندرج تحت هذا القسم من القصص التي مسرحها مدينة لاهاي القصص التالية:

١ ـ «القدر المحتوم» (سنة ١٨٩٠).

٢ ـ «النشوة» (سنة ١٨٩٢).

٣ ـ «وهم» (سنة ١٨٩٢).

٤ ـ «كتب النفوس الصغيرة» (سنة ١٩٠١ ـ ١٩٠٣).

٥ ـ «الأمور العابرة عند العجائز» (سنة ١٩٠٦).

وفي هذه القصة الأخيرة يتحدث عن امرأة عمرها خمس وتسعون سنة كانت قد حملت حبيبها، قبل ذلك بنصف قرن، على ارتكاب جناية قتل، اشترك فيها ايضاً طبيب. ويلتقي هؤلاء الثلاثة العجائز كل يوم وهم في أرذل العمر، فيتبادلون ذكرياتهم الفاجعة الآثمة ويتبادلون الندم.

ولما كان كوپيروس قد أمضى ملاوة من شبابه في أندونيسيا، فقد جعل منها مسرحاً لبعض قصصه، وهي:

١ ـ «القوة الصامتة» (سنة ١٩٠٠).

٢ ـ «صاحب الجلالة».

٣ ـ «السلام العالمي».

والصنف الثالث من قصصه هو القصص التاريخية. ويندرج فيه القصص التالية:

١ ـ «ديونوسوس» (سنة ١٩٠٤).

٢ ـ «جبل النور» (سنة ١٩٠٦) ـ وتجري أحداثها في أحط عصور الامبراطورية الرومانية».

٣ ـ «السياحة القديمة» (سنة ١٩١١) ـ وهي رحلة خيالية في مصر القديمة.

٤ ـ «هرقل» (سنة ١٩١٣).

٥ ـ «البائس» (سنة ١٩١٥) وتدور أحداثها في اسپانيا في القرن الخامس عشر.

٦ ـ «الممثلون الهزليون» (سنة ١٩١٧) ـ وتروي قصة فرقة من الممثلين الهزليين الجوالين العابرين بمدينة روما.

٧ ـ «اكسپركسس» (سنة ١٩١٩).

٨ ـ «الاسكندر» (سنة ١٩٢٠). وتروي سيرة الاسكندر الأكبر المقدوني في لوحات مؤثرة عريضة، خصوصاً معاركه. ومغزاها ان الاسكندر قد هزمته انتصاراته.

وفي كل هذه القصص يمتاز كوپيروس بالمهارة في حبك العقدة، وفي الموازنة في المزج بين الوصف وبين الحوار، وبالحيوية في عرض الشخصيات، وفي التحليل النفسي العميق.

ب ـ مرسمان Hendrik Marsman (١٨٩٩ ـ ١٩٤٠) ـ وهو شاعر وناقد احتل مكان الصدارة في الأدب الهولندي ما بين الحربين العالميتين. وقد تأثّر بالنزعة التعبيرية التي انتشرت في المانيا فيما بين سنة ١٩١٠ و١٩٢٠، والتي تولّدت عن القلق والسلب، والتمرد.. وامتاز أصحابها بالتمرد على كل البناء الاجتماعي والأخلاقي والعقلي في ذلك العصر. إذ اكتشفوا فزعين ان هذا المجتمع آلة جبارة لطحن الأفراد، وانه قائم على مواصفات متحجّرة، وان كل ما فيه مصطنع، ووراء الواجهات المستكبرة لا يوجد إلاّ خواء قاتل. ومن أبرز القصصيين الألمان الممثلين لهذه النزعة التعبيرية. نذكر: فرانتس ڤرفل Werfel (١٨٩٠ ـ ١٩٤٥) والفرد ديبلن Döblin (١٨٧٨ ـ ١٩٣٧)، وهينرش مانّ (١٨٧١ ـ ١٩٥٠).

وكان مرسمان ذا نزعة دينية لكنها منفصلة عن المسيحية. وكان يرى ان الفن هو «تفتح» لكل القوى الحيوية في الفنّان. وتتجلى هذه النزعة الحيوية خصوصاً في مجموعتيه الشعريتين الأوليين: «أشعار» Verzen (سنة ١٩٢٣)، و«الفردوس المستردّ» (سنة ١٩٢٧). وفي احدى قصائده الأولى، وعنوانها: «سيطرة»، يصوّر نفسه على انه شهابة يخترق الفضاء ظافراً، وأمامه يستسلم كل شيء، وينهار.

غير انه ابتداء من سنة ١٩٢٥ أخذ يتلاشى إيمانه بالنزعة الحيوية، إذ وجدها لا تنتج إلاّ الفوضى والاضطراب. وأخذ في التأمل الهادىء، وصارت مشكلة الموت تشغله بقوة، كما يظهر في كتابه: «الباب الأسود» Porta Nigra (سنة ١٩٣٤).

وبدأ يتأثر بحضارة البحر المتوسط، والحضارة اليونانية بخاصّة. وراح يتأمل الصراع بين المسيح وبين الاله اليوناني دونوسوس، وينتهي الى اعلان انتصار الاله اليوناني على الاله المسيحي، وهو ما عبر عنه في مجموعة شعرية بعنوان: «المعبد والصليب» (سنة ١٩٣٩).

وله ـ إلى جانب الشعر ـ مقالات في النقد جيدة جمعها في ثلاثة كتب هي:

١ ـ «درس التشريح» (سنة ١٩٢٦).

٢ ـ «حكم ذيوجانس» (سنة ١٩٢٨).

٣ ـ «القضاء المستعجل» (سنة ١٩٣١).

جـ ـ وتوفي معه في نفس العام منّو تر براك Menno Ter Braak (١٩٠٢ ـ ١٩٤٠) الكاتب والمؤرخ، وأكبر المجادلين في عصره في هولندة. ذلك انه ناضل ضد النزعة المحلية والتربية البروتستنتية ابتغاء الوصول إلى نزعة فردية مماثلة لنزعة نيتشه. وكتاباته الجدلية يتناول فيها:

١ ـ التعارض بين البورجوازي والشاعر، وذلك في كتابه: «كرنڤال البورجوازيين» (سنة ١٩٣٠).

٢ ـ السيطرة المسيحية على الحضارة والفكر في هولندة، وذلك في كتابه: «وداعاً لبلد القساوسة» (سنة ١٩٣١).

٣ ـ ويحارب تهاويل عبادة الجمال، وذلك في كتابه «هتك عبادة الجمال» (سنة ١٩٣٢).

٤ ـ ويحارب الالتزام السياسي بأي حزب قائم (ماركسي أو ديمقراطي لبرالي) وذلك في كتابه: «السياسي بدون حزب» (سنة ١٩٣٤).

٥ ـ ويتجلّى تأثره العميق بنيتشه في كتابه: «نصارى الماضي ونصارى اليوم» (سنة ١٩٣٧)، وفيه يرى ان دخل العبيد هو الدافع المحرك للمسيحية وللحضارة الغربية. اذ رأى ان جوهر المسيحية انما يقوم في النزعة الداعية إلى التسوية بين الناس، حتى ان الديمقراطية والماركسية صارتا المواصلتين للمسيحية منذ ان تزعزع الايمان بالغيب.

وله قصّتان: الأولى بعنوان: «السيد دوماي يخسر» (سنة ١٩٣٣) وفيها يريد التعبير العيني عن التقابل بين: البورجوازي الواقعي وبين المثقف العقلي. لكنها من الناحية الفنية رديئة، لسيادة الفكرة العقلية فيها. والثانية بعنوان: «هامپتون كورت» Hampton Court (سنة ١٩٣١)، وفيها بذور نزعة وجودية.

ولما غزا الألمان هولندة في مايو سنة ١٩٤٠ آثر براك الانتحار. وقد كان له دور كبير في التأثير على الشبيبة الهولندية بمقالاته ـ هو وزميله Du Perron الذي سنتحدث عنه بعد قليل ـ التي كان ينشرها في مجلة Forum (١٩٣٢ ـ ١٩٣٥) ومجلة «هولندة الكبرى» Groot - Nederland .

د ـ أما دي پرون Eddy Du Perron (١٨٩٩ ـ ١٩٤٠) فشاعر وقصصي وكاتب مقالات ينحدر من اصل فرنسي وقد أمضى شبابه في أندونيسيا، ثم

عاد إلى اوروبا فعاش أولاً في باريس عيشة بوهيمية في حيّ مونپارناس، وعمل صحفياً وتصادق مع اندريه مالرو الذي أهدى اليه كتابه الشهير «حال الانسان». ثم عاد إلى أندونيسيا في سنة ١٩٣٤، وتعرّف إلى بعض الزعماء الوطنيين الأندونيسيين، وشاركهم في جهادهم الوطني وكتب مقالات ضد الاستعمار الهولندي. ثم عاد إلى هولندة، لكنه ما لبث ان توفي بنوبة قلبية في عام ١٩٤٠.

وفي شعره جموح إلى التمرّد والعدوان. وهو في شعره ونثره يميل إلى البساطة في التعبير، وينأى عن البلاغة والمبالغة والصنعة الأدبية.

وله سيرة ذاتية بعنوان «البلد الأصلي» (سنة ١٩٣٥) يروي فيها حياته في شبابه في جاوة، ثم حياته في باريس؛ حيث يذكر احاديثه الحارة مع أصدقائه، ويكشف عن جانب من الحياة الفنية والأدبية في باريس في الثلاثينات من هذا القرن.

وكان شديد الإعجاب بالكاتب الهولندي مولتا تولي، فكتب عنه كتاباً بعنوان: «الرجل الذي من لباك» (١٩٤٧).

هـ ـ ومولتا تولي Multatuli لقب اتخذه ادوار داوس دكر Dekker (١٨٢٠ ـ ١٨٨٧) ومعنى هذا اللقب باللاتينية: «تألمت كثيراً». وكان ذا نزعة رومنتيكية، يتعرض لنوبات نورستائية. وتعالى على عصره ووطنه، وهاجم ما فيه من وضاعة وتفاهة. وعمل موظفاً في اندونيسيا من سنة ١٨٥٢ ـ ١٨٥٧ فتأثر بسوء حال الوطنيين لما جرّه عليهم الاستعمار الهولندي من بلاء وشقاء. لهذا وقع في مشادّة عنيفة مع زبانية الاستعمار الهولندي في اندونيسيا، واضطر الى الاستقالة من عمله. فعاد إلى هولندة، وتنقل بين أمستردام ولاهاي وبروكسل، ثم استقر به المقام في المانيا. وفي سنة ١٨٦٠ نشر كتابه Marc Havelaar وهو قصة ملأها بالهجوم على الاستعمار الهولندي، وطالب فيها برفع الظلم عن الأندونيسيين الوطنيين. وهذا الكتاب يجمع بين شيئين: نقد عنيف للاستعمار، وسخرية من عالم المَلَل والتفاهة. ومن أشهر فصوله خطبة وجهها هافلار إلى زعماء «لباك» (لباك بلد في أندونيسيا). وقد لقي هذا الكتاب نجاحاً هائلاً، وترجم إلى اكثر من عشر لغات.

وكتب بعد ذلك «رسائل غرام» (سنة ١٨٦٢) و«افكار» يجمع بين الأقاصيص والمذكرات والمفارقات (سبع مجموعات سنة ١٨٦٢ ـ ١٨٧٧).

وكان مولتا تولي ملحداً صادقاً في الحاده، فهاجم المسيحية هجوماً عنيفاً، وعلى نحو قريب من هجوم نيتشه.

ويعد أكبر أديب هولندي في القرن التاسع عشر.

و ـ ومن القصصيين البارزين ارتور فان اسخندل Schendel (١٨٧٤ ـ ١٩٤٦). وُلِدَ في باتاڤيا (أندونيسيا)، وصار معلماً في انجتلرة فترة من الوقت، وأمضى مدة طويلة في ايطاليا. وأول قصة نشرها هي بعنوان Dragon (سنة ١٨٦٩) وفيها يحكي قصة شاب من علية القوم يعيش في العصر الوسيط، وقد قُدِّر عليه ان يرتكب الشرّ. وفكرة القدر السابق هذه تسود كل قصص اسخندل.

وينقسم انتاج اسخندل الى فترتين: الفترة الايطالية والفترة الهولندية.

في الفترة الأولى نجد مسارح قصصه في مكان غير محدد من ايطاليا ابان العصر الوسيط. وشخوصها شخوصاً متوحدة، حالمة. وتنسب إلى هذه الفترة القصص التالية.

١ ـ «متشرد عاشق» (سنة ١٩٠٤).

٢ ـ «متشرد ضال» (سنة ١٩٠٧).

٣ ـ «جَبَل الأحلام» (سنة ١٩١٣).

٤ ـ «أزهار الحب» (سنة ١٩٢١).

٥ ـ «انجلينو والربيع» (سنة ١٩٢٣).

٦ ـ «ميرونا، رجل مهذب» (سنة ١٩٢٧).

أمّا الفترة الهولندية فتصور الحياة في هولندة ومستعمراتها، ونشاط الهولنديين في الاستعمار والبحرية والتجارة. وتبدأ هذه الفترة بقصة عنوانها: «الفرقاطة يوحنا ماريّا» (سنة ١٩٣٠)، وتسودها شخصية البحّار براوڤر Brouver الذي بقي متعلقاً بالسفن الشراعية، في الوقت الذي بدأت فيه السفن البخارية تسود البحار. وتلاها بقصة «شركة يان» (سنة ١٩٣٢) و«رجل الماء» (سنة ١٩٣٣)، و«دراما هولندية» (سنة ١٩٣٥)، و«رجل ثري»، و«الطيور السنجابية» (سنة ١٩٣٧). وشخوصها من رجال الطبقة الوسطى الصغيرة الهولندية في القرن التاسع عشر:

فقصة «رجل الماء» تصف الحياة القاسية على مركب شراعي في بداية القرن التاسع عشر؛

وقصة «دراما هولندية» تروي الجهود التي بذلها رجل شريف من اجل ارشاد وتقويم شاب مصاب بجنون السرقة.

و«رجل ثريّ» تحكي قصة انسان يريد ان يحقق حرفياً دعوة المسيح الى التجرد من كل ثروة؛

و«الطيور السنجابية» تتخذ من موضوع النبي أيوب مضموناً لها؛

وابتداء من سنة ١٩٣٨ صارت قصصه أقل كآبة، كما يظهر في القصص التالية:

١ ـ «العالم، رقصة مرحة» (سنة ١٩٣٨).

٢ ـ «الحدائق السبع» (سنة ١٩٣٩).

٣ ـ «السيد أوبرون ومدام» (سنة ١٩٤٠).

٤ ـ «عدو البشر» (سنة ١٩٤١).

٥ ـ «لعبة من لُعب الطبيعة» (سنة ١٩٤٢).

ز ـ والشاعر اسلاورهوف J. Slauerhoff (١٨٩٨ ـ ١٩٣٦) شاعر رومنتيكي صادق، يتجلى فيه التمرد على المدنية وعلى حال الانسان بعامة، والحنين الى حياة المغامرة، والملال، والحزن الرقيق.

وُلِدَ في ليڤاردن Leewarden (بمقاطة فريزلند). وكان طبيباً في البحرية، فمكّنه ذلك من القيام بأسفار بحرية بعيدة: إلى الصين، وإلى امريكا الجنوبية. أقام فترة في طنجة (المغرب). وتوفي في هلفرسوم بعد مرض طويل وهو في الثامنة والثلاثين من عمره.

وله المجموعات الشعرية التالية:

١ ـ «أرخبيل» (سنة ١٩٢٣).

٢ ـ «الدورادو» (سنة ١٩٢٨).

٣ ـ «سوليارس» (سنة ١٩٣٣).

٤ ـ «قبر بحار شريف» (سنة ١٩٣٦).

وله ثلاث قصص هي:

١ ـ «الدولة المحظورة» (سنة ١٩٣٣) ـ وفيها يصف حياة الشاعر البرتغالي الكبير Carnoëus؛

٢ ـ «الحياة على الأرض» (سنة ١٩٣٤) وموضوعها هو الأفيون؛

٣ ـ «تمرد جواد لخارا (وادي الحجارة)» (سنة ١٩٣٧).

واسلاور هوف متمرد على المجتمع، يحلم ببلاد عذراء، ذات ماض عظيم. ويعرض في قصصه: متشردين، ومنفيين، ومغامرين من كل صنف: أوروبيين، وصينيين، ومكسيكيين. والمؤلف يتحدّث احياناً عن الفتوحات والمعارك والبحث عن الذهب.

وفي شعره لمحات من رانبو Rimbaud ولافورج Laforgue وكوربير Corbière، ولهذا ينعت بأنه «شاعر رجيم».

حـ ـ وسيمون فستديك Vestdijk (وُلِدَ سنة ١٨٩٨ ـ   ) شامل الانتاج الأدبي: الشعر، النقد الأدبي، المقال، القصة، الأقصوصة. وهو من حيث تكوينه طبيب، عمل فترة من الزمن طبيباً شأنه شأن اسلاور هوف، لكنه لم يقم بأسفار طويلة مثله.

وانتاجه في الشعر غزير، يضمه اكثر من عشرين مجموعة نذكر منها:

١ ـ «لوحة ألوان مقفّاة» (سنة ١٩٣٣).

٢ ـ «عبادة المرأة» (سنة ١٩٣٤).

٣ ـ «ابن المدينة والريف» (سنة ١٩٣٦).

٤ ـ «خرافات مكتوبة بالطباشير الملوّن» (سنة ١٩٣٨).

٥ ـ «أساطير صاعدة» (سنة ١٩٤٠).

٦ ـ «الثانية الأخيرة» (سنة ١٩٤٤).

٧ ـ «منوموزين Muenmosyne في الجبال» (سنة ١٩٤٦).

٨ ـ «الموت مقيّداً» (سنة ١٩٤٨).

٩ ـ «أغاني خستل Gastel» (سنة ١٩٤٩). وخستل كانت معسكر اعتقال اعتقل فيه عدد كبير من المثقفين الهولنديين أثناء الحرب العالمية الثانية.

وألّف أكثر من ثلاثين قصة تنقسم إلى: «قصص نفسانية، وقصص تاريخية، ويظهر تأثره خصوصاً بالقصصي الفرنسي مارسل پروست. ذلك انه ألّف ثماني قصص تشبه سلسلة قصص پروست التي بعنوان: «بحثاً عن الزمان الضائع». ونذكر

من بين قصص فستديك هذه المشابهة لمجموعة پروست، القصص الأربع التالية التي يحكي فيها عن طفولته وشبابه:

١ ـ «عود إلى اينا دمّان» (سنة ١٩٣٤).

٢ ـ سان سبستيان» (سنة ١٩٣٩).

٣ ـ «حديقة النحاس» (سنة ١٩٥٠).

٤ ـ «الفرصة الأخيرة» (سنة ١٩٦١).

وفي قصة «هبوط السيد فسر Visser الى العالم السفلى» (سنة ١٩٣٦) يصوّر بورجوازياً صغيراً ينزع منزع الماركيز دي ساد De Sade.

ويظهر تأثير فرويد في قصته «نجاة بولدرهاي Fre Bolderhay » (سنة ١٩٤٨).

لكنه في قصته «الطبيب والمومس» (سنة ١٩٥١) يصوّر الحب تصويراً افلاطونياً.

أما قصصه التاريخية فتشمل:

١ ـ «الخاتم الخامس» (سنة ١٩٣٧) وفيها يصور اسپانيا في عهد محاكم التفتيش؛

٢ ـ «انحلال پلاطيوس» (سنة ١٩٣٨) وفيها يصوّر الأساطير المسيحية الأولى تصويراً غريباً؛

٣ ـ «جزيرة الرُّم» (سنة ١٩٤٠) ـ وهي قصة عن القراصنة، والرم Rhum هو الشراب الكحولي المستخرج من مولاس قصب السكر ـ وجزيرة الرم هنا هي: جمايكا.

٤ ـ «الليالي ارلندية» (سنة ١٩٤٦) ـ وموضوعها الأوضاع الاجتماعية والثورات في ارلندة في منتصف القرن التاسع عشر.

٥ ـ «عُبّاد النار» (سنة ١٩٤٧) ـ ومسرحها المانيا ابان حرب الثلاثين عاماً.

٦ ـ «نادل المقهى والأحياء» (سنة ١٩٤٩) ـ وهي وصف عصري ليوم الحساب، وفيها وصف رهيب للآلام في الدنيا:

والقسم الثالث من انتاجه ـ وهو المقالات النقدية الأدبية ـ يكشف عن اطلاع واسع جداً على الأدب الأوروبي، وفيها يتناول «الشعور بالذنب عند دوستويفسكي»، «ڤالري والشعر الغامض»، جيمس جويس، رينر ماريّا رلكه،

دكنسون، اميلي برونتي، جيرار دي نرڤال، الخ. وقد جمعها في مجموعات بالعنوانات التالية:

١ ـ «القيثارة والمشرط» (سنة ١٩٣٩).

٢ ـ «الفارس البولندي» (سنة ١٩٤٦).

٣ ـ «تمرد على الزمان» (سنة ١٩٤٧).

٤ ـ «الجرثومة الوضّاءة» (سنة ١٩٥٠) ـ وفيه دراسة عميقة عن ماهية الشِّعْر.

وانتاج فستديك يتجلّى فيه نفوذ التحليل النفسي، والعاطفية والنزوات، والقلق من الحياة والخوف من الموت.

ط ـ ونختم هذا العرض للأدب الهولندي في العصر الحالي بالحديث عن شاعر عاش في مصر سنة ١٩٤٧ حوالى عام، وتغنّى بآثارها في الأقصر وأعالي الصعيد، وعنون رحلته الى مصر بعنوان هو مَثَل شعبي مصريّ وهو: «في المشمش».

وهذا الشاعر هو برتوس آفيس Bertus Aafjes الذي وُلِدَ سنة ١٩١٤.

ويتميز شعره بالغنائية، وبتمجيد الجمال الحسِّي، وبالاحساس الحادّ بالموت والقلق.

وأول مجموعة شعرية له عنوانها: «ساعة الموت الرملية» (سنة ١٩٤١)، وتسودها عاطفة حزينة رقيقة.

ونظم قصة بعنوان «الحج إلى روما» (سنة ١٩٤٦) لقيت رواجاً واسعاً مكّنت له من الشهرة في هولندة.

وأقام في مصر سنة ١٩٤٧، فنظم اثناء اقامته في القاهرة مائة سونتة نشرها بعنوان: «مقبرة ملكية».

وفي سنة ١٩٤٩، بعنوان «في البدء» تناول قصة خلق العالم كما وردت في سفر التكوين من «التوراة» والخطيئة الأولى، وجعل منها وصفاً للخلق الشعري وسقوط الوحي الشعري الأوّل.

وأصدر في سنة ١٩٥٤ مجموعة شعرية بعنوان: «القافلة» تأثر فيها بالشعر «التجريبي» الناشىء آنذاك.

وكتب دراسة عن الشاعر الهولندي المعاصر جرّت اختربرج Gerrit Achterberg (١٩٠٥ ـ ١٩٦٢)، بعنوان: «جرّت اختربرج، شاعر الناووس» (سنة ١٩٤٣).

وأصدر في سنة ١٩٤٦ مجموعة من الأقاصيص الصغيرة، تحت عنوان: «السيرينات».

وأمّا رحلته الى مصر فقد عنونها هكذا: «غداً تزهر أشجار المشمش» وهو كما قلنا مأخوذ من المثل الشعبي المصري: «في المشمش» لكنه حوّر معناه.

❀ ❀ ❀

ومن هذا الاستعراض للأدب الهولندي في القرن الحالي يتبين انه لا يتكافأ مع مكانة هولندة في دنيا المال والتجارة والملاحة والصناعة. ومن ثم قلنا انه فقير نسبياً، شأنه شأن الأدب في سويسرة. لكنه يمتاز على الأدب السويسري بطرحه لموضوعات حيّة ناشئة عن وضع هولندة بوصفها دولة ذات مستعمرات واسعة تعاني شعوبها من الظلم والاضطهاد والاستغلال البشري ما يثير كل ضمير حيّ. لهذا كان الموضوع الغالب لدى القصصيين الهولنديين الذين مكنتهم أعمالهم من السفر إلى تلك المستعمرات هو معاناة شعوب هذه المستعمرات من ظلم الهولنديين أنفسهم. ومن هنا تسري نفحة انسانية متعاطفة مع أماني شعوب المستعمرات الهولندية في الحرية والعدالة، وان كانت لم تصل الى مناصرة حركاتها الاستقلالية.

كلمة وفاء

وهنا يقتضي الوفاء ان أوجّه تحية إلى اللواتي حبّبنَ هولندة إلى قلبي:

وأولهنّ فتاة هولندية رائعة الجمال، تدعى Ina Schoch ـ عرفتها في پيروچا وهي تدرس معي في جامعة پيروچا للأجانب في النصف الثاني من يوليو سنة ١٩٣٧. كانت فارعة القوام، وردية الخدين، زرقاء العينين، شقراء دائمة الابتسام. وكان كلانا في سن العشرين، وتبادلنا أحاديث الغرام البريء للمرة الأولى في الحديقة الصغيرة المواجهة للبلدية والتي يتوسطها تمثال الشاعر كردوتشي. لكن علاقتنا لم تستمر إلاّ اسبوعاً واحداً، لأنها كانت مضطرة إلى العودة الى هولندة. لكننا اتعدنا بور سعيد مكاناً للقائنا وهي في طريق سفرها الى اندونيسيا لأن أسرتها تعمل هناك. ولما كانت السفينة التي ستستقلها ستبقى في بور سعيد ثلاثة أيام فقد وعدتني ان تكتب إلي بموعد وصول

باخرتها الى بور سعيد لأوافيها هناك. لكن لم يصلني منها وأنا في مصر أي نبأ. ولست أدري ماذا صنعت بها المقادير، لأنّي لم أكتب اليها انتظاراً لإبلاغها إياي بوصولها.

وهكذا مضت هذه الزهرة دون ان تُخلّف في نفسي غير الحسرة. لكن ذكراها ظلت عبقة في نفسي حتى اليوم.

اما الثانية وتدعى Heidrike Koops فقد عرفتها في متحف اللوڤر بباريس في يوليو سنة ١٩٥٠، وانا واقف أتأمّل لوحة «الجوكوندا» (موناليزا) لليوناردو داڤنتشي. أقبلت ومعها فتاة أخرى تدعى كوري Corry. وتوقفا أمام اللوحة، شأن كل زائر لمتحف اللوڤر. فاهتبلت الفرصة، لما ان سمعتهما يتحدثان بالهولندية، للتعرف إليهما، اذ نثرت أمامهما باللغة الألمانية معلوماتي عن هذه اللوحة، وما حظيت به من تأويلات، خصوصاً تسميتها الحافلة بالغموض والأسرار. وبعد جولة معهما في قاعات قسم التصوير في اللوڤر دعوتهما إلى الغداء في مطعم أرمني كنت أديم التردّد عليه، هو مطعم صوفي Sophie بشارع سومرار Sommcrard الموازي لشارع المدارس قبالة السوربون.

ومنذ اللحظة الأولى كان هواي مع هندريكة (أو هنى كما تحب ان تدعى Henny). فعملت على التخلص من الثانية - كوري - بأن أهديتها الى صديقين. وهكذا خلوت مع هندريكة، وقد زادني بها إعجاباً ثقافتها الأدبية والفنية الواسعة. وبعد الظهيرة تجولت معها في حديقة اللوكسمبو، وأخذت أطارحها الغرام بالقرب من النافورة وأمام روضة الأزهار المفوّفة الألوان البديعة التنسيق بيد بستاني صناع. وفي المساء ذهبنا إلى مقهى غنائي تونسي، يشرّب فيه الشاي الأخضر وتسمع فيه الأغاني والموسيقى العربية، بينما ترقص فتاة تونسية رقصاً شرقياً خالياً من الفن، وكان هذا المقهى في شارع لاهارپ، وقد زال مع زوال المغاربة من حي سان سفران بعيد استقلال تونس والمغرب في مارس سنة ١٩٥٦. وقد احضرت هي معها أخاها الأصغر ليشاهد هذا الفن الشرقي: فكنا نتمايل كي نختلس القبلات الخاطفة على غفلة - او تغافل - منه. وزادت هذه اللعبة من استمتاعنا بهذه السهرة. ثم ودّعتها بعد انقضاء السهرة على رجاء اللقاء غداً معها وحدها، بعد ان تقنع أخاها وزميلتها بالقيام برحلة الى ڤرساي. وهكذا أمضيت معها وحدها طوال اليوم التالي. ثم ودّعتها في المساء وكان عليها ان تستقل القطار في اليوم التالي عائدة الى أمستردام.

وتواصل التراسل فيما بيننا طوال العام الدراسي، وفي الصيف عدت إلى باريس، فدعوتها للحاق بي في باريس لقضاء اجازتها السنوية. فلبّت الدعوة وأقامت في باريس عشرة أيام. وتوالى هذا اللقاء في اعوام ١٩٥١، ١٩٥٢، ١٩٥٣ ابان شهر يوليو في باريس. لكن ابتداء من سنة ١٩٥٤ انعكست الآية، فكنت انا الذي أسافر الى أمستردام، حيث قضيت اسبوعاً في عام ١٩٥٤، واسبوعين في عام ١٩٥٥، وثلاثة ايام في فبراير سنة ١٩٥٦ وأنا في طريقي الى سويسرة، واسبوعاً في مايو سنة ١٩٥٦ وكان هذا آخر لقاء بيننا، ذلك انها تزوجت فانقطعت العلاقة نهائياً فيما بيننا. وفي أمستردام كنا نلتقي مساء كل يوم في مقهى De Pool الملحق بفندق يحمل نفس الاسم في الشارع الكبير القادم من محطة السكة الحديدية الى ميدان الملك.

وكان اللقاء معها متعة للحسّ والذوق الفني معاً، لأنها كانت واسعة الاطلاع في الفن والأدب، وبفضلها اهتممت بقراءة الأدب الهولندي المعاصر اما مترجماً الى الألمانية والفرنسية وإمّا ـ ان كان شعراً ـ باللغة الهولندية التي حملت نفسي على تعلّمها ارضاءً لها من ناحية، ولتذوق الشعر الهولندي في نصّه الأصلي من ناحية اخرى، وليس من اجل قراءة الأبحاث العلمية لأن العلماء الهولنديين ـ من مستشرقين وغير مستشرقين ـ غالباً ما يكتبون بغير الهولندية، وخصوصاً بالألمانية والفرنسية والانجليزية بما يغني عن تعلّم اللغة الهولندية. وهكذا قدَرُ أبناء كثير من الدول، وهي تلك التي لا يكاد يعرف لغتها إلاّ النادرون من غير أهلها.

امّا ايام الآحاد فكنا نقضيها في احدى المدن: في أوترخت، وألكمار ودلفت، ومروج ماركن بخليج زودرزي، وهرتوجن بوش. ومن الكمار مضينا إلى شاطىء بحر الشمال عند مدينة Bergan Am Meer وهي التي عندها انتصر الجنرال الفرنسي برون Brune على الانجليز والروس في سنة ١٧٩٩. وكان بحر الشمال كئيباً كابياً، رغم ان الجو كان صافياً حاراً. فأين هو من البحر الأبيض المتوسط بزرقته الخلاّبة وعمق صفائه!

❀ ❀ ❀

آه ما أجمل الأيام التي قضيتها في هولندة ممتع الحسّ والعقل والعواطف!

لكن ميزة هذه الأيام هي انها عابرة، ولو استمرت او طالت لأملّت وأضجرت. ناهيك بها اذا ارتبطت بالتزام، هنالك تصبح عذاباً لا يطاق.

السنة الكبرى

هي سنة ١٩٥٢.

وهي سنة الفصل بين عهد وعهد.

كانت الحرية نعمة ينعم الكل بظلالها الوارفة ويطالب دائماً بالمزيد، وإذا بها في العهد الجديد حكراً لفرد تحيط به عصابة.

وكانت الكرامة من أعزّ ما يعتز به المصريّ، فصارت هدفاً لكل اضطهاد ومصدراً لكل حرمان وشقاء.

وكان الأمن على النفس والمال موفوراً لكل شخص، فصار الخوف على كليهما يُقِضُّ كل فرد وكل أسرة.

وكان النفاق مقصوراً على فئة من الوصوليين وعديمي الضمائر، فأضحى خصلة لشعب بأسره يتنافس الجميع في ممارستها ويتباهى بالتفوق فيها.

وكان التفريط في أي حق من الحقوق الوطنية خيانة تنهار بسببها الحكومات، وإذا بالتخلّي عن أكبر هذه الحقوق ـ وهو حق مصر في السودان ـ يعد انجازاً عظيماً يتباهى به الحكّام.

وكانت الهزيمة البسيطة في فلسطين سنة ١٩٤٨ كارثة تزعزعت بسببها الثقة في الحاكمين، وإذا بالهزيمة الساحقة الماحقة في يونيو سنة ١٩٦٧ تحتشد لها جماهير ٩ و١٠ يونيو للهتاف بحياة مَن تسبّبوا في الهزيمة، ويرقص لها ممثلو الشعب في مجلس الأمّة ابتهاجاً باستمرار المسئولين عن الهزيمة في التحضير لهزائم تالية.

وكان ضياع آلاف قليلة من الجنيهات في شراء أسلحة فاسدة جريمة هائلة طالت من أجلها المحاكمات، وإذا بالتخلّي لاسرائيل عن أسلحة تقدّر بآلاف

الملايين أمرٌ هيّن يكافأ عليه فاعلوه بالمزيد من التمكين لهم من البطش والاستبداد.

وكان النقص في سلعة من السلع أمراً نادر الوقوع، فصار النقص في معظم السلع هو القاعدة وتوفير سلعة هو الاستثناء.

وكانت العلاقات مع البلاد العربية والاسلامية تتّسم بالمودة وتبادل المنافع وبالتقدير، فصارت القطيعة والعداوة وعدم التعاون هي الصفات السائدة في هذه العلاقات.

وكان المصري في سائر بلاد العالم مقبولاً لا يثير نفوراً ولا ارتياباً ولا ازدراء، فإذا به يصبح هدفاً لكل مِظنَّة فاسدة، ومدعاة للحذر او الاحتقار.

وكانت حقوق الانسان المصري مكفولة بالدستور والقوانين، فإذا انتهكها حاكم ردّه القضاء الى الصواب وأنصف المظلومين، فإذا بهذه الحقوق تصبح تعطفاً متعالياً من الحاكم على المحكومين أو تهدر دون مراجعة ولا جزاء، ويُضحى الدستور والقوانين ألعوبة في أيدي الحاكم وزبانيته يعبث بها كما يشاء هواه.

وكان الاقتصاد المصري يقوم على أُسس راسخة وأرقام صادقة واضحة وينهض بأعبائه رجال وشركات خاصة تخلص في أعمالها وإدارتها، وإذا به يصبح أرقاماً بهلوانية يتلاعب بها وزراء مال لا علم عندهم ولا ضمير، يقدمون موازنات زائفة ويخططون خططاً وهمية خمسية وغير خمسية مما أدَّى باقتصاد مصر الى الافلاس وتكاثر الديون وانهيار سعر الجنيه المصري انهياراً متواصلاً لا يصده شيء، حتى أصبح ـ في مقابل العملات القوية ـ يساوي أقل من عشرة في المائة من سعره القديم.

وكان الاسكان ميسوراً يعلن في كل مكان عن شقق خالية للإيجار وتتزايد المباني بما يزيد عن حاجة الساكنين، وإذا بالملايين لا يجدون مساكن لهم، فضلاً عن عشرات الآلاف من المنازل القديمة التي تنهار كل عام على رؤوس ساكنيها.

وكان لكل مصري الحق في ان يغادر وطنه طلباً للرزق أو للعلم او للتجارة او غير ذلك من مطالب الحياة، وإذا بمصر تتحوّل إلى سجن كبير يعتقل فيه كل المصريين، ولا يسمح بالخروج منه إلاَّ لحفنة قليلة جداً من المحسوبين والمقرّبين إلى الحاكم وزبانيته.

وكانت أدوات الثقافة تتدفق على البلاد في حرية تامة ودون انقطاع او تشويه

ورقابة، وإذا بهذه الأدوات تُمنع من الدخول تدريجياً حتى فقدت مصر الاتصال بمصادر الفكر العالمي.

❀ ❀ ❀

وما أُريد بهذه المقارنة ان أُمجّد العهد السابق على سنة ١٩٥٢، فهيهات، هيهات! ولكن الأمر كما قال الشاعر:

رُبَّ يومٍ بكيتُ منه فلمَّا ... صِرْتُ في غيره بكيتُ عليه

ولا يعقل مني ان أُمجّد العهد السابق على سنة ١٩٥٢، وأنا الذي ناضلت طوال الأعوام السبعة عشر السابقة على ذلك التاريخ ضد مفاسد ذلك العهد، وما استشرى فيه من خيانات في حقوق الوطن ومن مفاسد ومحسوبيات ومظالم واستهتار بالحقوق وعدوان على الحريات. لكن هذه المفاسد والشرور لا تعادل واحداً في الألف مما حدث بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

الأوضاع قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

ولقد كانت الأوضاع قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ سيئة في كثير من النواحي:

١ ـ فالملك فاروق، بعد ان كان محبوباً من أول سنة ١٩٣٨ حتى ١٩٤٦، أخذ يتغير نحو الفساد، بسبب حاشية من الأفّاقين والمتملقين والسماسرة: الأفاقين مثل كريم ثابت اللبناني، وادجار جلاّد اللبناني، وپولّي الايطالي؛ والمتملقين مثل ابرهيم عبد الهادي وحافظ عفيفي، والسماسرة مثل لويس أندراوس ـ حتى صار هؤلاء هم الموجهين له في السياسة بحيث جعلوه يتوهم ان مصيره متوقف على رضا الانجليز، محذّرين إيّاه من تكرار حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذي كاد يطيح به لولا ان استسلم أمام الانذار المقدم من مايلز لامپسون ومن الجنرال ستون.

وأكبر خطأ يرتكبه حاكم هو أن يعتمد على الأجانب او الأقليات في تسيير شئون الحكم في بلده. وهذا بعينه هو ما سيحدث لشاه ايران محمد رضا بهلوي حينما استعان بالبهائية واليهود في تسيير دفة الحكم على النحو الذي سنبينه في حينه.

٢ ـ والأحزاب السياسية الرئيسية دبَّ فيها الفساد والجبن والوصولية والنفعية بحيث لم تعد تمثل غير المنتفعين بها. فالوفد ـ وهو أكبرها أنصاراً ـ بعد خيانته الكبرى في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ تحوَّل إلى عصابة من طُلاّب الحكم والطامعين في

النفوذ الاقتصادي بأي ثمن. وبعد ان كان يتباهى بالوقوف في وجه الملك والانجليز، صار العبد الذليل الخاضع المستسلم لكليهما. ولهذا فقد التصديق به حتى لو قام بعمل وطني، مثلما فعل في اكتوبر سنة ١٩٥١ بالغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ من جانب واحد: فقد كانت الأحداث قد سبقته بما قام به بعض الشباب من مقاومة في مديرية الشرقية والاسماعلية، فبدا اعلان الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ كأنه عمل هزيل لامتصاص نقمة الشعب على الحكومة الوفدية المستخذية للانجليز آنذاك. وبالمثل كانت عملية محافظة الاسماعيلية في يوم الجمعة ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ التي استشهد فيها عدد من رجال الشرطة بنيران مفرزة من جيش الاحتلال البريطاني المعسكر في منطقة القنال. فقد كانت عملية انتحارية لا مبرّر لها، لكن وزير الداخلية آنذاك ـ فؤاد سراج الدين ـ أراد منها ان يكسب للوفد ما ظنَّ أنَّه سيرفع من شأنه في نظر الشعب. وكان عنها ما كان في اليوم التالي ـ السبت ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ـ من احراق للقاهرة.

وقد أُتيح لي ان أشهد بداية هذا الحريق. فقد خرجت من مقهى جروبي في شارع عزمي حوالى الساعة الثانية عشرة إلاَّ ربعاً. واتجهت إلى ميدان الأوبرا، فوجدت شابين يلبسان جلبابين ومعهما صفيحة بنزين وراحا يشعلانها. وامتدت النار إلى كازينو الأوبرا. واستدعي رجال المطافىء، ومركزهم الرئيسي مجاور للكازينو، فجاء رجلا اطفاء لم يبذلا جهداً يذكر في اطفاء النار، ولا في منع الشابين. ومن ثم انتقل الاحراق إلى الأماكن المجاورة، في اتجاه شارع عدلي وثروت وشرين وقصر النيل. وكان الغوغاء بالجلابيب او البنطلونات القذرة هم الذين يتولون اشعال الحرائق. وتفرق هؤلاء في شارع سليمان وحي معروف وشارع فؤاد وميدان التوفيقية ثم شارع رمسيس. وهكذا اشتعلت الحرائق في قلب القاهرة. ولم ينزل الجيش إلاَّ قبيل الساعة الخامسة، بعد ان كانت الحرائق قد التهمت محلات عديدة منها الأجنبي ومنها المصري.

وأعتقد، بحسب ما شاهدت من بداية الحريق، أنَّه لم يكن هناك أي تدبير سابق، وان الأمر كله كان اندفاعاً تلقائياً لا يوجهه أحد. وكان القائمون به من الغوغاء المشاركين في كل شغب طمعاً في النهب والسلب للمحلات، ومن الصبية المنساقين إلى التخريب والتدمير رغبة في التخريب والتدمير فحسب. وهذا امر مشاهد في كل المعارك التي تقع أولاً بين الأفراد في القاهرة وفي غيرها من المدن في مصر. لقد رأى هؤلاء انه لا توجد شرطة تمنعهم، فاندفعوا دون ان يصدّهم أحد لممارسة غريزة التخريب المتأصلة في طبيعة الغوغاء. والمشاهد في القاهرة

بالذات ان أية «خناقة» تحدث في الشارع بين شخصين سرعان ما يتجمع حولها العشرات فالمئات من الناس وإذا اتسع نطاقها قليلاً شاهدتَ الغوغاء يندسّون في الصفوف ويشاركون في العراك، إمّا لمجرد العراك، وإمّا ـ وهو الأغلب ـ للسلب والنهب واختلاس حوافظ النقود من جيوب المتعاركين.

ولهذا فإنّني لا أُصدّق أي اتهام باشتراك هيئات منظّمة في احراق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ناهيك بالتدبير له!

وكانت فضائح الفساد والرشوة والمحسوبية والمعاملات الاحتيالية وعمليات النصب قد شملت كل الوزراء الوفديين بغير استثناء، فكانت اقالة وزارة النحاس في مساء يوم احراق القاهرة امراً ارتاح له سائر الشعب في مصر.

٣ ـ أمّا الحزبان الآخران فكانا في أقصى درجات الانحلال. فالحزب السعدي كان فئة من الوصوليين الذين لا يستندون إلى أية مبادىء وطنية، بل جمعهم الطمع في الحكم وما يجرّه عليهم من منافع. أجل، لقد كان الحزب السعدي حزباً طفيلياً لا لون له ولا رصيد عنده لدى الناس.

والأحرار الدستوريون، بعد وفاة محمد محمود في ١٩٤١/٢/١، قد تشتت شملهم وصار كبار أعضائهم متنابذين متهافتين على الوصول إلى مقاعد وزارية. وكان رئيسهم، محمد حسين هيكل، رجلاً ضعيف الشوكة، مفكك الشخصية والإرادة؛ لقد كان كاتباً ممتازاً واسع الثقافة حرّ الفكر، ومؤرخاً أدبياً للسيرة النبوية وبداية الخلافة، يتسم بالوضوح والتفتح في الفهم؛ وكان صحفياً سياسياً يحسن الجدل والتقويم للأحداث السياسية. لكنه كان خلواً من صفات الزعامة لحزب سياسي. وحمل الطمع في نيل الوزارة بعض رجال الأحرار الدستوريين إلى الانضواء تحت جناح السعديين لما صاروا هم الذين يؤلفون الوزارات من اكتوبر سنة ١٩٤٤ حتى أغسطس سنة ١٩٤٩ : أحمد ماهر، فالنقراشي (وكلاهما اغتيل) وابرهيم عبد الهادي.

٤ ـ وبعد اقالة وزارة النحاس في مساء يوم حريق القاهرة توالت الوزارات التي لم تعمّر إلاّ أسابيع قليلة: وزارة علي ماهر في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، فوزارة نجيب الهلالي، ووزارة حسين سري وأخيراً وزارة نجيب الهلالي الثانية التي لم تبقَ إلا أياماً إذ قامت الثورة (أو الانقلاب العسكري) في ليلة ٢٣ إلى ٢٤ يوليو.

وكان تعاقب هذه الوزارات الخمس في ستة أشهر أوضح دليل على ان نظام

الحكم القائم قد حكم على نفسه بالاعدام العاجل. وهو ما أغرى المدبّرين للانقلاب بانتهاز الفرصة للاجهاز عليه.

لماذا نجح هذا الانقلاب؟

وهنا نتساءل: لماذا نجح هذا الانقلاب، وبهذه السهولة المذهلة؟

والجواب عندي أن ذلك تمَّ لسببين: الأول هو المفاجأة التامّة من جانب المدبّرين، وانعدام العزم عند الحاكمين.

إذ لم يخطر ببال القائمين بالحكم ان يحدث انقلاب عسكري في مصر، لأنَّ مصر ليست مثل العراق أو سورية، هذين البلدين العربيين اللذين توالت فيهما الانقلابات العسكرية: انقلاب بكر صدقي وانقلاب رشيد عالي الكيلاني في العراق، وانقلاب حسني الزعيم، وانقلاب سامي الحناوي على حسني الزعيم، وانقلاب الشيشكلي على سامي الحناوي في سوريا. ذلك ان مصر تمتاز بالاستقرار والتزام الطاعة والتمسك بالشرعية. والدليل على ذلك انه منذ حركة أحمد عرابي في سنة ١٨٨٢ لم يحدث انقلاب عسكري إلاَّ بعد ذلك بسبعين عاماً؛ ومنذ انقلاب سنة ١٩٥٢ لم يحدث أيّ انقلاب عسكري حتى الآن (سنة ١٩٨٦)؛ بينما وجدنا في سوريا الانقلابات تتوالى بمعدل واحد كل أربعة أشهر، وفي العراق بمعدل واحد كل خمسة أعوام. ولهذا أيضاً حاولت الثورة في مصر ان تتظاهر بالشرعية باستمرار، فتتخذ اجراءاتها الانقلابية على شكل قوانين ومراسيم قانونية شكلاً على الأقل: هكذا فعلت ثورة ٢٣ يوليو من قيامها حتى اليوم. فهي لم تصادر العقار والمال، بل أصدرت قوانين تؤدّي إلى مصادرة العقار والمال، وهي لم تقتل أحداً، بل أصدرت قوانين بموجبها تعدم خصومها.

أمّا انعدام العزم عند الحاكمين فأمره بيّن. وأي عزم يمكن ان يوجد عند ملك لا همّ له إلاَّ انتهاب اللذات: لذة جمع المال، ولذة النساء، ولذة الكسب في القمار. وأيّ عزم يمكن أن يوجد عند رجاله المقرّبين مثل عمر فتحي، أو رئيس وزرائه نجيب الهلالي الذي كان محامياً ممتازاً، واستاذ قانون فذًا، لكنّه لم يتمرّس بالنضال السياسي، ومَن شاركه من وزراء كانوا أضعف من ان يواجهوا أيّ موقف مضطرب. حيدر، مرتضى المراغي، فؤاد شيرين، الخ.

ولو كان عند فاروق أو عند أعوانه ذرة من العزم لقضى على الحركة التي قامت في ليلة ٢٣ إلى ٢٤ يوليو بمنتهى السهولة: الحركة التي قام بها ثمانون

ضابطاً موزعون بين مختلف الأسلحة والأماكن، بين أكثر من عشرة آلاف ضابط! لو كان فاروق قد حرّك الحرس الملكي، لكان وحده كافياً للقضاء على الحركة في مهدها، ولانفض عن القائمين بها كل من انتسب في الخفاء إليها. إن هؤلاء الضباط العشرة آلاف ومَن وراءهم من الجنود لم يتحركوا لأنَّ أحداً لم يأمرهم بالتحرك، ولم يجدوا من المسئولين أية مقاومة، فتركوا الأمور تأخذ مجراها دون أدنى اهتمام. لهذا كان نجاح انقلاب ٢٣ يوليو جزاءً عادلاً لانحلال فاروق وحاشيته وأعوانه الذين قرّبهم إليه.

ولزوال هذين السببين: المفاجأة وانعدام العزم، أخفقت كل المحاولات التي بذلت لإحداث انقلاب آخر، مثلما ما حدث من محاولات في سنة ١٩٥٤، و١٩٦٧؛ ومايو سنة ١٩٧١، واكتوبر سنة١٩٨١.

لقد كانت شجرة الحكم في ذروة الخريف، فتساقطت أوراقها عند هبوب الريح.

كيف كان موقفي الأول من الانقلاب؟

وكنت في باريس حين وقع انقلاب ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

كنت خارجاً من المكتبة الوطنية في الساعة الرابعة من مساء يوم ٢٤ يوليو، على عادتي في كل يوم. وكان عند الباب بائع الصحف الذي اشتري منه يومياً صحيفة Le Monde. فأخذت منه الصحيفة وإذا بي أقرأ في الصفحة الأولى هذا العنوان: «انقلاب عسكري في مصر؟» وكانت علامة الاستفهام المقرونة بالعنوان دليلاً على الشك الذي قوبل به الخبر، لأنه غير مألوف في مصر. ولو كان الخبر عن سوريا أو العراق أو احدى دول أمريكا اللاتينية لما قرن أبداً بعلامة استفهام.

فأخذت في قراءة ما في الصحيفة عن هذا الأمر، فوجدت الكلام كله في صيغة الشرط، ولم يبرز غير اسم واحد على رأس هذا الانقلاب، هو محمد نجيب ولم اسمع باسمه قبل ذلك إلاّ بمناسبة انتخابات نادي الضباط، وتفوّقه في هذه الانتخابات على اللواء حسين سرّي عامر؛ الذي كان مقرباً إلى الملك. وقد أثير لغط في أيام هذه الانتخابات عن مدلولها، وانها تمثل عدم رضا غالبية الضبّاط عمّن فرضهم الملك على الجيش: حيدر وزير الحربية، عثمان المهدي رئيس الأركان، حسين سرّي عامر رئيس حرس الحدود، الخ. لكن جميع المشتغلين

بالسياسة لم يدركوا لهذه العملية أي مغزى سياسي، بل عَدّوها أمراً داخلياً خالصاً يتعلق بضباط الجيش بعضهم مع بعض، وانه مجرد تنافس بين أفراد كما يحدث في النوادي الرياضية، وفي النقابات المهنية.

وتوالت الأحداث في سرعة شديدة: اقيلت وزارة نجيب الهلالي، وتولى علي ماهر رئاسة وزارة جديدة وأرغم فاروق على التنازل عن العرش في الساعة الحادية عشرة من يوم ٢٦ يوليو، وفي مساء اليوم نفسه غادر فاروق البلاد على يخت المحروسة.

وكانت وزارة علي ماهر مؤلفة كلها من وجوه جديدة تتسم بالتفاهة في الفهم السياسي وانعدام الماضي السياسي في النضال والعمل الوطني. ولا أدري مَن ذا الذي أشار على علي ماهر بهذه الأسماء الشاحبة؛ فإن كان الذي أشار هم القائمين بالإنقلاب، فلا بدَّ ان ذلك كان عن خطة ماكرة خبيثة أُريدَ منها اثبات تفاهة المدنيين حتى أولئك الذين لم يتولوا الحكم من قبل، تمهيداً لتولي العسكريين لإدارة كل الوزارات.

لهذا سقطت وزارة علي ماهر هذه بعد شهر و١٣ يوماً، سقطت عن جدارة واستحقاق. وكُلِّف علي ماهر بتشكيل وزارة جديدة أشد تفاهة وعجزاً من الوزارة السابقة؛ ولم تمضِ ساعة واحدة على حلف وزرائها اليمين القانونية حتى أُسقطت؛ وتولَّى اللواء محمد نجيب رئاسة وزارة جديدة في ٨ سبتمبر سنة ١٩٥٢. وكان المؤلف الفعلي لوزارة محمد نجيب الأولى هذه هو سليمان حافظ، وكيل مجلس الدولة آنذاك، وكان قد تولَّى في ٢٦ يونيو العملية القانونية لتنازل فاروق عن العرش. وسليمان حافظ كان من أعضاء الحزب الوطني في شبابه وأوائل رجولته. ومع تفكّك هذا الحزب ابتداء من سنة ١٩٢٤ تفكّكت أواصره مع الحزب الوطني فصارت علاقته به أقرب إلى الذكرى الماضية.

وهذا هو ما يفسر اختياره لبعض زملائه القدماء في الحزب الوطني لتولي بعض الوزارات (مثل صبري منصور وعبد العزيز علي وأحمد حسني وغيرهم). لهذا عجب الناس من أسماء بعض هؤلاء الوزراء الذين استخرجهم سليمان حافظ من «متحف» الحزب الوطني القديم! وقد ضمَّ إليهم عضوين في الحزب الوطني الجديد هما فتحي رضوان ونور الدين طراف (الذي كان وزيراً ايضاً في وزارة علي ماهر السابقة). أمّا فؤاد جلال فكان بترشيح من عبد الناصر لأنّه قام بدور في توزيع المنشورات التي كان يصدرها قبل الثورة. وأظن ان فؤاد جلال هو الذي

رشّح اسماعيل القباني لوزارة المعارف. وفرّاج طايع رشح نور الدين طراف وفتحي رضوان.

والواضح انها كانت وزارة غريبة التشكيل كأنها ثوب المهرّج: قطع مهلهلة وأخرى جديدة وثالثة باهتة. وما لبث هذا الثوب الغريب ان تمزّق، فشكّل محمد نجيب وزارة ثانية في أوائل ديسمبر سنة ١٩٥٢، ثم وزارة ثالثة في مايو سنة ١٩٥٣. فكانت هذه الوزارات كلها كالعرائس في مسرح العرائس، يحركها ويشدّ خيوطها في استخفاف قاسي أعضاء مجلس قيادة الثورة الاثنا عشر وكان قد تشكّل وصارت له السيادة القانونية في أوائل شهر سبتمبر.

وكان الصراع شديداً بين هؤلاء «الاثني عشر»: فجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر متحالفان معاً، ويؤيدهما كمال الدين حسين، وحسين الشافعي؛ والأخوان جمال سالم وصلاح سالم يمثلان اتجاهاً قائماً برأسه؛ يوسف صديق ماركسي صريح؛ وعبد المنعم أمين يميني معتدل؛ وأنور السادات ذو ماضٍ سياسي وطني، وهو وحده الذي اشترك في العمل الوطني الظاهر قبل قيام الثورة، لكن مركزه بين زملائه هؤلاء لم يكن واضحاً، وإنّما كان يتراوح مع الاتجاه الغالب، وهذا هو الذي مكّنه من البقاء في أفق السلطة الغالبة حتى وفاة عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ حتى كان نائب رئيس الجمهورية الوحيد عند وفاة عبد الناصر، وهو ما مكّنه من تولّي رئاسة الجمهورية بعده.

عملي في لجنة الدستور

قلتُ إنَّ القائمين على الثورة أصدروا قراراً في يناير سنة ١٩٥٣ بتشكيل لجنة من خمسين عضواً لوضع دستور جديد للبلاد. وقد ضمّت هذه اللجنة نخبة ممتازة من السياسيين والقانونيين ورجال الأحزاب وقادة الرأي.

وانتخبت اللجنة رئيساً لها هو علي ماهر. وكنت أنا أبغض هذا الرجل لتقلباته السياسية العديدة وحركاته البهلوانية: كان عضواً في حزب الاتحاد ووزيراً في وزارة زيور الأتحادي سنة ١٩٢٥، في الوقت الذي كان هذا الحزب يمثل الخنوع التام للإنجليز والسراي عقب اقالة وزارة سعد زغلول إثر اغتيال السردار البريطاني للجيش ـ سيرلي استاك. ثم كان وزيراً في وزارة صدقي سنة ١٩٣٠ واستقال منها بطريقة مسرحية بسبب تافه عرف باسم حوادث البداري (بلدة في اسيوط)، وليس لأسباب تتعلق بتزييف الانتخاب مثلاً او الدكتاتورية في الحكم.

ثم جاء لأول مرة رئيساً للوزراء في وزارة استمرت مائة يوم لتمهّد لمجيء الوفد ووضع معاهدة سنة ١٩٣٦. رغم ان حركة الطلاب في سنة ١٩٣٥ كانت تهدف إلى تحقيق الاستقلال التام بتشكيل جبهة وطنية واحدة تتولّى مطالبة الانجليز بالجلاء التام وتخليص مصر من النفوذ الأجنبي المتمثل في الامتيازات الأجنبية. فجاء علي ماهر ليسلم الحكم إلى حزب واحد، هو حزب الوفد، ويمزق بذلك تلك الجبهة الوطنية الموحّدة، مما مكّن الانجليز من فرض معاهدة سنة ١٩٣٦ التي كبّلت مصر بقيود شديدة سيظهر أثرها غداة اعلان انجلترة الحرب على المانيا في ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ : إذ ستحتل بريطانيا وتسيطر على كل المرافق الحيوية في مصر طوال الحرب العالمية الثانية. ثم صار رئيساً للديوان الملكي في اواخر سنة ١٩٣٧؛ فحاول السيطرة على حكم البلاد من خلال الديوان الملكي. وبمناورة منه أسقطت حكومة محمد محمود في أغسطس سنة ١٩٣٩، وتولّى هو رئاسة الوزارة. وقامت الحرب العالمية الثانية. وهنا يحمد له انه سعى «لتجنيب البلاد ويلات الحرب» على حد تعبيره. وتلك مأثرة تذكر له بالتقدير. لكن حكومته سقطت بعد حوالى عشرة أشهر. ثم اعتقل فترة من الوقت في عام ١٩٤٢ وما تلاه بأمر من الانجليز من ناحية وسعي من مصطفى النحاس الذي لم يغفر له انه هو الذي دبّر طرده من الوزارة في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٧. واعتزل السياسة بعد ذلك، او اعتزلته السياسة، فلم يظهر من جديد إلاّ حين دعاه القائمون بانقلاب ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لتولّي رئاسة الوزارة في ٢٥ يوليو، فتولاها، ولكن لم يستمر فيها إلاّ إلى صباح ٨ سبتمبر سنة ١٩٥٢ أي لمدة شهر ونصف فقط. ولم يستطع ان يحمي من السقوط الملكية التي عاش يسبّح بحمدها.

ومن هذا العرض السريع لحياته السياسية تبيّن انه كان قلّباً انتهازياً، مسرحياً، ذا حركات مظهرية؛ ولم يكن له مبدأ سياسي يلتزمه أو على الأقل يخلص في الدفاع عنه.

فكان من رأيي ان يرأسَ لجنة الدستور أحمد لطفي السيد، فأعطيت صوتي له، وكان هذا هو الصوت الوحيد المعارض لانتخاب علي ماهر. وأذكر انني حاولت اقناع د. طه حسين، وكنت ألازمه في الجلسة، لينتخب لطفي السيد، لكنه تملّص قائلاً إن لطفي باشا ليس مرشحاً، وكلّفني بأن أكتب في ورقة تصويته اسم علي ماهر.

ومنذ الاجتماع الثاني للجنة الدستور، بدأ علي ماهر مناوراته مستعيناً بالمقربين إليه من أعضاء اللجنة، وهم عبد الرزاق السنهوري، ومصطفى الشوربجي

ومصطفى مرعي. فلما عرضت مسألة نظام الحكم ـ وكان قد امتلأ غيظاً من رجال الثورة بسبب طرده من الوزارة في ١٨ سبتمبر ـ اوعز إلى مصطفى الشوربجي بالدفاع عن النظام الملكي. وقام مصطفى الشوربجي يدافع عن النظام الملكي لأكثر من ساعة رغم مطالبتي بوقفه عن الكلام لتجاوزه الوقت المقرّر لكل عضو. لكن علي ماهر، وهو رئيس الجلسة كان يفسح للشوربجي في الكلام، بل ويستحثه على الإطالة.

كما حاول عن طريق عبد الرزاق السنهوري، ان يستأثر بوضع مواد الدستور. ودفعت البلاهة والجهالة بعضو ـ هو عبد السلام فهمي جمعة الذي كان رئيساً لمجلس النواب الوفدي ـ ان يطلب من السنهوري وضع مشروع دستور. وهنا قمت وصرخت في وجه علي ماهر والسنهوري والبلهاء من الأعضاء.. «إذن ما الفائدة في تشكيل هذه اللجنة إن كان أحد الأعضاء ـ وهو السنهوري ـ سيتولى القيام بوضع الدستور بدلاً عنها!! هل نحن هنا تلاميذ نتلقى درساً من السنهوري؟ إنَّ هذه إهانة بالغة لأعضاء اللجنة، واهدار للغرض من تشكيلها، واستخفاف تام بمَن دعوا إلى وضع دستور فعيّنوا لذلك العمل هذه اللجنة». فالتهب الجوّ، وأسقط في يد السنهوري، واضطر علي ماهر الى رفع الجلسة. ولما عادت تقرر ان ينقسم الأعضاء إلى خمس لجان، تتولى الاجتماع لأداء المهمة المكلفة بها. وتقرر ألا يحدث بعد ذلك أي اجتماع للجنة الدستور بكامل أعضائها، إلاّ بعد فراغ اللجان الفرعية من مهامها، من أجل إقرار الصورة النهائية للدستور.

واخترت ان أكون عضواً في لجنتين هما: لجنة الحقوق والواجبات، ولجنة الشئون الانتخابية. وصارت كل لجنة تجتمع مرة واحدة في كل اسبوع.

٢ ـ في لجنة الحقوق والواجبات

رأس هذه اللجنة محمد علي علوبة، وكان أعضاؤها هم: د. طه حسين، مصطفى مرعي، د. ابرهيم فهمي الميناوي، فريد انطون، سيد ياسين (صاحب مصنع الزجاج)، د. عثمان خليل، عبد القادر عودة، يواقيم غبريال، وأنا.

وكان محمد علي علوبة محامياً قديراً، وخطيباً مفوّهاً، واسع الأفق، جيد الثقافة. وكان يدير الجلسات بصدر رحب وأناة وحصافة. وأظنه كان العضو الوحيد الذي اشترك من قبل في وضع دستور سنة ١٩٢٣.

وللعمل في هذه اللجنة أعددت نفسي إعداداً جيداً بالاطلاع على كل

الدساتير التي صدرت في الدول المختلفة الأنظمة بعد الحرب العالمية الثانية، فضلاً عن الإلمام بالقانون الدستوري بصورة عامة. فقرأت من المتون العامة في القانون الدستوري:

- R. Carré de Malberg: Contribution à la théorie générale de l'Etat, 2 vol., Paris, Sirey, 1920-1922.
- L. Duguit: Traité de droit constitutionnel, 5 vols., Paris, 1921-1929.
- A. Esmein: Eléments de droit constitutionnel, 2 vols., Paris, Sirey, 1927.
- Joseph - Barthélémy et P. Duez: Traité de droit constitutionnel, Paris, Dalloz, 1933.
- Maurice Haurion: Précis de droit constitutionnel. Paris, Sirey, 1929.
- I. Vedel: Manuel élémentaire de droit constitutionnel, Paris, Sirey, 1949.
- Marcel Prélut: Institutions politiques et droit constitutionnel. Paris, Dalloz.

وبالنسبة الى نصوص الدساتير اعتمدت على المجموعة التي نشرها:

- B. Miskine - Guetzevitch: Les constitutions européennes, 2 vols. Paris, P.U.F., 1951.

ولما وجدت ان أفضل الدساتير التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية هو الدستور الايطالي، اعتمدت على شرح مفصل له في ثلاثة أجزاء باللغة الايطالية، وكان هو مرجعي الأساسي.

وفي قراءتي لهذه المراجع كلها اقتصرت على الفصول المتعلقة بالحقوق والواجبات، ثم على تلك المتعلقة بطرق الانتخاب للاستعانة بها في عملي في اللجنة الثانية.

وهذا الاطلاع الواسع على أحدث الدساتير هو الذي مكّنني من التصدر في اللجنة، حتى على القانونيين فيها، لأنَّ هؤلاء الأخيرين اقتصرت معلوماتهم في القانون الدستوري، على الدساتير القديمة السابقة على الحرب بمدة طويلة. وباستثناء د. عثمان خليل، لأنّه كان يقوم بتدريس القانون الدستوري آنذاك، كان سائر القانونيين قد نسوا ما تعلموه في كلية الحقوق في القانون الدستوري. وكانت تعليقات بعضهم تدعو إلى الإفراط في الضحك والتهكم: فمثلاً كان مصطفى مرعي كثيراً ما يعترض على ما نقترحه قائلاً: «لكن هذا مخالف للدستور، يا جماعة!» وهنالك أنبهه باسماً: لاحظ، يا مصطفى بك، اننا نضع دستوراً جديداً (وأكرر هذه الكلمة عدة مرات) فلا يعنينا ان يتفق مع دستور سنة ١٩٢٣ أو يخالفه.

أمّا د. عثمان خليل فرغم اطلاعه على احدث الدساتير، فإنّه كان ذا نزعة تقليدية تميل إلى الاكثار من القيود على الحريات. فكلما قررنا حقاً، كان هو يقترح في آخر المادة: «في حدود القانون». وبهذا كان يريد ان يفرغ مواد الحريات من مضمونها بأن يترك للقوانين الجزئية الحق في وضع ما تشاء من القيود على الحريات. فكنت أعارضه في ذلك، وأقول له مداعباً: «أنا أعلم أنك تطمح ان تصبح وزيراً للداخلية». فيضحك وتخف حدة المناقشة.

ذلك انني رأيت من العبث التام ان ينصّ على حق من الحقوق ثم يشفع بهذه العبارة: «في حدود القانون». لأن معنى ذلك ان القانون الذي تتحكم في وضعه السلطة التنفيذية القائمة ـ ومن ورائها أغلبيتها في البرلمان ـ هو الذي يتحكم في الحق: فيقيده كما يشاء بل يهدره إهداراً. فما معنى أن تقرر في الدستور ان: «حرية الرأي مكفولة في حدود القانون» ثم تأتي القوانين بعد ذلك فتضع القيود على النشر، وعلى الصحافة، وتحظر تناول موضوعات معينة (سياسية او دينية او اجتماعية الخ). إنها ستكون إذن كحرية السجين داخل زنزانته. لهذا كنت أطالب بأنه في الحالة التي لا بد فيها ـ للضرورة القصوى ـ من وضع هذه العبارة: «في حدود القانون» أن نشفع وضعنا للدستور بوضع القوانين المكملة له أينما وردت هذه العبارة في اية مادة من مواد الدستور، وذلك حتى نأمن أن تصدر القوانين عن نفس الروح التي صدرت عنها مواد الدستور.

ويؤكّد من أهمية هذا المسلك ـ وهو قرن مواد الدستور بالقوانين المشار اليها في مواده ـ أن صيغة مواد الدستور بطبعها عامّة، وبالتالي غائمة، تقبل أحياناً تفسيرات متناقضة في وسع الحاكم المستبد ان يخضعها لأهوائه. وكم وضعت قوانين ظالمة مستبدة باسم: الصالح العام، المنفعة العامة، النظام العام، الوظيفة الاجتماعية، الخ، الخ.

وقد تبيّن لي من قراءاتي للدساتير الفرنسية المختلفة ولدساتير الدول المختلفة التي صدرت بعد الحرب العالمية الثانية «ان خير وثيقة يمكن الاستهداء بها في وضعنا لمواد الحريات والحقوق في الدستور المصري هي مشروع الدستور الفرنسي الذي وضعته الجمعية الوطنية التأسيسية الفرنسية وأقرّته في ١٩ ابريل سنة ١٩٤٦، وان كان قد رُفِضَ في استفتاء ٥ مايو سنة ١٩٤٦ بأغلبية ١٠,٥٨٤,٣٥٩ صوتاً مقابل ٩,٤٥٤,٠٣٤ صوتاً موافقاً. ذلك لأنّ الدستور الذي وضع بدلاً منه وأُقرّ في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٤٦ بأغلبية ٩,٢٩٧,٠٠٠ صوتاً موافقاً ضد ٨,١٦٥,٠٠٠ صوتاً غير موافق لم يشتمل على مواد للحريات والحقوق، بل اكتفى في استهلاله «بإعادة

توكيد» الحقوق التي وردت في اعلان حقوق الانسان في سنة ١٧٨٩ وكذلك «المبادىء الأساسية التي أقرّتها قوانين الجمهورية» ـ مما أفسح المجال للجدل العقيم حول القيمة الالزامية لهذا «الاستهلال» Préambule. ولهذا سنجد «المجلس الدستوري» في عهد الجمهورية الخامسة يعود ويلجأ إلى مشروع ١٩ ابريل سنة ١٩٤٦ لوضوحه ودقته وشموله.

ثم إنه ليس لدى مصر اعلان سابق لحقوق الانسان حتى نجتزىء بالاشارة إليه، ولم تكن الحقوق المكفولة بالقوانين السابقة في مصر كافية لتوفير ما نريده من حقوق وحريات.

لكن الاتجاهات في لجنتنا كانت من التباين بحيث لم يكن من الميسور الأخذ بالحقوق والحريات كما وردت في المشروع الفرنسي المذكور (مشروع دستور ١٩ ابريل سنة ١٩٤٦):

١ ـ فالتقليديون (مصطفى مرعي، والى حد كبير محمد علي علوبة) يريدون الاستناد إلى دستور سنة ١٩٢٣ كأساس. مع اضافة مواد قليلة جديدة، والتمسك قدر الامكان بصيغ المواد كما وردت في دستور سنة ١٩٢٣؛

٢ ـ والاخوان المسلمون (عبد القادر عودة) يريدون النص على استمداد مواد الدستور من الشريعة الاسلامية؛

٣ ـ والأقباط (ابرهيم فهمي المنياوي وفريد انطوان) يريدون الابتعاد عن كل ما يشعر بأنه مستمد من الشريعة الاسلامية، ووضع مادة تنص على عدم ذكر الديانة في المعاملات الرسمية.

٤ ـ وكان د. عثمان خليل يميل إلى وضع القيود على الحريات وعلى ممارسة الحقوق، على ميل عام الى النزعة الاسلامية ولكن باعتدال شديد.

٥ ـ وكان د. طه حسين قليل المشاركة بالرأي، وإنّما كان يشارك في صياغة عبارة المادة.

٦ ـ أمّا انا فكنت واعياً دائماً إلى الأخذ بأقصى درجات الحرية: في الرأي، والبحث العلمي، والنشر، والاجتماع، والملكية، والتجارة والزراعة والصناعة، والعقيدة الدينية والفكرية.

٧ ـ وكان يواقيم غبريال معتدلاً يميل إلى التوفيق؛ أمّا سيد ياسين فلم يحضر إلاّ جلسة واحدة.

ولهذا كان عليّ ان أُحارب في كل الجبهات تقريباً. ومن هنا فإنّ أقوالي في

محاضر جلسات هذه اللجنة تستغرق أكثر من نصف صفحاتها التي زادت على خمسة آلاف صفحة. وأظن ان هذه المحاضر لا تزال محفوظة في أرشيف مجلس النواب. وعلى كل حال فأنا لا أزال أحتفظ بنسخة منها.

وكان لي دور رئيسي في وضع وصياغة المواد الخاصة بالحقوق والحريات التالية:

١ ـ حرية الفكر والعقيدة والبحث العلمي.

٢ ـ المساواة بين المرأة والرجل في كافة الحقوق والواجبات.

٣ ـ حرمة المنزل وحظر دخوله للتفتيش من جانب السلطات إلاّ بقرار مكتوب من الجهات القضائية المختصة وبعد إيذان أهله.

٤ ـ حق المِلكِية مصون، ولا يجوز نزع الملكية إلاّ للمنفعة العامة الضرورية وبعد اثبات هذه المنفعة والضرورة بالطريق القانوني، وبشرط التعويض عنها تعويضاً عادلاً يدفع مقدماً.

٥ ـ لا يكون للقانون أثر رجعي في أي مجال، ولا في المجال الاقتصادي والمالي.

٦ ـ لا يجوز تحديد اقامة أحد، ولا منعه من التنقل؛ ولا يجوز منع مصري من السفر إلى الخارج ولا من الرجوع إليه.

٧ ـ المتهم بريء حتى تثبت إدانته. ولا يجوز تعذيبه اثناء التحقيق معه، لا بدنياً ولا معنوياً. وكل عقوبة مانعة للحرية او مقيدة لها يجب ان تهدف إلى اعادة تأهيل المذنب كيما يعود إلى السلوك القويم.

٨ ـ العمل واجب على كل مواطن، ومن حقه الحصول عليه كلما كان متوافراً، ومن غير تمييز بين المواطنين إلاّ بحسب المؤهلات والشروط العامة للقيام بالعمل او الوظيفة، كما تحدّدها القوانين.

٩ ـ التعليم العام مكفول ومجاني للجميع، وتتولاه الدولة في كل مراحله.

١٠ ـ حق الاضراب عن العمل مكفول للجميع في اطار القوانين التي تنظمه.

١١ ـ حق تكوين النقابات المهنية التي تتولى الدفاع عن مصالح أبناء المهنة الواحدة مكفول.

١٢ ـ حماية صحة المواطنين واجب على الدولة وعليها تأمين وسائل العناية الصحية.

وقد جاء عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة في دستورهم الاستبدادي الزائف الذي أصدروه في يناير سنة ١٩٥٦ فصادروا كل هذه الحقوق والحريات مصادرة تامة، واحلُّوا مكانها القيود التي نسفت حقوق المصريين وحرياتهم.

ب ـ في لجنة الشئون الانتخابية

أمَّا اللجنة الأخرى التي شاركت فيها فكانت لجنة صغيرة مؤلفة من خمسة أعضاء هم: عمر عمر المحامي، والشيخ تاج (شيخ الأزهر) ود. ابراهيم فهمي المنياوي، وصالح عشماوي المحامي، ومحمد عبدالله لملوم المحامي، وأنا. وقد عُيِّن عمر عمر مقرراً للجنة.

وكانت اجتماعاتها قليلة: مرة كل أسبوعين، وأحياناً مرة واحدة في الشهر.

وقد حرصت فيها على تحقيق هدفين:

الأول: منح المرأة حق الانتخاب والترشيح للمجلس النيابي.

والثاني: الأخذ بالتمثيل النسبي.

وفيما يتصل بالموضوع الأول أخذت اللجنة برأيي، رغم معارضة الشيخ تاج، وكان جهولاً ضيق الأفق، وشاياً. لكن وضع لممارسة هذا الحق بعض القيود، وهي:

ـ ان من حق المرأة ان يدرج اسمها في كشوف الناخبين، وألا يُدْرَج. وإذن فلا إلزام على وزارة الداخلية بإدراج ذوات الحق في الانتخاب ضمن كشوف الناخبين والناخبات، ما لم تطلب صاحبة الحق هذا الادراج.

ـ وانه لا يحق للمرأة ترشيح نفسها لانتخابات المجلس النيابي كيما تكون نائبة إلاَّ اذا كانت حاصلة على الشهادة الابتدائية فما فوقها. وهو شرط غير موجود بالنسبة إلى الرجال، بل يكتفي فيهم فقط معرفة الكتابة والقراءة.

أمَّا فيما يتعلق بالموضوع الثاني، فقد بذلت أنا جهداً ضخماً لإقراره. وفي سبيل ذلك قمت بمراجعة الأصوات التي حصلت عليها الأحزاب المختلفة في انتخابات سنة ١٩٢٤، وسنة ١٩٢٩، وسنة ١٩٣٦. وتبيَّن لي من هذه المراجعة أنَّ حزب الوفد لم يحصل ابداً على أكثر من ٤٥٪ من عدد أصوات الناخبين، بينما كان عدد النواب الوفديين الذين نجحوا في هذه الانتخابات، يتراوح بين ٧٠٪ و٨٠٪. وإذن لم يكن الوفد حزب الأغلبية كما كان يدَّعي؛ ولم تكن الأمَّة ممثلة تمثيلاً حقيقياً، بل كان الوفد في تلك المرات الثلاث (وهي الوحيدة التي لم

تقاطعها الأحزاب الأخرى) يمثل الأقلية، وان كانت أقلّيته أكبر الأقليات. ولو كان نظام التمثيل النسبي هو المعتمد، لكان من الممكن ألاّ ينال الوفد الحكم أبداً، إذا تحالفت سائر الأحزاب، وهي فعلاً كانت شبه متحالفة فيما بينها ضد الوفد. فهل هناك تزييف لإرادة الناخبين ـ ولإرادة الأمّة ـ أبشع من ذلك؟!

والسبب في هذا الوضع هو ان الوفد كان مرشحوه يكسبون خصوصاً في المدن، والقاهرة والاسكندرية بخاصة. والاقبال في المدن على التصويت ضعيف جداً، بحيث كان المرشح الوفدي يفوز بألف صوت فقط او ما دون ذلك، بينما كان مرشحو الأحزاب الأخرى يفوزون خصوصاً في الريف، حيث تلعب العصبيات دورها الرئيسي، وكان المرشح غير الوفدي في الريف يفوز بما يتراوح من عشرة آلاف وخمسة عشر ألف صوت أي إنَّ مقدار ما يناله المرشح الفائز غير الوفدي في الريف أكبر بعشر أو خمس عشرة مرة من عدد ما يناله المرشح الوفدي في القاهرة! أي ان النائب غير الوفدي = ١٠ أو ١٥ نائباً وفدياً!

فلو كانت مصر كلها دائرة انتخابية واحدة، وقسّم مجموع الأصوات بحسب قوائم الأحزاب، لما كان حزب الوفد قد نال الأغلبية أبداً.

وكان مقرر اللجنة، عمر عمر، من الوفديين البارزين. فدافع عن نظام الانتخاب بحسب الدوائر المفردة أي التي تنتخب نائباً واحداً، دفاعاً مستميتاً. ولم يشاركه سائر الأعضاء في موقفه. فتمَّ الاتفاق على اقتراح النظامين معاً، وترك الفصل في الأمر بينهما إلى اللجنة العامة.

وقد أوضحت ان المآخذ التي تؤخذ على نظام التمثيل النسبي يمكن تلافيها بسهولة:

١ ـ والمأخذ الأول هو انه يؤدِّي إلى كثرة الأحزاب الممثلة في البرلمان، مما من شأنه ان يعرقل عمل البرلمان، وان يزيد في صعوبة تشكيل الوزارة.

لكن هذا العيب يمكن تلافيه باشتراط نسبة مئوية دنيا من مجموع أصوات الناخبين حتى يمثل الحزب في البرلمان. وهو ما فعله قانون الانتخاب في بعض الدول: «فالمانيا الاتحادية» (الغربية) تشترط حصول الحزب المتقدم بقائمة في الانتخاب على نسبة ٥٪ على الأقل حتى يمكنه ان يمثل في البرلمان.

والحزب الذي لا يحصل على هذه النسبة تضاف أصواته إلى الحزب الذي حصل على أكبر نسبة من الأصوات، حتى يكون أقدر على تشكيل الحكومة.

٢ ـ والمأخذ الثاني هو: ماذا نعمل بالبواقي الباقية من الأصوات التي تبقى

بعد قسمة مجموع أصوات الحزب الواحد على العدد المقرّر لكل نائب؟

والجواب هو ان نجمع هذه البواقي كلها ونقسمها على العدد المقرّر لكل نائب، وحاصل القسمة يوزع على أكبر حزبين، أو يضاف إلى الحزب الأكبر أصواتاً وحده.

٣ ـ والمأخذ الثالث، وهو استبداد الهيئة المركزية في الحزب بالترشيح وبترتيب المرشّحين ليس مأخذاً ذا بال، لأنّه أمرٌ داخلي خاص بالحزب نفسه، شأنه شأن انتخاب رئيسه أو أعضاء هيئته المركزية. وسيتحمل الحزب نفسه وزر سوء اختياره لمرشحيه، لأنَّ ذلك سيؤثّر على ما عسى ان يحصل عليه من أصوات الناخبين. فهو الجاني على نفسه.

٤ ـ والمأخذ الرابع وهو انعدام المستقلّين ليس في الحق مأخذاً بل هو ميزة تضاف إلى مزايا نظام التمثيل النسبي، إذ لا محل للمستقل في تمثيل الأمّة؛ ولا معنى للمستقل اصلاً، وإلاّ فماذا يمثل؟ وعمّاذا هو مستقل؟! إن كان مستقلاً عن الأحزاب المعيّنة المسمّاة بأسماء، فليؤلف هو ومَن على شاكلته قائمة خاصة بهم تسمّى قائمة المستقلين، وسيكون شأنها حينئذ شأن القوائم الحزبية.

وإنَّ من الميزات الكبرى لنظام التمثيل النسبي عدم ارتباط النائب بدائرة محدودة. ونحن نعرف بالتجربة في مصر كيف كان النائب يضطر إلى انفاق كل وقته وجهده في إرضاء أبناء الدائرة: بتوظيف أبنائهم، او تسهيل حصولهم على منافع حكومية، أو تخصيص الدائرة بمرافق تكلّف الدولة الكثير لصالح منطقة واحدة على حساب سائر المناطق، وعشرات المفاسد الأخرى التي كانت تترتب على ارتباط النائب بدائرة بعينها.

وقد صار نظام التمثيل النسبي بالقائمة هو المستعمل في كل دول أوروبا الغربية، باستثناء بريطانيا: إذ هو النظام القائم في: السويد، النرويج، فنلندة، اسپانيا، البرتغال، النمسا، ليشتنشتين، سويسرة، بلجيكا، هولندة، لوكسمبورج، ارلندة، ألمانيا، اليونان، وفرنسا قد عادت إليه في انتخابات ١٦ مارس سنة ١٩٨٦.

ومصر نفسها قد أخذت بنظام التمثيل النسبي بالقائمة في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة التي جرت في سنة ١٩٨٤.

نظام الحكم الرئاسي

ولم أكن عضواً في لجنة نظام الحكم حتى أُشارك بالرأي في تقريره. لكني كنت حريصاً على الادلاء برأيي فيما ينبغي ان يكون عليه نظام الحكم في مصر بعد ان قرّرت اللجنة اتخاذ النظام الجمهوري. وكنت أنا قد أسهمت بنصيب وافر في اتخاذ هذا القرار، كما أشرت إلى هذا من قبل، خصوصاً وقد وجدت علي ماهر وأتباعه في اللجنة (مصطفى الشوربجي، عبد الرزاق السنهوري، مصطفى مرعي) قد هبّوا للدفاع عن النظام الملكي، واستعانوا في خارج اللجنة بصحيفة أخبار اليوم التي أخذ صاحبها في الدفاع عن النظام الملكي. وأقاموا جميعاً دفاعهم على أساس ان فساد الحكم في عهد فاروق إنّما سببه فاروق نفسه، لا النظام الملكي. لهذا قمت أنا بكتابة مقال عنيف في مجلة «اللواء الجديد» بعنوان: «الضفادع الملكية تستأنف نقيقها». وحملت حملة عنيفة على هؤلاء المدافعين عن النظام الملكي، مبيّناً ان الفساد هو في النظام نفسه، لا في شخص فاروق وحده.

وفي الصراع الذي قام بين محمد نجيب من جهة، وغالبية أعضاء مجلس قيادة الثورة من جهة أخرى في شهر مارس سنة ١٩٥٤، أُثيرت مسألة: هل يكون نظام الحكم الجمهوري في مصر برلمانياً، أو رئاسياً؟ وعرضت هذه المسألة على لجنة الدستور بكامل أعضائها. ولست أدري مَن الذي أوعز إلى اللجنة بالتعرّض لها. ويغلب على الظن ـ وكانت الأمور كلها مضطربة غامضة ـ ان محمد نجيب هو الذي اراد الاستعانة برأي اللجنة ليتأيّد به ضد خصومه (جمال عبد الناصر ومن معه من أعضاء مجلس قيادة الثورة). وقد وجد ممثلو الأحزاب القديمة في اللجنة ان الفرصة مواتية لعودة الأحزاب القديمة ولعودة رجال الجيش إلى ثكناتهم وتخلّي مجلس قيادة الثورة عن الحكم. وكان مجلس قيادة الثورة قد قرّر في يومي ٤، ٥ مارس سنة ١٩٥٤ حلّ نفسه وعودة الجيش لثكناته وإعادة سلطات محمد نجيب إليه. وهذه القرارات اتخذها أعضاء مجلس قيادة الثورة مرغمين نظراً لشعبية محمد نجيب وتأييد عامة الشعب له منذ الثاني والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٤ حينما وقع النزاع بينه وبين جمال عبد الناصر ومَن معه. لكنهم في الوقت نفسه دبّروا خطة لإفساد هذا الاجراء مستعينين بسلاح المدفعية في الجيش، وبعمال النقل العام، وقد رشوا رئيس نقابة النقل العام، وكان يدعى الصاوي أحمد الصاوي، بمبلغ ثمانية آلاف جنيه ـ كما اعترف بذلك صلاح نصر في «مذكراته» (جريدة المصور في يناير ـ فبراير سنة ١٩٨٦). فتمخّض ذلك الصراع عن تصالح وهمي وعلى دغل

وتربّص بين محمد نجيب من ناحية، وعبد الناصر ومَن معه من ناحية أخرى.

ولم يتبيّن آنذاك هل كان نجيب يريد النظام الرئاسي، أو النظام البرلماني في الحكم. أمّا عبد الناصر ومَن معه فلم يكونوا يريدون هذا أو ذاك، بل كانوا يتآمرون فقط للاطاحة بمحمد نجيب. وتمَّ لهم ما أرادوا، حين أُطلق الرصاص على جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالاسكندرية في اكتوبر سنة ١٩٥٤ أثناء احتفال عام. وكان الذي أطلق الرصاص عسكرياً ينتسب إلى جماعة الاخوان المسلمين التي حلّها مجلس قيادة الثورة في ١٤/ ١/ ١٩٥٤. وأشاع عبد الناصر ومَن معه ان لمحمد نجيب ضلعاً في تدبير مؤامرة اغتياله هذه. وبناء على هذا الادعاء الذي لم يثبت مطلقاً أصدر مجلس قيادة الثورة في نوفمبر سنة ١٩٥٤ قراراً بعزل محمد نجيب عن رئاسة الجمهورية وتحديد اقامته في بيت بضاحية المرج. وظلَّ محمد نجيب محدد الإقامة ممنوعاً من اللقاء بأحد، إلى عهد السادات.

ومن الواضح ان ممثلي الأحزاب القديمة في لجنة الدستور كانوا يؤيّدون النظام البرلماني لرئاسة الجمهورية حتى يكون هذا مجرد رمز تقتصر مهمته، كما يقال له عادة، على افتتاح «معرض الأقاحي» (الكريزانتم) والتصديق الشكلي الصرف على بعض القرارات والمراسيم. ولهذا ـ وكانوا هم الأغلبية في اللجنة ـ قرروا الأخذ بالنظام البرلماني، ولم يؤيد الأخذ بالنظام الرئاسي إلا ثلاثة أعضاء هم: عبد الرحمن الرافعي، وصالح عشماوي، وأنا.

لماذا كنت أؤيد النظام الرئاسي آنذاك، رغم ما يحمله في طياته من نزعة اوتقراطية (استبدادية)؟ ـ تخوّفي آنذاك من عودة الأحزاب القديمة بمفاسدها الفاحشة في الحكم. ولهذا كنت أراه مرحلة انتقالية فقط لا بدَّ أن تتلوها مرحلة النظام البرلماني.

ذلك ان النظام الرئاسي ـ ونموذجه الرئيسي هو نظام الولايات المتحدة الأمريكية ـ ينطوي على استبداد بالحكم واضح. لأنَّ رئيس الجمهورية في النظام الرئاسي، يستأثر بكل السلطات كما أوضح ذلك الجنرال دي جول، رئيس الجمهورية الفرنسية ذات النظام الرئاسي، فقال في مؤتمر صحفي شهير عقده في ٣١ يناير سنة ١٩٦٤:

«رئيس الجمهورية هو رجل الأُمَّة التي وضعته في هذا الموضع للاستجابة لمصيرها. انه هو الذي يختار رئيس الوزراء، وهو الذي يعيّنه كما يعيّن ايضاً سائر اعضاء الحكومة؛ ومن حقه ان يغيره، سواء لأنَّه أتمَّ المهمة التي كُلّف بها ويريد

الرئيس ان يدّخره لمرحلة تالية، أو لأنّه لم يَعُد يرضى عنه، ورئيس الجمهورية هو الذي يقرّر Arrête القرارات المتخذة في المجالس، ويصدر Promulgue القوانين، ويفاوض لعقد المعاهدات ويوقّع عليها، ويرسم Decrête او لا يرسم، الاجراءات التي تُقْتَرح عليه. إنّه هو رئيس القوات المسلحة. وهو الذي يعيّن في الوظائف العامة. وهو الذي عليه، في حالة الخطر، ان يأخذ على عاتقه القيام بفعل كل ما يجب فعله. إنّه وحده ـ كما هو بيّن ـ الذي يملك سلطة الدولة... ولا بدَّ ان يكون مفهوماً بوضوح ان السلطة ـ غير القابلة للقسمة ـ التي للدولة قد عَهِدَ بها كلها الشعب إلى الرئيس الذي انتخبه؛ وانه لا توجد أية سلطة أخرى: وزارية، أو مدنية، أو عسكرية، أو قضائية لا يمنحها الرئيس ولا يحافظ هو عليها».

وواضح تماماً من بيان دي جول هذا أنَّ رئيس الجمهورية في النظام الرئاسي، قد فوّضه الشعب في كل سلطة، وأسند إليه السيادة الكاملة، فصار هو صاحب القرار في كل شيء، وصارت السلطات الدستورية الأخرى بمثابة أدوات تنفيذ إرادته. فما الفارق إذن بين رئيس الجمهورية في النظام الرئاسي وبين المستبد (الدكتاتور) ذي السلطان المطلق؟! فإن قيل: الفارق هو ان المستبد ذا السلطان المطلق يتولّى سلطته بالوراثة في النظام الملكي، او بالانقلاب العسكري في النظام العسكري، بينما هو يتولّى السلطة في النظام الرئاسي بانتخاب الشعب له انتخاباً حراً ـ كان الجواب هو: إنَّ المستبد ذا السلطان المطلق في النظام الفاشستي والنظام النازي يأتي أيضاً الى الحكم بانتخاب الشعب له انتخاباً حراً.

والحق انه لا فارق بين النظامين: الرئاسي، والنازي إلاّ في شخص الحاكم فقط. ان سلطات كليهما واحدة، وإنّما يتوقف الأمر على شخصية الحاكم: هل يطبق كل ما يمنحه النظام من سلطات، أو يعتدل في التطبيق فلا يلجأ إلى التضييق على الحريات إلاّ في الحدود الضرورية وعند الحاجة القصوى وبدافع من المصلحة العليا للوطن دون أي اعتبار لمصلحته هو الخاصة. كأننا بهذا نجعل الحكم متوقفاً على المزاج الشخصي، وعرضة للأهواء الفردية التي لا يملك ضبطها إلاّ مَن عَصم ربُّك. وأين هم هؤلاء!

ولهذا لا بد من وضع ضوابط تمنع من اساءة رئيس الجمهورية للسلطات المطلقة الممنوحة له. وهذا هو ما يسمّى في الولايات المتحدة الأمريكية بنظام «الرقابة والتوازن» Checks And Balances، ومن شأنه الضبط المتبادل بين

رئيسي الجمهورية ومؤسسات معيّنة مثل الكونجرس، والمحكمة الفدرالية العليا. ففي هذا ضمان كيلا تنحل سلطة رئيس الجمهورية إلى «رئاسة امبريالية» Présidence Impériale. إنَّ الكونجرس (مجلس الشيوخ والنواب) يحدّ من سلطة رئيس الجمهورية، ورئيس الجمهورية يحدّ من سلطة الكونجرس، والمحكمة العليا تحدّ من سلطة الكونجرس ورئيس الجمهورية معاً. ولأهمية المحكمة العليا فإنَّ رئيسها ـ ويدعى Chief Justice ـ هو ثاني شخص في الدولة بعد رئيس الجمهورية. فدرجته قبل درجة نائب رئيس الجمهورية، وسكرتيري الدولة (= الوزراء)، ورئيس Speaker مجلس النواب، وهو الذي يتولّى تحليف رئيس الجمهورية في يوم بداية ولايته.

وفي النظام الرئاسي الفرنسي لا توجد هذه الضوابط الموجودة في النظام الأمريكي، وان كان قد حاول وضع ضابط هو «المجلس الدستوري» Conseil Constitutionnel، ويتألف من نوعين من الأعضاء: أعضاء معيّنين، وأعضاء بحكم حقهم De Droit، وهؤلاء الأخيرون هم رؤساء الجمهورية السابقون. والمشاهد هو أنَّه بينما قبل فانسنت أوريول Auriol ورينيه كوتي R. Coty المشاركة في أعمال المجلس، فإنَّ دي جول رفض مجرد الانضمام إلى عضويته، أما جسكار ديستان V. Giscard d'Estaing فإنّه مع قبوله للعضوية فإنّه امتنع تماماً من المشاركة في أعماله. أمّا الأعضاء المعيّنون فعددهم تسعة، ومدة كل واحد ٩ سنوات لا تمدد بعدها: ٣ منهم يختارهم رئيس الجمهورية، و٣ يختارهم رئيس الجمعية الوطنية (مجلس النواب)، و٣ يختارهم رئيس مجلس الشيوخ. لكن مهمة هذا المجلس الدستورية تنحصر في أمرين:

١ ـ الحكم على مطابقة القوانين التي يصدرها البرلمان للمبادىء الدستورية.

٢ ـ الدفاع عن حريات الفرد، وعن حريات نواب الأقلية في البرلمان.

أمّا المحكمة العليا في النظام الأمريكي فأوسع اختصاصاً، إذ لها الحق في الحكم على الموضوع وليس فقط على الحق.

إنَّ المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية ذات دور سياسي فعّال. فقد اتخذت موقفاً من مسألة العبيد أدّى إلى الاسراع في الحرب الأهلية، وهي التي أبطلت القوانين الرئيسية التي أصدرها فرانكلين روزفلت في اطار «الخطة الجديدة» New Deal ووقفت وحدها في مواجهة الكونجرس ورئيس الجمهورية

معاً. وفي مسألة التمييز بين السود والبيض في المدارس، وهو التمييز الذي كان معمولاً به قانونياً منذ سنة ١٨٩٦، إذ قررت المحكمة العليا فيما يعرف بالحكم في قضية براون ضد الهيئة التعليمية في نوپيكا سنة ١٩٥٤ ببطلان التمييز العنصري في المدارس لأنّه يتنافى مع المادة التي تقضي بـ «التساوي بين الناس في حماية القانون لهم»، وهي المادة التي أعلنت في سنة ١٨٦٨ بموجب التعديل رقم ١٤. وعلى أساس هذه المادة أيضاً قررت المحكمة العليا في ١٥ يونيو سنة ١٩٨٢ ان الدستور الأمريكي يضمن التساوي في الحقوق للأجانب المقيمين اقامة غير قانونية في الولايات المتحدة وبين المهاجرين اليها بطريقة قانونية وبين المواطنين الأمريكيين - ومن أحكامها المشهورة الحكم ببطلان التقسيمات الانتخابية التعسفية، وذلك في سنة ١٩٦٢، وقررت، على أساس مبدأ: شخص واحد، صوت واحد One Man, One Vote - ان تكون الدوائر الانتخابية متساوية في عدد السكان تقريباً، حتى يكون لجميع المواطنين قوة انتخابية متساوية.

ومن قراراتها الشهيرة أيضاً: اقرار الحق في الاجهاض (قضية رو Roe ضد ويد Wad سنة ١٩٧٣)؛ الحق في التنقل والذهاب والعودة (قضية Delauvore ضد Pronse في ٢٧ مارس سنة ١٩٧٩؛ اقرار حرية الصحافة فيما يتصل بحرب ڤيتنام/ قضية جريدة «نيويورك تايمز» ضد حكومة الولايات المتحدة، وقضية الحكومة ضد جريدة «الواشنطن بوست») في ٣٠ يونيو سنة ١٩٧١.

وهذه شواهد تدل على ما للمحكمة العليا في الولايات المتحدة من سلطة هائلة لا يتمتع بعشر معشارها المجلس الدستوري في فرنسا.

والمهم في هذا هو ان توجد سلطات أخرى قادرة على الحد من السلطات شبه المطلقة التي يتمتع بها رئيس الجمهورية في النظام الرئاسي، وإلاّ صار طاغية يزيد في طغيانه بشاعة وهولاً عن أعتى الدكتاتوريين لأنّه يمارس طغيانه بطريقة قانونية؛ بينما هؤلاء يمارسون طغيانهم بطريقة غير قانونية.

❀ ❀ ❀

وهذا يقودنا إلى الحديث عن «القانونية» أو «الشرعية» بحسب اللفظ الشائع في مصر ابتداء من عهد السادات.

إنَّ المفهوم الصحيح للقانونية (أو «الشرعية») ليس هو ان يحكم الناس وفقاً للقانون أياً كان هذا القانون. وإلاّ فإنَّ في وسع أي دكتاتور أن يصدر أشد القوانين

استبداداً بالطرق القانونية أعني عن طريق البرلمان الذي يتحكّم فيه، وبموجب السلطات الممنوحة له بحكم الدستور على النحو الذي حدّده الجنرال دي جول في النص الذي ترجمناه حرفياً منذ قليل.

وإنّما القانونية الصحيحة هي مطابقة القانون لحقوق الانسان الأساسية. وأي دستور أو قانون يخالف او ينتقص من هذه الحقوق هو باطل بطلاناً أساسياً.

إنَّ القانون هو مجرد صيغة شكلية؛ ولا عبرة بالشكل، بل العبرة دائماً بالمضمون. فإن اتفق المضمون على حقوق الانسان الأساسية كان سليماً واعتبرت قانونيته؛ اما إن خالف في مضمونه حقوق الانسان الاساسية فإنّه قانون ظالم باطل لا يُعتَبر بقانونيته.

ومَن يحكم باتفاق او مخالفة لحقوق الانسان الأساسية هو المحكمة العليا أو المجلس الدستوري المكفول لأعضائهما كل الضمانات التي تحميهم ضد رئيس الجمهورية وضد المجلس التشريعي. ويجب ألا يصدر قانون عضوي إلاَّ بعد عرضه على المحكمة العليا او المجلس الدستوري لتقرير انه موافق لحقوق الانسان الأساسية. والقانون العضوي هو القانون الذي يتعلق بهذه الحقوق تعلقاً جوهرياً.

وهنا قد يعترض فيقال: ومَن يضمن نزاهة أعضاء المحكمة العليا أو المجلس الدستوري؟ إنَّ أعضاء المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية إنَّما يعينهم ويختارهم رئيس الجمهورية بعد موافقة مجلس الشيوخ؛ وأعضاء المجلس الدستوري في فرنسا - كما رأينا - يختار ثلاثة منهم رئيس الجمهورية، وثلاثة رئيس الجمعية الوطنية (مجلس النواب)، وثلاثة رئيس مجلس الشيوخ - اختياراً حرًّا دون أي التزام من جانب هؤلاء الثلاثة، أعني رئيس الجمهورية ورئيس الجمعية الوطنية ورئيس مجلس الشيوخ. وما دام رئيس الجمعية الوطنية هو في الغالب الأعم من أنصار رئيس الجمهورية، فقد ضمن هذا حق اختيار ستة من تسعة، أي أغلبية. فكيف تضمن موضوعية ونزاهة هذه الغالبية من أعضاء المجلس الدستوري؟! والأمر أوضح بالنسبة إلى المحكمة العليا في الولايات المتحدة لأنَّ رئيس الجمهورية هو الذي يختار أعضاء المحكمة التسعة، ومجلس الشيوخ يصادق على الاختيار، وغالباً ما تكون أغلبية المجلس من نفس حزب رئيس الجمهورية.

الواقع ان ها هنا معضلة لا سبيل إلى حلّها حلاً حاسماً، ولا يمكن أبداً ضمان النزاهة التامة والموضوعية المطلقة في أعضاء المحكمة العليا او المجلس

الدستوري. لكن وجودهما أفضل بكثير جداً من عدم وجودهما، وإلاَّ انطلق رئيس الجمهورية في طغيانه دون ضابط ولا رادع.

ولا بد ـ طبعاً ـ من أن تكون قرارات المحكمة العليا أو المجلس الدستوري ملزمة إلزاماً مطلقاً، وألا تكون قابلة للطعن لأنه لا جهة أعلى منهما يُعرَضُ عليها الطعن.

ويجب ان يتم تعيين رئيس الجمهورية بالانتخاب العام المباشر.

أمّا حق الترشيح لرئاسة الجمهورية فهو لكل مَن يحصل على تأييد ألف عضو (على الأقل) من أعضاء المجالس المحلية في خمس محافظات (على الأقل)، ويتولى المجلس الدستوري (أو المحكمة العليا) الفصل في صحة طلبات المرشحين، وهو الذي يتلقى الترشيحات قبل موعد الانتخاب بثلاثين يوماً (على الأقل)، وعليهم اعلان أسماء المرشحين المتوافرة فيهم الشروط قبل موعد الانتخاب بعشرين يوماً (على الأقل). وذلك كله لضمان جدّية الترشيح. هذا فضلاً عن دفع المرشح لمبلغ ألف جنيه بمثابة كفالة ترد إلى مَن يحصل على ٥٪ على الأقل من أصوات الناخبين المقترعين.

أمّا مدة الرئاسة فيجب ان تكون ٤ سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة، او ٦ سنوات غير قابلة للتجديد.

نظام الحكم البرلماني

على نحو مقارب كانت تدور أفكاري حين أيدت النظام الرئاسي في سنة ١٩٥٤.

لكن لما جرّبته مصر على يد جمال عبد الناصر ابتداء من يونيو سنة ١٩٥٦ كَفَرْتُ بهذا النظام، وصرت أُفضّل عليه النظام البرلماني للأسباب التالية:

١ ـ سلطة رئيس الجمهورية في النظام البرلماني محدودة، ومهمته تكاد تكون شكلية خالصة. ذلك انه ينتخب من قِبَل البرلمان، لا من قِبَل الشعب مباشرة.

صحيح انه يبدو في الظاهر ان له سلطات فعلية، لكن هذا في الظاهر الشكلي فحسب، أمّا في الواقع العملي فإنَّ الأمر بيد مجلس الوزراء.

فمثلاً في الدستور الفرنسي الصادر في ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٤٦، نجد لرئيس الجمهورية ـ والنظام هنا برلماني ـ الاختصاصات التالية:

مادة ٣٠: رئيس الجمهورية يعيّن Nomme في مجلس الوزراء مستشاري الدولة، والمستشار الكبير لجوقة الشرف، والسفراء والمبعوثين غير العاديين، وأعضاء المجلس الأعلى ولجنة الدفاع الوطني، ورؤساء الجامعات، والمحافظين، ومديري الادارات المركزية، والضباط من رتبة جنرال وأميرال، وممثلي الحكومة في مناطق ما وراء البحار.

٣١ ـ رئيس الجمهورية يكون على علم بالمفاوضات الدولية. وهو الذي يوقّع على المعاهدات ويصادقها.

وهو الذي يعتمد السفراء والمبعوثين غير العاديين إلى الدول الأجنبية؛ ويُعتمد لديه السفراء والمبعوثون غير العاديين الأجانب.

٣٢ ـ رئيس الجمهورية يرأس مجلس الوزراء...

٣٣ ـ رئيس الجمهورية يرأس، بنفس الاختصاصات: المجلس الأعلى، ومجلس الدفاع الوطني، ويحمل لقب رئيس القوات المسلّحة.

٣٤ ـ رئيس الجمهورية يرأس Préside المجلس الأعلى للقضاء.

٣٥ ـ رئيس الجمهورية يمارس حق العفو في المجلس الأعلى للقضاء.

٣٦ ـ رئيس الجمهورية يصدر Promulgue القوانين خلال العشرة أيام التالية لإبلاغ الحكومة بالقانون الموافق عليه نهائياً.

لكن بعد ذكر هذه الاختصاصات تأتي المادة ٣٨ فتقول:

المادة ٣٨: كل قرار لرئيس الجمهورية يجب ان يكون موقعاً عليه من رئيس مجلس الوزراء ومن أحد الوزراء.

ومعنى هذا انه لا بد من موافقة رئيس مجلس الوزراء على كل ما يصدره رئيس الجمهورية من مراسيم وقوانين وقرارات الخ. وهكذا أصبح رئيس مجلس الوزراء هو، من الناحية القانونية، الرئيس الحقيقي الفعلي للسلطة التنفيذية، على الأقل في ميدان العمل السياسي.

ورئيس مجلس الوزراء يسقط وتسقط معه وزارته بمجرد حجب المجلس النيابي للثقة عنه. وهو امر ميسور، وكثير الوقوع. أمّا رئيس الجمهورية فينتخب لمدة معيّنة (سبع سنوات في دساتير فرنسا لسنوات ١٨٧٥، ١٩٤٦، ١٩٥٨، الخ). وليس مسئولاً إلاّ في حالة الخيانة العظمى، (مادة ٤٢ من دستور ٢٧/ ١٠/

١٩٤٦). ولهذا من النادر جداً عزل رئيس الجمهورية. أمّا رئيس الوزراء فيعزل في أي وقت بمجرد حجب المجلس النيابي الثقة عنه. ومن هنا كان تغيّر الوزراء بسرعة كبيرة في النظام البرلماني للحكم.

وهذا من شأنه ان يمنع رئيس الوزراء من التجاوز او الاستبداد. فحتى لو ضمن حزبه أغلبية مريحة في المجلس النيابي، فإنَّه لا يستطيع التمادي في اساءة استعمال السلطة، لأنَّ المعارضة والشعب وأدوات الإعلام كفيلة بزجره عندما يتجاوز حدوده.

وإذا كان تعدد الوزارة وسرعة تغيرها امراً يؤخذ على النظام البرلماني في الحكم، لأنَّه يؤدِّي إلى عدم الاستقرار في السياسة وإلى كثرة تقلباتها ـ فإنَّ هذا أفضل بكثير جداً من اطلاق سلطة رئيس الجمهورية في النظام الرئاسي اطلاقاً كثيراً ما يؤدِّي إلى الحكم الاستبدادي والدكتاتورية الفعلية.

إن مفهوم «الاستقرار» مفهوم غامض، إذ يمكن ان يفهم منه الجمود والمحافظة والتقليد وبطء التطور. ثم ان الشعب بطبعه يملّ من طول مدة الوزير او رئيس الوزراء. فالتغيير أفضل وأدعى إلى اسهام عدد أكبر من العقول في الحكم. وينبغي ألا يكون الحكم حكراً لأحد بعينه لمدة طويلة. وما من رئيس وزراء او وزير طالت مدته في الحكم إلاَّ وأثار الضجر والتبرّم مهما تكن كفاءته.

المفاضلة بين النظامين

ومن هذا يتبيّن ان النظام البرلماني في الحكم أقل ضرراً من النظام الرئاسي لأنَّ الأول لا يساعد على قيام الدكتاتورية، بينما الثاني من السهل ان يجنح إلى الدكتاتورية، ولا يعصمه منها إلاَّ نبالة أخلاق الحاكم، وهذا أمرٌ نادرٌ جداً بين الحكام، لأنَّ السياسة تقوم أصلاً على المراهنة والخداع والتآمر، أي على انتفاء العناصر الجوهرية في الأخلاق الفاضلة.

ان الانسان بطبعه يميل إلى السيطرة، وأقوى ملكاته هي ارادة القوة، ومتى ما أُتيحت له الفرصة للسيادة على الغير لم يتردّد في التضحية بكل قيمه ابتغاء تحقيق هذه النزعة.

لهذا كان من الضروري في نظام الحكم ان يحول، قدر المستطاع دون تمكين أحد ـ أو مجموعة ـ من فرض السيطرة.

والمأساة في الشئون الانسانية انه لا يوجد حلّ حاسم لهذه المشكلة. ذلك

لأنَّ الناس في كل مجتمع مضطرون إلى ان يكلوا الأمر إلى حاكم يوفّر لهم الأمن، وضمان الحقوق، وتوفير الحريات. لكن هذا الحاكم سرعان ما ينقلب إلى مستبد ظالم غشوم، أولاً: ليشبع غرائزه في السيطرة والاستعلاء والإخضاع، وثانياً: ليضمن بقاءه في مركزه فلا يثب عليه غيره.

والحق ان الانسان في محرجة لا سبيل له إلى التخلص منها: فهو لا بد له من حاكم، حتى يضمن الأمن والحرية؛ والحاكم لا بد له من الاستبداد، حتى يضمن بقاءه في الحكم.

ولهذا فإنَّ النظام الأمثل للحكم هو الأقدر على الحدّ من سلطة الحاكم.

إنَّ الدولة وسيلة، والشخص المفرد هو الغاية. ولهذا ينبغي ان تكون مهمة الدولة هي خدمة المحكومين، لا الحاكمين. ولهذا كان الشعار الأمثل هو: شخص حرّ في أمّة حرة:

فهو شخص، وليس مجرد رقم في مجموع أو ذرة رمل في كثيب، بل ولا خلية في جسم عضوي.

وهو حر في الفعل والقول والملك طالما لم تتعارض حريته مع حرية الآخرين في أمّة، اي في مجتمع انساني تجمعه خصائص مشتركة مكاناً وزماناً وتاريخاً في أمّة حرة أي لا يسيطر على ارادتها حاكم في الداخل، ولا أمّة أخرى في الخارج.

والقيد الوحيد الذي يرد على حرية الفرد هو التعارض مع حرية الآخرين. وأمّا ما عدا ذلك من قيود فهو اهدار للحرية. فالقول ـ مثلاً ـ بأنَّ الحرية القردية مكفولة ووفقاً لمصالح الشعب ومن أجل تقوية النظام الاشتراكي» ـ كما يرد في دستور الاتحاد السوفييتي لسنة ١٩٧٧ (المادة ٥٠) هو اهدار تام للحرية الشخصية. ذلك ان التعبير: «مصالح الشعب» تعبير مطّاط جداً يمكن الحاكم ان يدرج تحته أي شيء يريد. والتعبير: «تقوية النظام الاشتراكي» هو اهدار لكل حرية سياسية واقتصادية وفكرية واجتماعية. ذلك لأنَّ عَصَب الحرية يقوم في استقلال الارادة الذاتية Autonomie. وكل التزام بمبدأ معيّن مفروض من الخارج انما هو اهدار شديد لمعنى الحرية.

وما من مستبدّ طاغية في العصر الحاضر إلاّ وادعى ان ما يصدره من قرارات وقوانين إنّما هو لـ «مصلحة الشعب».

فباسم «مصلحة الشعب» صادر عبد الناصر الأموال والعقارات الزراعية

والعمائر المشيّدة والأسهم والسندات، ثم بدّد هذا كله على «مخابراته» ومغامراته المخفقة في اليمن وسائر البلاد العربية وعلى المرتزقة في وسائل الاعلام، وكل هذا في سبيل تمجيد شخصه، و«مصلحة الشعب» من هذا كله براء.

وباسم «مصلحة الشعب» صادر حريات الناس جميعاً وأنزل بهم شتى صنوف العذاب، واعتقل عشرات الآلاف من الأبرياء، وكل هذا كان إشباعاً لأحقاده ومن اجل الاستئثار وحده بكل سلطة ولإذلال الجميع وإخضاعهم، فأين هذا كله من «مصلحة الشعب»؟!

وباسم «مصلحة الشعب» جرّ البلاد إلى حربين مدمّرتين (حملة السويس سنة ١٩٥٦، وحرب الأيام الستة في يونيو ١٩٦٧) بسبب حماقته وخُرقة تصرفاته واندفاعه الأهوج دون تبصّر، فقُتِل الآلاف من الجنود ومن المدنيين، ودمّرت مرافق عديدة، وبُدِّدت على الأسلحة أموال لا تحصى - فهل قتل آلاف المصريين في هاتين الحربين كان لـ «مصلحة الشعب»؟! وهل ضياع كل هذه المرافق والعتاد والأموال قدّم «المصلحة الشعب»؟!!

وباسم «مصلحة الشعب» أغلق حدود مصر على أهلها، فمنع المصريين من الخروج من مصر طلباً للرزق، فأضاع عليهم فرصاً عديدة جداً وعظيمة جداً للكسب بالعملة الصعبة خصوصاً في تلك السنوات التي كانت فيها أبواب دول النفط وأمريكا وكندا واستراليا مفتوحة على مصاريعها لاستقبال العاملين - فهل كان إفقار المصريين وحرمانهم من الأموال بالعملات الصعبة وتدمير قيمة الجنيه المصري وحرمان مصر من هذه المزايا - في «مصلحة الشعب»؟!

والقائمة طويلة تستغرق عدة صفحات من هذه القرارات والتصرفات التي أصدرها عبد الناصر باسم «مصلحة الشعب»، فقضى بها على مقدرات هذا الشعب المصري المسكين، الذي كانت تُساق غوغاؤه في مظاهرات كاذبة مفتعلة لتأييد هذه القرارات «الشعبية» كما كان حَمَلة مباخر عبد الناصر يسوّدون صفحات جرائده الهزيلة لإحراق البخور حول هذه القرارات «بصراحة».

انتاجي الفكري من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٦٦

في وسط هذا الظلم والظلام الذي خيّم على مصر في عهد جمال عبد الناصر، لم يكن أمامي غير البحث العلمي والانتاج الفكري أكبّ عليهما وأستغرق نشاطي فيهما.

فأقبلت على الجبهات الثلاث في ميدان عملي: التأليف، والترجمة، وتحقيق النصوص العربية القديمة في الفلسفة، فكانت الفترة من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٦٦ من أخصب فترات انتاجي:

أ ـ ففي التأليف أصدرت الكتب التالية:

١ ـ «المثالية الالمانية» ـ الجزء الأول: «شلنج»، سنة ١٩٦٠ ط ١ القاهرة، ط ٢ بيروت سنة ١٩٨٠.

٢ ـ «دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي»، ط ١ بيروت سنة ١٩٦٥؛ ط ٢ القاهرة سنة ١٩٦٧، الخ.

٣ ـ «مناهج البحث العلمي»، ط ١ سنة ١٩٦٢؛ ط ٢، الكويت سنة ١٩٧٥؛ وهو في الأصل محاضرات ألقيت سنة ١٩٤٣.

٤ ـ «الفلاسفة والسلام»، مقالات في مجلة «المجلة».

٥ ـ «في الشعر الأوروبي المعاصر»، مقالات نشر بعضها في مجلة «الثقافة» ومجلة «المجلة» وجمعت في كتاب بهذا العنوان، صدر في سنة ١٩٦٥، بالقاهرة، ط ٢ بيروت سنة ١٩٨٠.

٦ ـ كما طبعت كتابي: «المنطق الصوري والرياضي»، وكنت قد ألّفته سنة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢، وأمليته على الطلاب طوال السنوات من سنة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١، ثم طبعته في سنة ١٩٦١ لأول مرة؛ ط ٢ سنة ١٩٦٣؛ ط ٣ سنة ١٩٦٨؛ ط ٤ سنة ١٩٧٤ بالكويت، الخ.

٧ ـ «دراسات في الفلسفة الوجودية» ط ١ القاهرة سنة ١٩٦٢؛ ط ٢، القاهرة سنة ١٩٦٥؛ ط ٣، بيروت سنة ١٩٧١؛ الخ.

٨ ـ «مؤلفات الغزالي»، ط ١ القاهرة سنة ١٩٦١؛ ط ٢، الكويت، سنة ١٩٨٠.

٩ ـ «مؤلفات ابن خلدون» ط ١ القاهرة سنة ١٩٦٢؛ ط ٢، تونس، سنة ١٩٧٦.

ب ـ وترجمت الكتب التالية:

١ ـ «دون كيخوته» تأليف ثربانتس في جزئين: جـ ١ سنة ١٩٦٥؛ جـ ٢ ١٩٦٦ بالقاهرة، مع تقدمة ضافية وتعليقات وفيرة غزيرة.

٢ ـ «الوجود والعدم»، تأليف جان پول سارتر، بيروت سنة ١٩٦٥.

٣ ـ «النقد التاريخي» تأليف سينوبوس ولانجلو، مع «نقد النص» تأليف پاول ماس، و«أفكار في التاريخ العالمي» تأليف امانويل كنت ونصوص أخرى لديكارت وڤاليري في فلسفة التاريخ، القاهرة سنة ١٩٦٣؛ ط ٢، الكويت، سنة ١٩٨١.

٤ ـ مسرحية: «دائرة الطباشير القوقازية» تأليف برتولت برشت، القاهرة سنة ١٩٦١.

٥ ـ مسرحية: «علماء الطبيعة» تأليف فريدريش دورغات، القاهرة سنة ١٩٦٢.

٦ ـ ثلاث مسرحيات تأليف جرثيا لوركا، هي: «حرس الدم»، «يرما»، «الاسكافية العجيبة»، القاهرة سنة ١٩٦٥.

٧ ـ مسرحيتان لبرشت هما: «الأم شجاعة وأولادها»، «الانسان الطيّب في ستسوان»، القاهرة سنة ١٩٦٤.

٨ ـ ابن عربي «تأليف اسين پلاثيوس، ط ١، القاهرة سنة ١٩٦٥؛ ط ٢ الكويت سنة ١٩٨٠.

٩ ـ «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» تأليف جيته، القاهرة سنة ١٩٦٧؛ ط ٢ بيروت سنة ١٩٨١. مع شرح كبير جداً يتجاوز ضعف الكتاب الأصلي.

١٠ ـ «الفن والنور واللوحات» تأليف رينيه وج، القاهرة سنة ١٩٦٥.

١١ ـ «فلسفة الحضارة» تأليف البرت اشفيتسر، ط ١ القاهرة سنة ١٩٦٥؛ ط ٢ بيروت سنة ١٩٨٠.

جـ ـ وحققت لأول مرة الكتب التالية:

١ ـ «فضائح الباطنية» لأبي حامد الغزالي، ط ١ القاهرة سنة ١٩٦٤؛ ط ٢، الكويت سنة ١٩٧٧؛

٢ ـ «رسائل ابن سبعين»، القاهرة، سنة ١٩٦٥.

٣ ـ «الطبيعة» لأرسطو، في جزئين، القاهرة سنة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦.

٤ ـ «في السماء والآثار العلوية» لأرسطو، القاهرة، ١٩٦٢.

٥ ـ «تلخيص الخطابة» لابن رشد، ط ١ القاهرة سنة ١٩٦٠؛ ط ٢، الكويت سنة ١٩٨٠.

٦ ـ «فن الشعر: من الشفا» لابن سينا، القاهرة، سنة ١٩٦١.

٧ ـ الفصل الخامس بفن الشعر في كتاب «سراج البلغاء» لحازم القرطاجني، القاهرة سنة ١٩٦٢.

وطبعت رسالة الماجستير وهي باللغة الفرنسية، وعنوانها.

Le Problème de la mort dans la philosophie existentielle. Imprimérie, de l'Institut français d'Archéologie orientale. Publications de l'Université Ain shams, Faculté de lettres, Le Caire, 1965.

❀ ❀ ❀

وبعض هذه الكتب قد قصدتُ منه إلى مقاومة المدّ اليساري الذي فرضه عبد الناصر ومن ورائه الاتحاد السوفييتي وأتباعه في مصر.

ـ فكتابي عن «المثالية الألمانية» قد هدفت منه إلى مقاومة المادية التاريخية بأمضى سلاح لمقاومتها، وهو المثالية الألمانية ممثلة في فشته وهيجل وشلنج.

ـ وكتابي «في الشعر الأوروبي المعاصر» يتألف من مقالات، بعضها كتبته للاسهام في المعركة التي قامت في سنة ١٩٦٥ بين أهل اليمين وأهل اليسار، واتخذت من المجلات الأدبية والصحف اليومية في ملاحقها الأدبية الاسبوعية منابر لها: وكان لأهل اليمين منبران رئيسيان هما مجلة «الثقافة» ومجلة «الرسالة» اللتان ظهرتا من جديد بعد احتجاب امتدَّ أكثر من عشر سنوات. ودارت المعركة في الظاهر حول «الشعر الحرّ»، ولكنها في الحقيقة دارت بين أنصار الشيوعية من جانب، وأنصار الفكر اللبرالي الحرّ من جانب آخر، مع فروق نوعية داخل كل جانب، بحيث لم يكن يجمع بينها في كل جانب إلاّ التحالف المؤقت ـ أو المرحلي ـ لضرب العدوّ المشترك الأخطر.

وكان دوري في هذه المعركة هو ان أُبيِّن ان الشعر الحرّ ليس تقدماً بل تخلفاً، مستدلاً على ذلك بالشعر الأوروبي المعاصر، والألماني منه بخاصة. فكتبت عدة مقالات في مجلة «الثقافة» أعرض فيها التيارات المعاصرة في الشعر الألماني.

ـ وكتابي «دراسات في الفلسفة الوجودية» استهدفت منه إلى تبسيط الوجودية حتى يفهمها عامة المثقفين. وفي عرضي للمذاهب الوجودية أكّدت خصوصاً معنيين رئيسين وهما: الحرية، والفردية؛ وهما المعنيان اللذان تحاربهما

الأيديولوجية الماركسية أشد المحاربة، لأنَّها تنكر الحرية وتؤكّد دكتاتورية البروليتاريا، وتنكر الفردية وتؤكّد الجماعية. لهذا فإن أقوى سلاح فكري ضد الأيديولوجية الماركسية هو الفلسفة الوجودية.

ـ ومقالاتي عن الفلاسفة والسلام ـ أردت منها تفنيد دعوى الشيوعيين في السلام إذ بيّنت ان السلام الحق هو القائم على حرية الفرد في مواجهة الدولة، وحرية الأُمّة تجاه سائر الأمم، وتساوي الأمم جميعها في الحقوق والواجبات، وتكافلها في التقدم والرخاء للإنسانية جمعاء. وكل هذا يتنافى تماماً مع دعوى الشيوعيين في السلام: اذ السلام عندهم هو «السلام السوفييتي» أي سيطرة روسيا على أُمم العالم كلها، وخضوع سائر الدول للدولة «الأم» في الشيوعية، أعني روسيا، والقضاء على استقلال الشعوب وحرية الأُمم وعلى شخصية كل دولة لتذوب جميعاً في بحر الشيوعية.

لقد استخدمت إذن «أسلوب الحكيم» كما يقال في كتب البلاغة العربية، أو «الخطاب غير المباشر» كما يقال في كتب البلاغة الأوروبية، إذ لم يكن في وسعي ان أنشر في الصحف او أصدر كتباً تتناول الرد على المد القرمزي (= الشيوعي) في مصر بطريقة مباشرة، فإنَّ الرقابة كانت بالمرصاد، والنفوذ الشيوعي في ادارة الدولة، خصوصاً من سنة ١٩٦٤ وما يليها كان كفيلاً بالقضاء على كل صاحب قلم يجرؤ على الهجوم المباشر على الماركسية والاشتراكية «العلمية» وما تفرّع عنها من اتجاهات. إذ في سنة ١٩٦٤ استولى الشيوعيون على كل أدوات الاعلام في مصر: من صحافة، واذاعة، ومسرح، وسينما، ومطابع تنتسب إلى القطاع العام والهيئة العامة للكتاب. وراحوا يتوزعون فيما بينهم رئاسة تحرير هذه الصحف وادارة المسارح وقطاع السينما والاذاعة، والهيئة العامة للكتاب؛ بل وزعوا مكافآت للتأليف والترجمة على أنفسهم عن كتب لم يشرّعوا فيها ولن يشرّعوا أبدا. وضاعت هذه المكافآت على الدولة، فلم تستردّها ممن تعاقدوا معهم وسلموهم المكافآت دون أن ينجزوا ما تعاقدوا عليه. وهكذا استخدموا سيف المعز وذهبه: السيف بالشغب على مَن لا يسير في موكبهم والتحريش عليه من السلطات الباطشة، والذهب: بالأموال التي أغدقوها على أنفسهم ومَن تملّقهم أو مشى في موكبهم. وكان عجيباً حقاً ان ترى مَن لم يُعرف عنه من قبل أي ميل إلى الشيوعية والماركسية ـ يلهث وراء هؤلاء الشيوعيين والماركسيين، وذلك مثل توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ. اللذين صارا يدعوان الناس إلى قراءة ماركسية لقصصهم، ويزعمان أنها قصص رمزية تقوم على الصراع الطبقي والاشادة

بالپروليتاريا والدعوة إلى ثورة شعبية تقضي على البورجوازية والطبقية وتصوّر الحتمية التاريخية لانتصار الطبقة الكادحة على الاقطاع والرجعية ـ وهكذا إلى آخر معجم الألفاظ المعروف. ولعدم خبرتهما بهذا التأويل الرمزي الماركسي استعانا بأئمة التفسير الشيوعي الماركسي، مثل محمود أمين العالم، وغالي شكري!

في الجامعة

وكان الجو في الجامعة في تلك السنوات السبع (١٩٦٠ ـ ١٩٦٦) قد فسد فساداً لا علاج له أبداً. إذ تنافس الأساتذة في العمل بالمخابرات، وكتابة التقريرات لمكتب الأمن وللمخابرات العامة وللمخابرات العسكرية؛ وصارت المناصب الادارية: مدير جامعة، وكيل جامعة، عميد كلية، وكيل كلية، وقفاً على عملاء المخابرات هؤلاء. ولم يكن أحد يعيّن في منصب من هذه المناصب إلاَّ بعد موافقة المخابرات. ولم يكن مدير الجامعة ليجرؤ على اقتراح اسم مرشح لعمادة الكلية إلاَّ بعد تلقي موافقة المخابرات. وهكذا كانت المخابرات هي التي تتحكم في تعيين مدير الجامعة وعميد الكلية وسائر الوظائف العليا في ادارة الجامعة والكلية. وكان العميد في كل كلية يتخذ له عملاء من هيئة التدريس في كل قسم ليوافوه بالأخبار عن المسلك السياسي لأعضاء القسم. والعميد بدوره يبلّغ مدير الجامعة، وهذا بدوره يبلّغ الأمين العام للجامعة، وكان من رجال الجيش السابقين، بكلّ ما لديه من أخبار عن السلوك السياسي لأعضاء هيئة التدريس. وتتجمع المعلومات عند الأمين العام، ليبلّغها بدوره إلى جهات معيّنة في ادارة المخابرات، وأحياناً إلى مدير مكتب الأمن في وزارة التعليم العالي. على ان لهذا الأخير عملاءه المباشرين من أعضاء هيئة التدريس في الجامعات.

وكان هذا التنظيم الاستخباري قد بدأ في سنة ١٩٥٦. ثم واكبه ابتداء من سنة ١٩٦٢ تنظيم آخر أشرنا إليه من قبل هو التنظيم السرِّي الذي يشرف عليه الجهاز السرِّي. وهذا الجهاز السرِّي، وكان يشرف عليه أستاذ في كل جامعة، صار يستعين بنفر آخر من أعضاء هيئة التدريس في كل كلية ليحكم الرقابة في كل المواقع. ومعظم هؤلاء العملاء كانوا من الماركسيين أو المتجرين باليسارية والماركسية والشيوعية، لأنَّ هذا التنظيم كان وليد استفحال سيطرة الشيوعيين على مراكز القوة.

وبالجملة كان الجوّ في الجامعة جوّ الجاسوسية الشاملة والارهاب المتربّص والوشاية المتحفّزة.

وكان الرئيس الأعلى للجامعات هو وزير التعليم العالي. وقد أنشئت وزارة التعليم العالي في يونيو سنة ١٩٦١ وتولاها سوري ما لبث ان طار مع طيران الوحدة المشئومة بين مصر وسوريا في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١. وقد تولاّها بعده عبد العزيز السيد، وكان جاهلاً مهرّجاً لا مؤهل له عند صاحب السلطان إلا سرد النكت والفكاهات منذ ان كان زميلاً له في التدريس في الكلية الحربية. وكما ينهال الزوج الجريح في عمله المفلس مما كان في يده ـ على أهل بيته بالتنكيل والركل والتصرفات الحمقاء الطائشة، انهال جمال عبد الناصر على أهل مصر بالحراسات والاعتقالات والعزل السياسي.

ولعب كل وزير دوره في هذه الهستيريا الشاملة، بدعوى «التطوير». فانطلق وزير التعليم العالي في الدعوة إلى «تطوير» الجامعة، وهو خاوي الذهن تماماً من كل تصوّر لهذا «التطوير». ولم يجد شعاراً لهذا التطوير المزعوم غير عبارة: «ربط الجامعة بالحياة». وكأنّ الجامعة كانت قبل ذلك مرتبطة بالموت، تدبّره للطلاب بأيسر طريق! ثم استبدل به شعاراً آخر هو: «ربط الجامعة بالمجتمع»، وكأن الجامعة قبل ذلك كانت تعدّ الطلاب للعمل في الكواكب والأجرام السماوية! وأذكر انني في صيف سنة ١٩٦٢ كنت أنزل في فندق «سيسيل» بالاسكندرية وكان ينزل به آنذاك عبد العزيز السيد. وكان من المحتم على النزلاء تناول الافطار في الفندق. فكان عبد العزيز السيد يجلس أحياناً معي لتناول الافطار على نفس المائدة. فدار الحديث التالي بينه وبيني:

سألني: ما رأيك فيما أقوم به الآن من تطوير الجامعة؟

فقلت: أي تطوير؟

فقال: لربط الجامعة بالمجتمع والحياة.

فقلت: وهل هي ليست مرتبطة بهما؟ هل كلية الطب تخرّج الأطباء كي يطبّبوا في السماوات العُلا؟ وهل كلية الهندسة تخرّج المهندسين ليشيدوا العمائر وينظموا الري ويوفرّوا الكهرباء والآلات لسكان الكواكب الأخرى؟ وهل كلية الزراعة تخرّج الزراعيين ليحسّنوا الزراعة في طبقات المرّيخ؟ وهل كلية التجارة تخرّج التجاريين والمحاسبين ومديري الأعمال والتأمين لكي يبذلوا نشاطهم هذا في يوم الحساب؟ وهل كلية الحقوق تخرّج رجال القضاء والنيابة والمحامين

لممارسة القضاء والتحقيق والدفاع في القضايا التي تثار بين الزبانية في الجحيم؟ وهل كلية الآداب تخرّج المدرّسين للغات والعلوم الانسانية ليعلّموا ملائكة السماء!!

فقال: أتريد ان تسخر منّي ومن جهودي العظيمة لتطوير الجامعة؟ لا، لا...

فعاجلته بقولي: هذا هو رأيي، وهو رأي شخص مطلق الرأي Free Lance، لا يتقيد إلاَّ بما يعتقد، لأنَّني لا أطمع في أي منصب قيادي في الجامعة. ولست واحداً من أولئك الذين يلتفون حولك ويتملقونك ويؤمنون على كل ما تقول.

فقال: مطلق الرأي Free Lance؟ وهل في الجامعة أحد يتخذ موقفاً كهذا، والكلّ يجب ان يكون مسخّراً لخدمة الشعب والمجتمع، ولا مجال لأي انحراف...

فعاجلته حتى لا يسترسل في هذه الشنشنة المعتادة الممجوجة: أنت سألتني رأيي، وهذا هو رأيي، وليس لك ان تحفل به ما دام المئات من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة يسيرون وراءك ويعملون بما تأمر.

وعند هذا افترقنا، وتحاشيت جلوسه معي بعد ذلك.

وامتلأ غيظاً، لأنَّه راح يقول لبعض الناس بعد ذلك إنَّني قلت له إنَّه يريد تخريب الجامعة، كما أخبرني بذلك نفرٌ من هذا البعض.

وهكذا كان الأمر كله تهريجاً في تهريج: فلا أحد يريد إصلاح الجامعة، بل كان هدف الحاكم هو إخضاع كل أعضاء هيئة التدريس في كل الجامعات، كي يكونوا مجرد أبواق تتشدّق بكيل المديح للحاكم المطلق ونظامه الباغي المتهاوي.

وجاء بعد عبد العزيز السيد وزير تعليم عالٍ آخر هو عزت سلامة، فاندفع في نفس الموجة وزاد عليها بالتضييق على أعضاء هيئة التدريس في الحضور كل يوم، والتوقيع على الحضور، وإلزام رئيس القسم في يوم الخميس بتقديم كشف غياب وحضور لأعضاء قسمه. فكنت اضطر إلى المجيء يوم الخميس لكتابة هذا الكشف وتقديمه لمقابلته. واستمريت على هذا النحو إلى ان أنقذني من هذا الموقف سفري إلى باريس في ١٨ فبراير سنة ١٩٦٧، وهو يوم بدء «غيبتي الكبرى» عن الوطن.

الانهيار الخلقي والعلمي في الجامعة

وقد انتشرت الوشاية والتبليغ واستعداء السلطات والعمل مع المخابرات ـ انتشاراً هائلاً جداً بين أعضاء هيئة التدريس في الجامعة. وحسبي أن أذكر الحادث التالي:

١ ـ في صيف سنة ١٩٦٦ أقام أساتذة كلية الطب، في جامعة القاهرة، حفلة عشاء في نادي الجزيرة توديعاً لعميدها عبد العزيز سامي. وعند أواخر العشاء قام د. رشوان فهمي ـ استاذ طب العيون في كلية طب جامعة الاسكندرية؛ فخطب مشيداً بعبد العزيز سامي ومدافعاً عنه. وكان جمال عبد الناصر قد صرّح في خطبة له انه لو كان قصر العيني يدار كما أدار محمود يونس هيئة قناة السويس، لما رأينا هذا الفساد في قصر العيني. فقال رشوان فهمي مشيراً إلى قول عبد الناصر مع تحاشي ذكر اسمه: لو أتيحت لعبد العزيز سامي الامكانيات بل عُشر الامكانيات التي أتيحت لمحمود يونس، لكان قد جعل من قصر العيني نموذجاً كاملاً لخير المستشفيات.

وفهم الحاضرون اشارته، فأصابهم وجوم تام استمر بضع دقائق، قطعه د. عثمان وهبي بأن قال وهو يصفق تصفيقاً شديداً ـ هذا الكلام عظيم فلماذا لا تصفقون؟!

وانتهت حفلة العشاء حوالى منتصف الليل. وفي الساعة الرابعة صباحاً، كان قد صدر قرار بفرض الحراسة على رشوان فهمي، وفي الحال أخذت الشرطة الجنائية (أو العسكرية، لا أذكر) بتفتيش شقته في الاسكندرية. وعاد رشوان فهمي إلى الاسكندرية ليجد في انتظاره بالشقة مندوبين من الشرطة والحراسة، ما لبثوا ان أخذوا في استجوابه عن أمواله. فلم يجدوا معه غير عشر جنيهات، وليس في حسابه بالبنك مبلغ يذكر، ولا يملك أي عقار. ذلك انه كان مبذّراً جداً، ينفق مرتبه كله فلا يبقى منه شيء. ولم يكن له عيادة، وهي وحدها التي تدر الأموال على الأطباء.

ونعود إلى الفترة ما بين منتصف الليل والساعة الرابعة صباحاً. ماذا حدث بكل هذه السرعة؛ الذي حدث هو ان استاذاً في طب الأطفال، كان من عملاء المخابرات المباشرين، اتصل فور خروجه من الحفلة بعلي صبري، وهو المسئول الأول عن «الأجهزة» (أجهزة القهر والبطش والتنكيل والتعذيب)، كما كان يتفاخر،

ويخاطبه بهذا اللقب صلاح بيطار أيام الوحدة المشئومة. فشغّل علي صبري أجهزته الاجرامية هذه وكان ما أتينا على وصفه.

وأذكر اني التقيت برشوان فهمي في يناير سنة ١٩٦٧ بالاسكندرية، فوجدته وهو يمشي معي يتلفت دائماً إلى الوراء لأنَّ المخبرين كانوا وراءه أينما وصل وحيثما سار. فكانت خاطرة وقلت له: لا عليك فهذا أمرٌ هيِّن. وجلسنا في ركن من مقهى في شارع توفيق. وأخذت أُداعبه قائلاً:

ـ لماذا تحزن؟ إنَّك تستحق هذا كله! ألست أنت اول مَن أرسل برقية تأييد للثورة نيابة عن جمعية هيئة التدريس في جامعة الاسكندرية، في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، بينما كان الملك فاروق لا يزال في الاسكندرية ولا يدري أحد هل ستنجح هذه الثورة؟!

ماذا أفدت من تعريض نفسك للخطر، وهأنت ذا لم تظفر بشيء في عهد الثورة وطوال أربعة عشر عاماً، بينما الخونة وأذناب الانجليز قد نالوا أرفع المناصب!

فقال لي: لكن أنت أيضاً كنت مؤيداً للثورة في بدايتها.

فقلت له: كنت مؤيداً ولكن بتحفظ شديد ويأس تام من ان تستقيم الأمور، بدليل مقالاتي في شهور اكتوبر إلى فبراير ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ وكلها تنقد رجال الثورة على سلوكهم وتقريبهم للخونة وأذناب الانجليز ومحاسيب العهد الماضي، وهي المقالات التي أدَّت إلى وقف مجلة «اللواء الجديد». أنا يا سيدي أعرف تواريخ الثورات جيداً؛ بحيث لا أنخدع ابداً بألفاظ رجالها ودعاواهم.

فقال: ماذا كان ينبغي ان نعمل إذن؟

فقلت له: لا شيء. فدعهم يعبثون حتى ينهاروا من تلقاء أنفسهم. ونحصر همّنا كله ـ ونحن أساتذة في الجامعة ـ في التفرغ للبحث العلمي وتعليم الطلاب، وفي حالتك أنت ان تهتم بمرضاك.

وهكذا مضى الحديث بين الندم والأسف: الندم على مبادرته بتأييد الثورة قبل ان ينكشف من أمر أصحابها شيء، والأسف على ما وصلت اليه الحال في مصر من استبداد لم يعرف له التاريخ مثيلاً؛ حاكم لا يحتمل أية عبارة قد يشتم منها ردّ هادىء بريء عليه! وهو مع ذلك يمزق أسماع الناس في كل مناسبة بكلمات الحرية والكرامة. كيف يصل الأمر إلى حدّ ان كلمة رقيقة بسيطة كتلك التي قالها رشوان فهمي تثير ثائرة هذا الطاغوت الرهيبة! وكيف يجرؤ بعد هذا أحد

من الوزراء أو المشاركين له في السلطان ان يرد له قولاً، أو ينبس بأرق مخالفة لرأيه! وهل هناك أدل على ما أصاب نفوس كبار المثقفين من جبن وخور وانحلال - هل هناك ادل على هذا من الذهول الشديد الذي أصاب أساتذة الطب حينما سمعوا عبارة رشوان فهمي؟! ان هذا الذهول معناه ان هذه الفئة المفروض فيها انها من أرفع الفئات ثقافة وعلماً قد صارت تتألف من دمى مذهولة وشخوص جبانة فقدت كل ملكة للتفكير المستقل المستقيم. هذا على الرغم من ان أبناء هذه الفئة (الأطباء) هم أقل الفئات اعتماداً على «الميري»، لأنَّ ٩٠٪ من دخلهم يرد إليهم من المرضى الخصوصيين.

الفزع والهلع، والجُبن والخور، والتملق والنفاق - تلك كانت الأحوال النفسية والخلقية السائدة لدى الطبقات المثقفة في المجتمع المصري في عهد عبد الناصر.

واذا كانت هذه حال المثقفين، فكيف يرجى لهذا المجتمع أي نهوض؟! ان المثقفين هم ضمير الأُمّة، فإن فسد الضمير فعلى هذه الأُمّة العفاء.

ويحار المرء في فهم هذه الحال التي سيطرت على نفوس هؤلاء المثقفين، وخصوصاً أساتذة الجامعات. فإنَّ لديهم في البحث العلمي والتفوق فيه ما يغنيهم عن التطلّع إلى أي منصب اداري. ولو استقرى المرء منهم مَن تولوا الوزارة، لكان عليه ان يرضى عن نفسه لأنه لم يتولَّ أية وزارة. لقد صار منصب الوزير لأيّ مدنيّ مصدراً للذل والهوان، وهدفاً للتنكيل والتخلّص من المسئولية وإخفاق سياسة الدولة. ان حدثت كارثة او أزمة، سارع عبد الناصر الى القاء مسئولية حدوثها على الوزير الذي تقع الكارثة او الأزمة في دائرة اختصاصه، رغم ان المسئول الوحيد هو عبد الناصر نفسه بسياسته الخرقاء الطائشة. وما أسرع ما تنهال وسائل الإعلام لتصب الذنوب كلها على رأس هذا الوزير المسكين. وفي غمرة هذه الحملة الظالمة ينسى عامة الناس المشكلة الأصلية، ولا يعود أحد يتحدّث عنها، وكأن السلعة المفقودة قد عادت فغمرت الأسواق؛ أو المرفق الفاسد قد صلحت أموره وعاد يؤدّي مهمته، او الأرض التي احتلها العدو قد جلا عنها وتحرّرت حتى صار الشعب المصري يعيش في الأوهام، ويتغذى بالأوهام، ويعالج كل أموره الفاسدة بخلق المزيد من الأوهام.

حضور مؤتمرات المستشرقين

مؤتمر المستشرقين مؤتمر دولي يعقد كل ثلاثة أعوام، ويحضره الباحثون في

علوم الشرق الأدنى والأوسط والأقصى. وينقسم في العادة الى أقسام هي: الدراسات العربية والاسلامية، الحضارة المصرية، الحضارة الهندية، الحضارة الصينية، الدراسات البيزنطية، الدراسات العبرية، الدراسات الأرمنية، الدراسات التركية، حضارة أشور وبابل.

وقد انعقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس في ١٨٧٣، كما سينعقد آخر مؤتمر دولي لهم في يوليو سنة ١٩٧٣ في باريس.

وكان أول مؤتمر دولي للمستشرقين حضرته هو ذلك الذي انعقد في باريس في شهر يوليو سنة ١٩٤٨. وكان مركز انعقاده هو المدرسة الوطنية للعلوم السياسية في شارع سان جيوم بالحي السابع. فكان فرصة للتعرّف الشخصي الى بعض المستشرقين، أكثر منه فرصة للتزود بالمزيد من العلم، فإن كل الأبحاث التي سمعتها كانت رديئة المستوى، ليس فيها جديد يستحق التنويه به. وهذه الملاحظة عينها ستنطبق على المؤتمرات الأخرى التي حضرتها، وهي:

١ ـ مؤتمر كمبردج في سبتمبر سنة ١٩٥٤.

٢ ـ مؤتمر نيودلهي في يناير سنة ١٩٦٤.

٣ ـ مؤتمر باريس في يوليو سنة ١٩٧٣.

وهبوط مستوى الأبحاث في هذه المؤتمرات إنما يرجع ـ في نظري ـ إلى الأسباب التالية:

أ ـ ان الغالبية العظمى ممن يحضرون هذه المؤتمرات هم من الشيوخ المشهورين في ميدان الاستشراق، ممن بلغوا شهرة واسعة وهم في حدود سن الأربعين إلى الخامسة والأربعين، ثم استناموا بعد ذلك إلى هذه الشهرة فقلّ ـ أو انقطع ـ اتصالهم بمصادر البحث الأصلية، وانحصرت متابعتهم للأبحاث الجديدة، فراحوا يجدّدون أبحاثاً لهم سابقة أو يقتصرون على عرض تركيبي ذي طابع عام غير مدعوم بوثائق جديدة.

ب ـ ان هؤلاء المشاهير لا يكلّفون أنفسهم مشقة إعداد بحث مكتوب موثق، لأنهم يرون ان المجال ليس للبحث القويم الرقيق، بل للمعاني بالعبارات الجميلة والأسلوب الخطابي.

جـ ـ ان غالبيتهم يأتون لمجرد الاجتماع برصفائهم، ولهذا يقنعون بالاستماع، أو يتزاحمون على المناصب الشرفية. : من رئاسة القسم، أو رئاسة الجلسات أو عضوية اللجنة المنظّمة للمؤتمر، الخ وقد تجلّت هذه الظاهرة بشكل مخز في مؤتمر

كمبردج سنة ١٩٥٤، وساعد على ذلك ما طبع عليه الانجليز من غرور زائف واحتفال بالأمور التشريفية وحرص على التفاهات المظهرية. وكان أبرز مَن تجلت فيه هذه الصفات: سير ريلف تيرنر Ralph Turner رئيس المؤتمر، وهاملتون جب Jibb رئيس القسم الاسلامي. وتجلّت روح الاستغلال التجاري البريطانية في أنهم فرضوا علينا ان ندفع تكاليف أيام المؤتمر الأحد عشر، حتى لو لم يقم المرء سوى يومين أو ثلاثة! وهذه «السرقة» طبيعة في الانجليز، وخصوصاً في جامعة كمبردج، لأنّها صنعت معي نفس الصنيع في ابريل سنة ١٩٨٢ لما ان حضرت ندوة في كلية روبنسون بجامعة كمبردج إذ أجبروني على دفع أجر الاقامة لستة أيام، مع أنّني لم أقم إلاّ خمسة!!

وإذن لا يطمعن أحدٌ في أن يستفيد علماً جديداً او ان يطلع على اكتشافات بارزة في مثل هذه المؤتمرات. انما هي فرصة لقاء بين أشخاص يشاركون في نفس الميادين العلمية. وقد يكون هذا اللقاء مفيداً ان أدّى إلى تبادل معلومات، وهو أمر نادر الوقوع لبخل الباحثين بما يشتغلون به من أبحاث لم تر النور بعد بالنشر العام؛ ـ أو إلى إقامة علاقات شخصية ربما تفيد في تبادل النشرات الصغيرة (الفِصَل المنتزعة من مجلات أو كتب تذكارية مشتركة التأليف).

ويلاحظ المرء فارقاً هائلاً بين ما يعقد من هذه المؤتمرات في أوروبا، وما يعقد منها في الشرق، وذلك فيما يتصل بكرم الاحتفال. ففي مؤتمري باريس (١٩٤٨ و١٩٧٣) لم يصرف على أعضاء المؤتمر فرنك واحد في أي احتفال، وفي مؤتمر كمبردج (سنة ١٩٥٤) قام منظمو المؤتمر بـ «سرقة» أعضاء ـ أو بعض أعضاء ـ المؤتمر على النحو الذي ذكرناه. ولم ينظموا إلاّ رحلة قصيرة لمشاهدة كاتدرائية ايلي على بعد عشرين كيلومتراً، وأذكر انهم تقاضوا اجرة السيارة!!

أمّا في مؤتمر نيودلهي (يناير سنة ١٩٦٤) فقد أغدقت علينا السلطات الهندية مختلف صنوف التكريم والترحل. فأقاموا لنا احتفالاً فاخراً في قصر رئيس جمهورية الهند ـ وكان آنذاك راذا كرشنان المفكر ومؤرخ الفلسفة الهندية الكبير، لكنه كان مريضاً فلم يستطع الحضور. وأنا أعرفه معرفة جيدة منذ سنة ١٩٤٨ في مؤتمر المستشرقين بباريس، ثم في ديسمبر من نفس العام في بيروت أثناء حضوره للمؤتمر العام لليونسكو. لهذا أسفت كثيراً لعدم التمكن من رؤياه هذه المرة، وخصوصاً للاستماع إليه محاضراً وخطيباً، لأنّه من أبلغ الخطباء باللغة الانجليزية.

ثم نظّمت الحكومة الهندية رحلة اثرية فنية استغرقت ثلاثة أيام قمنا فيها بزيارة سارنت، المدينة ذات الآثار الهندية القديمة، ثم زرنا تاج محل في مدينة

اكرا. وطوال هذه الأيام الثلاثة كنا في ضيافة الحكومة الهندية إقامة وطعاماً، وشراباً وترفيهاً فنياً. ولهذا كنت بين الحين والحين وفي كل مناسبة أسخر ممن معنا من الفرنسيين والانجليز قائلاً: «هكذا ينبغي ان يكون تنظيم المؤتمرات، وليس «سرقة» المؤتمرين كما حدث في مؤتمر كمبردج، ولا الكزازة الشائنة كما في مؤتمر باريس سنة ١٩٤٨!»

وفي إحدى أمسيات المؤتمر ألقى علينا جواهر لال نهرو محاضرة بليغة عن حضارة الهند وروحها، كان وقعها أفضل بعشرات المرات من ثرثرة بشم D.D. Basham الباحث الانجليزي في الهنديات والذي ألقى علينا محاضرة عامة تافهة. ومع ذلك كان نهرو مريضاً، وما لبث ان وافته المنية بعد أربعة أشهر، في مايو سنة ١٩٦٤.

وكانت هذه فرصة لي للإقامة شهراً في الهند. اذ تفضلت وزارة الثقافة الهندية ـ بسعي مشكور من المستشار الثقافي المصري د. العتر وتأييد كريم من السفير المصري الممتاز أحمد حسن الفقي ـ فهيأت لي على نفقتها جولة من المحاضرات في أربع جامعات هندية كبيرة هي: جامعة عليكرة الإسلامية، وجامعة ڤرانسي (بنارس) الهندوكية، وجامعة پتنا المختلطة: الهندوسية والاسلامية، وجامعة كلكتا. فألقيت في الجامعات الثلاث الأولى عدة محاضرات وعقدت بضع ندوات مع أقسام الفلسفة فيها. أمَّا جامعة كلكتا فكان قد صدر قرار بإغلاقها قبل وصولي بيومين بسبب الاضطرابات العنيفة جداً بين الهندوس والمسلمين، وهي اضطرابات بدأت في كشمير بسبب سرقة (او اختفاء) قارورة تحتوي على شعرة من شعر النبي محمد (ﷺ)، فيما يزعمون. فاتهم المسلمون الهندوس بهذه السرقة. ولما كانت الخصومة والكراهية متأججتين في صدور كلا الفريقين لأسباب سياسية تلبس ثوب الدين، فقد كانت هذه فرصة لاندلاع العنف بين الطائفتين. وما أتفه الأسباب التي تتخذ ذرائع لاشتعال نار العنف بين الفريقين في الهند!

وبفضل كرم السفير المصري ـ وهو أمرٌ نادر جداً بين السفراء المصريين! ـ تعرّفت إلى نائب رئيس جمهورية الهند، العالم الكبير ذاكر حسين، في حفلة عشاء أقامها السفير في السفارة. وذاكر حسين، فضلاً عن جهاده العظيم في سبيل استقلال الهند ضمن حزب المؤتمر، أديب كبير وعالم ممتاز، يتقن الألمانية وعنها ترجم «ڤلهلم مايستر» للشاعر الألماني العظيم جيته Goethe ـ إلى اللغة الأوردية، إلى جانب اتقانه التام للأوردية والفارسية ومعرفته الجيدة في اللغة العربية.

وحضر حفلة العشاء وزير العدل، محمد علي شجلا، وهو من الشخصيات

الاسلامية البارزة في الهند، وقانوني ضليع. وهو الذي رأس الندوة التي عقدت، من بين ندوات مؤتمر المستشرقين او على هامشه، وكان موضوعها: تطبيق الشريعة الاسلامية في التشريعات الخاصة بالمسلمين في الهند. وكانت هذه مشكلة شائكة حية أثارت الكثير من الجدل بين المسلمين في الهند. ذلك ان المسلمين (السُّنَّة، وهم الغالبية العظمى بين الطوائف الاسلامية في الهند) كانوا يتّبعون في تشريع الأحوال الشخصية المذهب الحنفي. وكان العلماء المسلمون المتشددون يرفضون الأخذ بأي مذهب آخر غير مذهب أبي حنيفة. ورأى محمد علي شجلا وبعض المجددين المسلمين الأخذ في بعض المسائل بآراء المذاهب الاسلامية الأخرى اذا وجدت أقرب إلى روح العصر الحاضر والعدالة الاجتماعية. وتأييداً لهذا الاتجاه رأى شجلا مشاركة الدول الاسلامية الأخرى في بحث هذه المشكلة، وعلى رأسها مصر لأنَّها مرت بنفس الظروف التي تمر بها الطائفة الاسلامية في الهند. ذلك ان الحكم العثماني في مصر قد فرض المذهب الحنفي. وظلت الحال على هذا النحو حتى سنة ١٩٢٠، إذ في هذه السنة ألفت جمعية للنظر في امكان الأخذ ببعض آراء المذاهب الفقهية الأخرى في بعض المسائل. وتلتها لجان أخرى، انتهت بالأخذ ببعض آراء المذاهب الأخرى في أمور معينة، مثل الوصية الواجبة، وهي مأخوذة من المذهب الظاهري، الخ. فلما طُلِبَ من السفير المصري المشاركة في الندوة، بعث بذلك إلى وزارة الخارجية المصرية، فكلّفت الاستاذ محمد أبو زهرة بكتابة تقرير في موضوع ما أخذ به المشرّع المصري من آراء فقهية عن المذاهب الأخرى غير المذهب الحنفي. وجاء التقرير، وهو بالعربية، مادة خامة غزيرة، ولكنها لا تصلح ان تكون محاضرة. فطلب إليّ السفير أن أصوغها في محاضرة باللغة الانجليزية، فقمت بهذا العمل وعاونني في الصياغة الانجليزية هندي يجيد الكتابة بالانجليزية. وفي الندوة التي عقدت في مساء أحد أيام المؤتمر، ألقى السفير المصري هذه المحاضرة، فلقيت استحساناً كبيراً خصوصاً من جانب وزير العدل، محمد علي شجلا، لأنَّ فيها تأييداً لاتجاهه.

ورجال الدين المسلمون في الهند أميل إلى التشدد في الدين، ربما لأنهم أقلية في مواجهة الهندوس، رغم انهم يبلغون حوالى مائة مليون، بيد ان الهندوس يبلغون حوالى ٤٥٠ مليوناً. ويؤجج غيظ المسلمين في الهند شعورهم بأنَّهم كانوا سادة الهند منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حتى نهاية (القرن الثامن عشر الميلادي)، ثم اطاح بسلطانهم الانجليز، خصوصاً ابتداء من سنة ١٨٥٧ حين سيطرت بريطانيا على كل الهند وضمتها إلى الامبراطورية البريطانية.

وكنّا في شهر رمضان. وقد اعتادت الحكومة المصرية ان تبعث بالقرّاء إلى بعض البلاد الاسلامية لقراءة القرآن طوال هذا الشهر المبارك عند المسلمين. فأرسلت مصر قارئاً متوسط القراءة والصوت، لا أذكر الآن اسمه. فطلب مني د. العتر ان أرافقه وهذا الشيخ في أول ليلة يقرأ فيها القرآن. فذهبنا إلى دلهي القديمة، ومعظم المقيمين فيها من المسلمين؛ وكانوا قد أعدُّوا سرادقاً ضخماً تجمع فيه عدد غفير من المسلمين. وقرأ الشيخ ما تيسّر له من القرآن والحاضرون في خشوع تام. ولما فرغ من القراءة خرجنا من السرادق، واذا بالحاضرين يتحلقون حولنا، ويحاول السذج منهم والشباب ان يلمسوا عباءة الشيخ، تبركاً بذلك، في ايمان ساذج يتسم بالبساطة المقدسة. وقد اثّر هذا المشهد في نفسي تأثيراً عميقاً؛ اذ أدركت التجاوب الحارّ بين المسلمين مهما تباعدت أقطارهم واختلفت لغاتهم وتباينت أوضاعهم.

وحضارة المسلمين في الهند هي من اروع انجازات الحضارة الاسلامية، وهي التي ضمنت استمرار بقاء هذه الحضارة حتى نهاية القرن الثامن عشر. وها هي ذي الآثار الاسلامية في دلهي (مسجد قطب منار) وأگرا (تاج محل) وفاتح بور سكري واسكندرة (الحصن الأحمر، مقبرة أكبر، بلند وروازة الخ) ـ شواهد على حضارة رفيعة جداً تزيد عن حضارة المسلمين في الأندلس. وإني لأعجب من جهل الناس بهذه الحقيقة.

ولقد فصلتُ هذا المعنى في كتابي: «رحلة إلى الهند»، الذي كان ثمرة هذه السفرة الى الهند لحضور مؤتمر المستشرقين، وقد امتدت من ٤ يناير الى ١٠ فبراير سنة ١٩٦٤.

وعليّ أن أتوقف عن الحديث عن هذه السفرة ها هنا، محيلاً إلى كتابي هذا.

❀ ❀ ❀

وأمّا البحث الذي ألقيته في مؤتمر المستشرقين فكان موضوعه هو: «نصوص يونانية في الفلسفة مفقودة في اليونانية ومحفوظة في ترجمة عربية». وفيه تحدّثت ـ بالانجليزية ـ عمّا نشرته أنا من ترجمات عربية قديمة لنصوص في الفلسفة فُقِدَ أصلها اليوناني، وعن فضل هذه الترجمات في حفظ نصوص يونانية مهمة من الضياع.

وكانت محاضرتي في جامعة عليگرة تدور حول تأثير كتابيّ «الخطابة» و«فن الشعر» لأرسطو في البلاغة والنقد الأدبي عند العرب في القرنين الرابع والخامس للهجرة.

وفي ڤرانسي (بنارس) كانت محاضرتي عن الاتجاهات الفلسفية في مصر اليوم، وجرى بعدها نقاش حول تدريس الفلسفة في الجامعات الهندية.

وفي پتنا ألقيت محاضرتين: الأولى في قسم الدراسات الاسلامية، وكانت عن التيارات الأدبية في مصر اليوم، والخصومة بين أنصار الشعر الحرّ والشعر العمودي. وقد علّق على المحاضرة بعض أساتذة القسم، وكلهم هاجموا الشعر الحرّ وأنكروا عليه صفة الشعر ـ. والمحاضرة الثانية كانت لعامة الأقسام، وبخاصة لقسم الفلسفة. وقد طلبوا إليّ ان أتحدّث عن المذهب الفلسفي الذي اتخذته لنفسي. فدارت محاضراتي كلها عن الوجودية، وعما أسهمتُ انا به في تكوين هذا المذهب، وعقب المحاضرة انهالت عليّ الأسئلة من الأساتذة تستفسر منّي عن موقف الوجودية من الدين، ومن الحياة بعد الموت وخلود النفس. وقد أجبت عن هذا السؤال الأخير بقولي، بلهجة أقرب إلى التهكم: «إنَّ مشكلة الحياة بعد الموت لا يمكن حلّها إلاّ في الهند». فردَّ رئيس قسم الفلسفة باسماً: «إن ضيفنا الممتاز يقول، بلهجة متهكمة، ان مشكلة الحياة بعد الموت لا يمكن حلّها إلاّ في الهند. وأنا أؤكّد له بكل جدّ ان هذا صحيح، وان المذاهب الهندوكية هي وحدها التي استطاعت تقديم الحل الصحيح لمشكة الحياة بعد الموت».

ولكني لم استطع ان أتبيّن، من خلال أحاديثي مع أساتذة الفلسفة الهندوس، مدى ايمانهم بصحّة معتقداتهم الهندوسية، ومدى تأثرهم بالمذاهب العقلية. امّا مؤلفات المفكرين الهنود المعاصرين فيلاحظ عليها الخلوّ من كل نزعة عقلية، والافتقار الى المنهج العقلي و التفكير المنطقي، واللجوء الى المجهول واللامعقول، والاهابة بملكات «فوق» عقلية وعندي أنَّ السبب في هذا هو انهم عاشوا بمعزل عن الفلسفة اليونانية، ولم يمرُّوا بتجربة يونانية مثل تلك التي مرَّ بها الفكر الاسلامي والفكر الأوروبي. نعم ان الهند حتى اوائل القرن العشرين لم تعرف الفلسفة اليونانية، ولم تتتلمذ على أفلاطون وأرسطو. وحتى بعد اتصالها بالفكر اليوناني عن طريق الفكر الأوروبي المعاصر، لم تستطع مطلقاً فهم الروح اليونانية ولا النفوذ في الفلسفة العقلية. واذا قرأت لأكبر مفكريهم في العصر الحاضر، سرڤاپالي راد هكرشنان، رغم اطلاعه الواسع على المذاهب الفلسفية الأوروبية، لم تعثر على أيّ أثر واضح للفكر اليوناني والأوروبي، رغم ما يلوكه

من أسماء مفكرين اوربيين يفهمهم من منظوره الهندي الخاص، فيحيلهم إلى مفكرين هنود يتخذون أسماء ولغات أوروبية!!

❀ ❀ ❀

والمجتمع الهندي حافل بالمشاكل الاجتماعية، وعلى رأسها مشكلة الطوائف. فالهنود الهندوس ينقسمون إلى اربع طوائف: البراهمة او رجال الدين، والكاسكريا أو رجال الحرب، والبيسيا Vaicyas او الصنّاع والزُّراع، والسودرا Cûdras أو العبيد. وخارج هذه الطوائف الأربع يوجد المنبوذون وهم محرومون من كل الحقوق القانونية. هذا هو التقسيم النظري؛ أما عملياً فإنّ طوائف الهند لا حصر لها.

ولا يجوز ـ نظرياً ـ ان يعايش او يؤاكل او يتزوج اي واحد من أبناء الطائفة الواحدة إلاّ مَن هو من بني طائفته. ولا يمكن التحول من طائفة إلى طائفة، لأنَّ الانتساب الى الطائفة وراثي محض، لا دخل فيه لأية ارادة. ويستطيع المرء ان يأخذ فكرة عن المشاكل اليومية المترتبة على هذا الوضع من قراءة الصحف اليومية الهندية، وعلى رأسها صحيفة Tuies of India التي تمتلىء صفحتان او أكثر يومياً منها من شكاوى القرّاء من نتائج هذا الوضع الاجتماعي.

الإرهاب الأحمر

ثم كانت زيارة نكيتا خروشوف لمصر في أوائل مايو سنة ١٩٦٤ بدعوى افتتاح السد العالي؛ بعد ان تمَّ انجاز المرحلة الأولى منه. فافتتحه باسم الاتحاد السوفييتي الذي تولّى بناء السد، مع جمال عبد الناصر في ١٣ مايو سنة ١٩٦٤.

ولما كان الاتحاد السوفييتي هو الذي قام ببناء السد العالي بواسطة مهندسيه وأمواله، فقد طالب عبد الناصر بدفع مقابل ذلك، وكان ثمناً غالياً جداً وهو ان يتولّى الشيوعيون المصريون السيطرة على مقاليد الأمور في مصر: سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً، وإعلامياً، الخ.

ورضخ عبد الناصر لهذه المطالب وراح ينفذها بما طبع عليه من حماس واندفاع أهوج:

١ ـ فبدأ بأن مكَّن الشيوعيين من ادوات الاعلام كلها: من صحافة، واذاعة، ومسرح، وثقافة. أمَّا دار «الأهرام» فقد كان يشرف عليها محمد حسنين هيكل يحيط به الشيوعيون من كل جانب: محمد سيد أحمد، لويس عوض، أعضاء مركز الدراسات الاستراتيجية، صلاح جاهين، الخ. وكان ذلك منذ أوائل الستينات، فلم يكن في حاجة إلى المزيد. أمَّا «دار أخبار اليوم» فكانت لا تزال في أيدي صاحبيها: مصطفى أمين وعلي أمين. لهذا رتَّب الشيوعيون للاستيلاء عليها عنوة. ومن أجل ذلك لفقت لمصطفى أمين تهمة الاتصال بأحد أعضاء السفارة الأمريكية، مع ان عبد الناصر هو الذي كلَّف مصطفى أمين بهذا الاتصال منذ سنوات عديدة كيما يظل محتفظاً بالعلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية. وتمَّ القبض على مصطفى أمين في الاسكندرية في شهر مايو سنة ١٩٦٥ وأودع السجن، ثم حوكم، وحكم عليه بالسجن عشر سنوات، أمضى معظمها في سجن طرة، ووصف هو ما لاقاه في سجنه هذا في كتب عنونها: سنة أولى سجن، سنة ثانية سجن، الخ. وعلى الفور انقض الشيوعيون على دار أخبار اليوم، وصار محمود أمين العالم

رئيساً لصحف الدار: جريدة «الأخبار» اليومية ومجلة «أخبار اليوم» الأسبوعية، ومجلة «آخر ساعة» الأسبوعية.

وفي أعقاب ذلك انقض الشيوعيون على «دار الهلال»، وأصبح أحمد بهاء الدين ـ وهو شيوعي قح، ولكنه يتلوّن بألوان مختلفة بحسب الظروف ـ رئيس تحرير لمجلة «المصور»، كبرى المجلات التي تصدرها هذه الدار.

وتوزَّع الباقون سائر المجلات والصحف: «روز اليوسف» وتولاّها عبد الرحمن الشرقاوي وهو متعدد الأطوار يدور من اليمين إلى اليسار، ويجمع بين عمامة الاسلام وكاسكيت الشيوعيين.. وكانت مجلة الكاتب برئاسة أحمد عباس صالح شيوعية منذ عددها الأول حتى الأخير.

٢ ـ وأمّا في الثقافة فقد وجدوا في وزيرها د. ثروت عكاشة خير مؤيد ومعين. فعيّن محمود أمين العالم مديراً للهيئة العامة للكتّاب، وسعد كامل مديراً للثقافة الجماهيرية(!)، وحمدي غيث وسعد أردش رؤساء أو نواب رؤساء لهيئة المسرح.

مأساة كمشيش

وواكب ذلك كله التآمر للقضاء على المجتمع المصري كله ليقيموا على أنقاضه دولة شيوعية خالصة تدور في فلك موسكو وتأتمر بأوامر سادة الكرملن، وتكون قاعدة لانطلاق الجحافل الحمر على كل بلدان الشرق الأوسط والزحف على دول افريقية.

وبدأوا هذا المخطط الرهيب بتحويل حادث تافه عابر يحدث أمثاله في أرياف مصر كل يوم دون ان يلتفت اليه أحد ويحولوه إلى نار حامية أشعلوها في الريف المصري كله. وهو حادث قتل لأسباب نسائية في قرية صغيرة من قرى محافظة الغربية اسمها كمشيش، وأبرز أسرة فيها كانت أسرة الفقي. فاستغل الشيوعيون هذا الحادث التافه العادي وجعلوا منه قضية كبرى هي قضية الاقطاع في مصر، رغم ان ما يُدعى بـ «الاقطاع» في مصر ـ وهو كذب تاريخي بشع يدرك زيفه كل مَن له إلمام بمعنى «الاقطاع» في التاريخ ـ كان قد زال منذ ان قضى قانون «الاصلاح» الزراعي المزعوم! الأول الصادر في ٨ سبتمبر سنة ١٩٥٢، ثم الثاني الصادر في يوليو سنة ١٩٦١ ـ على ما كان بين أيدي الموسرين من أطيان زراعية ولم يعد لهم في بلادهم حول ولا طول، حتى هجر بعضهم الريف والتجأوا إلى

المدن الكبرى (القاهرة، الاسكندرية، الخ) حيث لا يعرفهم أحد يتشفى فيهم أو يرثي لحالهم.

وحسبي هنا ان أنقل بعض ما ورد في حيثيات حكم محكمة الجنايات التي رفع بعض أشلاء هذه الأسرة الكريمة، أسرة الفقي، قضيته أمامها لإنصافهم؛ وكان ذلك في عام ١٩٧٨. بعد أن بدأ المظلومون في عهد الارهاب الأحمر الذي فرضه عبد الناصر على مصر طوال حكمه الغاشم.

قالت المحكمة في حيثيات حكمها في هذه القضية:

«إنَّ محكمة الجنايات تسجّل، للتاريخ، ان الفترة التي جرت فيها أحداث هذه القضية المثيرة ـ هي أسوأ فترة مرّت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث: ففيها ذبحت الحريات، وديست كرامة الانسان المصري.

وان المحكمة، وهي تسجّل هذه الفظائع، ينتابها الأسى العميق والألم الشديد من كثرة ما أصاب الانسان المصري في هذه الحقبة من الزمان: من إهدار لحريته، وذبح لإنسانيته، وقتل لمقوماته كافة، ورجولته، وأمنه، وأمانيه، وعرضه.

وإنَّ المحكمة تسجل، للتاريخ أيضاً، وقلبها ينفطر، ان ما حدث في هذه القضية لم يحدث مثله في شريعة الغاب، ولا البربرية الأولى؛ وان المباحث العسكرية الجنائية أمرت الرجال بالتسمي بأسماء النساء. ووضعت ألجمة الخيل في فم رب العائلة وكبير الأسرة. ولطمت الرؤوس والوجوه فيها بالأيدي، وركلتها بالأقدام. وهتكت أعراض الرجال أمام بعضهم البعض. وجيء بنسائهم وهددوا بهتك أعراضهن على مرأى ومسمع منهم. ودُربت الطلاب على وطء الرجال. وتمَّ ذلك بالفعل على المتهم الأول. وهُدّد ربُّ العائلة وإخوته بإخراج جثة والدتهم ـ وكانت حديثة الدفن ـ للتمثيل بها أمام الناس، والتشهير بهم وإذلالهم أمام أهليهم.

وتسجل المحكمة ان المخلوق الذي ينسى ربّه، ونبيّه، ويأمر الابن بصفع أبيه ـ هو مخلوق وضيع وتافه ومهين ـ (راجع النص في جريدة «الأخبار» بتاريخ ٢٣ يونيو سنة ١٩٧٨).

ولا بدَّ للمرء ان يصاب بأقصى درجات الذهول وهو يسمع أو يقرأ تفاصيل ما ارتكبته زبانية جمال عبد الناصر من فظائع في كمشيش، ثم في الكثير غيرها من قرى القطر المصري شماله وجنوبه. طوال الفترة من مايو سنة ١٩٦٥ حتى هزيمة مصر الهائلة في ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ والأيام الثلاثة التالية.

كيف تبلغ الوحشية بانسان ان يرتكب كل هذه الفظائع، مهما كانت

الأسباب! فما بالك وهي لم يكن لها أيّ سبب! فمُلاّك الأراضي الزراعية الذين أهدرت كراماتهم وصُودرت أموالهم وانتهكت حرياتهم لم يرتكبوا اي ذنب، ولم يخالفوا أي قانون أصدره عبد الناصر وزبانيته الأبالسة، بل كانوا يملكون ما يملكون وفقاً للقوانين واللوائح التي أصدروها بسلطانهم الكامل وطغيانهم المستبد الذي لم يلق أدنى مقاومة. فبأي شريعة إذن «حُوكم» هؤلاء المُلاّك الذين التزموا التزاماً تاماً بما شرّعه هذا الطاغوت وأبالسته؟!

ثم العجب الذي يستنفد كل العجب هو من هؤلاء الجلاّدين المنفذين بقسوة منقطعة النظير ومبالغة في التعذيب تفوق كل وصف! ماذا حملهم على هذا الاجرام الرهيب، وليس بينهم وبين ضحاياهم ثأر فيثأرون، أو خصومة فيكيدون، أو منافسة فيطيحون! وما أغرب نذالتهم وخِسّتهم وانعدام كل معاني الانسانية فيهم! أمن أجل مزيد من الأشرطة او النجوم الصفراء او النسور النحاسية على الأكتاف يرتكب هؤلاء الأبالسة ما ارتكبوا من فظائع يندى لها جبين كل انسان في كل زمان ومكان؟!

ثم ما بال «الكتّاب» الذين أتينا على ذكرهم يهللون ويضفّرون أكاليل المجد للطاغوت وأبالسته وجلاّديهم، بل ويحرّشونهم لارتكاب المزيد من التخريب والتعذيب!! وشاركهم في هذا التحريش والتأليب ثلة من أساتذة الجامعات كانوا يتآمرون لارتكاب أمثال هذه الفظائع في نطاق الجامعات والادارات الحكومية التي كانوا يتطلعون للانقضاض على المراكز العليا فيها: أمن أجل دريهمات قليلة ومناصب هزيلة يستبيحون كل رذيلة وخِسّة وحقارة؟!

قُتِل الانسان، ما أحقره!

إنّي أحار في تفسير سلوك هؤلاء جميعاً! أيّة لذة يجدها هؤلاء الجلاّدون في تعذيب فرائسهم، والتنكيل بضحاياهم؟! لو كان انتقاماً لجريمة ارتكبوها في حق أنفسهم، لقلنا مع هوميروس إنَّ «الانتقام أشهى من العسل». لكن لم يكن بينهم وبين ضحاياهم أي داع للانتقام.

وقد تفنّن هؤلاء الجلادون في أدوات التعذيب وأساليبه، مما ذكر بعضه حكم محكمة الجنايات الآنف الذكر. لكنّه ليس إلاّ قطرة في بحر ما كان الجلاّدون يقومون به في السجن الحربي وسجن ادارة المخابرات المجاورة لقصر القبة: من إطلاق الكلاب المتوحشة على المسجونين والمتهمين، والنفخ فيهم من استاههم، وتوصيل خصيهم ومذاكيرهم بتيار كهربائي، وصب المياه فوق رؤوسهم، وتسليط

الأضواء الشديدة حتى لا يغمض لهم جفن طوال الليل، والضرب بالسياط على ظهورهم ووجوههم وكل موضع حسّاس فيهم.

والعجب أنَّ من أشد هؤلاء الجلاّدين قسوة شخصاً يدعى حمزة بسيوني. وأقول: «العجب» لأنّني كنت أعرفه طالباً في كلية الحقوق تخرّج في عام ١٩٣٨ وهو العام الذي تخرّجت أنا فيه من كلية الآداب. وكان يتردد أحياناً على كليتنا إبّان الأحداث السياسية. وعرفته آنذاك وديعاً هادىء الطبع خجولاً بل رقيق الحاشية ساجي الضمير. فكيف تحوّل إذن في الأربعينات من عمره الى وحش كاسر ولوع بالتعذيب والتفنن في أساليبه؟! هل كانت الوحشية كامنة فيه، مكبوتة في دخيلة نفسه، فلما فتح لها باب الانطلاق انطلقت كالقنبلة؟ وهل من الممكن ان ينقلب المرء فجأة من مهذب هادىء الى اعصار مدمّر فاجر؟! صحيح انني لم أره منذ تخرجه في سنة ١٩٣٨ حتى سماعي بما يرتكبه من تعذيب رهيب في سنة ١٩٦٥، لكن زملاءه في التخرّج ممن شاهدوه طوال هذه الفترة مراراً لم يروا عليه علائم تطور نفسي، بل صعقوا لما علموا بأنباء ما يقوم به من تعذيب، لأنّهم لم يتصوروا صدور ذلك عنه حسبما عرفوه من طباعه. ولقد أنجاه من المحاكمة لما ان قدم بعض هؤلاء الجلادين للمحاكمة في سنة ١٩٧٢ وما بعدها ـ ان الموت قد عاجله، وأظن ان ذلك كان في حادث سيارة. وإلاَّ لكانت المحاكمة كفيلة بأن تلقي بعض الضوء على كيفية تطور هذه النفسية الغريبة.

والمحاكمات التي أقيمت لبعض هؤلاء العتاة من الجلاّدين أمثال: صلاح نصر، مدير المخابرات، وحمزة عليش، والصول الروبي ـ لا تشمل إلاّ واحداً من ألف ممَّن ارتكبوا أبشع جرائم التعذيب في حق الأبرياء طوال عهد حكم عبد الناصر.

كما انها لم تتناول إلاَّ مَن مارسوا التعذيب عملياً من رجال الجيش والشرطة، ولم تتناول أي واحد من رجال السياسة، ولا من الصحفيين والكتّاب والموظفين في مختلف مرافق الدولة ـ ممّن حرّضوا وأيدوا وباركوا كل أساليب التعذيب التي عاناها الأبرياء من المصريين طوال تلك العشرين سنة الرهيبة. فبأيّ حق يعفى هؤلاء من المحاكمة، وهم مسئولون تماماً مثل أولئك المنفذين؟! وقد زعم أحد هؤلاء الكتّاب انه كان في «غيبوبة» طوال هذه المدة كلها وان كل ما كتبه من مديح وتمجيد لعبد الناصر وزبانيته، ونال في مقابل ذلك أرفع الأوسمة والنياشين والأموال الطائلة بوصفه عضواً في ادارة جريدة الأهرام، ثم لما مضى عهد «بطله» هذا بوفاته أصابته «عودة الوعي»! اي والله هكذا عنون كتيباً ظنَّ انه

يستطيع ان يوهم به الناس أنه غير مسئول، وانه لم يشارك في ارتكاب مثل هذه البراءة الكاذبة، أو الصفاقة الوقحة. مَن يريد ان يوهم، هذا الماكر الساذج!!

لجنة تصفية الاقطاع

وبعد شهرين من حادث كمشيش، شُكّل ما سُمّيَ بـ «لجنة تصفية الاقطاع» من: عبد الحكيم عامر رئيساً وعلي صبري، وشعراوي جمعة، وعباس رضوان، وكمال رفعت، وشمس بدران، ثم ضم إليها في ٦٦/٩/١٧ أمين هويدي. وتولّى تحضير القرارات لها عدد ضخم من رجال المخابرات العسكرية والبوليس الحربي، يعاونهم لجان من وزارة الاصلاح الزراعي ومن الشرطة العسكرية.

وكانت مهمة هذه اللجان الصاق التهم الكاذبة بمن لا تزال له بقية من المكانة في الأرياف. وكانت هذه التهم تدور في الغالب حول ما زعم انه مخالفات لقانون الاصلاح الزراعي. وكلها تلفيقات زائفة وادعاءات لا أساس لها من الصحة: فيتهم واحد مثلاً بأنَّه يملك فداناً او قيراطاً أو قيراطين زيادة عن الحد الأعلى المقرر للملكية. فيقول المتهم بذلك لأعضاء اللجنة: أروني أين هذا الفدان الزائد ـ وأنا أقرّ بأنكم على حق ولكم أن تأخذوا ما تشاؤون من أرضي. فلا يكون جواب أعضاء اللجنة، عسكريين كانوا أو مدنيين، إلاّ ان ينهالوا عليه بالشتائم وأقذع أنواع السبّ الفاحش. وماذا يملك هذا المسكين امام بطش هؤلاء الفراعنة «الصغار»!! وبعد هذا تقدِّم هذه اللجنة توصيتها بفرض الحراسة على أملاك هذا الرجل هو وأولاده وزوجته. وتنعقد اللجنة العليا لتصفية الاقطاع، فتتلى عليها هذه التوصيات وتقرّها على الفور. وفي نفس اللحظة؛ إن لم يكن قبلها، يبلّغ رئيس الشرطة العسكرية الجهة التي تنتمي إليها أطيان الرجل ومنزله فتتولى فرقة من الجيش والشرطة تنفيذ الحراسة على الأرض وتفتيش ـ أعني نهب ـ منزل الرجل. ثم إبعاده هو وأبناءه من الريف إلى إحدى المدن.

وتتولى الاذاعة المصرية في نفس الليلة اذاعة أسماء مَن فرضت عليهم الحراسة. وتسمع المذيع وهو يتلو هذه القرارات بحماسة وافتخار وحمية، وكأنَّها انتصارات عظيمة حقّقها أولئك «الضباط البواسل» ضد العدو الاسرائيلي!!

بل وترى صور هؤلاء «القادة البواسل» أعضاء اللجنة العليا لتصفية الاقطاع، تتصدّر الصفحة الأولى من كل صحف الصباح، والعناوين الكبيرة تنضح بهذا «النصر العظيم» الذي حقّقه هؤلاء الأبطال! وكأنَّهم انتصروا في معركة «القادسية» او «حطين» او أوسترلتز أو تاننبرج!

ويشاء ربك ألا تمضي إلاّ بضعة شهور، وإذ بهؤلاء الأبطال البواسل، قادة معركة «تصفية الاقطاع» يصابون بأبشع هزيمة في تاريخ مصر، هزيمة حرب ٥ ـ ٨ يونيو سنة ١٩٦٧ أمام دويلة صغيرة طالما وصفوها بأنها عصابة من شذاذ الآفاق!!

ويشاء ربك ان ينتحر ـ أويدسّ له السم ـ رئيس هذه اللجنة والمشير العام للجيش الذي لم يصمد أكثر من ثلاثة أيام أمام عصابة شذاذ الآفاق هذه! ـ وأن يخطف الموت العادل أحدهم وهو كمال رفعت، وان يودع السجن لعدة سنوات علي صبري وشعراوي جمعة وعباس رضوان وأمين هويدي، وان يفر شمس بدران هائماً على وجهه من حكم العدالة.

وهكذا نال هؤلاء «الأبطال البواسل»، أعضاء اللجنة العليا لتصفية الاقطاع، «بعض» العقاب العادل عما اقترفوا ضد الأبرياء المخلصين ممن فرضوا عليهم المصادرة والحرمان من الحقوق المدنية. وأقول «بعض» العقاب، لأن ما نالهم ـ باستثناء رئيس فقد نال جزاءه الكامل ـ لا يكافىء عشر معشار ما يستحقون من عقاب.

وكانت اسرتي إحدى ضحايا هذه «اللجنة العليا لتصفية الاقطاع» فيما زعموا. فبدأت بأن فرضت ما يسمّى «تحفظاً» على أراضينا الزراعية في ١٤ يوليو سنة ١٩٦٦. ثم استدعينا أمام إحدى لجان تصفية الاقطاع، وفنّدنا كل دعوى ادعتها اللجنة زوراً وعدوانا بشأن مخالفة قانون الاصلاح الزراعي الأول الصادر في سنة ١٩٥٢. إذ زعمت:

أ) أن ثَمَّ جسراً طوله ٣ كم بعرض ٥ إلى ٧ أمتار، هو الجسر المتخلف من ترعة عمومية هي ترعة البطرسية، لم يدخل ضمن اقرار الملكية المقدم من الوالد في ديسمبر سنة ١٩٥٢. فأثبتنا لهم ان هذا الجسر هو من ضمن الترعة العمومية، وهو بالتالي ليس ملكاً لنا؛ وقد انتزعت الحكومة ملكيته ضمن انتزاعها لملكية الموضع الذي شقت فيه الحكومة تلك الترعة.

ب) وان بعض الأراضي التي بيعت للتخلص من الزيادة، وفقاً لقانون الاصلاح الزراعي نفسه، قد بيعت لأقارب ضمن الدرجة الرابعة من القرابة. فأثبتنا لهم ان مَن بيعت لهم ليسوا أقارب، بل أصهار، والصهر بما هو كذلك ليس قريباً كما هو مقرّر في قانون الأحوال الشخصية والشريعة.

وجرى ذلك في ثلاث جلسات، وتواعدنا مع اللجنة على استئناف الاجتماع بعد اسبوعين.

واذا بنا نفاجأ قبل حلول موعد الاجتماع المقرر بحوالى عشرة أيام، بأنَّ

اللجنة العليا لتصفية الاقطاع قد قرّرت في الساعة الخامسة من مساء ١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٦ بفرض الحراسة على أسرتنا، وأسرتين أخريين. وانقسمت هذه الحراسة الى نوعين: حراسة على الأراضي الزراعية وعلى سائر الأموال ـ وقد شملت ثلاثة من الأخوة هم المقيمون في القرية ـ شرباص؛ وحراسة على الأراضي الزراعية دون سائر الأموال، وقد شملت الأخوة السبعة غير المقيمين في القرية وهم: ثلاثة أساتذة في جامعتي القاهرة وعين شمس، ورئيس مجلس ادارة شركة راكتا، ومهندس في شركة قناة السويس، ومستشار سابق في مجلس الدولة، ومستشار مساعد في قلم قضايا الحكومة. كذلك فرضوا الحراسة على ورثة الأخ الأكبر المتوفى، ومن هؤلاء الورثة ضابط برتبة قائمقام (عقيد) استشهد في حرب اليمن في فبراير سنة ١٩٦٣!! فكان ورثته ممن شملتهم الحراسة أيضاً!

ويقتضيني واجب الاعتراف بالجميل ان اذكر انه في صباح اليوم التالي، وكانت صحف الصباح قد نشرت هذه القرارات بالتفصيل ـ اتصل بي د. ثروت عكاشة وزير الثقافة، وطلب إليّ مقابلته في العاشرة. وكان عائداً منذ يومين من سفرة في الخارج، وعيِّن في التشكيل الوزاري الجديد الذي تمَّ قبل حوالى اسبوع وزيراً للثقافة للمرة الثانية. (أو الثالثة). فذهبت إليه في مكتبه آنذاك بالبنك الأهلي ـ وكان قد عُيِّن رئيساً لمجلس ادارة البنك الأهلي بعد ان ترك الوزارة، وكان مقرراً له أن يتوجّه في المساء إلى قصر الرئاسة ليقسم اليمين بمناسبة توليه الوزارة. وفي هذا اللقاء بينه وبيني راح يواسيني، وكنت أنا هادىء الطبع جاد الحديث، كاظماً لغيظي. وعرض عليَّ ان أكون وكيلاً لوزارة الثقافة. فشكرت له اقتراحه، لكني أبديت له حرصي على البقاء أستاذاً في الجامعة، حتى أظل متفرغاً للعلم والتدريس، بعيداً عن متاعب الادارة ومناوراتها ودسائسها. فلمّا ألحَّ، طلبت منه ان يترك لي الفرصة للتفكير، على ان نلتقي ثانية بعد ذلك بأربعة أيام. وفي هذا اللقاء الثاني ـ في ٩/٢١ ـ أخبرني أنّه تحدّث مع جمال عبد الناصر بشأني فيما يتعلق باقتراح تعييني وكيلاً للوزارة، وأنَّ الحديث تطرّق الى فرض الحراسة عليَّ في اليوم السابق، وقال ثروت عكاشة ان «الرئيس جمال أبدى اسفه لذلك، وقال: اننا رجال الثورة إنَّما تعلّمنا الفلسفة من كتبه، وخصوصاً من كتاب «نيتشه»». هل كان ثروت عكاشة صادقاً فيما نقله عن جمال عبد الناصر او كان كلامه من قبيل المجاملة؟ هذا ما لم أتيقن منه، لأنّه لو كان هذا صحيحاً، لكان في وسع عبد الناصر ان يرفع الحراسة، عنّي انا على الأقل. لهذا حسبت كلام ثروت عكاشة أقرب إلى المجاملة لي منه الى حقيقة شعور عبد الناصر. وإن كان يشاع آنذاك ان

عبد الناصر لما رأى استفحال سلطة عبد الحكيم عامر ومَن يحيط به من حاشية على رأسها شمس بدران، أراد ان يصب اللعنات على عبد الحكيم عامر بجعله يتحمّل وحده مظالم لجنة تصفية الاقطاع. وبهذا التوريط يستطيع التخلّص من عبد الحكيم عامر بسهولة فيما بعد. وهو ما قام به فعلاً بعد هزيمة حرب يونيو سنة ١٩٦٧.

ولكن هذه كلها فروض لا يستطيع احد التحقق من صحتها أبداً.

❀ ❀ ❀

قلت إنَّ قرار فرض الحراسة على أسرتنا صدر في الخامسة من مساء السبت ١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٦. وفي الساعة السادسة، أي بعد ذلك بساعة، كان القرار قد بُلِّغ الى الشرطة العسكرية في دمياط، فانطلقت على الفور الى قريتنا، شرباص، وراحت تفتش بيوتنا فيها. ولم يكن من رجالنا أحد هناك، لأنَّ الثلاثة المقيمين في الريف كان قد صدر امر بإبعادهم عن الريف منذ صدور قرار التحفظ في ١٤ يوليو سنة ١٩٦٦. ولم تجد الشرطة في البيوت ما تستطيع ان تستولي عليه او تنهبه فباءت إلى دمياط خالية الوفاض.

وكانت اراضينا الزراعية بين مؤجرة بالزراعة، ومؤجرة بإيجار نقدي محدد بحسب قانون الاصلاح الزراعي. فقامت لجنة من الاصلاح الزراعي بتحويل الأراضي التي بالزراعة إلى أراض مؤجرة بإيجار نقدي. وهكذا صارت كل أراضينا مؤجرة بالإيجار النقدي، وظلت ادارة الأراضي الخاضعة للحراسة في وزارة الاصلاح الزراعي تتولّى تقاضي الايجار طوال مدة الحراسة التي استمرت حتى ديسمبر سنة ١٩٦٧، أي لمدة عامين زراعيين.

ماذا كان موقف أهل بلدتنا، شرباص، إزاء هذا الظلم الفادح؟ كان موقفاً رائعاً من التضامن معنا في هذه المحنة، والاستعداد التام للدفاع عمن بقي من الأسرة في البلدة، والتصدي للأنذال من الأعداء في بلدة مجاورة تدعى عزب شرباص إذا ما سوّلت لأحد منهم نفسه ان يتطاول علينا بالقول أو التشفي، وعدم التعاون مع مندوبي الحكومة الذين صاروا يجيئون ويذهبون لمجرد اظهار قوة السلطة. أجل، لقد كانت وقفة رائعة من أهالي شرباص ضد السلطة وأذنابها. فبورك أهل شرباص نموذجاً للوفاء والحفاظ على الكرامة، والاعتداد بالشهامة، والاعتزاز بصلة الرحم وصلة البنوة للبلدة الواحدة.

❀ ❀ ❀

وهنا لا بد أن أُشير إلى ظاهرة أليمة عند الموظفين المصريين، وهي الولوع بالمزيد من الظلم: فقد نصَّ قرار الحراسة بالنسبة إليّ والى اخوتي الستة الآخرين الموظفين على ان تقتصر الحراسة على الأطيان الزراعية دون سائر الأموال: من ودائع البنوك او أرباح أسهم، أو ايجار بيوت أو أي حال آخر غير الأراضي الزراعية.

فذهبت ذات يوم في نوفمبر سنة ١٩٦٦ لسحب بعض النقود من حسابي الجاري في بنك مصر (المركز الرئيسي). واذا بالموظف المختص يتردد، ويداور: فقلت له: لماذا لم تصرف لي الشيك الذي قدّمته إليك؟ فقال: أرجو أن تراجع قلم القضايا في الطابق الأول. فذهبت إلى الطابق الأول وأخبرت الموظف المسئول بما فعله معي موظف صرف الشيكات. فقال لي: «نحن نبهناهم من قبل، حين حل موعد صرف كوبونات أسهمك، ان الحراسة خاصة فقط بأراضيك الزراعية، ولا شأن لها بحسابك او أسهمك او شيكاتك. وها هوذا نص قرار الحراسة. وجاء معي إلى قسم صرف الشيكات، وأطلعهم على قرار الحراسة وذكّرهم بأنَّ ادارة القضايا قد أبلغتهم بذلك بصراحة ووضوح. فما كان من موظفي قسم صرف الشيكات إلاَّ أن بادروا الى صرف الشيك. وقد عجبت كل العجب من تصرف هؤلاء الموظفين: هل هو المبالغة في الخوف والحذر، او هو الولع بالمزيد من العذاب والتنكيل بالناس؟ وكان رأيي هو ترجيح الشطر الثاني من هذه القضية الشرطية المنفصلة.

⊛ ⊛ ⊛

لكن هذه المضايقة ليست شيئاً يذكر بالقياس الى المضايقات اليومية من جانب مباحث الشرطة. لا يمر يوم أو يومان إلاَّ وأجد في المنزل او مع البواب اشارة من شرطة مباحث الجيزة تستدعيني للحضور الى مقرها في الدقي. فأضطر الى الذهاب، واذا بضابطين احدهما طيب الخلق، والثاني سافل حقير، يطالباني باقرارات مختلفة عن أملاكي الخاصة، وأملاك سائر إخوتي؛ وفي كل مرة تتكرر نفس الطلبات والاقرارات. وفي ليلة ١٧ إلى ١٨ سبتمبر كان قد جاءني في الواحدة بعد منتصف الليل ضابط لتبليغي بقرار الحراسة، وبقرار عدم مغادرة منطقة القاهرة. وبعد اسبوع جاء ذلك الضابط الطيب وأبلغني وهو فرح قراراً بإلغاء تحديد اقامتي في منطقة القاهرة وبأنّني حر في التنقل في كل أنحاء مصر.

وبعد ذلك قلّت مضايقات مباحثات الشرطة هذه، حتى كفّت نهائياً منذ أول ديسمبر سنة ١٩٦٦.

كذلك قام مندوب مما يسمّى «الرقابة الادارية» في أواخر اكتوبر بالتوجه إلى كلية الآداب في جامعة عين شمس ليستطلع آراء بعض الزملاء الأساتذة وأعضاء هيئة التدريس في شأني وموقفي من قرار الحراسة. فكان موقف مَن سئلوا موقفاً شهماً كريماً، وغالى بعضهم في تمجيدي وذكر مناقبي ومكانتي العلمية والوطنية.

والواقع أنَّني في كلية الآداب ـ وكنت عميداً بالنيابة لما ان صدر القرار ـ لم أبدِ أي تأثر أو انزعاج لهذا القرار. وحين كان البعض من الزملاء يأتي ليواسيني، كنت أكتفي باشارة من يدي معناها انني لا أحفل بهذا الأمر مطلقاً. ذلك انني رأيت ان ابداء عدم الاكتراث هو خير تصرّف في مثل هذا الموقف.

⊛ ⊛ ⊛

وأعود الى اقتراح د. ثروت عكاشة فأقول انه لم يكن يبدأ اتخاذ الاجراءات الرسمية لتنفيذه، حتى علم به الشيوعيون. فجمعوا ثلة منهم، على رأسها سعد كامل (ابن اخت فتحي رضوان) وذهبوا إليه، محتجين على هذا الاقتراح ومطالبين بالعدول عنه، وملوّحين بإثارة المتاعب وهم كانوا قد استولوا على أدوات الاعلام من صحافة واذاعة. وازاء ذلك تراجع ثروت عكاشة عن اقتراحه، وإن كان قد دافع عني بحماسة. وقد بلغت بهم الخسّة والنذالة إلى حد أن قالوا له ـ من بين ما قالوا: كيف تعيّن وكيلاً للوزارة مَن فرضت عليه الحراسة منذ أيام؟!

وطلب ثروت عكاشة منّي أن أقابله. وكنت قد علمت بتحرك هؤلاء الشيوعيين الأنذال، وما جرى بينه وبينهم من كلام واحتجاج وتهديد. فقلت في نفسي: «هذه فرصة جيدة كي أتخلص من هذا الاقتراح الذي لم تسترح اليه نفسي منذ اللحظة الأولى. لكنْ لأدعه هو يبدي من تلقاء نفسه قلقه ومخاوفه» ولقد كان. فلما دخلت عليه وجدته مهموماً، ثم أظهر قلقه ومخاوفه. فبادرت في الحال وقلت له: أنت تعلم انني لم أتحمّس لهذا الاقتراح لما ان عرضته عليَّ. ولهذا طلبت إليك ان تمهلني للتفكير في الأمر. وها انت تقول إنّه سيسبب لك متاعب، ما أغناك عنها وأغناني انا ايضاً عنها. وانا حريص كل الحرص على عدم ترك الجامعة. فلتعتبر الأمر كله كأن لم يكن». ثم نهضت مودعاً، وابدى هو أسفه، فقلت له: «بل أنا راضٍ تماماً عن هذا الذي انتهى اليه الاقتراح». وانصرفت وانا في غاية السرور لتخلصي من هذه الورطة المحتملة، ولأنَّه هو الذي بادر فخلّصني منها. وبذلك برئت نفسي من مظنة جحد مكرمة اداها لي.

وقد كان هؤلاء الشيوعيون، منذ ان اصار لهم السلطان في مصر عقب زيارة خروشوف في مايو سنة ١٩٦٤، متوثّبين دائماً للهجوم عليّ بشتى الطرق: مرة بدعوى أنّني ممن يكتبون في مجلة «حوار» التي تصدر في لبنان وكانت نظيرة مجلة Encounter الأمريكية، مع أنّي لم أكتب فيها غير مقالة واحدة في العدد الأول منها، وكانت مجلة أدبية فكرية خالصة، واشترك في الكتابة فيها عديد من الكتّاب المصريين حتى القرمزيين مثل لويس عوض، وسهيرالقلماوي، الخ.

ومرة أخرى بدعوى أنّني كنت أكبر المساهمين في احياء ذكرى الامام الغزالي والاحتفال بها: دمشق في مارس ـ ابريل سنة ١٩٦١، وهؤلاء الشيوعيون يعدون الغزالي زعيم «الرجعية» في الاسلام، وربما لم يقرأوا حرفاً واحداً مما كتب، لكن هكذا جاءتهم الأوامر من موسكو.

ومرة ثالثة بدعوى أنّني أروّج للمثالية الألمانية وفلسفة نيتشه، فالأولى تعادي «مادية» ماركس وانجلز، ونيتشه كان من ملهمي «النازية» عدوّة أمّهم الكبرى: روسيا.

ومرة رابعة بدعوى أنّني بالوجودية التي أؤمن بها وأسهم في تكوينها وترويجها في العالم العربي أناضل ضد الماركسية والشمولية، لأنَّ الوجودية تدعو إلى الحرية وتمجّد الفردية.

لهذا سلطّوا أقلامهم المسعورة، ومعظمها مع الأسف كانت أقلام تلاميذ لي في الجامعة ـ سلطوها للهجوم عليّ: في مجلة آخر ساعة حيث كان يترأس تحريرها محمود العالم، وفي جريدة «السادي» وغيرها من الوريقات الكالحة التي كانوا يكتبون فيها. وحتى الذين كنت أرعاهم وهم طلاب، ثم لما تخرّجوا، وتحملت في سبيلهم المتاعب، قد انساقوا في نفس التيار إمّا طمعاً في نوال الحظوة لدى الشيوعيين المسيطرين على أدوات الإعلام والنفوذ لدى الحكّام، وإمّا لاتقاء شرور هؤلاء؛ فكانوا إذن بين الطمع وبين التقية. وما أخسّ ما اختاروا من سلوك أهدروا فيه كل معاني الوفاء والاعتراف بالجميل والاقرار بالفضل، وصون الكرامة!

الدعوة للتدريس في السوربون

ووسط هذه الهموم كلها انبثق نور قادم من باريس. إذ دعتني كلية الآداب ومعهد الدراسات الاسلامية في جامعة باريس الى إلقاء محاضرات خلال الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧.

وكانت العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية قد عادت بين مصر وفرنسا بعد انقطاع استمر من نوفمبر سنة ١٩٥٦ حتى سنة ١٩٦٦ بسبب اشتراك فرنسا في

الحملة على مصر مع انجلترة واسرائيل في ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٦ وحتى ٤ نوفمبر - أولاً - ثم بعد عودة العلاقات الثقافية سنة ١٩٦١ بسبب ما زعم من نشاط تخريبي للمكتب الثقافي الفرنسي في اواخر سنة ١٩٦١ وأوائل سنة ١٩٦٢ - ثانياً - فلما حُلّت مشكلة الجزائر باتفاق اڤيان (الموقع في ١٨ مارس سنة ١٩٦٢) الخاص بوقف القتال بين الحكومة الفرنسية وبين جيش التحرير الجزائري، وما تلاه من اعلان استقلال الجزائر في ٣ يوليو سنة ١٩٦٢ - أعيدت العلاقات الاقتصادية والثقافية والسياسية تدريجياً بين مصر وفرنسا. وقام عبد الحكيم عامر بزيارة فرنسا توكيداً لاستئناف هذه العلاقات. وكان من بين بنود الاتفاق الثقافي بين مصر وفرنسا تبادل أساتذة الجامعات. وأخذت الجامعات المصرية الثلاث (القاهرة، عين شمس، الاسكندرية) ترشيح أساتذة ليقوموا بالقاء المحاضرات في فرنسا، تنفيذاً لهذا البند. فرشّحت ١٩ استاذاً. فلما عرضت أسماؤهم على الجامعات الفرنسية لاختيار مَن يصلح للقيام بهذه المهمة، رفضت جميع هذه الأسماء باستثناء أستاذ واحد، هو أنا؛ وقالت في رفضها إنَّها لا تعلم لأيّ واحد من هؤلاء قيمة علمية وطيدة، إلاَّ أنا. فوجّهت جامعة باريس، بترشيح من قسم الفلسفة في كلية الآداب (السوربون) ومن معهد الدراسات الإسلامية في جامعة باريس، الدعوة الرسمية إلى الحكومة المصرية لإيفادي إلى جامعة باريس لإلقاء محاضرات طوال الفصل الدراسي الثاني، أي ابتداء من مارس سنة ١٩٦٧، على طلاب الدراسات العليا (الدكتوراه) في قسم الفلسفة، وفي معهد الدراسات الاسلامية.

وكان اختياري انا وحدي من بين الأساتذة التسعة عشر ضربة موجعة أصابت رؤوس المتربعين على الكراسي في الجامعات الثلاث، أطاحت بأوهامهم ودسائسهم، وادعاءاتهم الكاذبة. كما ذُهل منها وزير التعليم العالي. فأرسل هذا إلى الملحق الثقافي في باريس يطلب منه الاتصال بالمسئولين عن هذا الترشيح في جامعة باريس كيما يعدلوا عنه. لكنهم أصرُّوا على ترشيحي انا وحدي، وإلاَّ فإنَّهم لا يريدون احداً. وذهب هذا الملحق الثقافي البائس يؤدّي ما أُمِرَ به، فردُّوه خاسئاً مدحوراً. وواعجبا لهذا الحقد الأزرق الذي ينهش النفوس في مصر!

ووجدت في هذه الدعوة وسيلة النجاة من هذا الكابوس الرهيب الذي كنت أعيش فيه في مصر، وعزمت على ان يكون سفري هو «الهجرة» بالنسبة لي.

وكانت هجرتي في يوم الأحد التاسع عشر من شهر فبراير سنة ١٩٦٧.

تمَّ الجزء الأول

سيرة حياتي 1

بالصدفة أتيت إلى هذا العالم ، وبالصدفة سأغادر هذا العالم !

وآية ذلك أنّه لو لم تتطاير ورقة وتتساقط على الأرض فينحني والدي لالتقاطها ، لكان قد ودّع الحياة في ذلك اليوم من شهر أكتوبر سنة ١٩١٣ ؛ فقد استأجر أحد خصومه قاتلاً جاء إلى حيث يجلس في بيت العمديّة في مساء ذلك اليوم ، ثمّ أطلق عدّة رصاصات في اتّجاهه ، وفي هذه اللحظة عينها تطايرت هذه الورقة الرسميّة ، الّتي كان يراجعها (وهي من أوراق المحكمة الشرعيّة) ، فانحنى لالتقاطها ، فلم يصب الرصاص إلاّ الطرف الأعلى من العمامة واستقرّ في باب كان خلفه . وصاح : الله حيّ ؟ وصمت صمتاً تاماً جعل القاتل يظنّ أنه أصاب من والدي مقتلاً . وأخذ يعدو إلى منزل من استأجره . لكنّ والدي نهض فوراً وعدا في إثره مدركاً بحدسه المرهف أنه لا بدّ في طريقه إلى بيت ذلك الخصم الشرّير الّذي كان يدعى جادو زرد . ونادى والدي على المارّة أن يهبّوا معه إلى منزل ذلك الرجل ، حتّى حاصروه . وفي أقلّ من نصف ساعة كانت القرية كلّها قد تجمّعت واقتحمت ذلك المنزل . ولّما لم تجد الجاني ، لأنه هرب إلى منزل مجاور مكشوف ، انقضّ عليه أحد الرجال وهو مختبئ في أحد أركانه ، وتمّ تكبيله بالحبال والقبض على من استأجره . وقام والدي بتبليغ الحادث بنفسه إلى مركز الشرطة ، فجاء رجال الشرطة من فارسكور ـ على مسافة ثمانية كيلومترات من شرباص ، وقام هؤلاء بالقبض على الجاني ومن استأجره ، وسيقوا إلى مركز الشرطة في فارسكور .

وكان ميلادي بعد ذلك بأربعين شهراً ، في الرابع من فبراير سنة ١٩١٧

ولو فتّشت تاريخ حياة أيّ إنسان لوجدت أنّ نوعاً من الصدفة هو الّذي تسبّب في ميلاده : صدفة في الزواج ؛ صدفة في الالتقاء بين الحيوان المنويّ في الرجل والبويضة في الأنثى ، إلخ.. إلخ. وواهم إذن من يظنّ أنّ ثمّ ترتيباً أو عناية أو غاية . إنّما هي أسباب عارضة يدفع بعضها بعضاً فتؤدّي إلى إيجاد من يوجد وإعدام من يعدم .

Bibliotheca Alexandrina
0515210

منشورات 2000
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١